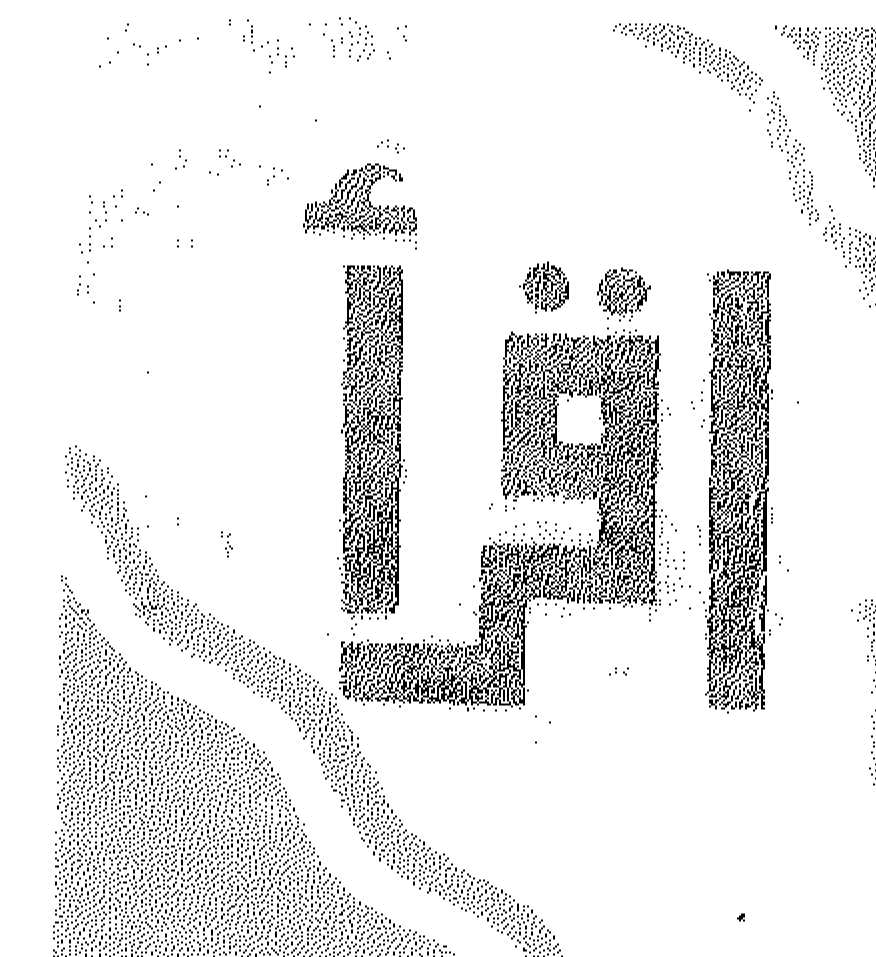
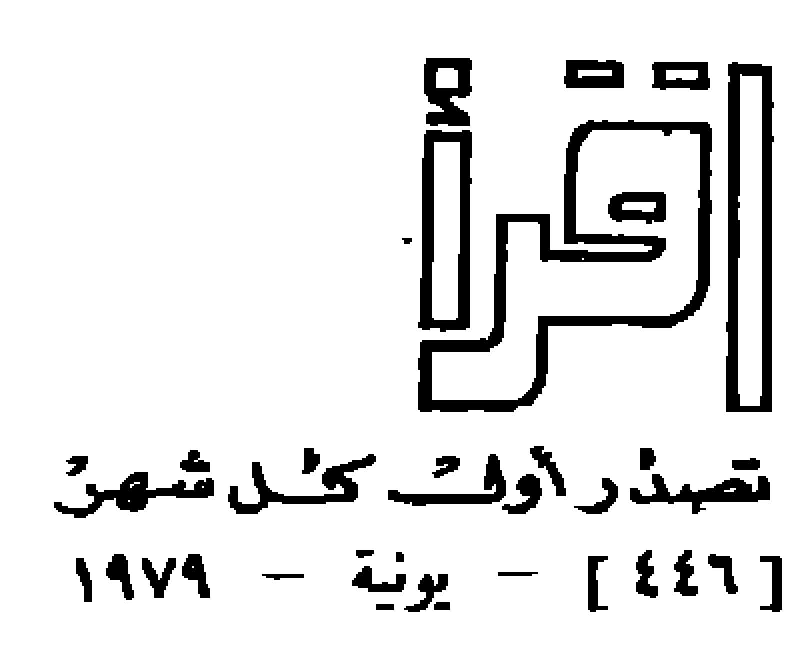




نهاد شريف

الماسات الزيتونية


اقرأ
تصدر أول كل شهر
[٤٤٦] - يونية - ١٩٧٩


أنيس منصور

نهـاد شـريف

الماسات الزيتونية

مجموعة من القصص العلمى



دار المعارف

تصميم الغلاف : جودة خليفة

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

فهرس

المقدمة

كيف يكون اللقاء المرتقب بين كائنين من كوكبين متباعدين ، وعنصرين مختلفين . . بين كائن بشرى أرضى وكائن من كوكب آخر قصى . . سواء تم اللقاء على سطح كوكبنا ، أو جرى على ترى واحد من آلاف ؛ وربما ملايين . الكواكب المتجمعة أو المتناثرة من حولنا ؟ !

هل يتصارع الكائنان ؟ . هل يتقاتلان ؟ . . هل يفنى أحدهما الآخر ؟ أو أن صلة خفية تجمع بينهما بالرغم من نأى كل منهما عن نظيره ، فيكفان عن الأذى أو الدفاع عن النفس ، ثم يتقاربان ، فيتصافحان فى النهاية ؟ !

وسؤال ثان ، ثاقب للرأس . . فبالرغم من عظم السطوة والجبروت ، هل ينجح العلم دواما فى حل ما يعترضه من عقبات ، أم يعلن عجزه فى أكثر من موقف قباله أسرار الكون وخفايا الوجود ومعمياته ؟ . أسرار الجسد الإنسانى على سبيل المثال . . فى حياته ، وبعد مماته . . من أين جاء ، وإلى أين يذهب أو تذهب روحه . . وكيف يكون التلاقى أو التراسل أو التفاهم بين الأحياء والأموات ؟ ! .

وأسئلة مثيرة وبالغة الحيوية تعترض العلم كذلك دون مواراة . . تصدمه لكنها لا تعظه . . ترى ما مدى بشاعة الصورة ، وما مقدار هولها ، حين تقوم حرب نووية عالمية ثالثة ؟ ! . وكيف هى الحياة البشرية فى أعقابها ؟ .

وما مبلغ قسوة الحياة فى ظل قدوم عصر جليدى ، أو ماذا تكون حدود تغير طبيعة الحياة أيام ذاك . . بل أساسا ، أهو قادم بالفعل ؟ .

ثم إذا كنا نحن قد عجزنا للآن بالرغم من تقدم العلم – عن اكتشاف حياة زاقية ، مماثلة أو مختلفة ، فى أنحاء الكون ، فهل هذا هو حال غيرنا فى أية كواكب أخرى أو أنهم يراقبوننا منذ أزمنة بعيدة ، ويحصون علينا حماقاتنا ومظاهر عقوقنا لحكمة وجودنا ؟ .

عديد من الأفكار والرؤى الغامضة يطرحها العلماء خلال أبحاثهم الطويلة المضنية ، دون أن يجدوا لها تفسيرا منطقيا قاطعا . . وهنا تبرز مهمة الكاتب . وهى برغم مشاقها واتساع – بل اختلاط عناصرها – مهمة معقدة ، بالغة التشعب والتفرع ، تغذيها نوعية من الخيال غير المألوف . . يعتصر صاحبه ، ويرهقه ، ويستل الراحة والاستقرار من فكره ومشاعره . . فإن استثارة الخيال عند لفيف من الناس مرض ، عذاب لا يقوون على الفكاك من أسره إلا بالتعبير عنه ومجاراته . . .

فإلى من صحبتنى خلال محنتى الكبرى ، مع عذابات عقلى وقهره اللاإرادى ، حين يلح عليه ويلهبه خيال متسلط جامح . . إلى من تحملت – دون أدنى تذمر – شطط الغريب من الرؤى ، المبهم والشاذ واللامعقول أو اللامقبول من التصورات والأحلام ، فكانت عبر محنتى الأمان والضمان . .

إلى رفيقة رحلة قلمى . . رحلة عمرى . .

إلى زوجتى . . أهدى كتابى . .

نهاد

الناقوس الصدئ !

راحت الأضواء السحرية ، المتوارية بداخل الجدران ، تخفت شيئا فشيئاً ، لتتحول ألوانها إلى الأزرق الباهت ، بطول القاعة المتسعة والواطئة السقف . . وقد ران صمت مثير ، ملؤه الترقب المشوب بالسكينة والرضاء . .

« مرحبا بكم فى أول لقاءاتكم معنا » !

وزاد تسلل الكلمات الحانية عبر عشرات الميكروفونات فى حجم حبات الأرز ، إلى عشرات العقول المتحفزة فى كامل وعيها . . « إنها جولتكم المبدئية أيها السادة ، لنشاهد معاً آخـر إنجازات العلم فى رحاب الفضاء » .

وتباطأت الكلمات قليلا لتشحن بالثقة . . « ولنأخذ أهبتنا بلا أدنى انزعاج . . لنبدأ الانطلاق إلى واحد من أقرب جيراننا فى المجموعة الشمسية » . .

بدون صوت ، ولا حركة ظاهرة ، راح السقف الواطئ يذوب مختفيا ، لتبرز

بدلا منه قبة السماء وقد بدت حالكة الظلام ، بالرغم من لمعان مصابيحها المتناثرة لا نهائيا . . على أن القاعة سرعان ما تحولت بالأجساد المائتين التى تضمهم ، مستلقين فى شبه اغفاءة – إلى قذيفة ضخمة ، اندفعت تخترق أستار الفضاء . فى إصرار غريب . . صوب جرم غامض ملبد بالغيوم السوداء . .

« أيها السادة . . ولما كنا نتحرك عبر الفضاء بسرعة تبلغ ثمانية ملايين ميل فى الدقيقة ، وتقارب سرعة الضوء البالغة أحد عشر مليونا من الأميال فى الدقيقة . . فإننا قد قطعنا توا المسافة بين كوكب الأرض وكوكب الزهرة ، وقدرها ٢٦ مليون ميل ، خلال الدقائق الأربع والنصف السالف مرورها » .

من خلال طيات الغيوم الكثيفة والثقيلة القوام ، أخذ المنظر يتداعى ، وجرم الكوكب ينمو قربا وبروزا ، حتى أوشكت معالم سطحه الشديد الوعورة ، على الإتضاح . . وبغتة ، تكشفت الغيوم عن بساط قاتم الاخضرار ، يمتد بعمق الأفق كثيفا موحشا . . ومع ازدياد الاقتراب من السطح القاسى المتشابك الأشجار – وقد قلّت حدّة الاندفاع الساحق ، فقاربت الهبوط الوئيد – بدأ يتضح ما يشبه واديا قليل الغور . . يجثم على أحد جانبيه جسم لامع يكوّن بعض الملامح الهندسية . .

« إننا نهبط الآن ، أيها السادة ، على ثرى الزهرة . . إننا نتوجه رأساً إلى المحطة رقم ١٣ ، التى قام بتشييدها على ضفة وادى الرخام ، رواد من بلدان مختلفة ، تحت علم الأمم المتحدة » . .

ظهر الوادى مستطيلا يشق الأرض الصخرية المكسوة بنوع غير معروف من الأشجار العملاقة . . وزاد وضوح أبنية المحطة . فإذا هى ذات قباب مستديرة . تشغل رقعة لا تقل مساحتها عن ميلين مربعين . . فى حين غلّفت الجو – فوق الأشجار والوادى والمحطة رقم ١٣ – غلالة رقيقة تتباين ألوانها بين الرمادى

والبنفسجى ثم القرمزى ، كاشفة عن مكوّناتها من غازات ثانى أكسيد الكربون . .

« إن المحطة الفضائية التى نوشك على بلوغها ، مقامة فى هذه البقعة القصية من قطب كوكب الزهرة الجنوبى . . فالحرارة هنا تتراوح بين ٢٥ و ٤٥ درجة مئوية . . وإن قطبى الزهرة أكثر ملاءمة للإنسان الوافد – بدرجات حرارتها – عن غيرهما من المناطق الأخرى بأنحاء الكوكب ، وخاصة لدى خط استوائه ، حيث تصل الحرارة إلى ٣٥٠ درجة مئوية أو يزيد » . .

استمرت الكلمات تترى – عبر حبات الأرز إلى الآذان – تصف كل كبيرة وصغيرة من أسرار الكوكب ، الذى لم يكن يعرف عنه ، حتى بداية القرن العشرين ، إلا وصف مرآه اللامع لدى أول ظهوره فى حافة السماء غربا . كلما حلّ الليل الأرضى . . .

* * *

ومرت ساعة زمنية حافلة . .

وأضيئت الأنوار . . فإذا كل رحلتنا السابقة مجرد عرض سينمائى مجسّد لآخر انطلاقات البشر إلى جار الأرض الأسطورى . . كوكب الزهرة . . ومع سطوع الضوء المتسرب من خلال الجدران – قويا هذه المرة – اتضحت معالم القاعة عن ذى قبل ، فإذا هى أكثر ضخامة واتساعا مما يُظَنّ . . تمتد فى الاستطالة نحو خمسة عشر مترا ، وفى العرض عشرة أمتار . . بينما حوت مائتى مقعد ، صنعت من لَدِين بالغ النعومة ، تماثل المقاعد الوثيرة بالطائرات النفاثة ، تراصت متجاورة فى نظام بديع وأناقة كاملة . . وقد شغلت كلها بصبية من الجنسين ، دون العاشرة من أعمارهم ، استلقوا عليها فيما يقارب النعاس الظاهرى ، وإن نبضت الخلايا العقلية فى رأس كل منهم بالطاقة القصوى من التركيز والانتباه . .

وفى مواجهة المقاعد ، كانت هناك بأقصى اليسار منضدة انسيابية من « الفورمايكا » . ذات ساق واحدة مثمّنة ، تكتظ بعشرات « اللمبات » والمؤشرات والمفاتيح والمحولات المتباينة الأحجام . . وقبالة المنضدة جلس رجل عادى الملامح ، تستغرقه الشبكة الإلكترونية المعقدة . والتى عن طريقها يباشر التحكم فى كافة ما يدور بالقاعة . .

كذلك بدت بقعة واطئة فى أرضية القاعة . على يمين الجالس إلى المنضدة ، امتدت بطول ستة أمتار وعرض متر . حتى قاربت أقصى اليمين . . هذه البقعة الواطئة كانت تسفر . بين الحين والحين . عن فجوة تصعد من أعماقها نماذج الدّرس وأدوات التجارب المختلفة والخرائط المضيئة والعِدَد المتطورة . التى تتفق مع ما يتسلل من كلمات إلى آذان الصبية المستقلين فى تمام يقظتهم الذهنية . . وأما جدار القاعة الممتد أمام وجوه شاغليها ، فقد بدا بلوريا مَحدَّبا ، وكأنه عدسة «فنار» توقفت عن الدوران حول محورها . ويمثل أحدث تطور فى « شاشات » العرض السينمائى المجسَّم . .

وكان لون جدار القاعة وسقفها ولون المقاعد والمنضدة . وحتى الأرضية وما يكسوها من أبسطة طولية صنعت من الفلين الصناعى الماص للصوت . . كانت جميعها بيضاء . يشوب بياضها زرقة خفيفة هادئة . .

شىء واحد بسيط ، لم تكن تلحظه العين غالبا . . ذلك الناقوس الصغير : المتروك عن عمد فوق واحد من أرفف ثلاثة . شغلت جميعها بأصص زجاجية بها نباتات مهجّنة سبق زراعتها فى تربة القمر . . وكبقية النواقيس المعروفة كانت مادته النحاس وإن غلب على لونه المصفر اخضرار الصدأ وقتامته . . كذلك ظهرت على الجانب الأيسر . فيما يقابل الرف وعليه الناقوس . مجموعة من « اللمبات »

الكمثرية المتماثلة . بلغ عددها ثلاثين « لمبة » مختلفة الألوان . .

وراحت لمبة بنفسجية تضيء وتنطفئ . في حركة متتابعة موقوتة . . وعلى قمتها اتضح الرقم ١٨ . .

وفي سكون انفرجت البقعة الواطئة . بأرضية القاعة ، عن رجل أخذ جسده يصعد حثيثا . . حتى استقرت قدماه في النهاية إلى حوار الآخر الجالس إلى المنضدة ! . .

بدا الرجل متوسط القامة . نحيفا : أسمر البشرة ، ويزين الشعر الأشيب معظم رأسه وسوالفه . . وفي أغوار عينيه كانت تلمع ومضات ذكاء وجرأة نفاذة وتسلط . . وكانت ملابسه غاية في البساطة والأناقة معا . . وبنظرة سريعة خبيرة تفحص الرجل شاغلي القاعة ، ثم مدّ يده والتقط ميكروفونا في حجم نصف القلم الرصاص ، وسار وهو ممسك به بضع خطوات مبتعدا عن المنضدة . . وحين توقف وواجه الصبية ، كان قد رسم على شفتيه ابتسامة ودود . . وقال :

– أهلا بكم . . أهلا بقدومكم إلى « نادي المفكر الصغير » . . إنني « صبري عبد الرحيم » أتحدث إليكم بوصفي المشرف الفني على النادي . . وهذه باكورة محاضراتي إليكم ، أفتتحها بكلمة موجزة عن أهم إنجازات العلم في المجال السلمي ، خلال السنوات العشرين الماضية . . تلك التي انقضت منذ مولد أول ناد للعلوم بعاصمتنا . . . ولعلكم تذكرون قصة الأندية العلمية بمصر ، ومراحل تطورها وانتشارها حتى وصل عددها في عامنا الحالي ١٩٩٠ إلى قرابة الألف نادٍ ، يعتبر نادينا من أكبرها وأكثرها تفوقا في حداثة معداته . .

زمّ الرجل شفتيه ، ورفع رأسه المكلل بالبياض ، في حركة متكبرة متحدية يملؤها الاعتداد بالنفس . .

– أيها الزملاء الصغار . . إن بروز فكرة النوادى العلمية . وانتشارها فى أرجاء العالم . كان فى حد ذاته من أبرز سمات السبعينات ، ثم الثمانينات الماضية فالنوادى بهذه الصورة ، هى بلا ريب الملجأ الأمين لحماس الصغار واهتماماتهم المتزايدة بالعلم وتطبيقاته . . على أنها بالطبع لم تكن الميزة الوحيدة لطابع تلك السنوات المشحونة المثيرة . التى نتحدث عنها ، وإنما كانت هناك إنجازات علمية متعددة . تحققت فى مجالات شتى . . إنجازات بالغة العظم والسمو . دفعت بالبشرية دفعات مهولة نحو التفوّق التكنولوجى . المجهولة حدوده . . والمجهولة آثاره وأبعاده . . !

انساب صوت الرجل جهوريا ، برغم خفوته . إلى آذان الصبية . يوجز لهم ما تحقق على أيدى العلماء فوق ظهر كوكب الأرض . إبان الأعوام من ١٩٧٠ إلى ١٩٩٠ . . فكلمهم عن بدء السيطرة على مشكلة النمو السكانى الرهيب . على الرغم من بلوغ تعداد البشر ٦ مليارات نسمة ، وذلك عن طريق ماتوصل إليه العلم من مصادر الغذاء المستحدثة . باستخدام البروتينات الصناعية ودقيق الفطر والبكتريا . والزراعات البحرية وأهمها الطحالب ، كطعام . . فضلا عن تطبيق قانون تحديد النسل الإجبارى عالميا . .

ثم أفاض فى حديثه طويلا عن الطاقات المجربة مؤخّرا ، إلى جانب الطاقة الذرية . . ومنها طاقة الشمس – بتغطية سطح القمر بالخلايا الضوئية من أشباه الموصلات – وطاقة « الليزر » وطاقة الذبذبات الصوتية عالية التردد . . وكيف أمدتنا الطاقات الجديدة بقوى ديناميكية جبارة . أمكن بوساطتها التوغّل بعيدا فى رحاب الفضاء . وبذلك تم ارتياد الكواكب : عطارد ، والزهرة ، والمريخ ، والمشترى . وما يدور حولها من أقمار . . واستخدام ما بها من طاقات . . وأمكن التنبؤ بصحة الطقس تفصيليا بنسبة ٩٩٪ ، كما تيسرت زراعة الصحارى القاحلة ،

والمناطق القطبية القصية ، وزراعة قاع البحر وسفوح الجبال البركانية . . وتمت إدارة الآلات المتطورة المعقدة . .

وفى مجال الإلكترونات ، حدثهم الرجل عن العقول الإلكترونية المفكرة ، ونظام التصور الذهنى فيزيقيا . .

وعن تطبيق الأوتوماتيكية فى الصناعة والزراعة ونظم الاتصالات . وعن انتشار الإنسان الآلى . . كذلك شرح لهم طريقة سير القطارات السريعة عبر الأنابيب الممتدة بباطن الأرض بين القارات ، وتحت الأنهار والممرات المائية ، بواسطة اندفاعها بضغط الهواء الجوى . .

على أن اهتمام الرجل بدا واضحا ، حينما تناول انجازات الطب الحديث ، وأولها إمكانية زراعة كافة أعضاء الجسد الإنسانى بعد التغلب نهائيا على مشكلة طردها . . وما أعقب ذلك من انتشار بنوك قطع الغيار البشرية ، والاكتفاء بدفن الموتى المشوهة جثثهم فحسب . . ثم ما تم التوصل إليه من عقاقير تغير الشخصية ، وأخرى تصحح الأخطاء الوراثية ، وثالثة تتحكم فى الذكاء الإنسانى . . ثم أيضا النجاح الكبير فى القضاء على غالبية الأمراض المستعصية ، كالسرطان والأنفلونزا ، بعد عزل الفيروسات المسببة لها ، وأمراض الدورة الدموية بعد كشف أدق خباياها . . وإن عجز الطب لِلآن ، إزاء مرض العصر – التوتر والقلق – وعدد من الأمراض الشاذة التى سببتها ميكروبات وافدة من الكواكب المجاورة . . وكانت نهاية الحديث همسات الرجل المليئة بالفخر عن التعليم . . أوضح المجالات التى حقق العلم خلالها أقوى انتصاراته ، فقد تم اختصار مراحل الدراسة إلى ثمانى سنوات فحسب ، تمتد من السادسة إلى الرابعة عشرة من عمر الدارس ، بعد إمكانية بث المعلومات المركزة خلال النوم . . وبذا تضاءلت الأمية

إلى ٥,٠ ٪ فى العالم كله . . وفى نفس الوقت ، اتخذت الخطوات الفعلية والحاسمة ، فى سبيل نشر لغة عالمية تتكلمها شعوب الدنيا قاطبة . .

على أن الختام الكلاسيكى للمحاضرة ، كان ما ذكره الرجل عن مناداة بعض العلماء مؤخرا بتحقق الاتصال مع أرواح الموتى ، الأمر الذى أوجد نوعا من الراحة الذهنية حيال فكرة الموت ، فلم يعد الموت لدى غالبية الناس ذلك الكابوس الذى يتوقعه الكل نهاية محتومة للوجود . . وإنما هو مجرد انتقالة من حياة جسدية ملموسة ، إلى أخرى أثيرية قد تتميز بتحررها من قيود الجسد وأعباء المعيشة الدنيوية المضنية .

– والآن . .هل لدى أى منكم سؤال يسأله !

تسابقت من حوله الاستفسارات . تأتى متكاسلة من أفواه الصبية . تحملها الأسلاك إلى عقله ، فيجيب عنها إجابات حاسمة . .

وسألته بغتة صبية متوردة البشرة ، فى لون التفاح الناضج :

– الناقوس . . فيم استخدامه ؟

دهش الرجل من سؤالها فرفع حاجبه متحيرا : « أى ناقوس ؟ »

– هذا الصدئ . . الموضوع على الرف . .

ابتسم الرجل : آه ، ناقوس فتحى ! . . إن له قصة . .

تسابقت الزفرات : « نريد أن نعرفها . . »

حركت الذكرى أشجانه . فأطلق آهه عميقة انتزعها من أعماق صدره . وعقد ذراعيه خلف ظهره ، تطويه عاطفة مشبوبة . .

– إنه مهدَى من صديق . كانت تربطنى به صلات ود وتفاهم . .قلّما كنت أراه لكثرة مشاغلى . ولكن على قصر اللقاء ونأيه . كنت أشجع فيه إيمانه الراسخ

بما للعلم والدراسات العلمية من آثار جذرية على حياتنا . .

وصمت الرجل قليلا . . وأغلق عينيه تماما يستجمع أياما عزيزة عليه . .

– ثم . . لقد كان أديبا كذلك . . فكتب القصة العلمية القصيرة . والرواية العلمية الطويلة ، وكان عمله الأدبي العلمي يستغرقه بوقدة من الإخلاص المتناهي . . يبحث عن المعلومات وينهث في بحثه عنها . ويفتش عن الأحداث ليغرق في دوّامتها . . .

وبدا على وجه الرجل ضيق مباغت يعذبه . ثم انفرجت شفتاه عن كلمات مرّة : « لكن صحته لم تكن تساعده . . كان يعاني من مرض مزمن بكليتيه . . وهكذا رأيته يهل عليّ كعادته دون انتظار ، في أمسية يوم من أواخر عام ١٩٧٥ . وقد احتضن صندوقا ورقيا وكراسة للمحاضرات . . وبرغم الضحكات التي ملأ بها وجهه المحمرّ العريض ، وبرغم صوته العالي المرح . وحركات بدنه وذراعيه المتلاحقة التي لا تكل ، فقد أحسست بذعر يخنقه . . ! » .

تحشرج صوته ، وزادت قبضته على الميكروفون الدقيق ، تكاد أصابعه تسحق معدنه اللامع . . لكنه تابع حديثه .

– وفي كلمات مقتضبة ، علمت أن الأطباء أخبروه بأن أيامه معدودات . . لذا فقد قصدني في زيارة قد تكون أخيرة . . وهو لم يأت لوداعي ، وإنما – حسب قوله – جاء يعدّ للقاء بيننا من نوع مغاير ، مبتكر . . لقائي مع روحه . . وفي بساطة شديدة واقتناع لا يقبل الجدل ، وضع الصندوق الورقي بين يدي ، وهو يؤكد أن ما بداخله سوف يكون وسيلة اللقاء المرتقب بينه وبيني . . ولا زلت حتى هذه اللحظة ألمح نظرات فتحي الهادئة الواثقة ، وهو يخرج الناقوس من صندوقه ، ليقدمه إلي ، وكلماته البطيئة ترن في أذني . «سوف ألقاك ، فلابد من اتصال يتم

بيننا بطريقة ما . فقد تعودت عليك . . فقد انتظر مجيئى بجوار الناقوس أينما وضعته . فى ساعة تخلو فيها إليه . وأما الشفرة الخاصة بنقرات الناقوس . . نقراتى . ووسيلة التخاطب بيننا ، فسوف تجد حل رموزها بين دفتى الكراسة . وإنى أرى فى اتفاقنا أمرا مبتكرا وجديدا كل الجدة . فكافة اللقاءات المعروفة بين الأحياء والأموات . إنما تتم باستدعاء الروح عن طريق الوسيط . ولم نسمع أبدا أن روحا معينة قد أتت طواعية حسب موعد محدد . كما سأفعل أنا » . . وحين أنهى كلامه ألقى بالكراسة إلى جوار الناقوس . ثم شدّ على يدى طويلا . . وتركنى وانصرف . . !

بلع الرجل ريقه . وهو يضيف فى حرارة : « وكدت يومها أسخر من سلوكه الغريب . . فأولاً . كان عهدى به دواما الجدية فى التفكير والرصانة فى التصرفات . . وثانيا ، فإنى أعتبر نفسى من المتشككين البعيدين عن تفهم النظريات الروحانية . فأنا رجل علم ولا وقت لدى لغيره . . ثم أيضا ، كان محياه يومذاك نضرا يفيض صحة وحيوية . . على أننى أصبت بالوجوم والحيرة ، حين سمعت بوفاته عقب ذلك بأربعة أيام . . »

تساءل أحد الصبية فى لهفة : « وهل تم . . لقاؤك مع روحه فيما بعد ؟ »

— لم يحدث . .

تمتم أكثر من صبى وصبية : « ألم يدق الناقوس أبدا ؟ »

قال الرجل : لقد وضعت الناقوس فى البداية على حافة مكتبى قرابة الشهرين ، ثم ولا أدرى المناسبة ، وجدتنى أنقله بعدئذ إلى مكانه الحالى على هذا الرف . . وطبعا لم أسمع رنين الناقوس . . بل ما كنت أتوقع سماعه قط . . !

- علام احتفاظك به إذن ؟

- لعلها الذكرى . .

أعقب قول الرجل مناقشة قصيرة حول الناقوس وصاحبه . سرعان ما توقفت بانتهاء الوقت المحدد للمحاضرة نفسها . . ولما كانت محاضرة المشرف الفنى على نادى « المفكر الصغير » هى ختام فقرات البرنامج لذلك اليوم . فقد تململ الحضور من الصبية من الجنسين ، وتثاءب كل منهم بضع مرات قبل أن يبادروا بالوقوف ونزع حبات الأرز عن آذانهم . . وفى النهاية ، استدار الواحد منهم وراء الآخر ، يأخذ طريق الانصراف فى تتابع ورتابة ، وقد انضم فى أعقابهم رجل المنضدة . . ومن خلال الباب العريض الذى انفرج عنه الجدار الأيسر لدى منتصفه . راح الجميع يتوارون . .

إلا أن صبية شقراء ، ناهدة الصدر . فى تكوين رياضى يتناسق مع خطوط جسدها الانسيابية الناعمة ، تلكأت . . اقتربت من الرجل ، وحدقت فى وجهه بعينين تسودهما زرقة البحر ، وهمست :

- أرى يا أستاذ أن تعلق الناقوس من أعلاه ، بحيث يصبح مطلق السراح . .

وحين خلت القاعة من الجميع ، وخيم الصمت المطبق على أرجائها الخاوية ، ظلت كلمات الصبية الشقراء تملأ سمعه فى إلحاح عجيب . . أجل . قد تكون فكرتها صائبة . . قد تكون نوعا من الإلهام غاب عنه قبلا . وإن تصوره - على الأرجح - هراء . . وحسما للأمر . فليجرب . . !

توجه الرجل إلى حيث كان الناقوس . . تناوله من مكانه فوق الرف . وربط أعلاه بطرف منديله ، وربط الطرف المقابل للمنديل بحافة الرف . . وأصبح الناقوس معلقا فى الهواء . . حرا طليقا . سهل الحركة . .

ببطء – فى المبدأ – تأرجح الناقوس الهوينى ، يمنة ويسارا ، فى شىء من الثقل والتردد . على أن حركته تزايدت . . اكتسبت قوة أكثر . وعجلة ، وإصرار على التمايل بعنف . . وبغتة . انطلقت دقات الناقوس تتسابق مجلجلة . مدوية بين جنبات القاعة . .

وخيل إليه أنها نغمات مألوفة . . فارتجف قلبه . . اعتصره الحنين والشوق !

وبذل الرجل جهدا مضنيا ليتشل نفسه من وهدة الذهول الذى حط عليه . .

ويسارع بإحضار كراسة المحاضرات ، وقلم . وورقة بيضاء . .

جولة المساء

حوّم الطبق الطائر برهة يسيرة ، ثم راح يهبط وئيدا ، وسط زئير العاصفة الثلجية ، وقرصه الخارجى يدور فى لفات حانية متلألئة ، دونما صوت . .

خلال دقيقة كان قد دنا برفق من الصفحة البيضاء الملساء ، ليحط عليها بالقوائم الأربع التى برزت من أسفله . . ومن أسفله أيضا ، انفتحت كوّة وامتد سلم . . وعلى السلم هبط رجل ، ثم رجل ثان . . ومن خلفهما هبطت امرأة . .

كان الثلاثة فارعين ، لا يقل طول الواحد منهم عن المترين . . وكانوا يتدثرون بملابس صوفية ثقيلة مع قلنسوات ومعاطف وأحذية بطّنت بفراء ألياف الزجاج . معطف المرأة وقلنسوتها فى لون الخوخ ، ومعطفا الرجلين وقلنسوتاهما يغلب عليهما اللون الأخضر الزيتى . . أما الأحذية فكانت سنجابية . .

واستقلت الثلاث الهبات عنيفة من الثلج المتساقط . . وكادت المرأة أن

تنكفئ ، لولا الذراع القوية التي مدها أحد الرجلين . .

لم يكن هناك أثر في السماء لقرص الشمس . ولم يكن ثمة أثر لطير فوق هامات الأشجار المعرّاة ، وقد ناءت بحملها البارد الثقيل . . بضع أطباق تحلق في تتابع شرقا ، وصاروخ ذو ست مراحل يعبر الأفق جنوبا . . ولا شيء فيما عدا ذلك سوى الضباب يختلط بالظلام ، بين الأرض والسماء . . ووسط الضباب كمنت أشباح الأبنية المختفية قممها . . ناطحات سحاب . ومسلات . وأقواس نصر . وأبراج كهرباء . . وفي جوف القوام نصف الشفاف ، توارت جوامع تلاشت مآذنها ، وكنائس تآكلت أبراج أجراسها . .

إلى أحشاء العتمة المختلطة ضبابا على ظلام . اندفع الرجلان وفي أعقابهما المرأة . . حين وصلوا البناية الواطئة دلفوا إلى داخلها ، وهبطوا سلما كهربائيا متحركا . . وعند محطة قذيفة الأنبوب الصاروخية ، تصافحوا وافترقوا على موعد للقاء في صباح الغد . . فاستقل أحد الرجلين . والمرأة معه . القذيفة المتجهة في الأنبوب يمينا . . واستقل الرجل الآخر القذيفة الذاهبة في الأنبوب في الاتجاه العكسي يسارا . .

« انشفطت » القذيفة التي يستقلها الرجل والمرأة ، أو انطلقت بدفع صواريخها العكسية ، داخل الأنبوب ، وقد استلقى صاحبانا ، كل على كرسيه الوثير ، إح في شبه إغفاءة . .

– ميدان التحرير . .

أفاق الرجل ، فأيقظ المرأة . . وفي عجلة هبطا ليستقلا سلما كهربائيا صاعدا ، يخرجان منه إلى العراء ، حيث الضباب والظلمة من جديد . . ربما أقل كثافة . . وقابلتهما هذه المرة جدران سمراء ، تحمل لوحة مستديرة من لدين مضيء . .

« مبنى التليفزيون . . . »

كان الرجل ممسكا بيد المرأة . . وقبل أن تستوعب عيناه بقية كلمات اللوحة ، وإن استوعبها عقله عشرات المرات قبلا ، كان قد مرق معها خلال الباب البلورى الضخم ، ليلقيا بجسديهما على واحد من المقاعد المزدوجة ، المتحركة على سير جلدى مشدود . .

قادهما المقعد عبر ممر طويل ، مكيف بأشعة الشمس الصناعية . . وما لبثا أن قفزا من المقعد إلى قلب « الأستديو » ، الذى ترتفع الحرارة بداخله ٣٠ درجة عما هى عليه بالخارج . . خلعا معطفيهما . . علقاهما . .

تحت تقويم إلكترونى يحمل الأرقام « ٥ - ١ - ٣٩٧٢ » ، جلس الرجل والمرأة متقابلين . . كل منهما احتواه مقعد آخر ذو مسندين وحاجز لين خلف القفا ، صنعت كلها من وسائد الهواء المضغوط . . الساعة الفسفورية تشير للخامسة مساء . .

اللحن المميز يبدأ بافتتاحية صاخبة . .

« سيداتى سادتى . . عبد الرءوف صبرى ، يتحدث إليكم من تليفزيون جمهورية مصر العربية ، من القاهرة . . سيداتى سادتى . . أهلا بكم ومرحبا . فى برنامج : جولة المساء » . .

موسيقى مرحة . .

« نبدأ جولتنا هذه الليلة مع الدكتورة عنايات محمد . خبيرة الأرصاد الجوية الشهيرة . . »

موسيقى مرحة . .

« البرنامج يحييك يا دكتورة ، ويسألك عن آخر أبحاثك وتنبؤاتك » .

وفى صوت ناعس رخيم ، يتنافى مع مظهرها الجاد ، قالت : « إننى مازلت عند رأيى الذى أعلنته منذ أسبوع ، بأن البشرية تجتاز الآن الأعوام الأواخر للعصر الجليدى الخامس . . أجل ، نحن على أعتاب فترة دافئة طويلة ، تلوح بشائرها فى الأفق . . ولعل أبرز ما يؤيد كلامى ، ما شاهدناه اليوم من طبقنا الطائر ، ونحن نحلق به فى سماء العاصمة غربا . . ثلاث هامات ضاوية شامخة رأيناها بوضوح ، وقد ذاب الجليد من على قممها . . إنها أهرام الجيزة الثلاثة التى تتحدى الأزل . .

« أما أجزاء أوربا ، وأمريكا الشمالية ، وشمال ووسط آسيا ، التى تكسوها طبقات الجليد وركامه فقد جاءتنا وكالات الأنباء مؤخرا بالكثير من الدلائل على قرب انحسار الجليد عنها . . إذ شوهدت بعض نباتات المناطق المدارية تتكاثر على ثراها . . كما . . » .

واستمر صوت المذيع وصوت الدكتورة ينسكبان عبر موجات البث التليفزيونى ، إلى ملايين أجهزة الاستقبال ، بملايين الدور والأبنية . . فى حين شدت أعصاب المشاهدين وأرهفت ، تدغدغها خيالات وردية تتصاعد من حولها أبخرة لافحة . . خيالات تدور حول انحسار الجليد رويدا رويدا ، وعودة الدفء والشمس الساطعة . . بعد عدد أصبح يسيرا من الأعوام . . رقم واحد وعلى يمينه ثلاثة أصفار . . !

الماسات الزيتونية

– ادخل . . إنه محلك . . تفضل !

ظل التردد يشمله . . ثم قال : « خشيت أن . . أوقظك . . »

وقف العجوز يلوح للقادم . وقد عمه نشاط مفاجئ كان يفتقده منذ لحظات :

– لا أبدا . . إنها حرارة الجو . دفعتني للإغفاء دقائق يسيرة . .

ولما لاحظ العجوز أن الرجل لم يغيّر من وقفته لدى الباب . ترك مقعده وهرول يجذب قامته الفارعة . برفق . . فانقاد له حتى أجلسه على واحد من كراسي الخيزران التي بدون مسند . .

واستطرد العجوز . وهو يعود لمجلسه خلف المنضدة : « من منا لا يتأثر بمثل حرارة اليوم ؟ . لقد فاقت ٤٠ درجة . وربما قالت الأرصاد غدا ٤٢ درجة . . »

لكن الغريب ذا الأربعين ربيعا .. وقد أحنى منكبيه العريضين . وشبك أصابعة على حجره . ظل على صمته وجموده . .

– . . فماذا يفعل عجوز مثلى . حين تطبق عليه كل هذه الحرارة ؟ .

ولم ينبس الرجل الفارع بحرف كذلك . .

– آه ، والآن طلباتك ياسيد . . ما الذى ترغب فى شرائه . . أسورة ذهبية بالفصوص ، أو أيقونة تتدلى من سلسلة ، أو قرط دقيق منمق ؟ . أم تراك تهدف إلى اختيار مايناسبك أنت شخصياً . . لدى طلبك تماماً . . خاتم ذهبي ذو نقش نادر . .

قاطعة الرجل فى نبرة حاسمة : «لا أريد شراء شيء» .

رمقه العجوز بنظرة فاحصة : إذن فالسيد . . أتى بغية إصلاح حلية ما . . ؟

– ولا هذا . . !

تدلى فك العجوز . واتسعت حدقتاه وقد أغرقته حيرة تمتزج بنفاد الصبر .

– فهل لدى السيد قطعة من ذهب يعرض بيعها . . إسورة . . أو خاتم على سبيل المثال ؟

بدا أن العجوز أصاب الهدف هذه المرة . فقد عاد القلق يغزو نظرات الرجل الشاردة . . كان جامدا صلبا لا يطرف له جفن . إلا أن احمرار مقلتيه ومحجرهما . والاختلاجة التى اعترت ركن فمه . بل الطريقة المنفعلة التى شبك بها أصابع يديه حتى هربت منها الدماء . . دلت هذه كلها على أنه يرزح تحت جبل من التردد . يجاهد للفكاك من قيده فى استماتة . .

– ليس لدى ذهب . . !

قالها الغريب الفارع بجفاء . وفى تجهم . وقد صمم على المضى قدما مهما كانت النتائج مدّ يداً رفيعة الأصابع إلى جيب سترته الداخلى ، وأخرجها وقد قبضت على

كيس جلدى منتفخ . . وبعصبية فتح الكيس . وقربه من سطح المنضدة المغطى بورقة عريضة بيضاء . . ثم قلب فوهة الكيس إلى أسفل . فتدحرجت منه أربع حصوات براقات . .

زمجر : « لدى . . هذه . . ! »

حوّل العجوز بصره . . رأى الحصوات تستقر قبالته . على السطح الورق الأبيض . وقد لمعت سطوحها المثَمَّنة من خلال ما يشبه الزجاج المصنفر . وأومضت ببريق أخضر زيتونى . بالغ حد الجمال والروعة . .

كانت ثلاث منها فى حجم حبات الزيتون المتوسطة . أما الرابعة فكانت كبيضة الحمام إذا طُلِيَت بلون الزيتون القاتم الأخاذ .

فتح العجوز درجا بالمنضدة ، أستل منه عدسة مكبرة . . التقط الحصاة الكبرى ، وراح يتفحصها بعين ليست حادة البصر بقدر ما هى فاحصة ذات خبرة فى التمييز والموازنة . واكتشاف أدق الحسنات أو أتفه العيوب فى عالم الصياغة الحافل بالأسرار . .

بعد برهة . أنزل العجوز يمناه بالعدسة المكبرة . فى حين ظلت أصابع يسراه قابضة على الحصاة الزيتونية . تقلبها فى إعجاب . وفمه يتمتم :

– هه . . عظيم ! . . تقليد متقن للماس . . لم أرَ طيلة حياتى مثله دقة . . !

– هو ماس خام . . حقيقى . . !

عاد العجوز يتفحص الحصاة وقد رفع حاجبيه دهشة . ثم تركها وتناول واحدة غيرها . . وغمغمت شفتاه ، فى حين كانت عيناه تعتصران رصيدا الخبرات الضخم :

– لكن هذه العروق المستعرضة فيما حول النويات . . هى غريبة حقا . بل نفس النويات تبدو من قوام مغاير ؛ ومع ذلك تقول إنها حقيقية . . فكيف تكونت ؟ . ثم هذا اللون الزيتونى ، لم أره من قبل . . بالطبع رائع . ومذهل . . لكنه شاذ . . !

همس الرجل الفارع مستعيدا بعضا من ثقته بنفسه : « هى حامات صادقة . ما فى ذلك أدنى شك . . وأنا أعرض بيعها » .

سأله العجوز فى خبث : « رغبتك واضحة يا سيد . . فمن أين حصلت عليها ؟ »

قال الرجل فى صرامة بدت شرسة . ضارية . تتنافى مع مظهره المتخاذل لدى أول قدومه : « إن شرطى لبيع الماسات . ألا يصحبه أية أسئلة ! » .

حاول العجوز أن يعترض : « لكن . . »

قاطعة الغريب فى حسم : « أرجو اعتبار كلامى نهائيا . . فقط ثق بأنها ليست مسروقة . »

قطب العجوز جبينه . . بدا أنه يفكر عميقا . وأصابعه المرهفة تتلمس سطوح الحصوات فى تعلق ونهم . ثم دلى شفته السفلى . وكور لسانه . وقال بغتة : « لامفر من ذكر اسمك على الأقل »

– وما الداعى . . ونحن لن نوقع أوراقا رسمية ؟

– لا أفهم !

– الأمر غاية فى البساطة . . إذا أعجبتك الحصوات . أنت تدفع . وأنا أعطى . . وهذا كل شىء . .

لم يتفوه العجوز بحرف . . مال بكرسيه إلى الوراء . حتى لامس ظهره

الحائط ، وقبع يتدبر أمره فى سكينة . . مرت دقائق وهو لا يحيد بصره عن الحصوات الأربع المستكينات على الصفحة البيضاء . . هل حقا هى حقيقية . من خام طبيعى ، وليست مصنَّعة . مقلّدة . . يلوح هذا . ولم لا ؟ . . لكن النواة . . التعريقات ، اللون ، الشكل العام غير المألوف . . تم حاسته . هل تخدعه إلى هذه الدرجة ؟

وانكب العجوز يتفحص الحصوات من جديد . . راح يقلبها كل بدورها . تحت العدسة المكبرة ، فتفصح عن لمعان سطوحها ، بالرغم من عدم صقلها . . وجرب أيضا اختبارات عملية : جرب طرقها . وخدش سطوحها . وتسخينها على موقد لحام قوى النيران . . وجرب شق إحداها بمنشار كهربى ذى أسنان من تراب الماس . لكن الحصاة ظلت على صلابتها . تستعصى على مجرد إحداث شرخ يسير . . هى بالتأكيد خام طبيعى . . هى أصيلة وليست مزورة . ! .

اتضح نفاد الصبر فى نظرات الرجل الفارع ، وقال وهو يطرق بلاط الأرضية بكعب حذائه طرقات قصيرة منغمة :

– والآن . . فما الذى انتويته ؟

رفع العجوز عينين متعبتين : « ربما لا أستطيع المغامرة . . »

قابل الرجل النظرات المرسلة إليه بأخرى متحدية : « وقد تستطيع . . »

فى استكانة هذه المرة ، أمسك العجوز بالحصاة الكبرى . ووضعها على إحدى كفتى الميزان الحساس ، وأخذ يوازنها بعدد من الصنج والرقائق النحاسية . .

صاح فى إعجاب لم يقوَ على كبحه : « ٥٢ قيراطا ! ! »

وجمع الحصوات الثلاث الباقيات ووزنها : « ٨٣ قيراطا . . فيكون مجموع الأربع معا ١٣٥ قيراطا »

٣ - بيع قيمتها ؟

وحدث العجوز نفسه : « بالطبع تبلغ الكثير . . إنها تساوى ما لا يقل عن ست آلاف من الجنيهات . . لا قد تصل إلى سبعة أو ثمانية آلاف . . فإذا أضيف إلى الحسبان لونها الغريب ، فقد يتعدى الرقم عشرة آلاف جنيه . . »

تنحنح العجوز ، وقال فى لهجة غامضة : إن قيمتها كبيرة . . قد تزيد . . عن ألفين . . وربما ثلاثة آلاف جنيه . . .

تمتم الرجل فى صوت أجوف ، خلفيته وجه بلا تعابير : « ثلاثة آلاف جنيه ؟ »

على أن العجوز أضاف بسرعة : « إلا أننى لا أملك حاليا بخزانتى سوى ألف واحد » .

- ألف . . فقط ؟

وخاف العجوز أن تفلت منه الصفقة ، فعاد يقول ملحًا : « قد أتمكن . . من جمع خمسمائة أخرى من زملائى بالجوار ! »

تغيير مفاجئ اجتاح قسمات الرجل الفارع . . انقلبت سحنته ، ضاقت عيناه ، وبرزت أسنانه . . ولم يلحظ العجوز شيئا من ذلك . . كان مشغولا باحتضان الحصوات بأرق نظرات حانية ، يبعثها قلبه عبر حدقتيه . .

بلغ الغريب ريقه وقال : « لا . . لا داعى ، يكفينى ألف واحد هذه المرة . . »

- أو ستكون هناك مرة تالية ؟

- ربما مرات . . !

- تبيعنى فيها حصوات كهذه ؟

- آمل ذلك . .

قال العجوز ويده تجذب باب الخزانة الثقيل ، فتظهر شبه خالية من الداخل إلا من صندوق خشبي تعلوه حزمة أوراق مالية منسّقة . .

– أحسنت إذ أخبرتنى حتى أعد لك مبلغا مناسبا . . لكن متى يكون قدومك التالى ؟

– لا علم لى . . قد يتيسر بعد ثلاثين يوما !

أراح العجوز حزمة الأوراق المالية على حافة المنضدة ، وشبك ذراعيه . وابتسم . .

– تفضل المبلغ !

لم يحص الرجل الفارع القامة حزمة الأوراق الخضراء ، وإنما تناولها فى هدوء . . وأودعها جيب سترته ، حيث كانت تستقر حصوات الماس منذ دقائق . . ودون أن يلفظ حرفا ، أو حتى يومئ للعجوز محييا ، استدار . . وغادر الحانوت على عجل . .

* * *

قرابة آخر الشهر التالى ، وقد مر نحو أربعين يوما أو تزيد بيوم وربما يومين . . ظهرت قامة الغريب الفارعة ، ذات الكتفين العريضتين والصدر البارز العضلات كصدور الرياضيين . . انطلق صاحبها يوسع الخطى بساقيه الطويلتين عبر « زقاق الزعفرانى » ، تسبقه أصداء ضربات قدميه فى رنين مكتوم ، وتلاحقه نظرات متسائلة – من حوانيت عدة – يداعبها أمل التوقف لدى كل منها دون غيرها . .

لكن الرجل ظل على هرولته حتى عبر ثلثى الزقاق . . وولج فى النهاية الحانوت الذى يحمل لافتة ، كتب عليها بخط كبير مائل : « الحاج على الجوهرى » . . غير أن الرجل الفارع القامة لم يمكث طويلا بحانوت تاجر المجوهرات ، فبمجرد

أن دخل واستقبله العجوز بالترحاب – وكانت برفقته زوجه ، وهى امرأة طيبة مسنة وإن كانت تصغره بعقد أو نحوه حتى بادر بإعطائه خمس حصوات زيتونيات دفعة واحدة . . ولم يستمر فحص الحصوات أكثر من دقائق عشر . . وهكذا سرعان ما غادر الرجل حانوت « الحاج على الجوهرى » وجيبه يضم ألفين من الجنيهات . بدلا من الألف السابق . . .

* * *

وامتدت العلاقة بين الرجلين ، وتوثقت عن ذى قبل . . لكنها ظلت علاقة حذرة بين مجهولين : العجوز الحاج الذى يجهل كل شىء عن صاحبه حتى اسمه . والسيد الغامض الذى لا يبغى معرفة أى شىء عن صاحبه فيما عدا اسمه . .

وكان الرابط الوحيد بين المجهولين المتفاهمين مجاميعَ من حصوات خام الماس – بديعة اللون ، خفية المصدر ، تراوحت أعدادها فى كل مرة بين حصاتين وست حصوات – ومقابلا نقديا للحصوات الثمينات ، يتفاوت بين نصف ألف إلى ثلاثة آلاف ، أعدت وجهزت كمقابل استغلالى بخس لسلعة عصية يصعب تسويقها فى مكان آخر . .

وبامتداد عامين كاملين ، تقابل المجهولان تسع عشرة مرة . . فتبدلت حال تاجر المجوهرات العجوز واختلفت كلية عما كانت عليه سابقا ، إذ سرعان ما اشتهر بمورده الجديد من الماسات الزيتونية العجيبة ، التى مهر دون سواه فى قطعها وتشكيلها . . وما تبع ذلك من ثراء ونعمة ، وانتقالة شامخة إلى حانوت أوسع ، بشارع الصاغة الرئيسى ، تتخمه قطع الحلى الفاخرة ، وكميات الذهب والأحجار الكريمة التى تقدر بأسعار خيالية . .

أما الرجل جالب الحصوات ، فلم يعلم بأمره أحد ، حتى العجوز النشط بالرغم

مما يحمل على كاهله من أيام مضنيات . . فقد جهل وزوجه أية معلومات عن عميله بصورة قاطعة . . صحيح أنه خلال محادثاتهما المقتضبة المبتورة . كثيرا ما حاول استخلاص أو تلمس أو استشفاف أتفه الكلمات . . كما تعمّد مرة أن يتعقب الرجل الفارع ، بعد مغادرته الحانوت ، ثم أثناء سيره فى الزقاق ، وبعده بشارع الأزهر إلى أن وصل إلى ميدان العتبة . . وأكثر من مرة ، تقابل وإياه لدى قدومه من أول الزقاق ، وبعدئذ بأول شارع الصاغة ، حين نقل حانوته إلى الأخير . لكنها بقيت جميعها محاولات ساذجة ، عجزت تماما عن أن تكشف النقاب عن الشخصية الخفية . . التى يغرقها الغموض ويلفها الإبهام .

* * *

كانت الحجرة المتسعة ترفل فى حلة من السكون . والجو البارد المعتم . المشحون بالمشاعر المتأججة . . وعلى الفراش الوحيد بها استقر جسد قِلّة . دثرته البطاطين الثقيلة . فلم يتبق ظاهرا منه للعيان سوى وجه شاحب - كان فاقد الوعى . بعد أن أجريت له توا جراحة عاجلة . .

وبخارج النافذتين المتجاورتين ، على يمين الفراش . كانت السماء تمطر رذاذا متفرقا . . فى حين تنبئ الغيوم المتراكمة بمزيد من المطر . ومزيد من العتمة . .

وعاد « الحاج على الجوهرى » يتلمس قسمات الوجه المليحة . ببصر ضاعفت من حدته - مؤخرا - عدستان يحيطهما إطار أنيق . . وبينما جلست إلى جواره زوجه قبعت فى المواجهة - بجانب الفراش الأيسر - أم المريضه وأختها ، وقد نطقت أساريرهما بأبلغ آيات الانفعال والألم . .

لم يكن الثراء المفاجئ الذى يرفل فيه الحاج العجوز - ومصدره الماسات . منحة القدر دون جهد يذكر - هو سبب مجيئه ومعه ما حمل من هدايا ، ولا كان

خوفه من ألسنة أفراد عائلته – التى لا ترحم لدى أقل تقصير – هو الذى حرّكه عند سماعه خبر إجراء جراحة الزائدة لها . . لا ، ليس شيئا من ذلك بالمرة . . إنما كان حبا حقيقيا يكنه لهذه الصغيرة ؛ ابنة أخته . وقد نمت وكبرت ، ثم تزوجت بمعرفته وعلى يديه . . لقد حرم هو الأبناء فعوضه الله خيرا فى هذه الابنة «منال» ، وإن تكن ابنة لأخته وليس له . . .

وأفاقت المريضة الشابة ، فتنهدت القلوب ، واسترخت المشاعر من حولها . . وابتسم هو ابتسامة الطمأنينة . . وانتظر إلى أن تمالكت مشاعرها ، ليقترب ويضع تحت وسادتها مظروفا يضم مبلغا كبيرا من المال . .

وحينما انطلق وزوجه يأخذان طريق العودة ، عبر الممر الطويل بمستشفى طنطا الخيرى ، كانت السعادة والرضاء يعمانه ، فقد استطاع دون ريب أن يقدم خدمتين جليلتين فى رأيه . . إحداهما للفتاة المقربة الى قلبه ، والثانية لنفسه هو تعويضا لعاطفة الأبوة التى يفتقدها . .

وبينما كان العجوز ، وقد امتلأ جسده وترهل عن ذى قبل ، يتقدم حثيثا تلاحقه امرأته البدينة وأمارات الطيبة تنير وجهها . . إذا بها تتشبث بذراعه بغتة ، بكيفية كادت تدفعه إلى التعثر والسقوط . .

– انظر يا على . . !

هتف وهو يعيد توازنه : «ماذا تفعلين ؟ . . كدت أقع . . ما الذى تريدينه ؟»

– انظر هناك . . خلف تلك المحفة . .

دفع العجوز ببصره بعيداً . . كانت هناك محفة (نقالة) ذات عجل ، يقودها ممرضان إلى يمين الممر . . وأمكنه تميز وجهى الرجلين ، لكنه عجز عن تفسير

ملامح الجسم المستلقى أمامها . .

– لا يمكننى تبين المريض . . من هو ؟

قالت السيدة ، وهى تضغط بكتفها ، مقربة خدها من خد زوجها :
« لا أقصد المريض . . بل انظر من يسيران وراء الممرضين » .

ونقل العجوز بصره لمسافة أكثر بعدا ، وأمكنه أن يرى الرجلين المنهمكين فى حديث بدا مسترسلا متشابكا . . وهمّ العجوز أن يستوضح زوجه عما يثيرها فى هيئتهما ، حينما استطاع الإلمام بقسمات وملامح أحدهما . . عندئذ كف عن المسير ، وقد عمه انفعال شديد .

– آه . . هذا الذى على اليسار !

همست كأنها تخاف أن يسمعها أحد : « أجل . . أليس هو . . ؟ »

قاطعها منفعلا ، وقد خفت بدوره من صوته : « لا جدال إنه هو ، بعينه . . إذن فهو طبيب ؟ . . ويبدو أنه جراح كذلك . . »

أوقف العجوز ممرضة عابرة ، وسألها : « أليس الذى على اليسار هو الطبيب فتحى أبو . . ؟ » .

قاطعته وهى مستمرة فى سيرها : « من . ؟ . هذا ؟ . . إنه جراح المسالك البولية عبد اللطيف شوقى » .

وطوال ساعات العودة ، والسيارة الأجرة تطوى الطريق الأسفلتى ، تحت وابل كثيف من المطر ، راح العجوز وزوجه يتساءلان فى حيرة ودهشة بالغة ، عما يدفع طبيباً . . جراحا ، إلى الاتجار فى الماس . . تلك البضاعة التى تنأى كلية عن مجال الطب والأطباء . . إلّا . . لو كان الماس مهربا . . لكن من أين . ؟

* * *

– لقد جئتك مبكرا . لأننى أزمع الرحيل مبكرا . .

قالها الرجل الفارع القامة . وهو يلوح بالكيس ويلقيه قبالة العجوز على المنضدة . . ثم يودع طرف الأريكة جسده ، ويطوى معطفه ويضعه فوق ركبتيه . . لكن العجوز – وقد ربض وقورا غامضا على غير عادته – لم يفتح الكيس . وإنما شبك ذراعيه . وافتعل ابتسامة عريضة على شفتيه اليابستين . وقال :

– قد يكون السيد متسرعا فى اتخاذ قراره . .

انتشرت الحيرة على جبهة الرجل الفارع وتساءل : « أى قرار تعنى ؟ »

– موضوع رحيلك المبكر . .

ازداد قلقه : « ولم لا . . ؟ »

اعتدل العجوز ، وقال ببطء فى وداعة ظاهرة يحركها حشد من الدهاء والمكر : « لأن بيننا اليوم حديث حافل . . طال انتظاره يا دكتور عبد اللطيف . . » .

تجهم وجه الرجل . . اصفر ، ثم اخضر . ثم ظل باهتا بين اللونين . . لكنه لم يفتح فمه ، بل اعتراه الوجوم ، والتبلد . . حط عليه ستار من السكينة ، يخفى تحته بركاناً من المشاعر الجياشة المتضاربة . .

بعد أن طال صمته ، تمتم فى النهاية . فخرج صوته فحيحا أجش ، غير مألوف : « أعرفت . . اسمى ؟ » .

– بالكامل . . الدكتور عبد اللطيف شوقى . .

نكس الرجل رأسه . وأغلق عينيه . فى حين استطرد العجوز .

– وعرفت مهنتك ووظيفتك . . فأنت جراح المسالك البولية الأول . بمستشفى طنطا الخيرى . .

– كل ذلك ؟ . . كيف !

– بمحض المصادفة ، وحدها . . كنت وزوجتى فى زيارة مريضة قريبة . بمستشفى طنطا . وهناك لمحناك . . وعرفنا كل شىء عنك .

أرجح الطبيب ذراعه المدلاة على جانب مسند الأريكة . . أرجحها فى ملل . . أخيرا قال فى لهجة مستسلمة . وأسنانه تجز على طرف شفته السفلى .

– لقد كشفت جزءا من سرى . . وأظن لا مفر من إطلاعك على بقيته . .

انفرج فم العجوز عن جملة مقتضبة ، أودعها الكثير من المعانى . . . « لو سمحت . . » !

غيّب الطبيب يده فى جيب سترته ، وأخرج منديلا بسطه وراح يجفف عرقا غير واضح القطرات . وقال :

– الموضوع متشعب ، عويص ، قد يطول شرحه وسرد جوانبه . . لكنى قدر الإمكان . . سوف أوجزه وأقربه إلى فهمك . .

وأغلق الطبيب عينيه ، يتيح لأفكاره قدرة أكبر على التداعى والتجمع ، ومن ثم التركيز . . كان بحق يسترجع ماضيا يهرب منه ويخشاه :

– لا أدرى على وجه الدقة متى بدأ اهتمامى بتلك الحصوات ، المسننات ، البالغات أقصى درجات الصلابة ، وأقصى درجات الخطورة على الإنسان . . وقصدى هنا ينصب على حصوات الكلى المريضة . . بالطبع يرجع هذا إلى زمن بعيد ، يسبق التحاقى بكلية الطب ، فقد كان أبى رحمه الله مصابا بمرض تكوينها ، وبعده أصيب خال لى . . بل أنا نفسى قاسيت آلام لفظ إحداها فى صباى . .

وصمت الطبيب برهة . عاود بعدها نسج كلماته العجلى اللاهثة . يستمدها من أغوار روحه : « قلت إننى أقصد الحصوات التى تتكون فى كلى الإنسان . . وأعنى فى حديثى نوعا منها بالذات هو حصى « الأكسيلات » . التى يكونها ذلك الراسب الملحى المتبلور . والتى تمتاز بالأطراف الحادة القاطعة فى ضراوة . . وكنت كلما أمسكت بواحدة من هذه الحصوات الملعونة . أحاول دقها أو سحق جزء – ولو يسير – منها بالقادوم . . فإذا ما تعبت من الدق . وباءت محاولاتى بالفشل . رحت أسأل نفسى : أى فارق بين حصوات الأكسيلات وحصوات الماس . . وخلال دراستى الجامعية . وجدت الجواب عن سؤالى . . حصوات الماس أكثر صلابة . وأكثر بريقا وبهاء . . ثم إن ظروف تكوينها تختلف وتتباعد عن ظروف تكون حصوات الأكسيلات . . لكنى أبداً لم أكن أحصل على الاقتناع الكافى . بوجود الفارق الضخم بين النوعين من أنواع الحصى . . »

أدنى الطبيب أصابعه من حافة المنضدة . وأخذ ينقر عليها فى عصبية ، ثم رفع أصبعه ، ونفخ أوداجه . وألقى بنفسه مذعنا فى خضم الكلمات المرة المضنية . .

– وذات يوم ، وكنت قد أجريت لتوى جراحة أخرجت فيها حصوة أكسيلات كبيرة . . وبينما أخذت أقلب الحصاة الزيتونية . مستعذباً مرأى لونها الجذاب وسطوحها ذات النتوءات . حتى كدت أنسى عذابات تكونها وإخراجها من البدن المريض المسكين . . بغتة أومضت فى رأسى تلك الفكرة المجنونة . . «ألا يمكن إنبات حصوة ماس حقيقية بكلية شخص مريض ؟» .

اتضح الإنزعاج على وجه العجوز . فألقى سؤاله مبتورا . ناشزا . تعتريه الرجفة :

– يا ستار . . أية جريمة نكراء دبرت ؟

على أن الطبيب لم يهتم لاعتراض العجوز ، إنما أطلق العنان لمشاعر طال كبتها تنساق مع كلماته . . وما كان لعائق مهما كان ، أن يجرؤ الآن على اعتراضها وسلبها حقها فى الانبثاق والتوالد :

– رحت أقرأ العديد من الكتب عن الماس . . عن نظريات تكونه وتشكل أنواعه . . وسألت الكثيرين من خبراء إنتاجه ، وخرجت بحصيلة مدهشة . . الماس ما هو إلا كربون نقى متبلور ولكى تتكون بلوراته ، لابد من ضغط الكربون بشدة ، وتسخين سائله المتدفق إلى درجة حرارة عالية . . ثم يحتاج تكوّنه أيضا لصدمات من البرودة المفاجئة . . وبالنسبة لخطوتى الجريئة – التى لم يسبقنى إليها أحد – كنت أحتاج إلى مطلب إضافى كذلك . . كلية مريضة تذعن لعمليات الترسيب ، حيث يتاح إبراز الحصاة إلى الوجود . .

دمدم العجوز ساخرا : « ترى مَن هو سعيد الحظ الذى تلقى تجربتك الأولى عليه ؟ »

– اقتصرت تجاربى المبدئية على الحيوانات . . أجريتها على الفئران . . عقاقير تولد درجات حرارة عالية موضعية ، وأخرى تحدث ما يشبه الضغط العالى ، وثالثة توفر تدفق السائل وجريانه بصورة منتظمة . . ثم صدمات فجائية من عناصر غازية بالغة البرودة . . وبعد جهود شاقة مضنية ، حصلت فى كُلَى الفئران على الثمرة الفريدة . . نماذج من خام الماس ، فى حجم رءوس الدبابيس ، وأكبرها كانت فى حجم حبة الأرز . .

توقف الطبيب عن الكلام ، وأخذ يدلك عنقه ، كأنه يختنق . . جاهد فى استماتة ، لكن التيار الشرس جذبه ، طواه ، هضمه فى أعماقه . .

– وما كنت لأجرؤ ، مهما أوتيت من شجاعة ، على نقل تجاربى للإنسان . .

حتى ألمت بى تلك الفاجعة على غير انتظار . . مرض شقيق المزمن ـ الذى استنفد كافة مدخراتى ومصادر قوتى . .

– ألديك أسرة كبيرة ؟

– لدى زوجة وابنتان وأمى وذلك الأخ الذى يصغرنى بثمانية أعوام . .

عوى العجوز وهو يلتقط أنفاسه بصعوبه : « موضوعنا . . لنعد إلى موضوعنا . . فكيف أمكنك تحويل حصوات الـ . . ماذا أسميتها ؟ »

– الأكسيلات . . إحدى مشتقات الحير . .

– أجل ، كيف حولت الأكسيلات إلى ماس . . بداخل الكلية البشرية !

قال الطبيب فى جدية : « أنا لا أحول شيئا إلى شىء آخر . ليس الأمر بهذه الكيفية . . وإنما أنا أبحث بين الكلى المريضة عن تلك التى ترسب ملح الأكسيلات . . فإذا ما وجدت كلية فى بداية تكوينها للحصاة ، بحيث لا يزيد حجم الحصاة عن مجرد رملة بحجم مليمتر مكعب أو مليمترين ، التقطت الخيط وبدأت العمل الفورى . . »

– كيف بالله . . ؟

– أبدأ فى إعطاء المريض الأدوية التى أحضّرها بمفردى فى معملى . . مستغلا رملة الأكسيلات كنواة ، يتراكم عليها خام الماس بحوض الكلية . .

– آه . . يا للغرابة ! . . وبعدئذ ؟

أجاب الطبيب ، وقد تغلبت عليه نزعة البحث العلمى : « خلال شهر تقريبا ـ يتم تكوّن الحصاة الماسية المناسبة . . وأمكث أتتبع مراحل نموها بالأشعة والتحاليل المختلفة . . وحين تصل حداً أعرفه ، أنزلها بمساعدة موسعات الحالب

ومدرات البول المعروفة . . أو عن الطريق الجراحى . . دون أن . . أتقاضى أجراً . . » .

أومضت عينا العجوز ، وبرزتا ، واحمرتا . . أخيرا قد أمسك المنة التى ظل يترقبها بنفاد صبر ، منذ أن بدأ الطبيب يتكلم . .

– هذه الجراحة . . فى أعقاب تلك الوسائل المفتعلة المقصودة . . المخادعة . . إذا لم يكن تصرفك عمل إجرامى بحت . . فماذا تسميه ؟

حاول الطبيب المراوغة : « أنا لا أجرى تجاربى إلا على ذوى البنية القوية من الشباب وحدهم ، ولا أقرب الشخص الواحد مرتين ، بأى حال من الأحوال . . ثم إن حصاة الماس ملساء أسهل فى الانزلاق فى مجرى البول من حصاة الأكسيلات . . »

غير أن مقاومة الطبيب اعتراها التصدع ، إذ ترقرقت دمعتان فى مقلتيه ، تعبران عما يجتاحه من ألم وحزن دفين . .

– لكن فيم المكابرة . . فيم تلمس الأعذار ؟ . . هكذا كان انسياقى إلى الهوة ، إلى أعمق أعماقها ، إلى قاعها الملىء بالطين والوحل . . وأنت يا ساج تعرف بقية التفاصيل التى نتجت عن قصة تلك الحصوات . . تلك الزيتونات المبرقات . . .

أطلق العجوز آهة طويلة ، مشحونة . . قال فى وهن ، وقد فتر حماسه ، واعتراه شعور ممضّ بالتقزز .

– هذا ما خمّنته منذ البداية . . لم تكن الماسات طبيعية ، لم أر مثلها . . مثل لونها الزيتونى ، قبلا فى حياتى . . والآن ، وقد اتضح ماخفىَ علىّ طيلة مايزيد عن عامين ، فقد بات من المحتم أن أتخذ موقفا مغايرا . . سيدى الطبيب ، من الجحود أن أنكر فضل حصواتك – أو ماساتك الخام – علىّ . . هى بالفعل سبب ما أنعم

به من ثراء حالى . . لكن فى الوقت نفسه ، من المحال أن أقبل الاستمرار فى اللعبة الكريهة !

– ما الذى تقصده ؟

– بمنتهى الوضوح ، ستكون هذه الصفقة الأخيرة بيننا . . فإننى لن أتسلم منك أية ماسات بعد اليوم . . .

أحنى الطبيب قامته الفارعة وهو يتصبب عرقا ، وقال ، «وأنا . . إنى . . أذعن لرغبتك» .

قالها الطبيب وقد وقف يجفف عنقه بمنديله ، وهو يهم بمغادرة الحانوت . . لكن العجوز ترك كرسيه متعجلا ، ولحق بالطبيب يتشبث بذراعه الضخم . .

– أرجوك . . لا تغضب منى . . الأمر يتضمن مصلحتك كذلك . . ثم إنك – كما يبدو لى – رجل عاقل ، تتغلب الحكمة والطيبة على بقية نوازعه . . ولذا فلن أتركك قبل أن أحصل على وعد منك بعدم تكرار استغلال مرضاك . . .

وعبر ساعة تالية تبودلت فيها كلمات عتاب تأرجحت بين العنف والهدوء ، أمكن للعجوز أن يفوز بالقسم الذى أراد سماعه . . .

* * *

ومرت ثلاثة سنوات متخمات ، ازداد أثناءها الحاج على الجوهرى ثراء ونفوذا ، وبلغ صيته فيها أوجه ، حتى نقب بأبى تجار الماس فى مصر بأسرها ، وأغنى أغنياء خان الخليلى الموغل فى القدم ، وأصبح واحدا من أبرز الأعيان والمرموقين فى الناحية . . وكانت حادثة الحصوات العجيبة قد أوشكت أن تنمحى من ذاكرته ، حين خيل إليه فى أعقاب السنين الطويلة ، أنه قد لمح وجه الطبيب – فى الآونة الأخيرة – أكثر من مرة . .. فى أكثر من مكان ، وأكثر من مناسبة . . .

وذات أمسية . . على وجه التحديد أمسية التاسع من ثالث شهور السنة الجديدة ، وبينما كان العجوز وحده بحجرته العلوية – بحانوته الحديث التجهيز – يتناول غداءه متأخرا إذا بكبير صبيانه «شحاتة» يخطره بإلحاح سيدة وقور فى طلبه . . .

– ألم تسألها حاجتها أولا ؟

– تريدك فى أمر شخصى . . .

– بعد أن آكل . . بعد دقائق عشر ، أكون معها . . .

استدار الصبى يهبط الدرج ، إلا أنه تذكر أمرا دفعه للصعود ثانية ، وقال !

– السيدة طلبت أيضا أن أقدم لك هذه البطاقة . . .

أمسك العجوز البطاقة بأطراف أصابع يمناه ، فى تأفف ولا مبالاة . ألتى بها تحت بصره . . قربها أكثر ، ليعوض نسيانه وضع النظارة . . شملها بنظرة فاترة . وأمسك بيسراه كوب الشاى الساخن . . لكن كلمات البطاقة البارزة الطباعة ، استرعت انتباه العجوز . . جمدت كوب الشاى ، فلم ترتفع إلى شفتيه ، وثارت دفقة من الأحاسيس بأنحاء صدره . . .

ترك الكوب ، وأسرع يسبق الصبى فى هبوط الدرج . . تقدم بلهفة . . حدثه مرأى السيدة المتشحة بالسواد ، بوقوع أمر جلل . . وتقدم يسلم . ويجذب كرسيا . . فى حين جلست السيدة حيث أشار لها ، وراحت تعبر فى أسى . .

– لم يأت زوجى وجئت بدلا منه . . لقد لقى ربه منذ عشرين يوما . آه . . النكبة حلت عقب إجراء جراحة استخراج حصى من كليته . . أجل أصيبت كليتاه الاثنتان معا ، لكن الجراحة أجريت فى اليسرى أولا . . تلك التى حوت عددا أكبر . . سبع حصوات . . اليمنى كان أمرها أهون ، وبها واحدة . . ماذا؟ . .

لا ، لا أذكر إصابته بداء الكلى قبلا . . لم يشك تكوّن الحصى إطلاقا . . أنا نفسي أعيش كابوسا مخيفا . . خلال أربعة أشهر ، اتضح مرضه بصورة صاعقة مريبة . كأن استفحال مرض أخيه لم يكن يكفينا ، فرض هو كذلك . . كعادته ساق فى عناده ، وأصر على أن يعالج نفسه بنفسه . . ياه ! . . وماذا تفعل كلماتى . أو توسلاتى ؟ . . أنت لا تعرفه مثلى . . إذا انتوى أمرا ، لا يقوى أحد على إثنائه أو اعتراضه . . ليلة إجراء الجراحة ، كتب سطرين من أجلك . . لا لم أطلع عليهما . ولا فعل ذلك غيرى . . بعد أن غيبهما مظروفا . طلب إلى أن أسلمك إياه مع الحصوات . فى حالة . . قضائه نحبه . . آه يارب ! . . كدت أنسى . . لقد ذكر ليلتها شيئا . . أظنه عن أمانة لديك تخصه . . الصباح التالى أجريت له الجراحة . أجراها له زميل من زملائه المقربين . . وقد أسلمنى الجراح زميله الحصوات المستخرجة . . ولم يسلمنى زوجى معافى . . أستغفر الله . فأنا مؤمنة وممتثلة . لكن الفراق صعب ! . . معك حق ، كلنا سنجرع من الكأس . . آه . هذا هو المظروف . . !

فض العجوز المظروف الأزرق ، وأخرج الورقة المطواة . . نشرها ، وقرأ :

«عزيزى الحاج على . أنشد صفحك . أخى توفيق فى خطر داهم ، ولابد من أن أهبّ لنجدته . حسب قسمى لك ، والذى لن أحنث به أضطر لتكوين الحصوات الماسية بكليتى أنا ، ولا أحد غيرى . . حين تصلك سطورى . تكون الجراحة قد فشلت ، وأكون ساعيا للقائى المرتقب مع خالقى . . معذرة مرة أخرى ، فحياة أخى لدىّ أغلى من حياتى . وداعا وصلّ من أجلى .

دكتور عبد اللطيف شوقى

همس العجوز فى تأثر وقد مد يدا شاحبة مرتعدة نحو السيدة :

– الحصوات من فضلك !

– ها هى ذى !

ودون أن يفتح الكيس المعهود . واراه درجا خفيضا . . ثم تناول عشر حزم متخمة بأوراق خضراء ، غيبها بداخل علبة ورقية . . واستدار إلى السيدة يضع العلبة بين يديها ، وهو يرى فى قسماتها خطوطا آسية .

وتمتم وهو يشيع بوجهه بعيدا يشاركها أساها بقلب أصيب فى الصميم :

– سيدتى . . هاك الأمانة الخاصة بزوجك . ولتصحبك السلامة !

وسيظل لا يعرف . . .

فى مكالمة الأمس الهاتفية ، عادت زوجته تلح عليه – ربما للمرة العشرين – أن يأخذ إجازة ويعود . . قالت له إن جارتها حمراء الوجه الهولندية ، قد تشاحنت معها وسبتها . . وقالت له إن حريقاً قد شب فى مخزن الجرارات بطرف القرية ، ولابد أنه بفعل الإرهابيين . . وقالت له إن ابنهما «عازر» قد سقط من أعلى السور ، وهو يصلح كهرباء المصنع ، فكسرت قدمه . . وقالت له أشياء أخرى مزعجة . . لكنها لم تقلقه ، ولم تسبب له كدراً على الإطلاق . . .

لقد مضت أعوام عشرة طوال ، منذ تزوجا ، تعوّد خلالها ثوراتها الجامحة ، وشطحات مزاجها المأسوى الحاد على الدوام . . هكذا عمته المتصابية تلاحقه هى الأخرى بمكالماتها وأحاديثها الملحة ، التى لا تعنى أكثر من مال يتبدد هباء كأجور للاتصال . . بل إن العجب يكاد يتملكه ، فقد وضحت أمامه مؤخَّراً حقيقة

ما يعترى أعصاب سكان المستوطَنة المشدودة على الدوام . . .

ومال برأسه يستقبل لفحات الهواء الباردة . . أجل شخص واحد كان يشد عن كافة الخليط الذى يقابله على امتداد الرقعه المحاطة بالأعداء من كل جانب . . إنه أبوه ، تاجر الذهب الطيب الحكيم . . لقد جمعهم فى ذلك اليوم البعيد ، هو وأخويه وأخته وأمه ، وقال لهم فى بساطة واقتضاب :

– سوف نترك القاهرة !

ويتذكر أن أمه صاحت مستنكرة : «هل أنت جاد؟»

لكن كلمات أبيه المتزنة انسابت محددة ، طيعة ، بلا استعجال :

– أعرف أنك أنت بالذات لديك الكثير من الاعتراضات . . الثراء ، رخص الأسعار ، رفاهة العيش ، حب الجيران . . كل هذا مقنع ، لكن الحرص وبعد النظر يقتضيان منا أن نرجِّح الجوهرة الثمينة على ما عداها . . .

وقد أشار إلى اتجاه الشرق ، وأضاف فى خيلاء : «إن المستقبل للعلم وانجازاته المدهشة . . وهذا سوف يندلع . . هناك !»

لحظتها تمتم وإخوته مبهورين : «إسرائيل ؟ !» .

وفيما بعد ، استقبلتهم أرض الميعاد ، برمالها الملتهبة ، وطابع قراها ومستوطناتها الآلى ، المُصَنَّع . . وبالخليط المتنافر الوافد من شتات الأرض وأنحائها غير المتجانسة . . .

لكن أباه ظل مصرا على عناده : «صبرا . . القلب هنا ، والجوار سيظل على مواته . . لأن العلم المتبلور حديثا إنما نحن وحدنا القابضون على زمامه ! »

وعندما كان ندماؤه – كبار السن أو صغاره – يسألونه عن فعالية حضارات ذلك الجوار ومدى عراقتها ، كان يكتفى بإحناء رأسه ، وتحريك لسانه بكلمته

الوحيدة : «المستقبل . . المستقبل ! »

* * *

بغتة ، كاد ينكفئ على جبهته . . أحس بأن الحركة قد كفت من حوله فى واقع مولم ، لكنه شد قامته وراح يبتسم . . فقد أطلت عيناه على وحدات القول البديع من دبابات «الباتون» الصفراء . . حقا ، إن كلمات أبيه – ولو أنها تباطأت . أو هو يعد يكررها فى أيامه الأواخر – كلمات صائبة بالفعل . . فها هو ذا أصبع العلم يشير قبالته إلى أروع ما أنبت العلم من أجل الاستحواذ والتسيُّد . . القلاع المتحركة ، ذوات أمنع الدروع ، وذوات الأعين «الرادارية» والحرارية وأشد القذائف والصورايخ فتكا . . وميّز فوق الدبابات أعلامها المرفرفة ، وراقب أردية الضباط الجديدة ، وإن ضايقه عبوس سحناتهم . . ثم عاد جسده يتارجح ، وقد طوته حركة السيارة الرتيبة . . وخلفية الرمال المتوهجة تمتد وتترامى إلى مالا نهاية . . .

وبرز وجه زوجته مرة أخرى ، وسمع صوتها الرفيع يلحّ عليه فى أخذ الإجازة . . لكنه عجل بإقصائها عن مخيلته ، يعتريه إحساس مسيطر باللامبالاة . . وآثر عليها التفكير فيما قرأه مؤخّرا عن مقدرة فريق من علماء بلده ، أبرزت الصحف المحلية أسماءهم بأحرف حمراء عريضة ، فى حين تجاهلت تواريخ توافدهم القريبة . .

وراح طيف مبهم ، لكنه مضىء يداعب خياله . . وهمس لنفسه فى إعجاب : أحقا لديهم علماء كبار يغيّرون ويبدّلون ويطوّرون فيما ترسله إليهم أمريكا من أحدث منتجات ترسانتها الجوية . . هل صحيح قد تناول إسرائيلى مثله طائرة «الفانتوم» بالتعديل أيًّا يكون . . وإن لم تكن هذه هى المقدرة العلمية ، التمكّن

التكنولوجي . فعلى أية صورة مغايرة يكون . . وعاد فمه للانفراج فى تسلط وإلحاح . حتى أوشك على القهقهة . . فقد تذكر اللوحة الذهبية التى نقشت . والتى يعاد نقشها كل حين فى عقله وفؤاده وخلايا بدنه . . أو لا يحق لهم أن يذهبوا إلى أبعد الحدود ، وقد استولوا بلا قتال يذكر على مساحات من الأرض العربية لم يكونوا ليحلموا بعشرها ولو اشتط بهم الخيال ؟ . . ثم – والأهم – لقد أسكتوا فعالية . وربما حطموا تماما لعشرات الأعوام . أقوى جيوش المجابهة . التى طالما حسبوا لها ألف حساب . . .

ومدّ عنقه برغمه يرسل نظرة قلقة تجاه الغرب . يحاول عبثاً أن يستشف شيئاً غامضاً . كثيرا ما حدثته نفسه أنه يكمن هناك . . قصيا . فيما وراء شريط القناة المائى ، الذى يوشك وجماعته على بلوغه . . .

لكن الهدير المتجمع عنيفاً فى أذنيه وفوق رأسه سرعان ما أخرجه من مخاوفه . . فهذه العموديات الضخمة . التى لا يمتلك العدو أمثالها . تبعث فى صدره إحساسا بالأمان يعلم أنه دائم الاحتياج إليه . . حتى إنه يملأ حجرات نومه – عبر المعسكرات التى يتنقل بينها – بصور ونماذج العمالقة الخرافية . . فإذا ما تطلع إليها وراقبها أطمأن قلبه ، وشمله شعور بالاستهتار حيال عدوه . . . سأل مرة قائده الأعلى ، ومظلة من ثمانى عموديات متلألئة تعبر السماء فوقهم .

– هل لدينا الكثير من هذه الوحوش ؟

وزمّ القائد شفته المتورمة : « بأكثر مما تتصور ! »

وفى تردد ، جرؤ على أن يسأل ثانية : « وهم . . فيما وراء القناة ؟ »

رد القائد الأعلى ، وعيناه تضيقان فلا تفصحان عما يملؤهما من زهو واعتداد :

– ولو امتلكوها . . فهل يقدرون على امتلاك أسرارها . . مثلنا ؟ ؟

ثم انطلق يحدثه فى حماس وطلاقة عن الفارق الشاسع بين قدرات دولتهم – التى تضم خلاصة الفكر العالمى وقمة علومه – وقدرات الآخرين ، المحيطين بها . . وظلت كلمات القائد الأعلى لأشهر عدة تبعث الدفء بين أضلعه ، إلى أن توالت ببطء تلك الأيام المريرة ، مما أسموه بحرب الاستنزاف . . وحينئذ كاد يغيّر من آرائه ويظن بحماس قائده الأعلى الظنون . . .

لكن قوادا آخرين ظهروا فى الوقت المناسب . . انتشروا بينهم واحتووهم . . وفى اللحظة الفاصلة ، اتضحت حقيقة ما يكابده المصريون فى أعماق بلدانهم ، نظير جرأتهم على الاقتحام والقتال . . فى حين قلّل القواد من حجم الخسائر الإسرائيلية المبالغ فيها بلا ريب ، وساعتها هدأت نفسه ، واسترد ثقته . . فإن ذراع حاميهم الوسيم ، ذا العين الواحدة ، ذارع طويلة . . وقادرة بالفعل !

* * *

«خط الدفاع الاستراتيجى على قناة السويس» . . .

لثوان لم يملك الفكاك من سيطرة خواطره . . على أن هزة من كف – زميله الرقيقة ، ككفوف النساء ، أيقظته . . وحين قفز إلى الأرض الخشنة استقبله مرأى الاستحكامات المتشابكة فى واقع مفاجئ احتبست له أنفاسه . . إذن هى أخيرا واحدة من قلاع المانع الصناعى ، المتتابعة بطول مائة وثمانين كيلو مترا من جنوب بور فؤاد إلى شمال بور توفيق ، والتى أشرف قائدهم الشهير على إقامتها وسميت باسم : «خط بارليف» ؟ !

– أأنت الضابط ليفى ابراهام ؟

استدار يواجه الجندى قصير القامة : «أجل» . .

– إذن اتبعنى . .

وتحت كتل الحجارة الصماء ، المضمومة فى مربعات بشبكة من أسلاك الفولاذ ، احتواه باب عملاق يستقيم مصراعه المدرع على مجموعة متراصة من العجل . . وعبّر ممر واطئ تضيئه الكهرباء سار فى أعقاب الجندى ، ليلج فى النهاية حجرة تسبح فى ضوء باهر ، ركّز أغلبه على خريطة متسعة لسيناء . .

من خلفه تصاعدت نغمة أجشة : «اجلس !» . .

فجلس وعيناه تستوعبان محتويات المكان فى فضول : الخريطة . الدولاب المعدنى ، الرفّ وعليه مروحة الكهرباء المغطاة ، المنضدة حاملة زجاجة الشراب وبعض المعلبات ، ومضرب التنس المسند إلى الحائط . . حتّى استقرتا على المكتب الخشبى الأملس ، وعليه مدفع أسود رشاش . وخلفه شعر غزير ولحية بنية مجعدة . .

– قادم . . من جبل المرّ . . أليس كذلك ؟

– كنت الضابط المسئول عن حراسة موقع ذلك الجبل . . أنا ليفى ابراهام هاتشوكر . .

مد صاحب الشعر الغزير واللحية البنية ساقيه ، فأطل حذاءان دقيقان لامعان من أسفل المكتب ، فى حين تراجع جانب وجهه إلى ما تحت «اللمبة» ، فاتضح مبلغ بياض بشرته . .

– سأوليك كذلك تنظيم عمليات الدفاع عن موقعنا . . هنا ، وفى مواجهة السويس . . !

وقلب الرجل أوراقا أمامه ، حتّى توقف لدى واحدة . .

– أنت مصرى المولد !

قالها وقد شاب صوته بعض الفتور ، لكنه لم يتردد طويلا ، فقد أضاف وهو

يجمع الأوراق ويسكنها درجا قبالته : «لا يهم . . سوف يتم كل شيء تحت إشراف المباشر . . »

عندئذ عرف ليفى أن المقابلة القصيرة قد انتهت ، فهرع من فوره - يصحبة نفس الجندى القصير - إلى الحجرة الدافئة . التى خصصت له بالطابق الثانى من الموقع . . .

واتجه ذهنه إلى زوجته . والفراش يحتضنه لأولى لياليه فى تحصينات «بارليف» . . لقد بعدت المسافة بينهما خمسة عشر كيلو مترا . . وعلى عكس كافة زملائه المجندين . لقد كان يؤثر مشاق الكمون فى أىٍّ من المرابض العسكرية الموحشة . على التواجد بين أسرته وذويه وفى بيته . . لمجرد الهرب من المرأة المشاكسة . التى تم ارتباطه بها فى غفلة منه . . .

* * *

وفى الصباح الباكر . بادر بالصعود إلى قمة الموقع قبل أن يتناول إفطاره . . وهناك فوق الحجارة المقيدة بالأسلاك . اختار واحدة أكثر استواء عن غيرها . واعتلاها . . ياللعظمة ! . . إنه لم يكن يتصور الموقع بكل هذه الضخامة . وعلى كل هذا الاتساع . . ولم يجد الموقع جسما جبارا فحسب . وإنما اكتشفه يموج بالحركة كذلك . . هذه المدكات والرافعات تسوى الطرف الشرقى البعيد . وكذا عدد من سيارات المياه والتموين تفرغ حمولاتها . وأكثر من طابور من الجند يزاولون تدريباتهم الروتينية . . وجنوبا . دبابتان تتزودان بالوقود . ثم عشر دبابات تنسجم فى تشكيل واحد منسق . .

لكن . . وهذا قد أثار حيرته . . فما بال الجانب الغربى للقناة يرفل فى صمت وسكون ثقيلين . مريبين . . وحين حمل تساؤله لدى هبوطه إلى واحد من قدامى

الضباط زملائه أجابه مستخفا من سذاجة السؤال . وهما يجلسان متقابلين على مائدة الطعام :

– وماذا تتوقع من المصريين أن يفعلوا ؟

– لا أدرى . لكنهم أعلنوها سنة للحسم . .

وحشر الرجل قطعة كبيرة من الخبز بين أسنانه . وأخذ يلوكها على مهل :

– حسم ماذا ؟ هه ؟ . . اسمع يا ليفى . أنت لم تجابه المصريين مثلى . . صحيح هم شجعان . وعلى قدر من التحمل والصلابة . . لكن ماذا يفيدهم الذى أذكر أمام ضخامة وعنف نيران الآلة الإلكترونية المعقدة . التى نطوِّعها نحن ؟

لوى ليفى شفتيه معترضا : «السلاح المطوِّر ليس مقصوراً علينا وحدنا . .»

– لكن التدرب عليه يتطلب استعدادا وفهما علميا لدى الأفراد . . .

وابتلع اللقمة ثم صرخ : «خذ مثالا . . من يمتلك زمام الجو . أنحن أم هم ؟ . . بالطبع . السيادة الجوية وقف علينا . . والفضل للتدريبات الصعبة المضنية . على مجموعة إلكترونيات نفاثات اليوم القاذفة المقاتلة . .»

وهم ليفى أن يقول شيئا . لكن الضابط العريض الكتفين – فى غير تلاؤم مع بقية بدنه . وعلى الأخص طول ونحافة ذراعيه وساقيه – لم يعطه فرصه . وإنما لوَّح فى وجهه بقاعدة ملعقة يمسكها مقلوبة وقال فى تعالٍ :

– ومع كل . حتى لو حاولوها . . ولنتحِّ جانبا حاجز القناة المائى . فهل يقوون على اختراق تحصيناتنا ودفاعاتنا . ولا أقول الاستيلاء عليها . . بأيه صورة من الصور ؟

– لكنهم اخترقوا التحصينات خلال حرب الاستنزاف . .

– لا . لا . . كانت تلك مجرد شراذم من الفدائيين . تنفذ فيما بين

التحصينات . ثم تبادر حالا بالانسحاب . .

وأكمل ضابط ثالث متورم الصدغين ، انضم إلى مائدة قريبة ، فى سخرية : «تنسحب . . بعد أن تكبدنا الكثير من الخسائر ! »

بان الامتعاض على وجه محدث ليفى الأول ، وقال : «عدنا نردد أقوال إذاعات العدو . . ! »

ابتلع الضابط الثالث ريقه ، وقال فى غلظة : «بل إنه ترديد لولولة أمهات القتلى وذويهم . . »

فى حين مال ليفى برأسه ، وهمس : «لقد أغضبته ! »

– إنما هو غر حديث التخرج ، من أبناء الموجة المطالبة بالإصلاح . . لا تهتم به وهيا بنا . .

– إلى أين ؟

– نتفقد ما حولنا . . .

وجذب الضابط ليفى من ذراعه ، وانطلق يطوف به مخابئ وأنفاق وخفايا الموقع الغائص برمته فى أعماق التربة . ووسط دروع الفولاذ ، وحوائط الحجارة والأسمنت . .

«هناك أربعة وعشرون موقعا تماثل موقعنا . بامتداد ضفة القناة الشرقية . . كلها مدعمة بخراسانة الأسمنت السميكة ، وقضبان الفولاذ العريضة . . والمواقع القوية – وموقعنا أحدها – منظمة بطريقة الدفاع الدائرى . . وجميعها تقبع تحت الأرض ، ومغطاة من أعلى ، لتتحمل الإصابات المباشرة . . كما أنها كلها محوطة بأسوار مزدوجة من السلك الشائك وحقول الألغام . . ومجهزة فى نفس الوقت – بوسائل الاتصال السريع ، وشبكة محكمة للإنذار الإلكترونى التلقائى . وأما عن

الذخيرة والمياه والتموين ، فقد خزّنت بكميات مهولة . . كما عززت المواقع بأكبر قوة تركيز للنيران عرفها التاريخ العسكرى . وتتراوح من الرشاشات إلى المدافع والصواريخ بعيدة المدى . . وكلها منيعة . . عصية . . »

وفى الحجرة العلوية . الواطئة السقف . والمطلة – من خلف مكمن عميق – على شاطئ القناة ، توقف الضابط قبالة مجموعة من الأزرار الكروية الرءوس . . ومد أصبعه ليشير إليها فى صلف وغرور ، لم يقو على كبحها :

– أما هذه الحجرة ، فلعلها على ضيقها تمثل قمة الجهاز العلمى – للدفاع عن موقعنا . .

وحملق ليفى فى الأزرار «لقد سمعت عنها . . إنها المتحكمة فى الأنابيب قاذفة المواد الملتهبة !

– تماما . . بدفعة أصبع يسيرة ، تتحول صفحة القناة إلى أتون مشتعل فى وجه القادمين !

* * *

وبات ليفى ليلته الثانية يحلم بالأزرار السحرية ، وبالدفاعات الديناصورية التى تحميه من كل جانب . . أما وجه زوجته ، فقد غاب كلية عن عقله الباطن ، الذى ظل يرتع الليل بطوله ، متحديا جحافل المصريين وهى تحمل الرماح والأقواس . . فإذا ما شهر كفه وأطلق منها النار الخفية ، كما يفعل الحاوى ، انحسرت جموعهم على الفور وتبددت فرقا . .

وأيقظوه من حلمه على اللقاء المنتظر ، والذى كان يوقن بوقوعه مهما تأخر ، ومهما حاول التهرب منه فلا يلبث أن يستسلم له فى النهاية . .

– زوجتك تطلبك بالهاتف . .

تثاقلت خطى ليفى برغمه . حتى عبر الممر . وتناول السماعة البلاستيكية الخضراء اللون :

— كيف حالك يا أشير ؟

وانهمر سيل من الكلمات الزاعقة : «كيف حالك أنت ؟ . . قلبى معك . . بعدك يترك فراغا بيننا . . هذه قسوة منك أن تختار موقعا أبعد . . ابنك قدمه المجبسة تعوقه ، لكنه بخير . . المهم أن نراك أنت . . لابد أن تأخذ إجازة اليوم ، لتكون بيننا فى الغد . . الغد هام لديك . وإلا فهل نسيت الرابع من أكتوبر ، يوم مولدك ؟ ! . . » .

يا لمرور الأيام ! . . معها حق امرأته . فى الغد تكتمل التسعة والعشرون عاما على اللحظة التى تعالت فيها أولى صرخاته . . فى حى الأزهر . أقدم أحياء العاصمة المصرية وأعرقها . . وقلب فى أعماق ذاكرته . لكنه لم يجد غير ملامح نائية مبهمة ، تكاد بدورها تنمحى نهائيا . . فقد هاجر وابتعد عنها وسنه لا تتعدى السابعة ، لكن أباه على نقيضه . وأمه كذلك . . كانا حاضرى الوعى بأيام القاهرة وأماكنها . وبسخاء تلك الأيام وهدوئها . . ولولا يقين ذكى من أبيه بقيمة الجوهرة التى ستنمو وتكبر ويتقطع نظيرها . فى هذه البقعة بعينها ، من أرض الفلسطينيين . . جوهرة العلم والتكنولوجيا . . لولا يقين راسخ بأهميتها ومدى فعاليتها لمن يملكها . . بل هى المستقبل بكل معانى القوة والسيطرة وبكل معالم الخير والثراء . لمثل شعبهم المحدود والمحاط ببحر يزخر بملايين السواعد المتربصة . . أجل لولا ذلك ، لما فضّل أبوه على الأرجح أن يترك الموطن الحسانى الذى آواه وآوى أجداده من قبله . .

وقفز إلى رأسه سؤال مباغت . . ترى هل ابتدأ ذلك المستقبل البراق بانتصارهم فى حرب الأيام الستة . التى يمجدونها ويلهجون بمآثرها كإله جديد ،

يخرق نفوذه ما جاء فى «بروتوكولات» حكمائهم السابقين . . هل ابتدأ مستقبل شعبهم الآمن فى أعقاب هذه الحرب ؟ !

وأحس بعدم القدرة على الرد بالإيجاب . . قد يستطيع إخفاء الحقيقة عن الناس . لكنه لم يتعود أن يحجبها عن نفسه . . للآن لم يزد الأمر عن مجرد الاستيلاء على رقاع من الأرض غالبيتها قفر . . وأما الأجزاء الآهلة بالسكان . فإن هؤلاء يأبون الانضواء تحت لواء نجمتهم السداسية . . للآن لم يرغموا عربيا واحدا . بطول وعرض الخطوط التى تمتد عليها مدافعهم . على الرضوخ والقبول بالأمر الواقع . . للآن لم يحققوا أمناً واستقرارا بالمفهوم الواضح . . وبالتالى . فعلى مدى الأعوام الست – من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٣ – قد استحال عليهم أن يخفضوا فوهات مدافعهم المتشنجة . . والأهم من هذا استحال عليهم أن يريحوا الرجال المرهقين المتوترين خلفها !

لكن أعواماً ستة زمن قصير فى عمر الشعوب . . إنه لحظة . هكذا يؤكدون . . ومادام السكون والصمت يشملان مرابض العدو ، فهذا دليل على توقف حركتهم . . وإذا ما توقفت حركة العدو ، فالأمر ليس فى صالحه . . دواما الكسب فى جانب من يملك الحركة ، التفاعل . الانطلاق . . تحت لواء الجوهرة الثمينة . كما حدّد أبوه . . .

وحين ولج ليفى حجرته فى الطابق الثانى من الموقع ، وطالعته صور العموديات معلقة على حوائط الحجرة الأربعة . زاهية متألقة ، خيل إليه أنه يسمع هدير محركاتها العلوية كذلك . . عندئذ أطلق آهة ملتهبة ، اجتاحت الراحة على أثرها خلايا بدنه ، خلية وراء خلية ، تبعث الخدر والتراخى فى أنحاء مكوناتها . .

ولم تقو كارثة إغلاق معسكر مهاجريهم با لنمسا على زعزعة راحته . . ولا قدرت

الأخبار الكاذبة ، بل المغرضة بالفعل ، التى تقول باستعداد المصريين والسوريين للهجوم عليهم على أن تمحو هدوء أعصابه واطمئنان قلبه . . حتى همهمات الضباط والجند من حوله وبالرغم مما يعتريهم من قلق وتوجس ، لم تكن بمستطيعة هز إيمانه ! . . وعمودياته المقدسة تطل عليه برخيم هديرها وجمال لمعان صواريخها . .

* * *

وصبيحة اليوم التالى – يوم ذكرى مولده – صعد ليفى إلى قمة الموقع ، وراقب بمنظاره المقرب مواقع المصريين جيدا . . لا ينكر أنه قد شاهد هذه المرة بعض مظاهر الحركة بينهم ، لكن أى جديد فى تغيير أماكن عدد من حمالات الصواريخ ؟ . . وما الذى يريب فى تواجد لفيف من الجند أو الضباط ، يراقبون بدورهم المواقع الإسرائيلية ؟

لا . . إنه ليقسم أن ليس هناك تحرك واحد غير عادى . . ليس هناك ما يخيف بالمرة فالبلدوزرات مستمرة فى رفع الرمال لتعلية السواتر لديهم ، والجند غير المسلحين يجلسون على حافة القناة وأرجلهم مدلاة فى الماء ، يصطادرن ويلهون . . وبستانى «الفيلات» القريبة يقوم بريها كعادته منذ هجرها أصحابها . . . ومظاهر أخرى لا حصر لها ، تدل على نفس حالة الركود ، راح برصدها ليومه الثانى على الجانب المصرى . . بل لقد لمح جماعة من الجند يؤدون صلاة الجمعة فى العراء ، فى استغراق وخشوع كاملين !

وجاء يوم آخر ، السادس من الشهر . . لكن ليفى لم يعاود الصعود ، ولا اعتنى بالمراقبة جيدا من داخل المربض الأمامى . . فاليوم السبت ، يوم العيد ، يوم الراحة والاسترخاء . . وإنما انصبت عنايته على تناول وجبة مطهوة تغاير وجبات المعلبات الباردة ، وإشعال سيجار كان يدخره لهذه المناسبة . . ثم نظر فى ساعته ،

فوجدها تحدد ثلاثين دقيقة بعد الواحدة ظهرا ، فتناول رواية من تأليف « باتيل ديان » ، وأسرع يستلق على الفراش يلفه عالم عمودياته . .

وأوشك النوم أن يغزو جفونه ، حينما ارتج سريره مرتين متتاليتين . . وحينما أسقط الرواية من يده ، واعتدل فى رقدته ، تتالت دمدمات أكثر قربا . . ولم يصدق أذنيه مع ازدياد الانفجارات ، واختلاط رجفاتها العميقة بصيحات مختنقة تتصاعد نائية سحيقة ، فلا يميز منها غير كلمة : «هجوم» !

وحين غادر الحجرة بمنامته ، وطوى درجات السلم قفزا إلى الطابق الثالث . صدمه واقع يغلى بالفوضى والاضطراب : «لقد بدأ المصريون هجومهم المباغت علينا» !

ما الذى يسمع ؟ . . هل اختلطت الكلمات فجاءت معكوسة ، عصية ؟ . هل جن القوم حوله فأصبحوا يهذون ؟ !

وتعالى دوى النفاثات يشق السماء فوق رءوسهم . فصاح ليفى فرحا من أعماقه :

– ها قد أقبلت طائراتنا !

وقاطعه صوت متهدج ، مثقل : «بل هى طائرات العدو . . !» .

حينئذ فارت الدماء فى عروق ليفى من غباء ذلك الرجل . وألقى بعنقه يطل من كوة المراقبة إلى أعلى ، إلى حيث تمرق النفاثات . .

– إنها تنقض فى اتجاه الغرب . .

– قلت إنها طائراتهم ، «الميج» . . تعود بعد أن ضربت مواقعنا . . .

ولم يفهم ليفى : ألدى الآخرين مثل هذه الأعداد من النفاثات ؟ . . ومن الذى يقودها ؟ . . على أن جحيماً آخر فتحت أبوابه . . عشرات من القنابل

تلاحقت تنقض وتدك مواقعهم . فهل أخطأت مدفعيتهم طريقها . وبدلاً من أن تصلى قوات العدو على الجانب الغربى . راحت تصليهم هم نيرانها الحامية . . إن دقة التصويب امتياز مقصور عليهم وحدهم بالتأكيد . . .

«المصريون ينزلون الزوارق إلى الماء» ! . .

«إنهم يعبرون الآن» ! . .

وعاد يجرى إلى كوة المراقبة . . وصفع بصره مالم يره من قبل فى مثل هذه الكثافة والإصرار ! . . وجه القناة فقد كل لمعانه ، فهو مغطى عن آخره . . ما من جزء من مياهه يخلو من جسم انسيابى يغطيه ! . . وحدق من خلال أشعة الشمس التى تواجهه ، فشاهد – فيما يشبه الحلم – مئات الزوارق والناقلات تتزاحم فى اتجاهه . وقد ازدحمت عن آخرها بالرجال . . وركز بصره فى عصبية أكثر . . إنهم يشهرون العديد من الأسلحة ، ويوجهون أيضا الصواريخ . . .

وانحنى محموما يضغط الأزرار . . .

لكن ما بال المياه لم تشتعل أتونا ملتهبا فى وجه القادمين ؟ !

عندئذ استدار يصرخ فى رجاله ، يطالبهم بالتركيز . وبالصمود . . فالقبضة . . الحديدية الإسرائيلية سوف توقف كل الذى يرون ويكابدون . سوف تسحق . وتطهر ، وتكتب لهم النجاة ! . .

ولم تكتمل صرخات ليفى . . ماتت أوامره . فقد اعتصره ضغط هواء مفاجئ . وصكت سمعه أصوات تمزق وتكسر مرعبة . . ثم التقطت أذناه المشوشتان جملة مشروخة : «خلفنا دبابات مصرية من طراز (ت – ٥٤) ؛ تصلينا بنيرانها» !

ثم زاد غموض الكلمات الثقيلة التى تختلط بالانفجارات . «عموديات مصرية

كثيرة فوق موقعنا رأسا» ! . .

لا . هذا لا يكون . . ليست العموديات مصرية على الإطلاق . . إنه يغرم بالوحوش الضخمة ، يعبدها . . فلماذا تخذله ؟ . . لماذا تعطى أسرارها الخطيرة لسواهم ؟ . . . وانطلق عبر الممر ينشد الخروج إلى العراء . . ليس استجابة لصيحة اليأس والفرار . وإنما ليتأكد من عدم خيانة طائراته العمودية المعبودة !

ثم برز عدد من الأشباح فى نهاية الممر . . شقوا الجدار . أو هبطوا من السقف . . وانتصب أحدهم بقامته الفارعة يسد طريقه . . وأجهد ليفى عينيه المتعبتين الدامعتين ليتبين الشبح . . كان ماردا عملاقا ، عملاقا . ليس على شاكلتهم . . هل . . هل يوجد آخرون غيرهم بداخل الموقع ؟ . . هل يوجد وسطهم مردة سُمْر جادّو الوجوه ؟ !

آه . . ماذا ؟

وصعقه عمود من نار فى صدره . . آه ! . . وآخر فى كتفه . . ترنح بشدة . . كاد يسقط ، وغشى ضباب أصفر تعكر عينيه . .

ولمح المارد يزداد ضخامة . . يكبر ، يكبر . . بينما صدره هو يحترق ، ويحترق . . وجسده يحس هبوطا ، وتداعيا ، وانهيارا . .

المارد يزداد اقترابا وكبرا . وهو يسقط على ركبتيه . . المارد يكبر ويكبر . وهو ينكفئ وينحنى . . حتى سقط رأسه قبالة الحذائين الضخمين المتربين !

اللقاء الرهيب

كانت العاصفة الترابية قد بدأت تهب على أشدها . . ألسنة من شواظ التربة راحت تندفع نحو السماء فى دوامات عنيفة . . وعاليا من نهايات الدوامات ، كانت تخرج رءوس عكرة تنتشر ، وتختلط ، فتزداد عتمة الأفق . . وتزداد حدة واسترسال الصفير المقبل . .

وأشار الرجل بالمقدمة إلى رفاقه الخمسة ، إشارة ذات معنى . . ثم أسرع يتبعه الباقون ، نحو جسم رمادى عملاق ، له أرجل معدنية تشبه أرجل العنكبوت . . وخلال تقدمهم ، كان الرجال الستة يبذلون جهدا مضاعفا ، فقد كانت أرديتهم الثقيلة ، بيضاء اللون ، تعوق حركتهم .

أخرج الرجل – الذى فى المقدمة – جهازا فى حجم علبه الثقاب ، ضغط على زر فيه . . انفتحت بالجسم العملاق كوة ، هبط منها سلم ، فانتحى الرجل جانبا

يتيح لزملائه الصعود ، الواحد وراء الآخر ، وهم يحملون أرديتهم فى مشقة ، ثم فى النهاية صعد الرجل ، وكان أقصر زملائه كذلك . . وأغلق الكوة وراءه . .

خلال دقيقة ، انكمشت أرجل الجسم العنكبوتية حتى اختفت ، ليحل بدلا منها – ببطن الجسم – «جنزير» عريض . . وتحرك الجسم بتحرك «الجنزير» ، وفى لفتات متشنجة ، استدار ليتجه ببطء إلى خانق غائر فى قلب قبة صخرية ممتدة الجوانب ، مسننة الحواف . . ولم يبق ظاهر من الجسم العملاق سوى قمته . . حيث اتضحت نافذة بيضاوية . .

من خلف رقائق «البلاستيك» الشفافة ، التى تغطى النافذة والقوية فى صلابة الجسم الفولاذى نفسه ، أطل رأسان يرقبان مشهد العاصفة الفريد فى شغف كبير . فى حين انغمست الرءوس الأربعة الأخرى فى دوامة عمل ، يتصل بكافة ما تحمله المركبة الكونية من أجهزة معقدة ومعدات بالغة الحساسية . .

ولم تدم روعة المشهد . . فسرعان ما طمست الأتربة الكثيفة مجال الرؤية . وحولته إلى قوام ثقيل ، مظلم ، بنى فى لون القهوة المحروق بنها . . .

«العاصفة الترابية آتية من اتجاه الجنوب الشرقى ، من قمة القطب الجنوبى . . وحسب تقديرات الحاسب الإلكترونى المتصل بالأعين الرادارية وأجهزة الرصد بالمركبة ، فسوف تنقشع العاصفة عن منطقة رسوهم ، بقرب خط الاستواء . خلال ٤٠ دقيقة» .

– انظر ! . . هناك شىء يتحرك . . يسارا . .

وحدق وجه الرجل القصير ، من خلف حاجز البلاستيك ، وكان قد نزع عنه قناع ردائه . .

– غير ممكن . . الكوكب ليس مأهولا . . .

– بل أرى ظلا يتحرك . .

– أين ؟

– على حافة التبة ، وسط الأتربة البنية . .

– لا ألمح شيئاً . .

– إنه يشبه حيوانا . قردا ، أو دبًا غزير الشعر . . !

– لا أراه . إطلاقا . .

وأجمعت بقية الرءوس ، التى هرعت على عجل على أنها بالفعل لا تميز شيئا . .

– لقد اختفى . .

بعد ساعة زمنية انقشع الجو ، واتضحت معالم الأفق بتفاصيله المثيرة من جديد . . بجباله الشاهقة ذات الجروف المعرّاة بتأثير لفح الرياح ، وأوديته الجرداء من النبات ومن كل أثر للحياة . . وبحاره المكشوفة القاع ، وبراكينه الخامدة . . وبذلك اللون المتدرِّج من الأزرق الداكن ، إلى الأخضر الداكن ، إلى البنى المصفرّ ، فالأصفر . . يغطى كل ما تقع عليه العين . .

وهبط الظلام بعد ٢٥ ساعة . . اليوم هنا يزيد عن يوم كوكب الأرض بساعة واحدة . . كذلك فروق الحرارة طفيفة ، محتملة ، تتراوح بين ٢٠° فوق الصفر و ٤٠° تحته ، كما أن الجاذبية هنا تساوى ثلثى الجاذبية على سطح الأرض . .

ولا يتبقى ما يشكّل خطرا حقيقيا على الرواد الستة سوى أمر واحد ، لكنه بالغ الأهمية . . فالجو هنا خال من غاز الأكسجين تماما . . هكذا أنبأتهم أرصادهم السابقة ، وهو نفس ما اضطرهم للتقيد بالأردية الثقيلة فى رحلتهم هذه . .

وحل نوع من السكون يعكره هبوب ريح لا تكف عن الصفير بالخارج . .

وغلب النعاس رواد المركبة الستة . وبقيت عين إلكترونية حارسة ترقب من اتجاهات عشر . .

لقد كلفتهم الرحلة ثمانية وعشرين مليونا من الجنيهات ، وكلفتهم خمسة أعوام من السجن الاختيارى ، قطعوا خلالها ٢١ مليون مليون ميل . بتلك السرعة الخيالية التى بلغتها سفنهم الكونية مؤخرا ، تصل سبعة أعشار سرعة الضوء ، فلا يجدون غير الخواء . . ولتنعَسْ عيونهم بعد يوم حافل مضن . فيناموا فى قلب صحراء جرداء زرقاء . .

مع إشراقة قرص . . باهت . ضعيف الضياء . وقسم القائد قصير القامة جماعته إلى فريقين : اثنان بقيادة نائبه يلقون نظرة على الجانب الشمالى من التبّة ، ويلتقطون صورا وأفلاما سينمائية ، ويجمعون عينات صخرية . . واثنان بقيادته هو . يعتلون تلك الفوهة البركانية الخامدة . ليتبينوا ماوراءها . ويلتقطون أيضا صورا وأفلاما ، ويجمعون عينات . .

حمل الفريق الأول معداته واتجه إلى غايته . . .

وحمل الرجل القصير ورفيقاه معداتهم ، وشرعوا يصعدون فى اتجاه الجزء — من حافة الفوهة — الأقل وعورة ، وسط الحصى الأزرق «المخرفش» ، وقطع الحجر الأملس المتدحرجة . . وهذه التقففات من مكونات شفافة مسننة ، مثل الزجاج . . وتحت ثقل الأردية المكيَّفة . كانت كل خطوة فى الصعود عملية عذاب . .

لكنهم بلغوا القمة . .

وحين هموا بافتراش التربة ، ليلتقطوا أنفاسهم برهة من الوقت ، رأوه هناك ! . . فجأة وجد ثلاثتهم أنفسهم وجها لوجه مع الآخر . . منفردا ، قصيرا جدا ، فى نصف قامة إنسان أرضى . . ملتحفا بفراء دب ، مغطيا وجهه بقناع عاكس كالمرآة ، فلم يتبينوا حقيقة قسماته ، إن كان له وجه . .

وكان يشب على ساقين قصيرتين ، منفرجتين ، وله ذراعان تحملان ما يشبه قاذفاً للهب . . وكانت الذراعان والساقان مغطاة برقائق معدنية براقة . .

وشهر الرجال الثلاثة أسلحتهم النارية على الفور . . ثلاثتهم ضد واحد . . الفرصة بالنسبة لهم أكبر !

لكنهم لاحظوا سكونا على حركة الكائن ولاحظوا أن فوهة قاذف اللهب خفيضة ، تأخذ الاتجاه إلى أسفل . .

فخفضوا بدورهم فوهات أسلحتهم . .

وساد صمت امتد توتره إلى أقاصى الكون . . إلى أبعد جوانبه الموغلة فى التيه والانعزال ، بما يحتوى من أجرام لا حصر لأشكالها وأحجامها وأعدادها . . وبما فيه من أسرار ومعميات وأبعاد فوق كل إدراك . . .

وحفر على إحدى صفحات الأزل ، فى نقطة من نقاطه التى لا بداية ولا نهاية لتتابعها ، حدوث أول لقاء بين نوعين راقيين من الكائنات ، من كوكبين مختلفين . .

بعد دهر تحرك الكائن . . فى ثقه بسط يدا مكتنزة ، مصفرة ، خضراء العروق . . رفعها إلى أعلى فى هدوء ، ثم عاد فمدها أماما فى اتجاه أقرب الرجال إليه . .

استجاب القائد للتحية ، فلمس اليد الباردة فى حذر . . وتبعه رفيقاه . .

وأشار الكائن برأسه فى إتجاه الجانب الآخر من فوهة البركان . . هناك شاهد الرجال ما يشبه السيارة تربض فى ظل صخرة . . وحرك ذراعه يدعو واحداً منهم إلى مشاركته ركوبها . . .

إلى أين ؟ . . كانت بحق مغامرة مجنونة . يطل من ورائها شبح الغدر بأوضح صوره ومعانيه !

تسمر الرجلان ، لكن القائد أومأ بالموافقة . . وحاول رفيقاه أن يثنياه عن عزمه ، بمخاطبته فى قسوة ، عبر جهاز الاتصال اللاسلكى بقناع كل منهم ، لكنه أصر . . فقط طلب منهما إخطار الباقين بتغيبه مع الكائن ، وانتظار عودته حتى صباح اليوم التالى ، وإلا فليقلعوا على الفور ، مبتعدين عن هذا الكوكب وساكنيه . .

ودون أن يجيبهم سار فى أعقاب الكائن ، ودخل السيارة التى تبين فيها نوعاً مطوّرا من الحوامات ، لا تضم سوى مقعدين ، انحشر فى أحدهما بمشقة . . وسرعان ما همّت الحوامة بارتفاع أربعة أمتار أو خمسة ، واندفعت فى ليونة لتختفى ، دون صوت أو اهتزاز ، فى طيات عفرة أثارتها محركاتها القوية . . فى حين جمد صاحبا القائد فى مكانهما حائرين مشدوهين . .

* * *

فى جولة استغرقت قرابة الساعتين بالحوامة . التى كانت تندفع بما يفوق سرعة الصوت أربعة أضعاف ، تفقّد القائد من رواد الأرض حضارة الكوكب الأزرق بأدق وأروع تفاصيلها . . القنوات العظمى التى تشبه قنوات المريخ ، تمتد آلاف الأميال لجلب المياه عقب ذوبانها من كلا القطبين — الشمالى والجنوبى — حين يحل بأيهما فصل الصيف . . ومداخل وقباب التهوية للمدن التى بُنِيَت بأكملها تحت

سطح الأرض . . وشاهد أكثر من مرآة ضخمة لتجميع أشعة النجم وتركيزها ، بغرض استخدامها صناعيا . . ومستعمرات من لدين يشبه الزجاج ، تضم أنواعا داكنة الاخضرار من نباتات متسلقة ذات أوراق عريضة . . .

وشاهد أيضا بقايا مدن مقامة على سطح الكوكب ، شيدت دورها على هيئة قباب مستديرة وأهرامات ومصاطب ، تحيطها أسوار عالية . . وتجمعات لحظائر حيوانية خاوية بأكملها . . وأجسام مستطيلة تشبه السفن ، عمها الخراب ، وقد استلقت مائلة على جوانبها فى قيعان البحيرات والبحار الجافة . .

ثم لاحظ فجأة ، أنه مع طول التجوال ، وعلى كثرة ما شاهد وراقب من ارتفاع الحوامة الحفيض ، فإنه لم يركائنا واحدا غير الذى يجلس بجواره ، متحجرا فى ردائه الغريب ، كأنه ميت بالرغم من نضارة يديه وطراوتها . بل لم يلمح شيئا تشمله الحركة ، سوى الحوامة التى كانت تنساب بدورها بلا صوت يصدر عن آلاتها . .

وكأن الكائن قرأ أفكار الرجل ، فقد هبط بالحوامة ، وتوقف لدى فتحة واطئة ، فى أعماق هرم استقامت جوانبه المائلة ، المصنوعة من خلايا معدنية تمتص أشعة الضوء . . وبدت فتحة الهرم مفضية ، فيما يبدو ، إلى مكان ما ، بأسفل السطح المغطى خارجيا بنوع فقير من عشب بنفسجى متيبس . .

بعد أن طرق الاثنان عديدا من الممرات والسراديب ، التى بدا الإهمال ضاربا بين جوانبها ، بما يغطيها من أتربة ، ويتناثر بين أرجائها من أثاث وأجهزة مهجورة غريبة التركيب . . توقف الكائن قبالة حائط به باب أملس ، مغلق ، لا يتضح عليه أى مقبض لفتحه . .

لكن الباب انفتح على مصراعيه دون لمسة من أحد ! . . وانكشفت رحبة

فسيحة الأرجاء ، بدت وكأنها مجموعة قاعات متداخلة . تغطى جدرانها صفحة مسامية لامتصاص الصوت . ويغطى أرضيتها مشمع لامع كالبللور . . .

وفى صدر الرحبة . ظهر نموذج غاية فى الروعة الهندسية . لجهاز ضخم ذى طابقين ، عرف فيه القائد - بخبراته الأرضية وطول مرانه - حاسبا إلكترونيا ممتاز التكوين . يفوق النماذج الأرضية جهدا ومقدرة . . وقبالة الحاسب المضاء بوسائل خفية حانية . لمح القائد عدداً من الكائنات تلبس أردية فيروزية . يشوب أطرافها سواد لدى اليدين والقدمين . .

كما أحس القائد ارتفاعا فى حرارة جو القاعة . .

وقبل أن يجد فسحة من الوقت تتيح له أن ينعم النظر فى تفاصيل وملامح الكائنات المنهمكة فى عملها ، حول الحاسب . بادر الكائن الأول - الذى قاده إلى المكان - بمسلك شاذ . . فعلى بعد أقدام من لوحة مفاتيح تشغيل الحاسب المتجاورة فى انسجام ، توقف الكائن . . ضم ساقيه ، واستقام بيدنه القصير . . وفى بطء ، بدأ فى خلع ردائه الشبيه بفراء الدب ، وسترة أخرى ورقية - أو من مادة تشبه الورق - كانت تحت الرداء . .

وخلع القناع . . وخلع كذلك ثوبا داخليا ، كما نزع عنه جهازا ضاغطا . كان يلفه حول وسطه . .

وبقى فى النهاية عارياً . . !

الكائن الذى يشبه المخلوقات البشرية ، والذى يعيش على سطح الكوكب الأزرق ، سادس الكواكب بعدا عن النجم . . بقى عاريا بكل تكوينه . وكل تفاصيله الظاهرية الملائمة لظروف كوكبه وحكمة خلقه . .

وتفرس القائد فى المخلوق الواقف قبالته . . كان رأسه يمثل ثلث حجمه

تقريباً ، ضخما ، مكورا ، أصلع ، بارزة قليلا عظام الجبهة فيه . . أما الوجه ، فكانت ملامحه وقسماته لوجه طفل لم يتعد عامه العاشر ، وصغيرا للغاية بالنسبة لمساحة الرأس . . كأنه السرة فى نهاية ثمرة برتقال !

وبدت العينان واسعتين ، والأذنان مجرد فجوتين . . .

وكان كل من العنق والذراعين والساقين قصارا مكتنزين . . لكنها متناسقة . . وإن شذ عن التكوين القدمان والكفان لضآلتهما بشكل واضح . . وأما لون البشرة ولون البدن بأكمله فكان يميل إلى الصفار تتضح من خلال لحمه عروق خضراء متشعبة خفيفة فى الاطراف كثيفة عند الصدر . . .

وحين لحظ الكائن أن تفحص عينى القائد لجسده قد هبطت حدته تناول رداء فيروزيا لبسه على مهل . . ثم أشار إلى مجرى من مادة متحركة متلألئة يحده ما يشبه الإطار بالطابق الأسفل من الحاسب بعرض نصف متر وطول يصل إلى نحو خمسة أمتار . . وبدأ يدير مفاتيح معينة ويضغط أزراراً ذات رءوس متباينة الأحجام . . .

عندئذ خرج فحيح من مكبر صوت الحاسب لم يتبين القائد فحواه لوجود القناع على رأسه . . لكنه رأى جريان بعض الأشكال الهندسية المفككة بداخل الإطار فى اتجاه من اليمين إلى اليسار . .

هز القائد رأسه علامة الحيرة وعدم الفهم . . .

أعاد الكائن ضبط مفاتيحه . . وظهرت أشكال هندسية مغايرة . . أيضاً غير مترابطة . . تتجه يسارا باستمرار . . وهز القائد رأسه كذلك بالنفى . . .

وللمرة الثالثة ضبط الكائن مفاتيح الحاسب . . وقبل أن يكتمل وضوح الفحيح . . وبينما الأشكال الهندسية الجديدة لم تكد تأخذ طريق سيرها . . ولم تبرز

معانيها وتتبلور . . إذ بالقائد يرفع ذراعيه هذه المرة معاً علامة الإيجاب . . والإعجاب . . .

وأسرع الكائن فى نشاط زائد يعزف شيئاً مغايراً . . وتكونت أشكال فيها بهجة . . حروف مقروءة . . . «أنت . . تتكلم . . العربية . . » .

أحنى القائد رأسه : نعم . . .

استمرت الكلمات تترى مقطعة مجزأة . . .

« نطلب . . منك . . أولا . . أن . . تنزع . عنك . قناعك . . »

بانت الحيرة فى حركات القائد . . كيف ينزع قناعه وسط جو لا يعرف مكوناته . . .

وحينئذ ، ظهرت كلمات : «لا . . تخف . . جو . . المكان . . مكيف . . فيه . . ما . . تسمونه . . أكسيجين . . فنحن نتنفسه . . كذلك . . » !

خلع الرجل قناعه ، فاختفت الكلمات المتباعدة . . وبقى الفحيح ؛ مسموعا الآن . . يفسر بصعوبة كلمات عربية فصيحة ، ممطوطة المخارج :

«نحن . . نعرف . . الكثير . . عن . . كوكب . . الأرض . . من . . أى . . بلد . . أنت . . ؟»

– أنا مصرى . . بلدى جمهورية مصر العربية . . .

«لقد . . انتظرنا . . طويلا . . قدوم . . أحد . . من كوكبكم . . حتى أتيتم . . أنتم . . أخيرا . . » !

– إنها أول رحلة كونية مصرية لهذا الطرف من مجرتنا : «سكة التبانة» . .

«هذا . . رائع . . فشعبنا . . يرصد . . كوكب . . الأرض . . منذ . . آلاف . . السنين . . بآلات . . رصد . . عظيمة . . ويعرف . . الكثير . .

عنكم . . وقد . . تم . . لنا . . حل . رموز . . ثلاث . . لغات . . تتحدثونها . . هى . . اليونانية . . الفارسية . . العربية . . » !

بادر القائد بسؤال : « هل أنتم كائنات مثلنا ؟ . . وهل تشبهون البشر من أهل الأرض ؟ »

« إننا . . مثلكم . . مع اختلافات . . يسيرة . . فى أطوال . . قاماتنا . . بالنسبة . . لقاماتكم . . وفى أجهزة . . أبداننا . . الداخلية . . فقد خلت . . من الزائدة . . الدودية . . المرارة . . الطحال . . المرىء . . اللوزتين . . الأسنان . . كما ضمرت . . المعدة . . لأن . . الطهو لدينا . . معقد . . ومعظمه . . لبن . . ألبان . . سوائل . . » !

– وهل بينكم ذكور وإناث ؟

« الذكور . . هم الغالبية . . أما الإناث . . فقد تبقت . . منهن . . واحدة . . » !

– أين ؟

« إنها . . هنا . . بيننا . . » !

– . . . . . . ؟

« أنا . . » !

تمتم القائد فى ذهول : « أنت ؟ ! » .

وجاء التفسير سريعا . . « ضمرت . . بمرور . . الزمن . . أثداء . . الإناث . . لدينا . . كما أن . . رءوسنا . . رجالاً . . ونساء . . صلعاء . بفعل . . نقص . . الأكسيجين . . بكوكبنا . . » !

وفضل القائد أن يغير الموضوع : « لماذا لم أر سواكم على امتداد طوافنا بمدنكم

وقنواتكم وطرقاتكم ؟»

«لذلك . . قصة . . طويلة . . محزنة . .»

* * *

وعرف قائد الرواد المصريين تفاصيل المأساة التى عاناها شعب الكوكب الأزرق الشجاع على امتداد آلاف السنين . .

راح الحاسب يحدّثه ، وأصابع الكائن لا تكاد تتركه : لقد امتد عمر الحضارة على ثرى كوكبهم إلى ما يعود لمليون عام سابقة . . وقبل أن تتنفس حضارة إنسان الأرض أولى أنفاسها . . ثم ، منذ ما يزيد على عشرة آلاف عام ، بدأ الحدث المخيف فى الوضوح . .

إن النجم – أو الشمس – الذى يستمدون منه الضياء والدفء على كوكبهم ، نجم كبير يتركب من عنصرى الكربون والأكسيجين الثقيلين ، وتنتج طاقته الإشعاعية عن تحولات ذرية للعنصرين ، مثل بقية النجوم ، طبقا لقاعدة تكافؤ المادة والطاقة . . ومع أن كميات الطاقة – التى تتضمنها تحوّلات النجم الذرية – أضخم بكثير من مقادير الاحتراق بباطنه ، فإنه بدا فى الانكماش والبرودة ببطء ، يوما وراء يوم . . .

ومن هنا قل ضياؤه . . وقلت الأشعة الحرارية التى يبعث بها إلى كواكبه الأربعة عشر ، ومنها كوكبهم الأزرق . . وبالتالى قل الدفء ، وازدادت البرودة . . ومع ازدياد معدلات البرودة عاما وراء عام ، أخذ الجفاف يدب فى سطح الكوكب . . وتسربت أبخرة مياهه بوفرة إلى جوه ، متأثرة كذلك بضعف الجاذبية وقلة كثافة الجو ، مثلما حدث على سطح الكوكب المسمى بالمريخ من المجموعة الشمسية . لكن أهل الكوكب الأزرق ، مزودين ببطاقات – عضوية وفكرية –

لا تعرف الكلل ، بنوا القنوات الكبرى من خط استواء كوكبهم إلى قطبيه . . وبدا وكأن مشكلة استمرار الحياة قد حلّت بجلب الماء – عند إذابته بالقطبين – إلى المنطقة الاستوائية ، حيث تتركز المدن ، ومن ثم يتركز الأحياء . .

لكن ظهرت مشكلتان جديدتان . . أولاهما ازدياد تسرب الأكسيجين ، بتحلل بخار الماء المتسرب – أولا بأول – إلى عنصريه : الأيدروجين والأكسيجين . . فأخذ الأول يتطاير إلى الفضاء لقلة كثافته ، فى حين يتساقط الثانى إلى السطح مؤكسداً القشرة الخارجية للكوكب ، ومهلكا الكثيرين من أبنائه بمرض الشيخوخة المبكرة ! . .

«أتعرف . . كم . . كان . . متوسط . . عمر . . الفرد . . منا ؟»

– كم ؟

«اربعمائة . . عام . . .»

– ياه . . وكم أصبح متوسطه الآن ؟

«أصبح . . أخيراً . . مائتى . . عام . . وربما . . أقل . . .» !

– تعنين أن عمرك يزيد عن الثلاثين ؟

«أجل . . بمائة . . عام . . .» !

وكانت المشكلة الثانية أن ازدياد معدلات برودة الكوكب أدت إلى هلاك كل الثروة الحيوانية ، من طيور وحيوانات وأسماك . . وبالنسبة للنبات ، فلما كانت غالبيته ليست بذورية وإنما من الأنواع الوعائية ، التى تحتوى على كميات كبيرة من الماء ، فقد تسببت البرودة الشديدة التى تفوق احتمالاتها ، فى تجمد النبات . . كما أثّر تزايد البرد والصقيع على الأحياء أنفسهم بالرغم من تقدم وسائل التدفئة الصناعية عندهم . . فتساقط الالآف ، خاصة الصغار ، صرعى البرد والاختناق

من قلة الاكسيجين . . .

– تعنين أن أحدا لم يتبق سواك وهؤلاء الثمانية الآخرين . . على سطح كوكبكم ؟

« لا . . هنا . . مائه . . وأربعين . . غيرنا . . نصفهم . . من الإناث . . » !

– بالمدن الباطنية ؟

« هذه . . المدن . . كلها . . خاوية . . » !

– فى هذه الحالة هم فوق السطح . . بقاعات مجاورة ، أو فى مستعمرات قريبة ؟

« إنهم . . ليسوا . . أحياء . . بالمرة . . » !

– ما هذا الخلط ؟ . . لقد ذكرت قبلا أنهم ليسوا أمواتا ، وهأنتذى تنفين ذلك الآن . .

لم يبتسم وجه المرأة الطفولى لارتباك الرجل ، فمنذ أعوام لم يعرف الابتسام . . لكنها قالت فى اقتضاب عن طريق الحاسب . . .

« اتبعنى . . سوف . . تراهم . . بنفسك . . » !

* * *

وقادته عبر ممر انتهى بباب ، انفرج بدوره بمجرد وصولها قبالته . . وبالداخل بانت قاعة مهولة ، يفصلها عن المدخل الوحيد – الذى أقبلا منه – جدارا بلوريا . . لا ، بل ربما أكثر من جدار . . ووراءه كانت ترقد عشرات الأجساد ، فيما يشبه الثبات الكامل ، وقد غطتها غلالات رقيقة ، فى حين كانت رءوسها الصلعاء تلمع فوق أسرّة متراصة متوازية فى نظام أخاذ !

وحين أغلقت القاعة ، وعادا ثانية إلى حيث الحاسب الناطق ، عرف القائد

المصرى أن هؤلاء الراقدين بالقاعة هم الباقون من شعب الكوكب . وأنهم إنما يرقدون فى سبات الجمد بوسيلة علمية مبتكرة ، انتظارا ليوم يُفَكّ فيه جمودهم ليعودوا إلى الحياة ، وإلى التكاثر من جديد . .

« بقى . . شىء . . هام . . »

– ما هو ؟

« لم تسألنى . . عن السبب . . فى إحضارك . . إلى هنا . . واطلاعك . . على . . كل . . الذى . . رأيت . . وسمعت . . » !

– حقا . . لم أعرف بعد ؟

« إن . . مقدمك . . وزملاءك . . إلينا . . هو ما كنا . . ننتظره . . منذ . . أعوام . . فهو . . الأمل . . المتبقى . . أمام . . معنى . . الحياة . . الكبيرة . . على ظهر . . كوكبنا . . » !

– لكن . . لماذا لم تتصلوا بنا لاسلكيا من قبل ، وأنا أرى أجهزة الإرسال لديكم تفوق مثيلاتها لدينا ؟

« معظم . . مالدينا . . من أجهزة . . مخرَّب . . بال . . كما أننا . . نحن المتبقين . . أحياء . . لا دراية . . لنا . . بتشغيلها . . ولا بكيفية . . الاستفادة منها . . ! » .

انتم . . بالفعل . . محاصرون !

قالها القائد المصرى ، أسمر القسمات ، وهو ينقل عينين زرقاوين بين الوجوه الصغيرة ، الرقيقة ، المتعلقة به فى رجاء . . ثم تناول قناعه . . احتضنه برهة ، كأن عقله يفكر عميقا ، وقال :

– أعدكم بأن أنقل لهم . . هناك ، على ظهر الأرض . . تفاصيل محنتكم وآلامكم . .

تقدمت المرأة من أهل الكوكب الأزرق خطوتين قصيرتين . . دفعت بين أصابع قبضته الطليقة علبة معدنية خفيفة . وعادت تدير مفاتيح الحاسب . .

« بالعلبة . . عشرة . . أشرطة . . تسجيل . . بها كل . . ماتريدون . . معرفته . . عنا . . عن محنتنا . . وبها . . أيضا . . خطة . . هجرة . . جماعية . . لو سمحتم . . إلى كوكبكم . . أوفلتبحثوا . . عن حل . . آخر . . يناسبكم . . وينقذنا . . لاتنس . . العلبة . . إنها . . التأكيد . . العلمى . . لما ستقول . . لهم . . ! » .

وأراح القائد قناعه على رأسه . وأحكم تثبيته . . وبينما احتضن علبة الأشرطة تحت ذراعه اليسرى . مد عينيه . . بسط يده إلى أعلى ، ثم مدها أماما . . وقبضت المرأة على أصابعه بأصابع قصيرة دافئة . وليست باردة كما كانت قبلا . . تشبثت به طويلا . . طوقته بنظراتها . . كان صدرها الشبيه بصدور الرجال . يعلو ويهبط فى عصبية . .

انحدرت دمعتان من عينيها الواسعتين على خديها : . وابتسم فمها الدقيق الخالى من الأسنان لأول مرة . .

وابتسم القائد أيضا من وراء القناع . . فتلاقت ابتسامتا أخوّة نادرة . .

بعد دهر من الثوانى الجياشة . استدار القائد فى تثاقل ، وغادر القاعة تشيعه همهماتهم ، التى تعالت لأول مرة فيما بينهم ، والتى تشبه زقزقة البيغاوات وصيحاتها . .

* * *

عند ضحى اليوم التالى ، أغلقت المركبة بابها على روادها الستة . . وابتلعت « جنزيرها » وسيقانها العنكبوتية إذ اجتذبتها فى رشاقة — عن طريق توجيه

إلكترونى – ذراع فولاذية أودعتها قلب السفينة الكونية . . وعقب انتهاء العد التنازلى ، من ٥٠ إلى صفر ، أطلقت صاروخها العكسى . لتأخذ السفينة الانسيابية فى الإقلاع عن السطح الصخرى الأزرق ، فى سرعة يعتريها ارتجاج طفيف . . بادئة خمسة أعوام جديدة من السجن الاختيارى فى طريق العودة إلى كوكب الأرض . .

وبعيدا عن مكان انطلاق السفينة . . انتصب لدى فوهة بركان خامد ، جسد قصير يلفه فراء كفراء الدب . .

وكلما ارتفعت المركبة ، كان فراء الدب يتضاءل . . ويصغر ، ويصغر . . حتى اختفى فى النهاية . . !

تلال الصمت

الطين العالق من أعلى لأسفل ، أومن أسفل لأعلى ، وعلى امتداد الرؤية إلى حدود تقل ولاتزيد ، بدا شفّافا رقيقاً لدى الغرب ، معتما كريها فيما وراء الحافة الشرقية . . الطين ذراته أردوازية ، أو هى مزرقّة ، وقد تميل إلى الحمرة فى الأعالى . . والطين ذراته هشة . . هباء دقيق منثور ، لزج . . له رائحة صدأ المعادن . وهو فى تعلقه وانتشاره ، يحيل المنطقة – بامتداد الأديم الأسود – إلى بحيرة غامضة من الظلمة ، والروائح النفاذة . .

وفوق الطين ، أولدى أبعاده الشمالية القصية ، القرص مثبت . . شهور ستة يعتلى التلال السامقة كالأشباح ، وشهور ستة تطويه الظلمة . . وفى هذه اللحظة ، القرص فى منتصف الشهور الست الأول . . كامل الاستدارة ، محمرًا ، مسوَدًا ، كنقطة الدم المتجلطة . . تخنقه حلقة فضية من الضياء اللامع المتذبذب ، اتضحت

كأنها الشيء الوحيد الذى يشذ عن خطوط المنظر وتراكيب ألوانه المحتضرة . .

على أن الأديم الأسود لم يكن مستويا بالمرة . . الأطراف الغربية – عبر نفاذية الطين – تشكل هضبة واطئة ، تملؤها الثقوب والفتحات الغائرة . . وأما الأطراف الشرقية ، فهى هابطة منزلقة ، تقود إلى الجرف البعيد ، المطل رأسا – وبارتفاعه الشاهق – على اللجة الفائرة المتصارعة ، التى تتصاعد منها الفقاعات والأبخرة على الدوام . . ولايتبقى أقرب إلى الاستواء خلاف السهل المحدود الممتد جنوبا ، حيث أعواد الفطر النحاسى تتشبث بالتربة فى وهن ، وحيث السياج الصخرى يحجز أعدادا هزيلة من أجسام قشرية دودية ، قبعت فى قاع المستنقع ، الذى أوشكت مياهه الآسنة على النضوب . .

وزيادة على ذلك كله ، أطبقت على المنطقة ، وأنشبت فيها مخالبها ، حرارة لافحة رطبة . . وصمت عريض ، عريض . .

بغتة ، تحرك ظل بداخل واحدة من الفتحات الغائرة ، الواطئة السقوف ، بالهضبة . . من أعماق المغارة انفلت جزء من ظلمتها . . تقدم وئيدا . . هبط منحدرا . . ودونما صوت ، وكما تستلقى الظلال فى ليونة ويسر ، خطا كائن مبهم التفاصيل ، يخترق رحبة من الأرض الفضاء ، حتى توقف فى منتصفها . . وحملت ذرات الطين صفيرا مشروخ الإيقاع ، راح الكائن ينفثه من آلة يحملها . . وعلى الأثر ، لفظت بقية الفتحات بالهضبة من الأمام ، والجوانب ومن حفرات بأسفلها عشرات الكائنات . . متباينة الملامح ، مغرقة فى تنافر ثنيات أجسامها . . ومن بين الجموع المتزاحمة ، ودون أن يتضح من معالمها سوى كتل عارية مقذية من الدهن الرجراج ، شمعى البياض ، برز أطولها . . وكان يقبض على عظمة آدمية متفحمة . . !

أفسحوا له شبه دائرة هو مركزها . . راقبوه فى توتر . فى حين أخذ يدور على نفسه . ويدير بأعلاه كرة جلدية ملساء قد خلت من الشعر تماما . . وزاد توجسهم . حينما تبينوا محجريه الكليلين وهما يبرزان بالكاد . من تجويفى الكرة الغائرين . يحاول بهما تفحص الكتل المماثلة المحيطة به واحدة وراء واحدة . .

وعلى غير انتظار قذف الكائن عظمته إلى أعلى . ثم عاد فالتقطها . ليلوح بها فى عصبية تجاه الشرق . وقد انفلتت من كرته صيحة حيوانية . حوت الكثير من قعقعة الصخر وتكسّر أحجاره . . وبالرغم من أن ذرات الطين قد عجزت عن حمل أصداء الصيحة . وربما عمدت إلى كتمها . . فإن الكائنات لم تكن فى حاجة لاستيضاح معالم النغمة المنفعلة . بعد أن فهمت معزاها . . وعلى الأثر تعالت من كراتهم همهمات تلقائية . خافتة . ممطوطة . . فى حين استمر توافد المزيد منهم . ينحدرون من أعماق جحورهم . يقبلون كالسكارى . كالمنومين . فى بطء وإعياء . . فإذا مالحقوا بالجمع انضموا إليه . واستداروا مثل الواقفين يستقبلون الشرق . وقد تجاوروا . وتلامسوا . وطأطأوا كراتهم الجلدية الملساء فى وداعة واستكانة . . وهمهماتهم تنساب على نفس الوتيرة خافتة ، ممطوطة ، كلحن مبهم يفيض باللوعة ، والشجن . . ويتلكأ إلى حد العجز ووشوك التوقف . .

« هم . هم . هم . هاههم . . ترى . . رى . رى . هاههم . . هم » ! .

وخلال فترة من الدهر بدت قاسية فى امتداد جوانبها برغم قصرها . ومريعة فى وقعها برغم أنها تكاد تخلو من حركة ملموسة فعالة . . اتضح أخيرا أن جموع الكائنات – وقد قاربت أعدادها ألفا وقوفا – إنما يبدءون بالفعل مسيرة مجهولة . نحو الاتجاه الذى تعمدوا ألا يحيدوا عنه منذ البداية . .

« هم . . هم . . هم . . هاههم . . هم » !

وكان يتقدمهم أطولهم ، حامل العظمة الآدمية المتفحمة . . وتفر من أمامهم ، أوتصطدم بأسطح دهونهم ، ذرات الطين اللزجة الاردوازية .

« هم . . . هم . . هم . . هاهم . . هم ! » .

لكن صرختين متعاقبتين ، تمتلئان بالفتوة والتوثب ، أوقفتا الهمهمات ، أخرستاها . .

– لا . . !

– لا . . !

وتنفجر « اللا » هذه المرة ثاقبة ، مجبرة الذرات الهشة على رفعها ! والاندفاع بها إلى مالانهاية . . ويعدو كائنان أبيضان ، لم يدر أحد من أين برزا ، يريدان اللحاق بالجمع الذى كف عن التقدم . . ويستدير حامل العظمة فى غضب : « الأحمقان ! » . . ويستدير آخرون فى بلادة ويهتفون : « كيف جرؤا ؟ » .

لكن الكائنين وقد اتضحا خلال عريهما الكامل ، ذكرا وأنثى ، لم يكفا عن العدو ، متجاهلين صيحات الوعيد التى تقاذفتها الأركان . . بدا أن كلا من الذكر والأنثى كانا يقصدان ، فى إصرار ، كائنا بالذات من بين الجموع . . وبالفعل فقد توقفا لدى المنتصف ، قبالة القصير المكتنز ، الذى تتوه نظراته وتشمل الرجفة قائمتيه . .

– لا . . مستحيل . . لن نتركك لهم !

لفظتها الأنثى فى وحشية . .

– ليأخذنى أنا . . بدلا منك !

فجرها الذكر ، وهو يجذب القصير ، محاولا زحزحته عن مكانه . .

لكن ذرات الطين – وقد ظنَّ لدقائق أنها غُلبت على أمرها – تنتفض ،

تتصلب ، تتحول جدارا يقوى على دفع الأصداء .. ليعيد جو الصمت المقبض سمة ماوصل إليه الحال على التلال . . وتروح الذرات القاسيات وقد فرضت قانونها من جديد ، تستعرض المشهد المضطرب قبالتها . .

متحديان لكائنات الدهن شمعية البياض ، وقف الذكر أكثر تفصيلا فى قسماته وتكوينات قامته الصلبة ، واستقامت الأنثى أوضح ليونة فى مادتها وأفصح بروزا وانثناء فى أطرافها . . والأهم ، أن الاثنين أوتيا بعض شعيرات حقيقية . نبتت بجوانب رأسيهما – لا كرتيهما – وحول أعينهما لا تجاويفها . .

كان هذا مايدور فى الساحة وعلى البعد كانت الجحور والفتحات – بطول التلال – تأوى المزيد من الكائنات . . ذكورا وإناثا ، بل أغلبهم إناث . . يتلصصون من قلب الظلمة ، على مايدور من أحداث بلغت حدا مرعبا فى غرابتها وإعجازها ، مما لم تعه ذاكرة لسنوات مضت . . أو هى تهرب منه وتأباه ، كشرٍّ مستطير يجذبهم ويربطهم بما هو أفظع وأشد هولاً . .   تحرك القصير ، وقد تحرك شىء فى كرته الجلدية الملساء فأوقد شرارة . . التفت إلى الأطول ، حامل العظمة . . رفع له طرفاه على جانبيه مرتين ، كأنه يطلب منه الإذن فيما يبدو . . وأحنى حامل العظمة كرته يوافق مكرها . .

عندئذ تراقص بدن القصير ، تشنج . ثم انكفأ يحتضن الذكر والأنثى . . اندفع يقودهما مخترقا ذرات الطين ، إلى ماوراء مرتفع من شقف الفخار على شكل هرم . . وإلى جوار المرتفع ، توقف ثلاثتهم والصمت كالعادة رابعهم . . ولوى القصير الفتحة البادية فى كرته . وأنفاسه تتلاحق : « استمعا إلى . . الذى نوشك على فعله ، هو قَدَر . . محتوم . . » .

أطلقت الأنثى سراح زفرة حبيسة : «أنت لست طاعنا . . فلمَ يأخذونك معهم؟» .

– القانون حدد سن الفرد منا ، ممن عليهم الدور . . ابتداء من ٤٠٠ دورة قمرية . .

دمدم الذكر : « عن أى قانون تتحدث ؟ »

ترك القصير جزءا من دهنه يتكئ على بروز فى مرتفع الفخار ، وقال :

– أقصد « قانون البقاء » ، الذى أنحدر عن « قوانين الفاجعة العالمية الكبرى » . . فاجعتنا !

مد الذكر رأسه مستنكرا : « ماهذا . . وماذاك ؟ »

غلف الأسى صوت القصير ، فبدا مضغوطا مخنوقا .

– القصة بعيدة ، تفاصيلها موغلة فى القدم . . إنه تاريخ قومنا نحن . . كلنا ، فقد تواترت الأحاديث عن آبائنا وأجدادنا . . إنهم ينحدرون عن قوم ذوى جاه وحضارة عريقة ، كانت مثالا للتقدم والرقى . . عن طريق سيطرة ما كان ذا سطوة وبأس رهيبين وعرف . . بالعلم ومنجزاته . .

انبهرت الأنثى : « أكانوا على شاكلتنا ؟ »

أعترض القصير : « لا ، لا . . بل أرقى منا ، وأكثر تحضرا بدرجة يعجز تصورك المحدود عن إدراكها . . نحن بالنسبة إليهم مثل . . مثل القشريات فى المستنقع بالنسبة إلينا ! »

تساءل الذكر : « أين ذهبوا . . كيف ذهبت حضارتهم ؟ »

– آه . . هنا تبرز الفاجعة الكبرى وقوانينها التى طوت كل شىء ، فقد قادهم العلم إلى اكتشاف ماأطلقوا عليه . . « قنبلة ذرية » ! نوع من الهول يسحق كل الموجودات ، يحيل الشجر والجبل والنهر إلى فناء . . وهكذا ، سرعان ماتغلبت نوازعهم الشريرة . . فأفنى بعضهم بعضا !

بان الذبول في نظرات الذكر : « لكني لم أعلم بوجود أثر للحضارة ، أوالحضارات التي تذكر ، في نواحي تلالنا ؟ »

– وهل نواحي التلال ، بل جزيرتنا برمتها ، مما يقاس إلى جانب الأراضي الممتدة عليها مدنهم وبلدانهم . . وحتى تلتحم بأطراف الكون الفسيح . .

أطرقت الأنثى ، وقد تشتت فهمها لأقصاه : « أفكل الذى تذكر قد تلاشى . . حقيقة ؟ »

زاد تلاحق أنفاس القصير : « من يدرى ؟ . . لقد تواتر إلينا أن الخراب قد عم وساد كافة البقاع ، حيث كانوا ينتشرون . . ومانحن إلا من نبت الفئة التي قيل إنها لجأت على متن ما كان يعرف بالطائرة – أو النفاثة منذ ألف عام مضت . . أجل ، خلال أيام الحرب الذرية . . ثلاث من هذه السفن أمكنها اعتلاء الجو ، لتفر من الانفجارات المخيفة التي غطت أطراف العالم . . ولم ينج منها غير السفينة المصرية . . قادها الحظ إلى هنا ، وهبطت بركابها الهلعين من الجو ، كما تهبط الشهب . . ليستقروا – هربا من الجحيم – على ثرى جزيرتنا ، التي كانت تسمى قديما « الأرض الخضراء » مجازا . . فقد امتد موقعها لدى ما كان في الأزمنة الغابرة يشار إليه « بدائرة القطب الشمالي » .

– ما القطب ؟

– أظن أنه كان امتداداً لمساحة مترامية . . من الجليد . .

– وما الجليد ؟

– أعرف أنها كلمات غريبة على أسماعكم . . سوف يلقنكم حكماؤكم معاني الكثير منها قريباً . . وعلى أي الحالات ، فالجليد مياه تجمدت بفعل البرودة الشديدة . . فهذا ماقالوه لنا وإن كنت أنا نفسي لاأعرف كيف يتم ذلك !

– بل سمعنا عن مرئيات ، أوهو نوع من الإحساس ، يدل على البرد . . لكننا لم نجربه .

إن تجاربنا . . حياتنا ، وعيشنا المستديم على التلال ، لم نع من خلاله غير موجات الحرارة المميتة . . لم نعرف البرد ، وإنما خبرنا جو السخونة اللافح حولنا ، يطوقنا من جميع الجهات !

قالها القصير ، ثم قذف بمساحة الدهن التى تكوّنه بعيدا عن شقف الفخار ، واستقام . . لوح بطرفه الأيمن ، وقد أضيء جانب من كرته . . وتابعت نبراته الخشنة ترددها .

– الحرارة . . الحرارة ! إن الكون يشتعل ، والموجودات تلتهب . . الحرارة فى كل بقعة وكل ركن . . إنها تشوينا . . موجاتها الغضبى تلهب مزروعاتنا ، غذائنا ، مصدر بقائنا . . والأهم من هذا ، أن الحرارة حين تبلغ ذروتها خلال عشرين أوأكثر قليلا من الأعوام ، تقوم بإبادة مايغفل الرماد الذرى المشع عن إبادته من تلك المزروعات ، ومما نملك من حيوانات . . تفنيها تماما ، تمحو كافة آثارها . .

روعت الأنثى . . رفعت ذراعا تمسك رأسها : «فظيع . . فظيع !» فى حين بسط الذكر كفه : «هل حدث ذلك من قبل ؟» .

تعالت نغمة جافة : «بالطبع ، ولأكثر من مرة . . وإن كان عمرك القصير لم يلم بإحداها . . إنها لدورة هلاك مرعبة يابنى ، وتقابلها دورة أخرى لايحتمل قومنا وطأتها !

قاطعه الذكر : عن ماذا تتكلم ؟»

– الدورة الثانية هى تزايد مواليدنا . . وحين يصل الأطفال عندنا حد التخمة ، حد التشبّع ، حد الزيادة المفرطة . . ينطلق مارد الحرارة فيحرق كافة أقواتنا ، فما الذى فى مقدورنا أن نفعله ؟

لمعت عينا الأنثى ، وتحركت شفتاها تستعجل الرد . . لكن الذكر أسرع ينطق في نبرات متشنجة .

– الذى ستقومون بفعله اليوم ؟ . . المذبحة ؟

– هى المذبحة بعينها . . وكما فعل حيوان « اللامنج » منذ أزمنة بعيدة نائية . على ثرى أرض مجهولة !

قطبت الأنثى جبينها متحيرة : « وماذا كان يفعل . . اللامنج هذا ؟ »

– جاء فى وصفها أنها كانت حيوانات ذات ذيول قصيرة وفراء سمراء . وكانت تشبه ما كان يعرف بالفأر . . ياه ، نسيت . . أنتما لاتعرفان الفئران ! المهم أنها كانت تعيش فوق جبال ، ترتفع عن سطح البحر ارتفاعا كبيرا ، يماثل ارتفاع جرفنا المطل على بحر الغليان . . أما غذاؤها فكان الحشائش وجذور الأشجار ، كما أنها كانت حيوانات سريعة التوالد والتكاثر . . لكن الخضرة فى منطقتها طالما تعرضت للجفاف ، وخلال دورة من الأعوام ، قد تصل إلى عشر . كانت وطأة الجفاف تشتد ، ويشعر « اللامنج » بأن بيئته أصبحت جدباء تماما . فيدب الخوف فى أعماقه . . وماهى إلاأيام معدودات ، حتى تهب جماعات « اللامنج » دفعة واحدة ، تهجر مساكنها ، تأخذ اتجاها معينا واحدا . . وأسرة تلو أسرة وقبيلة مندمجة فى قبيلة ، يندفع زحف الحيوان الصغير ، لايقف فى سبيله عائق ، عبر طريق رحلته الطويلة القاسية . . التى تنتهى عند شاطئ البحر ، حيث . حيث . . أقول حيث يلقى بنفسه منتحرا فى أحضان الأمواج المتلاطمة . . وواحدا فى أعقاب الآخر ، تصبح أعداد « اللامنج » المهولة أثرا بعد عين !

وتوقفت النبرات . . لم يتبق غير هنات اللهاث المتقطع ، وفحيح رئتين واهنتين يتردد مكتوما ، ثقيلا ، وكأن حمل جبل أصم يعلوه . .

لكن الأنثى صرخت : «إنها مذبحة بشعة . . قذرة ! »

وهتف الذكر محذرا : « بل قولي استسلام أحمق » .

– هل لديكما حل آخر؟

شيع الذكر نظرة صارمة : «أنتم قوم عاجزون ، صاغرون . . حتما الحل موجود . . بالتأكيد لابد أن يوجد . . أن يخلق . . ! » .

وأخذت الأنثى تولول : «لا تذهب معهم يا أبتاه ! » .

والذكر يردد في إصرار : « العيب أن نهمل استخدام عقولنا . . وأنتم قد نبذتم الفكر كلية ! »

– أبي . . اتركهم ولاتتبعهم !

– منذ ماتسمونه بالحرب الذرية ، أوموجة الفناء الكبرى ، وأنتم لاتزالون مذهولين . . صاغرين . . ضائعين !

– أبي . . كيف نعيش بعدك ، بدونك » .

– حتى اللحظة لم يوجد المفكر الجرىء . . بينكم !

– أبي . . رحماك !

– لم ينبعث من وسطكم الشخص الذى يمتلك مقدرة التغلب على ضعفه ، على عجزه ، على شلل وقدة الأمل في غده !

– أبي . . أبي . . !

لكن الكائن القصيركان قد بعد عنهما . . اتخذ مكانه وسط الآخرين ، وتحرك معهم في اتجاه الشرق . .

هم . . هم . . هم . . هاهم . . هم . . ترى . . رى . . رى . . : هاهم . . هم !

عندما يفشل العلم مرة !

حين استدعانى صديقى الدكتور « عصمت منيب » على عجل ، فى تلك الليلة البعيدة من فبراير الماضى ، ليطلعنى على الكشف العلمى الذى توصل إليه ، لم يكن اسم « ناريم » قد برز أمام مخيلتى على الإطلاق . .

وحين استقللت سيارتى الرمادية ، ورحت أطوى بها طريق « الكورنيش » ، والساعة قد تعدت العاشرة مساء ، مـ -ـا من مسكنى – بمنطقة « باكوس » فى رمل الإسكندرية – إلى حيث تستقر « فيلا » صديقى الدكتور ، مجاورة لاستاد كوم الدكة الرياضى ، لم أكن أتصور ، مهما اشتط خيالى . مدى إثارة المغامرة التى بدأت أنزلق إليها وأنا فى كامل وعيى وتيقظ مشاعرى . .

بمجرد وصولى تركت السيارة أسفل الدرجات الرخامية . . وفى دقيقة كنت أضغط الجرس ، لتنساب موسيقى بالداخل . . وانفتح الباب فى الحال . ثم انغلق

ورائى تلقائيا . . ومن مكان ما ، تعالت همهمة الدكتور الناعسة ترحب بمقدمى عبر سماعة مذياع خفية . .

إنها بعض ألاعيبه التى ألفتها من قبل ، فأى جديد تراه سيفاجئنى به هذه المرة ؟ .

ولم يطل بى التساؤل ، فقد انفرج باب المكتبة عن جسده المترهل ، وصلعته المتوارية تحت ندف من شعر أحمر قصير . . وبدلا من أن يبسط كفه لتحيتى ، وجدته يدفع فى يدى – وقد مددتها برغمى – ورقة مقواة عليها كتابة كثيرة بارزة . . وانفرج شاربه الكثيف عن كلمات أقل نعاسا .

– خذ . . الورقة !

– وماحاجتى إليها ؟

همس ونظراته تشرد فى وهن : « اقرأها . . بينما أجرى تجربة عليك ! »

وداهمنى قلق مبهم : « أى نوع من التجارب تقصد ؟ . . آه ، انتظر ! . . »

لكن الباب ذا الطلاء – فى لون الفضة المزركشة بثنيات تومض بالاخضرار – كان قد ابتلعه .

أمسكت الورقة المقواة وا‌ت فى جلستى على الوسادة المحشوة بالفلين الصناعى . . للوهلة الأولى جذبنى رسم غامض . . به خطوط عريضة سوداء ، تمثل وجها مجعدا كريها لشيخ طاعن السن . يختفى نصفه خلف أنف فى شكل وحجم حبة البطاطس المتوسطة . . على أنى رفعت بصرى من أسفل الورقة – حيث يستقر الرسم – الى اعلاها . . وبدأت محاولة تفهم معانى الكلمات البارزة التى ضمتها الورقة . .

ماهذا ؟ . . أى علاقة بين ما أقرأ رسم الشيخ المسن هادئ القسمات ؟ .

ووجدت الكلمات جافة . رتيبة ، بل مملة . . نُقلت على مايبدو من تقرير سياسى : يتناول تاريخ تجارة الرقيق فى القرن ١٧ . . ولارابط بالمرة بين الأحداث وبين وجه يشيع الحنان عبر عينيه . .

على أنه فيم الاستعجال ؟ . رحت أتابع تراكيب الجمل ، يجذبنى إحساس لذيذ ممتع بانفراج الحروف ورقة انسياب نهاياتها فوق الورقة . . بل تراءت لى أن بروزاتها قد تراخت وانبسطت . وفاحت منها جاذبية آسرة تبعث خدرا فى أوصالى . . ووجدت مشاعرى تتهافت لاختلاس النظر إلى وجه الرجل وقورا مهيبا فى شيبته المبكرة . . أهو وجه أبى الراحل منذ أعوام ؟

ولم أدر بتوقف الكلمات ، إلاحين تعالت أنفاس الدكتور عصمت من ورائى . . وتعالت نغمات صوته تحمل رنة الفوز .

– أأعجبتك ملامح العجوز ؟

تمتمت بلاتردد : إنه الطيبة مجسمة سخية . . إن هالات النور تشع حوله فى جلال وقدسية ! »

– لكنك أبغضته لدى الرؤية الأولى . .

– أفعلت ذلك ؟

– بل وجدته كريها . . يحمل أنفا بطاطسية . . وانها لكذلك !

وأعدت تفحص خطوط الرسم البديع الإيقاع . . قربته وأبعدته فى تمعن أكثر . .

– مهما يكن . . فمن العبث أن ترمينى بكره صاحب الصورة الآن ، وأنا قد أغرمت به حتى أصبحت أراه أثيرا لدى !

ضحك الدكتور . . جلس قبالتي وكرشه الضخم يهتز من فرط الانفعال . . حتى إذا ماكف فى النهاية . وقد دمعت عيناه ، راح يفصح لى عن كنه أفعاله الأخيرة موضحا حقيقة كشفه العلمى الغريب . .

« لقد توصل مؤخرا إلى الوسيلة الفعالة لتأجيج عاطفة الحب والهيام . . أوإيقاظها ومن ثم إطلاق سراحها ، فى قلب إنسان ما – إن صح هذا التعبير – عن طريق تنبيه جزء بعينه فى الخلايا تحت « الثلاموس » بمنتصف مخه البشرى . . وبرغم دقة الأجهزة المنفذة وتشابكها وتعدد أجزائها ، فقد كان أداؤها بسيطا ، هينا . . حجرة متسعة يملؤها جهاز بث لاسلكى عملاق ، وكتاب أو ورقة ذات أحرف بارزة . . ولاشىء عدا هاتين الأداتين الرئيسيتين . . فإذاماالتقط الشخص المراد إيقاظ عاطفته الكتاب أوالورقة وبينما يقرأ أحرفها البارزة . . يمكن – عن طريق جهاز البث اللاسلكى – توجيه شحنات موجبة معينة تلتقطها مادة بلورية ماصة تدخل فى تركيب حبر الطباعة . .

« حينئذ تمتص الأحرف الموجات الموجهة ، ثم تقوم بعكسها وإرسالها عبر البصر الواقع عليها ، ليمتصها العصب البصرى . . فيمتصها المخ ، فتتركز فى نهاية المطاف بالمنطقة السباعية ، الواقعة أسفل الجذر العصبى المسمى « الثلاموس » . . حيث تتجمع البؤرات القوية للعاطفة التى تجعلنا نغلى غضبا أونذوب غراما . . ودواما تفرز هذه البؤرات الحامض المعروف بالحامض المنشط لأحاسيس الحب واختصاره : « ح . م . ا . ح . » وهو يؤدى إلى إثارة ومن ثم ترجيح ، جانب الذوبان غراما . . وذلك طالما اقترنت حروف الكتابة بوجه أوبصورة من أحد الكتب أوالأوراق ، لأن عينى الشخص تعودان تبحثان عمن يسقط عليه سعير العواطف التى بدأ اشتعالها . . »

وابتسم الدكتور عصمت منيب وهو يختم كلامه المستفيض . بابتسامة عريضة واضحة المغزى . .

– والآن ، ألا تتوق لإجراء التجربة على شخص ما ؟

تلاحقت أفكارى . . غرقت فى لجة المشاعر المتضاربة ، التى أثارها الحديث العجيب . . هذه فرصة وإن بدت شاذة الطابع فقد تلهمنى مادة روائية طريفة . .

وكأن الرجل قد قرأ مايدور برأسى ، فقد ربّت كتفى وعدل ياقة قيصى وهو يستحثنى منتشيا . .

– هيه ! . . أفق ياحسنى ، أين عبقريتك الأدبية ياعزيزى ؟

لكنى كنت قد عثرت بالفعل – خلال جزء من الثانية – على الاسم المنشود ، دون أن أبذل جهدا لاستدعائه . . بل لعل الاسم قفز تلقائيا من ذاكرتى إلى لسانى ، أوهو انطلق بغتة من أعماق تلافيف مخى ، حيث كان يكمن دون علمى منذ زمن بعيد . . بعيد ! وكان اسم « ناريم » !

ورحت أستجمع ذاكرتى أكثر . . أين ترانى رأيتها مؤخرا ؟ . ولمعت ملايين الخلايا خلف جبهتى . واستدعيت حدثا . . كان ذلك منذ قرابة أسبوع يسبق مجيئى لفيلا الدكتور عصمت . . وكنت فى طريقى لبيت أختى . وقد غادرت الدار الصحفية أتأبط أحدث رواية مطولة لى . . بيت أختى يقع بمنطقة سيدى بشر على ناصية شارع الألفى ووابور الطحين . . وبالمناسبة فهى تسكن حاليا الجزء المتبقى من بيت العائلة بعد تقسيمه واختصاره عقب وفاة والدى . . وهو البيت الذى شهد طفولتى كذلك . .

هناك وقد حاذيت السور الخشبى الخفيض . المحيط بالحديقة والبيت ، شاهدتها تبرز لدى الناصية . . كنت مقبلا من اتجاه شارع الألفى ، وكانت قادمة

من اتجاه الشارع الآخر . . ولم أعرفها للوهلة الأولى . . وسألت نفسي أليست هي « ناريم » ، ابنة ناظر المدرسة جارنا السابق . . لقد كبرت وامتلأ صدرها ، وتفجر كل جزء في جسدها بأنوثة طاغية . .

ولم أتذكر اسم أبيها ، وإنما تذكرت اسم خالها « أحمد قاسم » . . وتذكرت أيضا أحداثا قصية ، أيام كانت ناريم طفلة في العاشرة من عمرها ، ولها ضفيرة ترسلها على ظهرها . . كيف كانت تهوى الغناء بصوت رفيع ، لايخلو من رخامة . . وكيف كانت تجيء إلى منزلنا تقبّل أختى . وتستأذنها لاقتطاف وردة أوقرنفلة ، فإذا ماحصلت على أيهما فإن بهجة الدنيا كانت ترتسم على خديها الصغيرين فيحمران ويضيئان !

ويومها كنت أنا على أعتاب العشرين ، وكنت أحاول أحيانا معاندتها أومغازلتها بأسلوب ساذج ، فأختطف وردتها أو أدس أنفى لأشمها برغمها ، أو أفاجئها بمجموعة من الفل أكون قد أخفيت بداخلها جرادة تخيفها . . لكنها لم تحاول مطلقا مجاراتى ، فهى دوما مثل المياه ، عبثا تحاول القبض عليها ! . . ترى فهل لا تزال – وقد كبرت – المراوغة ، البارعة في الانفلات والهرب . فلا يقوى على محاصرتها أحد ؟ !

أخذت الكتاب البارز الحروف من الدكتور عصمت وكان رواية بوليسية لكاتب أجنبى ، وقد أسفت لعدم تيسر إعداد أحد مؤلفاتى بهذه الطريقة . . وبعد أن أعطيت الدكتور معلوماتى عن موقع منزل ناريم وبُعد المنزل عن فيلته ، تواعدنا على وجوب الاتصال به تليفونيا متى أسلمتها الكتاب . ليبدأ في تشغيل أجهزته مباشرة .

وقرابة الواحدة بعد الظهر ، بلغت منطقة سيدى بشر . . ولما كان منزل أختى

يقع بعيدا عن الشاطئ وكان الوقت يعد مبكرا بالنسبة لقدوم المصيفين إذ لم ينتصف بعد شهر مايو ، فقد وجدت المكان تكسوه حلة الهدوء التى توقعتها . . وبدا شارع الألفى شبه خال . . المارة بالكاد يتناثرون واحدا أواثنين جيئة وذهابا عبره . . ولم تكن أختى قد فرغت من إعداد طعام الغداء فوجدتها فرصة سانحة لأتفرغ دون رقيب لمهمتى اليسيرة المقبلة . .

انتقيت كرسيا من الخيزران ، جلست عليه فى الحديقة والكتاب يقبع على فخذى ، فى حين انطلقت عيناى تجوبان الشارع ، من خلال أغصان الياسمينة العنبرية التى تتسلق السور الخشبى ، وأريج زهرها ينتشر مع هبات النسيم . . واسترخيت قليلا . .

هل هى علاقة قديمة أود الانتقام لسابق فشلى فيها ؟ أو هو ثأر لواقعة مابينى وبين « ناريم » ؟ . . أم أنه تحد انسقت إليه برغمى ، وربما بكامل رغبتى ؟ أوربما هو غرام من طرف واحد من طرفى أنا – أريد أن أحييه وأؤكده لدى الطرف الثانى ؟ . .

لاشىء من ذلك البتة . . بل إننى لا أكاد أعرف عن هذه الفتاة إلا اسمها . . كل ماهنالك أن الأمر ببساطة لم يكن يعدو فكرة تحمست لتنفيذها . . واسما محددا سطع قبالتى قبل غيره !

على أنى أحسست ضيقا ، وانزعاجا يعتريانني ، وأنا جالس أرقب عودتها من عملها . .

أحسست نوعا مستترا من الذنب يلف كيانى كجبيرة جبس غير مرئية . . ماجريرتها هى ، لأشركها معى فيما أود الإقدام عليه ؟ . . ولو تصادف – والاحتمال مؤكد – وتجاوبت معى . . أحبتنى فعلى أى الصور سيكون سلوكى إزاءها

وقتذاك ؟ ثم ماموقفها ولاأقول موقفى ، لو رآنا أحد فأساء الفهم ؟

وظهرت ناريم عند الناصية . . بقامتها الهيفاء . ومشيتها المتكفئة بعض الشيء للأمام وبالحقيبة البيضاء تهتز وهى تتدلى من ذراعها اليسرى . . وكان يلف بشرتها سمار خمرى رائع . . وبدت جادة الوجه . . جادة القسمات ، جادة الخطو وهى تتقدم حثيثا ، فى ثقة وأنفة وكأنها إلهة تطل على رعيتها من قمة السماء . .

ولا أدرى لم شملنى ذلك الاضطراب الدخيل على ؟ . . لكنى تقدمت من ناريم والكتاب يسبقنى فى عصبية ، وتمتمت بصوت يشبه صوتى وأنا أحتوى وجهها ببصرى لأول مرة عن قرب ، فاكتشف خلوه من مظاهر التجميل المصطنعة . .

– مساء الخير . .

بوغتت فارتجفت . . وبنظرة عجلة شملتنى بها ، بدا أنها عرفتنى . لكنها لم تنبس بحرف . .

تابعت : أمن الممكن أن تقرئى هذه الرواية ؟

– لا . . لا . . متشكره . .

وحينما هممت بقول المزيد . كانت «ناريم» قد اختفت . وبقى الكتاب وأحرف الرواية الأجنبية بين دفتيه تطل على فى سخرية . .

وفشلت محاولتى الأولى . .

أما المحاولة الثانية فلم تكن عفوية . وإنما سبقتها ترتيبات أكثر حبكة وأكثر إصرارا . . وقد تولت القيام بها إحدى صديقات أختى – السيدة سميرة – وتعمل مع أختى فى الإدارة المالية بشركة المنتجات المعدنية ، وهى عانس منطوية تكبرنى بثمانية أعوام أومايزيد ، وكانت كذلك صديقة لناريم . . وأما توجيهاتى لهذه السيدة

فلم تزد عن إعطاء الكتاب – ملصقا على جلدته رسم خطى لوجهى – إلى « ناريم » وأن تخبرها بأنه مهدى منى إليها ، فإما قبلته وإما رفضته بغير إلحاح . .

وتقابلت السيدة و« ناريم » فى الموعد المحدد وقد حملت الأولى الكتاب . . تعانقتا فى المبدأ ، ثم تبادلتا كلمات مرحة . . بعدها تأبطت كل منهما ذراع صاحبتها وسارتا فى اتجاه واحد . . فى حين طرت أنا إلى التليفون ، أدير قرصه بأرقام الخط المباشر للفيلا المجاورة لاستاد كوم الدكة . .

وفى أعقاب أربعة أيام حافلة بالترقب وقد قلّ نومى أثناءها ، وعمنى شعور ممضّ بعدم الاستقرار ، بالضياع . أقبلت السيدة سميرة . ولدهشتى وجدتها على خلاف ما تعودنا منها ، ترتدى ثوبا فاقع اللون ، يكشف عن أجزاء من صدرها وذراعيها ومعظم ساقيها . . وفى تدلل ، وهى ترمينى من تحت أهدابها بنظرات أفزعتنى راحت تخبرنى برفض « ناريم » أخذ الكتاب . . وفى سهولة لم تجد حرجا فى اتهامها بالتكبر والغرور . وأضافت بأن الثغر السكندرى لا يخلو من عشرات غيرها . أخف وأجمل وأرشق قواما . . وكنت أقول لنفسى : « لكن أبدا ليس فى تألق شخصية ناريم » !

وحين أدارت السيدة سميرة الحديث فى اتجاه شخصها وقد اكتسى صوتها بارتعاشة سبق أن اختبرت مثيلا لها بادرت بالانسحاب وقد زاد اقتناعى بأنها ولابد قد قرأت هى الكتاب !

وعدت من حيث بدأت . .

وأخذت محاولاتى التالية تفشل الواحدة تلو الأخرى . . أرسلت الكتاب مع أكثر من رسول ، فلم تقرأه « ناريم » وقرأه الذين حملوه . . ولم تستجب عواطفها لى . . لم تتجه قط نحوى ، وانما حاصرتنى عواطفهم هم جميعا . .

حتى خالها السيد أحمد قاسم وهو رجل وقور هادئ الطباع ، لم يكن يعرفني على الإطلاق ، فلقد توجهت إلى المكتبة ذات الطابقين التي يديرها وأعرف أن ناريم تتردد عليها . . ثم تعمدت نسيان كتابي - بمحتواه من أحرف بارزة ومن رسم لي - إلى جوار خزانة الإيراد . . وإذا الرجل يعيد الكتاب إلى بعد حين وفه يلهج بآيات الدعاء والإعجاب بشخصي . .

بل إن محاولتي إلقاء الكتاب إلى « ناريم » عند تجوالها بحديقة منزلها المتزوية الشاهقة السور أصيبت بالإخفاق كذلك ، وبالرغم من مشاق انتظاري هبوطها للحديقة ، وترقبي ابتعاد الكلب « الأرمنت » الشرس ودفعي الكتاب من فرجة بين ضلفتي الباب الحديدي على مراى من « ناريم » . . بالرغم من ذلك ظل الكتاب يرقد مدة يوم بأكمله على العشب الأخضر ، دون أن يعنى أحد بالتقاطه . . تغير واحد غير متوقع حدث . . فقد شاهدت الكلب الأرمنت يستلقى إلى جوار الكتاب فى تراخ ، أمسية اليوم التالى . . فلما تسللت لآخذ الكتاب هب على قوائمه ، وبدلا من مهاجمتى وجدته - لدهشتى البالغة - يستقبلنى بنباح خافت يشبه الأنين ، ثم اندفع يهز ذنبه ويلعق يدى بلسانه الضخم !

فى ختام الثلاثين يوما ، كانت حالى قد ساءت ، وكانت معنوياتى قد هبطت إلى الحضيض . . لامفر من وضع ختام للموضوع برمته !

وقررت أن أخوض معركتى الأخيرة ، مهما قست . . فإما انتصار حاسم ، وإما هزيمة كبرى لاقيام بعدها . .

فى محطة سيدى بشر ، وقد أعلنت ساعة معصمى الثامنة صباحا ، وقفت « ناريم » تنتظر قدوم ترام الرمل ، وهى تولينى ظهرها ، وتتحدث إلى صديقتين لها . . وكان شعرها الأسود ينسكب حول عنقها البديع قصيرا لامعا ، يتوجها بهالة

فاحمة هى أرق لمسة ربانية متعت بها بصرى . .

وحين اقتربت من مواجهتها ، لمحتها تضع نظارة شمسية أنيقة فوق أنفها الطيع الانحناء ، وقد ارتدت ثوبا أصفر يبرز مفاتنها فى احتشام واضح . . واتضح لى ثغرها يفترّ عن صَف مضىء من الأسنان اللؤلؤية تحدّها عن يمين وعن يسار سنّتان استطالتا قليلا عن أخواتهما ، لتزيدا فى إضفاء الجاذبية على شفتيها المتوردتين بلاطلاء . .

وتسلل إلىّ صوتها . . ميّزته من بين عشرات كتغريد بلبل شجى فى نغماته البهيجة الزاخرة بحب الحياة . . ومن بين الواقفين ، رمقتنى بلاقصد بنظراتها . . وهنا شاب صوتها بعض الخفوت ، وبدا على قوامها التململ ، تستعجل قدوم الترام ليخلصها من حرج تخشاه . وقبل أن يتوقف القطار الكهربائى تماما ، وجدت « ناريم » تقفز فى رشاقة لتروغ بين الناس سابقة صاحبتيها ، كأنها تنشد التوارى فى ركن أعجز عن اكتشافه .

واحترمت رغبتها بل ساعدتها بجمودى على ستر مايدور بيننا من صراع وإن شجعنى تخاذلها الطارئ على إعداد خطوتى التالية بوسيلة أكثر جرأة . .

توقف الترام بمحطة الرمل . . هبطت هى مسرعة ، وهبطت بدورى وراءها منطلقا كالصاروخ . . استماتت فى التوارى بين الجموع ، لكنى لم أدعها تغيب عن عينى . . اندفعت فى شارع « صفية زغلول » وكنت خلفها بمتر أومترين . . وعرجت على شارع جانبى ، وتوغلت فيه ، فتقدمت إلى جوارها تماما . .

– آنسة ناريم !

توقفت دفعة واحدة : « هه ؟ ! »

– أرجوك لحظة . . من فضلك .

ولمحت الكتاب في يدي فأجفلت : « آه ، الكتاب أيضا . . ياالحيرتي ! . . بالله فيم تصميمك على أن أقرأه . . ؟ »

– أريد أن أهديك إياه فحسب .

– هكذا ؟ !

– أجل . . بلا أي مطلب خلاف ذلك . .

ومدت يدا رخصة ، أصابعها من حرير أملس ، وجذبت الكتاب ، قائلة :

– هاته ، ولكن . . بشرط . .

تساءلت : « إني رهن ماتطلبين » .

– أريد أن تكون هذه آخر مطارداتك القاسية لي . .

ضايقتني حدتها ، مع أنها زادتها حسنا وبهاء . . بدت في ثورتها المؤدبة وإيماءاتها المترفعة كالنيران التي تستعذب حرارتها ، دون أن تلذعك . . التي تمدك بالضياء المبهر ، بغير أن تعشي عينيك . . بدت كتدفق الشلال الصاخب ، ساعة أن تتأمله تحت ضوء القمر . . في حين أن رذاذه الرطب يلمس خديك ، يلمس قلبك . . كهبة الريح العاصفة ، التي تجذبك عنيفاً من واقعك الأرضي ، إلى دنيا الخيال فوق السحابات الحالمة . .

ارتفع حاجبي الأيسر ، وانفرج فمي عن احتجاج غاضب : « حينئذ يكون لي مطلب ثان . . »

– أوجزه !

– أن تعديني بقراءة الكتاب الليلة . . أن تبدئي القراءة على الأقل . .

همست وهي ترمقني في عدم فهم غطى كل وجهها : « أ . . أعدك » .

وتمتمت وأنا أشعر بفرحة طاغية : « وأنا أعدك » .

وافترقنا . . هى إلى اتجاه مقر عملها وأنا إلى حيث أجد أقرب سيارة أجرة – فلم تكن سيارتى معى – لتحملنى إلى فيلا الدكتور عصمت منيب . .

فى الحجرة العلوية التى تطل تجاه البحر ، دون أن تراه ، عكف الدكتور – وأنا معه – على تشغيل أجهزته ، وقد تراصت بين الجدران الأربعة فأخفتها أوكادت . .

ثبّت صمامات كهربائية . . أضاء لمبات . . حرك مؤشرات ، أوصل دورات كهربية . . وفى واجهة الجهاز المستطيل ، الذى يتوسط الحائط الأيمن ، بدأت سن مدببة فى التحرك بداخل علبة بانورامية مستديرة . . والتقطت آذاننا أزيزا خافتا ، راح يشتد ويقوى ، حتى غلب ضجيجه على ما كان يتعالى من ضوضاء المواصلات بالخارج . .

وجذب الدكتور عصمت ذراعا ، فتحول الأزيز إلى صفير حاد ، يأتينا صداه من مناطق غائرة بصدورنا . .

– فى هذه اللحظة تنطلق الموجات اللاسلكية إلى حيث مقر عمل صاحبتك حسب الأبعاد التى قررتها . . على أننا سنوقف الإرسال فى الساعة الثانية . ،لنستأنفه فى الثالثة ، فى اتجاه منزلها هذه المرة . .

وصمت الدكتور عصمت ، لأكمل مايقول ، يدغدغنى شعور طاغ بالارتياح ، فقد أوشكت على جنى الثمار :

– وبهذه الكيفية نضمن استغلال كل دقيقة تفتح فيها «ناريم» الكتاب لصالحنا . . أو بالأحرى لصالحى وحدى !

بعد يومين ، حينما تقابلت وناريم فى محطة الترام ، بدت مكتئبة . . فقلت لنفسى إنها لم تكمل الكتاب ، وربما تشاغلت أصلا عن فتحه . . وعقب مرور يومين آخرين ، قلت لنفسى – وأنا أراها تشيح عنى أثناء سيرها ، تتجاهل وجودى

بطريقة ملحوظة – إن لكبريائها حداً ولابد . . لكن فى أعقاب أسبوع كامل على أخذها الكتاب – فسرت ذلك بمقاومتها الفريدة لمفعول الموجات ، وعللت نفسى أنها دون ريب لن تقوى على الاستمرار فى النضال . . .

غير أن الأمر تبدل حين تم اكتمال شهر آخر ، فلم أجد مفرا من اقتحام فيلا الدكتور عصمت . وأنا لاأملك ستر غضبى وثورتى عليه . .

قلت للدكتور ، من بين أسنانى : « لقد مرت ثلاثون يوما بلاأدنى نتيجة » .

وأجاب من تحت شاربه : « أمرها يحيرنى . . لاجدال فى أن هناك سرا يُغلق علىّ » .

– بالطبع هناك سر . . فما حله !

– لاأدرى . . لاأدرى . .

لكن ومضة فكر ملتاعة خدشت مخى ، فقلت لنفسى ولم لاتكون ناريم فتاة بلاقلب . . بلاعواطف كلية . . واسترحت لهذا الخاطر ، برغم عدم اقتناعى به . . لقد وجدت كبريائى فى النهاية ماتتوارى خلفه ، حتى تلعق جراحها فى صمت . . بعيدا عن أعين شامتة ، لاوجود لها إلا فى داخلى . .

ومرت أيام عديدة ، بلاطعم . . لم أعرف لها حصرا . . تجنبت فيها رؤية « ناريم » . . حتى كان ذلك الصباح ، وأنا مستلق على رمال شاطئ سيدى بشر ، تظللنى شمسية برتقالية الألوان ، وقد شرد بصرى ، وتملكنى عزوف عن مشاركة المستحمين لهوهم وعبثهم . . وفجأة ، رأيتها تتقدم من مكانى فى تردد . . بدت شاحبة ، كأنها تشكو مرضا . .

وعندما حاذتنى ، أشحت بوجهى أتجنب نظراتها ، وأنا أهم بالوقوف تأهبا للهرب بعيداً . . لكن همسا فيه ضراعة ، وفيه عطر هفهاف ، احتوانى . .

– لا ، أرجوك . . جاء دورى لأطلب منك الإنصات إلى . .

قلت بجفاء : « وماذا تنشدين ؟ »

أبرزت « ناريم » مجموعة من الكتب لم أتبينها : « رواياتك هذه ، التى من تأليفك . . لقد قرأتها . . كم هى مؤثرة ، وكم وجدت كلماتك وأفكارك ضمن سطورها ساحرة . . رائعة » !

استدرت إليها ببطء : « أحقا ياناريم ؟ »

– وهل أبحث عنك طويلا لأسمعك خلاف ماأعتقد ؟

– أحقا أعجبتك كتاباتى؟

رنت إلى بروحها : « صدقنى . . لم يأسر مشاعرى وينسينى وجودى شىء مثلما فعلت هى . . خاصة الأخيرة منها : « امرأة حائرة » . . فمن خلالها عرفت حقيقة جوهرك . . لماذا بالله . . لماذا لم تعطنى واحدة منها من المبدأ ؟ . . إنما أثقلتنى بتلك الرواية الأجنبية السخيفة ذات الأحرف البارزة . . ! »

– وهل قرأت الرواية الأجنبية ؟

كان سؤالا لم أقو على كبحه . .

أجابت : « قرأتها حتى آخرها فى ذات الليلة التى أخذتها منك فيها . . وبكيفية أتعبت عينى اللتين لاتحتملان النظارة الطبية مدة طويلة . . ولولا وعدى لنحيتها قبل أن أكملها . . »

لكنى قاطعتها ، وقد انفتحت طاقة فى جمجمتى : « تقولين نظارة طبية ؟ »

– أجل . . فأنا لاأقوى على القراءة بدونها . .

سألتها وضربات قلبى تتضاعف : « نظارتك ملوّنة العدستين . . أليس كذلك ؟ »

– بالضبط . . هى زرقاء وليست بيضاء . .

ورحت أكرر برغمى ، ويداى تبحثان عن أصابعها الدافئة : «إذاً فقد قرأت الكتاب . . أقصد الرواية الأجنبية من خلال عدستى النظارة الطبية . . الزرقاوين ؟ ! »

حدجتنى فى براءة : وماذا فى ذلك ؟ !

قلت ويدى تدغدغان أصابعها : «لاشىء ياصغيرتى . . لاشىء بالمرة !

ومنذ ذلك اليوم لم تفترق الأيدى الأربع إطلاقا . .

ابن البرق . .

فى عنف وضراوة راحت العاصفة تمد مخالب قاسية فوق الغابة ، بدت كوحش خرافى يتأهب لاعتصار ضحيته بألف ذراع كريهة . . وراحت تدفع بمزيد من الرياح المجنونة ، ومزيد من السحب السوداء الثقيلة . . وبغتة أومض قوس عال يخطف البصر ، تبعته جلجلة تصم الآذان . . وبطول الممر المعتم برغم انتصاف النهار ، والذى يخترق الغابة بطولها ، انحنت أشجار « الجازورينة » تعلن استسلامها صاغرة لغضبة الطبيعة . .

« ما هذا ؟ . أى هول ألقاه ! . . هل أعود أدراجى بعد أن قطعت كل هذا الشوط من الطريق ؟ . قد أكون معرضا للهلاك ؟ . . بل أنا معرض بالفعل ، فلو انقضت صاعقة لشب حريق ، وحينئذ فأين المهرب ؟ . أين وجدران الأشجار تحيطنى فى إحكام من كل جانب ؟؟ » .

لكز الرجل – عريض الصدر – الجواد الذى يمتطيه لكزتين قويتين يستحثه على مضاعفة الجهد . . فصهل المسكين مشرئبا بقائمتيه الأماميتين . ليقفز قفزة مهولة بالأخريين الخلفيتين ، مواصلا عدوه المحموم . .

« فى طفولتى ، كنت أترقب هبوب العواصف باشتياق وحنين . . هو غرام شاذ لا أنكره ، فقد كنت أنتشى لمرأى الصواعق تبتر رءوس أشجار الغابة ونخيلها ، تحرقها ، تمتص الحياة من جذورها . . الموقف يختلف الآن . . هل يختلف حقا ؟ . ألا أحس بنفس مشاعر الغبطة المبهمة ؟ . ألا يثير لمعان البرق فى صدرى بهجة وتعلقا بشىء أجهله ؟ . لكن الحريق ، ألسنة النيران المخيفة . . لو اندلعت لهلكت لا محالة ! »

ويعود الرجل إلى حث جواده فى عصبية ، وقد تصلب جسده الفارع ، فكادت ساقاه تطرقان الأرض من طولها . . وراح يمد عنقه أماما ، يسبقه شاربه الكثيف ، وتحاول عيناه الكليلتان تفحص مساره خلال اندفاعته الهوجاء ، عبر الأتون الناشب بين الأرض والسماء . .

وتلمع ضياء لافحة مبهرة ، وتدوى فرقعة تمزق الكون . .

لو هطل المطر لسلمت الغابة وسكانها ، من ضرر الصاعقة . . لكن الدفء الشاذ ، الجاثم على كاهله . . إنه ينذر بشر مستطير . .

وتضاء أنحاء الغابة من جديد ، والفرقعة الوحشية فوق قمة الرأس هذه المرة . .

« يا إلهى . . آه ! . . . آه ! . . »

وتخترق شحنة الكهرباء الجهنمية لحم الرجل ، ومن تحته لحم جواده ، وتلقى فى ضرواة كل منهما إلى اتجاه ، وقد سكنت كل خلجة فى ثنايا جسديهما . .

* * *

رحلت العاصفة . . هدأت الرياح . وتفرقت السحب ، وبات البرق يرى كوميض باهت يلمع ضعيفا فى إتجاه الجنوب الشرق . . وهبت نسمة باردة تبدد ما تبق من روائح عطنة تثير الغثيان ، وتكتسح فى نفس الوقت معالم الوجه المسجى على ظهره كحجر أصم . .

وتسللت نسمة تالية إلى أعماق رئتى الرجل ، فاختلجت أهدابه . . تململت ذقنه وشفتاه ، وأخيرا تحركت أطرافه الجامدة فى وهن . . على أن قوى مستترة تدفقت فى دماء الرجل وأعصابه ، معربدة . . فإذا بعضلاته تنقبض فى عنف ، وإذا بأطرافه تتشنج ، تتقوس ، ثم تتمدد فى جبروت ، ليستقيم معها الجسد العملاق بأكمله . .

هب الرجل يقف على ساقيه صحيحا معافى . يعمّه شعور غامر بالنشاط والتألق النفسى . . بل يحس تجددا شاذا ، عارما فى قواه . . يفجر الطاقة فى كل خلية بداخله . . وتنبه الرجل للابسه ، وتعجب لاحتراقها . . كذلك لمح جواده ملقى على جانبه ، تكاد الظلمة تخفية . . وحين حاذاه ، وجده نافقا ، متفحم الأطراف ، كأنه قد شُوِىَ طويلا على نار حامية . . حينئذ تذكر الرجل العاصفة التى عربدت منذ ساعات . . تذكر الريح والسحب والدفء ، وتذكر الصاعقة وهى تنقض على رأسه ، تخترق مخه إلى سائر بدنه . .

« رباه ، عفوك ! . كيف تعبرنى شحنة الكهرباء المهولة ولا أموت . . هل مرت من خلالى ، بين ثنايا لحمى ودمى . . حقيقة ! »

إن الجواد النافق يشهد بذلك ، ودائرة الأشجار المتلاشية أغصانها من آثار الحرارة اللافحة ، والحشائش المتكسرة الذابلة ، والتربة المسوَّدة : . وكذا الحفرة المتوسطة الغائرة عميقا فى الأرض . . كلها تنطق بالكارثة . .

انتابت الرجل كآبة . . أحس انزعاجا ، لكن النشوة الغامضة الفائرة فى عروقه ، خففت الواقع الذى يمسك بخناقه ، فخفض بصره متجنبا ، متهربا . . وراح يبحث فى عجلة عن الحقيبة البنية ، التى أفلتتها قبضته لدى السقطة الغادرة . . فما كان ليستغنى عن الأدوات الطبية التى تضمها . . لأنه كان طبيبا !

« يجب أن أعثر عليها سريعا ، فالسيدة توشك على الوضع ، وقد طال انتظارها لمقدمى . . يجب أن أصل قبل وصول المولود . . »

وجد الرجل ضالته . . ومع استعادة أصابعه للمسات مقبض الحقيبة الخشن ، اندفعت قدماه تأخذان نفس الاتجاه الذى كان يأخذه جواده من قبل . . وكانت ضربات قدميه قوية راسخة ، فيها حيوية لا تتفق وما تعرض له صاحبهما من هول قريب . .

* * *

طرقت يده الغليظة الباب المطلى بلون أزرق زاه ، وقد تعالت من وراء خشبه الرطب صرخات امرأة . .

– عجل ! . . أنا عزمى الطبيب . .

فتح الباب على أقصاه . . نفذ الرجل الضخم كالصاروخ ، متجهما مزموم الفم . . ومن بين شفتيه المغلقتين ، تناثر زبد خفيف ، وتناثرت كلمات : « لا تحملق فىّ هكذا ! . . إيه ؟ . لقد تعرضت لحادثة خلال العاصفة ، وهو ما مزق ملابسى وعطل مجيئى . . بحق السماء تحرك . . قم بإعداد وعاء مناسب . واملأه ماء فاترا ، وأحضر ملاءة كبيرة ومنشفتين . . وأبق وعاء آخر به مياه تغلى على الموقد . ! » .

وكف الرجل ، فقد لحظ مقبض حقيبته المتفحم وهو يهم بفتحها . . متى

طالت النار المقبض ؟ . . أتم ذلك وقت أن احترق الجواد والشجرة والتربة ؟ . .
لكن ذاكرته تعانده ، فالحقيبة – حين عثر عليها – لم تكن مشوهة المقبض . .
– اسمع . . خذ هذ المحقن ، واغله أيضاً . !

وتوارى زوج السيدة يبادر بتنفيذ ما طلب منه ، وهو لا يقوى على منع نفسه من التعجب لارتباك الطبيب ولمنظر ملابسه المحترقة ، كأن قنبلة انفجرت فيه . . فى حين ارتمى الطبيب على مقعد ضخم ، يلتقط أنفاسه ، ويريح ذراعيه وكفيه على مسنديه . .

وتصاعدت إلى أنف الطبيب رائحة مثيرة . . مجرد لفحة هواء يسيرة ، عطنة ، لها لسع حريق القماش المميزة حين تزكم الجيوب الأنفية . . « هه ؟ . . من أين تأتى ؟ » . . وبغتة تتعلق عيناه بالنسيج التيلى الذى يغطى مسندى المقعد تحت كفيه . . رآه يتلاشى ببطء تحت أصابعه وراحتى يديه . . وأسرع يرفع ذراعيه مرتاعا ، ليجد خشب المسندين يحترق كذلك ، بعد أن تعريا مما يسترهما . .

« الرحمة يا إلهى ! . . كيف سرت هذه النار ؟ . من أين جاءت ؟ . . قبل وضع كفىّ ، كان القماش على المسندين متماسكا ، سليما ، فكيف يحدث هذا ؟ . . هل ؟ . . لا . لا . . مستحيل . . بعيد عن التصديق . . لكنه . . لقد وقع مرتين ، إن لم تخنى ذاكرتى . . إن مصدر النار . . هما كفاى وحدهما ! » .

دون صوت انتصب الرجل واقفا . . والحق يقال ، فبرغم النشاط المتفجر فى أعماقه – من قمة رأسه إلى أخمص قدميه – كان وجهه السمين شاحبا هذه المرة ، وكان شاربه ضامرا متهدلا ! .

وبدا عليه التردد ثانية أو ثانيتين ، كأنهما دهر بأكمله . . ومن داخله انطلقت زفرة متحشرجة أيقظته ، أو أماتت مشاعره . . فإذا به يستدير بمشقة تجاه باب

الخروج ، يدفعه بقدمه شذرا . ينفلت منه كأنه يتوارى من شيطان يطارده ، يبتعد وقد أصم أذنيه عن الصرخات الداوية فى أقصى البيت أو أقصى الأفق ، مزيحا عن مخيلته الوجه الذى تركه يتقلص من حدة الألم ، ويتأرجح فى كفة القدر ، ومقصيا عنه كذلك أهمية الحقيبة وما بها من أدوات للمهنة التى يزاولها منذ عشرين عاما خلت !

* * *

– فى الشتاء ، فى ديسمبر من آخر العام الماضى . . أتتذكر حينما تركت البلدة فجأة ، وسافرت إلى الصعيد ، . . لقد كان السبب الحقيقى لرحيلى هو ما جئتك بشأنه الآن . وليس رغبتى فى الاستشفاء كما ادعيت وقتها . . هه ! الاستشفاء مم ، وأنا قوى البنية وصحتى فى عنفوانها ؟ . . وإن كنت لا أخفى عليك أن نفسيتى وقتها قد حطمها شىء ما . . وهل الذى وقع لى بالقليل ؟ أهو أمر طبيعى يقع عادة لسائر الناس ؟ . . باختصار . . بلطيم . . مدينة المليون نخلة تعانق بحيرة البرلس الساحرة . . مدينتنا ، على ما يمتاز به شاطئها من جو رائع صيفا ، تكون قاسية شتاء . . تراها خلال أشهره مكفهرة السماء ، قارسة البرد ، تجتاحها العواصف ونوات البحر على الدوام . . وقد بدأ الأمر معى ، لأول مرة ، ليلة الثانى من ديسمبر المنصرم . . كانت العاصفة وقتئذ تزأر على أشدها ، ودون توقع لطمتنى أوّل شحنة كهرباء جوية . . أول صاعقة ! . . صدقنى ! . . فى المرات الثلاث – أقسم لك – أنها اخترقت جسدى نازلة من قمة رأسى . . ثم كانت هذه النشوة الفائقة تجتاحنى ، تدبّ فى كل جزء فىّ ، جبارة مسيطرة . . ثم إحساسى المذهل بتجدد قواى . . ثم . . ثم . . بالله ماذا أقول ؟ . . وفى النهاية ، تكون تلك النار المجهولة التى تظهر حولى ، ينفثها جسدى . . يداى بالذات ، أو تشعها طاقة غير مرئية فيما يحيطنى . .

أينما سرت أو تحركت أو وجدت ! . . وأخيرا ، فهذا كل ما لدى . . هذه هى حقيقة ما أعيشه منذ ذلك التاريخ . وقد جئتك من بلطيم إلى القاهرة خصيصا من أجله . . فما العمل يا حسن بعد الذى سمعت منى . ؟

لم يجب الأخ المدعو حسنا ، وإنما استلقى على الأريكة ، ملقيا بجسده المكتنز القصير إلى الوراء ، ومغمضا عينيه القابعتين خلف عدستين سميكتين ، وقد طوته نوبة استغراق عميق . .

وامتد الصمت فشمل أنحاء الشرفة المربعة ، المزينة بأستار حريرية وردية التطريز ، والتى راحت نسمات الطابق العشرين بالبناية الشاهقة تطيرها إلى الداخل فى موجات حانية . . على أن النسيم شارك الصمت وجوده ، فكفّ بدوره ، لتنزاح الأستار عن مرآة ضخمة ذات إطار ذهبى رفيع . . حينئذ اتضحت الخطوط المنطبعة على صفحة المرآة . . الرجل الضخم فى حلته الرمادية . . والشعر الغزير على رأسه وفوق ظهر يديه ، ويبرز من أذنيه ومنخاريه ، وقد قبع بطريقة متحدية على كرسيه . . وجهه محملق مجهد وعنقه ممدود مشدود وصدره منتفش ، فوق فخذين غليظتين ، وساقين مشتبكتين تؤلفان الرقم سبعة . .

وفى المواجهة ، على الأريكة ، جلس الرجل الثانى ، بمنامته الباهتة الإخضرار ، وقد بدا ناعم الشعر ، حليق الشارب ، أسمر البشرة ، بارزاً عظام الوجنتين . . وكما أسلفنا ، كان ملقيا بجسده المكتنز القصير إلى الوراء ، تكاد ساقاه تلمسان الأرض ، وهو يبسط ذراعين يضيق بسمكهما كمّى المنامة على كلا جانبيه ، آخذا راحته ، مرخيا بدنه ، مطلقا لعقله أقصى طاقاته . .

« لماذا لم يتكلم ؟ . لم لا يريحنى ويقول شيئا ؟ » .

دون أن يعتدل ، تساءل حسن فى صوت هامس : «عقب لمس الصاعقة

لبدنك . . فكم من الوقت يظل انبثاق النار المجهولة منك ، أو سريانها من حولك ؟ »

تدفقت كلمات الطبيب على الفور : « فى المرة الأولى ظل لأكثر من يومين ، وفى الثانية يوما ونصف اليوم . . أما فى هذه الأخيرة ، فلم يستمر لأكثر من يوم واحد ! »

« ترى هل أخبره أيضا بأننى احتضنت قطا فى المرة الثانية ، فقتلته حرقا ؟ ! »

– وطاقة هذه النار ، أو قدرتها . . أتظل على نفس المستوى أم تخف حدتها !

– لا أدرى . . لم أعتن بملاحظة ذلك . .

ثم أضاف وهو يهز رأسه فى لهجة الواثق : « على أى الحالات ، فهذا دورك ياحسن . . أنت عالم متخصص فى الكهرباء واستخداماتها المعقدة ، بصرف النظر عن أنك صديق الطفولة . . أما أنا فعالمى الطب الباطنى فحسب » .

قال حس على حين غرة ، وقد قفز واقفا ، فاتضح مبلغ قصر قامته . .

– عظيم . . فلنجر تجربة صغيرة يا عزمى ! . . هيا ناولنى كفك !

أخرج حسن عدسة مكبرة ، وبعين خبيرة انطلق يجول ببصره فى أنحاء المسام الجلدية البارزة للكف التى انفرجت على اتساعها ، ففاق حجمها حجم كفى حسن معا . .

– عظيم . . والآن . أرجوك . . ضع أصبعين على تجويفى هذين الثقبين ! »

انكمشت جبهة الطبيب : « فيشة كهربائية ؟ »

– حسب تقديرى . . لن يحدث ما يضرك !

نهض الطبيب العملاق . . تقدم خطوة ، ورفع ذراعه . . وفى تردد تشوبه المكابرة ، استقرت أصبعان سميكتان على ثقبى « الفيشة » المستديرة . . ورعدة هينة

تشمل الكتفين والصدر ، واصفرار طفيف يصبغ الشفتين ، اعقبها آهة نابعة من نخاع العظام . . ويزداد ضغط الأصبعين ، بل ارتكازهما فى لهفة على الثقبين ، وقد اجتاحت أحاسيس عذبة شرايين الطبيب . وانعكست على قسماته !

– عظيم للغاية . . هذه المرة ، أمسك بأصابع اليد الطليقة « لمبة » الكهرباء هذه . . لف الأصابع حول الجزء النحاسى بأسفلها ! .

ولا يكمل حسن توجيهاته ، حتى يشع ضوء ساطع من يد الطبيب الثانية . .

– والآن ، ارفع أصابعك يا عزيزى عن الفيشة . . أحسنت ! . . ولتأت معى إلى جهاز مجاور ، فسوف نجرى تجربة أخرى هينة . .

وأحضر « حسن » كوبا به مادة مذابة ، وقال :

– رائع . . بل مثير . . حاول أن تتجرع محتويات هذه الكوب . . لا ترفع حاجبك ، فالمادة المجروشة ليست مرة ولا لاذعة . .

– رائع . . أمسك هذين السلكين ، كل فى يد . . سأعد لعشرة ، وعندها أقفز عاليا . . كما ترى ، تجربة سهلة . . واحد . . اثنان . . ثلاثة . .

– رائع . . اقترب أكثر يا عزمى ! . . بقيت تجربة أخيرة . .

–رائع . . رائع . . ! إنه أكثر مما قدرت . . أكثر مما جال فى تصورى بمراحل . . والآن لتسترح قليلا ، فقد انتهت اختباراتى . . لا أتوسل إليك . . إنك مشحون حاليا بالطاقة ، فلا تجلس على المقعد ، ولا على أى أثاث كى لا تترك بصماتك الحارقة عليه !

« معك حق . . إننى مصدر خطر فعلى على كل ما هو قابل للاشتعال ، متى لمستنى الكهرباء » .

* * *

ويترك الطبيب الفيشة بيد ، فتنطفئ لمبة الكهرباء فى اليد الأخرى . . ولا يجد الرجل مفرا من افتراش أرضية الشرفة المرصوفة ببلاط سداسى الشكل ، مزخرف برسوم بيضاء وسوداء . .

ولا يعود الرجل الثانى المسمى حسنا إلى جلسته فوق الأريكة ، وإنما يأخذ وقفة مواجهة لانفراج الستار عن بانورامية أخاذة ، ملؤها الأضواء المتلألئة على صفحة النيل ، تنساب برفق أسفل البناية . .

– انتبه يا عزمى ! . . أنصت إلى جيدا . . أنت إنسان حباك الله بجسد فريد فى نوعه ، ولا يوجد قط مثله على ظهر كوكبنا الأرضى ، أو – على وجه التحديد – هو الأوحد فى أيامنا . . فقد قرأت عن وجود ندرة محدودة كانت تمتلك نفس صفات تكوينك . . ذلك كان فى الأزمنة السابقة علينا وليس فى عصرنا الحالى . . !

– ما الذى تعنيه ؟

– إن خلاياك تتمتع بخاصية استقبال مدهشة للتيار الكهربائى واختزانه ، وهى بالتالى تمثل قطبا نشيطا مع كهربائية السحب ، والإشعاعات الكونية المستمدة من طاقة الشمس . . وعليه فالشخص العادى حين يجابه شحنة كهرباء عالية التردد – كشحنة البرق – يصعق فى الحال . . أما أنت . فمختلف عن الناس قاطبة . . خلايا جسدك ، وبالذات الجلدية منها ، لديها القدرة على امتصاص كميات من المعادن المختلفة . تصنع وقاء لها يحمى ولا يضرّ . . لذلك فعند استقبال شحنات عالية التردد ، يسمح الوقاء بامتصاصه ، ثم اختزانه حتى يتسرب ببطء فيما بعد ! . .

ضم الطبيب المفترش أرضية الشرفة ساقية إلى جسده ، وأحاطها بذراعيه . . فى حين كانت الحيرة تغرق وجهه إلى ما وراء أذنيه المحمرتين .

– معنى ذلك ، أن ما أعانيه . . لنقل إنه . . حالة نادرة ! .

– تماما . .

– وإنه لا علاج لديك من أجلى ؟

انفجر حسن : « عليك بتجنب مصادر طاقة الكهرباء أينما وجدت . . مثلا وقت العاصفة ، لا تغادر بيتك . وهذا هو العلاج . . لكن علامَ اللجوء إليه ؟ . بالطبع لا داعى لذلك يا عزمى ! . . إننى أنصحك بأن تستغل قدرتك الخارقة فيما يفيد . . استفد من المنحة المباركة ولا تركلها ! .

– كيف . . كيف . . ؟

– ليس شأنى . . أنت طبيب ، وربما أفادتك قدرتك فيما يعود بالخير على مرضاك . .

* * *

مع حلول شهر ديسمبر من العالم التالى ، وفى واحدة من القرى النائية بمحافظة البحيرة . . تلك المسماة بقرية « البرج » وتقع غربا بثمانية كيلومترات من مدينة أبو المطامير أحد المراكز الهامة بهذه المنطقة ، أخذ أهالى قرية البرج والقرى المحيطة بها ينسبون عديدا من الكرامات الخارقة لشيخ عملاق ظهر بينهم مؤخرا . . إنه يشفى – وبصورة تدعو للإعجاب غالبية المعروف من أمراضهم ، وغير المعروف منها . . وبخاصة تلك التى تنسب إلى فرع « الروماتيزم » والتهابات المفاصل والعضلات . . وفى الوقت نفسه ، عجزت الشرطة عن إدانة الشيخ المهيب بتهم الدجل والنصب والاحتيال ، إذ كان لا يتعرض لغير المشاكل التى تصيب جسد الإنسان بالعطب ، وكان موفقا لأقصى الحدود فى علاجها . ولم يكن يتقاضى أجرا من أى نوع . . وكان رجلا متدينا كذلك ، قليل الكلام ، جليل الطلعة ، هادئا قسمات الوجه . .

حتى لكأن النور أو الدفء يشع من حوله ! . .

وهكذا ، وإلى يومنا الحاضر يسعى جموع الأهالى من قرية « البرج » بالبحيرة ، ومن القرى المجاورة ، بل من أقصى مدن الجمهورية وقراها ، إلى كوخ الشيخ المزوّد بمصباح كهربائى ضخم على بابه . . ولا يكفون عن الإحاطة به طوال ساعات الليل والنهار ، وهو لا يرد لقاصد الشفاء منهم طلبا . . بل يستقبل زواره دائما بابتسامته الراضية المعهودة ، وبقامته الفارعة فى جلبابه القاتم ، وقد أخفى كلتا يديه بداخل جيبى جلبابه . . فإذا ما أخرجهما ، فهما ولابد مكسوتان بقفازين من معدن رقيق غير معروف . .

تقرير عاجل . .

على الصخرة الداكنة ، التى تقبع فى ظل جرف من التلال البرتقالية الملساء ، تحرك الجسم بعد طول سكون . . كان أشبه ، بجذر الشجرة ، مقلوبا ، سميكا من أسفل ، مدببا من أعلى ، يطول بارتفاع قامتين . . أزرق إسفنجيا . تملؤه الزوائد والنتوءات العصبية البالغة الحساسية . .

بغتة ، وقد ظل دون حراك زمنا من قبل ، انتفض . . ارتجف ، شملته موجة من الاضطراب من قاعدته إلى ذؤابته . . ثم إذا بقمة الجذر تبدأ فى الانحناء ، والميل رويدا رويدا . . حتى تقوس الجذر ، ولامست قمته سطح الصخرة الخشن ، فى مستوى قاعدته . .

فى الحال ، وبسرعة مذهلة تقاس بأعشار ومض البرق ، اندفع الجذر عائدا إلى حالته الأصلية . . ولدى رجوعه ، وكما ينطلق السهم من القوس ، انطلقت

من قمة الجذر كرة من ضوء حانٍ غريب ، كأنها دائرة نورانية لها نواة من لهب . .
وكان يشع من أحد أطرافها موج غير مرئى ، وبدا أن الموج الذى يسبقها — أو تسير
على هداه — يبث كذلك طنينا مسموعا خافت الإيقاع . .

انحدرت كرة الضوء بعيدا عن الصخرة ، وقد تجنبت بروزا حجريا فى الطريق
إلى منخفض رملى ، أو انفلاق فى أديم التربة نفسها . . دارت الكرة حول البروز
الحجرى ، ثم انطلقت عبر الانفلاق فى سرعتها الرتيبة غير العجلة . . وقابلت كرة
الضوء كرتين أكثر إعتاما ، تحومان متجاورتين . . لكنها لم تعرهما اهتماما ، وظلت
على تقدمها الحثيث . .

وانسابت كرة الضوء بغتة إلى أعلى ، تتخطى أربعا من قمم التلال ، الواحدة
فى أعقاب الأخرى ، فى نعومة ويسر . . وما إن بلغت الجانب المقابل من الجبل ،
حتى انكشف أمامها منظر فريد . . فإلى اليمين اتساع مهول ، بحر أو محيط ، مياهه
الثقيلة حمراء فاقعة ، لكنها ساكنة صافية ، بلا موج . . وبلا حياة أيضا . .
فلا رياح ، ولا هواء ، ولا جو بالمرة فوقه . . وشاطئه إسمنتى ، بته يد فنان لا
يخطئ خطوط الهندسة الرائعة قيد أنملة . .

أما يسارا ، فقد امتدت تلك المسارات الطويلة ، ثلاثين أو أربعة وثلاثين
أو أكثر بمسارين . . تتوغل بعيدا ، بعيدا ، عبر تلال أخرى ووهاد . وأودية ،
وصحراوات ، كلها زاهية ، متباينة الألوان ، وإن غلب عليها اللون البرتقالى . .
ومعظمها يعج بنماذج مختلفة الأحجام ، من نوع الجذر الذى انثنى فأطلق كرة
الضوء الحانية . .

* * *

على أن كرتنا الأولى اختارت مسارا بعينه ، التحمت به بكيفية منظمة

معتادة ، وسرعان ما اندفعت عبره كما يندفع الشهاب بسرعته الخارقة عبر السماء . . وكانت هناك كرات أخرى من ضوء تعتلى نفس المسار ، أو تركب مسارات أخرى متقابلة ، أو متعارضة ، أو متوازية . .

ويا لها من أداة مواصلات مدهشة ! . . فما كادت كرة الضوء تصل نهاية مبتغاها ، حتى غادرت المسار لتقبل على ما يشبه تجمعا مهولا من قباب شاهقة ، متنوعة المرافق ، متعددة الجوانب ، لكنها بلا سقوف . . إنما هى مجرد فتحات تغطيها طبقات موجية عالية التردد . .

وحيث تعالت أصوات الطنين ، وحيث بلغت الحرارة بفعل تزاحم الكرات الضوئية حدا يفوق التصور ، انطلقت كرة الضوء تخترق صفوفا وراء صفوف من الكرات المنهمكة – هذه المرة – فى نفث شحنات من الطاقة ، تحرك بها نماذج مألوفة لديها من العدد والآلات المبهمة ، الغامضة ، المنظورة غير المسموعة . .

وعلى البعد ، لدى الساحة المقعرة لأسفل ، كانت ثمة بناية تأخذ فى الارتفاع تلقائيا ، ولم تكتمل قبتها المفتوحة لأعلى بعد . .

لكن كرة الضوء استمرت فى طريقها عبر الكرات الأخرى ، تأخذ اتجاها مباشرا ، منسابة فى ليونة ، فى عذوبة ، كأنها تطفو عبر تيار معنوى خفى .

وبرز أخيرا المبنى الشاهق ، ذو الرقائق الحجرية الضاوية ، من وراء التبَّة المعرضية ، وكانت تتوسطه البئر المحاطة بأستار الجليد الشفاف ، تفور منها النيران المقدسة ، المشتعلة بلا لهب ، بلا دخان ، بلا ضوضاء ! .

فى عجلة ، نفذت كرة الضوء عبر كوة فى جدار المبنى ، وانزلقت خلال ممر أنبوبى . . قابلت مصطبة بلورية ، تدور بداخلها فقاعات بيضاء – أو هى مصفرَّة اللون قليلا ، تتجه لأعلى . . كلما تلاقت فقاعتان انفجرتا ، لكن غيرهما يتكون فى

أسفل على الدوام . .

بيطء . . وأيضا فى حرص ، حطت كرة الضوء على المصطبة التى تضم الفقاعات . . استقرت عليها ، بل التصقت بها ، وقد فقدت كرويتها ، واعتراها بعض الانبعاج من أسفلها . . وعلى الفور ماجت الفقاعات وسرى فيها نوع من الهياج ، من الحمى . . راحت تتضارب وتتصارع وتتقاتل فى سرعة ، فى جنون . .

وتتالت فقرات أخطر تقرير فى تاريخ الكوكب البرتقالى ، السابح فى طرف مجرد « سكة التبانة » ، مأسورا . وتابعا للنجم المحتضر فى هذا الجزء الطرفى النائى . . من مجموعة عوالم المجرة السابحة فى كون اللانهائية . .

« من الفكر الحقير (زاح) ، المنبثق من عجينة اللحم الثابتة منذ مولدها ، وحتى تفنى ، على الصخرة رقم ثلاث نقاط وعصوين ونغمة . .

تقرير عاجل » . لا يحتمل التأخير :

« مقدم إلى الفكر الأعظم (خوماش) ، المنبثق من عجينة اللحم المقدسة الثابتة منذ نقلت ، وإلى أن تفنى ، بداخل التربيع الأبدى ، مجاورا للنيران الباردة التى تحمى شعبنا : فقد أمكننا أثناء لحظة الزمن الموقوت بالوميض التاسع الحقبى لنجمنا الخابى ، وبمعونة المنظار التخاطرى المقرب ، والذى رُكّب ليدار بمعرفتى منذ قرابة عجلتين زمنيتين ثانويتين ، أن نرصد الطرف الآخر المقابل من مجرتنا . وقد أمكننا أن نرى فى ذيل ذلك الطرف السحيق ، شمسا تتبعها تسع كواكب مختلفة الأحجام ، ثبت لدينا بما ينتفى معه أى شك ، أن الكوكب الثالث – بالنسبة لبعده عن الشمس – يحوى كائنات . . مخلوقات حية ، أمكننا أن نكبر رؤيتنا لها ، وهى

تتحرك وتتنقل وتسعى ، فى دروب وأنحاء ذلك الكوكب . وهى ليست ثابتة الأجسام وتتنقل بالفكر – كما نحيا ونتنقل نحن على ثرى كوكبنا – وإنما هى تتنقل بأجسامها ، كما هى ، عبر أرض كوكبهم وبحره وسمائه .

« وقد تحققنا بالفعل من أن أجسام هذه الكائنات ، بالكوكب الثالث من مجموعة الشمس المذكورة ، أجسام معدنية مصفحة . . لها دروع ثقيلة ، أو هى رقيقة لكنها متينة محكمة . . بعضها يطير بزوائد أفقية على جانبيه ، أو زوائد رأسية أعلاه . وهى سريعة للغاية ، والبعض يسعى على الأرض وحده بأرجل دائرية رائعة ، أو يجر معه عددا على شاكلته فى طابور طويل فوق مسارات مثبتة فى التربة ، أو له زوائد من أعلى متصلة بأسلاك ضمن شبكة جهد علوية . وله أرجل دائرية من أسفل . . وكلها أبطأ من الأولى . وهناك بعض يتحرك على صفحة اليم ، فى أحجام معظمها ضخم ، خاصة تلك التى تحمل صغارها الطائرة على ظهرها ، وهى ذات أجسام انسيابية رشيقة مدببة من طرفيها ، أو يغوص تحت اللجة فى أحجام أقل ضخامة . وجميع تلك التى تشق اليم هى الأبطأ حركة .

على أن أكثرية الكائنات السابق وصفها تنفث غازات ضارة ، من أعلاها أو أسفلها أو من جوانب لها ، وتصدر عنها ذبذبات صوتية مزعجة مريعة ، تتباين حدتها . إلا أن الغامض حقا – وهو محير كذلك – تلك الكائنات ذات الأجسام الكروية اللامعة ، الصامتة – وإن بثت فى النادر بعض النغمات – التى تنطلق إلى السماء ، لتظل تحلق وتحلق مقيدة الى جاذبية الكوكب ، حتى تحترق وتفنى .

« وبعد . . هذا تقريرنا الأول العاجل ، عما رصدناه مؤخرا . . عن مخلوقات تُعرَف وتُرى للمرة الأولى ، بكوكب آخر بطرف مجرتنا . . ويجرى إعداد تفاصيل

أكثر إثارة عن الكائنات ذات الأجسام المعدنية ، المصفحة ، أو الطيِّعة . وعن انفجارات مرئية تشبه النباتات العملاقة تصل السماء . . تتزايد ولا تتناقص ، مما يؤذن بقرب انشطار الكوكب ، دلالة على غضبة إلهية ماحقة » .

الفكر الحقير
زاح

الطحلب . .

انطلق الرجل القصير القامة ، يغوص مندفعاً – بين صفين متقابلين من الأعشاب الغليظة قاتمة الاخضرار – تتبعه عن بعد بضع سمكات متطفلة من أسماك القاروص الأرقط ، وقد غطى وجهه بقناع الرئة المائية ، وحمل أنبوبة أكسيجين ضخمة ينوء بها ظهره ، فى حين لف وسطه بحزام عريض ، تتدلى منه سكين ذات نصل حاد ، ويتسلح بحربة طويلة فى يده . .

لمحت عين الرجل ، من خلف واجهة القناع الزجاجية ، حباراً صغيراً ينكمش على أكمة رملية بين سيقان الأعشاب ، فمد حربته يداعبه بوغزة خفيفة ، جعلت الحبار ينفث سحابة كثيفة من حبره الداكن ، ليفرّ خلالها . .

وفى نهاية صفى الأعشاب ، برزت صخرة مرجانية شاهقة ، بدت – وهو يدور حولها – وكأنها قلعة حربية من قلاع العصور الوسطى ، تتلألأ بعشرات الأضواء

والألوان . . ومن بين شقوق المرجان وسيقانه النقية البياض ، كانت تبرز آلاف العيون ، تراقب الوافد الدخيل فى صمت وتوجس . .

بغتة ، انكسر القاع قبالته ، ليكشف عن أخدود واطئ تغلفه عتمة باهتة ، فألقى الرجل القصير بجسده ، يهبط الهوينى وسط هالة من جدائل الأشعة الصفراء الرفيعة ، حتى استقرت قدماه على الأرض الرملية الرخوة ، وغاصت فيها إلى الكعبين . . وأجال عينيه متفحصا ، لكن . . فيما عدا كرة أوكرتين من حيوان الإسفنج ، وبضع محارات فضية ، ونجمة بحر تتعثر فوق الرمال بوهن شديد ، لم يلحظ الرجل شيئاً ذا بال على مرمى بصره . . وتقدم يخطو فى تثاقل أكثر على صفحة الرمال ، تسبقه حربته ، فى حين خلّف وراءه ذيلا طويلا من فقاعات الهواء المتصاعدة . . وقابله سرب كثيف من أسماك البورى ، وهى تنساب فى دعة وتواز بأجسامها الأسطوانية المزدانة بخطوط زرقاء وخضراء ورمادية . . وتلاه سرب آخر من أسماك رنجة الصابوغة ، وسرب ثالث من أسماك الأنشوجة ذات الفم البارز . . ثم لمح سلحفاة بحرية تسبح متكاسلة ، ومن ورائها بدت مجموعة من نباتات العشب الثعبانى . . وفيما وراء النباتات ، اتضحت الهوة ، على غير انتظار ، تفتح فاها مظلماً ، وكأنه فوهة بركان يقبع على سطح القمر . .

كانت الهوة باتساع عدة أمتار ، وكانت صخرية الجدران ، ملساء ، تغطيها طبقة رقيقة من حيوانات «البلانكتون» المجهرية الخضراء . . لكنها لم تك عميقة القاع . .

حين أطل الرجل القصير – برأسه المغلّف بقناع الغوص – من عل ، استطاع برغم الظلمة السادرة أن يرى ، فى أعماق الهوة ، النبات الداكن يشغل ركناً بأكمله . . وقفز دون تردد ، ليتسمر مبهورا حيال قدرة الخالق وسمو إبداعه . . فعلى

العمق البعيد من سطح البحر ، شاهد أجمل ما وقعت عليه عيناه . . شاهده يقبع في مهابة وجلال ورفعة ، وقد ثبت جذوره القوية في نتوء صخرى ، وامتدت أوراقه الحمراء العريضة ، والمثناة الحواف ، في شكل مروحة أو هرم مدرج متناسق التكوين . .

كان أشبه بوحش خرافى ، خضبته الدماء القانية ، ومع ذلك بدا حلوا رائع القسمات . . وكادت ذاكرة الرجل أن تخونه في المبدأ ، فيختلط عليه الأمر . . ولكنه سرعان ما تأكد من أنه بإزاء طحلب « الماكروسيستس بريفرا » ، وهو نوع عملاق من الطحالب البنية ، التي تكوّن ما يعرف بغابات الأعماق في أعالى المحيطات . . كانت بحق شجرة فريدة من هذا الطحلب ، الذى يندر وجوده على الشواطئ المصرية . . وبلا أقل تفكير ، جذب الرجل القصير سكينه من غمدها . وانحنى في لهفة يخلص الجذور البيضاء من مكمنها في الصخرة ، ثم يحتضن النبات الثقيل الوزن بكلتا يديه ، ويسارع بالارتفاع به إلى سطح الماء . .

* * *

– ياللأسى يا بكرى ! . . ما هذه البقع التى تلطخ السجادة ؟ . . وما الذى تلقى به فى نهاية البهو ؟

حاول بكرى أن يفتح فمه : « إننى لست سوى منفذ للتعليمات يا سيدتى » . لكن الصوت الرفيع الحاد ، المنبعث من أعلى السلم الخشبى ، طغى على نبراته الخافتة فى أسفل : « أنت سائق السيارة . . والأستاذ هو الذى أمرك بإدخال ذلك الشىء إلى هنا . . ولكن ألم أنبه مرارًا إلى عدم جلب القاذورات إلى داخل الفيلا ! »

اعترض بكرى فى أدب : « إن النبات محمول فى وعاء ، والوعاء... »

فقاطعه صوتها وهو يثقب أذنيه فى إصرار : « مع كلٍّ ، فقد تسبب فى اتساخ السجادة ، وركن البهو . . وكذا السلم الخارجى . . ولا أدرى ما الذى سيتسخ بدوره ؟ »

ثم بدا وكأن نغمة مبحوحة تتعالى من اتجاه باب « الفيلا » الرئيسى ، المزدان بألواح عريضة من البلور المموّه الثمين .

– هونى عليك . . البقع مصدرها مياه عادية ، سرعان ما تجف . .

تطلعت السيدة الواقفة بأعلى ، من خلف عويناتها السميكة ، فى اتجاه الرجل المنضغط القامة ، والمستدير الوجه – مثل وجوه الأطفال ، على الرغم من شاربه الرفيع المعتنى بتشذيبه أفقيا – فرأته يلتقط كرسيا يلقى عليه بجسده فى تحد ، وقد برزت خصلات الشعر الكثيف من فتحة الصدر بقميصه ، وبطول ساقيه وقد انحسر عنهما ساقا السروال بعناية . .

– آه ، هذا أنت يا عزيزى . . اسمع يا أدهم . سواء نتجت البقع عن مياه أو عن غيرها ، فإن كل ما يعنينى هو نظافة بيتى . . أما ما تجلبه من قواقع وأشجار وحيوانات لتجرى عليها تجاربك التى أجهلها ، فليس مكانها هنا . . فى البهو ، أو الحجرات . .

انتصب الرجل واقفاً وقد كسا وجهه شىء من التفاؤل ، وقال وهو يومئ إلى النبات المكوّم بركن البهو : « إنك لم ترى بعد ما جلبته من أعماق البحر ! »

أومأت السيدة ، وهى تضم ثنايا الثوب الحريرى على جسدها البدين : « بل أرى الشجرة من مكانى بوضوح . . »

رسم ابتسامة مرحة على شفتيه : « هو ليس شجرة بمعنى الكلمة . . إنه طحلب ، التقطته من مكان يقابل شاطئ المكس القديم . . »

اتضح التقزز فى انكماش قسماتها : « طحلب ؟ ! »

– أجل . . كائن مائى ينمو على أعماق متفاوتة من سطح البحر . . ألا يوحى مظهره بالقوة ، بالسمو . . لقد كان معجزة أن أعثر عليه ، فى ذلك المكان بالذات ، على عمق اثنى عشر مترا فحسب ، فإن نوعه نادر الوجود فى البحر المتوسط . . بل فى البحار عادة ، لأن موطنه المحيطات . . حيث المياه المفتوحة الصاخبة على الدوام ، والتيارات المحملة بالزبد وبالعناصر المجهرية الدقيقة ، وحيث . . . » .

غير أن السيدة أشاحت بوجهها ، وهى تشير إلى الطحلب فى ازدراء ، وتمتمت محدثة السائق من أنفها بلا مبالاة ، وكأنها قد أعطت زوجها أكثر مما تستطيع من وقتها . .

– والآن يابكرى ، ألق به فى القبو . .

قالتها وهى تمد ساقها البضة ، تهبط ما تبقى من درجات السلم . . وحين أكملت الهبوط ، عبرت البهو مارة أمام زوجها يكسوها وقار مصطنع ، إلى أن توارت فى حجرة جانبية ، بعد أن خلفت وراءها نفحة من عطر البنفسج الثقيل . . فى حين احتضن بكرى الوعاء وبه الطحلب ، واستدار فى صمت آخذاً طريقه إلى القبو . . يتبعه سيده مستكينا ، وقد اعتراه شىء من الرثاء لها . .

* * *

لم تكن المرة الأولى التى يقابل فيها أدهم راشد بجفاء زوجته ، فقد تعود منذ زواجه منها – منذ أكثر من ثلاثين عاما مضت – على أعصابها الخربة ، المشدودة بمناسبة وبلا مناسبة . . صحيح أنها كانت لا تدخر جهدًا فى الحنو عليه ، والسهر على راحته ، وطالما حثته ووقفت بجواره خلال رحلة حياتهما معاً . حتى زوجا

ابنتها « ألفت » من ذلك المهندس الشاب ، واستطاعا أن يلحقا ابنهما الأصغر «عبد الحميد » بوظيفة مرموقة عقب عودته من دراسته الأكاديمية بالخارج . .

غير أنها كانت تضع فيلتها فى المقام الأول من إعزازها ، وتحرص أشد الحرص على نظافتها وترتيبها وتزيينها ، بصورة تصل إلى الإفراط دواما . . وقد زاد انغماسها فى شئون «الفيلا » ، وزادت حدتها فى رعاية مهامها خلال العامين الأخيرين ، لدرجة الشكوى والاحتجاج إزاء أقل بادرة تعكر صفوها . . وبالذات مما يجلبه هو من نماذج نباتية وحيوانية – سواء حية أو على شكل حفرية ، تعينه فى أبحاثه العلمية التى يشغل بها معظم وقته . . لكنه لم يضق باعتراضاتها على الإطلاق ، فالسبب الكامن وراء سلوكها – فى تقديره – هو تركه لوظيفته كأستاذ بمعهد بحوث أعماق البحار ، وإحالته إلى المعاش بعد بلوغه الستين من عمره ، الأمر الذى بات يذكّرها – فى نفس الوقت – أنها قد قاربت هذه السن الحرجة فهى تصغره بأعوام ثلاثة . .

– هل أضع الطحلب داخل حوض الزجاج الكبير يا سيدى ؟

من بين أفكاره أجاب السائق : «بل دعه مكانه ، فإنه لن يعمّر على أى الحالات » . .

– إن سيقانه وأفرعه تبدو متماسكة . .

– لكنها عاجلا ما تذبل ، فالطحلب لن يقاوم طويلا اختلاف الضغط الجوى ، بعد انتزاعه من عالمه البحرى . .

وغادر السائق القبو ، تاركاً إياه لوحدته ، وسط نباتاته ، وحيوانات تجاربه ، وأجهزة معمله المنفّرة الشكل فى معظمها . . وكاد أدهم أن ينزلق مرة أخرى مع دوامة أفكاره المتلاحقة لولا أنه سارع بانتشال مشاعره من جمودها ، وهبّ يعدّ

مجموعة من المحاليل والغازات ثقيلة القوام ، ليجرى بها بعض التجارب على الطحلب الجاثم قبالته فى سكون . . وحين انتهى من بحثه ، تناول كراسة صغيرة راح يدون فيها كلمات روتينية . .

«٢٨ مايو ١٩٦٤ : كانت حصيلة اليوم من البحر – فى منطقة الصخور المرجانية ، على بعد الكيلو متر من شاطئ المكس القديم – مفاجأة ضخمة لى . فقد عثرت على طحلب عملاق ، من نوع الماكروسيستس بريفرا - يقبع عميقا تحت سطح البحر باثنى عشر مترا ، فأسرعت أحمله إلى معملى بالفيلا لأتفحصه ولأجرى ما يعنّ لى من تجارب عليه . إن الحصول على مثل هذا الطحلب العملاق مناسبة لن تتكرر ، لندرة وجوده بمناطق البحر الأبيض المتوسط . والطحلب الذى جلبته : له مثانة مركزية ضخمة ، تنتشر منها أوراق مطاطية عريضة ؛ وسيقان عددتها فوجدتها ٢٣ ساقا ، يبلغ أطولها ما يزيد على الأربعة أمتار . وأما أسفل المثانة المعروقة من الخارج ، فقد امتد جذر رئيسى مفلطح ، يحيط به العديد من الجذور الثانوية الماصة .

«ولون أوراق الطحلب هو البنى القاتم ، أما السيقان فيغلب عليها البنى الفاتح . المشوب بالأخضر الزيتونى . وأما المثانة والجذور فهى بيضاء فى لون الجير .

«وموطن هذا الطحلب هو أعالى المحيطات ، وبخاصة المحيط الهادى ، حيث ينمو مكوّنًا طبقات متراكمة بطول سواحله ، حتى يصل الى إقصى الشمال البارد فى ألاسكا . وهو من نفس العائلة من الطحالب التى يستخدم الأسكيمو وسكان جزر المحيط الهادى سيقانها كقصب للصيد ، كما يصنعون منها نوعًا من الدقيق يخبز على هيئة أقراص غنية بالفيتامينات والبروتين . . إلى جانب طهو أوراقه بعد تجفيفها . فى صور متعددة من الحساء ، لها نكهة الكرنب . »

فى اليوم التالى ، دون فى صفحة مجاورة من صفحات الكراسة ، ما يلى :

« ٢٩ مايو ١٩٦٤ : كان تقديرى بالأمس أن الطحلب لن يعمر لأكثر من يوم ، إزاء اختلاف الضغط الجوى بارتفاع يزيد عن ١٨ مترا (هى فرق المسافة بين مكمنه تحت سطح البحر ، ومرقده الحالى ، حيث يقبع قبالتى فى قبو الفيلا .. كان تقديرى أن الطحلب لن يعمر لأكثر من ٢٤ ساعة ، ولكن — لدهشتى البالغة — طالعنى لدى تفقده صبيحة اليوم ، بمظهره المهيب ، وهو لا يزال محتفظا بمعظم حيويته الظاهرة . لذلك فقد عجلت بإغراق نصفه السفلى المتضمن مثانته وجذوره — داخل صندوق بلورى كبير ملأته بماء البحر المالح ، بعد إضافة مزيج مختار من العقاقير والمواد الغذائية المناسبة .

« وهأنذا فى انتظار النتيجة ، يراودنى أمل غامض » .

* * *

على أن نوبة عابرة من نوبات ضغط الدم حالت دون تفقد « أدهم راشد » تجربته على الطحلب العنيد ، وموالاتها بالرعاية اللازمة . . وحين هبط بعد غيبة أسبوع إلى القبو ، وقد استرد بعضا من عافيته ، كانت الحقيقة الضخمة فى انتظاره ، تفوق كل ما يحيطها من هواء مكتوم ، ورطوبة ، وروائح عفنة تزكم الأنوف . . فقد طالعه الطحلب بكامل بهائه ، صحيحا ، زاهى الألوان ، تمتلئ أفرعه وأوراقه العريضة بالعصارة المتدفقة . . إذن فالنبات البحرى النادر لم يهلك بالرغم من جميع تقديراته . . وإذن فهو بإزاء أندر الفرص التى قلما تتاح لباحث ضليع ، كى يدرس خلالها وعلى الطبيعة ، واحداً من أقدم وأغرب المخلوقات التى عرفها كوكب الأرض . .

اندفعت الدماء ملتهبة فى شرايين الدكتور أدهم ، لتثير الحماس والتحفز الكامنين

فى أعماقه . . ولا شعوريا ، وجد نفسه ينزع سترة منامته البنية ويرتدى بدلا منها معطفا أبيض ، وقد هيأ مشاعره وحصر أفكاره فى أحب المهام لديه . . على أنه — وقد همّ بإغلاق باب القبو من الداخل — تناهى إليه صوت ابنه الغليظ ، الشبيه بأوتار قيثارة غير مشدودة ، يأتيه مدويا من الطابق الأول بالفيلا :

— أهو بالقبو حقا ؟

أجاب الخادم بالإيجاب . . .

— لكنه لا يزال مريضا . . فكيف يتسلل إلى ذلك المكان المعبق بالرطوبة ؟

— هل أخطره بسؤالك عنه ياسيدى ؟

لم يرد الابن ، وإنما تعالت خطواته تهبط السلم ، قاصدة القبو ، وقد اتضح من بطئها ثقل البدن الذى تحمله قدماه . . لقد كان الابن صورة من رشاقة أمه !

— أمازلت مرتديا منامتك يا أبى ؟

— إنه سروال المنامة ، وفوقه معطف المعمل كما ترى . .

تمتم الابن متملقا : « لكنك لم تتناول إفطارا ، ألا ترى أن الوقت لا يزال مبكرا على هبوطك إلى هنا ؟

— لدى عمل هام . . بحث علمى أجريه على طحلب بحرى . .

— ماذا . . طحلب ؟ !

لم يلق الأب التفاتًا إلى نظرة الدهشة التى بدت فى عينى ابنه ، وإنما تابع كلامه الجاف : « كنت سأهم بإغلاق باب المعمل علىّ ، لأبدأ فى تجربة ، حين سمعت صوتك تبحث عنى . . والآن ، ماذا تريد ؟

سعل الابن ثم فرك يديه أسفل كرشه البارز الذى لم يكن يتناسب مع الأربعة

والعشرين عاماً ، التى أوشك أن يكملها . . وأخيراً ، قال فى صوت حاول أن يخفف من غلظته .

– جئت لأذكرك بموعدنا مع أسرة خطيبتى ، للذهاب معهم إلى الصاغة . ألم نتفق على تحديد اليوم موعداً لشراء الشبكة ؟ . .

– أنا لم أتفق ، ولم أحدد . . .

– أمى هى التى اتفقت معهم . .

– فلتصحبهم هى !

وأصر الابن : «إن الباشا – والد خطيبتى – سيجىء معنا . . لذلك فلابد من حضورك أنت» . .

– لا أستطيع . . آسف ، فلدى عمل هام لا مفر من أن أنتهى منه أولاً . ولنؤجل موعدك للغد !

ومن بعيد ، من أعلى . . ربما من أعماق الطابق العلوى بالفيلا وُجِّه صاروخ مباشر إليه تفجر عن كلمات آمرة . .

– ليس هناك ما هو أهم من مستقبل ابنك يا عزيزى أدهم . . ولتصعد حالاً ، فالوقت لم يعد متسعاً !

كاد أن يقذف بابنه إلى خارج البهو ، وهمّ أن يصيح فى زوجته موبخاً إياها على كلماتها التى تتسم بالغباء دون شك ، خاصة وهى تبرز أهمية شراء «شبكة» على إجراء التجربة . . وحين راح يصعد فى أعقاب ابنه ، كان يؤكد لنفسه – ربما للمرة المائة بعد الألف – بأنه لن يسمح لها بتعطيل أبحاثه بعد اليوم ، وأنه لن يجيب رغباتها فى المرة القادمة ، ومهما بدر منها من إصرار ومن صفاقة . . ولا سيما أن التجربة على الطحلب الفريد ضرورية ، وهامة ، وواجبة لأقصى الحدود .

ظن الدكتور أدهم راشد ، وقد لفته شبه إغفاءة والسيارة المرسيدس الضخمة تنساب بقيادة ابنه ، فى طريق عودتهما إلى فيلتهم بحى «جليمونوبلو» ، بعد أن ودعا الخطيبة المتيبسة القوام ، وأباها الباشا الذى فقد ثروته خلال إحدى نزوات القمار ، فلم يعد يحمل من مقومات اللقب غير ما كان له من مظهر معنوى فارغ . . ظن أن الأمر انتهى بشراء الشبكة العتيدة لخطيبة ابنه ، وأنه فى النهاية سيلقى الفرصة ليخلو إلى طحلبه النادر ، فيجرى عليه أبحاثه ، معوضاً كل ما فاته من وقت ثمين تبدد بسبب حبه الزائد لأفراد أسرته !

غير أنه فوجئ عقب وصوله بعائق جديد . . لقد هبطت الفيلا ابنته وزوجها وأبناءهما الثلاثة . . ومع دوامة الاحتفاء بمقدم الابنة – التى طال غيابها فى منطقة السد العالى وضوضاء صغارها الذين لا يكفون عن الحركة ، وحفل خطوبة الابن ، حيث قدم الشبكة رسمياً ، وسهرات الأهل والأصهار والأصدقاء احتفالاً بمناسبات أخرى وبلا مناسبات ، تباعدت فرص الانفراد بالطحلب . . وبالتالى ، تضاءلت الآمال العراض المعقودة على ما سيجريه عليه من تجارب وأبحاث ودراسات . . ورويداً رويداً ، بات غاية ما يقوم بأدائه الرجل المنضغط القامة – الدكتور أدهم راشد – هو مجرد مراقبة سطحية للنبتة العملاقة ، وتسجيل مخلص لعمليات النمو المطردة ، التى بدأت تظهر فى وضوح على الأطراف الثلاثة عشر للطحلب ، وعلى أوراقه الجديدة التى راحت تشمخ مزهوة بألوانها الحمراء الداكنة ، وقد ازدادت أحجامها حتى قاربت آذان الأفيال فى اتساعها . .

على أن أكثر الأشياء إثارة لحنقة ، كان ذلك الحنو المبالغ فيه ، والذى يقابل به من سكان الفيلا . . . من الزوجة ، ومن الابن الشاب والابنة وزوجها وصغارها . . بل حتى الخدم ، وعلى رأسهم الطاهى العجوز ، لم تكن كلماتهم له

تخلو من لمسات تدليل ورثاء لا تتفق ومكانته . . فلم كل هذه العواطف الحانية تجاهه ، وبمثل هذا الإسراف ؟ . . أتراهم يتآمرون عليه . على طاقاته وإمكانياته في المجال العلمي ؟ . . على قبس المعرفة الذي يغمره ، ويغذي خلاياه العقلية ويجدد شبابه الذهني ؟ . على خواطره الثورية ، التي تبحث عن المجهول من أجل المستقبل البشري ؟ . . أم تراهم – بصريح العبارة – قد توقعوا نهاية حتمية لقدراته كإنسان مفكر ، بخروجه على المعاش ؟

في أعقاب ليلة صاخبة ، سهرت فيها « الفيلا » إلى قرابة الفجر ، انهارت الحواجز تحت وطأة ضغوط عنيفة لا تكل . . وتدفق السيل عارماً ، يجتاح كل ما يعترضه . . ومن أعماق تمزقه النفسي ، انبثقت الساخنة فغطت على بقية أفكاره واكتسحت مشاعره ووجدانه ، لتغرق كيانه بأكمله . .

أجل . . . لا مناص من أن يضع حدًّا للذي يجري حوله . . . أن يوقف تدخلهم في خصوصياته ، ويريهم قدره الفعلي ومدى سيطرته على كيانه ووجوده .

وهكذا قرر – في النهاية – أن يتفرغ للطحلب تفرغاً كلياً ، أن يستأنف تجاربه عليه دون أي عائق أو حائل ، مهما يكن .

– إلى أين تراك ذاهباً يا أبي ؟ . . وعلام التقطيبة المخيفة التي تكسو وجهك؟

قالتها ابنته في صوتها الموسيقي ، وهي تتبع خطاه عبر باب الحجرة التي خصصت لها ، وقد نطقت عيناها الزرقاوان بومضة حنان لا تخلو من السخرية .

إن ابنته هي الأكثر شبهاً به من أخيها ، فلها نفس ملامحه وطباعه ، ونفس مزاجه . . وهي الأقرب بين الناس أجمعين إلى فؤاده . . ولكن منذ تزوجت وأنجبت زمرة الأولاد ، اهتزت مكانتها لديه ، وأصبحت أكثر بعداً عن دنياه

أجابها فى لهجة خلت من المعانى ، وهو يأخذ طريقه إلى القبو : «إننى هابط لى معملى» .

– إلى الطحلب ؟

– تماما . . ولن يستطيع أحد منكم أن يقطع على خلوتى هذه المرة ، مهما فعل . .

حاولت الابنة أن تعترض طريقه ، مذكرة إياه بموعد سابق له . . وجاءه صوت ابنه غليظاً منفراً وهو يؤكد كلمات أخته المتضرعة السخيفة . . ثم تعالى أيضاً صوت الأم حنونًا ، آمرًا . . كعادته ! .

وأصم أذنيه عن كافة النداءات والتضرعات . . وفى برود متحد ، شق مساره إلى أسفل وأغلق باب القبو وراءه بكلتا يديه ، وكأنه بفعلته يقتل عدواً يخشى الاستسلام لضرباته . .

بداخل القبو أضاء الكهرباء . . واستدار نحو الطحلب ، وقد خلا لهما الزمان والمكان نهائيا ، وحين التقط أنفاسه ، وحدق فى سيقان الطحلب الفارعة ، وكسائها الزيتى يلمع تحت ضياء الكهرباء استطاع أن يميز نموها المتزايد ، وتضاعف عددها حتى ليتعذر إحصاؤها بالعين المجردة . . كما لاحظ أن سمك الساق الواحدة ، قد قارب سمك قبضة يده !

لقد نما الطحلب العملاق لتزحم أطرافه وأوراقه ثلاثة أرباع القبو ، شاغلة ما يقارب فى المساحة ستة من الأمتار المربعة ، بارتفاع المتر أو يزيد . . حتى طاولة المحاليل والزجاجات والمكثفات الكيميائية ، لم تسلم من بضع سيقان تستقر فوقها ، أو تلتف حول رجل من أرجلها الخشبية القصيرة . . على أن الرجل – أدهم

راشد ، أستاذ الكيميائيات ومدير قسم الكيمياء البيولوجية بمعهد بحوث أعماق البحار ، سابقاً — سرعان ما قطع صلته بكل ما يدور خارج جدران القبو ، وشمر عن ساعديه ، ليندمج فى سلسلة متصلة من التجارب المحمومة الشاقة على الطحلب .

ومر الوقت دون أن يحفل به . . أوغلت الساعات فى مسار الزمن ، وهومشغول بكافة ما يكمن فى أعماقه من حس ومشاعر . . فى حين تضاعفت الطاقة التى يبذلها عشرات المرات عن ذى قبل . .

ثم ، على غير انتظار ، سمع همساً ! . . تناهى إلى أذنيه صوت خافت غير مألوف ، ليستقر فى ذرا روحه . . وبدأ الصوت ناعساً ، صدئاً ، يأتيه من غور بعيد ، سحيق ، وقد انمحت أبعاده ، واختلطت نغماته . . لكنه كان آسرًا ، لا يقاوم . .

واحتواه الصوت ، وهو صاغر لا يملك المقاومة :

«أدهم أدهم ، يادكتور . . يا أستاذ الكيميائيات . . يا أدهم راشد . . أيها العالم النابغة . . التفت نحوى . . انظر إلىّ !

بغتِ الرجل . . تلفت فى حيرة ، وقد خيل إليه أن الهمس يتسلل إليه عبر شقوق خفية بواحد من جدران القبو الأربعة . . ولكن أيها ؟ ؟

«يا أدهم راشد ، لا تندهش ! . . إنه أنا الطحلب أناديك ! . . الطحلب الذى انتزعته قسراً من أعماق مملكته السحرية ، . . لكن ، هل تعرف حقًّا أى نوع من الطحالب أنا ؟ . . لقد توصلت إلى اسمى العلمى ، فهل تراك توصلت أيضاً إلى حقيقة أصلى ، وكيفية نشأتى . . إلى مبلغ جبروتى وسطوتى ؟ »

تميم أدهم وقد تركزت عيناه المذعورتان فى اتجاه الطحلب : « أعرف الكثير عنك » .

« بل إن معلوماتك بالقطع قليلة ، سطحية ، وغير مستوفاة . . صدقنى يا دكتور ، إنك لا تعرف إلا أقل القليل ! »

– وما الذى تعوزنى معرفته ؟

تحركت أذرع الطحلب المطاطية فى موجات بطيئة . فيها خبث البحر وغدره . حتى تجمعت فى النهاية قرب مثانته البيضاء المنتفخة فى كثير من الزهو . . وتمايلت ورقتان دانيتان ، بأعلى المثانة فى كبرياء ظاهرة . . ثم جاء الهمس :

أنا طحلب الماكروسستس بريفرا . سيد عمالقة المحيطات بلا منازع ، فهل بلغك كذلك أننى أقدم المخلوفات ، وأول من اختلج بطفرة الحياة على وجه الكرة الأرضية ؟ . . إن مبدأ نشأتى يرجع إلى بعيد . إلى زمن سحيق ينأى بمئات الأعوام عن عمر الأرض . . هى فى أرجح التقديرات بليون عام ! . . حينما ظهرت المواد العضوية البدائية مثل الهيدروكربونات والسيانيدات . . ثم اندمجت جزيئاتها . لتكون جزيئات أكبر وأكثر تعقيداً . حولت ما تسبح فيه من مياه البحار والمحيطات الأولية إلى محلول غروى تثقله المعلقات التى تولدت منها فى النهاية مادة الكلوروفيل الخضراء . . وأصبح الكلوروفيل غذاء أول مخلوق بدائى حى ، نتج عن اتحاد المواد المركبة الشبيهة بالبروتين ، فكان أن اصطبغ المخلوق الحى بالخضرة ، خلال نموه وانتشاره السريع ، فى مساحات المياه الشاسعة ، الدائمة الفوران . .

ليعرف فيما بعد مرور الأزمنة والأحقاب . . بالطحلب ! »

تلاشى الصوت الهامس برهة . . عادت أذرع الطحلب تتمدد فى اتجاه الدكتور الواقف مسمراً مشدوهاً . . وتقلصت ، عرتها رجفة لثوان ، ثم قبعت واستكانت على جانبيه . .

«هكذا ترى يا دكتور أدهم ، أن الطحالب الخضراء التى كانت تعيش عصور ما قبل التاريخ . هى أسلاف كافة النباتات الخضراء ، بل هى كذلك أسلاف لكل المخلوقات الحية التى تدرجت فيما بعد فى سلم التطور والرقى . . والطحالب قصة حياتها معقدة ، وشأنها بالغ العجب . . بل إن مجرد وصفها لا يخلو من إثارة ومن غرابة ! فالطحالب التى أنا واحد منها نباتات لها أوراق نباتية وسيقان وجذور . . وخلاياها تستخدم الطاقة الشمسية . وتركز النيتروجين الجوى . . وهى فى نفس الوقت حيوانات ، تتحرك ، تقذف بسائل سام على فرائسها ثم تلتهمها ! . .

والطحالب تتلون بالعديد من الألوان ، وإن فضلت الأزرق والأخضر والأحمر . . وهى كائنات ليفية أو خيطية دقيقة ، أو هى إسفنجية القوام ، أو مطاطية ، أو خشبية أو حتى هلامية . . وهى تملك قدرات تفوق حد التصور ، فهى تعيش فى مياه البحار والمحيطات والبرك . . وفى رمال الصحارى ، وبين شقوق الصخر . وتنمو فى المناطق الحارة والمعتدلة والباردة والمتجمدة إلى درجة ٢٠٠ تحت الصفر . ولا تقضى عليها مياه النافورات الساخنة ، وحمم البراكين ولو فاقت درجة الغليان . . بل لديها إمكانيات نادرة لمقاومة الإشعاع الذرى وغالبية الغازات السامة . . .

«والطحالب يادكتور تتكاثر بمعدل يصل إلى ثمانى مرات كل ٢٤ ساعة فى المتوسط . . وكل خلية طحلبية – فى جميع أنواع الطحالب مهما صغرت – هى مصنع للطعام فى حد ذاتها ، وبصور مدهشة ! »

على أن نبرات الصوت شابها الغضب بغتة وسرى فى طبقاتها الحادة حقد أهوج دفين ، فى حين زاد التفاف أذرع الطحلب المطاطية حول بدن الرجل – حتى

لامسته وهو لاهٍ ، متجمد ، ضائع الحواس . . !

« هذه هى قصة الطحالب ، يا دكتور أدهم . . هذه هى قصة حياتى . . وهذا هو عالمى وجبروتى ، وقد انتزعتنى منه غدراً ، دون أن تملك الحق الذى لا يجرؤ أحد على ادعائه . . لكنى مع ذلك بقيت . . لم أمت .,. ولم أنته . . وإنما أنت الذى ستنزل عليك لعنتى وتدمرك نقمتى . . أنت الذى سيحيق بك الفناء ! . . أجل ، لابد أن تدفع الثمن يا دكتور ! »

على الفور ، شعر الرجل بالأذرع الملساء الباردة تحوطه إحاطة كاملة ، لا مهرب منها إطلاقاً . . ثم راحت فى عنف وحشى تعتصره اعتصاراً . . وحاول الصياح . وأنفاسه تتحشرج ، وصدره ينطبق ، وعظامه تسحق وتتفتت ؟ . . حاول الصياح وطلب النجدة ، لكن أنفاسه خمدت قبل أن تتحرك شفتاه . . ثم سكنت كل حركة ، وساد القبو صمت مريب .

* * *

مرت ساعات حتى قاربت الشمس على المغيب . . قلق الطاهى العجوز على سيده ، فهو لم يتناول غداءه بعد . . لذلك فقد قرر أن يقطع عليه خلوته مهما تكن النتائج . . غير أنه بدلا من سيل اللعنات الذى توقع مجابهته اكتشف الجسد المسجى بلا حراك . .

هرع الطاهى مصعوقاً يخطر الجميع بما وجد . . جرت الأم فى وجل ، تجمع الأبناء والحفدة والخدم ، وهم مذعورون ، بطول السلم إلى باب القبو . . ثم أتى الطبيب آخر الأمر . . وبعد فحص دام دقائق ، شخص الوفاة بأنها نتجت عن سكتة قلبية سببها إرهاق بدنى لم يتحمله جسد المتوفى لكبر سنه !

وفى تثاقل وبطء كبيرين ، انفرط التجمع على السلم . . وتم نقل الجثمان إلى

أعلى الفيلا فى مهابة وحزن ، توطئة لتشييعه إلى مقره الأخير فى أكبر قدرٍ من الإجلال يتفق ومكانة صاحبه العلمية المرموقة . .

أما الكائن البحرى . . أما الطحلب ، فبقّى فى ركن القبو المظلم ، قابعاً يلفه السكون . . وقد تدلت حوله أذرعه القصيرة الذاوية بلا حراك ! .

سر القادم من أعلى !

«رواية الطفلة نوال»

بغتة ، وقد مالت الشمس نحو الانحدار غرباً ، انفتح باب الدار . . أزت مفصلته الصدئة ، ثم عاد فانصفق . . لكن الأب السادر فى غفوته بعد أن عاد توًّا من رحلة بعيدة مضنية . . الغارق فى عرقه تحت أشعة قائظة ، وكأن مامن سقف يعلوه ، لم يحرك ساكناً . .

وتلصصت قدمان طريتان ، تتنعلان خفًا ، لتعبرا إلى الحجرة المجاورة . . الجانبية .

– أماه ! .

واتضح أن الحجرة المظلمة كانت شاغرة ، فاستدارت القدمان فى خفة تعتليان السلم المؤدى للسطح .

– يا أماه !

لم تعرها الأم – المنهمكة فى عصر ونشر ملاءة عريضة – التفاتاً . . .

– هه . . ما الذى تريدينه يا نوال ؟

– طائرة . . سقطت من السماء !

– هكذا ؟ ! وتلقفتها أنت ؟ »

تململت الطفلة : « لا . . إنما انغرست فى الرمال لدى الحافة الشمالية . فيما وراء خرائب المطار القديم » . .

استطال عنق الأم فبرز رأسها من خلف حبل الغسيل وعليه الملاءة . مشوش الشعر ، محتد العينين .

– آه . عال ! عدت تذهبين للعب بين تلك الأنقاض المخيفة ؟ !

تراجعت الطفلة قليلاً . . حكت طرف أنفها الأقنى بسبابتها . تحرك فكها . . .

– لم أذهب إلا بعد . . أن . . رأيت الطائرة . . تسقط . .

لكن الأم قاطعت ابنتها فى ضيق . وهى ترسل إليها نظرة شاردة .

– اسمعى يا بنتى . . أنا لست مستعدة لتلقى تخريفاتك كما ترين . فأنا مرهقة بما فيه الكفاية . . اهبطى إلى أبيك . حدثيه بأمر طائرتك ، أو لعبتك . . إن جرؤت !

تسللت الطفلة تهبط الدرجات ببطء . تشيعها دمدمات أمها فاترة خالية من الحماس . . « إياك والعودة ثانية إلى هنا . . إياك وولوج منطقة الأنقاض اللعينة . . المسكينة تقول طائرة . . أنا نفسى لا أكاد أتذكر شكل الطائرة عن قرب » .

قبالة الفراش الذى كان غطيط أبيها يتصاعد منه توقفت نوال يعتريها التردد . . هل توقظه حقًّا ؟ . . إن الطفل الآخر ، الذى برز من جوف الطائرة – هكذا تخيلته بداخل ردائه المدرع – ربما كان فى حاجة لمساعدة من شخص يكبرها . .

ومدت أصابع بيضاء رخصة : أبي . . أبي !

لابد أنه كان يحلم . فقد ارتجف ولكز بركبته جانب الفراش ، ثم ضم شفتيه وهمس دون أن تختلج عيناه . .

– خيراً يا . . نوال . . خيراً ؟

– الطائرة سقطت بالطفل الغريب . . وهو يئن . . يتوجع . . قم واسعفه يا أبي . أو انظر ما الذى يحتاج إليه !

فتح الرجل عينًا أو الاثنتين لحظة . لكنه قطب جبينه فى بلاهة بدت بعرض جبهته . . ثم أولاها ظهره ، وهو يتمتم فى ضيق . وكأنه يقصيها عنه .

– طفل . . فى طائرة ؟ . . هزلت ! . . اذهبى إلى أمك !

غير أن الطفلة نوال اتخذت طريقا مختلفا . . وحين أيقظت الأم زوجها ، عقب هبوطها بساعة ليصيب شيئا من الطعام ، اكتشف الاثنان اختفاء طفلتهما ابنة الأعوام السبع . . وكذا اختفاء جزء من الطعام ، وكسرتى خبز !

* * *

«حادث للطفلة إخلاص »

هناك نوع من الرجال يختزن قدرا من الطاقة يفوق مظهره الخارجى . . «وسمهودى » من هذا النوع ، فارع نحيف ، محنى القامة ، بارز عظام الوجه . . يخيل لمن يراه أن نفحة هواء كفيلة بقذفه بعيدا . . لكنه على نقيض شكله ، إذا ما استثير يتحول إلى بركان مدمر ، لا يقوى على مجابهته أحد ! . . . وفى تلك الساعة المتأخرة من النهار ، كان البركان «سمهودى» يتفجر . . فهاهو ذا أبوه الحاج قد أوشك على الرحيل دون أن يرى حفيدته إخلاص ، التى تسللت منذ الصباح المبكر . . ثم زاد فى ثورته ما علمه بعدئذ من عم أحمد البقال ، عن

ذهابها مع نفر من أطفال القرية إلى حيث خرائب المطار . . فما الذى يفعله الصغار فى المكان النائى الموحش ؟ ! :

لذلك فما كاد سمهودى يلمح طفلته تظهر فى أول الطريق ، حتى لوح بطول ذراعه ، وصاح مجلجلا :

– عال ! . . مازلت تمشين على مهل ؟ . . عجلى بالقدوم يابنت !

فزعت الطفلة فأقبلت تعدو ليتلقفها الأب بجذبها من أذنها . . .

انفجر : «كيف تجرؤين على الخروج ، والتأخر . . وجدك الحاج لدينا اليوم . . هه ؟ »

همهمت الطفلة ، وهى تحاول التملص فى ألم : «أصل الحكاية . . . . »

لكن الأب زجرها : «اصمتى ! . . ثم – بالذات – كيف سولت لك نفسك أن تتطرفى إلى خرائب المطار ، وقد نهيتك عن ذلك أكثر من مرة ؟ »

تمكنت أخلاص من أن تنفلت من قبضة أبيها : «ما وقع . . . »

ولم يتوقف الأب أيضا : «إذا كانت المرحومة أمك قد دللتك بما فيه الكفاية ، فإننى لست على شاكلتها . . بل إنى منذ وفاتها ازددت أعباء ، ولدى ما يكفينى دونك ويزيد . . . »

وصمت سمهودى أخيرًا . . عندئذ تطلعت الطفلة إلى جدها فى توسل صامت ، تطلب عونا . . فتمتم العجوز فى خوار يخنقه السعال .

– قولى يا إخلاص . . ما سبب تأخرك ؟

– لقد عبرت القنطرة القبلية مع نوال الشامى ، وعوض أبو ستيت ، وحسنة ، وأختها رئيفة . . بغرض جمع كمية من جوافة بر الترعة الشرقى . . وبعد أن ملأنا جيوبنا ، وأخذنا نتهيأ للعودة . . إذا بذلك الشىء يسقط من السماء . . !

وفى حين أشعل «سمهودى» لفافة ، وقد بان نفاد الصبر على قسماته ، تساءل أبوه العجوز :

– وما الذى سقط يا إخلاص ؟

هزت كتفيها الصغيرين : «لا أدرى . . طائرة غريبة . . حمراء . . مالت من فوق رؤوسنا لتسقط فى المطار . . وعندئذ جرينا مسرعين – فيما عدا حسنة ورئيفة – نحوها . .

بان الفضول عبر التغضنات التى تملأ وجه الجد : «وهل مات من بالطائرة ؟»

– لم يكن بها غير شخص واحد . . السائق . . طفل مثلى ، يضع حديدًا حول جسده القصير عنى !

تعالت زمجرة سمهودى من جديد ، بعد أن كاد غضبه يهدأ : «يا أبى الحاج ، بالله . . هل تصدق حرفا عن الطائرة . . وطيارها الطفل ؟»

– دعنا نتمشى مع ما يجود به خيالها حتى النهاية !

وهمست إخلاص : «بل لقد سقطت طائرة حمراء ، ونجا سائقها» .

وعاد الجد يلاين حفيدته : «وقد كلمت الطيار . . أم تراه كان أجنبيا ؟»

أضافت فى براءة ، وهى تحرك بصرها بين وجهى أبيها وجدها الكبيرين على غير العادة ، وقد تلعثم لسانها ، وارتعشت أطراف أصابعها :

– إنه طفل لا يعرف الكلام بعد !

انتفض الأب . . جمع قبضته ورفع ذراعه الطويلة . . لكنه كان قد اكتشف شيئا ، فجذب ابنته بيده الأخرى من كتفها ، وأدارها بعصبية ليظهر قطع غائر خلف ساقها ، فكشر عن أسنانه ساخرًا :

– وهذا الجرح ؟ . . أى قصة جديدة بصدده ؟

تحرك عقل إخلاص على الفور بكامل ما وصل إليه من نضج يتفق وسنها . . فهل تخبرهما بجلية انزلاق قدمها فوق القنطرة ، لدى عودتها العجلة ؟ . . لقد كان أبوها كفيلا بسحقها عند سماعه الخبر ، مهما تلقت من حماية الجد . .

ولم تجد مفرًّا من القول : «لقد ضربنى سائق الطائرة التى سقطت ! » .

* * *

«حيرة الصبى عوض» :

قرية «الواكول» مكان غير معروف على خريطة مصر . . وهى فى الحقيقة موقع ناء ، قفر ، قليل الدور ، محدود السكان . . «فالواكول» برمتها سبعة عشر بيتًا ، تمتد متوازية على جدول «الميَّه» الضحل . . ومنشأ الواكول دار أو كوخ أقيم ليتَّخذ مقرًّا لبعض عمال خدمة مطار النفاثات . . أما متى أنشئ المطار ، فهذا تاريخ يعود إلى عام قبل حرب أكتوبر ، التى انتصر فيها المصريون على الإسرائيليين . . وفيما بعد فقد حفر الجدول دائريا ليصل قرب المطار . . وقامت الدور على ضفة الجدول الشرقية ، فى حين امتدت الزراعات فيما وراء الضفة الغربية . . . وإلى حد الصحراء التى احتضنت المطار عند حافتها .

بعدئذ ، أطلق اسم الواكول على القرية ، نسبة إلى أول شهدائها «الأسطى رايد الواكول» الذى عرف كأقدر من يعدون النفاثات للقتال . . ثم لما كانت إقامة المطار على عجل ومؤقتة فسرعان ما هُجِر عقب انتهاء الحرب بأربعة أعوام . . .

والقرية يصلها بضفة الجدول الغربية معبران : قنطرة بحرية ، وأخرى قبلية . . وقرابة مدخل القنطرة البحرية استقامت وتفرعت شجرة دوم ضخمة . كان يجلس تحتها «علوان أبو ستيت» يقرأ كتابا ، حينما لمح أخاه الصبى عوض ، يقبل عدوًا عبر القنطرة من اتجاه الغرب . . طوى علوان كتابه وتفرس فى وجه أخيه الصبى وهو

يزداد قربا . . وفى الحال خمن أن أمرًا جللاً قد حدث .

من بين لهاث أنفاسه . ارتمى عوض تحت ظل الدومة . وقد طغت الإثارة على نبراته :

– أمر خطير قد حدث يا علوان .

– ماذا ؟

– شىء أحمر شاذ الهيئة . . انقض وسقط من السماء . . .

مد علوان عنقه : «أكان نيزكا . . أقصد هل كان حجرًا ضخمًا ؟

هز الصبى رأسه نفيًا : «أبدًا . . إنما كان أقرب إلى جسم رأيناه كامل الاستدارة عند مبدأ ظهوره فجأة فوقنا . . فلما أخذ يهبط وبينما هو ينحرف منقضا تجاه المطار ، لمحناه يتسطح ويأخذ قواما مستطيلا . . إلى أن وقع وانغرس فى الأرض الرملية . .

شحب وجه علوان . . هب واقفًا ، وهو يسأله : «هل أنت متأكد من وصفك ؟

– إنى قادم من مكان الحادثة توًا . .

زادت لهفة علوان : «والشخص . . أعنى من هبط ؟ . . أهو سليم . . حي ؟ »

– وجدناه حيًّا . . يتحرك ، لكنه مصاب بجرح ينزف سائلا أزرق ! . .

واتسعت حدقتا علوان انفعالا : «إذن فهو ينزف دما أزرق اللون ؟ . . لكنك حادثته أولم تفعل ؟ »

– الحقيقة . . إما أن لغته مختلفة ، وإما أنه قد أصيب بارتجاج أو ما يشبه الشرود إثر الحادث . . فقد تعثرت الكلمات فيما وراء قناعه الأخضر ، فجاءت

مبهمة ، غريبة . . غير مفهومة على الإطلاق !

ولم ينتظر علوان سماع المزيد من أخيه ، إنما تأبط ذراعه يستحثه على ضرورة الإسراع به إلى حيث سقط الشيء . . وخرج الشخص الغامض .

وأخذ يهمهم لنفسه . وقد لفته باقة من الأحاسيس والمشاعر المتباينة : «هل يكون حقًا . . طبقًا طائرًا يحمل كائنا غير بشرى . قد قدم . . من أعماق الكون . . الفسيح ! » . .

«موقف للضابط فتوح» :

– سيادة النقيب موجود ؟

كان الصوت لحوحًا أجوف . . .

– إنه بالداخل . . نقول له من . . ؟

لكن صاحب الصوت لم ينتظر ، إنما اقتحم الباب الموارب . ودخل تسبقه كلماته المتلاحقة العجلى . .

وفى نهاية حديث مضغوط لكنه مثير . أطفأ الضابط السودانى المولد «فتوح عبد المولى» لفافته وتسمر يعتريه الشرود برهة اختلطت فيها الأشياء . . أيعقل أن كافة مايؤكده ، وبانفعال متناه ، ذلك الشاب الجالس قبالته . قد وقع بالفعل فى تلك القرية الصحراوية التى تدخل ضمن مجال إشرافه . . .

وفى الطريق غير الممهد ، وعجلات السيارة (الجيب) تكاد تعجز عن لمس الطريق لفرط إسراعها انطلق علون يخبر الضابط بمزيد من أسرار الحادث . . ولم يخف عليه – فى النهاية – جلية ما استنتجه بذكائه . . بل إنها الحقيقة التى لا تقبل قولا مخالفا وقد أيدها الكائن نفسه ، بتلك الإشارات المتكررة من كفيه القصيرتين

يغطيها قفازان سميكان . . وبإيماءات رأسه المغلف بغطاء منفر غير شفاف ، كالزجاج أو البلاستيك مثلا . . .

تلك الحقيقة أن الكائن قد قدم حتما من خارج مجال كرة الأرض . . ربما من كوكب مجهول حتى اللحظة يقبع بلا ريب فى ركن من أركان الكون ، وعبر متاهاته المحسوبة بسنين الضوء العصية الفهم . .

انسابت كلمات علوان إلى أذنى الضابط المرهفتين ، تزيد من اشتعال فضوله . . تدعوه إلى استعادة ما كان يقرؤه فى شبابه من قصص الخيال العلمى ، إبان رحلته العلاجية — منذ ربع قرن — مع أبيه فى القارة الأوربية . . بل لقد سمح الضابط لخياله أن يشتط به تجاه أمنيته المزمنة . . أمنية النقل إلى المنصورة موطن زوجته ، فيراها وقد تحققت بفضل استقباله لأول كائن يصل قادمًا من أعلى . . ولمح الضابط بمخيلته — التى لم تنشط قبلا بمثل الضبورة الحالية — عناوين الصحف المصرية والعالمية ، تتحدث عن الكائن مقرونة باسمه هو . . وذلك بخلاف الترقيات والمكافآت والهدايا ، تنهال عليه وعلى أسرته . . والأهم ، بخلاف الاستعداد لتحقيق أقل رغبة يبديها . . وساعتها فربما يفضل البقاء فى العاصمة بدلا من المنصورة ، أو . .

— لا . . من الناحية المضادة ، وإلى الطرف الجنوبى للمطار . . لدى برج المراقبة الخاوى . . .

وحين دلفت سيارة (الجيب) بخمستهم — الضابط ، وعلوان ، وكاتب النقطة ، وجنديين — كان عقل الضابط هو الوحيد الذى وعى خطورة كلمات علوان . . أما قلب الضابط ، فقد راح يدق دقا ملحا ، يكاد ينخلع معه سائر بدنه ، لهفة وتعلقا بمرأى أول طبق طائر حقيق . . عجيب التركيب . . وأول كائن

بفحواه المغاير، وملامحه المتناقضة الشاذة، والمنفرة كما جاءه الوصف.. تقعان عليهما عيناه اللتان طال خمولهما، من تكرار ما تقابلان يوما بعد يوم، فى مكانه المدفون بصعيد مصر...

– لنتجه أولا إلى حيث الطبق الطائر.. أين سقط؟

– أظن وراء ذلك العنبر المنحدر السقف...

لكن الضابط وعلوان ومرافقيهما لم يعثروا خلف العنبر إلا على فجوة مهولة الاتساع، قد غارت فى الأرض وتفحمت جوانبها.. فلما نقبوا فى بعض أنحاء الفجوة، برغم الحرارة اللافحة المنبعثة من أعماقها، لم يجدوا غير أجزاء معدنية مشوهة قد انغرست فى الرمال المحترقة، واختلطت بذراتها...

– عبثاً نحاول العثور على شيء..

– كأن مائة قنبلة سببت الحريق..

– أو أنه نتج عن انفجار بئر بترول بأكملها..

وعندئذ تدلى فك الضابط فتوح فى غضب واضح: «لم يتبق غير الذى هبط..»

فتقدم علوان وصوته يتبعه: «إنه بداخل المبنى الأصفر، إلى اليمين.. خلف العنبر المهدمة مؤخرته».

ولدى البناية الباهتة الاصفرار، صدم الضابط للمرة الثانية. وانتقلت الصدمة إلى مرافقيه، حين طالعهم الكائن وقد تغطى – من قمة رأسه إلى أخمص قدميه – بصفائح معدنية ورقائق من جلد داكن.. وبخوذة التفت بإحكام حول وجهه وعنقه، إن كان له عنق.. كذلك وجدوه قزما. يكاد حجمه ينكمش بجانب حجم الطفلة والصبى الجالسين محملقين إلى جواره!.. من وسط الأبدان

المسمَّرة خطا الضابط فتوح يتفحص القزم : أهذا الشيء المحجب تماما . كائن قادم بالفعل من مكان ما من السماء ؟ . . من قلب الكون حولهم ؟

أمر يصعب تصديقه . فما بالك بتصوره . . ؟ !

وراحت عينا الضابط تجولان فى أنحاء نصف المتر طولا وأقل من ربعه عرضًا . . رداء مصفح مبرق . من معدن يشبه الصفائح . تجاورت قطعه فيما يماثل قشر السمك . هذا بدنه . . وأربعة أطراف بالغة الرفع ، من مادة جلدية سميكة ، هذه ذراعاه وساقاه . . ثم قفازان اكتشف أن بكل منهما أكثر من عشر أصابع ، وحذاءان مستديران – يشبهان خف الجمل – من لدين مقوى . إنها يداه وقدماه . . وأخيرًا تلك الخوذة الخشنة الملمس . على ما يبدو . وقد اعتلت الكل مصمتة قاتمة قبيحة : بلا فتحات ولا ثغرات !

فهل الكائن بلا عينين . . بلا بصر ؟ !

وعاد الضابط فعثر على ما يشبه الأزرار تملأ منطقة الصدر من الكائن القزم . . ومیز فى بؤرة كل زر ماسة كروية . تتحرك فى اتجاهه واتجاه جماعته . . تتوزع عليهم ، وتتابعهم . . بل تراقبهم فى توجس وريبة . فهل كلها عيون ؟ . . أو هى أجهزة تقوم مقام العيون ، توضح للقادم الغامض المرئيات ؟ . .

– من أنت ؟

خرجت من بين شفتى النقيب «فتوح» ، فى كثير جهد ، وكثير تردد . . ولم يتحرك القزم وإنما تجمعت ماساته تتركز على الضابط وحده . وقد اعترت حركتها مسحة قلق . .

– كيف جئت إلى هنا ؟ . . أعنى بأى وسيلة هبطت من السماء ؟ . . ومن أين قدمت ؟ . . وأى هدف لك وراء مقدمك ؟

تململ القزم . . رفع يسراه النحيفة فى مشقة واضحة . . ومن بطنه تصاعدت نغمات ممطوطة خافتة ، كأنها صرير موجات للراديو شردت . . غير أن الكل لم يميز نغمة بينها ذات معنى ، وبالتالى فلم يفهم أحدهم مقصده من إصداره نغماته . .

ولاحظ الضابط لأول مرة ، مادة زرقاء تبلل ذراع القزم . . مادة ثقيلة ، جيلاتينية ، تنسكب ببطء .

– ما هذا ؟

وانحنى يجذب الذراع ليرى البقع عن قرب ، فى حين جاءه صوت الصبى عوض . .

– إنه الدم الذى أخبرتك به . . ينزف من ذراعه منذ وجدناه !

وأحس الضابط فتوح ذراع القزم خفيفة ، فتحسس كتفه بأصابع حيرى ، واجتذب بدنه ممتعضا . . وهنا خيل إليه كذلك أن ما يحتويه جرم بلا وزن ، يشبه وعاء البلاستيك الفارغ . . أو كأن مادته ليست لحما يماثل التكوين البشرى من خلايا وعظم ومحتويات سائلة ، وإنما هو قوام إسفنجى . . أو هو مجرد خواء ! . .

ترى أفهذا كائن كونى حقيق ، أم تراه لعبة مخفاة بمهارة ؟ ! . . أم أنه أكذوبة ؛ خرافة مما تتناوله الصحف هذه الأيام ، وضعها القدر فى طريقه بكيفية ما . سوف تتضح فى النهاية ؟ !

وسمع الضابط فتوح تضرع الطفلة ، ولم يكن قد التفت إليها من قبل :

– المسكين . . لم يأكل شيئاً مما قدمته إليه من طعام . . .

أخرجته الهمسة الملهوفة من دوامة أفكاره المتخبطة ، ليلحظ أنظار رفاقه تحاصر علبة معدنية استقرت أمام ساق الطفلة المستكينة ، والأسى يملأ حدقتيها ، وينطبع فى قسماتها الغضة . . .

– أنت نوال ؟

– أجل . . .

– والتى قبالتك هى قدر الطعام ؟

– لا بل الطعام هناك . .

وأشارت إلى منديل قطنى ، يلتف على شىء فى داخله . . .

التقط النقيب فتوح العلبة : «إذن فما الذى تضمه هذه ؟» .

– إسأله هو . . إنها تخصه . .

وقلب الضابط العلبة بين يديه أكثر من مرة ، دون أن يجد فتحة لها . . فى حين لاحقته نبرات الطفلة الملتاعة : «لقد رفض التدثر بالسترة التى جلبها عوض . . مع أنه كما ترى يرتجف من البرد !

لكن الصبى اعترض فى لهجة الواثق : «بل يرتجف من الحمى . . ألا ترين مبلغ جرحه ؟»

واتضح الانزعاج والألم على القسمات البريئة ، وتمتمت شفتا نوال المحمرتان : «صحيح . . إنه مريض . . وإخلاص قد تأخرت كثيرًا فى إحضار الدواء» .

عندئذ هم الضابط النقيب فتوح أن يوجه كلامًا ، ربما إلى الطفلة أو إلى الصبى حول الطعام ، وربما إلى القزم بصدد العلبة المبرقة المعدن والمثمّنة الحواف ، التى قيل إنها علبته . . حينما وقع الذى وقع . . مرعبا ، متداخلا ، تتلاحق رؤاه وتتسابق فى سرعة خارقة . . .

جمع خفير عريض مختلط من البشر ، برز من عدة اتجاهات . . وفى ثوان كان يحيط : المبنى الأصفر ، المحتوى على الكائن والضابط ومن معها . . .

وفى ثوان انفجرت صيحات محنقة ، غضبى . . تطلب القصاص الفورى من

سائق الطائرة الذى يدد أمن القرية الهاجعة على طرف الصحراء . . وكان يتزعم الجمع رجلان . . الأول راح يتهم الوافد الصامت الغريب باختطاف ابنته نوال . بعد أن حرضها على سرقة مأكولات من بيته . . والثانى أخذ يتوعد الغريب بأقصى عقاب . لتجرئه على إيذاء ابنته إخلاص . بإحداث جرح غائر بساقها . . .

حاول النقيب فتوح أن يهدئ من ثورة القادمين . وأن يفهمهم خطأ ما ينتوون الإقدام عليه . . وحاول أن يأخذهم باللين فى المبدأ ، ويثنيهم عن عزمهم . ويفرق جموعهم . . فلما صدمه إصرارهم ، اضطر هو ومسدسه الذى لم يستخدمه منذ تسلمه إلى أن يقفا سدًّا منيعًا فى وجوههم . .

لكن رجلا أشعث الشعر ، يتوكأ على عكاز غليظ ، صاح : «وماذا لو كان من تحميه قد أتى وجلب معه مرضا يعم قريتنا ؟»

وانطلقت ملحوظة مغرضة ، تحت أذن الضابط مباشرة : «إن ملامح وجه القزم تشبه ملامح أكلة لحوم البشر ! » . . أما رجل الدين المعمم . فقد اكتفى بالتمتمة فى الناحية المقابلة ، بأن «هبوط الشيطان على هذه الصورة لا شك ينذر بشر مستطير . . » .

– ياقوم ، اتقوا الله . . اسكتوا ودعونا نتبين حقيقة أمره . .

أطلقها فتوح صارخة مدوية فاهتزت لها طبال آذانهم فى قسوة . . على أن الشاب علوان اقترب فى تردد ، وهمس للضابط همسا مبهماً . وران صمت ثقيل ملؤه الغضب والتحفز . . وأعمل الضابط فكره الذى طال به الركود ، وثقل عليه الصدأ . . أجل . لم لا يكون الكائن حاملا بالفعل لجراثيم وباء خطير ؟ . . وتألق مخ الضابط الروائى ، فأضاف من عنده : أو قد يكون جاسوساً أو طليعة لغزو كائنات تأتى من الفضاء . الذى يزخر بأعداد لا حصر لها من الكواكب المأهولة

التي تشبه أرضنا . .

غير أن شيئا منقطع النظير قد راح يتداعى فى نفس اللحظة . مع إيقاع زمن خفى . لم تسمع أصداؤه أبداً من قبل . . . شىء غير مألوف إطلاقا على وجه كوكب الأرض . بدأ يحدث حثيثا . . وعلى مرأى ما يزيد على أربعين رجلا وطفلين . وقفوا بل جمدوا إزاءه عاجزين صاغرين مشدوهين . .

فقد انطلق نوع مخضر ، أو هو بنى يميل إلى الخضرة ، من الأبخرة العديمة الرائحة . يتصاعد من أنحاء ما يغلف الكائن الكونى القزم أو من أعماقه . . وعلى الأثر أخذ قوامه يتقلص وينكمش ، وينكمش . . فى وهن أولا ثم بسرعة أخذت تتزايد فيما بعد . . وعلى مر دقائق عشر طوال . قاسية . تلاشى الكائن تماما ، مخلفا وراءه – على الأرض – ملء ملعقة من مسحوق ناصع البياض ! . .

وساعتها فقط ، انزاح كابوس ممضٌ من فوق رئات عدة ، فأمكن لأصحابها أن يلتقطوا أنفاسا طليقة . . ساعتها فقط ، عاد النقيب فتوح إلى كامل وعيه ، فتنبه إلى أن الصندوق المعدنى لايزال ساكنا بثقله وبجسمه البارد بين أصابعه المتشنجة . . !

«تقرير للجيوكيميائى مذكور ، وباحث اللغويات أبو بكر»

الأربعاء ١٨ أغسطس ١٩٨٧ ميلادية : (سرى جدًّا وعاجل)

« بمكان ما من قلب العاصمة المصرية «القاهرة» وفى تمام الساعة العاشرة من صباح اليوم المؤرخ أعلاه ، فإنه بمعرفة السيد مدير عام المباحث العامة . ومدير عام شرطة جنوب القاهرة شخصيا ، وحضور وفد عال يمثل السيد محافظ أسيوط ، وضمن أعضائه النقيب فتوح عبد المولى وعدد من أهالى قرية الواكول – من أعمال

محافظة أسيوط – قد تم تسليمى : أنا خبير الجيوكيمياء (كيمياء طبقات الأرض) مذكور فضل الله هاشم . . وفيما بعد ، وعلى نفس المستوى تسلمت أنا باحث اللغويات أبو بكر زينهم السعيد :

«عدد ١ (واحد) علبة معدنية مصمتة ومجهولة الغطاء . ذات المقاييس – أطوال ٢٦ × ١٤ سم وارتفاع ١٠,٣سم . . .

«وذلك بقصد إجراء الفحوص والاختبارات عليها ، ومن ثم الدراسات بعدئذ على محتواها ، بمجرد تبين حقيقته ، مع وضع مقصد ملح وحيوى فى المقام الأول ، هو خشية أن تتضمن العلبة والمحتوى عنصرا أو عناصر أو أشياء غير معروفة تضر بالبشر جمعاء ، على سطح كوكب الأرض . . . .

ونحن الموقعان على تقريرنا هذا نقر بأننا قد أنهينا المأمورية المكلفين بإجرائها ، على التوالى – الأول ، ثم الثانى فى أعقاب الأول – ولمدة ٦٣ (ثلاثة وستين) يوما بتمامها ، وذلك على النحو التالى :

أولا : الجزء من التقرير المختص بالفحوص الجيوكيميائية . وقد استغرق إجراؤه خمسة أيام بكامل لياليها . . حيث أمكن فى النهاية التوصل إلى غطاء جانبى للعلبة ، وبعد عديد من التجارب آخرها بتمريره قرب مجال كهربى عالى التردد – وفى حضور أخصائيي المفرقعات ، وكذا طبيب خبير فى البحوث الجرثومية – تم فتح الغطاء ، حيث عثر بداخله على رق جلدى ، عليه ما يمكن اعتباره كتابة أو نقشاً غير متضح المعالم .

«وأما عن فحص واختبار نوع المعدن المصنوعة منه العلبة ، فإننى كباحث قديم ومتخصص فى علوم معادن الأرض – بل اشتركت فى أكثر من دراسة وبحث حول معادن القمر والمريخ – أعلن أن المعدن المصنوعة منه العلبة سالفة الذكر ،

يعد نوعا فريداً ليس له مثيل بين معادن كوكبنا على الإطلاق .

ثانيا : الجزء من التقرير المختص بالمقارنات (ا) اللغوية ، وقد استغرق إجراؤه – بعد تعقيم الرق – ثمانية وخمسين يوما ، بعضها غير مكتملة لياليه ، لمرض الباحث صاحب الدراسة خلالها . . فإنه يؤكد عظيم ما جابه الباحث من مشقة خلال عمله المضنى ، فى المقارنة والتطابق بين أشكال وتراكيب نماذج ما ظن أنه نوع من الكتابة الغامضة – وثبت صحته بعدئذ – وبين العديد من صور اللغات الحديثة والقديمة . . حتى انحصرت على اللغة الهيروغليفية ، لغة المصريين القدماء ، فقد بدت شديدة التقارب منها .

وفى أواخر أيام البحث ، أمكن الاهتداء إلى معرفة فحوى كلمات ثلاث عليا ؛ أسفلها عشر أو اثنتا عشرة لاتزال مجهولة . . وقد قمت بمزيد من الفحص والمقارنة ، قادنى إلى التأكد بشكل باتَ وقاطع ، إلى نفس معنى الكلمات الثلاث دون تغيير . . وهو :

«نحن – ننشد – صداقتكم» :

وأما بقية الكلمات السلفية والتى على الأرجح تفسر اسم ومكان الكوكب مصدر الرسالة ، فجارى حاليا دراستها للتوصل إلى مدلول لها .

جيو كيميائى   باحث لغوى

توقيع   توقيع

كتب للمؤلف

- قاهر الزمن (رواية) روايات الهلال -- دار الهلال ١٩٧٢ .
- رقم ٤ يأمركم (مجموعة قصص) كتاب اليوم – دار أخبار اليوم ١٩٧٤ .
- سكان العالم الثانى (رواية) دار الأمانة – مطبعة الأمانة ١٩٧٧ .
- الماسات الزيتونية (مجموعة قصص) اقرأ – دار المعارف ١٩٧٩ .

تحت الطبع :

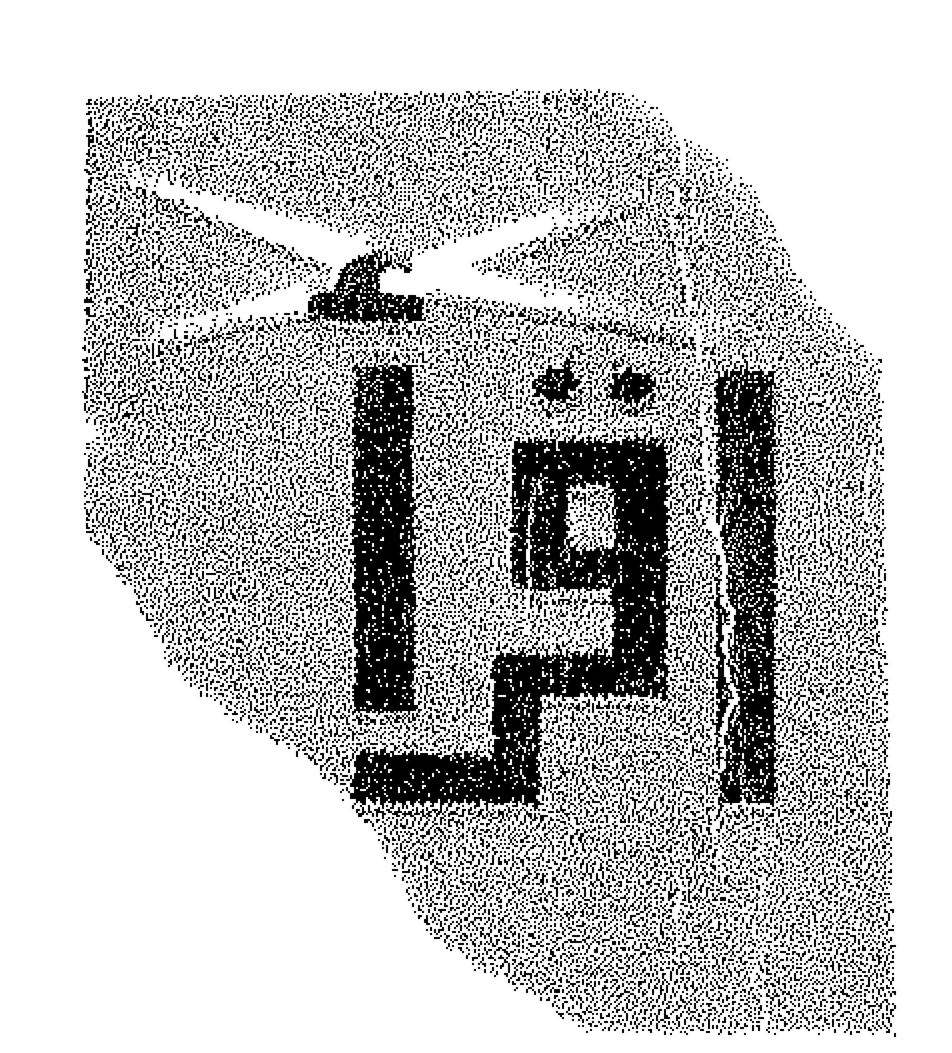
- الذى تحدى الأعصار (مجموعة قصص) روايات الهلال – دار الهلال .
- رجال تحت الجهر (رواية) .
- كتاب الخيال العلمى ورؤاهم المذهلة (مجموعة مقالات) .
- ملكة ملوك الدنيا (رواية) .
- أوقفوا هذه النهاية (رواية) .
- ألغاز علمية ما تزال بلا حلول (مجموعة مقالات) .
- الشئ (مجموعة قصص) .
- الرحلة المستحيلة (ثلاثية) ، عين الأعصار ، الرحلة ، الأرض ٢ .
- الذين أتوا من قبل (رواية) .

رقم الإيداع	١٩٧٩/٣١٣١
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ٧٢٩ – ٧

١ / ٧٨ / ٣٣٣

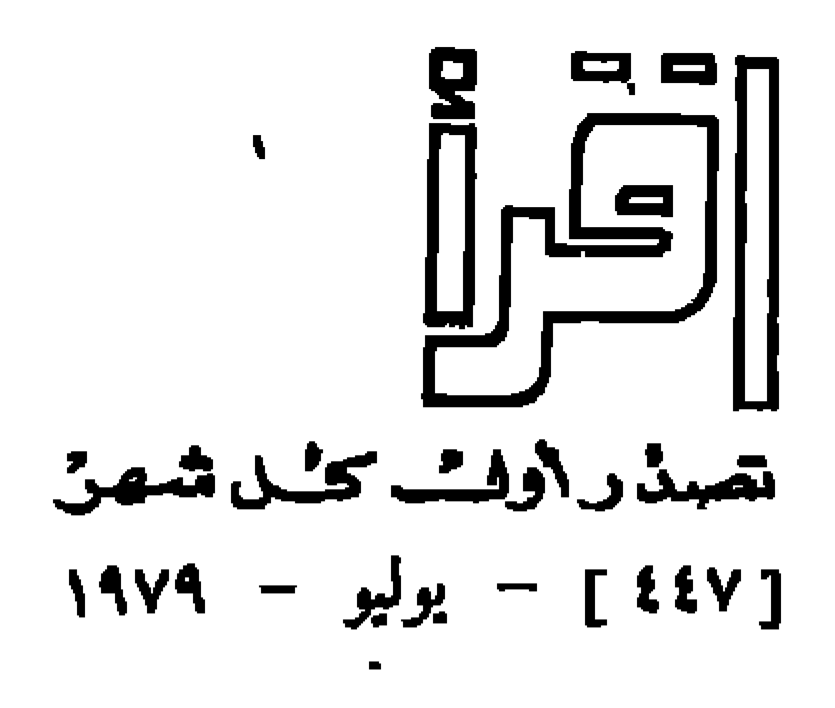
طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)





أحمد مصطفى

مهاجر إلى أمريكا



تصدر أول كل شهر

[٤٤٧] - يوليو - ١٩٧٩

رئيس التحرير أنيس منصور

تصميم الغلاف : شريفة أبو سيف

الناشر : دار المعارف :- ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م : ع .

أحمد مصطفى

مهاجر إلى أمريكا



فهرس

مقدمة

بقلم : الأستاذ أحمد أبو الفتح

لا تزال الولايات المتحدة الأمريكية تمثل بالنسبة لملايين الناس الأمل فى أن يصبح الإنسان مليونيراً ، هذا الحلم الذى راود المغامرين منذ قرون هو الذى دفع المغامرين إلى الهجرة إليها . . .

ظهر الذهب فى كاليفورنيا . . واشتدت الهجرة إلى هذه الولاية فى غرب أمريكا . .

حلم الذهاب إلى الولايات المتحدة راود الملايين ولا يزال يراود الملايين من أنحاء كثيرة من العالم للبحث عن الثراء . .

هناك من يطلب الهجرة وينتظر موافقة الحكومة الأمريكية عليها . . وهناك من يدخل على تأشيرة سياحية أو لزيارة الأهل هناك . . وهناك من يغامر بالتسلل إلى أرض الذهب والمليونيرات . . .

لم يكن الأستاذ أحمد مصطفى يحلم بالذهب . . ولم يكن يطمع فى أن يصبح مليونيراً . . كل ماسيطر عليه هو أن يبتعد عن مصر حيث يدمى قلبه حزنا على ما حل بوطنه . . .

إنه لم يكره مصر . . ولكنه يريد الفرار منها لأنه كان يشعر بالغربة على أرض وطنه . . .

استطاع بعد متاعب وصعاب أن يخرج من مصر . . سافر إلى إيطاليا . . ومنها إلى نيويورك ومنذ وطئت قدمه أرض الولايات المتحدة بدأت مغامراته . . .

البحث عن عمل . . .

استحالة الحصول على إقامة . . .

استحالة العمل دون إذن إقامة . . ثم إذن عمل . . . كل شيء صعب فى بلد الثراء . . .

الحصول على الدولار مهمة شاقة . . ولكن كان لابد أن يعمل . . وأن يقيم . . وأن يعيش دون إقامة ودون إذن . . والبوليس الأمريكى لا يرحم . . مهما تكن العقبات

الجوع . . والهرب من البوليس الأمريكى . . والحبس فى غرفة تبريد. ومهاجمة اللصوص له ليلا . . كل هذا يهون . . .

كتاب «مهاجر إلى أمريكا» سجل الأستاذ أحمد مصطفى على صفحاته مغامراته فى أمريكا . . سجلها بكل أمانة وبكل دقة وهى مميزاته منذ أن عمل بالصحافة فى فجر شبابه . . .

الكتاب ليس مجرد تسلية مع أنه مسلٍّ جداً . . ولكنه أيضاً دروس لمن يتطلع إلى أرض الذهب والمليونيرات . . .

الأستاذ أحمد مصطفى زميل وصديق عزيز . . وكل إشادة بما حواه هذا الكتاب من جانبي قد يفسرها البعض بأنها من وحى الزمالة والصداقة . .

ولما كنت واثقاً من أن كل قارئ سيجد فى قراءة هذا الكتاب متعة كبرى فإنى اترك للقراء الحكم على الكتاب . .

قبل أن تقرأ هذه الصفحات

الحياة فى أمريكا غريبة وعجيبة ومروعة . . إن كل ما سمعته أو تسمعه عن الحياة هناك لابد أن تصدقه . . لقد عشت هناك أعواماً طويلة رأيت فيها العجب . . وشاهدت فيها ألوانا كثيرة من تصرفات الناس التى تؤكد أنك تعيش فى عالم كله خليط غريب يجمع بين العقلاء والحكماء والفلاسفة . . والمجانين والعتهاء والمجرمين واللصوص . .

الناس تمشى على أرصفة الطرقات بسرعة وكأنها ثعابين أو ديدان تزحف على الأرض .

لا يوجد عند واحد من الناس الذين تقابلهم أو تصادفهم فى الطريق دقيقة من الوقت ليرد على التحية أو يجيب على سؤال أو يعتذر لك عن خطأ . . أو حتى يشتمك إذا دست على قدمه أو ضربته بالكتف . ! !

المحامون ورجال الأعمال يستقبلونك فى مكاتبهم وكل منهم ينظر فى ساعته طوال جلوسك يستعجل الوقت ويهز رأسه باستمرار وأنت تتحدث إليه وكأنه يطردك من مكتبه أو ليحثك على مغادرة المكتب ! !

التجار وأصحاب المحال يستغلون بعض الناس للعمل فى محالهم دون علم الحكومة حتى لا يدفعوا عنهم تأمينات للدولة . . ثم فى النهاية يطردونهم من العمل . . ! !

أصحاب الأندية والملاهى الليلية يرحبون بتشغيل اللاجئين من أبناء الدول المختلفة فى محالهم . . وفى النهاية يهددونهم باستدعاء رجال الشرطة لهم لطردهم خارج الولايات المتحدة . . !

عساكر البوليس يدخلون المحال التجارية بحجة الشراء . . فى حين أنهم فى الواقع يأخذون كل ما يلزمهم مجاناً دون دفع أى سنت . . !

اللصوص يهاجمون البنوك والمتاجر فى الليل وفى وضح النهار ويسرقون الأموال من الخزائن دون أن يستطيع أى فرد التعرض لهم . . ! !

عصابات « المافيا » تهدد أصحاب الملايين وتسلب أموالهم وتجبر بعض المسئولين على عدم التحرك ضدهم وإلا كان مصيرهم القتل . . والاغتيال . . والفناء . .

من السهل أن تسافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية — بقصد الزيارة — وتعيش فى أى ولاية تريدها عدة أعوام وتشتغل فى أى محل يقبل أن تعمل فيه تحت سمع وبصر رجال البوليس . . ولكن بعيداً عن قبضة أيديهم . غير أن الثمن سيكون غالياً فى النهاية . . . !

تستطيع وأنت تعيش فى أمريكا أن تكسب ملايين الدولارات وتضعها فى البنوك على شرط أن تقدم أى شهادة ولو مزوّرة بأنك قد ورثت هذا المبلغ أو

اكتسبته عن طريق التجارة لتقديمها إلى الضرائب . . !

ومن السهل جداً أن تتزوج لتضمن لك زوجتك الإقامة الدائمة فى أمريكا . . ولكن من الصعب جداً أن تفترق عنها لأن الثمن سيكون فادحاً . . !

كل هذا يحدث فى الولايات المتحدة الأمريكية ، والمهاجرون المصريون يقفون أمام العمارات الضخمة . . والبنوك . . والمؤسسات . . والشركات لحراسة المبانى . . !

إن اللصوص فى أمريكا لا يصعب عليهم شىء . . من الممكن أن يدخل عليك « اللصوص » ويسرقوا أموالك ثم يضعوك بعد ذلك فى « ثلاجة » ويغلقوا بابها عليك حتى يأمنوا الهرب بسهولة . .

وهذا ما فعله اللصوص معى . . !

وبعد : هذه هى الحياة فى أمريكا إذا أردت أن تعيش هناك . !

إننى أقدم إليك فى هذا الكتاب تجاربى ومشاهداتى التى عشتها فى الولايات المتحدة الأمريكية خلال السنوات التى أقمتها هناك بعد هربى من مصر بعد هزيمة حرب عام ١٩٦٧ ودخولى مدينة نيويورك بتأشيرة لمدة شهرين فقط . . امتدت إلى سنوات دون علم رجال المباحث الفيدرالية « المباحث الجنائية » . . . ودون علم مباحث إدارة الجوازات والجنسية فى نيويورك . . .

عظمة على عظمة . . !

عندما تهبط بك الطائرة أرض مطار «كنيدى» فى مدينة نيويورك سوف تأخذك الدهشة وتقف مذهولا وتشعر أنك قد هبطت فى بلد الخيال والجمال والعظمة . . أو فى مدينة العجائب والغرائب والخرافات . . !

إن مطار كنيدى يقع على أرض مساحتها تعادل تقريباً مساحة مدينة مصر الجديدة . . !

نعم : إن المطار شيء مذهل إذا عرفت أن كل شركة طيران فى العالم لها مطار خاص ومستقل لطائراتها تهبط فيه . . ولكل مطار من هذه المطارات دائرة جمركية وفيه كل المرافق والإدارات والأجهزة الموجودة فى أى مطار دولى وعالمى فى أى بلد من بلاد العالم . . !

إن كل هذه المطارات متلاصقة وتتجمع كلها فى مكان واحد يطلقون عليه اسم

« مطار كنيدى الدولى » .

إنك عندما تخرج من أرض المطار إلى الفناء الخارجي سوف تندهش مرة أخرى وتقف مبهوراً . . هناك شيء عجيب سوف يلفت نظرك ويشد انتباهك ويجعلك مذهولا . .

هذا الشيء هو : شبكة الطرق والمواصلات الرهيبة التي تحيط بالمطار . . والمؤدية إليه والمتفرعة منه . . !

آلاف من السيارات تمشى فى هذه الطرق وهى تكاد تشق الأرض من السرعة فى طريقها إلى المطار . . أو خارجة منه إلى المدينة . .

إن الشيء الذى سوف يدهشك أيضا هو الآلاف من اللافتات الضخمة التى ترتفع فى عرض الطرقات كل عدة أمتار ترشد كل سائق سيارة إلى الطريق الذى يريد أن يتجه إليه . . أو إلى مطار الشركة التى سوف يسافر على طائرتها . . !

وعندما تخرج بعيداً عن دائرة المطار سوف يلفت نظرك طوال الطريق وجود آلاف من السيارات المختلفة الأشكال والأحجام تقف كلها على جانب من هذه الطرقات بجوار العمارات السكنية بالمدينة . . .

إذا كنت مهاجراً إلى الولايات المتحدة الأمريكية – وهذه بالطبع أول مرة تشاهد فيها إحدى المدن الأمريكية – فسوف تحلم وأنت فى الطريق بأنك ستعيش حياة الرفاهية والنعيم مثل هؤلاء الناس الذين تراهم يقودون سياراتهم الفاخرة فى الطريق . .

وسوف يسرح بك الخيال أيضاً إلى أنك ستكون مليونيراً تمتلك ملايين الدولارات . . أو المبانى والعقارات . . أو على الأقل سوف تعيش منذ أول يوم فى أمريكا سعيداً مرفهاً لا يعرف الشقاء أو التعب طريقه إليك . .

هذه الأحلام وغيرها سوف تراودك قطعا وأنت فى الطريق إلى « الفندق الصغير » أو المنزل الذى ستعيش فيه مع أحد أقاربك . . أو بيت من بيوت الشباب . .

ولكن : كل هذه الأحلام والآمال . . والتمنيات سوف تتبخر وتذهب أدراج الرياح عندما تفيق على الواقع . . وتصحو على الحقيقة الصعبة أو المرة بعد أيام قليلة جداً من وصولك إلى المدينة التى نزلت فيها . .

سوف تكتشف بعد يومين أو أكثر أن الدولارات التى كنت تحملها معك قد تبخرت أو قاربت على الانتهاء . . وأنت أيضاً اقتربت من الإفلاس وليس أمامك إلا أن تعيش على الواقع الذى حضرت من أجله وهو :

قبل أن أدخل معك فى كيفية البحث عن عمل أو ما هى الوسيلة التى عن طريقها تجد الطريق إلى عمل . أحب أن أقول لك شيئاً يجب أن تعرفه جيداً . . أو من الواجب أن أصارحك به . . ولا أبالغ إذا قلت لك إنه الواقع الذى سوف يحدث ولا بد أن تتوقعه وهو :

إن اخاك . . أو قريبك . . أو صديقك العزيز الذى سوف تنزل فى ضيافته لن يتحملك « ضيفاً عليه » أكثر من أيام معدودة وبعدها عليك أن ترحل — أو تبحث لك عن سكن آخر . . وإلا فإنه سوف يصارحك بذلك . . أو يقول لك : إنه من الواجب أن تدفع له نصف الإيجار . . وغيره من المصروفات الأخرى .

وإذا كان كريماً . . أو خجولا . . أو لديه بقية من صداقة أو قرابة فإنك سوف تراه على غير طبيعته الأولى التى استقبلك بها يوم وصولك . . يعنى مثلا :

يكشر فى وجهك . . أو يكون عصبياً فى تصرفاته . . أو يجلس صامتاً لا يتكلم . . أو لا يرد على أسئلتك أو حديثك . . أو يقول لك عند سؤالك عن

شيء : (مش عارف) . . ! أو يقول لك أيضاً : إنه متعب من كثرة العمل ويريد أن يستريح أو ينام . . وكل هذا من أجل أن يشعرك أنك أصبحت « ضيفاً ثقيلاً » وغير مرغوب فى بقائك عنده أكثر من ذلك . .

إن الواجب يقتضى أن أقول لك أيضاً إنه معذور . . لأن الحياة فى الولايات المتحدة الأمريكية تختلف تماماً عن الحياة فى مصر . . فالوقت هناك ثمين . . وكل دقيقة تمر لها ثمنها ولها قيمتها والعمل هناك له قدسيته . . ومن لا يعمل . . لا يعيش . . !

البحث عن عمل . .

العمل فى أى مدينة بأى ولاية أمريكية متوفر . . ولا تصدق من يقول لك إن فرص العمل هناك قليلة أو معدومة . . أو غير متوفرة . . إن العمل يتوقف عليك أنت . وعلى مدى استعدادك لتقبل نوعية العمل الذى تجده . أو يعرض عليك . . وفى مقدمة كل ذلك يتوقف أيضا على مدى استعدادك وإجادتك للغة الإنجليزية .

وتسألنى ما هى الأعمال التى يمكن لأى « مهاجر » أن يشغلها . . أو يلتحق بها . . وهل هى تستلزم مواصفات خاصة يجب توافرها فى أى شخص . .

وأجيبك فأقول : إن الأعمال هناك متوفرة جداً . . وهى ترجع إلى مدى استعدادك أنت للإقبال عليها . . أو تقبلها . .

وتسألنى أيضاً : ما هى نوعية هذه الأعمال التى تتطلب الاستعداد النفسى لتقبلها أو الإقبال عليها . . ؟

وأجيبك : إن نسبة كبيرة جداً من المهاجرين الذين يذهبون إلى الولايات

المتحدة الأمريكية – قد تبلغ مثلا حوالى ٩٠ فى المائة منهم – لا بد لهم أن يعملوا فى بداية حياتهم هناك فى أعمال كثيرة ومختلفة لا تحتاج إلى خبرة كبيرة . . أو إلى خبرة أمريكية . . وهذا هو الأهم أو المهم .

عندما تذهب إلى أى مكتب عمل فى أى ولاية أو مدينة أمريكية للبحث عن عمل فإن أول سؤال سوف يقابلك هو : هل لديك خبرة أمريكية فى هذا العمل . . . ؟

وقد يكون العمل الذى تتقدم إليه هو وظيفة «جرسون» مثلا . . . أو Guard أى خفير حراسة . . . وتتعجب وتستغرب للسؤال وتسأل نفسك :

هل مثل هذه الأعمال الصغيرة أو التافهة تحتاج إلى «خبرة» . . . وخبرة أمريكية بالذات . . . ؟

والجواب هو : نعم . . . إن أى عمل فى الولايات المتحدة الأمريكية مهما صغر شأنه يحتاج إلى خبرة.. فصاحب أى عمل ليس لديه الوقت.. بل ليس مستعداً أبداً لتقبل أى إنسان وتعيينه فى أى عمل لديه ما لم يكن متمرساً ومتفهماً تماماً لهذا العمل . . ولهذا فإن كل المهاجرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية – من جميع جنسيات العالم – يقبلون على الأعمال الصغيرة التى لا تحتاج إلى خبرة كبيرة . .

ومن جهة أخرى فإن مثل هذه الأعمال الصغيرة لا تحتاج أيضا إلى لغة . . بمعنى أنها لا تحتاج من شاغلها إلى معرفة أو إجادة اللغة الإنجليزية

وهذه الأعمال كما سبق أن ذكرت لك هى :

خفير حراسة فى أحد البنوك . . أو الشركات . . أو المؤسسات . . أو الأماكن الخالية مثلا :

ثم وظيفة : غسيل الأطباق فى المطاعم . .

أو تنظيف أرضية المكاتب فى البنوك والمؤسسات . . وهذا العمل بالذات لا يقبل عليه إلا فئة أو طبقة معينة من المهاجرين وهم غالبا من أبناء « بورتوريكو » وهى مستعمرة إسبانية فى إحدى بلاد أمريكا اللاتينية . .

خفير حراسة . . أولا

والآن أقول لك كيف تبحث عن عمل ؟ أو ما هى الوسيلة أو الطريقة التى تتبعها ليكون لك عمل .

إذا كنت تعرف اللغة الإنجليزية جيداً . . أو قليلا فعليك أن تشترى إحدى الصحف الأمريكية الصباحية . . وخاصة يومى « السبت والأحد » اللذين ينتشر فيهما الإعلانات عن الوظائف الخالية . . ومكاتب العمل المتخصصة التى عليك أن تذهب إليها وعلى العنوان المذكور فى الإعلان . .

وعندما تذهب إلى مكتب العمل – وهو تابع لإحدى الشركات وليس حكومياً – فإن الموظف المختص فى هذا المكتب سوف يسألك وهو يقدم إليك « استمارة » التعيين لتملأ الخانات الموجودة بها والتى تتعلق بكل شىء فى حياتك . .

هل لديك خبرة سابقة فى هذا العمل . . ؟

وسوف تجيبه كما قال لك أصدقاؤك . . أو يجب أن تجيبه بكلمة « نعم » . .

وبعد أن تملأ « الاستمارة » التى سلمها لك سوف يطلب منك دخول غرفة من الغرف الموجودة بالمكتب ويعهد بك إلى موظف موجود بداخلها وهو الذى سيتولى تسليمك « البدلة » المناسبة لجسمك . . وهذه البدلة تشبه إلى حد كبير بدلة

عسكرى البوليس الأمريكى مع اختلاف بسيط . وهو أن هذه البدلة موجود على صدرها . وعلى الذراعين قطعة قماش مكتوب عليها كلمة « Guard » يعنى خفير . . !

ومع البدلة سوف تتسلم أيضا «كاب » لتضعه على رأسك . . وعصا غليظة تمسكها فى يدك . أو لتضعها فى مكانها المخصص لها فى جانب من البنطلون . . ! !

بعد أن تنتهى من عملية « مقاس البدلة » سوف يسلمك موظف المكتب ورقة وعليها عنوان العمل أو الشركة . . أو المؤسسة . . أو البنك . . الذى سوف تقوم بالحراسة فيه . .

وبالمناسبة أقول لك : إن مكاتب العمل أو تشغيل الموظفين فى الولايات المتحدة الأمريكية «متخصصة » بمعنى أن هناك مكاتب خاصة بالبنوك . . وأخرى للملاهى . . وثالثة لمحطات الكهرباء . . ورابعة للمساكن . . وخامسة لمحطات البنزين . . وهكذا . . .

المهم : أنه بعد خروجك من مكتب العمل – حاملا فى يدك شنطة ورق فيها البدلة والعصا وهى الزى الرسمى لوظيفتك الجديدة – سوف تذهب إلى بيتك لتستريح وقد هدأت نفسك لأنك عثرت على عمل . . وفى اليوم التالى عليك أن تذهب إلى عملك الجديد قبل الموعد بساعة أو أكثر لتسلم نفسك إلى الموظف، المسئول هناك بحيث يقوم بكتابة اسمك فى دفتر الحضور ثم يرشدك بعد ذلك إلى طريقة العمل الجديد وكيف تمارسه . . ثم يطوف معك فى بعض الأماكن التابعة لمقر عملك داخل المبنى الذى ستقوم بحراسته ليشير إليك إلى «ساعات الوقت » التى يجب أن تمر عليها «كل ساعة » لتضع فى كل منها مفتاحا سوف تحمله معك . ثم تديره لتسجل الوقت والغرض من ذلك هو إثبات وجودك ويقظتك واستمرار

حركتك ودورانك داخل المبنى . . . يعنى أنك رجل يقظ . . وإذا حدث ولم تسجل الوقت فى أى ساعة من هذه الساعات فإنك أولا سوف تحاسب وتسأل عن أسباب ذلك . . ثم إذا بقيت فى العمل فإن الوقت الذى لم تسجل فيه وجودك فى الساعة سوف يخصم من أجرك . . أما إذا تبين أنك إنسان مهمل ومقصر فى العمل فإنك سوف تفصل .

المرتب كل أسبوع

بقى أن تعرف ما هو الأجر الذى يتقاضاه «خفير الحراسة» . ؟

المرتبات فى الولايات المتحدة الأمريكية تصرف كل أسبوع . . أو أسبوعين وليس كل شهر كما هو الحال فى مصر وغيرها من الدول الأخرى .

إن أقل مرتب يتقاضاه أى عامل فى أمريكا هو (٦٠) ستون دولاراً فى الأسبوع . . أما مرتب أو أجر الحارس فهو لا يقل عن (٨٠) ثمانين دولاراً فى الأسبوع . . وهناك «حراس» يتقاضون أكثر من هذا ، وذلك يرجع إلى طبيعة أو اختلاف وظيفة الحارس أو المؤسسة أو الشركة أو البنك الذى سيتولى الحراسة فيه .

المهم : لا يغرك مبلغ الثمانين دولاراً التى سوف تتقاضاها فى الأسبوع ، يعنى ٣٢٠ دولاراً كل شهر . . إن هذا المبلغ «لن» يكفيك أبداً . ولن يغطى نفقاتك أو مصروفاتك . . فالحياة فى الولايات المتحدة الأمريكية مرتفعة جداً سواء من ناحية السكن . . أو الطعام . . أو الملبس وغير ذلك من المصروفات الأخرى . . ويكفى أن أقول لك إن أجر المسكن «فقط» سوف يبتلع جزءاً كبيراً من مرتبك كل شهر . وسوف أتحدث فى مكان آخر من هذا الكتاب عن مستوى الحياة والمعيشة فى

الولايات المتحدة . .

إذن كيف تواجه حياتك المعيشية وتصرف أمورك بالمبلغ الذى سوف تقبضه من وظيفة الحارس . .

الواقع يقول لك : لابد أن تشتغل « وقتاً إضافيا » إلى جانب وظيفتك الحالية التى تستمر فيها ثمانى ساعات بالضبط . ولا أريد أن أقول لك أكثر من ذلك . إذا أدخلنا فى الاعتبار الوقت الذى سوف تستغرقه فى المواصلات . . أو فى خلع ملابسك العادية وارتداء ملابس الحارس .

وتسألنى . . هل يمكن أن تشتغل وقتاً إضافياً . . وكيف . . ؟

والجواب على هذا السؤال هو : إن كل مهاجر جديد فى الولايات المتحدة الأمريكية لا بد له أن يعمل بين ١٢ و ١٦ ساعة كل يوم ! !

نعم هذا هو الواقع ولا بد أن تعرف هذه الحقيقة . .

إن أجر العمل عن (٨) ثمانى ساعات فى اليوم لن يكفيك أبداً أمام نفقاتك الكثيرة ومتطلبات الحياة اليومية . إذن لا بد أن تشتغل وقتاً إضافيًّا آخر لكى تحصل من خلاله على بعض الأموال الأخرى التى تساعدك على سد هذه النفقات أولا . . ثم لتوفير جزء منها تدخره لنفسك حتى يكون لك مع الأيام رأسمال . أو ثروة . . أو أموال متوفرة . . ولا تنس أنك هاجرت إلى أمريكا وهدفك الأول هو الارتفاع بمستوى معيشتك والحصول على جزء كبير من المال لاستثماره فيما بعد فى إقامة مشروع تجارى . . أو تعود به إلى بلدك . .

وتسألنى ما هو العمل الإضافى ؟ فأقول لك : هو أيضا وظيفة حارس . . !

إن وظيفة « الحارس » كما سبق أن قلت لك فى بداية الكتاب هى الوظيفة التى لابد أن يشغلها كل مهاجر فى بداية حياته للأسباب التى ذكرتها من قبل . . ثم إنها

فى بداية كل شيء الوظيفة السهلة التى لا تحتاج إلى كلام أو حديث ، أو بمعنى آخر هى الوظيفة التى تكسر حدة الخوف . . وعقدة اللسان فى اللغة الإنجليزية . . ثم هى الوظيفة التى لا تحتاج إلى خبرة كبيرة وهى – أى الخبرة – لابد من تقديم شهادات أمريكية من جهات عملت أو اشتغلت أو مارست أعمالا فيها داخل الولايات المتحدة .

عندما تريد عملا إضافياً فما عليك إلا أن تذهب مرة أخرى إلى أى مكتب عمل وتطلب منه «عملا إضافيا» ولابد أن تكون صريحا فى طلبك فلا تخدعه أو تغشه . أو تلف وتدور فى الأسئلة . لأن كل شيء هناك يتعلق بتصرفاتك فى العمل المحسوب عليك . . والصراحة هناك هى أهم شيء . .

إن مكتب العمل سوف يقول لك أو يبلغك عن الشركات أو المؤسسات أو البنوك أو غيرها والتى تحتاج إلى «حراس» للعمل لوقت إضافى ثمانى ساعات . . أو أربع ساعات . . أو ساعتين مثلا حسب الاحتياجات . . وسوف تجد نفسك تخرج من عمل إلى عمل آخر تلتزم بدقة المواعيد فى كل من العملين . . أو الوظيفتين . . وتعود إلى البيت فى نهاية العمل وأنت مهدود . . أو تعبان لتأكل ثم تنام بضع ساعات قليلة لتصحو بعد ذلك لتذهب إلى عملك من جديد . . ! !

نعم سوف تجد نفسك متعباً فى نهاية الأسبوع خاصة عندما تجد أنك مضطر إلى العمل يومى «السبت والأحد» من كل أسبوع وهما يوما العطلة أو الراحة الأسبوعية فى جميع الأعمال فى الولايات المتحدة الأمريكية . .

ولكن : أعتقد أن هذا التعب والإرهاق والقرف سوف يزول أو يتلاشى عندما تتسلم فى نهاية الأسبوع وقبل أن تغادر عملك فى طريقك إلى منزلك «شيكا» بمرتبك عن جميع ساعات العمل التى اشتغلتها طوال الأسبوع . سواء كان عن

العمل الأساسى . . أو العمل الإضافى . .

إن المبلغ الذى سوف تراه « مدوّنا » فى الشيك سيجعلك سعيداً جدًّا . وسيفتح شهيتك إلى العمل . . أو إلى المزيد من العمل على أمل أن يكون لديك كل أسبوع مثل هذا المبلغ الذى لم تكن تحلم به لأنه سيكون فى مجموعه تقريباً حوالى ١٥٠ أو ٢٠٠ دولار فى الأسبوع يعنى تحصل على مبلغ كبير كل شهر تصرف منه جزءاً . . وتدخر الباقى – كما قلت لك – للزمن . . !

بواب عمارة . . !

والآن نترك وظيفة « الحارس » ونذهب إلى عمل آخر وإن كان هذا العمل . أو هذه الوظيفة لا يشغلها إلا عدد قليل من المصريين أو العرب فى أمريكا . . ليس لأنها كما قد يخيل إليك وظيفة حقيرة « أبداً » . . . ! إنها وظيفة ممتازة جداً ولا يمكن لأى إنسان أن يحصل عليها إلا بعد تعب . . ومشقة . . ومرمطة وتولى وظائف أقل منها لفترة طويلة حتى تكون مؤهلا تماماً للوظيفة الرئيسية التى تحتاج بعد كل ذلك إلى دفع رشاوى كبيرة لبعض الموظفين فى مكاتب العمل حتى يوافقوا لك على تولى هذه الوظيفة والتى هى . . . « بواب عمارة . . ! ! »

نعم . . بواب عمارة . أو أى منزل فى أى مدينة بالولايات المتحدة الأمريكية يعتبر « ملك زمانه » . . أو سلطان عصره . . أو رجلا محظوظاً . . أو إنساناً أهله راضون عنه كما يقول المثل . .

هل تعرف لماذا . . ؟ إن مرتب بواب العمارة فى أى مدينة أمريكية لا يقل عن (٢٠٠) مائتى دولار فى الأسبوع . . بالإضافة إلى شقة مجانية فى نفس العمارة –

شأنه فى ذلك شأن أى ساكن . . وهذه الشقة تكون دائما فى الدور الأرضى المجاور للباب الرئيسى . . ولا تعتقد أنها شقة «أى كلام» كما قد يخيل إليك . . أبداً . . وهذه الشقة مزودة طبعا بتليفون مجاناً . . ! !

وبالإضافة إلى كل ذلك فإن هذا البواب تحت يده عدد من المساعدين الذين يتولون مهمة جمع «مخلفات الشقق» من العمارة كل يوم . . وتجميعها كلها فى مكان بأسفل العمارة ليتحكم فيها «البواب» يأخذ منها ما يشاء ويعطى منها للمساعدين . . أو يبيعها . . أو يلقى بها أمام باب العمارة فى مكان مخصص للمخلفات فى انتظار أن تحملها سيارات البلدية . .

هل تعرف ما هى هذه المخلفات . . ؟ لا تسخر . . أو تضحك . . أو تعتقد أننى أمزح أو أبالغ أو أغالى فى الوصف . . لا . . إن هذه المخلفات هى مثلا :

غرفة نوم . . مراتب . . غرفة صالون . . بدل . . قمصان . . معاطف . . رجالى أو حريمى . . راديوهات . . تليفزيونات . . ساعة حائط . . ! !

وأرجو ألا تعتقد أن كل هذه المخلفات أشياء قديمة . أو مكسّرة . . أو أصبحت لا تصلح فى شىء . . أبداً : إنك سوف تذهل عندما تقترب منها وتلمسها . أو تتفحّصها وتجد أنها سليمة تماماً . . أو ربما تفاجأ بها أو ببعضها جديدة . .

إن الأمريكان – كما يقول بعض الناس – مجانين يحبّون دائماً تغيير مالديهم من أشياء . . أو إذا شئت فقل إنه «الثراء» وحب التظاهر أمام شعوب العالم من الجنسيات الأخرى المقيمين فى الولايات المتحدة الأمريكية بأنهم أغنياء . وأن مادونهم من أبناء الشعوب الأخرى فقراء . . تماماً كما يفعل بعض أبناء الدول العربية عندما يحضرون إلى القاهرة ويذهبون إلى ملاهى شارع الهرم ويبعثرون أموالهم فى عملية «النقوط» على المطربات أو الراقصات ليظهروا أمام غيرهم من

أبناء الدول الأخرى أنهم أثرياء . .

وقد تذهل أيضاً عندما أقول لك إن كل هذه الأشياء أو الأثاث . أو مخلفات المنازل والعمارات والفيلات تشاهدها دائماً وكل يوم . وباستمرار ملقاة أمام المساكن فى جميع الشوارع سواء فى مدينة نيويورك . . أو فى أى مدينة أمريكية أخرى . .

وأعتقد أن هناك سؤالا يتردد فى ذهنك الآن وهو : أين تذهب كل هذه الأشياء بعد أن يلقى بها الأمريكان فى الشوارع . . ؟

والجواب هو : أن أبناء الدول الأخرى من المهاجرين الفقراء يطوفون الشوارع كل يوم فى المساء بسيارت «ستيشن» أو غيرها من السيارات العادية ليلتقط كل منهم نصيبه أو احتياجاته مما قد يقع فى يده أو يعثر عليه .

وأعتقد أنه ليس عيباً أن أقول إن عدداً كبيراً جدًّا من أبناء مصر والدول العربية من المهاجرين الجدد بالولايات المتحدة الأمريكية يفعلون ذلك . ويفرشون أو يؤسسون منازلهم كاملة من هذه المخلفات . . ! !

وبهذه المناسبة أذكر أننى ذهبت ذات يوم — عندما كنت أقيم فى مدينة نيويورك لزيارة صديق . هو مهندس زراعى ولكنه يشتغل هناك Guard أى حارساً . . وفوجئت عندما دخلت منزله أو الشقة التى يسكنها بأن لديه مجموعة من الراديوهات . . وثلاثة تليفزيونات . . وسبع مراتب موضوعة على سريرين .

— برغم أنه يقيم بمفرده — وأشياء أخرى كثيرة مكررة . . وضحكت وضحك هو الآخر . وقلت له : ما كل هذا . لماذا لم تترك شيئاً لغيرك من المحتاجين . . ؟

وضحك مرة أخرى وهو يقول : «يا سيدى الشوارع ما هى مليانة . » واللى محتاج حاجة بيشيلها» . .

قلت : وهل أنت محتاج إلى كل هذا . . الراديوهات . . والتليفزيونات . . والمراتب التى تحتاج إلى «سلم» لتصعد إليها ؟

ودخل معى فى مناقشة طويلة انتهت إلى قوله ; الجماعة الأمريكان دول مجانين . . .

طيب قول لى بالله عليك كل الأشياء الموجودة عندى بما فيها المراتب جديدة وكأن أحدا لم ينم عليها . . ما هو السبب فى أن يلقى بها الناس فى الشوارع ؟ أليس هذا يعتبر «تبطرا» على نعمة الله . . ؟

وكان ردى عليه : وأليس من الظلم أيضاً أو «الافتراء» أن تحمل كل هذه الأشياء وتضعها فى شقتك . . ؟

وفى أثناء حديثنا دق جرس التليفون ورد صديقى على المتحدث . وفهمت من خلال الحديث أن المتكلم هو صديق آخر مصرى أبلغه فى الحديث أنه قد عثر عند عودته إلى منزله على «تليفزيون فخم جدًّا . . وكرسى مكتب . . وكنبة ستديو . . حملها جميعا إلى شقته . .» وبعد أن انتهى صديقى من المحادثة التليفونية قال لى : هيا بنا . .

قلت : إلى أين ؟ .

قال : نذهب إلى «فلان» وهو الذى كان يتحدث معه بالتليفون . .

قلت : لماذا . . ؟

قال : من أجل أن نشاهد الأشياء التى عثر عليها فى الطريق . . إنه يقول إنها كلها فى حالة جيدة جدا . . !

قلت : اذهب أنت لأننى متعب وفى حاجة إلى الراحة وسأعود إلى منزلى . . وتركته وانصرفت !

العمل بالمطاعم . .

أعتقد أنه من الضرورى أن تأخذ فكرة عن كيفية اشتغال المهاجرين فى المطاعم بالولايات المتحدة الأمريكية . .

إن العمل فى أى مطعم يحتاج إلى خبرة سابقة طبعاً . . مثلها مثل أى عمل آخر . . ولكن هناك وظيفة واحدة فى أى مطعم لا تحتاج إلى خبرة . . وهذه الوظيفة هى : غسيل الأطباق . . أو جمع الأطباق من فوق الترابيزات . . وهذا العمل أو هذه الوظيفة أجرها ضئيل . . ولكن إلى جانب ذلك لها بعض المميزات وهى : مثلاً . . تناول الوجبات مجاناً . . ثم الحصول على جزء من «البقشيش» الذى يحصل عليه العامل . أو شاغل هذه الوظيفة عن طريق رئيسه وهو «الجرسون» . . فالذى يحدث أنه فى نهاية اليوم . وقبل أن يغادر العامل المطعم يعطيه «الجرسون» بعض الدولارات . . وهذا ليس «فرضاً» ولكنه عرف معمول به فى جميع المطاعم . . وربما يكون هذا «البقشيش» الذى يحصل عليه العامل . بالإضافة إلى الوجبات المجانية هو السبب فى ضآلة الأجر . .

أو ربما يرجع السبب فى ضآلة الأجر إلى أن مثل هذا العمل أو هذه الوظيفة لا يقبل عليها إلا «المهاجر» الذى لا يعرف اللغة الإنجليزية . لأنها لا تحتاج إلى حديث أو كلام مع الزبائن . فكل عمله أو وظيفته تنحصر فى غسل الأطباق فى حوض المطبخ . أو جمع الأطباق من فوق الترابيزات بعدها ينصرف عائداً إلى منزله . . ! !

وأعتقد أن هناك سؤالاً آخر يدور فى ذهنك الآن وهو : هل هناك مصريون

يشغلون مثل هذه الوظيفة . . ؟

والجواب : نعم . . هناك كثير من المصريين والعرب من أبناء الدول العربية يقبلون ويرحبون بمثل هذه الوظيفة فى بداية حياتهم . أو هجرتهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية للأسباب التى ذكرتها لك من قبل وهى :

عدم إجادة اللغة الإنجليزية . . أو عدم معرفتها . . أو ربما لعدم تمكنهم من العثور على وظيفة «حارس» . . أو كما سبق أن قلت :

لكسر حدة الرهبة والخوف من مواجهة الحياة فى أمريكا . . أو ربما يكون قد ذهب إلى الولايات المتحدة الأمريكية «زائراً» وليس معه بطاقة إقامة مثل أى مهاجر ويريد أن يستمر هناك . وفى هذه الحالة يشترط عليه صاحب المطعم أن يشتغل «مجاناً» بدون أجر مقابل البقشيش . . والوجبات المجانية . . وحمايته من التشرد . . !

وتسألنى أيضاً : هل هذا ممكن . . يعنى هل يمكن لأى إنسان أن يشتغل دون أن يكون مهاجراً . . وليس معه بطاقة إقامة ؟ . .

والجواب أن هذه مشكلة كبيرة جداً وقد خصصت لها فصلاً كاملاً فى الكتاب ومن الواجب أن تعرف كل شىء عن هذا الموضوع حتى لا تقع فى كارثة . . وأرجو أن تؤجل الحديث فى هذه المشكلة الآن حتى أنتهى من شرح أو عرض التفاصيل الوافية لبعض الأعمال أو الوظائف التى يمكن أن تشغلها . . أو يشغلها بعض المهاجرين . .

سائق التاكسى . .

هل من حق «المهاجر» المصرى أو العربى أن يشتغل سائق تاكسى فى أى مدينة بالولايات المتحدة الأمريكية . . ؟

وهل وظيفة سائق التاكسى مربحة أو مجزية . . ؟

الجواب : إن من حق أى مهاجر سواء كان مصريًّا أو عربيًّا . . أو ينتمى إلى أى جنسية أخرى فى العالم أن يشتغل سائق تاكسى فى أى مدينة أمريكية . .

بل أزيد على ذلك فأقول : إن من حق أى «مهاجر» يعيش فى الولايات المتحدة الأمريكية – مهما تكن جنسيته – أن يشتغل فى أى عمل مادام يحمل بطاقة إقامة دائمة . . ويعتبر «مهاجراً رسمياً» . . .

إن القانون الأمريكى يعطى للمهاجر جميع الحقوق التى يتمتع بها المواطن الأمريكى . . كما أن القانون أيضاً يحمّل هذا المهاجر كل الواجبات التى يجب أن يقوم بها نحو الدولة .

ولكن : هناك نقطة واحدة . . أى شىء واحد لا يتمتع به «المهاجر» وليس من حقه القيام به أو ممارسته إلا بعد حصوله على الجنسية الأمريكية التى يكون من حقه الحصول عليها بعد مرور خمس سنوات كاملة من إقامته «كمهاجر» بالولايات المتحدة الأمريكية . .

هذا الشىء هو : حق الانتخاب . . ! إذ ليس من حق المهاجر أن يشترك فى انتخاب رئيس الجمهورية فى أمريكا . . أو انتخاب أى عضو من أعضاء الكونجرس الأمريكى فى الولاية التى يعيش فيها . . أو انتخاب محافظ الولاية . .

ـ عمدة المدينة التى يقيم فيها إلا بعد أن يحصل على الجنسية الأمريكية . .

هذا هو الشىء الوحيد فى القانون الأمريكى الذى يفرق بين المهاجر – فى الحقوق والواجبات – وبين المواطن الأمريكى الأصلى . . .

ونعود بعد ذلك إلى الكلام عن وظيفة « سائق التاكسى » أو بمعنى أصح عمل سائق التاكسى إذ ربما يتبادر إلى ذهنك أن كلمة وظيفة معناها أن سائق التاكسى هو رجل موظف فى الدولة . .

إن عمل سائق التاكسى مربح جدًّا فى أمريكا . . وتسألنى لماذا هو مربح جدًّا . . ؟ أقول لك .

إن سائق التاكسى يعمل هناك « بالساعة » مثل أى وظيفة « أو عمل آخر » وهو يشتغل مثل غيره ثمانى ساعات فى اليوم : إلا إذا أراد أو رغب فى زيادة ساعات العمل ، وهو فى هذه الحالة يطلب أو يتفق مع المكتب أو الشركة أو صاحب العمل على ذلك . . أما الأجر الذى يتقاضاه السائق فى اليوم – يعنى خلال فترة عمله والتى هى ثمانى ساعات « فقط » فإنه حوالى ثمانين أو مائة دولار . . !

هذا طبعاً بالإضافة إلى « البقشيش » الذى يحصل عليه من الركاب . .

وهناك سؤال قد لا يتبادر إلى ذهنك . . وأطرحه أنا وهو : هل يوجد فى الولايات المتحدة الأمريكية مانراه فى بعض سائقى التاكسى فى مصر والذى يتمثل فى حصول السائق على أجر توصيله لنفسه أو لجيبه الخاص دون أن يسجلها فى العداد . . . ؟

والجواب : نعم بالتأكيد هذا يحدث وقد حدث معى أنا شخصيًّا . . وقبل أن أشرح لك كيف حدث هذا أقول لك إنصافاً للحق أو توضيحاً للأمور إن سائق

التاكسى فى أى مدينة أمريكية لا يستطيع ولا يمكن أن يقوم بمثل هذا العمل - وهو الحصول على حق أو أجر توصيله لنفسه إلا فى الساعات المتأخرة من الليل حيث يكون رجال البوليس أو المرور قد هدأت أو خفت حركتهم تماماً . .

أما كيف يحدث ذلك فإنى سأروى لك ما حدث لى شخصيًّا :

كنت ذات يوم أقضى سهرة عند أحد الأصدقاء فى منزله وهو بعيد عن سكنى وقد خرجت من عنده حوالى الساعة الثانية بعد منتصف الليل . . ولما كنت أعرف تماماً أن حركة المواصلات - سواء (القطارات) الموجودة تحت الأرض . . أو الأتوبيسات - تكون بطيئة جدًّا فى مثل هذا الوقت ، بمعنى أنها تكون قليلة . وهذا سيضطرنى إلى الوقوف على محطة القطار . . أو الأتوبيس حوالى ساعة تقريباً قررت أن أستعمل «التاكسى» فى طريق عودتى إلى المنزل . .

وقفت على الرصيف وأشرت إلى إحدى سيارات التاكسى القادمة . ووقف السائق وفتحت باب السيارة وطلبت منه توصيلى إلى الجهة التى ذكرتها له . . وقبل أن تتحرك السيارة أو يضع يده على العداد ليحرك . . «البنديرة» نظر إلىّ وقال : هل لديك مانع أن أوصلك دون أن أستعمل العداد . . ؟ !

والواقع أننى رأيتها «مغامرة» من السائق . . لأنه لو حدث أو تصادف وضبط فى أثناء الطريق بمعرفة رجل البوليس . . أو أحد رجال المرور فالعقاب هو «سحب رخصته فوراً» .

ولكن : حب الاستطلاع أو اكتشاف شىء جديد علىّ هو الذى دفعنى أن أقول له : مفيش مانع . . وفى نفس الوقت طاف بذهنى شريط سريع جدًّا من التفكير كله خوف ورهبة ورعب مما قد يحدث لى . وهذا الخوف الذى تملكنى جاء نتيجة ما أسمعه وأقرؤه كل يوم من الناس . أو فى الصحف عن حوادث القتل . .

والنصب والاحتيال . والتهديد و و . . إلخ الذى يقع لكثير من الناس من بعض سائقى التاكسى . وهذا ما جعلنى أسأل السائق أولاً عن الأجرة أو المبلغ الذى سوف يتقاضاه منى مقابل توصيلى دون استعمال العداد . .

وكان رد السائق على سؤالى هو : اللى تدفعه . . !

قال هذه الكلمة بكل هدوء وأدب مما جعلنى أطمئن بعض الشىء . . .

وقبل أن أسترسل معه فى الحديث شأن أى راكب مع سائق التاكسى فى أى بلد تظاهرت بأننى أبحث عن شىء فى جيوبى ودون أن يدرى دونت أو سجلت رقم السيارة على ورقة حتى أكون مطمئنا فى المستقبل فى حالة حدوث أى شىء أو اعتداء علىّ من السائق . . وبعد أن فعلت ذلك ووضعت الورقة فى جيبى اخذت أتحدث معه فى بعض الأمور التى تتعلق بحياته وهل هو أمريكى الأصل . . أو « مهاجر » من دولة أخرى . . ؟

وكانت إجابته : أنه من إحدى دول أمريكا اللاتينية . .

وسألته مرة أخرى : هل صاحب السيارة التى يشتغل عليها لديه سيارات أجرة أخرى غير هذه السيارة . . ؟

قال : إن لديه حوالى (٦٠) ستين سيارة أجرة . . ! !

قلت : كم مضى عليك من الزمن وأنت تعمل لديه فى هذا العمل . . ؟

قال : عدة شهور . . .

قلت : بعدأن اعتذرت له عن سؤالى : ما هو الأجر الذى تحصل عليه فى اليوم من صاحب العمل . . ؟

قال وكأنه فهم الغرض من وراء سؤالى :

أحصل على حوالى سبعين دولاراً . . ولكن الناس كلهم حرامية . . !

وقبل أن يسترسل فى الكلام قلت له :

حرامية ازاى . . ؟

قال : يعنى صاحب السيارة دى راجل يعتبر مليونيراً . . ولديه أموال كثيرة جدًّا ولا يعرف كيف يعيش . . ويستغلنى أنا وغيرى من أجل أن يكدس الأموال فى البنوك . . !

قلت : كل الناس فى الولايات المتحدة تضع أموالها فى البنوك – وليس هذا الرجل فقط . .

أجاب : هذا صحيح . . ولكن الذى أريد أن قوله : إن هذا الرجل لا يعرف معنى الفلوس . . يعنى لو رأيته ورأيت منظره أو مظهره لا يمكن أن تقول عنه إنه مليونير . . !

وأردت أن أخرج من الحديث فى هذا الموضوع الذى فهمت منه أنه يريد أن يبرر سرقته للمبلغ الذى سوف يحصل عليه منى فسألته مرة أخرى :

ما هو المبلغ الذى ادخرته حتى الآن خلال هذه الشهور التى اشتغلت فيها سائق تاكسى . . . ؟

ضحك وكأنه فهم ماذا أريد من وراء هذا السؤال وقال : أنا مهاجر إلى أمريكا جديد ، ولم يمض على فى مدينة نيويورك أكثر من سنة ونصف سنة . ولدى أولاد صغار . وزوجتى لا تعمل . .

قلت : وهل هناك زوجة فى أمريكا لا تعمل . . جميع الزوجات وكل الأولاد فى أى أسرة يعملون . .

قال ضاحكاً : إلا زوجتى . . !

وضحكت أنا أيضاً لخفة دمه .

وحديثه الذى كان يبرر به السرقة . . وعندما وصل بى إلى المنزل ووقفت السيارة سألته :

كم تريد . . ؟

قال : الذى تدفعه وأنت تعلم طبعاً كم دفعت قبل ذلك فى مثل هذه المسافة . . !

وأخرجت من جيبى ورقة من فئة العشرة دولارات وأعطيتها له وانتظرت أن يعطينى الباقى . وتركت له حرية الحصول على المبلغ الذى يريده . . مع علمى أن المبلغ الذى دفعته من قبل فى هذه المسافة بالتاكسى عن طريق العداد هو ثمانية دولارات . .

وسلمنى مبلغ ستة دولارات من بقية الورقة فئة العشرة دولارات . . يعنى حصل على نصف الأجرة . .

وشكرته وانصرف . . . ودخلت أنا إلى منزلى . . وفى أذنى كانت تدوى كلمة السائق : الناس كلهم حرامية . . ! !

عمال النظافة . . !

يوجد فى الولايات المتحدة الأمريكية نوع آخر من الوظائف أو الأعمال التى يشغلها أى مهاجر ، ولكن : هذا النوع من العمل لا يقبل عليه أحد من المهاجرين المصريين أبداً أو العرب . باستثناء بعض أبناء إحدى الدول العربية «الفقيرة» . . وهذا النوع من العمل يحتكره أو لا يقبل عليه إلا المهاجرون الإسبان من أبناء دول أمريكا اللاتينية . . لماذا ؟ لا أعرف . . !

ولكن المؤكد أن هذا النوع من العمل لا يقبل عليه المهاجرون المصريون أو أبناء الدول العربية لأنه فى نظرهم «عمل حقير» ولا يتناسب معهم . .

هذا العمل هو : عامل نظافة . . ! وحتى تكون هناك صورة واضحة لديك عن وظيفة عامل النظافة أو العمل الذى يؤديه أقول لك أولاً : إنه لا يوجد أبداً فى أى مؤسسة . . أو شركة أو بنك . . أو غير ذلك من الإدارات الأخرى « فراشين . . أو خدم » مثلما هو موجود فى مصر يقومون بأعمال نظافة المكاتب وخدمة الموظفين . . !

إن جميع الموظفين وغيرهم فى أى مؤسسة أو شركة أو بنك أو غير ذلك فى كل أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية محرم عليهم تماماً تناول أى نوع من الأكل أو الشرب – أو حتى الحديث فى التليفون فى أثناء العمل . . ! ! –

إن العمل هناك ثمانى ساعات فى اليوم تتخللها ساعة واحدة فقط يخرج فيها الموظفون لتناول وجبة الغداء . . أو العشاء حسب وقت ونوع العمل الذى يزاوله.

أما كيف تتم عملية تنظيف المكاتب فى هذه المؤسسات . . والشركات . . والبنوك وغيرها . فهذا ما سأشرحه لك :

هناك طبعاً مكاتب عمل . . أو تخديم . . أو توظيف الذين لا يجدون أعمالاً وهى المكاتب التى ذكرتها لك فى البداية . . وهذه المكاتب الموجودة والمنتشرة فى كل مدينة تابعة لشركات ليست حكومية طبعاً . . يذهب المهاجرون إلى هذه المكاتب عن طريق الإعلانات التى تنشرها الصحف كل يوم عن وجود وظائف خالية . . ويتقدم المهاجرون كل يوم إلى هذه المكاتب – وهى عادة مزدحمة جداً بطالبى العمل – لملء استمارة وتقديم عدة صور فوتوغرافية لهم مثل أى عمل . ويسأله الموظف أو الموظفة بالمكتب عن الأعمال التى مارسها قبل ذلك فى وطنه . .

ثم الأعمال التى زاولها فى أى ولاية أو مدينة بالولايات المتحدة الأمريكية . . وعن مدى معرفته باللغة الإنجليزية . . هل يجيدها . أو أن معرفته بها قليلة . . وهل يحمل شهادة عليا أو متوسطة . . وطبعاً إذا كان طالب الوظيفة أو العمل يحمل شهادة عليا فإن طلبه سوف يرفض . . والسبب فى ذلك أن المختصين أو علماء النفس فى هذه الشركات يقولون : إن عمال النظافة يجب ألا يكونوا على مستوى عال من التعليم أو مثقفين حتى لا ينظروا إلى العمل بكبرياء أو ازدراء . وحتى لا يكون هناك نقص بصفة مستمرة فى هذا النوع من العمل . لأن طالب الوظيفة إذا كان متعلماً فإنه يقبل على هذه الوظيفة مضطراً – لبعض الوقت – حتى تتاح له الفرصة ويجد له عملاً آخر . . ولهذا لا يكون هناك استقرار بين العمال أو المشتغلين بهذا العمل . . ! !

أما نوعية وكيفية هذا العمل . . وكيف يمارس «المهاجر» هذا العمل . . والوقت الذي يزاوله فيه فأقول لك :

إن عملية نظافة المكاتب فى المؤسسات أو الشركات . . أو البنوك فى أى مدينة بالولايات المتحدة الأمريكية تتم أو تبدأ دائماً بعد انتهاء جميع الموظفين من أعمالهم . . وخروجهم من المبانى . . وبعدها بقليل يبدأ دخول عمال النظافة الذين يكونون موجودين قبل ذلك فى مكتب رئيس الخدم الموجود فى كل مبنى . حيث يقوم بتوزيع العمال جميعاً «بمعنى» أن كل مجموعة أو بضعة أفراد سواء كانوا رجالاً أو نساء يتولون عملية تنظيف دور من أدوار المبنى – وطبعاً هذه الأدوار . . أو المبنى كله شركات . . أو مؤسسات . . أو غير ذلك وليست مبانى سكنية . .

إن مهمة عمال النظافة هى . .

أولاً : يوزع عليهم رئيس العمل أدوات النظافة وهى عبارة عن مكنسة

كهربائية . . وجهاز لتلميع الأرض . . وجردل ليوضع فيه الماء الممزوج ببعض المطهرات . . وفرشاة كبيرة لتلميع المكاتب . . كل هذه المعدات أو الأجهزة يستعملها «عمال النظافة» وكل فرد يتولى عمل شيء . . وعندما تنتهي مجموعة من المجموعات من تنظيف دور من الأدوار تنتقل إلى دور آخر . . أو مكاتب أخرى في نفس المبنى . .

وربما يدور في ذهنك سؤال وهو : أليس من الممكن أن يسرق أي عامل نظافة من هؤلاء العمال أي شيء يكون موجوداً على أي مكتب من المكاتب . . ؟

والجواب : أولاً . . يوجد مع كل مجموعة من العمال «موظف» مهمته ملاحظة ومراقبة هؤلاء العمال .

ثانياً : جميع مكاتب الموظفين في المؤسسات أو الشركات . . أو البنوك بالولايات المتحدة الأمريكية عبارة عن صالات كبيرة جدا وواسعة تتجمع فيها مكاتب الموظفين . وفي ركن أو جانب من هذه الصالة الكبيرة يوجد مكتب رئيس العمل لمراقبة حركة العمل بين الموظفين . . إذن فمن السهل جداً أن يقف موظف أو مراقب لرصد حركة عمال النظافة في أثناء عملهم . .

ثالثاً : هناك تفتيش على العمال بعد انتهاء أعمالهم وعند انصرافهم من المبنى حيث يتم تفتيش كل واحد منهم تفتيشاً دقيقاً لمعرفة ما يمكن أن يحمله أو يخفيه بين طيات ملابسه . . !

وأعتقد أن هناك سؤالا آخر يتردد في نفسك عن معرفة الأجر الذي يتقاضاه عامل النظافة في خلال الثماني ساعات التي يعملها والتي تبدأ من الساعة السابعة مساء وتنتهي في الساعة الثانية بعد منتصف الليل تقريباً ؟ ! .

والجواب هو : أن أجر عامل النظافة يتراوح بين ثلاثين أوأربعين دولارا في اليوم .

وتسألنى لماذا هذا الأجر المرتفع . . ؟

والجواب أيضاً هو : أن هذه الوظيفة . . أو هذا النوع من العمل لا يقبل عليه أحد . . أو كثير من المهاجرين لأنه - كما سبق أن قلت - من أحقر الوظائف أو الأعمال التى لا يقبلها أو يقبل عليها إلا فئة أو طبقة معينة من المهاجرين وهم ما نسميهم بلغتنا العربية «الغلابة» أو الجهلة . .

هناك شىء هام جداً يجب أن تعرفه قبل أن تهاجر . . أو ترحل عن وطنك إلى الولايات المتحدة الأمريكية للإقامة فيها بصفة دائمة وهو : إذا كنت فى «سن التجنيد» يعنى عمرك قد بلغ أو تعدى الثامنة عشر عاما فإنك سوف تجنّد بالقوات المسلحة الأمريكية . . ومن الواجب أو الضرورى أن تتقدم إلى الجهات المسئولة فى المدينة التى سوف تقيم فيها بطلب تخطرهم بذلك حتى تطلب للتجنيد فى الوقت المناسب . . وإياك أن تتخلف عن هذا الواجب أو تهمل فيه ، فالمفروض أنك مادمت «مهاجراً» وتحمل معك بطاقة إقامة دائمة فى الولايات المتحدة الأمريكية فأنت مواطن أمريكى لك كل الحقوق . . وعليك كل الواجبات مثل أى أمريكى أصلى مولود على أرض الدولة هناك «ما عدا شيئا واحد» كما قلت لك من قبل وهو : حق الاشتراك فى الانتخابات العامة . . حتى تحصل على الجنسية الأمريكية . . وطبعاً السلاح الذى سوف تلحق به فى القوات المسلحة الأمريكية من حقه ترحيلك إلى أى مكان سواء داخل الولايات المتحدة . . أو خارجها فى أى دولة أخرى أو مكان آخر توجد فيه قوات أمريكية . . !

أما إذا كان عمرك قد تعدى سن التجنيد فهذا طبعاً سوف يعفيك من الانخراط فى سلك الجندية أو القوات المسلحة الأمريكية . . وهذا كله يسرى عليك سواء كنت متزوجاً أو غير متزوج . . !

الإقامة بدون هجرة . !

احذر أن تسافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية هارباً من وطنك . . أو بقصد الزيارة أو فى مهمة رسمية وفى نيتك الإقامة هناك بصفة دائمة دون أن تكون « مهاجراً رسمياً » ؟ !

إذا فعلت ذلك دون أن تحصل مقدماً على الهجرة من السفارة الأمريكية فى الدولة التى تقيم فيها فسوف تلاقى العذاب . . وتعيش فى رعب . . ومن المؤكد أنك ستواجه الكثير جداً من المشاكل لفترة طويلة قد تمتد إلى سنوات لا تستطيع فيها الاشتغال بأى عمل قبل أن تحصل على موافقة «إدارة العمل» ثم «إدارة الجوازات» فى المدينة التى تقيم فيها على هجرتك وإقامتك بالولايات المتحدة الأمريكية . .

إن موافقة الجهات المسئولة فى أمريكا على إقامتك بصفة دائمة مثل أى مهاجر

تتم دائماً أو غالباً فى حالتين وهما :

إما أن تتزوج من أمريكية شرعاً ورسمياً وبعد أن تتأكد إدارة المباحث الفدرالية . . ومباحث إدارة الجوازات من هذا الزواج الرسمى . . وإما أن تشتغل فى عمل لا يتوفر لأى أمريكى القيام به على شرط أن تحصل من الجهة التى تعمل لديها . . أو تقوم بتوظيفك عندها عن «عقد عمل» رسمى مدون فيه الأجر اليومى الذى تتقاضاه وهو طبعاً لا يقل على مبلغ معين حسب نوع العمل . . والخبرة . . ثم المدة التى سوف تعملها وهى لا تقل عن عامين . .

وطبعاً من المستحيل أن تجد أى إنسان صاحب عمل «مصرى . . أوعربى» يقبل أن يكتب لك عقد عمل بهذه الشروط . . إلا إذا كان «أباك» أو ابنك . . ! !

هل تريد أن تعرف لماذا لا يقبل أى إنسان أن يعطيك . . أو يكتب لك عقد عمل . . ؟

يوجد فى عقد العمل شروط وهى :

أولا : لابد أن يدفع لك صاحب العمل الأجر كاملاً كما هو مكتوب فى العقد . . وهذا لا يحدث أبدا من أى صاحب عمل . . !

ثانياً : من الممكن أن تستمر فى عملك لمدة ستة أشهر كاملة ثم تخرج بعد ذلك سواء برضاك . . أو برغبة صاحب العمل . . وفى هذه الحالة من الواجب – كما اشترط القانون – أن يدفع لك صاحب العمل مرتبك كاملاً – كما هو مكتوب فى العقد – لمدة عام . . ثم نصف مرتب لمدة ستة أشهر . . ! !

لهذا لا يمكن لصاحب أى عمل مهما تكن درجة قرابته لك . . أو صلته بك . أن يكتب لك عقد عمل ويتحمل هذه المسئولية . .

إن الذى يحدث دائماً – وقد حدث كثيراً – أن يطلب صاحب العمل من الشخص طالب الوظيفة الذى هو غير مهاجر دفع مبلغ كبير من المال يتراوح بين ألف . . وألفى دولار لكى يكتب له عقد العمل . . وهذا العقد يسجل بمعرفة أحد المحامين الذى يقوم بإرساله بمعرفته إلى إدارة العمل . . وإذا وافقت . . تحوله أى العقد – إلى إدارة الهجرة والجنسية بالمدينة التى تقيم فيها بالموافقة . .

وهنا أيضاً لا تنس أن المحامى الذى سيقوم بإجراءات تسجيل العقد سيكون مكلفاً بالقيام بإجراءات إتمام الهجرة حتى تحصل فى النهاية على الإقامة الدائمة . . وهو فى هذه الحالة يتفق معك – لا مع صاحب العمل – على الأتعاب وهى تتراوح بين ألف أو ألفى دولار . . ! !

ولا تنس أن كل هذه الإجراءات سوف تستغرق وقتاً طويلاً – كما سبق أن قلت لك – وهذا الوقت قد يمتد إلى عام أو عامين . . وأنت طبعاً مطلوب منك طوال هذه الفترة أن تأكل . . وتشرب . . وتنام . . وتعيش . . وتستقر . . وطبعاً : أنت رجل جديد «خالى شغل» وليس معك من الأموال غير بضعة دولارات تكفيك لعدة أيام ، ومهما اشتغلت «خلسة» دون علم الجهات المسئولة فسوف تعيش فى رعب وخوف وعدم استقرار لأنك سوف تكون مهدداً بالطرد من جميع الأراضى الأمريكية فى حالة اكتشاف أمرك عن طريق رجال الأمن . . أو عن طريق مباحث إدارة الجوازات التى تبحث عنك طبعا بعد أن تكتشف انتهاء مدة إقامتك فى الولايات المتحدة الأمريكية من واقع الأوراق الرسمية التى سجلت عليها وصولك بالمطار .

أما إذا تزوجت من «أمريكية» فإن هذا ولا شك سوف يعطيك الحق فى الإقامة الدائمة بالولايات المتحدة الأمريكية على شرط أن تتأكد الجهات المسئولة

أن هذا الزواج صحيح.. ورسمى.. وأنكما- أنت والزوجة- تقيمان معا فى بيت واحد.. وليس زواجاً على ورق، مقابل مبلغ من المال لأى فتاة أو سيدة عن طريق بعض السماسرة المتخصصين فى ذلك للحصول على الإقامة الدائمة..!

وتسألنى.. هل يحدث شيء مثل هذا فى الولايات المتحدة الأمريكية..؟

والجواب: نعم.. هناك كثير من عمليات الزواج تتم بين بعض الرعايا من أبناء دول العالم المختلفة الذين يسافرون إلى أمريكا بدون هجرة.. ثم يقررون الإقامة هناك بصفة دائمة- وبين بعض الفتيات أو السيدات المطلقات مقابل أن يدفع الواحد منهم ألف دولار.. أو أكثر للفتاة أو السيدة.. ومبلغاً آخر «للسمسار» أو الوسيط الذى يقوم بهذه العملية.. وقد اكتشفت إدارة الجوازات. وجهات الأمن المختلفة بالولايات المتحدة الأمريكية هذه اللعبة.. وكانت النتيجة هى: أنه فى حالة تقدم أى مواطن يقيم فى أمريكا؟ ليس مهاجراً- بطلب إلى إدارة الهجرة للحصول على الإقامة الدائمة ويرفق بطلبه «وثيقة الزواج من أمريكية» تقوم مباحث إدارة الجوازات.. ورجال المباحث الفيدرالية «أى المباحث الجنائية» بمهاجمة منزل الزوجين فى ساعات متأخرة من الليل.. ولعدة أيام للتأكد من وجود الزوجين فى المنزل وإقامتهما مع بعضهما.. والبحث فى «الدواليب» عن ملابس الزوجين.. ثم إجراء تحريات واسعة ودقيقة لمعرفة هل هذا الزواج صحيح.. ولغرض الزواج أم.. «أى كلام» ولقصد حصول الرجل على الإقامة الدائمة بالولايات المتحدة الأمريكية.. وحصول الزوجة على بعض الأموال عن طريق هذه العملية..!!

والخلاصة أنه فى كل من الحالتين «فأنت الخسران» لأنك سوف تدفع الكثير. والكثير جداً من المال.. والتعب.. والإرهاق.. والقلق.. وعدم

الاستقرار لمدة عام . . أو عامين . . ؟ ! !

وأخيراً أقول لك : احذر أن تسافر إلى الولايا ت المتحدة الأمريكية هارباً من وطنك . . أو بقصد الزيارة . . أو فى مهمة رسمية وفى نيتك الإقامة هناك بصفة دائمة دون أن تكون مهاجراً رسمياً » . . ! !

الزواج . . للهجرة . . !

أعتقد أن هناك سؤالاً يدور فى ذهنك عن طريق زواج المصريين أو العرب من أمريكيات بغرض الحصول على الإقامة الدائمة فى الولايات المتحدة الأمريكية . وكيف يتم عن طريق السماسرة أو الوسطاء . . وما هى نوعية الفتيات أو السيدات اللائى يقبلن الزواج بهذه الطريقة . . ؟

والجواب هو : هناك طريقتان يتم بوساطتهما الزواج . .

الطريقة الأولى : أن يتعرف الشاب على الفتاة أو المرأة عن طريق تردده على أحد الملاهى الليلية أو أندية الرقص . . أو فى أى مكان آخر وينشأ بينهما تعارف ثم يعرض عليها الزواج منه – وهو وحظه – إما أن تقبل . . أو ترفض . . وغالباً إذا كانت أمريكية الأصل فهى ترفض مثل هذا الزواج لأن الأمريكيات الأصل ترفض الواحدة منهن الزواج من رجل – أى رجل – قبل أن تعرفه جيداً وتعرف كل شىء عنه وعن ميوله . . واتجاهاته ورغباته . وكان بينهما حب ومعاشرة لفترة تستطيع عن طريقها دراسته جيداً حتى تضمن أن حياتها المقبلة معه سيكون فيها الاستقرار والتفاهم فى كل شىء . .

أما إذا كانت غير أمريكية الأصل – بمعنى – أنها قد اكتسب الجنسية

الأمريكية بحكم إقامتها الطويلة فى الولايات المتحدة الأمريكية – شأنها فى ذلك شأن أى مهاجر آخر يستطيع الحصول على الجنسية الأمريكية بعد خمس سنوات إقامته – فإنها تقبل الزواج منه .

وهنا يبرز سؤال : ما هى الفائدة التى تكسبها مثل هذه «المرأة» من الزواج من رجل يعتبر فى حكم «العاطل» ليس معه أموال ولا يستطيع الإنفاق عليها . خاصة وهى تعلم أنه يتزوجها من أجل الحصول على الهجرة والإقامة الدائمة فى أمريكا . . ؟

وما هى جنسية هذه المرأة غير الأمريكية الأصل . . ؟

والجواب هو : أن المرأة التى تقبل الزواج لهذا السبب وبهذه الطريقة هى غالباً إما أن تكون كبيرة فى السن . . أو فتاة طائشة . . وليس معنى طائشة أنها صغيرة أو غير مقدرة للظروف . أو لا تعرف شيئاً . . ولكنى أقصد أنها فتاة لا تقدر المسئولية . ولا تحترم الزواج . . أو قدسية بيت الزوجية . .

ولهذا فهى تقبل الزواج من أى رجل من أجل أن يكون بمثابة «ساتر . . أو برافان» تحتمى وراءه من أى كارثة . . وفى نفس الوقت تعلم هذه المرأة تماماً أن زوجها لن يستطيع الإفلات منها بسهولة مهما فعلت . . وإذا أراد أن يطلقها فالثمن الذى سوف يدفعه سيكون غالياً ويكلفه الكثير ، لأن القانون الأمريكى يحمى المرأة تماماً عند الطلاق . .

ولهذا أيضاً : فإن شخصية الزوجة الأمريكية أقوى من شخصية زوجها بكثير . . بل هى كل شىء فى المنزل وخارجه . .

يعنى أولاً : عندما يتم الطلاق بين الزوجين يكون من حق المرأة قبل كل شىء الحصول على الشقة بكل محتوياتها . . ومن أجل هذا تهتم المرأة أو الزوجة الأمريكية

بتأثيث بيت الزوجية من كل شيء حتى تحمي نفسها ومستقبلها فى حالة وقوع الطلاق . .

ثانياً : يعطى القانون الأمريكى الزوجة المطلقة الكثير من أموال . . وممتلكات وعقارات مطلقها و«سجنه» أيضاً فى حالة عدم الوفاء أو عدم الالتزام بهذه الأشياء . .

أما الطريقة الثانية التى يتم عن طريقها الزواج فهى عن طريق السمسار . . أو الوسيط . !

وأما كيف يتم ذلك فأقول لك : هناك بعض أبناء الدول العربية – من الذين يعيشون فى أمريكا منذ سنوات طويلة – يقومون بهذه المهمة مقابل أن يحصل لنفسه على ألف دولار . . ثم ألفى دولار أخرى للفتاة . . أو بمعنى أصح للمرأة التى سيتم الزواج منها . ! وهذه المرأة تكون دائماً – وليس غالباً – من بنات الليل . . وتشترط هذه المرأة على الزوج المقترح ألا يطلب منها معاشرتها أو العيش معها . . أو الإقامة معه فى منزلها . .

فقط . . تقابله بمعرفة الوسيط أو السمسار «للتعارف» ثم تقبض المبلغ وتذهب معه إلى مكتب توثيق العقود لعقد القران . . ثم تذهب معه إلى إدارة الجوازات لتقف معه أمام الموظف المسئول وتشهد أنها زوجته من أجل إتمام أو إنهاء أوراق الإقامة . . ثم بعد ذلك يطلقها أو تستمر على ذمته . .

المهم . . كل واحد فى حاله . . لا هى تعرف عنه شيئاً . . ولا هو يعرف عنها شيئاً . . ! !

ولكن : غالباً يتم الطلاق بينهما حتى لا تكون هناك عقبة فى مستقبل المرأة عندما تريد الاستقرار عن طريق الزواج بمن تتعرف عليه وتحبه . . ! !

أما جنسية مثل هؤلاء الفتيات أو السيدات فهن غالباً من بعض دول أمريكا اللاتينية . . !

لقد اكتشفت إدارة الجوازات والجنسية بالولايات المتحدة الأمريكية مثل هذه الألاعيب والحيل التى يلجأ إليها بعض الناس الذين يذهبون إلى أمريكا بقصد الزيارة . . أو الدراسة . . أو البعثات ثم بعد ذلك يرغبون فى الإقامة الدائمة بالولايات المتحدة الأمريكية عن طريق الزواج . .

ولهذا : فإن أى وثيقة زواج يتقدم بها أى رجل من رعايا أى دولة للزواج من أمريكية تكون موضع بحث ودراسة وتحريات واسعة ودقيقة جدًّا عن طريق رجال مباحث الجوازات والجنسية . . والمباحث الفيدرالية للتأكد من أن هذا الزواج صحيح ومضبوط . . وتم عن طريق سليم . . وأن الزوجين يعيشان مع بعضهما . . ولم يتم من أجل الحصول على الإقامة الدائمة بالولايات المتحدة الأمريكية . . ! !

المهاجرون فى أمريكا . .

هل تعرف شيئاً عن حياة المصريين والعرب المهاجرين إلى أمريكا . . والذين يعيشون هناك منذ سنوات طويلة . . ؟

أعتقد أنه من الواجب أو الضرورى أن تعرف شيئاً . . أو تأخذ فكرة عن حياة هؤلاء المهاجرين . . كيف يعيشون . . وماذا يعملون . . وماذا يمتلكون . . وهل هم موفقون فى حياتهم وسعداء فى معيشتهم . . ؟

طبعاً . . بل من غير المعقول أن أتكلم أو أتحدث عن حياة كل المهاجرين الذين اختلطت بهم . . أو عرفتهم . . أو عاشرتهم . . أو صادقتهم . . أو كانت تربطنى

٤٦م صداقة . .

لقد عشت بمدينة نيويورك سنوات طوالاً . . وكنت أصدر هناك صحيفة أسبوعية تنطق باللغة العربية . . وعن طريق هذا العمل كانت لى صداقات . . ومعارف كثيرة جداً بأبناء مصر وغيرهم من أبناء الدول العربية الأخرى . .

ولقد عاشرت كثيراً منهم عن قرب . . وعرفت الكثير عن حياتهم . . وأعمالهم . . ومعيشتهم والأعمال التى يتاجرون فيها . . وحياتهم العامة والخاصة . . وشعور كل أبناء دولة تجاه أبناء الدول الأخرى . .

وفى هذا الفصل من الكتاب سوف أتناول بعض النواحى . أو الأشياء التى يمكن أن تكتب أو تقال . . أو يهم القارئ معرفتها . . .

أما الجوانب الأخرى فإنى أحتفظ بها لنفسى . . !

والآن نتحدث عن حياة المهاجرين . . كيف يبدأ الواحد منهم حياته بالمدينة . . أو الولاية التى يعيش فيها بالولايات المتحدة الأمريكية . .

كيف يعيش . . ؟

وماذا يأكل . . ؟

وكيف يقضى أوقاته . . أو راحته الأسبوعية . . ؟

وهل يستطيع «المهاجر» تكوين ثروة من المال . . ؟

ومتى يوفر هذا المال . . ؟ وفى أى شىء ينفقه . . ؟

وهل هناك من المصريين . . أو العرب من لديه ثروة أو ثروات ضخمة . . ؟

وهل هناك أيضا من المهاجرين من هو صاحب نفوذ . . أو سلطان . أو يتمتع بسمعة طيبة فى المجتمع الأمريكى . . ؟

أولاً : وقبل أن أجيب على كل هذه الأسئلة أقول لك إننى سوف أضع أمامك

كل الحقائق مجردة ودون مجاملة أو تحامل . لأن الذى يهمنى هو أن أذكر كل الحقائق والوقائع التى رأيتها بنفسى . . وعشت كل أحداثها بين عدد كبير جداً من المهاجرين طوال السنوات التى عشتها فى الولايات المتحدة الأمريكية . .

لقد شرحت لك - فى فصل من هذا الكتاب - أن قريبك أو صديقك الذى سوف تنزل عليه « ضيفاً » لن يتحملك أكثر من بضعة أيام . . وأنه سوف يتأفف ويضيق بك بعد فترة . . وفى النهاية سوف يصارحك بشعوره من ناحية إقامتك عنده . .

فالحياة فى أمريكا تختلف تماماً عن الحياة فى مصر . . كل دقيقة تمر لها ثمن . . وهذا الثمن يدفعه الإنسان من أعصابه . . وعرقه . . ودمه . . وماله . . ووقته . . ولا مجال هناك أبداً لشىء اسمه « المجاملة » .

كما أنه ليس فى قاموس الحياة بين الناس هناك شىء اسمه . . « الشهامة » أو « الجدعة » . . أو الكرم . .

كل هذه الكلمات . . أو المسميات يجب أن تنساها تماماً بمجرد وصولك إلى أرض المطار فى المدينة التى ستعيش فيها بالولايات المتحدة الأمريكية . .

وإذا حدث وسمعت شيئاً غير ذلك فإنى أجزم لك أن هذه تعتبر حالة شاذة جداً لم أسمع عنها أبداً طوال حياتى فى أمريكا . . ومعاشرتى لآلاف من المصريين والعرب المقيمين هناك . . !

والآن ندخل فى : كيف يعيش المهاجر . . ؟

إذا كان المهاجر بمفرده يعنى « أعزب » فإنه يبحث عن بيت من « بيوت الشباب » ليعيش فيه . .

إن بيوت الشباب منتشرة فى جميع المدن والولايات الأمريكية . . وهى عبارة

عن عمارة كبيرة مكونة من عدة طوابق . . وكل طابق فيه أكثر من غرفة . . والغرف يختلف بعضها عن بعض . . « بمعنى » أن هناك غرفة بحمام مستقل . . وهناك غرفة أخرى بحمام مشترك . وكل غرفة من هذه الغرف يختلف سعرها عن الأخرى بضعة دولارات . . والسبب أن بعض هذه الغرف يسكنها طلاب بعثات . . أو طلاب جامعات . . أو مهاجرون . . وسعر الغرفة يتراوح بين ثمانية دولارات وخمسة عشر دولاراً فى الليلة . . !

يعيش المهاجر فى « بيت الشباب » لفترة طويلة . أو قصيرة حتى يدبر حياته ويتوفر لديه مبلغ من المال يستطيع به استئجار شقة من غرفتين ، أو ثلاث أو أكثر حسب عدد أفراد أسرته إذا كان متزوجاً ويعتزم إحضار زوجته وأولاده . . ويستمر المهاجر فى حالة قلق دائم حتى تستقر أوضاعه المعيشية وقد تطول هذه الفترة لمدة عام أو عامين . . وقد تقصر حسب ظروف عمله والوقت الذى يسمح له بإنهاء كل شىء . .

وعندما يبدأ المهاجر — إذا كان متزوجاً — فى الاستقرار من ناحية السكن . تبدو له متاعب أخرى وهى : البحث عن عمل لزوجته حتى تساعده من الناحية المادية فى حياته والتعاون معاً فى توفير مبلغ كبير من المال فى أقل وقت ممكن . . وهذا هو حال عدد كبير جدًّا من المهاجرين . . إن لم يكن كلهم . . فكل مهاجر يسعى جاهداً ويعمل بوظيفتين فى يوم واحد . يخرج من عمل إلى عمل بقصد توفير ثروة كبيرة من المال فى أقل وقت ممكن حتى يبدو فى نظر نفسه أحسن من غيره أولاً . .

ثم من ناحية أخرى للتفاخر بين أصدقائه — سواء هو أو زوجته — بأنه يريد شراء منزل . . أو محل تجارى . . أو الدخول فى مشروع يستثمر فيه أمواله . . وهذا ما يدفع كل المهاجرين إلى أن يعيش الواحد منهم حياة ضئيلة جدًّا فى معيشته سواء

فى ناحية المأكل . . أو الملابس .

وقد لا أبدو مغالياً إذا قلت إن عدداً كبيراً جدًّا من المهاجرين يعيشون حياتهم على تناول وجبات « الفول المدمس » والأكلات الشعبية الأخرى التى كانوا يعيشون عليها فى مصر . . أو فى بلادهم . . ويحرمون أنفسهم من تناول وجبات أخرى كثيرة . . بالإضافة إلى حرمان أنفسهم من الخروج للفسحة أو المتعة . . أو ارتياد دور السينما والملاهى . . أو قضاء عطلة نهاية الأسبوع فى أى مكان بالمدينة التى يعيشون فيها . . أو خارجها كما يفعل الأمريكان . . أو غيرهم من المهاجرين من رعايا الدول الأخرى . .

ولا أكون مغالياً أيضاً إذا قلت إن هناك عدداً كبيراً جدًّا من المهاجرين يعيش الواحد منهم فى مدينة ويعمل فيها دون أن يعرف عن معالمها أو مرافقها أو متاحفها أى شىء . . وإذا سألت الواحد منهم عن شىء قال لك : لا أعرف . . ! !

وإذا أبديت له تعجبك من عدم معرفته كان رده : « مفيش وقت للفسح » ! !

وإذا سألته عن الفترة التى مضت عليه فى المدينة التى يعيش فيها أجابك بأنها ٤ سنوات مثلاً . . ! !

مهاجر مذهول . . !

لقد حدث مرة أن التقيت فى أثناء سيرى بالطريق فى أحد شوارع مدينة نيويورك بأحد المصريين من أبناء مدينة الإسكندرية وكنت أعرفه من قبل . أو كنت قد تعرفت عليه منذ شهور قليلة عند زيارتى لأحد الأصدقاء فى

نيويورك . . وأخذت أتحدث معه عن أحواله وعن معيشته . ثم سألته عن وجهته فقال : والله أنا مروّح . . لقد انتهت فترة عملي اليوم – وكان يوم أحد – وكفاية نص يوم . .

وسألته : هل تعمل فى أيام العطلات الأسبوعية وهى يوما السبت والأحد . . ؟

أجاب – طبعاً . . إن أكثر المهاجرين يعملون فى هذين اليومين . . ! !

وسألته : هل لديك مانع من مرافقتى فى السير للتحدث بدلاً من وقوفنا هكذا . . ؟

وسألنى هو بدوره : إلى أين أنت ذاهب الآن . . ؟

قلت : إن لى رغبة فى مشاهدة فيلم أو مشاهدة متحف . . أو زيارة بعض الأماكن التى لم أشاهدها من قبل . .

وبعد أن انتهيت من كلامى قال لى : طيب : أستأذن أنا لأننى غير مستعد . . !

وسألته فى تعجب : ما هى الاستعدادات التى يمكن أن تتوفر لديك . . أو هى غير متوفرة عندك حتى تستأذن فى العودة إلى منزلك . . ؟

قال : بصراحة كل ما فى جيبى هو ثمن تذكرة الأتوبيس . . ! !

وابتسمت . . وأنا فى نفس الوقت أتعجب لمثل هذا الإنسان . . ودعوتى له إلى مرافقتى . . وأصررت على طلبى . . وسألنى عن الجهة أو المكان الذى سنذهب إليه . .

لقد صحبته فى جولة استغرقت بضع ساعات عاش خلالها فى ذهول وكأنه إنسان قروى يرى المدينة لأول مرة فى حياته !

كان أول شيء صحبته إليه هو زيارة مبنى صحيفة «الديلى نيوز» وهى كبرى الصحف اليومية الأمريكية التى تصدر بمدينة نيويورك.

إن إدارة الصحيفة تسمح لجماهير الناس بمشاهدة مدخل الصحيفة . . وأعتقد أن هذا يكفى جداً لتقع عينيك على بعض معالم الدنيا واضحة أمامك وبارزة . . ومتحركة بالأجهزة الإلكترونية . .

أما داخل المبنى فيمكن أن تدخله فى حالة الزيارة لأى محرر . . أو فى مهمة صحفية مثلاً . .

ثم ذهبنا بعد ذلك إلى مبنى الأمم المتحدة . وهو قريب من مبنى صحيفة «الديلى نيوز» ودخلت الجزء المسموح بزيارته لكل الناس وهو عن طريق تذاكر تباع فى داخل المبنى . .

لقد شعرت بحرج كبير جداً عندما كان صديقنا هذا يبدى دهشته وذهوله لكل شىء تقع عليه عينه . . وكنت أطلب منه أن يخفض من صوته حتى لا يكون ملفتاً للنظر بالنسبة للناس . . وحتى لا يكون سخرية لمن يعرف اللغة العربية من الموجودين .

وأردت أن أجعله أكثر دهشة وذهولاً فسألته عما إذا كان قد صعد إلى أكبر ناطحةسحاب فى العالم والموجودة بمدينة نيويورك والمعروفة باسم «الأمبايرستيت» ؟

فأجاب : أبداً والله . . ولا أعرف حتى أين هى . . ! !

وتولتنى الدهشة فسألته : كم مضى عليك من الزمن وأنت تعيش فى مدينة نيويورك . ؟

أجاب عامان ونصف عام . ! !

وتوقفت عن السير وقلت له متعجباً : بتقول إيه . . كام . . سنتين ونص ولم

تشاهد كل ذلك . . حتى «الإمبايرستيت» لا تعرف أين هى؟ ! !

وأقسم بالله مرة أخرى أنه لم يشاهد أى شيء مما رآه الآن . . ولا العمارة الكبيرة –كما سماها– والتى نحن فى طريقنا إليها ! !

وذهبنا إلى ناطحة السحاب . . ودخلنا المبنى . . وتقدمت نحو طابور الواقفين لشراء تذاكر الصعود إلى أعلى ناطحة سحاب . . وجاء دورى واشتريت تذكرتين لى وله : ودخلنا المصعد إلى أن وصلنا إلى الدور الخمسين . . ثم نزلنا وذهبنا إلى مصعد آخر ودخلنا ليوصلنا هذا المصعد الثانى إلى نهاية المبنى . .

وكاد قلب صاحبنا هذا أن يتوقف عن الحياة لمجرد أن صعد مصعدين . .

لقد تولاه ذهول . . ودهشة . . وكان فى حالة غريبة وكأنه إنسان غريب عن الأرض . . أو يعيش على كوكب آخر وبين قوم لا يعرف عنهم شيئاً . .

وأردت أن أخرجه من ذهوله فسألته : إيه ، مبسوط . . ؟

قال وهو يتطلع ببصره من الشرفة الكبيرة بأعلى المبنى فى الدور الواحد بعد المائة ليرى جزءاً كبيراً من مدينة نيويورك . . ويرى الناس والسيارات على الأرض كأنهم ديدان تتحرك : إيه ده . . أ نا فى حلم . . والا فى علم . . الله يخليك يا أمريكا . . ! !

وضحكت لهذه السذاجة التى يعيش عليها هذا الإنسان . . وفى نفس الوقت رثيت لحاله . .

وبعد أن انتهت جولتنا سألته :

لماذا لا تخصص يوم الأحد من كل أسبوع للراحة من العمل . . والخروج لمشاهدة معالم المدينة . . ؟

فأجاب : أى والله فعلاً لازم . . بس بينى وبينك «الفلوس» . . !

وسألته : فلوس إيه . . ؟

قال : يعني يوم زى دا سوف أصرف فيه حوالى عشرين دولاراً . يعني أجر نصف يوم . . أنا أولى به . . ممكن أدخره زى غيرى ما بيعمل .

قلت له : وهل أنا مجنون مثلاً عندما فعلت ذلك الآن . . ؟

ضحك وقال : ياعم ربنا يخليك لنا . . وعقبال المرّة الجاية إن شاء الله . . ! !

الادخار . . والتجارة . . !

وأعود مرة أخرى إلى سؤال ، هو : إلى أى مدى يستطيع « المهاجر » تكوين ثروة . . أو جزء كبير من المال يستطيع به الدخول فى مشروع – أو فتح محل تجارى كما هو حال عدد كبير من المهاجرين المصريين والعرب . . ؟

والجواب هو : هناك من المهاجرين من استطاع تكوين مبلغ كبير من المال يصل إلى عشرة آلاف دولار تقريبا فى عامين . . ! !

وربما تشهق وأنت تقرأ هذا الرقم وتقول فى نفسك هل هذا معقول . . ؟

وأقول لك : نعم معقول . . والأمثلة على ذلك صاحبنا الذى يحرم نفسه من كل شىء من أجل التوفير . وربما هو لا يزال يعمل ولم يدخل مجال التجارة مثل كثيرين غيره ، لأنه « خائف » – كما ذكر لى فى حديثه – أن تضيع ثروته . . أو يفشل فى تجارته !

ولكن هناك أيضا كثير من المهاجرين المصريين والعرب استطاعوا بثروتهم . . أو بالأموال التى ادخروها فتح محال تجارية فى المدن التى يعيشون فيها بالولايات المتحدة الأمريكية . .

وتسألنى . . ما هى هذه المحال . . وما هى التجارة التى يعملون فيها . . وهل هؤلاء المهاجرون كانوا فى الأصل يعملون بالتجارة . . ؟

والجواب : أولا . . تسعون فى المائة – ولا أريد أن أقول لك مائة فى المائة – من المهاجرين المصريين الذين يعملون بالتجارة ولهم محال تجارية من خريجى الجامعات المصرية . من بينهم خريجو كليات الحقوق . . والتجارة . . والزراعة والآداب . .

وربما تسأل أيضاً : هل هذا معقول خريجو الجامعات يفتحون أو يعملون بالتجارة . ؟

والجواب : نعم معقول جداً وهذا هو عين الصواب . . أو الوضع السليم . . لعدة أسباب . .

أولا : الشهادة هناك ليس لها أى قيمة مادية أو معنوية . . حتى شهادة بكالوريوس الطب . . غير معترف بها هناك إلا إذا قام الحاصل عليها بعمل « معادلة » فى إحدى الجامعات الأمريكية . . ! ! وكذلك شهادة بكالوريوس الهندسة !

إن القيمة الحقيقية للإنسان هى فى العمل . . وفى المقدمة إجادته اللغة الإنجليزية التى تعتبر عاملا هاما وفعالا للحصول على أى وظيفة يمكن عن طريقها أن يعيش كريماً . .

أما عن نوع التجارة التى يقوم بها معظم أو كل المهاجرين تقريباً فهى :

محال البقالة العربية . . !

نعم . . يوجد فى جميع المدن الأمريكية وفى جميع الولايات المتحدة ، الأمريكية محال بقالة عربية فيها كل ما يخطر على بالك . . ومالا يخطر على بالك من بقالة . . وعطارة . . وحلوى مثل التى تراها فى جميع محال البقالة والعطارة والحلوى فى مصر . . بل أكثر . ! !

فى مدينة نيويورك مثلا وهى مدينة تعتبر ثانى مدن العالم – بعد مدينة طوكيو عاصمة اليابان – ازدحاما بالسكان . . بالإضافة إلى أنها مدينة ضخمة جداً . . وضواحيها مترامية الأطراف وشاسعة جداً . . فى هذه المدينة الرهيبة يوجد عدد كبير جداً جداً من محال البقالة العربية . . وأقصد بكلمة العربية . . أن أصحابها إما مصريون . . أو من أبناء الدول العربية الأخرى . . ويوجد من بين كل هذه المحال التى يزيد عددها على بضعة آلاف فى مدينة نيويورك وحدها « محل واحد » كبير جداً صاحبه لبنانى الأصل وهو يقع فى شارع اتلانتيك بحى بروكلين . . هذا المحل قديم جداً بمعنى أن صاحبه قد افتتحه منذ أكثر من خمسين عاماً . . وعندما توفى تولى أولاده وهم أمريكان – ويعرفون العربية باللهجة اللبنانية بحكم تربيتهم أو اختلاطهم بالعرب – إدارة المحل . . .

هذا المحل الضخم يقوم باستيراد جميع أنواع البقالة . . والعطارة . . والمعلبات من الشركات المصرية بالقاهرة . . بالإضافة إلى أنواع أخرى من البقالة والمعلبات من لبنان . . وتونس . . والمغرب . . وسوريا . . والعراق . . وبقية الدول العربية . . وآسيا حتى الهند . . وتقوم المحال العربية الأخرى الموجودة فى مدينة

نيويورك وبقية المحال العربية المنتشرة فى جميع الولايات المتحدة الأمريكية بعملية استيراد وشراء ما يلزمها من هذا المحل . .

و « اتلانتيك أفنيو » وهذا هو اسم الشارع الذى يقع فيه هذا المحل . . يوجد فيه أيضاً عدد آخر من المحال والمطاعم العربية .

ولذلك : فأنت عندما تذهب إلى هذا الشارع فإنك تشعر بأنك تعيش فى بلدك . أو فى أى حى من أحياء وطنك مهما تكن جنسيتك . . لأن أول شيء سوف يقابلك ويرن فى أذنيك هو . . « اللغة العربية » التى سوف تسمعها من عدد كبير من الناس الذين يسيرون فى هذا الشارع أو الشوارع القريبة منه .

إن الشيء الذى قد يذهلك أيضاً : هو أنك إذا ذهبت إلى هذا الشارع فى يوم السبت . . أو يوم الأحد وهما يوما العطلة الأسبوعية فى أمريكا . . فإنك ولا شك ودون مبالغة سوف تقابل أى واحد من أصدقائك . . أو معارفك . . أو ربما أقاربك الذين تعودوا الذهاب إلى هذه المحال لشراء ما يلزمهم . أو حاجيات المنزل كل أسبوع . .

ولا تتعجب أيضاً إذا قلت لك إن من بين هذه المحال سوف ترى محالاً أخرى تبيع منتجات خان الخليلى من الخاتم الفضة الغالى والرخيص والصفيح . . حتى الصوانى الخشب المطعمة بالصدف . . والترابيزات والكراسى الأرابسك . . والطربوش الأحمر أبو زر أسود . ! !

ولن أكون مبالغاً إذا قلت لك إن هذا الشارع فى حى بروكلين له مكانة وأثر كبير فى نفوس المصريين والعرب . . بل إنه يعتبر من أهم الأشياء فى حياتهم ليس لأن فيه محال بقالة عربية فقط . . بل أزيد على ذلك فأقول : إنه يوجد فى هذا الشارع أيضاً : أكثر من « مخبز عربى » يبيع العيش البلدى الطازج . . وجميع

أنواع الخبز البلدى والإفرنجي . . كما أنه يشوى لك السمك إذا أردت ذلك أيضا . .

وهناك من بين هذه المحال العربية بعض المحال التى يمكن أن تشترى منها . . الفسيخ . . والسردين . . « والمرتة » التى تستخرج من السمن البلدى . . ! !

وفى نهاية « أتلانتيك أفنيو » أو شارع أتلانتيك بحى بروكلين توجد سينما تعرض أفلاما مصرية يومى السبت . . والأحد . . من كل أسبوع . . وكذلك فى المواسم والأعياد . .

هذه السينما يملكها رجل أمريكى . . ولكن هناك رجل لبنانى الأصل يعيش فى نيويورك منذ حوالى خمسين عاما يقوم باستئجار هذه السينما يومى السبت والأحد من كل أسبوع لعرض الأفلام المصرية التى يتعاقد عليها مع بعض الموزعين المصريين بالقاهرة . . ويبيع التذكرة لدخول السينما ومشاهدة العرض بمبلغ ثلاثة دولارات يعنى حوالى (٢١٠) مائتين وعشرة قروش بالسعر الرسمي . . و ٢٢٥ بسعر السوق السوداء . ! !

والسينما كبيرة جداً . . وتسع حوالى ألفى شخص . . وتعرض ثلاث حفلات فى اليوم من الثالثة بعد الظهر حتى منتصف الليل . . !

والشىء الغريب الذى سوف تدهش له هو أن المصريين والعرب الذين يدخلون هذه السينما . . برغم وجودهم فى أمريكا . . وفى بلد متحضر جداً . . وبين شعوب مختلفة من جميع جنسيات العالم . . إلا أنهم مازالوا كما هم عليه من طباع فى بلادهم . . يعنى : وأنت جالس فى السينما سوف ترى . . وتسمع « قزقزة اللب » وإلقاء القشر على أرض السينما . ! !

ثم التريقة على بعض مواقف الفيلم . . أو الممثلين والممثلات . . أو الصياح

وإطلاق الصفافير عند لقطة فيها قبلة . . !

وليس غريباً أيضا عندما تسمع كلمة إعجاب . . أو استحسان من شخص جالس . لفتاة أو سيدة تمشي في طرقة السينما في طريقها للبحث عن مقعد . ! !

وعندما ينتهي عرض الفيلم ويخرج الجميع من دار السينما تسمع أيضا من ينادي على قريب له أو صديق . . أو زميل بأعلى صوته « تماما » مثلما يحدث في دور عرض الدرجة الثالثة في بعض أحياء مدينة القاهرة . . ! !

نسيت أن أذكر لك من بين ما يجب أن أذكره وهو أنك عندما تخرج من دار السينما تشاهد أيضا « رجلا » يجلس وأمامه كميات كبيرة من الصحف والمجلات المصرية . والعربية . .

إن هذه الصحف والمجلات يتولى توزيعها رجل لبناني يعيش في مدينة نيويورك منذ حوالى أربعين عاما . . ويساعده في محله ونداه . وهما أمريكيان . ولكنهما يتكلمان اللغة العربية باللهجة اللبنانية . . وهذا الرجل يمتلك « محلا » في شارع أتلانتيك يبيع فيه الأسطوانات والشرائط المسجلة عليه جميع الأغاني العربية . . والكتب العربية أيضا سواء كانت كتب أدب . . أو فلسفة أو دين . . أو غراميات . . وتستطيع وأنت في هذا المحل أن تشترى كل الصحف والمجلات التي تطبع في الدول العربية . . أما الصحف المصرية فلا يوجد منها غير « صحيفتي الأهرام » التي تصدر يوم الجمعة . . و « أخبار اليوم » التي تصدر يوم السبت . . ثم جميع المجلات الأسبوعية .

إن صحيفتي الأهرام . . وأخبار اليوم . . تصلان إلى هذا المحل – الذي يتعهد بيعهما – يوم الاثنين من كل أسبوع أي بعد صدورهما بأيام قليلة . .

وأستطيع أن أقول لك إن هذا المحل يقوم بتوزيع كميات كبيرة من هذه الصحف والمجلات على جميع المحال العربية فى مدينة نيويورك وبعض الولايات الأخرى ليشتريها المصريون والعرب المقيمون فى هذه المدن من المحال العربية التى يتعاملون معها . . أو يشترون منها حاجياتهم . . ! !

الجاليات العربية . .

يوجد فى مدينة نيويورك – وهى تعتبر أكبر مدينة أمريكية ازدحاما بالسكان – عدد من الأندية العربية التى تجمع شمل أبناء هذه الدول . .

يعنى مثلا : يوجد ناد لأبناء لبنان . . وآخر لأبناء اليمن . . وثالث لأبناء المغرب . . وهكذا . .

كل رعايا دول العالم الذين يعيشون فى مدينة نيويورك لهم أندية يجتمعون فيها كل أسبوع . . أو كل ليلة . . أو كل عدة أيام . .

المهم : أنه ناد يجمع شمل الكثير منهم . . وعن طريقه يتعرف بعضهم على بعض ويناقشون قضاياهم الخاصة والعامة . والمتعلقة بشئون وطنهم . .

هذه الأندية ليست على مستوى الأندية الفاخرة التى نعرفها . . كما أنها ليست أيضاً على مستوى أندية بعض أبناء الدول الأوربية أو غيرها من أندية الدول

الأخرى من حيث التأثيث . . واختيار المكان . . أو مستوى الشقة . . أو جودة ما يقدم فيها من طلبات سواء المأكل أو المشرب . . ولكنها كلها تقريباً – باستثناء بعضها – أشبه بالمقاهي .

ولذلك : فإن هذه الأندية لا يتردد عليها إلا بعض الناس الذين يذهبون بقصد التسلية . . أو تضييع الوقت . . أو معرفة أخبار غيرهم . . أو بلادهم . . أو . . لعب الكوتشينة . و . . القمار . ! !

وقد حدث أكثر من مرة أن هاجم بعض اللصوص أحد الأندية العربية فى حى بروكلين – ويبدو أن اللصوص كانوا يعرفون أن رواد هذا النادى يلعبون القمار – واستولوا على مبالغ كبيرة من الدولارات التى كانت موجودة على مائدة اللعب . . كما سرقوا أيضا متعلقات بعض الأشخاص من الذين يلعبون مثل ساعات اليد . . أو خواتم ذهب . . وطبعا لم يبلغ أحد من الموجودين رجال الشرطة بالحادث حتى لا ينكشف أمرهم . .

والغريب : أن هذه الحادث قد تكرر فى اليوم التالى مباشرة حيث هاجم اللصوص نفس النادى واستولوا على مبالغ كبيرة أخرى من الدولارات من الموجودين ثم هربوا دون أن يتعرض لهم أى واحد من الموجودين .

وقد ترك هذا الحادث أثراً كبيرا فى نفوس أعضاء النادى من أبناء هذه الدولة العربية وانقسموا على أنفسهم . . فريق منهم طالب بإغلاق النادى نهائياً .

وفريق ثان طالب بالانتقال إلى مكان آخر . .

وفريق ثالث طالب بطرد الأعضاء الذين كانوا يلعبون القمار . .

وفريق رابع طالب بوضع بعض الأسلحة فى النادى . . وتفرغ بعض الأفراد لحماية النادى من هجمات اللصوص . .

وانتهت كل هذه المناقشات أو الآراء المختلفة إلى أن النادى أصبح لا يتردد عليه أحد من أبناء هذه الدولة العربية . . وتفرقوا إلى أندية عربية أخرى . .

وتسألنى : هل هناك نادٍ للمهاجرين المصريين . . ؟

والجواب : بكل أسف لا يوجد فى مدينة نيويورك بالذات نادٍ للمصريين . ! !

هل تعرف ما هو السبب . . ؟ أقول لك :

عندما كنت أعيش فى مدينة نيويورك جاءنى عدد كبير من أبناء وطنى مصر ، وطلبوا منى أن أسهم بالدعوة والإعلان عن إنشاء نادٍ للمصريين . . وسبب هذه الدعوة أننى كنت أصدر هناك صحيفة عربية أسبوعية كانت توزع فى عدد كبير من الولايات الأمريكية . .

وفعلا قمت بالواجب الذى يتحتم علىّ القيام به . . بل زدت على ذلك بأن أجريت اتصالات شخصية مع عدد كبير من الشخصيات الكبيرة من المصريين الذين يعملون بالأمم المتحدة وغيرهم من الأطباء والعلماء والموظفين فى الحكومة أو المؤسسات الأمريكية المختلفة . . وقد أبلغت ذلك كله إلى الإخوة الذين اتصلوا بى . . كما قمت بإبلاغ سفيرنا لدى الأمم المتحدة الدكتور عصمت عبد المجيد الذى رحب بالفكرة وتحمس لها جداً . .

وبناء على كل ذلك تحدد موعد للاجتماع وأعلنت عنه فى صحيفتى التى كنت أصدرها . . وفى الموعد المحدد للاجتماع حضر عدد كبير جداً من المصريين المهاجرين . . والمقيمين بمدينة نيويورك . . وحدثت مناقشات طويلة جداً انتهت إلى تأجيل الاجتماع لموعد آخر يتحدد فيما بعد ويعلن عنه فى صحيفة « الشرق الأوسط » التى كنت أصدرها .

هل تعرفون لماذا انتهى الاجتماع إلى لاشىء . . ؟ أو بمعنى آخر . . هل تعرفون لماذا حدثت « فركشة » بين الموجودين . . وشعر بعضهم أنه أخطأ بحضوره هذا الاجتماع ودخوله فى مناقشات مع بعض الأشخاص الذين لا يعرفهم من قبل . . ؟

لقد كانت المناقشات كلها تدور حول من يكون رئيس النادى . . ؟

وتبين للأسف . . أن عدداً كبيراً من الموجودين يريد أن يكون هو ، أو يرشح نفسه رئيسا للنادى . .

وتأجل الاجتماع . . وأعلن عن موعد الاجتماع الثانى ، وحضره عدد أقل من العدد الأول . . ودارت مناقشات مرة أخرى حول هذا الموضوع . . وانتهت إلى اختيار سفيرنا لدى الأمم المتحدة الدكتور عصمت عبد المجيد رئيسا شرفياً للنادى . .

ولكن : حدث خلاف آخر وهو : كيف يكون ، أو يتكون أعضاء مجلس إدارة النادى . . ؟

هل يكون أعضاء مجلس الإدارة من المؤسسين وهم أصحاب الدعوة إلى عقد هذا الاجتماع . .

أو من غيرهم من الذين يتولون وظائف مرموقة فى المجتمع . . ؟

ودارت مناقشات طويلة مرة أخرى انتهت إلى تأجيل الاجتماع . . ؟

واتفق على موعد ثالث للاجتماع يعلن عنه عن طريق صحيفتى . .

وعقد الاجتماع الثالث . . وحضره عدد أقل من الأشخاص الذين حضروا الاجتماعين الأول والثانى . .

ودارت مناقشات أخرى فى هذا الاجتماع . . ليس من أجل اختيار أعضاء مجلس الإدارة . . ولكن من أجل . . هل يكون مقر النادى مدينة « جيرسى سيتى » وهى عاصمة ولاية نيوجرسى . . أقرب ولاية أو مدينة لمدينة نيويورك حيث يحتشد

فيها عدد كبير من المهاجرين المصريين . ؟

أو يكون مقر النادى مدينة نيويورك حيث يوجد أيضا عدد كبير آخر من المهاجرين المصريين ؟

وانتهى الاجتماع إلى تعصب كل فريق إلى أن يكون مقر النادى فى المدينة التى يقيم فيها . . !

وغضب عدد من الموجودين واعتبر أن هذا العمل « شغل عيال » وانصرف . .

وانصرف بعضهم الآخر على أمل أن يعاود الدعوة إلى فكرة إنشاء نادٍ . .

وانصرفت أنا الآخر وفى نفسى آلام من هذه التصرفات الصغيرة من بعض الصغار والتى كانت سبباً فى عدم وجود نادٍ مصرى فى مدينة نيويورك حتى هذه اللحظة . . !

نماذج ناجحة . . !

أعتقد أنني مادمت قد تحدثت عن المصريين وعن فكرة إنشاء نادٍ فى مدينة نيويورك وعن الشخصيات المصرية الموجودة فى هذه المدينة الكبيرة الضخمة ، فمن الواجب أن نتحدث عن بعض المصريين الموجودين فى نيويورك . . أو بعض الولايات الأمريكية من الذين برزوا فى المجتمع الأمريكى وأصبح لهم مكانة كبيرة بين الناس سواء من أبناء وطنهم . . أو من أبناء الجنسيات الأخرى . . وخاصة الأمريكان . .

من بين هؤلاء أطباء : . وتجار . . وغيرهم . . أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر طبيبا مصرياً وهو من أبناء مدينة المنصورة دقهلية .

لقد اتصل بى هذا الطبيب ذات يوم عندما كنت أقيم فى مدينة نيويورك « تليفونياً » وكان هو — وأعتقد أنه مازال يقيم فى مدينة « فيلادلفيا » وهى ولاية

تبعد عن مدينة نيويورك حوالى ثلاث ساعات أو أكثر بالسيارة . وأبدى إعجابه بالصحيفة التى كنت أصدرها . . ثم دعانى لزيارته . . وأعطانى عنوانه . . وبعد أيام كنت فى فيلادلفيا . . وعندما نزلت من السيارة اتصلت به تليفونياً وأبلغته بحضورى . . والمكان الذى أنا موجود فيه . . ثم أعطيته بعض أوصافى والملابس التى أرتديها حتى يسهل عليه معرفتى . . وجلست فى «كافتيريا» أحد المحال فى انتظاره . . وبعد دقائق دخل الكافتيريا رجل فى حوالى الخامسة والثلاثين من عمره يرتدى بدلة أنيقة وملامحه تبدو مصرية أصيلة . . وكان من السهل أن يتعرف كل منا على الآخر ونهضت أسلم عليه . . بينما أخذنى هو «بالأحضان» وانصرفت من «الكافتيريا» فى صحبته . . وبعد أن خرجنا إلى الطريق أشار بيده إلى سيارة «كاديلاك أسبور» حمراء مكشوفة كانت تقف فى جانب من الرصيف وقال لى : تفضل . . .

فتح باب السيارة . . واتجهت أنا إلى الناحية الأخرى وركبت بجواره واخترقت بنا السيارة بعض شوارع المدينة التى كنت أراها لأول مرة . . ثم وجدته يتجه إلى خارج المدينة — هكذا بدا لى عندما شاهدت الشوارع تخلو من البيوت . . وتظهر الكبارى العلوية والأنفاق التى لا حصر لها فى كل ولاية . .

وسألته : إلى أين . . ؟

قال : إلى المنزل . . إننى أقيم خارج المدينة . . ولكن ليس بعيداً كما قد تتصور أو تعتقد . . وبعد دقائق كانت السيارة قد وصلت بنا إلى ضاحية صغيرة من المدينة فيلادلفيا . . ودخلت السيارة هذه المدينة الصغيرة الجميلة الرائعة . . وفى أحد شوارعها شاهدت على بعد حوالى مائتى متر «جراجا» ملحقاً بإحدى الفيلات يفتح أبوابه دون أن يقترب منه أحد . . وفى نفس الوقت لمست أو لاحظت أن صديق

الطبيب الذى أجلس بجانبه قد أدار أو وضع يده على زرار فى السيارة . . ولكن لم يكن يدور فى خاطرى أبداً أن هناك علاقة بين الزرار الموجود فى السيارة وبين فتح باب الجراج أوتوماتيكياً . . غير أننى تأكدت أن هناك علاقة بين الاثنين عندما شاهدت هذا الطبيب يعيد غلق باب الجراج ثم فتحه مرة أخرى عن طريق الضغط على الزرار الموجود بالسيارة . . تماما كما يفعل « جيمس بوند » فى أفلامه . . .

وسألته : ما هذا الذى تفعله . . هل أنت الذى تفتح «الجراج» ثم تعيد غلقه . . ثم تفتحه مرة أخرى . . ؟

قال : نعم . . ! ! وكانت السيارة قد اقتربت من الفيلا الأنيقة التى يسكنها هذا الطبيب . . وأدخل السيارة فى الجراج . . ثم أغلق الباب عن طريق جهاز يحمله فى جيبه . . وقبل أن يدخل باب الفيلا أخرج جهازاً آخر من جيب الجاكت الذى كان يرتديه ثم ضغط على زرار فيه فانفتح باب الفيلا . . ودخلت الفيلا وهو يرحب بى . . ثم قال لى بلغة ابن البلد : اعتبر البيت بيتك تصرف فيه كما تشاء ! !

ثم قال لى : لا تنس أن اليوم هو يوم السبت . . والطباخ إجازته الأسبوعية اليوم . . وغدا . . وسوف أقوم أنا بطهى بعض الأشياء التى أعرفها وأجيدها بسرعة حتى تنتهى أنت من مشاهدة الفيلا . . ثم اخلع ملابسك واسترح . ! !

وأخذت أتجول فى أنحاء الفيلا فإذا بى ألاحظ أن معظم الغرف خالية تماماً من وجود أى شىء فيها غير الجدران . . ؟ !

واتجهت إليه فى المطبخ أتحدث إليه وكأننى أعرفه منذ فترة طويلة . . وقلت له : هل هذه الفيلا ملك لك . . أو أنت مستأجرها . . ؟

قال : إنها ملكى طبعا . . !

قلت : كم مضى عليك من الزمن تقيم فيها . . ؟

قال : حوالى خمس سنوات . . !

قلت : ولماذا لا تضع فيها مفروشات . . إنها خالية تقريبا . . أين تنام . . وأين تجلس . . وأين تستقبل ضيوفك . . ؟

وضحك الطبيب المصرى الشاب وقال : تعال معى . . واصطحبنى بيده إلى الغرف الموجودة فى الفيلا . . وكان كلما يدخل غرفة من الغرف يقول لى : بقى دى فاضية . . أمال إيه دا . . ؟

ويضغط على زرار فى جانب من الحائط بجوار الباب فتنفتح جدران الحجرة ويخرج منها سرير . . ثم مقاعد . . وتسريحة كاملة . .

ويذهب إلى غرفة أخرى ويفعل نفس الشىء فيخرج من بين الجدران مقاعد وترابيزات ولعب . . تماما كما تشاهد فى أفلام جيمس بوند . !

وقلت له مازحاً : لعبة كويسة دى . . اذهب أنت إلى المطبخ واتركنى أتسلى مع هذه الزراير . . ! !

الغريب أنه بعد فترة قصيرة من الوقت لا تزيد على نصف ساعة كان ينادى على لتناول طعام الغداء فى الحديقة . .

هل تعرفون ماذا أكلت . . وما هى أنواع الأطعمة التى قدمت لى على المائدة . . وتم طهيها فى دقائق . . ؟

ملوخية . . وبصارة . . وعدس . . وأرز . . وبعض اللحوم المشوية . ! !

المهم : أننى بعد أن فرغت من تناول الطعام والحلوى قال لى : هيا بنا . .

قلت : إلى أين . . ؟

قال : إلى المستشفى . . !

قلت : هل لديك عمل اليوم . .

قال : يمكن . . ! !

وركبت السيارة بجواره وانطلق إلى خارج الضاحية من جهة أخرى . . وعلى بعد مسافة قليلة شاهدت مبنى كبيرا وضخما فسألته : ما هذا المبنى . . ؟

قال : إنه المستشفى الذى سوف نذهب إليه . . !

ودخلت السيارة بنا إلى فناء المستشفى . وفوجئت أن هذا المستشفى الضخم الرائع . . النظيف جدا ملك لهذا الطبيب المصرى . . ! !

وبعد أن تجولت معه فى أنحاء المستشفى وشاهدت غرف العمليات وغرف المرضى وغير ذلك من الأجهزة المختلفة جلست معه فى غرفته وتحدثت معه عن ظروف مغادرته لمصر . .

قال الطبيب المصرى : إنه غادر أرض وطنه منذ حوالى عشرين عاماً بعد تخرجه بفترة قليلة من كلية طب قصر العينى . . وأنه وجد صعوبات كثيرة كانت تعترضه من أجل خروجه من مصر وقد قام بمحاولات كثيرة حتى تمكن من مغادرة مصر وجاء إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

وقال : إنه كان يعتقد أن حياته قد بدأت فى الاستقرار بعد وصوله إلى أمريكا ولكنه اكتشف أنه لا يمكن له أن يزاول مهنة الطب إلا بعد دخول امتحان « معادلة » فى إحدى كليات الطب فى الولايات المتحدة الأمريكية . وقد صادفته صعاب كثيرة جدا من أجل أن يعمل ويشتغل فى أى شىء حتى يستطيع أن يعيش مثل بقية البشر. وقد تحمل من أجل ذلك الكثير من التعب . . والسهر . . والإرهاق وكاد أن يفقد ثقته بنفسه . . ولكن إيمانه « بالله » دفعه إلى أن يتحمل

كل ما صادفه من متاعب وصعاب وأزمات مالية ونفسية حتى حصل على شهادة المعادلة . . ثم عين طبيباً فى أحد المستشفيات . وظل يعمل ويواصل الليل بالنهار ولا يعطى لنفسه إلا القسط القليل من الراحة حتى وقف على قدميه . . ومع الثقة « بالله » وبالنفس استطاع أن يفتح عيادة باسمه . . ثم عيادة أخرى . . ثم . . هذا المستشفى . .

قلت له : هل والداك على قيد الحياة . . ؟

قال : إنهما يعيشان فى مصر . . وعلى وجه التحديد فى المنصورة . . وأعتقد أن سبب ما أنا فيه من سعادة الآن هو رضاؤهما عنى . . !

قلت : هل أنت متزوج . . ؟

قال : لم يكن عندى من الوقت ما يسمح لى بالتفكير فى الزواج . . أو البحث عن عروس . . !

وسألته : ألا تنوى الزواج بعد أن استقرت بك الأمور وهدأ كل شىء فى حياتك ؟ . .

أجاب : ومن قال لك إن كل شىء هادئ فى حياتى . . إننى مشغول دائما بعملى وبضرورة المحافظة على هذا الصرح الكبير الذى شيدته من دموعى وعرقى . . ومتاعبى . . وآلامى . . ومواصلتى العمل بالليل والنهار . . ولو شعرت أننى يجب أن أستريح فسوف يكون هذا بداية للفشل . . !

ثم قال وهو يهز رأسه : لعلك تعرف جيداً أن الحياة فى أمريكا تحتاج إلى العمل المتسمر . . فالعمل لا يقتل الإنسان . . ولكن « الفراغ » هو القاتل . . !

وانصرفت أنا وهو ، وركبنا السيارة حيث ذهبنا فى جولة داخل مدينة « فيلادلفيا » ليطلعنى على بعض معالمها ثم قال وهو يحدثنى عن حياته فى المدينة التى

يعيش فيها :

إننى هنا أعتبر الرجل الثانى فى الولاية . . أو المدينة بعد المحافظ . . والعمدة . !

قلت : كيف . . ؟

قال : إن علاقاتى بالناس قوية جداً . . بالإضافة إلى أننى أفعل ما لم يفعله أى طبيب آخر فى الولاية . . أو أى مدينة أخرى . ؟

قلت : ماذا تفعل . . ؟

قال : إننى أخصص يوما فى الأسبوع لعلاج المرضى « بالمجان » . . وأعتقد أن هذا شىء يعتبر « نجرافيا » أو من المستحيلات فى أمريكا . . أو أى بلد آخر فى أوربا . . !

وسألته : ألا تنوى العودة إلى مصر . ؟

قال : إننى أذهب إلى وطنى للزيارة « فقط » كل فترة من الوقت . .

ثم قال وهو يهز رأسه فى حزن : إن الذى حز فى نفسى هو معاملة رجال الجمارك بمطار القاهرة الدولى لى عند نزولى إلى أرض المطار . . لقد قاموا بإخراج كل محتويات الشنط التى كنت أحملها معى لا لشىء إلا لمجرد أنهم شاهدوا معى باسبوراً أمريكيا . . وأنا مصرى . . بالله عليك هل هذه معاملة . . ؟ . !

وبعد أن قضيت معه يوماً كاملا تركته وعدت ثانية إلى مدينة نيويورك التى أعيش فيها . . وبعد أيام التقيت فى منزل أحد الأصدقاء – أثناء زيارتى له – بطبيب مصرى آخر يعيش فى مدينة نيويورك وأخذت أتحدث معه فى موضوعات عامة ثم رويت له قصة الطبيب المصرى الذى كنت فى زيارته بمدينة فيلادلفيا . . وابتسم الطبيب وقال لى :

إن لى قصة مطابقة تقريباً لقصة هذا الزميل :

قلت : هل هناك إحراج لك لو سألتك عنها . . أو رويتها لى . . ؟

قال : عندما تخرجت فى كلية طب قصر العينى وبدأت إجراءات توزيعى على أحد المستشفيات وجدت أنهم قد « حدفونى » إلى الصعيد برغم أننى كنت متقدما ومتفوقاً . . وبدأت أجرى اتصالات كبيرة وواسعة مع بعض المسئولين حتى تم نقلى من الصعيد إلى العمل فى إحدى الهيئات . . وظللت أعمل بها فترة وأنا أعانى الكثير من بعض الناس المحيطين بى . . وقد سعيت خلال فترة عملى إلى السفر وجاهدت حتى حصلت على الموافقة بسفرى . . وعندما وصلت إلى مدينة نيويورك صادفت نفس المتاعب والإشكالات التى عانى منها زميلنا الموجود فى فيلادلفيا . . وبعد أن حصلت على شهادة المعادلة من إحدى كليات الطب فى مدينة نيويورك عينت طبيباً فى أحد المستشفيات . . وبعد سنوات قليلة أصبح فى يدى من الأموال ما استطعت به أن أفتح عيادة . . ثم عيادة أخرى فى حى آخر . . والآن يا صديقى تم الاتفاق بينى وبين زميلين آخرين وهما طبيبان أمريكيان على شراء قطعة أرض فى أرقى مكان بمدينة نيويورك لإقامة مستشفى ضخم سيكون جاهزاً تماما بكل مبانيه ومعداته خلال عامين . . !

وسألته : هل أسرتك تقيم معك هنا . . ؟

قال : إن والدى توفى منذ فترة طويلة . . ووالدتى تقيم فى القاهرة . . وأذهب لزيارتها كل فترة . . وقد تزوجت منذ فترة قصيرة من فتاة مصرية . .

ثم قال : إن لى شقيقاً يعيش هنا فى مدينة نيويورك – وهو توأم لى – ويعمل طبيباً نفسيا . . وله عيادتان هو الآخر . . ! !

لقد امتدت بى السهرة عند صديقى ونحن نتحدث عن قصص النجاح لكثير

من المصريين والعرب الذين يعيشون فى أمريكا .. أو فى مدينة نيويورك .. ثم استأذنت فى النهاية لأعود إلى منزلى .

المعلم عبده .. !

بعد أيام من هذه السهرة التى قضيتها فى منزل صديق كنت أسير فى « شارع برودواى » وهو يعتبر من أهم وأكبر الشوارع بمدينة نيويورك .. ووقع نظرى على « لافتة » معلقة على باب المحل – وكان محلا لبيع الفاكهة – مكتوب عليها باللغة الإنجليزة « كليوباترا » .. واتجهت إلى المحل .. واقتربت من الأشياء المعروضة خارج المحل لكى يقع نظرى على صاحب المحل .. أو أحد العاملين فيه لأعرف من خلال وجوههم إذا كانوا مصريين أو عربا .. وفوجئت برجل قصير عمره حوالى ستين عاماً يتقدم منى ويقول لى باللغة العربية : حضرتك عربى .. ؟

وابتسمت وقلت له : أنا مصرى .. وأمسك بى وشدنى إلى داخل المحل . وفتح لى علبة كوكا كولا وهو يرحب بوجودى .. ثم سألنى عما إذا كنت موجوداً فى نيويورك ضمن المهاجرين . أو للزيارة ..

قلت له : إننى أقيم بمدينة نيويورك منذ سنوات .. ولم أترك له فرصة ليسألنى عن شىء قبل أن أعرف أنا قصة حياته .. أو شيئاً عن حياته .. خاصة وأننى قد لاحظت شيئاً أثناء وجوده بالمحل لفت نظرى .. هذا الشىء هو دخول رجل آخر إلى المحل وهو ينادى صاحبنا ويقول له : أخبارك إيه يا معلم عبده ! !

وانتظرت حتى انتهى الرجلان من الحديث وانصرف الضيف وكان يبدو من خلال حديثه أنه مصرى .. ثم سألت صاحب المحل :

إيه الحكاية « يا معلم عبده » . . !

قال : صلِّ على النبي .

قلت : اللهم صلِّ عليه . .

قال : أنا راجل أصلي « جاهل » لا أقرأ ولا أكتب . . ولكنني أتكلم اللغة الإنجليزية بس . . بحكم إقامتي الطويلة فى أمريكا . .

وسألته : كم من الزمن مضى عليك هنا فى الولايات المتحدة الأمريكية . . ؟

قال : لقد تركت مدينة الإسكندرية مسقط رأسي منذ أكثر من أربعين سنة على ظهر مركب كنت أعمل عليه حمالا . . وشاهدت كل دول العالم من خلال عملي على ظهر المركب . . ثم أردت أن أستريح من تعب الشغل على المراكب فكان نصيبي الإقامة فى مدينة نيويورك . . !

قلت : هل تعيش فى هذه المدينة منذ أربعين عاما . . ؟

قال : بالضبط . . وقبلها كام سنة كده « لفة » حول دول العالم . . !

قلت : ماذا اشتغلت فى بداية حياتك فى هذه المدينة . . ؟

قال : دخلت الجيش الأمريكي وحاربت مع القوات الأمريكية فى بعض دول آسيا . . ولما انتهت مدة تجنيدي حصلت على مكافأة من الجيش . . ثم اشتغلت فترة « طباخا » فى بعض المطاعم . . ثم فتحت أكثر من محل خضراوات وفاكهة ولكنني كنت أبيع هذه المحال عندما أجد أمامي مكسباً فى أى محل . . !

قلت : هل تنوى الاستمرار فى هذا المحل . . أو ستبيعه هو الآخر . . ؟

قال : عايز تشترى . . ؟ !

وضحكت من رد المعلم عبده « الفهلوى » وقلت له : مجرد سؤال . .

قال : بيني وبينك أنا تعبت جداً من الشغل . . خاصة وأنا أعمل بمفردى فى

هذا المحل وأريد العودة إلى مصر لأعيش بقية حياتى بجوار أولادى . . !

وسألته : هل أولادك يعيشون فى مصر أو معك هنا . . ؟

أجاب : إنهم يعيشون مع والدتهم بمدينة الإسكندرية . .

ثم قال وهو يمط شفتيه فى حزن :

هل تصدق أننى لم أذهب إلى مصر منذ أكثر من أربعين سنة . . ؟ ! !

وتعجبت وسألته فى ذهول . . كيف ؟ .

قال : برغم وجودى فى أمريكا طوال هذه السنوات إلا أننى لم أحصل على الجنسية الأمريكية وطبعا لو خرجت من أمريكا لن أعود إليها مرة أخرى لأن القانون يمنع عودتى . . لأننى لست مهاجراً . . !

قلت : وما هو سبب عدم حصولك على الجنسية الأمريكية حتى الآن . وكان فى إمكانك الحصول عليها بعد خمس سنوات من إقامتك فى أمريكا . . ؟

أجاب : لقد اتهمت فى قضية وحكم علىّ بالسجن خمس سنوات . . وبعد خروجى من السجن بدأت الكفاح من جديد . . ! !

قلت : وما هى التهمة التى سجنت بسببها خمس سنوات . . ؟

قال : التهرب من دفع الضرائب . . ! !

قلت : ولماذا لم تدفع ضرائب للدولة مادمت تكسب من وراء عملك .

قال : فيه ناس كتير قوى حرامية . . واشمعنى أنا يعنى اللى راح أدفع .

قلت : وهل ما زلت حتى الآن تعيش على هذا المبدأ . . ؟

قال : لا خلاص . . كفاية السجن مرة . .

ثم ابتسم وهو يقول لى : عموما السجن للجدعان . . وأنا برضه رغم جهلى بالقراءة والكتابة إلا أن كل الناس عارفة أننى . . المعلم عبده . . ! !

نماذج غريبة . . ؟ !

لقد عشت طوال السنوات التى قضيتها بالولايات المتحدة الأمريكية . . أو فى مدينة نيويورك التى كنت أقيم فيها أختلط بكل المصريين والعرب . . فقد كان عملى الصحفى الذى كنت أزاوله يحتم علىّ ذلك . بالإضافة إلى أن طبيعتى هو حب التعرف بالناس . . ولقد صادفنى خلال هذه السنوات نماذج غريبة جدا من المهاجرين الذين اختلطت بهم لأعرف حياتهم عن قرب . .

أذكر مرة عندما ذهبت إلى مدينة نيويورك حديثا بعد « هروبى من مصر » أننى كنت فى أشد الحاجة إلى بعض الأوراق الخاصة بى والموجودة بالقاهرة . . وقد أرسلت إلى صديق لى أن يبعث بها إلىّ ، وأرسل لى هذا الصديق أكثر من رسالة يقول فيها إنه بعث لى بهذه الأوراق مع أحد المهاجرين منذ شهرين أو أكثر . . وكنت أعيش حياة قلقة وغير مستقرة بسبب عدم وجود هذه الأوراق التى أحتاج

إليها لتسليمها إلى « المحامى » الذى سيتولى قضية حصولى على الإقامة الدائمة فى أمريكا . .

وبعد فترة من التعب النفسى والقلق على مستقبل وجودى فى الولايات المتحدة الأمريكية . تلقيت رسالة عن طريق البريد من مواطن مصرى يعيش فى مدينة تابعة لولاية نيويورك يقول فيها : إنه يحمل لى بعض الأوراق الخاصة بى سلمها إليه صديق لى بالقاهرة . . وأن هذه الأوراق موجودة معه منذ أكثر من شهرين . أى منذ وصل إلى أمريكا . . غير أن ظروفه لم تمكنه من الكتابة إلىّ . . ولهذا فهو يبعث إلىّ بهذا الخطاب ليتأكد من وجودى فى هذا العنوان حتى يستطيع أن يرسل لى الأوراق . . !

لم أتمالك نفسى من السعادة والفرحة لوصول الأوراق . . غير أن سعادتى تبددت قليلا عندما أخذت أبحث من خلال سطور الخطاب على رقم تليفون صاحب الرسالة حتى أتصل به وأطلب منه سرعة إرسال الأوراق . . لا شىء بالرسالة غير هذه الكلمات . . وعنوانه . .

إن اسم المدينة التى يعيش فيها هذا المواطن الأمريكى غريب . . بالإضافة إلى أننى لا أعرف الطريق إلى هذه المدينة . .

لقد التجأت إلى عدد من الأصدقاء الأمريكان لأعرف منهم أين تقع هذه المدينة فلم يعرف أحد منهم شيئا عنها . . أو يدلنى على الطريق إليها . .

وأخيراً : لجأت إلى قسم الشرطة . . ودخلت مكتب أحد الضباط وطلبت منه مساعدتى فى معرفة العنوان . .

أخرج الضابط من مكتبه « خريطة » وبحث فيها عن موقع هذه المدينة من ولاية نيويورك الشاسعة . . وأخيرا قال لى :

إنها قرية صغيرة تقع على مسافة تبعد عن مدينة نيويورك حوالى ساعتين بالسيارة برغم أنها تابعة للولاية – وتفضل الضابط مشكورا بالاتصال بإحدى شركات الأتوبيس التى تذهب سياراتها إلى هذه القرية وعرف من المسئول بالشركة مواعيد السيارات . .

بعد يومين بالضبط انتهزت فرصة عطلة نهاية الأسبوع وغادرت منزلى فى ساعة مبكرة من الصباح . واتجهت إلى مبنى سيارات الأتوبيس وسألت عن السيارة التى تذهب إلى هذه القرية وركبت . . وبعد ساعتين تقريبا كنت قد وصلت إلى هذه القرية أو هذه الضاحية الهادئة التى يطلقون عليها اسم « قرية » ونزلت من السيارة وأخذت أسأل عن عنوان السكن الذى يقيم فيه هذا المواطن المصرى حتى وصلت إلى منزله . .

كان المنزل الذى يقيم فيه قديماً . . والحى الذى يعيش فيه كله من الزنوج الأمريكان . . صعدت سلالم المنزل حتى وصلت إلى الشقة فى الطابق الثالث وقرعت الباب . . وفتح لى شاب عمره حوالى خمسة وعشرين عاما . . قلت له :

أنا فلان وأخبرته باسمى : وكانت مفاجأة له لم يتوقعها . . ورحب بى فى غرفته المتواضعة التى يقيم فيها مع صديق له مصرى أيضاً كان قد سبقه إلى أمريكا بعدة شهور . . غير أنه لم يكن موجوداً بالمنزل فى هذه اللحظة . .

قدم لى هذا الشاب « تفاحة » من طبق كان موجوداً على ترابيزة بجانبه وقال لى :

تفضل تفاح . . واعتذرت له عن تناول أى نوع من الأكل بين الوجبات . .

قال لى : (طيب أعمل لك شاى) . ؟

ووجدت أنه من الواجب أن أتناول شيئاً حتى لا يشعر بالحرج . . ورحبت

بتناول فنجان شاى . .

أحضر لى الشاب الأوراق الخاصة بى أولا . . ثم جلس معى يرحب بى . . وأخذت أتحدث معه وأستفسر منه عن ظروف حياته بالقاهرة . . ثم حياته الجديدة فى البلد الذى يعيش فيه . .

قال لى : أولا أنا عندى مشكلة معقدة حياتى . .

وسألته ما هى . . ؟

قال : عدم معرفتى باللغة الإنجليزية . !

قلت : طبعا معرفتك باللغة الإنجليزية « جيدا » سوف يأتى عن طريق الاختلاط . : وربما خوفك .والرهبة التى تتملكك عند الحديث هى التى تجعل بعض الكلمات تهرب منك . ؟

وهز رأسه وهو يبتسم فى سخرية من نفسه وقال : رهبة إيه يا بيه . . دا أنا ما أعرفش ولا كلمة إنجليزى . ! !

الحقيقة أننى دهشت . . بل ذهلت وأنا أستمع منه إلى مثل هذا الكلام . . وأخذت أستوضحه بعض المعلومات عن حياته فقال :

أنا أصلى من سكان حى « درب سعادة » بالقاهرة . . وسألنى : طبعا عارف درب سعادة الذى يقع خلف مديرية أمن القاهرة . . !

قلت : نعم . .

قال : أنا حاصل على بكالوريوس خدمة اجتماعية . . وعينت بعد تخرجى باحثا اجتماعياً بوزارة الصحة بالقاهرة . . وقد ضقت ذرعا عندما كنت بالقاهرة من حياتى التى كنت أعيش عليها سواء فى المنزل . . أو فى العمل « الشخط والنطر » من رؤسائى . . ورأيت أنها فرصة أن أهاجر إلى أمريكا . . فكتبت خطابا إلى صديق

الذى أعيش معه الآن أطلب منه أن يبعث لى بخطاب ضمان أتقدم به إلى السفارة الأمريكية ليكون عوناً لى فى الحصول على الموافقة بالهجرة . . وفعلا . . تم كل شىء . . وحصلت على موافقة السفارة بالهجرة . .

وسألته : كيف نجحت إذن فى البكالوريوس وأنت لا تعرف جملة أو كلمة واحدة فى اللغة الإنجليزية . ؟

أجاب وهو يضحك : البرشام يا بيه . . ويقصد بذلك الطريقة التى يستعملها أو يلجأ إليها بعض طلبة الجامعات فى كتابة بعض المواد أو الإجابات فى أوراق صغيرة يخفونها فى جيوبهم واللجوء إليها وقت الضرورة . . !

وسألته مرة أخرى : ماذا فعلت إذن فى امتحان السفارة الأمريكية بالقاهرة قبل حصولك على الموافقة بدخول الأراضى الأمريكية مهاجراً . . ؟

قال : الولية – يقصد السيدة – التى كانت تسألنى وهى أمريكية « زهقت » منى كلما سألتنى سؤالا لا أفهمه . . ولا أستطيع الإجابة عليه . . فكان هناك رجل آخر لاحظ ارتباكى . فتحدث معها باللغة الإنجليزية ثم وافقت على سفرى فى النهاية . . !

ثم قال لى وهو يضحك : أنا فهمت « بالحداقة » من كلام الراجل « للولية » إنه بيقول لها : هو بيعرف إنجليزى بس باين عليه خايف منك . ! ولذلك ضحكت الست ووافقت . . !

وكان لابد بعد علمى بأنه لا يعرف أى كلمة إنجليزية أن أسأله عن رحلته من القاهرة إلى أمريكا . . ماذا فعل بالطائرة . . ! وماذا كان شعوره وهو يركب الطائرة لأول مرة . ؟ ثم ماذا فعل فى كتابة الإقرار الذى يقدم إلى كل راكب طائرة قبل هبوطه إلى البلد الذى سينزل فيه لتقديمه إلى الجمرك . ؟

قال : الحقيقة أنني بعد أن ركبت الطائرة من القاهرة شعرت بفرحة شديدة فى البداية . وأحسست بيني وبين نفسي أنني أصبحت شيئاً كبيراً فى نظر أفراد أسرتى الذين كانوا فى وداعى بالمطار . . وكذلك بعض أقاربى وأبناء الحى الذى أقيم فيه لأنني مسافر إلى أمريكا . . لقد كان أقصى ما يمكن أن أتمناه هو أن أسافر للاصطياف فى الإسكندرية . . ولكن أن أذهب إلى أمريكا مرة واحدة فهذا شيء كان بالنسبة لى مثل « الحلم » .

عندما بدأت الطائرة تقلع من أرض مطار القاهرة وتأخذ طريقها فى الجو تولانى شعور آخر هو الإحساس بالرهبة والخوف من المستقبل . .

لقد عمق هذا الشعور فى نفسى وجود رجل أجنبي كان يجلس بجانبى فى مقعد الطائرة . . فقد نظر إلىّ الرجل وتحدث معى باللغة الإنجليزية بكلام لا أعرف معناه ولا ماذا يقول . . أو يريد . . ثم حزنت عندما سمعت عددا كبيرا من ركاب الطائرة يتحدثون مع بعضهم باللغة الإنجليزية أو بلغات أخرى لا أعرفها . . لم أكن أفكر أبدا فى مثل هذا الموقف . . أو فى اللغة الإنجليزية عندما عزمت على السفر أو الهجرة إلى أمريكا . . كل ما كنت أفكر فيه وأحلم به وأتمناه أن أترك مصر والحى الذى أعيش فيه والوظيفة التى أشغلها والتى أعانى من رؤسائى فيها كل العذاب وأذهب إلى أمريكا مثل أصدقائى وزملائى الذين سبقونى والذين بعثوا إلى برسائل يقولون فيها إنهم سعداء . . وأنهم يملكون سيارات ويعيشون فى بيوت مجهزة بكل شيء : الثلاجات . . والغسالات وأجهزة التكييف . . والتليفون فى الوقت الذى كان الواحد منهم لا يعيش يومه أو ليله إلا على الفول والطعمية . .

وسكت الشاب فترة سرح فيها مع أفكاره فقلت له : وبعدين . . !

قال : عندما شعرت بهذه الكآبة وأنا فى الطائرة من أن كل الناس يتحدثون

اللغة الإنجليزية وأنا لا أعرف شيئا كأنني أطرش فى زفة . . أو أعمى فى سينما . .
طلبت من « الله » أن تصاب الطائرة بعطب وهى فى الجو وتهوى إلى الأرض ويموت كل الركاب بما فيهم أنا . ! !

والحقيقة أننى شعرت بحزن شديد بعد أن سمعت مثل هذا الكلام من الشاب الذى كان يجلس أمامى وهو يروى هذه الحكاية . . أو مأساته ومأساة كل شاب يغادر أو يهاجر من وطنه إلى بلد لا يعرف لغة أهله . . ثم تمنياته أن يموت ركاب الطائرة ويموت معهم من أجل أنه لا يعرف اللغة الإنجليزية . . !

ومرة أخرى قلت له : هيه أكمل ثم ماذا حدث لك بعد ذلك . . ؟

قال : عندما وصلت بى اطائرة إلى مطار نيويورك – كانت متأخرة عن موعد وصولها بحوالى ساعتين – بحثت عن صديقى الذى كان من المفروض أن يكون فى انتظارى فلم أجده . . وشعرت بالكآبه مرة أخرى . وكأننى غريق فى بحر لا يجد من ينقذه ودارت رأسى وأحسست بحالة من الدوخان . أو التوهان ماذا أفعل . . وكيف أتفاهم مع الموظفين بالمطار . . وكيف أسألهم عن المطار الآخر الذى من المفروض أن اذهب إليه لأستقل منه طائرة أخرى إلى البلدة التى سأعيش فيها مع صديقى . . ؟

وهرش الشاب فى رأسه وهو يبتسم ثم قال : لم أجد أمامى شيئا يلفت إلىّ نظر الناس سوى « سير كبير من الجلد » يمشى بالكهرباء وعليه عدد كبير من شنط المسافرين بالمطار فقفزت إليه وقعدت . . ! !

والحقيقة أننى لم أتمالك نفسى من الضحك وهو يروى لى هذه الواقعة . . أو الفضيحة . .

وقلت له أستعجله أن يروى لى بقية هذه الحكاية . . هيه وبعدين . . !

قال . لقد تعالت صرخات وصياح عدد كبير من الناس الموجودين داخل المطار وأمسكوا بى وأنزلونى . وبدأ بعضهم يتحدث معى ... « بالتيلة » باللغة الإنجليزية . . وهنا أحسست أنى أختنق فبكيت وأنا أقول لهم : نو إنجليزى . . ! ! وبعدين . . !

قال : لقد أنقذ الموقف وجود ست – يقصد سيدة – مصرية كانت موجودة فى الطائرة التى كنت أركبها ويبدو أنها عرفت أننى مصرى فتقدمت منى وتحدثت معى باللغة العربية وسألتنى إيه الحكاية . . ؟

قلت لها : إنت نزلت لى من السما . . أنا عايز أروح البلد دى ، وأخرجت من جيبى عنوان صديقى فى البلد الذى يقيم فيه . .

وتطوعت « الست » وتحدثت مع الناس الموجودين بالمطار الذين قاموا بعد ذلك بترحيلى إلى مطار آخر محلى – بالأتوبيس – لأركب من هناك طائرة أخرى إلى هذا البلد الذى أعيش فيه . . !

قلت له : ماذا تشتغل الآن . . ؟

وكيف تتعامل مع الناس الذين تعمل معهم . . وهل هم أمريكان . . ؟

قال : أشتغل فى مطعم « أغسل الصحون » وقد عثرت على هذا العمل عن طريق صديقى الذى أعيش معه الآن . . أما تعاملى مع الناس الذين أشتغل لديهم فهم طبعاً أمريكان . . وعملى الذى أؤديه لا يحتاج إلى كلام . . أو لغة لأننى خلال الثمانى ساعات التى أشتغلها أظل « أغسل الصحون » وغيرها من الشوك والملاعق والأطباق ولا أتحدث مع أحد أو يتحدث معى أحد . . !

وسألته : وهل أنت مبسوط من هذه الحياة . . ؟

قال : « الناس الذين أعمل معهم مبسوطين منى جدا لأننى أشتغل زى الحمار

وكل واحد فيهم يقول لى : فرى جود محمد . . أقول له بالعربى . . طيب إيدك على . . "وأشير له بأصبعين إلى فمى . . يعنى هات سيجارة » . !

قلت للشاب ناصحاً : لماذا لا تذهب إلى مدرسة فى الليل وتتعلم اللغة الإنجليزية . . إن هذا واجب لابد لك أن تقوم به حتى تستطيع العيش والحياة فى بلد لا تعرف لغة أهله . . ؟

قال : مفيش وقت يا بيه . . إننى أخرج من عملى إلى عمل آخر مماثل له لأشتغل ثمانى ساعات أخرى . . يعنى ست عشرة ساعة أعملها فى اليوم . . ! !

قلت له مستغرباً : ولماذا هذا الإرهاق والتعب والزمن أمامك طويل يمكن أن تكسب فيه أكثر إذا تعلمت اللغة . . ؟

أجاب وهو يفتح يديه فى الهواء : الفلوس . . أنا عايز يبقى عندى فلوس زى زملائى وأصدقائى . . كل واحد منهم يمتلك سيارة . . وأنا مازلت ماشى على رجليه . . ! !

وسألته : هل أنت سعيد ومبسوط من الحياة التى تعيشها مع صديقك فى هذا المنزل . . ؟

أجاب : بينى وبينك بدأ يقرفنى فى عيشتى ويستغلنى . وأنا مستحمل علشان « الهباب » . . اللغة الإنجليزية . . ! !

وتركته وانصرفت عائداً إلى مدينة نيويورك . .

كارثة . . . أمام بنك . . !

ذات يوم كنت أسير فى أحد شوارع مدينة نيويورك فى طريق إلى مكتب البريد . . وفى أثناء سيرى شاهدت شاباً لا يتجاوز عمره العشرين عاماً يمشى وهو يبكى بحرارة . .

كانت ملامح هذا الشاب يبدو منها أنه مصرىّ أو عربىّ . . تقدمت منه وسألته باللغة العربية :

أأنت مصرى . . . ؟ وتنهد الشاب وكأنه عثر على كنز وقال : أشهد أن لا إله إلا الله . . حضرتك مصرى كمان . . ؟

قلت : أيوه . . وسألته عن حاله وسبب بكائه . . !

قال : لقد حضرت إلى مدينة نيويورك منذ أيام قليلة « مهاجراً » من مصر وتوجهت إلى منزل صديق لى — وهو الذى أرسل لى خطاب ضمان للسفارة — ففوجئت بأنه قد نقل إلى مدينة أخرى بعيدة . . ولكننى وجدت فى نفس الشقة التى كان يقيم فيها رجلاً آخر مصرياً عطف علىّ واستضافنى عنده . ولكنه الآن يطلب منى الخروج من المنزل وعدم المبيت عنده . والبحث عن مكان آخر أعيش فيه . .

قلت له : هذا شىء طبيعى . وأعتقد أنه قام بالواجب . . وماذا يغضبك فى ذلك . . ؟

قال : أنا لا أعرف شيئا فى هذه المدينة . . ولا أعرف أيضاً أى حرف من اللغة الإنجليزية . . ! !

وهنا أدركت أننى أمام مصيبة أخرى . ودارت فى نفسى تساؤلات . .

كيف يخرج مثل هؤلاء الشباب من بلادهم وهم لا يعرفون اللغة . . ؟

وكيف يجازفون بحياتهم ومستقبلهم إلى هذه الدرجة . . ؟

وهل البحث عن المال لا يكون إلا فى بلد مثل أمريكا . . ؟

وقلت للشاب تعال معى . . واصطحبته إلى « كافيتريا » قريبة وجلست معه وقلت له :

قل لى : ما هى قصتك . . ماذا كنت تشتغل فى مصر . . ؟

ولماذا حضرت إلى هنا . . ؟

قال الشاب : إننى من سكان حى الشرابية بالقاهرة . . واسمى أنور – ولا أذكر بقية اسمه – وكنت أشتغل فى مصر ميكانيكيًّا للسيارات . . ولقد أرسل صديق لى وجار لنا بالمنزل رسالة من نيويورك – بعد هجرته بشهور – يقول لى فيها : إنه مبسوط جدًّا ويكسب أموالا كثيرة . . وإنه فى إمكانى الحضور إليه وهو يتولى إيجاد عمل لى . . وأرسلت إليه الرد بالموافقة وبعث إلىَّ بخطاب ضمان إلى السفارة الأمريكية حيث حصلت على الموافقة على هجرتى وحضرت إلى هنا وفوجئت بأنه نقل إلى هذا البلد . . وناولنى ورقة تركها له صديقه مع الشخص الذى يقيم مكانه فى الشقة . . وقرأت فى الورقة أن هذا البلد هو مدينة « فلوريدا » وهى ولاية تبعد عن مدينة نيويورك بآلاف الأميال . .

وعرضت على الشاب أن أساعده فى البحث عن أى عمل يعيش منه . فرحب بذلك . وفعلا نهضت من مكانى وتوجهت إلى حيث يوجد تليفون بالكافيتريا ، واتصلت بصديق مصرىّ يمتلك مطعماً ، وتحدثت معه فى أمر هذا الشاب . وطلبت منه أن يعمل لديه بالمطعم فى غسيل الأطباق . .

وقال لى صديقى صاحب المطعم : هو دا معقول . . واحد شغلته ميكانيكى

عايز تخلّيه يغسل صحون . . . ؟ !

وسألته فى تعجب : وهل هناك ما يمنع من قيامه بهذا العمل . . ؟

أجاب : طبعاً . . إنت مش عارف إن كل شىء فى البلد دى – يقصد أمريكا – تخصّص . .

قلت له : نحن لسنا فى مجال التخصّصات . . وإنما فى كيفية مساعدة شاب من مصر فى حاجة إلى أن يعيش . .

قال : ومن الذى قال له أو دفعه إلى الحضور لأمريكا مادام لا يعرف اللغة الإنجليزية . . ؟

وقلت له فى حسم وجدية : لا داعى لتلقى علىّ محاضرة . . هل يمكنك مساعدته ليعيش . . أو لا . . ؟

قال : أرسله إلىّ . . ! وعدت إلى حيث كنت أجلس مع هذا الشاب وأخرجت ورقة وقلما وكتبت له عنوان صديقى صاحب المطعم وأعطيته له . .

وإذا به يقول لى : والنبى تكتب لى « بالإنجليزى » أركب إيه حتى يمكننى الوصول إليه . . ! وبعد أن انتهيت من كتابة ما طلبه منى نظر إلىّ وهو يبتسم ثم انفرجت شفتاه عن ضحكة وهو يقول لى : هل تعرف ماذا حدث لى اليوم قبل أن ألتقى بك . . ؟

قلت : ماذا حدث . . ؟

قال : أنا لا أعرف من اللغة الإنجليزية غير خمس أو ست كلمات سمعتها من الرجل الذى أعيش معه . . من بينها كلمة : Help me يعنى . . ساعدنى : وقد حدث أن وقفت منذ قليل أمام أحد البنوك ووجدت سيدة تخرج من البنك يبدو عليها أنها طيبة . فتقدمت منها أسألها أن تبحث لى عن عمل وقلت لها :

Help me وكان جوابها أن فتحت شنطة يدها وأخرجت منها « برتقالة أعطتها لى . . ! !

وأغرقت فى الضحك الممزوج بالأسى على بعض شباب مصر الذين يتركون بلادهم ويرحلون إلى بلاد أخرى لا يعرفون لغة أهلها . . ولا يعرفون أيضاً الطريق إلى مستقبلهم . . ثم سلمته ورقة أخرى – مع العنوان وفيها وصف بالمواصلات التى سوف يركبها حتى يصل إلى صديق صاحب المطعم . . ومع الأيام انشغلت عنه فترة لا أعرف مصيره أو ماذا فعلت به الأيام . . وذات ليلة وأنا جالس فى منزلى دار فى خاطرى أن أعرف مصير هذا الشاب . . فأمسكت بالتليفون واتصلت بصديق أسأله عنه فإذا به يقول لى : البقية فى حياتك . . الواد مات تحت عجلات أتوبيس . . !

هل تعرف الرقص . . ؟ !

معذرة إذا قلت لك : قبل أن تهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية يجب أن تتعلم الرقص . . !

هذا الكلام ليس معناه دعوة إلى الفجور . . أو الإباحية . . أو الضياع . . أو الانحلال . . أو اللهو وضياع الوقت الذى يجب أن تستثمره فى العمل وكسب الأموال .

لا . . إن « الرقص » فى رأيى يعتبر لغة أخرى يجب أن تتعلمها إلى جانب اللغة الكلامية وهى الإنجليزية . .

هذا إذا كنت رجلا متحضراً تريد أن تعايش المجتمع الجديد الذى تنوى الإقامة فيه بصفة دائمة . .

ثم إنك سوف تضطر مع الأيام فى أثناء إقامتك فى أى مدينة بالولايات المتحدة الأمريكية إلى أن تذهب مع أصدقائك من الأمريكيين إلى بعض أندية الرقص . . أو ربما تدعى إلى حضور بعض الحفلات التى يضطر فيها الحاضرون أو المدعوون إلى الرقص . . وتكتشف أنك « جاهل » أو لا تعرف كيف ترقص . .

وهنا سوف تجد نفسك تجلس بمفردك وحيداً والجميع يرقصون . . وربما يكون من بين الذين يرقصون . . صديقتك . . أو زوجتك الأمريكية مع أشخاص آخرين لست واحداً منهم . .

ثم إن « الرقص » بالإضافة إلى ذلك هو الطريق إلى حصولك على وظيفة ربما لا تحلم بها إذ ربما تجمعك الظروف ويلقى بك « الحظ » إلى مراقصة فتاة . . أو سيدة مرموقة فى المجتمع الأمريكى وتعجب لك فتقدمك إلى بعض الشخصيات التى تحتل مركزاً عالياً . . أو وظائف كبيرة ويسند إليك وظيفة لم تكن تحلم بها . .

ومن جهة أخرى قد تذهب إلى أحد « أندية الرقص » فى المدينة التى تعيش فيها وتتعرف إلى إحدى السيدات الثريات وترقص معها وتعجب بك و . . تتزوجك وتصبح مليونيراً كما حدث مع بعض الناس . .

وعلى العموم : هذا مجرد رأى . . أو نصيحة . . ولك أن تأخذ بها . . أو لا تعمل بها . .

وتسألنى . . ولماذا لم تفعل أنت مثل ذلك عندما كنت تعيش فى أمريكا . . ؟

والجواب هو : يا ريت كنت أعرف أرقص عندما كنت أعيش بمدينة نيويورك سنوات طوالا . .

لو كنت أعرف الرقص فى ذلك الوقت لما صدر هذا الكتاب . . وكنت تقرأ عنى فى الصحف والمجلات أنى تزوجت من المليونيرة الأمريكية . .

تجاربى فى أمريكا . . !

معذرة أيها القارئ العزيز إذا كتبت لك فصلا كاملا عن تجاربى التى عشتها فى أمريكا . . وفى مدينة نيويورك بالذات . . وهى المدينة الصاخبة . . المزعجة . . المخيفة . . الجميلة فى نفس الوقت . . والتى استقبلتنى فى بداية حياتى فيها بالبؤس والشقاء . . والدموع والآهات .

ثم ودعتنى بالابتسامة والفرح والإشراق . . على أمل أن أعود إليها مرة أخرى . .

إن الغرض من كتابة هذا الفصل . . أو هذه المذكرات . . أو الذكريات الخاصة عن حياتى هو : أن أضع أمامك بعض التجارب التى صادفتنى فى حياتى بالولايات المتحدة الأمريكية . . لعلك تأخذ منها عبرة وعظة فى مستقبل حياتك إذا سافرت إلى أمريكا بدون هجرة . . ! !

لقد تركت « وطنى العظيم مصر » بعد حرب عام ١٩٦٧ . . خرجت من مصر « هارباً » بدعوى العلاج واستكمال الدراسة . . وفى نيتى عدم العودة نهائيًا . .

لم يكن أحد يعرف ذلك سوى ثلاثة أشخاص فقط وهم من أعز أصدقائى . . ولقد كتبت إلى واحد منهم « سرًا » توكيلا رسميًا فى الشهر العقارى أن يتولى شئون شقتى بالقاهرة فى أثناء فترة غيابى . . .

ولقد قررت السفر إلى مدينة نيويورك وأعددت كل شىء خلال ثمان وأربعين ساعة . . ! !

لم أكن أعرف شيئاً عن مدينة نيويورك ولا لماذا اخترت هذه المدينة بالذات دون باقى المدن أو الولايات الأمريكية كلها . .

كان تفكيرى كله ينحصر فى كيفية الهرب من مصر بناء على نصيحة بعض الأصدقاء المقربين والذين كانوا يتولون فى ذلك الوقت مناصب هامة فى الدولة .

كنت فى هذه الفترة أتولى وظيفة سكرتير صحفى أحد الوزراء . . إلى جانب أننى كنت أعمل محررا بصحيفة الأخبار . .

ركبت الطائرة من مطار القاهرة فى طريقى إلى مدينة نيويورك . . كنت طوال الرحلة أفكر فى مصيرى المجهول هناك . . فأنا لا أعرف أحداً ولا أعتمد على شىء غير « الله » . .

كان تفكيرى كله ينحصر فى كيفية هروبى من مصر – بعد أن أشيع عنى فى جميع الأوساط والجهات أننى معاد للنظام . . وإطلاق « النكات السياسية » اللاذعة التى تسخر من السلطة ورئيس الدولة فى ذلك الوقت .

والآن أفلت من قبضة السلطات . . وبطش الاعتقال والتشريد والتعذيب . .

أصبح تفكيرى بعد ذلك يدور فى مستقبلى . .

ماذا سأفعل فى أمريكا . . ؟ وما هو مصيرى هناك . . ؟ وتلاحقت الأسئلة على أفكارى مثل طنين النحل وهو يحوم حول خليته . .

وعزمت على أن أترك كل هذه الأفكار التى تزدحم فى مخيلتى لتصاريف القدر . . « ولله » وبدأت أشغل نفسى بقراءة بعض الصحف والمجلات التى كانت موجودة بالطائرة . . ثم بالحديث مع جارى الذى كان يجلس بجانبى فى مقعد الطائرة . .

عندما هبطت الطائرة التى كنت أركبها فى مطار كنيدى الدولى بمدينة نيويورك . . بهرنى المطار بما فيه من فخامة وروعة ونظام . . وأخذت أتطلع إلى كل ما حولى ثم اتجهت إلى حيث توجد حقائبى وجمعتها ، ثم وقفت فى طابور الذين كانوا معى بالطائرة لفحص جوازات السفر أمام الموظف المسئول بالمطار . .

وجاء دورى وتقدمت من الموظف وسلمته جواز سفرى ونظر فيه . . ثم تطلع إلى حقائبى الكثيرة وقال لى باللهجة الأمريكية التى كنت أسمعها لأول مرة : انتظر هنا . . ! . وأشار إلى جانب من صالة المطار . . واتجهت إلى حيث طلب منى . . وبعد فترة دامت حوالى نصف الساعة كان قد انتهى فيها من فحص جوازات كل القادمين من السفر حضر إلىّ وقال لى وهو يفحص جواز سفرى :

لماذا جئت إلى هنا بتأشيرة دخول فقط دون عودة . . هل تنوى الإقامة هنا بصفة دائمة . . ؟

وقلت له بحسن نية : نعم . .

ابتسم بسخرية وردّ علىّ قائلا : هيه إن بلادكم مع الشيوعية . . ونحن لا نريد شيوعيين فى بلادنا . . ! !

قلت له : إنني لست شيوعيًّا . . بل أنا عدو للشيوعية . .

قال : عليك أن تعود إلى بلدك ثانية . . انتظر هنا : وتركني وانصرف إلى مكتب بالمطار يجلس فيه موظف يبدو عليه أنه مسئول كبير . . وتحدث معه ثم أحضره معه إلى حيث كنت أقف وأنا أرتعش من الخوف الذى استولى على كل كيانى خشية أن يعيدونى ثانية إلى مصر . ولا أعرف بعد ذلك ما هو مصيرى . ؟ !

اتجه المسئول الكبير نحوى وهو يسألنى : لماذا جئت إلى نيويورك . . ألا تعلم أن العلاقات بيننا وبينكم سيئة . . .؟

وماذا ستعمل هنا وأنت لست مهاجراً . ؟

وقبل أن أجيب عن أسئلته سمعت صوتاً ينادى عليَّ من خارج الدائرة الجمركية بالمطار . . وتطلعت إلى مصدر الصوت فرأيت صديقاً أمريكيًّا يقف فى انتظارى وكنت قد بعثت إليه ببرقية من القاهرة عن طريق شركة الطيران لموعد وصولى إلى مطار نيويورك . .

استأذن صديقى بعض المسئولين فى المطار ودخل إلى الدائرة الجمركية حيث كنت أقف مع موظفى إدارة الجوازات . . تقدم منهم وأبلغهم بشخصيته . ثم سألنى يستوضحنى ما أنا فيه من إشكالات . . فأبلغته بما حدث . . وأن الأمر قد وصل إلى درجة إعادتى ثانية إلى مصر . .

. أخرج صديقى الأمريكى بطاقة من جيبه وأطلع عليها المسئولين بإدارة جوازات المطار وقال لهم : إنه صحفى . . وإنه يرجو السماح لى بالخروج من دائرة المطار وسوف يتولى هو تسوية الموضوع أو الأزمة مع مدير إدارة الجوازات بالمدينة . . وتم اتصال تليفونى وخرجت من المطار بتأشيرة لمدة شهرين . . ! !

أخذ صديقى الأمريكى حقائبى ووضعها فى سيارته وانطلق بى إلى المدينة وقال

لى : أثناء الطريق : لقد استأجرت لك غرفة فى أحد بيوت الشباب حتى تدبر أمورك وتبحث عن عمل . . وأوصلنى إلى هناك وتركنى . .

كان لدىَّ أمل كبير فى أن يبحث لى هذا الصديق عن عمل - وقد حاول فعلا - ولكنه للأسف أخفق فى كل محاولاته . .

أولا : لأننى لست مهاجراً رسميًّا . . وليس من حق الاشتغال أو العمل فى أى شىء حسب القوانين الأمريكية .

ثانياً : كانت العلاقات بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية سيئة جدًّا . . وليس لمصر تمثيل دبلوماسى هناك . .

ثالثاً : كانت الفكرة لدى الأمريكيين أن مصر قد ارتمت فى أحضان الاتحاد السوفيتى وبذلك أصبح كل المصريين شيوعيين . . !

رابعاً : تخوف كل المسئولين الأمريكيين فى أى مؤسسة . . أو شركة . . أو جهات أخرى من تحمّل مسئولية تشغيل مصرى ليس معه بطاقة إقامة دائمة فى الولايات المتحدة الأمريكية . . ! !

أبلغنى صديقى الأمريكى بكل ذلك وهو يقدم لى أسفه الشديد لهذا الموقف الحرج . . والظروف الصعبة التى تحيط بى . .

ضاقت الدنيا فى عينى وأصبحت لا أستطيع تناول أى لون من الطعام أو الشراب . . بل إن التفكير فى مصيرى ومستقبلى قد بلغ بى درجة مواصلة الليل بالنهار ساهراً أبكى . .

ماذا أفعل . . ؟ هل أنتحر . . ؟ إن إيمانى « بالله » يمنعنى من التفكير فى الإقدام على الانتحار . .

إلى من ألجأ . . ؟ خرجت من غرفتى التى كنت أسكنها فى « بيت الشباب » -

وأنا أبكى – إلى الطريق . . وسرت بعض الوقت حتى وجدت « كافيتريا » فدخلت وجلست على أحد المقاعد بالصالة ومازالت دموعى تنهمر من عينى .

تقدم منى شاب كان يجلس إلى ترابيزة مجاورة لى وتحدث معى « باللغة العربية » قائلا لى : أأنت مصرى . . ؟

نظرت إليه وقلت له : نعم . .

قال : أنا لبنانى . . وزوجتى مصرية . . واسمى محمد . .

ثم سألنى مرة أخرى : لماذا تبكى . . ؟

قلت له : إننى فى كارثة . . ورويت له قصتى . . ابتسم الشاب وهو يضع يده على كتفى قائلا : ولا يهمك . . أنا راح أشغّلك بكره . . ! !

أخذ الشاب اللبنانى يتحدث معى عن ظروف خروجى من مصر . . وماذا كنت أشتغل . . ولما عرف كل الحقائق التى ذكرتها له قال لى : العمل هنا فى أمريكا مش عيب . . يعنى أقصد أن أى عمل يشغله الإنسان ليس فيه عيب . . العيب هو أن تمد يدك للناس . . أو تظل بدون عمل . . وليس فى أمريكا كلها إنسان بدون عمل . . ثم دفع حساب المشروب الذى تناولته وقال لى : هيا بنا . .

وسألته : إلى أين . . ؟

قال : إلى منزلى حيث أقدمك لشقيقى وهو يعمل « مديراً » لأحد الأندية الليلية فى نيويورك . .

جرسون لمدة أسبوع . . !

ركبت السيارة مع هذا الصديق اللبنانى وأخذ يتحدث معى طوال الطريق إلى منزله الذى استغرق حوالى ساعة ونصف الساعة . . ثم قال لى : معلهش . . نيويورك أصلها مدينة كبيرة والمسافات طويلة . . . !

وصلت بنا السيارة إلى منزل صديق اللبنانى ، وصعدت معه إلى شقته ، حيث قدمنى إلى شقيقه ، وجلسنا نتحدث عن مصر ولبنان . . وتبين لى من خلال الحديث أن شقيق صديق اللبنانى يسكن فى شقة مجاورة فى نفس العمارة ، وأنه متزوج هو الآخر ، ولكن زوجته فى لبنان تمضى إجازتها هناك عند أسرتها . .

سألنى الصديق اللبنانى الجديد . . هل أنت مستعد للعمل اليوم . . ؟

كان هذا السؤال « مفاجأة لى » فقد شعرت بسعادة كبيرة وأنا أستمع إلى كلمة «شغل» أو عمل بعد اليأس وحالة الكآبة التى شملتنى . .

قلت على الفور : نعم . .

قال : طيب . . أنا راح أقدمك لأصحاب الملهى الذى أعمل فيه على أنك كنت تشغل وظيفة « رئيس جرسونات » فى فندق . . . بمدينة القاهرة . .

وأحسست أننى وقعت فى مشكلة أخرى . . وأن الطريق إلى العمل قد أغلق فى وجهى مرة أخرى . . !

وسألته : كيف أقول إننى كنت « رئيس جرسونات » فى فندق كبير بالقاهرة . وأنا لا أعرف شيئاً على الإطلاق . . ولا أعرف كيف أمسك صينية قهوة . . !

ثم إننى كنت فى مصر أشتغل فى وظيفة . . . ؟

أجاب الصديق اللبنانى :

أولا : يجب أن تنسى تماماً ماذا كنت تعمل . . أو تشتغل فى مصر . .

ثانياً : أنت هنا فى أمريكا . . ولا يوجد فى هذا البلد شىء اسمه « عيب » زى بلادنا . .

ثالثاً : أنت الآن فى حاجة إلى أن تعيش وليس أمامك غير ذلك . .

قلت مستسلما طيب . . ولكن المشكلة كيف أمارس عملى فى الملهى وأنا لا أعرف شيئاً . . ؟

قال : سوف أقف بجانبك وأساعدك . . ! وبعد أن تناولت معها طعام الغداء طلب منى هذا الصديق اللبنانى أن أستعد لمرافقته إلى العمل . .

نزلت من المنزل وركبت معه السيارة وطوال الطريق إلى العمل الجديد . . أو « الملهى » وهو يحدثنى وأنا لا أفهم شيئا مما يقوله . . إن تفكيرى كله محصور فى هذا العمل الجديد الذى سوف أشغله . .

- هل يقبلنى أصحاب الملهى . . ؟
- كيف أقوم بالعمل الذى سوف يسند إلىّ . . ؟
- هل أصبحت وظيفتى من الآن « جرسونا » . ؟
- هل أوفق فى العمل الذى سوف يوكل إلىّ . . ؟
- هل ستحدث لى كارثة من وراء هذا العمل . . ؟

هل لو وفقت فى هذا العمل سأستمر فيه . . أم ستظهر مشاكل بعد ذلك . . ؟

ماذا لو عرف أصحاب الملهى أننى لا أحمل بطاقة إقامة دائمة — مثل كل المهاجرين — هل سأطرد من العمل . . أم سأستمر . . ؟

ماذا لو شاهدنى أحد رواد الملهى من المصريين وأنا أشتغل فى « ملهى

ليلى » . . ؟ هل يحدثنى . . أو يتجاهلنى . . أو يكتب إلى أصدقائه ومعارفه فى مصر أنه شاهدنى أشتغل فى ملهى . . ؟

دارت كل هذه الأسئلة فى ذهنى وأنا جالس فى السيارة بجوار صديقى اللبنانى . .

لم أشعر بالوقت . . أو المسافة . . أو ازدحام الطرقات بالسيارات . . أو مناظر العمارات الجميلة . . أو ناطحات السحاب الشاهقة . أو بالكلام الذى كان يقوله صديقى وأنا فى هذه الدوامة من التساؤلات . . والأفكار . .

وفجأة وقفت السيارة أمام « ملهى كبير » فى أحد الشوارع الكبيرة الضخمة فى مدينة نيويورك . .

قال لى صديقى : استعد لقد وصلنا . . !

وهنا شعرت أن قلبى بدأ يدق بسرعة وانهارت قواى . . ولم أستطع السير على قدمى . . !

وشعر صديقى أننى فى حالة ارتباك فقال لى يشجعنى : إياك أن ترتبك . . أو تخاف من شىء . . أنا مدير الملهى . . وأنا المسئول . . إن الأشخاص الذين سوف تقابلهم هم أصحاب الملهى فقط . . وليسوا مسئولين عن إدارة الملهى . .

والحقيقة أن هذا الكلام الذى سمعته قد شجعنى وأعاد إلىّ الثقة فى نفسى . وقوى من عزيمتى . وجعلنى أدخل معه إلى « الملهى » وأنا على شىء من الثقة . .

أخذنى صديقى اللبنانى من يدى وقدمنى إلى ثلاثة أشخاص كانوا يجلسون إلى مائدة فى وسط الملهى الذى كان خاليًا من الرواد حيث كان الوقت مبكراً عن موعد بداية العمل وقال لهم : أقدم لكم صديقى « المستر أحمد » وهو سيعمل معى ابتداء من الليلة « بدلا » من مساعدى الذى خرج منذ أيام . . !

وسألني أحدهم : أين اشتغلت من قبل . . ؟

قلت : كنت مساعداً لمدير فندق « ؟ » بمدينة القاهرة . . !

وذهلت عندما سمعت الثلاثة يقولون فى وقت واحد : أوه كويس . . !

وأخذ أحدهم يحدثني ويسألني بعض الأسئلة بلغة إنجليزية غريبة . . عرفت فيما بعد أنه « إيرانى الأصل » .

وبعد أن انتهى من الحديث معى قال لى : اذهب إلى صديقك لتعرف منه عملك الجديد . . وتوجهت إلى حيث كان يقف صديقى فى جانب من الملهى مع بعض الجرسونات ومد لى يده وقدمنى إليهم . . ثم قال لى وهو يناولنى « جاكت » لونه أحمر : خذ البس دى . . !

كانت هذه أول مفاجأة . . أو صدمة بالنسبة لى . . وارتديتها وكانت مضبوطة تماماً علىّ . . ثم قال لى : امسك هذا الدفتر . . كل ما يطلب منك من مأكولات اكتبه هنا . . وعلى الوجه الآخر أكتب كل ما يطلب منك من مشروبات . . ! !

أحسست بعد ذلك أننى وقعت فى ورطة . . أو كارثة . . وهمست فى أذنه قائلا : انت مش عارف أننى لا أعرف شيئا على الإطلاق . . ؟

صحبنى من يدى بعيداً إلى جانب آخر من صالة الملهى وقال لى وهو يشير إلى بعض الترابيزات : أنت مسئول عن الخدمة فى هذه الترابيزات الخمس . . !

وتركنى وانصرف . . ثم عاد إلىّ مرة أخرى بسرعة وهو يقول لى : لا تقف مكتوف اليدين . . لابد أن تظهر أمام أصحاب الملهى أنك تشتغل . . افعل أى شىء . . استعدل الكراسى . . أو المفارش . . أو الفوط والسكاكين والملاعق . . .

وبدأت أفعل كما طلب منى . . وبعد فترة بدأ رواد الملهى يحضرون . . وبدأت أنا أبدو أمامهم وأمام أصحاب الملهى أنى رجل خبير . . أو جرسون محترف أعرف

أصول العمل والمهنة . . وأشرت إلى هؤلاء الرواد أن يتفضلوا بالجلوس عندى ثم سألتهم عن عددهم فقال أحدهم : نحن أربعة أشخاص . . وأجلستهم . . ثم بدأ غيرهم . . وغيرهم حتى انشغلت الترابيزات التى فى عهدتى . . وبدأ الارتباك يبدو علىّ واضحاً . . !

اقتربت من أول ترابيزة لتلقى الطلبات . . وبدأ كل واحد من الجالسين يطلب ما يريد من مشروبات كحولية . .

قال أحدهم : أريد مانهاتن . .

قلت فى نفسى : إن أول القصيدة كفر . . كما يقولون . . لقد سمعت من قبل أن « مانهاتن » هو حى المال والتجارة والبنوك فى مدينة نيويورك . . فكيف يطلب هذا الرجل « مانهاتن » إنه لابد قد شرب من الويسكى قبل أن يحضر إلى الملهى ما جعله فى حالة شديدة من السكر . .

وتوجهت إلى صديقى اللبنانى وقلت له : هناك على إحدى الترابيزات رجل « مخمور » طلب منى أن أحضر له . . « مانهاتن » . . !

وابتسم صديقى وهو يقول لى : اكتب الطلب على الوجه الآخر من الدفتر الذى معك . . إن « مانهاتن » هو نوع من المشروبات . . وليس حى مانهاتن كما تعتقد . . ! !

ظللت طوال السهرة وأنا مثل المكوك أنتقل من ترابيزة إلى أخرى أتلقى طلبات الزبائن وأدونها فى الدفتر الذى معى . . وإذا استعصى علىّ شىء لجأت إلى صديقى اللبنانى . . وعند نهاية حساب كل ترابيزة ألجأ إليه مسرعاً طالباً منه مساعدتى ومعاونتى فى تدوين أو تسجيل ثمن كل طلب . . وكان هو بين الحين والآخر يمر علىّ ويسألنى عمّا إذا كنت فى حاجة إلى مساعدته فى شىء . .

استمر عملي في هذا الملهى لمدة أسبوع كامل : . كنت أبدأ عملي في الساعة السادسة مساء – وذلك استعدادا لإعداد كل شيء – وأنتهي منه في حوالى الساعة الرابعة صباحاً . . وبعد أسبوع توجهت إلى أحد أصحاب الملهى أطلب منه أجرى عن العمل . والمعروف أن الأجور والمرتبات تُصرف كل أسبوع . .

نظر إليَّ الرجل وقال لى : ليس لك أموال لدينا . . ! !

واستغربت الإجابة ولم أفهم ما هو المعنى أو المقصود من وراء ذلك . وسألته : لقد اشتغلت أسبوعا كاملا ولم أقبض مرتبي بعد . .

أجاب : هل لديك أوراق إقامة . . أو بطاقة عمل . . ؟

قلت : لا . . وأعتقد أنك تعرف ذلك من صديقى . .

قال : إن أمثالك من الذين لا يحملون بطاقة إقامة دائمة فى أمريكا . . وليس معهم بطاقة عمل يشتغلون مجاناً . . ويكفى ما يحصلون عليه من « بقشيش » خلال أعمالهم . . ! !

ثم أنهى كلامه قائلا : هل يعجبك أن تشتغل عندنا على هذا الأساس . . أو تتصرف . . أو أحضر لك البوليس . . . !

وأثارت كلمة « البوليس » فى نفسى الرعب لأن عملى أو اشتغالى فى أى مكان غير مشروع . . وإذا حدث واكتشف أمرى فسوف « أرحّل فوراً » خارج الولايات المتحدة الأمريكية . .

وانصرفت وأنا أبكى وألعن صديقى اللبنانى . . وأصحاب الملهى . . والرواد السكارى . . !

بائع بمحل بقالة . . !

خلال الفترة التى اشتغلت فيها « جرسوناً » فى هذا الملهى الليلى كنت قد اكتسبت كثيراً من المرونة فى حياتى . . وعرفت أيضاً الكثير من الشوارع والأحياء . . وتعودت على التنقل بين (القطارات) الموجودة تحت الأرض . . والمعلقة فى الهواء . . والأتوبيسات وشعرت بشىء من الجرأة والشجاعة عما كنت عليه يوم وصولى إلى مدينة نيويورك . .

لقد فكرت كثيراً بينى وبين نفسى عن مستقبلى وما يمكن أن أكون عليه . . إن العمل فى مهنة أو وظيفة دون المستوى – فى أمريكا – ليس عيباً . . ولكن العيب أن أعيش عالة على أى إنسان . . أو أظل عاطلا بلا عمل . . وأمام التساؤلات التى طرحتها على نفسى قررت أن أبحث عن عمل أعيش منه .

كنت قد سمعت من بعض الناس أن هناك « حيًّا عربيًّا » يقع فى بروكلين بمدينة نيويورك . . سألت عنه وعن الشارع الذى توجد فيه المحال العربية . . وفى اليوم التالى توجهت إلى هناك . . أخذت فى بداية وصولى إلى هذا الشارع معرفة نوعية هذه المحال وأصحابها . . ولا أعرف كيف تملكتنى الجرأة والشجاعة أن أدخل محلاً كبيراً للبقالة العربية وأسأل عن صاحب المحل . . فأشار لى أحد الواقفين إلى رجل كبير فى السن . . وقال لى : هذا هو . . .

وسألته : هل هو أمريكى . . أو عربى ؟

وأجاب : إنه أمريكى ولكن من أصل عربى . . وتقدمت من صاحب المحل وتحدثت معه باللغة الإنجليزية وقلت له : إننى مصرى وفى حاجة إلى عمل . . فهل

لديك مكان لى فى هذا المحل . . ؟

وسألنى الرجل : هل تعرف تبيع . . ؟

وأجبته : ممكن قوى . . كل شىء يأتى بالمران . . ومع الأيام . . !

وقال الرجل وهو يبتسم : نحن فى حاجة إلى شاب مثلك يعرف اللغة العربية . . لأن زبائننا كلهم من المصريين والعرب . . وهناك بعض الطلبات والأصناف التى يطلبها الزبائن لا نعرفها . . ثم إنك تستطيع التفاهم مع الزبائن بلغتك أحسن منى ومن شركائى الأمريكيين .

ثم سألنى : هل أنت مستعد للعمل ابتداء من باكر . . ؟

قلت : نعم . . ولكننى أحب أن أصارحك بشىء . .

قال : تفضل . .

قلت : إننى لست مهاجرا رسميًّا وليس معى بطاقة عمل . . وقد جئت إلى أمريكا هارباً من بلدى بسبب السياسة . . « فقط » أنا فى حاجة إلى العمل لأعيش . . !

وتركنى الرجل وذهب إلى شركائه فى المحل وتحدث معهم . . ثم حضر إلىّ كبيرهم وقال لى : يبدو عليك أنك إنسان طيب . . ماذا كنت تعمل فى مصر قبل حضورك إلى الولايات المتحدة . . !

قلت : كنت أشتغل بالصحافة . . !

قال : عموماً العمل فى أمريكا ليس عيباً . . مادمت تشتغل لتعيش . . عليك أن تحضر فى الصباح الباكر غداً . . ثم قال لى قبل أن أنصرف : طبعاً تريد أن تطمئن على الأجر الذى سوف تحصل عليه ؟ إننا سوف نقدر ذلك فى نهاية الأسبوع . . ولكن هناك شىء هام أرجو أن تعمل به ولا تنساه . :

وسألته : ما هو . . ؟

قال : عرفت من شريكى أنك لا تحمل بطاقة إقامة دائمة مثل بقية المهاجرين . . وليس معك أيضا بطاقة عمل . . إذن : إذا سألك أى موظف حضر إلى هنا للتفتيش من إدارة العمل . فقل له إنك تساعد فى المحل بدون أجر . حتى لا تطرد من أمريكا . . وحتى لا يقع علينا عقاب وغرامة . . أو أننا سوف نبعدك عن المحل « مؤقتاً » حتى يخرج وينصرف . . !

خرجتُ من هذا المحل فى طريق عودتى إلى غرفتى فى « بيت الشباب » وشهيتى مفتوحة للطعام . . شعرت أننى قد حققت نجاحاً كبيراً أستحق عليه أن أملأ معدتى بأحسن أنواع الأكل . . « مكافأة » لها على تحمل الجوع . . وأحسست أيضا أن جسدى وعينى فى حاجة إلى . . « مكافأ » مماثلة ، ومن الواجب أن يستريحا من المجهود الكبير الذى بذل فى التعب . . والبكاء . .

ذهبت أولا إلى أحد المطاعم وجلست إلى إحدى الترابيزات وطلبت ما أشتهى إليه من طعام . وأكلت ثم دفعت بقشيشاً . . وانصرفت إلى غرفتى فى بيت الشباب لأنام . .

وفى ساعة مبكرة من اليوم التالى ركبت القطار من إحدى المحطات الموجودة تحت الأرض وذهبت إلى عملى الجديد . وفوجئت أن صاحب المحل وشركاءه يكنسون وينظفون المحل بأنفسهم . . ! !

طلب منى أحدهم أن أخلع « الجاكيت » وأضعه على الشماعة . . وأن أرتدى بدلا منه « بالطو » أبيض . . وفعلت كما طلب . .

ثم قال لى : إن مهمتك أن تستقبل الزبائن وتحاول أن تبيع لهم . . وأخذنى من يدى واقترب من « ميزان » يعمل بالكهرباء وهو الذى يضع عليه مشتريات الزبائن

وأخذ يعلمنى طريقة الوزن . . والأسعار التى تبدو واضحة فى الميزان أيضاً . .

شعرت أن عملى فى هذا المحل سهل جدًّا . . بل إننى تمنيت أن أستمر فى هذا العمل فترة طويلة من الزمن أكسب من ورائه بعض الأموال التى تساعدنى فى حياتى القادمة . . والغامضة . .

بدأت الزبائن تتوافد على المحل واحداً بعد الآخر حتى أن المحل – برغم ضخامته – كان دائماً وباستمرار فى حالة شديدة من الزحام وتكدس الناس !

بعد عدة أيام من اشتغالى فى هذا المحل جاء يوم « السبت » وهو يوم العطلة الأسبوعية . . وتبين لى أن المحل يفتح أبوابه فى هذا اليوم . . بل إن يوم السبت يعتبر أهم يوم بالنسبة للمحل . حيث إن جميع الزبائن يذهبون إلى هذا المحل بالذات لشراء كل ما يلزمهم وما يحتاجون إليه من بقالة . . أو عطارة . . أو غيرهما من الأشياء المصرية . . والعربية . .

وهذا اليوم أيضاً – وهو يوم السبت – يكون الزحام على أشده فى المحل . .

وقفت كعادتى كل يوم أبيع للزبائن – المصريين . . والعرب – وأبذل كثيراً من النشاط غير المعتاد . .

وفجأة . . وجدت فى مواجهتى بعض الأصدقاء والزملاء من الذين كانوا يعملون بالصحافة فى القاهرة يدخلون المحل لشراء بعض الحاجيات . . ! !

دق قلبى بسرعة . . وشعرت بحرج كبير جداً لهذا الموقف . وأخذ كل منهم يسألنى سؤالاً :

أحدهم سألنى : كيف خرجت من مصر . . وكيف سمحوا لك بمغادرة القاهرة . . ؟

وآخر سألنى وكأنه لا يصدق وجودى أمامه . . ألست أنت فلان . . . ؟

وشعرت بحرج شديد وأنا أقف بينهم . . واستشعر ثالثهم بحالتى وارتباكى فقال : أرجو ألا تشعر بأى حرج من هذا العمل . . إننا جميعاً اشتغلنا فى بداية حياتنا هنا فى أعمال لا تتناسب معنا أبداً . . وكنا مثلك الآن . . المهم أن تكسب وتعيش . . وتشعر بحريتك فى هذا البلد . .

وخشيت أن أذكر لهم أننى حضرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية دون هجرة . . وأننى أعمل فى هذا المحل دون أن يكون معى بطاقة إقامة . . أو بطاقة عمل . .

المهم : سألت كلا منهم عن طلباته . . وماذا يريد . . ؟ وقمت بتجهيز طلبات كل واحد منهم مما يحتاج إليه من علب فول مدمس . . وحلاوة طحينية . . وجبن . . وزيتون . . وعدس . .

والذى أضحكنى وفى نفس الوقت أثار اشمئزازى أن أحدهم قال لى وأنا أضع حاجياته على الميزان . . «تبقى أتوصى شويه – إحنا بلديات» ! !

قبل أن أنصرف فى نهاية يوم السبت . . ناولنى صاحب المحل «مظروفاً» مغلقاً وقال لى : هذا أجرك عن الأسبوع الذى اشتغلته . . وفتحت المظروف بعد خروجى من المحل فوجدت بداخله مائة دولار . . !

ظللت أعمل فى هذا المحل ما يقرب من شهر حتى اكتشف أحد موظفى إدارة العمل فى نيويورك أننى لا أحمل بطاقة إقامة . . فطلب منى صاحب المحل أن أهرب فورا من المحل . . فخرجت مسرعاً وركبت القطار إلى غرفتى فى بيت الشباب . .

وفى اليوم التالى اتصلت تليفونياً بصاحب المحل فطلب منى أن أحضر لاستلام أجرى عن الأيام التى اشتغلتها . . وذهبت إليه فأعطانى أجرى مضافاً إليه مبلغ آخر . . مع تمنياته لى بالتوفيق . .

داخل ثلاجة . . بمحل فاكهة . . !

بعد خروجى من محل البقالة . . عاودنى الشعور باليأس . والإحساس بالمرارة من الحياة فى أمريكا . .

ولكن : ماذا أفعل . . ؟ ليست أمامى دولة أخرى ألجأ إليها . . إن أى دولة فى العالم سوف تغلق الطريق فى وجهى مادمت أدخلها عن غير الطريق الشرعى والرسمى وهو « الهجرة » . .

إن الدولة الوحيدة فى العالم التى ترحب بالمهاجرين من كل دول الكرة الأرضية هى الولايات المتحدة الأمريكية . . غير أننى لست مهاجراً حتى ترحب بى وتفتح لى ذراعيها . . وأجد الطريق مفتوحاً أمامى بسهولة للعمل مثل بقية المهاجرين . .

ماذا أفعل . . ؟ لقد قررت مرة أخرى أن أواصل الكفاح والبحث عن عمل وأن أطرد اليأس من حياتى . .

خرجت إلى الشوارع من جديد . . اختلطت ببعض المصريين والعرب أسأل بعضهم عن وسيلة للبحث عن عمل . .

كتب لى أحد المصريين عنوان محل لبيع الفاكهة والخضراوات يقع فى أهم شوارع مدينة نيويورك وبالقرب من مبنى « مجمع الأتوبيسات » التى يسافر منها الناس إلى جميع الولايات الأمريكية . . !

قال لى وهو يسلمنى العنوان : هذا المحل صاحبه رجل أمريكى . ولكنه من أصل إيطالى ، ويشتغل عنده شاب مصرى يعمل من الساعة السابعة مساء كل يوم حتى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى . . وهذا الشاب يبحث عن شخص آخر

يساعده ويتحمل عنه العمل والسهر بضعة أيام كل أسبوع . .

أخذت العنوان ، وتوجهت إلى إحدى دور السينما لمشاهدة فيلم ، ولتضييع الوقت حتى تحين الساعة السابعة مساء . وهو الموعد الذى يتسلم فيه هذا الشاب المصرى عمله فى محل الفاكهة . . وبعد أن انتهى عرض الفيلم خرجت من السينما وسرت على قدمى فترة طويلة حتى وصلت إلى محل الفاكهة . .

نظرت إلى المحل من بعيد فوجدته كبيراً جداً . . وفى خارج المحل توجد كميات هائلة وضخمة من الفاكهة والخضراوات بعضها وضع فى علب من الكرتون ، وبعضها الآخر مرصوص على منصة كبيرة . . وقد شغلت كل هذه الكميات من الفاكهة والخضراوات جزءاً كبيراً من الرصيف . .

لقد عرفت من خلال كل هذه البضائع المطروحة على جانب من الرصيف لماذا يظل المحل مفتوحاً طوال الأربع والعشرين ساعة . .

إن صاحب المحل لو أراد أن يدخل كل هذه الكميات الهائلة من الفاكهة والخضراوات إلى داخل المحل كل يوم بعد انتهاء العمل فى النهار فسوف يحتاج ذلك إلى عدة ساعات . . ونفس الوقت سوف يستغرقه فى الصباح أيضاً إذا أراد إخراجها من داخل المحل . . ولهذا فهو يترك محله مفتوحاً طوال الليل ، فهذا أوفر له من ناحية الوقت وأجر بعض العمال الذين يتولون نقل كل هذه البضائع . .

تركت الرصيف الذى كنت أسير عليه واخترقت الشارع إلى الجانب الآخر حيث يوجد محل الفاكهة ، وتقدمت من الشاب المصرى الذى كان يقف داخل المحل مفتوناً بطول قامته وجسمه الممتلئ . . وقلت له باللغة العربية : مساء الخير

رد على قائلا : أهلا . . مساء الفل . . أنت مصرى . . ؟

قلت : نعم . .

رحب بوجودى ثم قال لى : أى خدمات تحت أمرك . .

قلت أبلغنى أحد المصريين أنك فى حاجة إلى شخص يتحمل عنك متاعب السهر بضعة أيام فى الأسبوع . . فهل هذا صحيح . . ؟

قال : نعم هذا صحيح . . أين هو . . ؟

قلت : أنا . .

قال :

أهلا وسهلا . . . وقبل أن يسترسل فى الحديث قلت له : هناك مشكلة يجب أن تعرفها أولا . .

قال : ما هى . . ؟

قلت : إننى لست مهاجراً . . وليس معى بطاقة إقامة . . أو بطاقة عمل . . ثم شرحت له ظروفى كلها . .

ابتسم الشاب المصرى وقال لى : ولا يهمك . . أنا كنت زيك برضه كده . . لقد حضرت إلى أمريكا على ظهر مركب كنت أعمل عليه ثم قررت البقاء فى مدينة نيويورك . . ثم أخذت « ألطش » فى كل محل شوية لمدة ثلاث سنوات ، وأخيراً وجدت أن أحسن طريقة أو حلٍّ للخروج من هذه المشكلة هى أن أتزوج من أمريكية . . وقد تزوجت فعلا من فتاة كنت أعرفها . .

ثم قال لى : طيب لماذا لا تتزوج من أى واحدة أمريكية وتخرج من الأزمة التى أنت فيها . . ؟

قلت له : لا . . إن لدى فكرة عن المرأة الأمريكية أنها صعبة . . ومتسلّطة . . وشخصيتها قوية على زوجها . . ثم إن لديها من الحرية ما يجعلها تتصرف دون رأى زوجها . . وأشياء أخرى كثيرة سمعتها . .

قال : كلامك صحيح . . وأنا شخصياً غير مستريح مع زوجتى وتعبان جداً فى حياتى معها ، ولكننى متحمل كل هذا من أجل أن أحصل على الإقامة لأننى تزوجتها منذ شهور قليلة ولم تنته بعد الإجراءات الخاصة بالموافقة على الإقامة الدائمة فى أمريكا . .

ثم أخذ يسترسل فى الحديث عن حياته لمدة ثلاث ساعات كاملة باستثناء بعض الوقت كان يتركنى فيه للبيع لبعض الزبائن . .

كنت كلما استأذنه فى الانصراف يقول لى : انتظر أنت وراك إيه . . أنت لازم تقف معايا طوال الليل علشان تتعلم إزاى تبيع برغم أن العملية دى سهلة جداً زى ما أنت شايف . . كل حاجة تضعها على الميزان ثم تعرف من الميزان الثمن . . أما المعلبات وبعض الأشياء الأخرى التى لا تحتاج إلى ميزان فالثمن مكتوب عليها . . كل ما تحتاج إليه هو أنك تأخذ بالك من « اللصوص . . والحرامية » لأن البلد دى مليانة . . ! !

الحقيقة أنه كانت لدىّ فكرة عن مدينة نيويورك بأنها مدينة مروّعة والناس فيها يناموں من بعد غروب الشمس خشية السرقة والسطو والتهجم عليهم فى الطرقات وضربهم بالمدى أو السكاكين ، أو غيرها من الأسلحة . .

كل ما سمعته لم يؤثر فىّ ولم يكن يخيفنى أبداً إلى جانب الرعب الذى كنت فيه وقلقى على مستقبلى . .

قالى لى « سمير » وهذا هو اسم الشاب المصرى ابن الإسكندرية الذى يعمل فى محل الفاكهة : أنا عايزك تيجى بكره بدرى شويه عن الساعة السابعة مساءً حتى أقدّمك لصاحب المحل وسوف أكون موجوداً هنا من الساعة السادسة من أجلك . .

ثم قالى لى : صاحب المحل راجل أمريكى ولكنه من أصل إيطالى . . وهو راجل طيب جداً . . وعايز أقول لك حاجة كمان . .

قلت : ما هى . . ؟

قال : سوف تتحمل عنى العمل ثلاثة أيام فى الأسبوع وهى الأيام «الميتة» ! !

قلت : لا أفهم معنى «الميّتة» . .

قال : دائماً حالة العمل فى أمريكا كلها أيام الاثنين . . والثلاء . . والأربعاء – تكون ضعيفة وأعتقد أن هذا يناسبك وأحسن لك حتى تتعود على تردد الزبائن . . والبيع لهم بهدوء ولا ترتبك فى أيام الزحام . .

قلت : وهو كذلك ثم انصرفت وأنا مرتاح نفسياً وركبت القطار من محطة قريبة من المحل وذهبت إلى بيتى وأنا أدعو «الله» طوال الطريق أن يوفقنى فى هذا العمل . ولايكون هناك أى اعتراض أو مشكلة تحول دون تسلمى هذا العمل . .

صحوت من نومى فى اليوم التالى وأنا أدعو «الله» أن يستر طريقى وأن يكتب لى البقاء فى أمريكا . . وأن أحصل على الإقامة الدائمة حتى تهدأ نفسى وتستقر حياتى . .

مرة أخرى ذهبت إلى محل الفاكهة فى الموعد الذى حدده لى سمير . . فوجدته يقف مع رجل أنيق يرتدى ملابس فاخرة . ويبدو عليه من مظهره أنه «سيناتور» أمريكى . .

عندما شاهدنى «سمير» قال لى باللغة الإنجليزية : تعال . . ثم قدمنى إلى هذا الرجل الذى تبين لى أنه صاحب المحل . .

سألنى صاحب المحل عن اسمى ثم أخذ يتحدث معى عن أحوالى وظروفى . .

وقال لى : أرجو أن تقف مع سمير فى المحل هذه الليلة حتى تتعلم استعداداً للعمل «غداً» وسوف أعطيك أجر هذه الليلة . .

ثم قال لى الرجل : لقد حدثنى سمير عن ظروفك . . وإذا ثبت لى أنك إنسان كويس فسوف أتولى جميع أمورك ولا تخش شيئاً . . !

الحقيقة أننى لا أعرف لماذا قال لى هذا الرجل مثل هذا الكلام . . وما هو الهدف من ورائه . . وما هى مصلحته فى حمايتى . . هذا الكلام شغل تفكيرى ، ولكنه فى نفس الوقت أعطانى شيئاً من الثقة فى نفسى ، والطمأنينة على مستقبلى . .

وانصرف «هنرى» وهذا هو اسم صاحب المحل . وهو يحيينى وتركنى مع «سمير» .

بدأت من هذه الليلة أتمرن على العمل . . وكان أول شىء فعلته هو أن طلب منى «سمير» أن أخلع الجاكتة وأظل بالبنطلون والقميص ، لأن المحل «مكيف» والجو جميل ، وحتى لا تعوقنى «الجاكتة» عن الحركة فى المحل . . ويدأ سمير يطلب منى أن أبيع للزبائن ، وجلس هو على كرسى يشاهد برامج التليفزيون من خلال جهاز موجود بالمحل . . وظللت أواصل العمل حتى الساعة السابعة صباحاً ، ووصل صاحب المحل وسألنى عن حالتى . . وحالة الشغل . واطمأن أن كل شىء على مايرام . .

بعد ثلاثة أسابيع من عملى فى المحل طلب منى «هنرى» أن أعمل بمفردى طوال أيام الأسبوع بدلا من سمير لأنه ترك المحل . .

سألته عن سبب خروج سمير وتركه العمل . .

قال : إنه سيسافر مع زوجته إلى ولاية أخرى للعمل هناك . .

ثم سألني هنرى مرة أخرى : هل تستطيع العمل بمفردك . . ؟

قلت : نعم . .

قال : سوف أمنحك عشرة دولارات أخرى فوق الثلاثين دولاراً وهو أجرك اليومى . . ! !

وقف معى «هنرى» لمدة بضع ساعات داخل المحل ليقف على طريقة معاملتى للزبائن . . وكيف أبيع لهم . . وكيف أتصرف . .

وقبل أن ينصرف قال لى : اسمع يا «ياشى» سوف تستمر معى فى هذا المحل على طول ، ولا تخش أى شىء . . إننى معجب جداً بطريقة تعاملك مع الزبائن . .

قلت له : لقد قلت لى الآن كلمة لا أعرفها . . ولا أفهم معناها . . ما معنى كلمة «ياشى»

قال : إنها تعنى «العفريت» بلغة المافيا . . ! !

وهنا أدركت خطورة هذا الرجل . . والسر وراء قوته ومظهره . . وقوله لى : لا تخش أى شىء . . والحقيقة أن المخاوف بدأت تراودنى من جديد على حياتى ومستقبلى والعمل مع رجل يبدو عليه أنه من كبار رجال «المافيا» فى أمريكا . . وهذه العصابة منتشرة فى جميع مدن الولايات المتحدة الأمريكية ولها نفوذ قوى لدى كل الدوائر فى أمريكا . . حتى البوليس ، والقضاء . . والنيابة . . وأعضاء الكونجرس . . !

لقد قرأت فى الصحف أن كل من يعمل فى هذه العصابة يكون تحت رقابة شديدة جداً . ، وإذا حاول الخروج منها . . أو التمرد عليها كان مصيره القتل . . !

ثم قلت فى نفسي : إننى لست واحداً من العصابة . . ولست مشتركاً فيها .

لأن كل الذين يعملون فيها لا بد أن يكونوا من أصل إيطاليّ . . وأنا لست إيطالياً . . ثم إنني أشتغل . . بائعاً فى محل ، وليس لى أى دور أو نشاط . . أو أكلف بشيء . . واقتنعت . . أو أقنعت نفسى بأننى لست إلا بائعاً مثل سمير أو غيره من الأشخاص الذين يعملون فى هذا المحل فى فترة النهار وعددهم حوالى خمسة عشر شخصاً جميعهم من الإسبان . .

أنا . . . ورجال الشرطة . . !

ظللت أعمل فى محل الفاكهة حوالى عامين دون أن يقترب منى أى إنسان . . وكنت فى منتهى السعادة لأننى كنت أعمل بمفردى وليس لى رئيس عمل « يشخط أو ينطر » أو يطلب منى إنجاز بعض الأعمال أو إرهاقى بالعمل الكثير مثل كل رئيس عمل فى أمريكا . . !

ولكن الذى كان يخيفنى دائماً هو دخول أحد من رجال الشرطة إلى المحل . . فقد كان كل ضابط أو شرطى يدخل المحل لشراء أى شيء أشعر برجفة شديدة ، وخوف من أن يسألنى عن بطاقة الإقامة . .

ولذلك : أردت أن أحمى نفسى من هذا الخوف فكنت أرفض دائماً أن آخذ ثمن أى سلعة يشتريها كل رجال الشرطة . . والذى أدهشنى أن واحداً منهم لم يعترض على ذلك . . أو يصر على الدفع مثلاً بل إن الأمر قد وصل إلى درجة أن عدداً كبيراً منهم كانوا يترددون على المحل كل مساء ، ويدخل كل واحد منهم ويتجه على الفور إلى حيث توجد شنط الورق الكبيرة ، ويأخذ « شنطة » يفتحها ثم يمسكها فى يده وهو يطوى أرجاء المحل ويملأ الشنطة بكل ما يشتهى ويريد من

فاكهة وخضراوات وفى النهاية ينصرف وهو يقول لى : شكراً يا صديق . . !

لقد أبلغت صاحب المحل بكل ما يحدث من تصرفات رجال الشرطة – كل ليلة – حتى يستريح ضميرى فإذا به يقول لى : لا تعطهم شيئاً . . !

قلت له : إننى فى حاجة إلى حمايتهم لى لأن الشارع الذى يقع فيه المحل برغم أنه من أهم وأكبر شوارع مدينة نيويورك – وهو شارع ٣٢ مع ٤٢ – إلا أنه بعد منتصف الليل يزدحم بالسكارى و «المساطيل» ومدمنى المخدرات . . ونساء الليل . . والمجرمين . . . ورجال الشرطة وحدهم هم القادرون على حمايتى . .

وابتسم «هنرى» وضحك كثيراً وهو يضع يده على رأسى قائلا : «برافو» عليك يا شى . . . يعنى يا عفريت . . . !

ذات ليلة وأنا أقف بالمحل أباشر عملى فى عملية بيع الفاكهة والخضراوات للزبائن شاهدت عدداً من السيارات الفاخرة تقف كل منها وراء الأخرى على جانب من الرصيف الملاصق للمحل . نزل من كانوا يقودون السيارت واتجهوا إلىّ ودخلوا إلى المحل . . كان هؤلاء الناس – وعددهم خمسة – يرتدون بدلا فاخرة ومظهرهم يدل على أنهم يحتلون مراكز كبيرة أو يشبهون فيما يبدو أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى . . نظروا جميعاً إلىّ وهم يوجّهون إلىّ التحية . . كنت فى ذلك الوقت أبيع لأحد الزبائن . . وبعد أن انتهيت من عملية البيع وانصرف الزبون تقدم واحد من هؤلاء الرجال الخمسة وهو يبتسم وقال لى : هل لديك «مانجو»

قلت : نعم . . هذه هى وأشرت إليه بيدى إلى حيث كانت توجد «المانجو» فى مكانها من المحل . . صاح الرجل بأعلى صوته وقال : أوه . . إن حبات المانجو فى هذا المحل كبيرة جداً ثم أمسك بواحدة منها وسألنى عن سعرها . .

قلت له : إن ثمن الواحدة منها ثلاثة دولارات . . ! فصاح مرة أخرى وهو يهز

رأسه موافقاً . . ثم أمسك بحبات المانجو وأخذ يناول زملاءه كلا منهم واحدة . . ثم عاد يسألني : هل لديك «سكين» . . ؟

قلت : لماذا . . ؟

قال : إننا سوف نأكل هذه الحبات هنا فى المحل . . ثم نأخذ بعد ذلك ما نريده منها معنا . .

كنت أعرف أنه ممنوع على أى بائع فى أى محل أن يعطى «الزبون» سكيناً أو أى نوع من الأسلحة حتى لا يستعملها ضده أو يهدده بها ، ثم يقوم بسرقة ما يريده من المحل تحت تهديد السلاح . .

ولكن نظرتى إلى هؤلاء الرجال الخمسة جعلتنى أطمئن إليهم من خلال مظهرهم . . . وعلى الفور أخرجت لهم «سكيناً» كنت أخفيها بالقرب من المكان الذى أقف فيه وناولتها لأحدهم وقام كل واحد منهم بعملية قطع «حبّة» المانجو التى فى يده . . . ثم سألنى أحدهم أيضاً عما إذا كان لدىَّ بعض «الملح الأبيض» وناولتهم زجاجة الملح فأخذوا جميعاً يضعون الملح على المانجو ويأكلونه كما هى عادة الأمريكان حيث يضعون الملح على كل ما هو «حلو» مثل البطيخ «ويضعون السكر» على الأطعمة والمخللات . . ! ! !

بعد أن انتهى الرجال الخمسة من التهام حبات المانجو طلب كل منهم عشر حبّات أخرى ، وضعتها لهم فى أكياس من الورق . . وانصرف الواحد بعد الآخر وبقى معى الرجل الخامس يتحدث معى . .

وفجأة قال لى وهو يبتسم : معذرة يا صديقى فقد نسيت أن أدفع لك حساب المانجو التى أخذتها أنا وزملائى . . كم تريد . . ؟

قلت : ثلثمائة وخمسة عشر دولاراً . .

قال : هل تقبل شيكاً بالمبلغ . . ؟

قلت : لا بأس . . فقد جرى العرف على ذلك فى كل مكان بالولايات المتحدة الأمريكية . .

قال : إذن . . أستأذن منك فى دقيقة واحدة لأحضر دفتر الشيكات من سيارتى . . وخرج من باب المحل واتجه إلى سيارته . . وفى لمح البصر كان الرجال الخمسة قد ركبوا سياراتهم وأسرعوا هاربين . . ! !

أدخلنى اللصوص الثلاجة . . !

كانت الساعة تقترب من الثانية صباح أحد الأيام وأناأجلس على كرسى داخل محل الفاكهة وأمامى جهاز التليفزيون أشاهد من خلاله «فيلما مخيفاً» من الأفلام التى تعرضها إحدى محطات التليفزيون بعد منتصف الليل . . فوجئت بثلاثة من الشبان الصغار يبلغ عمر كل واحد منهم نحو ثمانية عشر عاماً . . وقف أحدهم خارج المحل . . ودلف الآخران إلى داخل المحل . . اقترب أحدهم منى وأخرج «مسدسا» من جيبه وأمرنى أن أفتح ماكينة الفلوس التى أستعملها فى حساب البضائع والمشتريات التى أبيعها للزبائن . . لم أقاوم . . ولم أحاول المراوغة فقد جرت العادة – كما سمعت من الكثيرين وقرأت فى الصحف – أن يستسلم أى إنسان إلى اللصوص ويعطيهم ما يريدون . فحياة الإنسان هناك أغلى من الأموال . . ثم إن جميع المحال . . أو المؤسسات . . أو البنوك . . أو الشركات مؤمن عليها ضد السرقات وغيرها . .

وجرت العادة أيضاً فى جميع أنحاء المدن بالولايات المتحدة الأمريكية أن يخفى

«الصراف» أو من يقف على خزينةٍ كل الأموال التى لديه أولا بأول ولا يترك شيئاً فى الخزينة إلا بضعة دولارات يصرف بها أموره وذلك خشية سطو اللصوص عليهم . .

نظر «اللص» الذى شهر مسدسه فى جانبى إلى درج ماكينة الأموال وأخذ ما فيها من دولارات وكان المبلغ حوالى ثلاثين دولاراً – وكنت قد أخفيت «كالعادة» كل الأموال تحت بعض صناديق الفاكهة –

قال لى اللص : أين بقية الأموال . . ؟

قلت : أخذها صاحب المحل . . فقد مرّ علىّ منذ قليل وتسلمها . . ثم رفع الدرج الموجود داخل الماكينة ليتأكد من وجود دولارات أخرى تحته فلم يجد شيئاً . . والغريب أنه فى هذه اللحظة دخل إلى المحل سائق تاكسى ليشترى بعض الحاجيات . . فأخفى «اللص» المسدس فى جيبه ووقف بجانبى . . وقمت أنا بكل هدوء بعملية البيع للسائق وأخذت منه الحساب – الذى استولى عليه اللص بعد ذلك – ثم انصرف السائق دون أن يشعر أو يحس . . أو يتنبّه إلى وجود هؤلاء اللصوص . . وأعتقد أننى لو قمت بأى حركة ضد اللصوص محتمياً فى السائق لكان مصيرى القتل برصاصة من المسدس ومعى السائق أيضاً . . وهذا ما أكده لى بعد ذلك كل من عرف هذه الحكاية . . !

المهم : أن اللص بعد أن استولى على الدولارات الموجودة فى الماكينة طلب منى . . أو بمعنى آخر «أمرنى» بالدخول إلى داخل المحل وسار خلفى . . ثم تقدم اللص الآخر وفتح باب «ثلاجة كبيرة جداً» فى حجم غرفة أى منزل وهى التى يحتفظ فيها بالخضراوات طازجة للمحل . ثم أغلق علىّ باب الثلاجة من الخارج . . !

ظللت داخل الثلاجة حوالى عشرين دقيقة حتّى تجمد الدم فى عروقى وكدت أموت . . ولقد حاولت خلال هذه الفترة أن أضرب الباب بيدى حتّى يسمعنى أحد دون جدوى . . إن باب الثلاجة مصنوع من الخشب وهو سميك جداً . . وحاولت الصياح أيضاً فلم يسمعنى أحد . .

وفجأة . . . انفتح باب الثلاجة ووجدت فى مواجهتى بعض رجال الشرطة . . خرجت من الثلاجة وأنا أرتعد من شدة البرودة . . فقد مرت علىّ بداخلها ثلاثون دقيقة فقدت فيها كل أمل فى النجاة . . أو الحياة . . جلست فترة داخل المحل حتّى تهدأ أعصابى ويعود الدم إلى عروقى . . ثم طلب منى رجال الشرطة أن أذهب معهم إلى القسم للتعرف على صور اللصوص . . !

قبل أن أذهب مع رجال الشرطة إلى القسم سألت أحدهم : من الذى أبلغكم بالحادث . . ؟

وقبل أن يجيب رجل البوليس عن سؤالى دخلت سيدة إلى المحل وقالت لى : لقد شاهدت اللصوص فى آخر لحظة وهم يدفعون بك إلى داخل المحل . . لقد كنت أقف خلف زجاج النافذة فى الشقة المواجهة لك فى هذا المبنى . . أنتظر عودة زوجى الذى تغيب عن موعد وصوله إلى البيت . . واتصلت برجال الشرطة على الفور .

وصحبنى رجال الشرطة إلى قسم البوليس لأتعرف على اللصوص من خلال الصور التى عرضت على ولكننى أنكرت معرفتى بأى واحد منهم . . فقد جرى العرف بين الناس على إنكار معرفة اللصوص والمجرمين من خلال صورهم حتّى لا يتعرضوا للقتل . . أو الاغتيال بعد ذلك . .

وبدأ رجل الشرطة فى فتح المحضر وسألنى : ما هى جنسيتك . . ؟

قلت : مصرى

قال : هل أنت مهاجر . . ؟

قلت : نعم . . !

قال : أين بطاقة الإقامة . . ؟

قلت : سرقها اللصوص ضمن أوراق أخرى كانت معى . . ! !

وبعد أن انتهى من كتابة المحضر بالحادث طلب منى ضرورة الحضور فى اليوم التالى لاستكمال بعض الأشياء . . وعدت إلى المحل بسيارة الشرطة . . واتصلت بصاحب المحل أبلغه بما حدث فكان جوابه : «ولا يهمك» وسوف أحضر فى موعدى . . ! !

طبعاً ماذا يضير صاحب المحل مادام مؤمناً عليه .. وعندما وصل «هنرى» إلى المحل فى الصباح كالعادة . . عرف منى كل ما حدث بالتفصيل . . وطلبت أجرى وتركت المحل نهائياً . . حتى لا ينكشف أمرى فى عدم وجود بطاقة إقامة معى . . وحتى لا يطاردنى اللصوص . . !

نهاية المتاعب . . !

استبد الخوف بى . . وتملكنى شعور بالذعر بعد أن حبسنى اللصوص فى «الثلاجة» . . وخروجى من المحل الذى كان مصدر رزقى ، وأصبحت لاأعرف ماذا أفعل . . ولقد ضاعف من شعورى بالخوف هو إحساسى بأن رجال البوليس ربما يعرفون – من خلال إدارة الجوازات – أننى لست مهاجرا وليس من حقى الإقامة فى الولايات المتحدة الأمريكية بهذه الطريقة غير الرسمية . . وغير المشروعة . .

فقد لجأت إلى أحد الأصدقاء وعرضت عليه الأمر . . صحبنى هذا الصديق إلى « محام » كبير فى مدينة نيويورك – وهو مختص فى شئون المهاجرين – وعرض عليه قصتى وطلب منه مساعدتى . . هز المحامى رأسه وقال لى : أمامك طريقان لاثالث لهما ولابديل لك عنهما . . إما أن تتزوج من أى امرأة أمريكية وتدفع لها ماتطلبه منك . . وإما أن تشتغل فى أى مهنة تتعلق بلغتك العربية . . ؟ !

ثم قال لى المحامى قبل أن أغادر مكتبه : لو اخترت الطريقة الأولى وهى : الزواج فلابد لك من محام يتولى أوراق هذه القضية لدى الجهات المختصة . .

وسألته فى تعجب : وما الحاجة إلى « محام » إذا كان الشخص الذى يريد الإقامة الدائمة فى الولايات المتحدة الأمريكية سوف يتزوج من أمريكية وهى طريقة مشروعة ومعترف بها رسمياً . . ؟

أجاب وهو يهز رأسه لتأكيد مايقول : إن أى جهة لن تقبل أوراق الزواج إلا إذا كانت عن طريق محام . . !

وسألته مرة أخرى : وكم من الأموال يطلبها المحامى ليتولى مثل هذه الحكاية . . أوالقضية كما تسمّيها . . ؟

وقال : حوالى ألف دولار . . ! !

وسألته مازحاً : ألف دولار بالزوجة . . أم من غير زوجة . . ؟

قال : لاأفهم ماذا تقول . . أوتقصد . . ؟

قلت وأنا أبتسم حتى لاأشعره بالحرج من وراء سؤالى : يعنى هل يتولى المحامى البحث عن زوجة أيضا مقابل هذا المبلغ الضخم ؟

لم يقبل المحامى هذا النوع من « الهزار » أو لم يأخذ الموضوع أوكلامى على أنه نوع من الفكاهة التى تعودنا عليها فى الحديث . . فغضب ونهض من فوق كرسى

مكتبه ومد لى يده قائلا : مع السلامة . . !

خرجت من مكتب المحامى ومعى صديقى الذى أخذ يعاتبنى على الكلمات التى قلتها للمحامى والتى أوقعته هو الآخر فى حرج وسببت له شيئاً من الضيق وقال لى ونحن سائرون فى الطريق : إن الأمريكان ياعزيزى لايعرفون . . « الهزار » مثلكم . . ثم إنهم يعرفون قيمة الوقت الذى يمر عليهم فى حياتهم وهذا هو السبب الذى جعله ينهى الحديث . . وإذا أردت أن تعرف قيمة الوقت فى حياة الأمريكان . . ومعنى كل دقيقة تمر عليهم . . فانظر إلى كل الناس الذين يسيرون على أرصفة الطرقات فى أى شارع أوطريق . . إنك تراهم يسيرون بسرعة وكأن الواحد منهم يريد الهروب من شىء . . أواللحاق بشخص آخر . .

ثم قال صديقى : كان المفروض أن تعرف ذلك بعد أن مرّ عليك أكثر من عامين فى هذا البلد . . أوفى مدينة نيويورك ، وإذا كانت مشاغلك أومتاعبك أوهمومك قد جعلتك لاتلاحظ قيمة الوقت . . فمن الواجب أن تضع فى اعتبارك من الآن احترام المواعيد وقيمة الوقت . . !

الحقيقة أننى لم أغضب لما حدث من « المحامى » الذى طردنى من مكتبه بطريقة لطيفة عندما نهض من فوق كرسيه وأنهى الحديث بينى وبينه . . ولم أغضب أيضا من صديقى الذى أعطانى « درساً » فى كيفية التعامل مع الناس ، وضرورة احترام الوقت والمواعيد . .

كل هذه الأشياء وغيرها لايمكن للإنسان أن يتعلمها إلاعندما تصادفه مشاكل . . أويقف مثلما وقفت أنا فى بعض الأمور الحرجة . . أويضع نفسه فى أزمات . . أويقول كلاماً لايقدر عواقبه . . أويتحدث فى مسائل لايفهمها . . أويهزل فى وقت الجد . . أويمزح مع إنسان لايعرفه . . أويجلس مع بعض الناس

من رجال الأعمال ويطيل فى الحديث ولايقدر قيمة الوقت وثمن كل دقيقة تمر عليهم . .

قلت فى نفسى هذا الموقف . . وماسمعته من كلام كنت فى حاجة إليه لأضعه فى حساباتى ضمن التجارب الكثيرة التى مررت بها خلال العامين اللذين قضيتهما حتى الآن فى مدينة نيويورك . . إنها دروس لايمكن للإنسان أن يعرفها أويتعلمها فى المدارس أوالجامعات . ولكنها تأتى عن طريق التجارب الشخصية والاختلاط بالناس . .

استأذن صديقى فى الانصراف ونحن نسير معاً فى الطريق وطلب منى دوام الاتصال به ليعرف ماوصلت إليه بشأن الإقامة الدائمة فى أمريكا . .

لفت نظرى وأنا أسير بالطريق « لافتة » معلقة على باب إحدى (العمارات) الكبيرة مكتوب عليها « مكتب للإيجار » تماماً مثل اللافتات التى كان يضعها أصحاب (العمارات) والمبانى على ممتلكاتهم منذ سنوات طويلة ومكتوب عليها « شقة . . أوشقق للإيجار » . . !

لقد خطر لى وأنا أتطلع إلى هذه اللافتة المعلقة على الباب الرئيسى لهذه العمارة أن أستأجر هذا المكتب – إذا كان إيجاره رخيصا – وأحاول أن أصدر منه صحيفة عربية أحررها بنفسى.. وأقوم بطبعها فى أى مطبعة « أوفست » من المطابع الكثيرة الموجودة فى مدينة نيويورك .

واتجهت على الفور ناحية العمارة . . وتقدمت من الباب وسألت عن « البواب » فقال لى من سألته وهو يشير بأصبع يده إلى داخل العمارة : هذا الباب الذى هناك افتحه وسوف تجد بواب العمارة بداخله . .

مشيت خطوات داخل العمارة حتى وصلت إلى الباب وفتحته فإذا بى أشاهد

رجلاً أنيقاً يجلس إلى مكتب فاخر مكيف وفى داخل الغرفة بعض الكراسى الجلد الفاخرة . . تراجعت وحاولت أن أغلق الباب خلفى وأعود إلى حيث أسأل عن البواب من جديد . . وقبل أن أغلق الباب نظر إلىّ الرجل الذى يجلس إلى المكتب وسألنى :

ماذا تريد . . ؟

قلت : من فضلك . . أين بواب العمارة . . ؟

قال : أنا . . ماذا تريد . . ؟ !

اعتقدت فى البداية أن الرجل يريد أن يمزح . . أويسخر منى . . أويحاول تضييع الوقت بالحديث معى . ولكننى سرعان ماتذكرت أن الأمريكان لايعرفون الهزار فى العمل . . فتقدمت من الرجل وسألته عن « المكتب الخالى » المعلن عنه على باب العمارة . . وإيجاره الشهرى . . ؟

قال لى البواب : هذا المكتب عبارة عن غرفتين صغيرتين فى الطابق الرابع من العمارة التى تتكون من خمسة عشر طابقا . وإيجارهما الشهرى ثلثمائة دولار . . أما كتابة العقد فهذا ليس من اختصاصى ولكن يتفق عليه مع إدارة الشركة التى تتولى شئون العمارة . .

وقال البواب وكأنه يريد أن يثبت لى مكانته . . وسر جلوسه إلى هذا المكتب : إن عملى ينحصر فى رئاسة البوابين الآخرين بالعمارة . . والاتصال بالمسئولين فى الإدارة المسئولة عن صيانة هذه العمارة . . !

الواقع أننى فرحت عندما سمعت من البواب قيمة إيجار المكتب . وقلت فى نفسى : ثلثمائة دولار كل شهر ليس بالشىء الكثير أوالكبير . . إنها فرصة أن أستأجر هذا المكتب وأصدر منه صحيفة عربية وهذا ماطلبه « المحامى » وهو أن أعمل فى

أى مجال يتعلق باللغة العربية . والذى لايتوفر لأى أمريكي القيام به وبذلك تنتهى مشكلتى وأحصل على الإقامة الدائمة .

طلبت من البواب عنوان الإدارة . . وذهبت إلى هناك ، وكان فى تقديرى أننى سوف أقابل موظفاً آخر فى مكتب مماثل لمكتب بواب العمارة . . ولكننى فوجئت بأن هذه الإدارة تحتل « طابقا » فى عمارة ضخمة جدا ، وفيها عدد كبير جداً من الموظفين والموظفات وسألت عن المدير . . أوالرجل المسئول . . وأشار لى موظف إلى مكتب السكرتيرة وتقدمت منها وأخبرتها بما أريد . .

قالت السكرتيرة : إن المدير مشغول بكثرة المواعيد اليوم . . وغداً . . وأعطتنى موعدا لليوم الثالث . . ! !

قلت لها : إننى أخشى أن يتقدم أحد غيرى لاستئجار المكتب خلال هذين اليومين .

قالت : اطمئن . . إن المواعيد التى أمامى كلها تتعلق بأشياء أخرى غير تأجير هذا المكتب . . وخشيت أن أسألها : هل كل شيء بالدقة إلى هذه الدرجة . . ولكننى تراجعت أوترددت فى سؤالها حتى لاأقع فى حرج مرة أخرى . . ؟ أوأسمع كلمة محرجة أومؤلمة كما حدث لى فى مكتب المحامى . .

انصرفت من مكتب السكرتيرة إلى خارج المبنى حيث أخذت طريقى إلى الشارع وظللت أسير فى الشوارع والطرقات والميادين لعدة ساعات دون أن أشعر بأى نوع من التعب أوالإرهاق ، ولاأعرف الدافع أوالسبب الذى جعلنى فى هذه المرة أركز نظرى على وجوه الناس الذين يملئون الشوارع ، وهم يسيرون على أرصفة الطرقات . . تنبهت بعد فترة أن سبب هذا التركيز يرجع إلى ماقاله لى صديقى – بعد خروجنا من مكتب المحامى – بأن الوقت فى حياة الأمريكان له قيمة وكل دقيقة تمر

من حياة أى إنسان لها ثمن . وهذا مايجعلنى أنظر إلى وجوه الناس لأعرف من خلالها أثر الوقت على تصرفاتهم .

كل الناس يسيرون على أرصفة الشوارع وكل واحد منهم يزاحم الآخر ويحاول أن يسبقه أويتقدمه . . بعض الناس تصطدم أكتافهم ببعض دون أن ينظر الواحد منهم إلى الآخر ليشتمه –كما يفعل بعض عندنا– أوليعتذر له . . . السيدات والفتيات يتخلين عن طبيعة الوقار فى السير ، ويتدافعن إلى المطاعم لتناول وجبة الغداء . . أوشراء بعض مايلزمهن من المحال فى ساعة الراحة . . لاأحد يقف أمام فترينات المحال لمشاهدة المعروضات وماستجد عليها من « الموديلات » الحديثة . . !

وفى الفترة التى أعقبت انتهاء ساعات العمل تشاهد الموظفين يخرجون من (العمارات) الموجودة بها مكاتبهم يتدافعون جرياً إلى محطات الأتوبيسات . . أومحطات السكة الحديد الموجودة تحت الأرض ، وكأنهم جميعا على موعد فى بيوتهم . . نفس اللهفة والحرص على المواعيد حتى عند رجوعهم إلى منازلهم . .

بعض هؤلاء الناس يجرى حرصاً على وجوده فى منزله فى الموعد الذى اعتاد عليه كل يوم . .

وبعضهم الآخر أوأكثرهم للحرص على تناوله وجبة العشاء بين أفراد أسرته كل مساء . .

وبعضهم لمشاهدة حلقة من المسلسلات التى يعرضها التليفزيون فى وقت معين من كل مساء . .

وآخرون لغرض آخر وهو أن يجد لنفسه مكاناً يجلس فيه فى القطار حتى لايضطر إلى الوقوف طوال المسافة إلى منزله لفترة طويلة . .

وفريق آخر يجرى بسبب حاجته إلى الراحة ليلقى بنفسه على سريره فى البيت من شدة الإرهاق والتعب فى العمل طوال اليوم . .

وهناك نوع مختلف من الموظفين يتجهون إلى « البارات » – وهم طبقة العزاب غير المتزوجين – ليجلسوا إلى « البار » على المقاعد الموجودة فى المحل ليحتسوا الويسكى أوالبيرة ويروحوا عن أنفسهم بالشرب والحديث عن مشاغل العمل . . والقرف الذى يعانونه من الرؤساء . .

مجتمع غريب وعجيب لاأحد فيه يعرف الراحة أوالتسكع فى الطرقات . . أوالجلوس فى الأندية أوالمقاهى . .

إن الفرصة الوحيدة التى يشعر فيها كل إنسان فى الولايات المتحدة الأمريكية بحاجته إلى الراحة والهدوء هى « يوما السبت والأحد » وهما اليومان المخصصان لعطلة نهاية الأسبوع . .

إن جميع الموظفين فى أمريكا يغادرون منازلهم فى الصباح فى طريقهم إلى الحدائق أوالبحيرات المنتشرة فى كل المدن . . وبعضهم يفضل أن يقضى هذه العطلة خارج المدينة ثم يعود إلى منزله فى نهاية العطلة ، وقد شعر أنه قد فعل شيئاً كبيراً فى حياته جدد به نشاطه استعداداً للحركة المستمرة والجهد والشقاء الذى سوف يبذله من جديد فى عمله طوال الأسبوع !

هناك يوم فى الأسبوع يشعر فيه كل أمريكى أوغير أمريكى – من الذين يعيشون فى الولايات المتحدة الأمريكية من الموظفين – أن هذا اليوم « كريه » إلى نفسه . ولو كان الأمر بيده لحذفه من أيام الأسبوع . . هذا اليوم هو « يوم الاثنين . . ! »

إنه اليوم الذى يعقب عطلة نهاية الأسبوع ويبدأ فيه العمل . . !

إننى لم أشعر بهذا اليوم خلال العامين اللذين قضيتهما فى بداية حياتى بمدينة

نيويورك . . لأن أيامى كلها كانت عملاً وشقاءً وتعباً . . ولكننى لمست ذلك من خلال أحاديث كل الناس الذين يعملون فى البنوك أوالشركات . . أوالمؤسسات . . أوالحكومة . .

وهذا اليوم أيضاً – وهو يوم الاثنين – يعتبر يوماً كريهاً كذلك عند أصحاب المحال والتجار لأنه فى عرفهم يوم «كساد» فى البيع أوالشراء . !

انتهت المدة التى حددتها لى سكرتيرة مدير الشركة التى تتولى إدارة العمارة التى سأستأجر فيها مكتباً . . وعدت إليها ثانية لمقابلة المدير . . دخلت إلى الرجل فى مكتبه وتحدثت معه بشأن استئجار المكتب . . نظر إلىّ من خلال النظارة الطبية التى كان يضعها على عينيه وقال لى : ماذا ستفعل فى المكتب . . ؟

قلت : سوف أصدر منه صحيفة عربية للجاليات العربية الموجودة فى نيويورك . .

قال : ماهى جنسيتك . . ؟

قلت : مصرى . .

قال : يعنى عربى . . ؟

قلت : نعم . .

قال : نحن لانؤجر مكاتبنا لعرب . . !

قلت : لماذا . . ؟

قال : أنا أعرف أن ما أقوله يخالف العرف والقانون وهو رفض تأجير مكتب لك . . ولكن لأنك إرهابى . . ! !

ودهشت لهذا الكلام الذى لايستند إلى أى شىء من الحقيقة ، خاصة أننى لم أقابل هذا «المدير» من قبل أويعرف عنى أى شىء . . ثم قلت له : أنا لست

إرهابياً ولاأعرف على أى أساس قلت ذلك . . إننى صحفى مصرى وقد حضرت إلى هنا لأعيش كما يعيش كل الناس .

قال : ليس عندى وقت للمناقشة . . ونهض من مكتبه وكأنه يقول لى : مع السلامة . . أو اخرج بره . . !

انطلقت إلى الشارع وأنا حزين لهذا المصير الذى وصلت إليه لقد أغلق فى وجهى آخر أمل كنت أتعلق به . . وهدانى تفكيرى أن أذهب إلى صديقى الأمريكى الذى يعمل فى إحدى الصحف وأعرض عليه الأمر . . وتوجهت إليه على الفور ، وأبلغته بكل ماحدث . . أمسك الصديق بدفتر التليفونات وأخرج منه رقم تليفون مدير الشركة وأخذ منه موعداً فى اليوم التالى . وذهبت بصحبته . . ودخل صديقى إلى مدير الشركة وأنا معه ودار بينهما حديث عرف المدير من خلاله كل ظروفى منذ غادرت القاهرة حتى لحظة وجودى معه فى مكتبه . .

وأخيراً طلب مدير الشركة من صديقى الصحفى الأمريكى أن يوقع بإمضائه على تعهد يضمن فيه عدم قيامى بأى نوع من الشغب . . أوإثارة الفوضى . . أوالاضطرابات داخل العمارة الموجود بها المكتب الذى سوف أستأجره . . ! وكتب صديقى التعهد . . ووقعت أنا على عقد إيجار المكتب وأنا فى سعادة بالغة . . ثم انصرفت . .

مضت أيام قليلة ذهبت بعدها إلى العمارة وقابلت البواب – الذى عرفت منه أنه قد علم من الإدارة باستئجارى المكتب – وسلمنى المفاتيح . . وبدأت فى مباشرة نوع من العمل . . ذهبت إلى صديقى الأمريكى وطلبت منه أن يوكل لى « محاميا » يتولى شئون قضية إقامتى . . صحبنى – بعد اتصال تليفونى – إلى محام كبير متخصص فى شئون الهجرة وتحدث معه بشأنى . .

قال لى المحامى : أولاً . . سوف أحصل منك على مبلغ خمسة آلاف دولار من أجل أن أحصل لك على الإقامة الدائمة فى الولايات المتحدة الأمريكية . . وأخذ يعد على أصابعه قائلاً :

ثانياً : أريد هذه الأوراق . وأمسك ورقة وقلماً وأخذ يكتب بعض الأوراق التى لابد من تسليمها إليه لتقديمها إلى إدارة العمل . . ثم إدارة الهجرة . .

ثالثاً : اكتب لى الاسم المقترح للصحيفة التى تنوى إصدارها حتى أكشف أولاً وأعرف هل يوجد فى ولاية نيويورك صحيفة عربية أخرى تحمل نفس هذا الاسم . . ثم أحصل لك بعد ذلك على رخصة بإصدار الصحيفة . .

رابعاً : لا تفعل أى شىء حتى أبلغك بعد أيام . . وبعد أن انتهى من سرد هذه الطلبات . . قال لى وهو يبتسم : من الآن اطمئن تماماً على وجودك فى هذا البلد فلن يستطيع رجال البوليس . . أو إدارة الهجرة طردك من الولايات المتحدة . . هذا إذا وافقت على المبلغ الذى طلبته . .

وقبل أن ينتهى من حديثه قال لى وكأنه يطمئنى . . المبلغ الذى طلبته منك وهو خمسة آلاف دولار سوف تدفعه « بالتقسيط » حسب اجتهادك وسأحصل منك على ما يضمن حقوقى . . ثم هز رأسه وهو يقول : إن كل شىء هنا فى الولايات المتحدة الأمريكية « بالتقسيط » حتى لو كنت مليونيراً لأن الضرائب تكون مرتفعة عندما يدفع الإنسان مشترياته بالنقد . . ! !

وسألنى المحامى عما إذا كنت الآن فى حالة مالية تسمح لى أن أدفع جزءاً من المبلغ الذى حدده فوعدته بإحضار مبلغ خمسمائة دولار فى اليوم التالى . . وعند ذلك أعطانى بطاقة تحمل اسمه وأرقام تليفونات مكتبه وقال لى : لو تعرضت لشىء . . أو تعرض لك أحد من رجال إدارة الجوازات . . أو الشرطة فقدم له هذه

البطاقة ليتصل بى . .

بعد أيام من لقائى مع المحامى . . اتصل بى تليفونيا وقال لى :

« مبروك » لقد حصلت لك على موافقة من إدارة العمل الأمريكية فى نيويورك « بالإقامة المؤقتة » ومزاولة عملك الصحفى الجديد . . وحصلت لك أيضا على رخصة لإصدار صحيفة عربية تحمل اسم « الشرق الأوسط » وسوف أرسل موافقة إدارة العمل إلى إدارة الجوازات والجنسية فى نيويورك ، لأحصل لك منها على الموافقة المبدئية أيضاً فى الولايات المتحدة الأمريكية حتى تصدر صحيفتك . .

صحيفة عربية فى نيويورك

عندما أصدرت أول عدد من الصحيفة التى أصدرتها فى مدينة نيويورك باللغة العربية واخترت لها اسم « الشرق الأوسط » كان هدفى الأول هو الحصول على الإقامة الدائمة فى الولايات المتحدة الأمريكية . .

لقد أبلغنى « المحامى » الذى تولى قضيتى أننى لابد أن أشتغل فى عمل لايتوفر لأى أمريكى القيام به حتى لا أسد الطريق أمام أى أمريكى متعطل عن العمل . . وهذا هو القانون أوالنظام المعمول به فى الولايات المتحدة الأمريكية أوأتزوج من أمريكية . . وبلا أى تردد فضلت العمل عن الزواج . .

جلست فى مكتبى أفكر : كيف أصدر هذه الصحيفة ؟

وهل يوجد فى مدينة نيويورك مطابع عربية . . ؟

وماهى الكمية التى يجب أن أطبعها . . وهل هناك قانون يحدد هذه الكمية . . ؟

وهل يتقبل أبناء الدول العربية فى مدينة نيويورك وبقية الولايات الأخرى أن

يقرءوا صحيفة يصدرها مصرى . . ؟

وماهى المواد الصحفية التى يجب أن أنشرها فى الصحيفة . . ؟

هل تكون كل المواد الصحفية عن مصر ، خاصة أن هناك جالية مصرية كبيرة تعيش فى مدينة نيويورك ومدينة نيوجيرسى وهى أقرب ولاية لمدينة نيويورك . . ؟

أوتكون أكثر المواد الصحفية عن الدول العربية كلها ومن بينها مصر . . ؟

وماهو لون أوسياسة الصحيفة : هل تكون كل المواد عن السياسة . . أوأخبار الدول العربية . . أخبار العرب والجالية العربية فى أمريكا . . ؟

وأين هى المواد الصحفية أوالمصادر التى أحصل منها على أخبار أبناء الدول العربية ؟

وماهى وسيلة توزيع الصحيفة بعد طباعتها . . ؟

وأين هو « الخطاط » الذى يجب أن يكتب المانشيت الرئيسى للجريدة . . ثم العناوين الأخرى التى تتعلق بالموضوعات . . ؟

وماهى تكاليف الطباعة . . ؟

وهل ياترى أستطيع الحصول على إعلانات من أصحاب المحال العربية الموجودة فى مدينة نيويورك قبل صدور العدد الأول . . وماهو الضمان أوالوسيلة التى تجعلهم يطمئنون لى ويثقون فى مهمتى . وإننى جاد فى عملى وليست وسيلة للنصب والاحتيال . . ؟

دارت فى ذهنى كل هذه الأسئلة وغيرها وأنا جالس إلى مكتبى بعد تأثيثه وإعداده . وإذا بى أجد نفسى فى دوامة أخرى من الأسئلة المتلاحقة كالموج . .

من يساعدنى فى هذا العمل وهل يقبل أى مهاجر مصرى من الذين أعرفهم أن يقوم بأى عمل يخفف عنى كل هذه المتاعب . . ؟

وكان الجواب : طبعاً لا . . لن يقبل أى إنسان يعيش فى أمريكا كلها أن يضيع من وقته دقيقة واحدة ليقدم فيها أى جهد أوعمل لوجه الله ، وخاصة أن كل دقيقة لها قيمتها وثمنها . . !

ثم إن هناك أعمالاً أخرى يجب أن أقوم بها إلى جانب إصدار الجريدة . . وهى كتابة خطابات إلى عدد كبير من المهاجرين المصريين والعرب الموجودين فى الولايات الأخرى لأبلغهم فيها أننى أصدرت صحيفة وأطلب منهم الاشتراك فيها . .

ثم ماهى قيمة الاشتراك السنوى فى الجريدة . . وماهى تكاليف البريد . . و . . و . . و . . إلخ . .

وأخيراً . . نهضت من فوق كرسى مكتبى وأنا على إصرار شديد فى أن أصدر الصحيفة . . وأن أقوم بكل هذه الأعمال بمفردى مهما تكن المتاعب والمصاعب والعقبات . .

خرجت من المكتب وذهبت إلى مكتب تليفونات قريب من مكتبى وطلبت من أحد الموظفين رغبتى فى تركيب تليفون بالمكتب الذى استأجرته فأشار إلى مكتب آخر بالمبنى وأبلغنى أن هذا المكتب هو المختص بتركيب التليفونات . . دخلت المكتب فوجدت فتاة تجلس إلى مكتب أنيق وأبلغتها رغبتى وعلى الفور قدمت لى « استمارة » لأملأها . . وقبل أن أكتب أى حرف فى الخانات الموجودة بالاستمارة سألتها . .

هل ياترى سيتم تركيب التليفون خلال هذا العام . . وكنا فى شهر مارس تقريباً ؟

ونظرت إلى الموظفة باستغراب وهى تفتح عينها فى دهشة وتبتسم لى وكأنها

تسخر من سؤالى وقالت : التليفون سوف يتم تركيبه « غدا » ولكن عليك أولا أن تكتب « شيكا » بمبلغ مائة دولار سوف تستردها ثانية بعد ثلاثة أشهر من تركيب التليفون وإذا لم يكن معك دفتر شيكات الآن فيجب عليك أن تعطى هذا الشيك بالمبلغ إلى الموظف الذى سوف يحضر إلى مكتبك « غدا » ومعه العدة لتركيب التليفون . . ! !

ملأت الاستمارة وقدمتها إلى الموظفة وأنا فى ذهول وحيرة وتساؤل :

هل هذا معقول . . ؟ هل من المعقول أن يتم تقديم طلب لتركيب تليفون . ثم يركب التليفون خلال ٢٤ ساعة . . ثم يرد المبلغ إلىّ ثانية بعد ثلاثة أشهر إذا ثبت لإدارة التليفونات أننى أستعمل التليفون فى حدود المكالمات المسموحة لى . . ؟

تركت مكتب التليفونات وأنا لاأصدق ماسمعته من الموظفة . . وفى نفس الوقت سعيد جداً بأول خطوة نجحت فيها مما خفف عنى الهموم والآلام والمشاكل التى كنت أشعر أنها ثقيلة على نفسى . .

ذهبت بعد ذلك أتجوّل فى بعض الشوارع فى حى مانهاتن ، والذى أعرف أنه يوجد به مطابع كثيرة وأخذت أسأل العاملين فيها عن كيفية وإمكان طبع صحيفة عربية بطريقة « الأوفست » .

سألنى بعضهم عن حجم الصفحات - وسألنى بعضهم الآخر عن الكمية . . ورفض آخرون طبع صحيفة تصدر باللغة العربية . .

وهنا وجدت أننى أمام مشكلة أخرى وهى « حجم الصحيفة » . .

هل تكون الصحيفة فى حجم كبير مثل « الأخبار » والأهرام . . أوفى حجم صغير مثل معظم الصحف الأمريكية . . ؟

وقررت على الفور أن تكون فى حجم صغير أى فى حجم الصحيفة اليومية فى

مصر وهي مطبقة قبل فرد صفحاتها . . أى فى حجم المجلات الأسبوعية . . ثم إن مثل هذا الحجم هو الذى اتفق على أنه « الصحف الحديثة » التى لا يجد القارئ صعوبة فى فردها فى أثناء جلوسه فى القطار . . أوالأتوبيس . .

وأخيراً : وبعد تعب وبحث طويل عثرت على مطبعة فى « الحىّ الصينىّ » بمدينة نيويورك تملكها سيدة صينية وقالت لى : إنها على استعداد لطبع الكمية التى أريدها على شرط ألاتقل هذه الكمية عن عشرة آلاف نسخة . . ! !

ثم قالت لى : إن طبع هذه الكمية سوف يكلفنى ألف دولار . . ! !

وأذهلنى المبلغ الذى سمعته . . ودارت فى ذهنى أسئلة أخرى . .

كيف أحصل على مبلغ ألف دولار كل أسبوع قيمة طبع هذه الكمية . . ؟

ثم إنه مطلوب منى إلى جانب هذا المبلغ الضخم مصاريف أخرى وهى : إيجار المكتب . . وأدوات كتابية . . ومصروفات انتقال . . وإيجار منزل . . و . . و . . إلخ .

حاولت أن أجعل هذه السيدة الصينية تخفض شيئاً من المبلغ الذى طلبته ولكن كان رأسها مثل الصخر . بل زادت على ذلك فقالت لى : نحن نعيش فى أمريكا ويجب أن تعرف أن الكلمة التى تسمعها واحدة . . وليس عندى وقت للمناقشة . . ويجب أن تقول لى الآن : موافق . . أوغير موافق ؟ ! !

ولم أجد أمامى غير الاستسلام لهذه المرأة القصيرة والقبيحة . . والتى لم أجد فيها شيئاً يمكن أن يدفعنى أويجبرنى إلى أن أقول لها كلمة حلوة تفتح نفسها أوتثير فيها شيئا من القبول أوالرضا أوالراحة وتخفض من المبلغ . . ! !

قلت لها قبل أن أنصرف : موافق . . وردت علىّ وهى تفتح فمها عن ابتسامة خفيفة لتظهر منها أسنانها القبيحة الصدئة : متى ستحضر . . ؟

سوف أتصل بك عندما أكون مستعدا خلال أيام . .

عدت إلى مكتبى وقد شعرت أننى قد حققت شيئاً . . أو خطوت بعض الخطوات التى تجعلنى أستمر فى مهمتى الشاقة . .

كان الوقت قد اقترب من الثامنة مساء . . والعمارة التى يوجد بها مكتبى يجب أن تغلق بابها الرئيسى بعد أن انصرف كل الموظفين فى المكاتب الأخرى . . فقد جرى العرف فى جميع (العمارات) والمبانى التى تشغلها مكاتب أن ينصرف الموظفون إلى منازلهم حتى يبدأ « الحراس » وغيرهم من عمال النظافة أعمالهم . . وقبل أن أنهض من فوق مكتبى سمعت طرقا على الباب . . وفتحت فإذا بى أجد أحد الموظفين المكلفين بحراسة العمارة يقول لى : لعلك تعرف أن جميع الموظفين قد تركوا مكاتبهم منذ فترة طويلة ولايوجد فى هذا المبنى مكتب واحد مفتوح غير مكتبك . . !

اعتذرت له عن تأخرى وانصرفت ليباشر عمله بالعمارة . .

عدت إلى منزلى وأنا أفكر طوال الطريق حتى ركبت القطار من تحت الأرض والذى سوف يوصلنى إلى أقرب محطة للبيت . . وتناولت طعام العشاء ولم أفكر كالعادة أن أفتح التليفزيون لأشاهد بعض البرامج المسلية . . أوأستمع إلى نشرات الأخبار ، لقد قضيت طوال الليل فى بحر من التفكير المتواصل فى العمل الذى سوف أقوم به . . إنها مهمة شاقة . . ومتعبة وصعبة جداً . . كيف أقوم بمفردى بجمع الأخبار . . وكتابة الموضوعات أوالمقالات ، ثم كتابتها على الماكينة ، ثم جمع الصور ، ثم توضيب الصفحات ؛ ثم الذهاب إلى المطبعة لطبع الجريدة . .

وكيف أقوم أنا وحدى أيضاً بتوزيع هذه الكميات الضخمة من أعداد الجريدة على المحال العربية فى جميع أنحاء مدينة نيويورك وكيف أدبر الوقت الذى سوف

أقضيه فى هذه الجولات الطويلة ، خاصة أن مدينة نيويورك كبيرة وضخمة ، ومساحتها تعادل مساحة مدينة القاهرة عشرات المرات . . وكيف أقوم بجمع الإعلانات . . و . . و . . و . . إلخ . .

لم أذق النوم طوال الليل من كثرة التفكير حتى طلع علىّ الصباح . .

كان أول عمل قمت به في الصباح أن ركبت القطار وذهبت إلى مبنى البعثة المصرية لدى الأمم المتحدة وقابلت الدكتور عصمت عبد المجيد سفير مصر الدائم لدى الأمم المتحدة ، وأبلغته بما قررت عمله من إصدار صحيفة عربية أسبوعية تحمل الرأى والخبر والمقال والموضوع لأبناء الجاليات العربية وخاصة أبناء مصر الموجودين بالولايات المتحدة الأمريكية . .

رحب السفير بالفكرة وأعرب لى عن سعادته وسروره لمثل هذا العمل . . ثم طلبت منه مساعدتى فى إمدادى ببعض الصحف المصرية اليومية ، وكذلك بعض الصحف العربية لأحصل منها على بعض الأخبار والموضوعات . . ومرة أخرى أبدى السفير تعاطفه واستعداده لهذا الطلب . . وفعلا نفذ السفير ماوعدنى به فوراً . .

ذهبت بعد ذلك إلى مكتبى لأبدأ العمل . . بعد جلوسى بحوالى نصف ساعة طرق باب مكتبى ، وفتحت الباب فإذا بى أجد رجلاً فى مواجهتى وهو يحمل فى يده علبة كرتون صغيرة ويقول لى : أنا موظف التليفونات . . ودخل الموظف وأخرج عدة التليفون من العلبة وأخذ يعبث ببعض الأسلاك الموجودة بالمكتب ، ثم أوصل سلكا منها بالفيشة الموجودة فى حبل التليفون وأجرى اتصالا مباشراً بالإدارة الرئيسية للتليفونات ثم سلمنى ورقة صغيرة مدون بها رقم التليفون . . وتسلم منى شيكاً بمبلغ مائة دولار قيمة اشتراك التليفون . .

والغريب أننى أخرجت من جيبى ورقة فئة عشرة دولارات وسلمتها للموظف وأنا أشكره على ماقام به . . فسألنى : لماذا تعطينى هذا المبلغ . . ؟

قلت : هذا مبلغ بسيط مقابل أتعابك . . !

قال : آسف ياسيدى نحن لانأخذ « بقشيشاً » إننى موظف . . وهذا عملى . . وأنا أتقاضى منه راتباً مجزياً . . فلماذا بقشيش . . ورفض الموظف وأصر على رفضه قبول البقشيش . . ! !

جلست إلى مكتبى أقلب صفحات الجرائد المصرية والعربية التى حصلت عليها من السفير لأنتقى منها بعض الأخبار والموضوعات ، والحوادث التى تتناسب ومايفتقده المهاجرون المصريون والعرب فى أمريكا . . وأخذت أمزق بعضها أو أفصله من الصحيفة لأنتفع به ، وأنقله إلى صحيفتى بعد إعادة صياغته من جديد . . وأحضرت بعض الورق ذى الحجم الكبير لأبدأ فى رسم أوتوضيب صفحات الجريدة . . والتى يطلق عليها فى عمل المجال الصحفى « الماكيت » . . وانتهيت من الصفحات الثمانية المخصصة للصحيفة وقد استغرق منى كل هذا العمل يوماً كاملاً شعرت فى النهاية بأننى قد أنجزت جزءاً كبيراً من المهمة الشاقة التى أتحملها وحدى . .

وقبل أن أنصرف من مكتبى ظهرت أوقفزت إلى خاطرى « مشكلة أخرى » غيرت مزاجى الذى كان فى حالة استرخاء ، ونشوة جعلتنى إنساناً قلقاً . . هذه المشكلة هى : من الذى سوف يقوم بمهمة كتابة كل الأخبار . . والموضوعات . . والمقالات . . وغيرها على « الآلة الكاتبة » والتى لابد أن تكتب بهذه الطريقة أولا قبل تصويرها ثم وضعها على صفحات الجريدة قبل طبعها . . ؟ !

إننى أجهل الكتابة على الآلة الكاتبة . . ثم إننى لوحاولت أن أتعلم لأقوم بهذا

العمل – الذى سوف يوفر علىّ مبلغا كبيراً يجب أن أدفعه إلى موظف – سأستغرق وقتاً طويلاً حتى أجيد مثل هذا العمل وهذا الوقت الضائع سوف يزيد من قلق ومتاعبى بالنسبة لرغبتى فى الاستقرار من حيث طلب حصولى على الإقامة الدائمة فى الولايات المتحدة الأمريكية . . ثم . . لهفتى الشديدة فى أن تصدر الصحيفة التى سوف تحمل اسمى إلى كل مصرى وعربى فى أمريكا . .

قلق جديد أضيف إلى متاعبى ومشاغلى وأحزانى . . وهمومى . .

عدت إلى منزلى فى المساء ، وأنا أدعو الله طوال الطريق أن يساعدنى ويكون معى ولايخذلنى . . وبكيت وأنا جالس بالقطار فى طريقى إلى البيت ، وأخرجت المنديل من جيبى لأمسح دموعى . وفجأة . . اقتربت منى فتاة جميلة وقالت لى باللغة الإنجليزية التى فهمت من خلال نطقها أنها ليست أمريكية الأصل :

من أين أنت . . ولماذا تبكى . . ؟

قلت : أنا مصرى . . وقبل أن أجيب عن بقية السؤال الذى وجهته لى هذه الفتاة قالت لى وهى تبتسم وتجلس بجانبى . . وأنا أيضا مصرية من القاهرة . .

ثم سألتنى : لماذا تبكى . . أرجو إذا كانت لديك مشكلة أستطيع أن أساعدك فى حلها إننى أقيم بمدينة نيويورك منذ سنوات . . وأشتغل فى أحد البنوك وأقيم مع أسرتى . . ثم سألتنى عن وظيفتى . . وهل أنا مهاجر . . أو فى زيارة . . ؟

الحقيقة أننى لاأعرف السر الذى جعلنى أستريح إلى هذه الفتاة . . ألأنها جميلة . . ؟ أم لأنها مصرية . . ؟ أم لأنها كانت إنسانة . . أم لأنها حاولت مساعدتى . . أم لأنها أبدت تعاطفها نحوى . . لاأعرف . . ؟

لقد جففت دموعى واستعدت ثقتى فى نفسى . . ورسمت على شفتى ابتسامة حتى لاأبدو أمامها بمظهر الرجل الضعيف . . ووجدت نفسى أحكى لها قصتى كلها

حتى اقترب القطار من المحطة التى سوف أنزل فيها . . وفوجئت بالفتاة تنزل معى .
وسألتها عن وجهتها فقالت لى : إننى أقيم فى هذه المنطقة . . وسارت معى فى طريقى
حتى وصلت إلى منزلها ، وقبل أن نفترق أعطتى رقم تليفون منزلها . . وأبلغتنى أنها
سوف تعرض الأمر على والدها . . وخطيبها حتى يمكن تدبير الأمر فى مساعدتى . .
وفى اليوم التالى اتصلت بى الفتاة تليفونيا من منزلها وأبلغتنى أن والدها يريد مقابلتى
ثم دعتنى إلى منزلها . . وذهبت إلى هناك والتقيت بوالدها وخطيبها . . وفى أثناء
الحديث قال لى الرجل : إننى أريد مساعدتك فى إصدار صحيفة عربية فى مدينة
نيويورك لأننى « عربى » مثلك وأحب مصر . . ثم أخذ يسألنى عن العقبات التى
تواجهنى والغرض أوالهدف من إصدار صحيفة عربية . .

أنا يهودى . . !

قال لى والد الفتاة إن ابنتى قد روت لى ظروفك ومتاعبك وأنا على استعداد
لتقديم كل مساعدة تطلبها ولكن : لماذا تصر على إصدار صحيفة عربية . ألاتعرف
أن مثل هذه الصحيفة لوصدرت سوف تسبب لك متاعب كثيرة ، ربما تكون أكثر
من المتاعب التى عانيتها أوتعانيها الآن . . ؟ !

قلت : ماهى المتاعب التى تقصدها ؟

قال : إنك بلاشك سوف تتعرض فى صحيفتك إلى الحديث عن السياسة . .
والمشاكل أوالقضايا بين مصر وإسرائيل . . والفلسطينيين ؟ . .

قلت : هذا شىء طبيعى . وأعتقد أن أمريكا – كما هو معروف – بلد الحريات
وليس هناك ما يمنع من النشر أو الحديث فى مثل هذه القضايا . . ثم إنه ليس من

غير المعقول أن أصدر صحيفة للجاليات العربية ولا أتحدث فيها عن مشكلة بلدى . . !

قال : إن الذى أقصده ليس هذا فأمريكا كما تقول . . بلد الحريات ولكننى أقصد أنك سوف تتعرض لمشاكل ومتاعب من جهتين إحداهما قوية . . والأخرى إرهابية ؟ !

قلت : أرجو أن توضح لى ماذا تعنى أو تريد . . ؟

قال : أحب أن أقول لك بصراحة «إننى يهودى » من أصل مصرى وأعيش هنا فى مدينة نيويورك منذ أعوام طويلة أو على وجه التحديد بعد حرب سنة ١٩٥٦ . . والمشاكل أوالمتاعب التى سوف تواجهك ستأتى من « اليهود » الذين ستتعرض لهم فى كتاباتك . .

أما الناحية الأخرى فهى الفلسطينيون الموجودون فى أمريكا أو فى مدينة نيويورك بالذات .

قلت فى تعجب : وهل يغضب الفلسطينيون من إصدار صحيفة عربية فى نيويورك . . ؟

قال : إنهم سوف يلتفون حولك ويحاولون « احتواءك » سواء بإغراء المال . . أو الإرهاب .لتنشر لهم ما يريدون . . وإذا رفضت فمن المؤكد أنهم سيحاربونك . . ! !

بعد فترة من الحديث مع الرجل شكرته على نصائحه ثم انصرفت وأنا أعتقد أنه يريد من وراء هذا الحديث صرف نظرى عن فكرة إصدار صحيفة عربية لأنه يهودى . .

خرجت إلى الطريق وأنا أفكر فى كل ما قاله لى هذا الرجل . . هل هو

صادق . . أو مغرض . . وحتى لو كان كلامه فيه شيء من الصراحة أو النصيحة فإن هذه مشكلة أخرى أضيفت إلى مشاكلي الكثيرة التي لا حصر لها والتي أواجهها بمفردي ولا أجد من يساعدني أو أتشاور معه الرأي فيها . .

ذهبت إلى مكتبي في اليوم التالي وكان أول شيء فعلته أن سألت بواب العمارة عن المحال التي تبيع آلات كاتبة . . وهل يمكنني أن أجد في إحدى هذه المحال آلة كاتبة عربي . . ؟

كتب لي البواب عنوان محل يمتلكه رجل يوناني في حي مانهاتن وقال لي : إنك سوف تجد في هذا المحل آلات كاتبة عربي وأجنبي . . وعلى الفور ذهبت إلى هذا المحال وفعلا اشتريت آلة كاتبة عربي صغيرة حملتها في يدي لأنها كانت موضوعة داخل شنطة جلد . ولها يد مثل الشنط العادية ثم عدت إلى مكتبي وأنا سعيد . .

إن المشكلة التي واجهتني بعد ذلك هي : كيف أكتب كل مواد الصحيفة وأنا لا أعرف استعمال الآلة الكاتبة . . . ؟

اتصلت بعدد من الأصدقاء والمعارف لأهتدي عن طريقهم إلى واحد يقوم بهذه المهمة التي تعتبر أهم عامل لإصدار الصحيفة . . وكان كل واحد منهم يعدني بالبحث عن شخص يساعدني في هذا العمل . .

اتصل بي فعلا عدد من الشبان والفتيات مصريين وعربا أبدوا استعدادهم للقيام بالكتابة على الآلة الكاتبة في غير أوقات عملهم ولكن : كان كل واحد منهم يسألني . . كم ستدفع في الساعة . . ؟ !

وكانت إجابتي لكل منهم أيضا : إنني مازلت في بداية الطريق . . وليس لدى موارد غير الأموال التي ادخرتها خلال سنوات عملي القصيرة والتي أنفقها الآن من أجل الإقامة في أمريكا . . ثم إصدار صحيفة عربية تكون لسان حال الجالية

العربية . . وكانت الإجابة من جانبهم طبعا هى « السخرية » من منطق رجل مثلى يعيش فى أمريكا ولا يعرف قيمة الوقت وأنه لا شىء فى أمريكا أو فى عرف الناس كلها اسمه « مجاملة » أو مساعدة مجانية . . أو حكاية « بلديات » . . ! !

لم أستسلم لليأس . . أو أستكين أمام هذه العقبات أو الصعاب . . لقد قررت على الفور أن أقوم أنا بهذا العمل وهو الكتابة على الآلة الكاتبة وقلت فى نفسى : ماذا لو أن الصحيفة تأخر صدورها عدة أسابيع حتى أكون قد تعلمت بنفسى على هذه الآلة ليل نهار . . وفعلا : كنت أقضى معظم وقتى بالنهار فى التدرب على الآلة الكاتبة . . ثم أحملها معى إلى منزلى لأواصل العمل أيضاً حتى ساعة متأخرة من الليل .. وخلال أيام قليلة كانت أصابعى قد تدربت تماماً على استعمال كل حروف الآلة الكاتبة

لقد تعمدت عند صدور أول عدد من صحيفتى أن تكون نغمة الحديث والمقالات التى كتبتها « معتدلة » تماماً ليس فيها هجوم على أحد . . أو نظام . . أو هيئات أو شخصيات حتى لا أتعرض للمتاعب أو المشاكل أو رفض بعض العرب نشر إعلانات فى صحيفتى .

حملت الأعداد الأولى من المطبعة فى سيارة نصف نقل استأجرتها وأخذت أطوف بها على محال المصريين والعرب فى مدينة نيويورك ومدينة نيوجيرسى وهى أقرب ولاية لمدينة نيويورك والتى يحتشد فيها عدد كبير من المهاجرين المصريين والعرب . . وأترك فى كل محل عددا كبيراً من النسخ واتفقت مع أصحابها على السعر الذى سوف يشترون به كل نسخة وهو طبعاً أقل « خمسة سنتات » من سعرها العادى وهو ثلاثون سنتاً ونشرت فى هذا العدد إعلانات لبعض المحال المصرية والعربية بعد الاتفاق مع أصحاب هذه المحال أننى لن أتقاضى ثمن هذه الإعلانات

إلا بعد توزيع العدد . .

بعد صدور هذا العدد تلقيت عدداً كبيراً من المكالمات التليفونية من مصريين وعرب كل واحد منهم يبدى رأيه فى الصحيفة بعضهم يريد أن أستمر فى هذا العمل وأواصل المسيرة والكفاح لأن الجاليات العربية فى حاجة إلى مثل هذه الصحيفة . .

بعض آخر يطالبنى بإغلاقها وحجته فى ذلك أنها «مايعة» ليس لها لون أو هدف أو خط سياسى معين .

وفريق آخر يقول لى : استمر لمدة قصيرة حتى تحصل على الإقامة الدائمة فى الولايات المتحدة ثم أغلقها بعد ذلك وابحث عن عمل آخر . .

كنت أتقبل كل هذه الآراء وأنا أشكر كل صاحب رأى على أنه تفضل بالاتصال بى . . غير أننى قررت أن أستمر فى هذا العمل مهما تكن الظروف ومهما أواجه من متاعب أو صعاب فالعمل الصحفى هو مهنتى وفى دمى وحياتى كلها قضيتها فى هذا العمل الذى أحبه وأعشقه . .

إن الذى قوى من عزيمتى هو إحساسى أن هذا العدد قد صدر بعد كفاح ونضال وتعب وسهر وبكاء ليل نهار . . ثم إحساس أيضاً أن هذه الصحيفة مثل «ابنة لى» برغم أننى لست متزوجاً . . إنها منى . ومن دمى ومن أعصابى وثمرة كفاح .

موقف سفير مصر . .

لقد حملت أول عدد صدر من صحيفتي وذهبت به إلى الدكتور عصمت عبد المجيد سفير مصر الدائم فى الأمم المتحدة . وأطلعته عليه وقلت له : إننى غير راض عن هذا العدد لأنه كما ترى من خلال العنوان الرئيسى « المانشيت » فقد كتبته بخط يدى لأننى لا أجد « خطاطاً » .

لقد كان السفير المصرى رجلا عظيماً فى حديثه معى . . وكان مجاملا ومشجعاً للخطوة التى أقدمت عليها فى إصدار الصحيفة . . وطلب من أحد موظفى المقر الدائم أن يكتب لى « شيكا » بالاشتراك فى هذه الصحيفة لمدة سنة على أن يكون الاشتراك فى ثلاثين نسخة . .

كان هذا الموقف من السفير المصرى عاملاً كبيراً وله تأثير عظيم فى نفسى مما شجعنى أكثر فى أن أواصل الكفاح والعمل . .

قبل أن أنصرف من مكتب الدكتور عصمت عبد المجيد قال لى : أريد أن أقدم إليك نصيحة وهى : أرجو ألا تدخل فى مهاترات مع أى طائفة أو هيئة . . أو جماعة .. يجب أن تظل معتدلا . . وأن تكون مصرياً لأن العمل الذى تقوم به لا يقل عن عملى كسفير لبلدى . .

لقد أعجبت كثيراً بهذا الرجل . وبحديثه وكلامه وأحسست أننى أمام رجل يحب مصر أولا وأخيرا ، ويريد مصلحة مصر والخير لأبناء مصر . . وشكرت السفير على نصائحه . ومد يده لى وهو يشد على يدى متمنياً لى النجاح . .

بعد صدور عدة أعداد من صحيفتى كان لابد لى أن أقوم بجولة على الأندية العربية المختلفة الموجودة بمدينة نيويورك وفى ولاية نيوجيرسى أولا . . ثم بعد ذلك أقوم بزيارات أخرى لبعض الأندية الموجودة فى عدد من الولايات الأمريكية الأخرى لأعرفهم بنفسى وأقدم لهم صحيفتى وأستطلع آراء الذين ألتقى بهم فى الموضوعات والأخبار التى أنشرها . .

كانت أول زيارة لى قمت بها إلى النادى الفلسطينى فى حى بروكلين بمدينة نيويورك وكنت أعلم أن جميع الفلسطينيين أو عدداً كبيراً منهم يحضرون إلى ناديهم أو يجتمعون فيه مساء كل «يوم سبت» .

ذهبت إلى النادى مبكراً بعض الوقت بغرض الاجتماع مع رئيس وأعضاء مجلس إدارة النادى ، وتم اللقاء معهم وتعرفت عليهم ، ثم سلمت كل واحد منهم عدداً من صحيفتى وعرفت منهم أنهم قد قرءوها من قبل . . ثم طلبت منهم أن يقدمونى فى نهاية أو بداية اجتماعهم مع أعضاء النادى للتعرف عليهم وطلب تشجيعهم إذا كانوا يريدون الاشتراك فى صحيفتى . .

وانتظرت معهم حتى اكتمل عدد كل الأعضاء وكان عددهم يبلغ عدة

مئات . . وفى بداية الاجتماع تحدث رئيس النادى وقال بالحرف الواحد : ياشباب . . يوجد معنا الآن شاب مصرى وهو الأستاذ . . وذكر اسمى وقد أصدر صحيفة عربية هنا فى مدينة نيويورك ونحن نرحب به بيننا كشاب عربى . ونرحب بصحيفته . ونرجو إذا كان واحد منكم يريد الاشتراك فى الصحيفة فليتقدم الآن بدفع قيمة الاشتراك . . ولم يكمل الرجل بقية حديثه حتى فوجئت بعدد كبير من الشباب الموجودين فى قاعة الاجتماع يقف مندفعاً وثائراً . وهائجاً وهو ينادى بإخراجى من قاعة الاجتماع . . وصاح آخرون نحن لانريد مصريين معنا . . وقال فريق ثالث . . إننا لن نشترك فى صحيفة يصدرها مصرى . . . وقال فريق رابع : نحن سوف نحاربه ونمزق صحيفته لأننا نعرف أنه عدو لعبد الناصر . .

ثار الدم فى عروق وأنا أستمع إلى هذه الثورة العارمة ضدى والتى لم أكن أتوقعها أبداً وخاصة أنها تصدر من شباب عرب . . ووقفت لأرد على هذه الحملة بشدة وعنف ، ولكن سبقنى إلى ذلك رئيس النادى . . والوكيل . . وأمين الصندوق وهم رجال كبار السن ويمتلك كل واحد منهم عدة محال للتجارة ولهم تأثير كبير فى أوساط الفلسطينيين من حيث تأثيرهم المادى . .

الحقيقة التى لا أنكرها أن الرجال الثلاثة دافعوا عنى بكل حرارة . وكان دفاعهم يرتكز على أننى شاب مكافح . ثم إننى إذا كنت أهاجم عبد الناصر أو أعاديه أو لى رأى فى تصرفاته فكل واحد من الموجودين له رأى يختلف عن الآخر . . ثم قال رئيس النادى : أنا شخصياً كما تعلمون لا أحب عبد الناصر لأنه كان السبب فى كل الكوارث التى كانت نتيجتها ضياع أراضينا وتشريدكم جميعا . .

لم يستمع الشباب إلى ما قاله رئيس النادى أو الوكيل . . أو أمين الصندوق

واستمروا فى صياحهم وثورتهم علىّ ولم أحتمل هجوم الشباب واندفعت واقفاً لأقول لهم : إننى لم أحضر إلى هنا لأتسول منكم . . وإذا كان واحد منكم يريد بالاشتراك الذى سيدفعه أن يجعلنى تابعاً لكم أو خاضعاً لآرائكم فإننى أرفض هذا الاشتراك . . وأحب أن أسجل هنا أسفى لموقفكم المخزى فقد كنت أتوقع أن تأتى مثل هذه الثورة من « اليهود » وليس من عرب مثلكم . وتركت المكان وانصرفت وأنا حزين وغاضب وثائر ونفسى تتمزق من الداخل لهذه المعاملة السيئة التى قوبلت بها من شباب عرب وفى قلب ناديهم . .

كان هذا الموقف له تأثير كبير على نفسيتى . فقد قررت أن أقوم بحملة شديدة على « عبد الناصر » من خلال المقالات . والموضوعات التى أنشرها فى صحيفتى . وكان دافعى الأول هو كراهيتى الشديدة له منذ بداية الثورة . . ثم المشاكل والمتاعب والآلام التى واجهتها وما زلت أواجهها بسبب غربتى وتشريدى خارج أرض بلادى . . ثم كراهية فى الشباب الفلسطينيين الجهّال الذين لا يدركون حقيقة عبد الناصر . . ثم ليكون هناك صراع بينى وبين هؤلاء الرافضين أو الناصريين ومن خلال هذا الصراع على صفحات جريدتى يصبح للصحيفة لون سياسى معروف .

وفعلا : كان العدد الذى أصدرته بعد هذا اللقاء المثير بينى وبين هؤلاء الشباب الفلسطينيين يحمل عدداً من المقالات التى كتبتها وكشفت فيها بعض خفايا عبد الناصر . . ثم نقلت من بعض الصحف والمجلات العربية عدداً من التحقيقات الصحفية والأحاديث التى تهاجم حكم جمال عبد الناصر منسوبة إلى هذه الصحف والمجلات . .

وكالعادة قمت بطبع الصحيفة وتوزيعها على المحال العربية وعلى صدر صفحاتها

عناوين مثيرة تجذب القارئ إلى شرائها . .

وفى اليوم التالى اتصل بى تليفونيا عدد من أصحاب المحال المصريين وأبلغونى أن بعض الشباب من الفلسطينيين قاموا بتمزيق «اللافتات» التى كانت معلقة على واجهات محالهم تحمل اسم «جريدة الشرق الأوسط» بل هددوا أصحاب هذه المحال بمقاطعتهم إذا قاموا بعرض الجريدة للتوزيع على عملائهم أو الزبائن الذين يترددون عليهم . .

الواقع أننى حزنت ، وتملكتنى حالة من الغضب الشديد وأخذت أفكر فى كيفية مواجهة هذا الموقف وهل سيكون لمثل هذه التصرفات تأثير على توزيع الصحيفة بعد أن انتشرت وأصبح عدد كبير من المهاجرين يؤيدوننى . وبدأت رسائل كثيرة تصلنى من عدد كبير من المهاجرين المصريين والعرب فى بعض الولايات الأمريكية يطلبون الاشتراك فى الصحيفة . .

وبرغم ما كنت أعانيه من آلام نفسية إلا أننى قررت أن أستمر فى عملية الهجوم على حكم عبد الناصر مهما تكن النتيجة . . إننى لست أول من يهاجمه ولن أكون آخر من يهاجمه . . ثم إننى أهاجمه من واقع حبى لوطنى مثل أى مصرى يرفض تصرفاته التى أوصلت مصر إلى الخراب والدمار والإفلاس نتيجة الحروب والمغامرات الفاشلة وزاد من إيمانى وعزيمتى زيارة عدد كبير من المهاجرين المصريين لى فى مكتبى . . ثم الرسائل التى كانت تصلنى تؤيد وجهة نظرى . . بل الأكثر من ذلك تطوع عدد من المهاجرين بمساعدتى فى كتابة المقالات والموضوعات التى تتناول تصرفات حكم عبد الناصر . وبدأت أنشر هذه المقالات بصور وأسماء أصحابها ولم يؤثر ذلك فى انتشار الصحيفة . .

التهرب من الضرائب . .

يبدو أن التهرب من دفع الضرائب للدولة ليس فى مصر فقط . . ولكنه عملية احتيال يقوم بها كل الناس من كبار رجال الأعمال وغيرهم فى كل بلاد العالم حتى فى الولايات المتحدة الأمريكية نفسها . .

إن الحياة فى أمريكا سنوات طويلة علمتنى أشياء كثيرة لم أكن أعرفها أو أدركها أو لدى أدنى فكرة عنها .

يعنى مثلا . . بعد مرور عام على إصدار صحيفتى عرفت أنه لابد أن أجمع كل حساباتى من دخل ومصروفات وغيرهما مدعمة بالإيصالات والمستندات إلى إدارة الضرائب عن طريق محاسب قانونى يتولى هو تقديم كل هذه الأوراق بعد مراجعتها إلى الجهة المختصة . .

الحقيقة أنها كانت مفاجأة لى لم أكن أعرفها أو أتوقعها أو أعمل حساباتها . .

ماذا أفعل . . ؟ إن كل ما اشتريته وأنفقته من مصروفات سواء فى تأسيس مكتبى . . أو مشتريات أخرى كثيرة خاصة بالصحيفة حصلت على إيصالات بها ، ولكن كل هذه الإيصالات مزقتها . . أو ألقيت بها فى مكان لا أعرفه . . أو ربما ألقيت بها فى الطريق اعتماداً على أننى لن أحتاج إليها بعد ذلك . .

لم أكن أعرف أبداً أنه يجب علىّ أن أحتفظ بكل ورقة أو إيصال - حتى لو كانت تذكرة ركوب أتوبيس أو قطار أو روشتة علاج عند طبيب . . كل ورقة أو إيصال مهما تكن ضآلة قيمته يجب الاحتفاظ به لتقديمه إلى مصلحة الضرائب لمراجعة حساباتك . . !

لقد ذهلت وأسقط فى يدى وأنا أستمع إلى هذا الكلام من صديقى الذى سألنى : هل قدمت إقرارك الضريبى عن الصحيفة التى تصدرها . . ؟

ولما عرف منى أننى لا أحتفظ بأى أيصال أو ورقة أو شىء غير إيصالات إيجار مكتبى «لطم خدوده» وقال لى : رحت فى داهية . . !

قلت له : وما العمل . . وماذا أفعل . . ؟

قال : عليك أن تذهب إلى مكتب أحد المحاسبين وتقول له كل الحقائق ربما يجد لك مخرجاً !

الحقيقة أننى شعرت أن كارثة سوف تدمر حياتى . وتضيع كل شىء وتهدم كل ماشيدته . وتقضى على مستقبلى الذى بدأ يزدهر وتغلق كل الأبواب التى أصبحت مفتوحة أمامى . .

إن التهرب من دفع الضرائب فى أمريكا جريمة كبيرة يمكن أن تقضى على حياة ومستقبل وسمعة أى إنسان مهما تكن قيمته . . ومهما يكن مركزه . وقفزت إلى ذهنى على الفور «الغلطة» التى وقع فيها «سبيرو أجنيو» نائب رئيس جمهورية الولايات المتحدة فى عهد الرئيس السابق نيكسون عندما تهرب من دفع ضرائب للدولة عن مكاسبه من ممتلكاته — وكانت بضعة آلاف فقط من الدولارات — وقامت الصحف الأمريكية بحملة واسعة ضده تتهمه بالتزوير وسرقة أموال الدولة . . وحاول هو من جانبه الدفاع عن نفسه بأنه قد نسى ذكر هذا المبلغ ضمن إقراره الضريبى . . إلا أن الصحف استمرت فى حملتها عليه حتى أجبرته فى النهاية على تقديم استقالته . . ودفع ما عليه من ضرائب . . ! !

عندما تذكرت هذه الحملة التى كنت أتابعها كل يوم فى الصحف انهارت أعصابى وشعرت بأن الأرض تدور من تحت قدمىّ : ماذا أفعل . . ؟

لقد شعرت بحالة من الضيق والقرف والكآبة وتركت مكتبي وقررت العودة إلى منزلى لأجرى بعض الاتصالات مع عدد من الأصدقاء ربما أجد من بينهم من يكون لديه حل يخرجنى من هذه الكارثة . . وفى أثناء سيرى فى الطريق التقيت « فجأة » برجل يهودى مصرى كنت أعرفه عندما كان يعيش فى مصر . . وصافحنى بحرارة وهو يشد على يدى ويسألنى عن أحوالى وعن سبب وجودى فى نيويورك . . ولاحظ الرجل أن حالتى غير طبيعية وأننى لا أرحب به بحرارة مثله فسألنى : ماذا بك . . إننى أراك مهموماً . . ماذا يشغلك . . وهل هناك ما يمكن أن أساعدك فيه . . ؟

كدت أن أبكى وأنا أقول له عن مشكلتى التى تتعلق بالضرائب . .

وبكل هدوء ابتسم الرجل وقال لى : دى حاجة بسيطة خالص ولا يهمك . . إنك لم تتهرب من دفع الضرائب ولكنها غلطة . إن أكثر الناس هنا حتى المليونيرات حرامية .

قلت له فى دهشة وقد هدأت نفسى قليلا كيف . . ؟

سوف أتولى أنا — لو أردت — تسوية حسابات ضرائبك . . لأننى محاسب . .

قلت له : ماذا ستفعل . . ؟

قال : أين مكتبك . . ؟

قلت : على بعد خطوات من هنا . .

قال : هيا بنا نعود إلى مكتبك لتقول لى ماذا صرفت . وماذا اشتريت . وماذا كسبت و . و . . إلخ

وعدت إلى مكتبي وجلس معى بضع ساعات قال لى فى نهايتها : اسمع يا سيدى . . سوف أكتب فى الإقرار الضريبى أن أول عدد صدر من

صحيفتك قمت بتوزيعه «مجاناً» للدعاية . .

ثم إن كل الإعلانات التى نشرتها فى أول عدد أيضاً لم نحصل من أصحابها على ثمن نشرها «كدعاية أيضاً» وتشجيعاً لهم على النشر فيما بعد . . و. و. و. ، وأخذ يعدد لى طرقاً كثيرة فى كيفية الخروج من الورطة التى كنت أشعر بها . .

ثم قال لى فى النهاية : إننى سوف أذكر فى الإقرار الضريبى أنك خسرت خلال هذا العام خمسة آلاف دولار . . ؟ !

قلت : كيف . . ولماذا . . ؟

قال : إن أى مشروع أو عمل يقوم به أى إنسان لا بد أن يذكر فى العام الأول أنه «خسران» لأن هذه الخسائر فى الأموال سوف نخصم من المكاسب التى سوف يجنيها أو يربحها أو يحصل عليها فى الأعوام القادمة بعد ذلك وعلى أقساط . . يعنى لابد لك فى الأعوام التى بعد ذلك أن تحقق أرباحاً ولا تقل إنك «خسران» وإلا فإن إدارة الضرائب والجهات الأخرى سوف تسألك : إذا كان مشروعك أو عملك يخسر ولا يحقق أى مكاسب فمن أين تنفق أو تعيش . وتبدأ جهات أخرى تتحرى عنك وعن مصادر دخلك وتقع فى مشكلة أخرى . . !

ثم قال لى : هل تعرف لماذا يتبرع يهود أمريكا لإسرائيل بملايين الدولارات كل عام . . ؟

قلت : لا . .

قال : كل هذه الملايين التى يتبرعون بها فى الحقيقة جزء من المكاسب التى حققوها من وراء مشروعاتهم . وحتى لا يدفعوا عنها ضرائب للدولة فإنهم يتبرعون بها لإسرائيل . . والتبرعات طبعاً معفاة من الضرائب . . ! !

ثم قال لى أيضا : إن عدداً كبيراً من كبار رجال الأعمال الأمريكيين يربحون كل

عام مبالغ ضخمة من الدولارات . وحتى لايدفعوا عنها كلها ضرائب فإنهم يقومون برحلات سياحية حول العالم بحجة التوسع فى مشروعاتهم .. . أو يقومون بإجراء توسعات وإصلاحات وتجديدات فى هذه المشروعات أو الصناعات حتى يخففوا عن أنفسهم من قيمة الضرائب التى سوف يدفعونها للدولة . . !

لقد شعرت براحة كبيرة وأنا أستمع إلى كلام هذا الرجل وزالت عنى الكآبة التى أحس بها . . وقبل أن يغادر الرجل مكتبى قال لى : بعد ثلاثة أيام سأحضر إليك ومعى كل الأوراق التى تتعلق بالضرائب لترسلها بنفسك إلى الجهة المختصة . . وأنجز الرجل الأوراق وبعثت بها إلى إدارة الضرائب التى وافقت عليها . . ولم أطمئن إلا بعد أن وصلنى خطاب رسمى من الضرائب بتسوية حساباتى . . ! !

صراعات بين المصريين . . !

واصلت جولاتى فى زيارة الأندية المختلفة التى تمثل الجاليات العربية فى مدينة نيويورك للتعرف على أعضائها من ناحية . ثم تعريفهم بصحيفتى والغرض من إصدارها وهو أن يكون لنا جميعاً نحن المصريين والعرب رأى بين بقية الجاليات المختلفة والكثيرة والمنتشرة فى كل الولايات الأمريكية . والتى تصدر بدورها بعض الصحف التى تعبر عن رأيها . .

إن الشىء الغريب الذى أذهلنى وأدهشنى وجعلنى أشعر بالحسرة وخيبة الأمل أننى كلما ذهبت لزيارة أحد الأندية المصرية أو العربية وجدت خلافات وصراعات بين الأعضاء . . وكانت بعض هذه الصراعات تثار أمامى فى مناقشات حادة وحامية بين بعض الأعضاء وقد لمست أن هذه الخلافات أو الصراعات كلها

بسبب الاتجاهات السياسية المختلفة للأعضاء وبعضها يمثل المعارضة لسلوك رئيس النادى أو الجمعية أو الهيئة . .

لقد كنت دائماً أقف من كل هذه الصراعات موقف المحايد تارة وتارة أخرى أتدخل بحكم وجودى أو بدافع من بعض الأعضاء للمصالحة بينهم . . أو تهدئة الجو وتصفية ما يدور من خلافات . . وبعد أن يهدأ الجو أتحدث معهم بشأن المهمة التى حضرت إليهم من أجلها . . .

والشيء الغريب أيضاً أننى وجدت فى كل الأندية أو الهيئات التى قمت بزيارتها واجتمعت مع أعضائها رغبتهم أن تكون «صحيفتى» معبرة عن رأيهم وحدهم دون بقية الهيئات أو الأندية الأخرى . . ! !

يعنى مثلا : طلب منى أعضاء جمعية دينية فى «مدينة نيوجيرسى» أن تكون صحيفتى دينية ولا تنشر شيئاً غير ذلك ورفضت قائلا لهم : إن الصحيفة تحمل اسم «الشرق الأوسط» وهى سياسية واجتماعية وهدفها خدمة جميع الجاليات . . والدفاع عن قضايا بلادنا إلى جانب بحث مشاكل المهاجرين ولكن لا مانع لدى من نشر أحاديث أو مقالات دينية . . ورفضوا . .

وطلب منى فريق آخر من المصريين أن أهاجم طائفة أخرى . . أو أقوم بالرد على الهجوم الذى يوجه من هذه الطائفة – فى النشرات التى تصدرها – على بعض الاتجاهات الدينية . . ورفضت أيضاً وقلت لهم : إننى مصرى أولا وأخيراً ولا أريد أن أدخل فى صراعات بين الهيئات أو الطوائف المختلفة . . . كانت كل طائفة . . أو ناد أو هيئة يريد أعضاؤها أن أكون لهم وحدهم دون سواهم ، وإلا فإنهم لن يشتركوا فى صحيفتى . .

شيء غريب جدا أن تكون هذه روح أعضاء الجاليات العربية المختلفة الموجودة

فى نيويورك أو فى نيوجيرسى . . لم أجد تعاوناً مخلصاً من كل هذه الهيئات المتصارعة . . ولم أجد أيضاً غير أن أعتمد على نفسى وأقدم فى صحيفتى من المواد التحريرية ما يجبر كل هؤلاء على شرائها . .

المواد التحريرية بالصحيفة . .

ربما يسألني قارئ هذا الكتاب عن المواد التحريرية أو الموضوعات أو المقالات التى كنت أنشرها فى صحيفتى . . والجواب هو :

كنت أعرف أنه لا تصل إلى مدينة نيويورك . . أو مدينة نيوجيرسى . . أو أى ولاية أمريكية صحيفة من الصحف المصرية إلا صحيفة « الأهرام » التى تصدر يوم الجمعة . . وصحيفة « أخبار اليوم » التى تصدر يوم السبت فقط . . أما بقية الصحف التى تصدر فى مصر بقية أيام الأسبوع فإنها لا تصل أبداً . . ولذلك ركزت كل اهتمامى للحصول على الصحف المصرية التى تصدر فى وسط الأسبوع والتى لا تصل إلى أمريكا . وأنقل منها بعض الأخبار التى تتعلق بالمهاجرين . . أو تتصل بحياتهم . . أو تتناول الحياة والمشاكل والأحداث . . والحوادث المثيرة والقضايا الهامة . ثم أقوم بإعادة صياغتها من جديد وأنشرها فى صحيفتى . .

هذا إلى جانب أننى كنت أذهب كل يوم إلى مَبنى الأمم المتحدة لمتابعة آخر تطورات الموقف وأحصل من بعض السفراء العرب على الأخبار التى تهم الجاليات الموجودة فى أمريكا . . بالإضافة أيضاً إلى أننى كنت أنشر كل أسبوع مقالا دينيًّا لرئيس المركز الإسلامى فى نيويورك . أو واشنطن ثم مقالا آخر لرجل دين مسيحى من المصريين الموجودين فى أمريكا .

أعتقد أنه من الواجب أن أسجل هنا موقفاً جميلا وعظيماً جعل كل المصريين الموجودين فى نيويورك . . ونيوجيرسى . وبقية الولايات الأخرى ينسون الخلافات والصراعات التى كانت بينهم ويمشون فى الشوارع والطرقات وأيديهم متشابكة ويحتضن كل منهم الآخر ويقبله . . هذا الموقف ظهر يوم توقفت كل محطات الإذاعات والتليفزيون فى أمريكا وقطعت برامجها لتعلن «نبأ» اقتحام القوات المصرية لقناة السويس . وتحطيمها خط بارليف . وتقدمها فى صحراء سيناء . .

لقد اتصل بى كل الذين كانوا يختلفون معى فى الرأى . . أو الاتجاه وقد نسوا جميعا كل الخلافات التى كانت بينهم . . كان كل اهتمامهم هو مصر . . وانتصار جيش مصر . . ورأسهم التى ارتفعت بين كل شعوب العالم التى تعيش فى أمريكا . . وعودة القوة إلى «الإنسان المصرى» . . ونظرة الاستعلاء التى كانوا ينظرون بها إلى كل الناس نتيجة الانتصار بعد الذل والهوان الذى كانوا يعيشون فيه والذى كان السبب فى كل الخلافات بينهم . .

وبعد سنوات قليلة من الحياة فى أمريكا وحصولى على الإقامة الدائمة بالولايات المتحدة الأمريكية بعد سنوات طويلة قضيتها كلها فى تعب . . وإرهاق . . وقلق . . وبكاء . . ورعب وخوف . . جلست أفكر وأسأل نفسى :

هل من المعقول أن أستمر فى إصدار صحيفة أحررها كلها بمفردى . . وأقوم

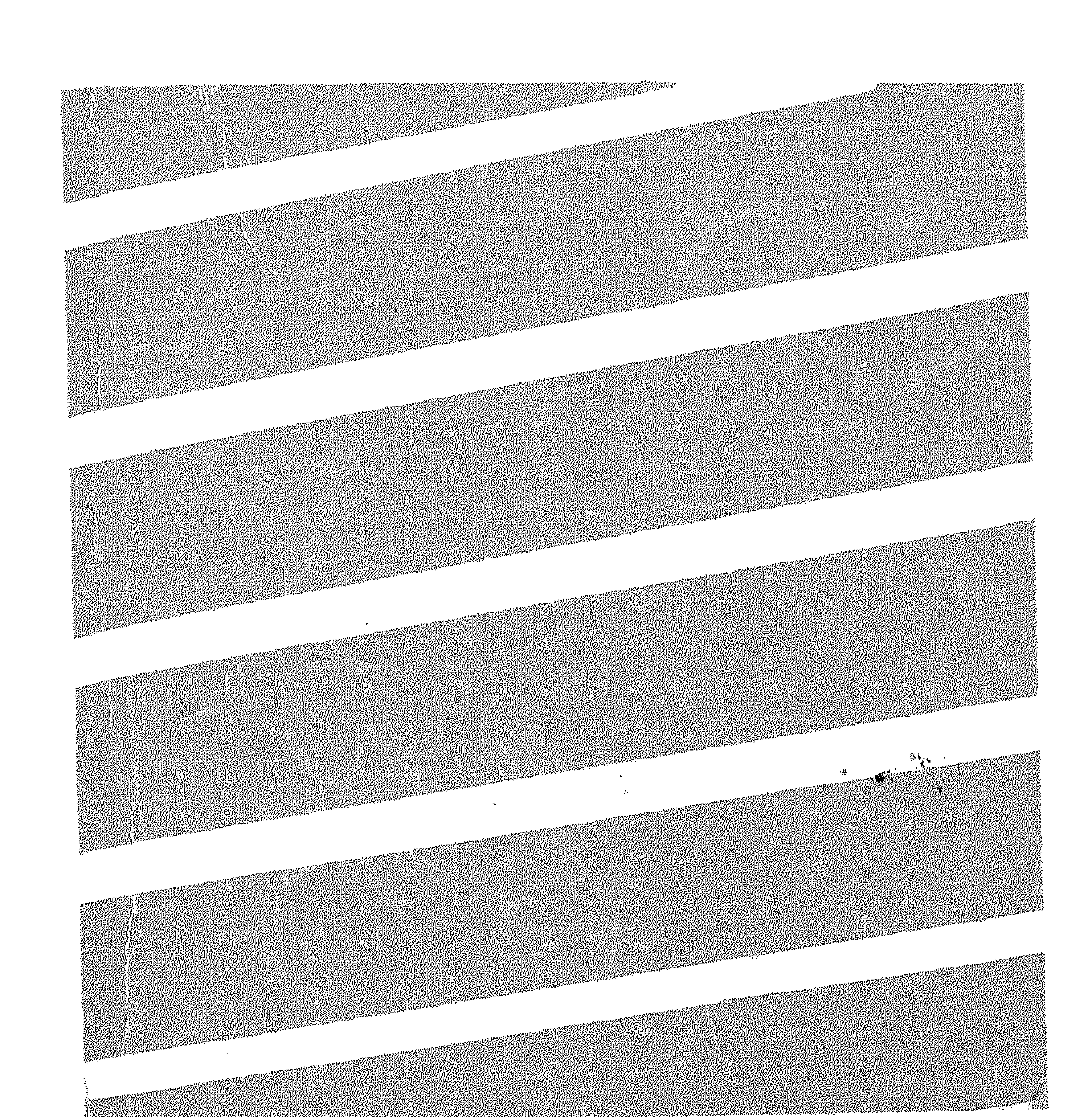
بتوزيعها وجمع الإعلانات وتحصيل ثمنها . ثم حضور المؤتمرات الصحفية اليومية بمقر الأمم المتحدة . . والذهاب إلى السفارات العربية المنتشرة فى أحياء مدينة نيويورك والاجتماع بالناس من مختلف الأوساط والطبقات . . بالإضافة إلى مشاغلى الأخرى التى تتعلق بحياتى الشخصية . .

وكانت الإجابة : لا . . . لا أستطيع أبداً أن أستمر فى هذه الدوامة المستمرة من العمل ليل نهار دون راحة أو نوم بمفردى . . وتجمعت مشاعرى كلها لتنطلق مثل الصاروخ لتستقر فى كل كيانى ووجدانى وتنطلق فى صرخة قوية ومدوية لا شيء غير العودة إلى حبيبتى . . إلى أمى . . إلى العظيمة التى هجرتها . . إلى التى احتضنتنى وأنا صغير . . وتولت رعايتى وأنا شاب . . وبكيت سنوات لفراقها . . وأشعر الآن أننى لا أستطيع الحياة بعيداً عنها . . . إنها عقلى . . وفكرى . . وكيانى . . ووجدانى . . وقلبى الذى ينبض بالحياة . . إنها مصر . . !

رقم الإيداع	١٩٧٩/٣٤٠٣
الترقيم الدولى	٩ - ٧٧٦ - ٢٤٧ - ٩٧٧ ISBN

١/٧٨/٣٣٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)



د. ابراهيم دسوقي أبا

اقرأ

كيف نبد
البناء

اقرأ
تصدر أول كل شهر
[٤٤٨] - أغسطس - ١٩٧٩

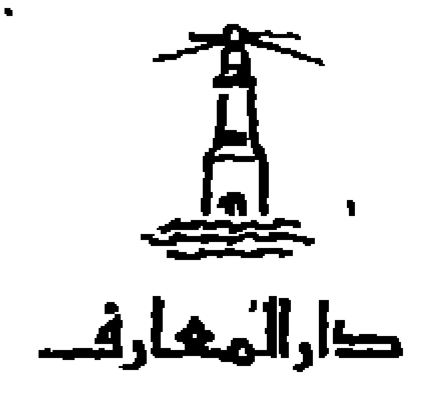
رئيس التحرير أنيس منصور

تصميم الغلاف : شريفة أبو سيف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

د. إبراهيم دسوقي أباظه

كيف نبدأ البناء!



دار المعارف

فهرس

مقدمة

ربع قرن ضاع من عمر مصر . .

ربع قرن هو فى حساب الزمن قرنان من الارتداد والتخلف . . .

ربع قرن شغلت مصر فيه عن نفسها ، فاشتغل بها الجهلاء والأعداء والمتآمرون . . وهوى رصيدها فى ركب التقدم إلى الصفر أو مادونه بقليل !

وهى اليوم تواجه البناء فى ظرف صعب . .

وهذه المواجهة تفرض عليها التحرك بسرعتين :

سرعة لتدارك الماضى ، وسرعة لتلحق بالمستقبل

فمن أين لمصر بهذا الجهد المضاعف ؟

إن مواجهة دقيقة بين مواردها المتواضعة وحجمها السكانى لا تدع مجالا للاستنتاج : فهذا الحجم السكانى الهائل مازال يعيش على شريحة خضراء لم تزد ولم

تنقص منذ ربع قرن من الزمان ، ومازال يعتمد على ثروات معدنية وبترولية جد محدودة ، ومازال يستخدم من الأساليب والوسائل ما عافه الزمن ونبذه العصر !

ولكن مشكلة مصر لا تكمن فى معادلة الموارد والسكان ، ولكنها تكمن فى معادلة التنظيم والإنسان ، ولو أتيحت لمصر موارد الأرض جميعها لما استطاعت أن تنهض بغير إقرار تنظيم وبناء إنسان !

وليس فى هذا إغضاء لدور الموارد والثروات فى بناء الأمم . فالموارد والثروات تيسر ولا شك من سبيل النهضة وتعين الشعوب العاملة على التقدم والارتقاء ، ولكنها ليست شرطاً ضرورياً لحدوث تقدم وقيام نهضة . .

فهناك أمم فقيرة بمواردها وثرواتها استطاعت النهوض والتقدم بفضل دقة تنظيمها . وقدرة إنسانها !

وهناك أمم غنية بمواردها الطبيعية مازالت تعيش فى قاع التخلف بسبب غيبة تنظيمها ، وانحطاط إنسانها[1] .

ومشكلة التنظيم والإنسان تطرح أمامنا مشكلة أخرى ترتبط بها وترتكز عليها . . وهى مشكلة الأيديولوجية التى يمتثل لها المجتمع ، ويتقيد بمبادئها .

والأيديولوجية فى تعبير مبسط هى التصور الاعتقادى للمجتمع الأفضل والمذهب أو النهج الذى يمكن اتباعه لإدراك هذا المجتمع .

ونجاح القيادة السياسية فى بناء المجتمع رهين بقدر سلامة الأيديولوجية التى تعتنقها ومدى استجابة الأغلبية الشعبية لها وانفعالها بها فى سلوكها اليومى .

---

(١) أمامنا أمثلة حية : فاليابان أفقر دول الأرض بمواردها الطبيعية نجدها فى مقدمة دول الأرض تقدما وارتقاء ! والكونغو بشقيه وهو أغنى بقاع الأرض بالموارد والثروات الطبيعية يعتبر من أشد بقاع الأرض تخلفاً وأقلها حظاً من الارتقاء والتقدم !

وعلى ذلك فالأيديولوجية السائدة فى مجتمع ما ، هى التى تحدد شكل التنظيم السياسى والاقتصادى والاجتماعى القائم به ، وهى التى تحدد الأساليب والوسائل التى تنهجها القيادة السياسية لإدراك الأهداف والغايات التى يرنو إليها ، وهى التى تحدد كذلك الحوافز وأنماط السلوك التى تطبع الإنسان فى جهاده اليومى من أجل البناء والارتقاء .

وفى النظم الشمولية حيث تسود العقيدة الواحدة والمذهب الواحد يجمد البناء التنظيمى والسلوك الإنسانى عند الأساليب والأنماط التى تفرضها العقيدة ويرسمها المذهب ، وتنعدم أو تضيق البدائل والممكنات التى تستجد بالتجربة أو تطرحها الظروف الطارئة ويصبح الطريق إلى التقدم والارتقاء محفوفاً بالعقبات والمشاق .

وفى النظم الديمقراطية حيث تتنافس العقائد والمذاهب لإدراك المجتمع الأفضل تتعدد أشكال البناء التنظيمى والسلوك الإنسانى بتعدد العقائد والمذاهب المطروحة فى الساحة السياسية ، ويصبح المجتمع أمام اختيار واسع لعدد من البدائل والممكنات .

والقيادة السياسية فى ظل أى نظام كان تختط من التنظيمات ، وترسم من السياسات ، وتستخدم من أساليب العمل ما يتفق وأيديولوجيتها ؛ ومن هنا يبدو دورها فى بناء الإنسان وتوجيه قدراته الخلاقة إلى التقدم والارتقاء ، وهو دور جد خطير لا تتوافر مقوماته إلا من خلال تربية واعية وتعليم رشيد وثقافة واسعة ، ولا يدرك غايته إلا فى محيط يحترم إنسانية الإنسان ، ويقدس حقه فى حرية الرأى والكلمة .

لذلك عنى الفكر السياسى منذ أقدم العصور بكيفية انتقاء هذه القيادة السياسية ، وكيفية أدائها لوظائفها ، وكيفية محاسبتها عند كل انحراف أو شطط ، وكيفية إبدالها عند الاقتضاء ؛ واهتدى عبر مسيرته الطويلة إلى أن أفضل سبل

الحكم وأقلها خطراً تتمثل فى إسناد القيادة السياسية لإرادة الأغلبية العددية ، وجعل استمرارها رهيناً بإرادة هذه الأغلبية .

هذا السبيل الذى يعرف فى اللغة الشائعة بالديمقراطية السياسية هو مشكلة مصر الأولى ، بل هو مفتاح المشاكل المركبة التى ينوء بها شعب مصر؟

والذين يتغاضون عن هذه المشكلة الكبرى - وينشدون الإصلاح بعيداً عنها- إنما يزرعون فى وادى العدم ، ويضيعون من وقت الأمة ضياعاً فوق ضياع ، ومالاً فوق مال !

فالقيادة السياسية هى قمة الحكم وأداة التوجيه فى الأمة : إذا صلحت صلحت أمورها ، وإذا فسدت فسدت أمورها ! ولن نرجو للمجتمع تنظيماً ولا للإنسان بناء فى ظل قيادة سياسية تقصر عن التنظيم وتعجز عن البناء !

وإذا ما تفحصنا طبيعة القيادة السياسية التى انتهت إليها ثورة ٢٣ يوليو على ضوء المقاييس السالفة تبينا فقدانها لشرطين أساسيين من شروط الصلاحية : أولهما الديمقراطية والآخر الأيديولوجية :

فقد تحولت الديمقراطية إلى مجرد شعار يخفى حقيقة القيادة الشمولية التى آل إليها الحكم ، وهى قيادة استمدت وجودها من القوة المادية ، وجمعت فى قبضة رجل واحد مقاليد السلطة السياسية ، وجعلت استمرارها أقرب إلى ملكية مطلقة تقنعت فى ثياب جمهورية شعبية !

غير أن هذه القيادة الشمولية لم تكن تحمل منذ يومها الأول أيديولوجية واضحة المعالم مستقرة الأركان ؛ إنما كانت تحمل خليطاً من المبادئ العامة والأحلام المبهمة التى تدور حول بناء المستقبل ! وهى مبادئ وأحلام صنعتها الأمانى الشعبية وحجبتها التيارات الوافدة التى غزت الساحة السياسية منذ الخمسينات من هذا القرن .

وعلى الرغم من استجابة الشعب لها وانفعاله الوقتى بها فإنها لم تكن تشكل وحدة أيديولوجية متصلة الأجزاء ، بل كانت تعبر عن مجموعة من المعانى السامية التى تدور حول العدل والحرية والمساواة !

ولعل رجال الثورة قد استشعروا نقطة الضعف هذه من البداية ، فطفقوا يبحثون لهذه المعانى عن نظرية تجمع شملها ، وتوضح مضمونها ، وتمنحها قوة النفاذ إلى قلوب الجماهير وعقولهم ، وسرعان ما التقوا فى بحثهم وتيار اليسار الماركسى ، فاقتبسوا منه ما راقهم من مبادئ وشعارات ، وأخذوا عنه ما أعجبهم من مذاهب وفلسفات ، وخرجوا فى صبيحة يوم يعلنون أيديولوجيتهم الجديدة فيما سموه بالاشتراكية العربية !

غير أن هذا اللقاء بين الماركسية والناصرية لم يكن لقاء عقيدة وإيمان بقدر ما كان لقاء تسخير واستخدام أراد به كل طرف استغلال ما عند الآخر وتكريسه لحسابه . فقد استهدف الماركسيون ركوب الناصرية وصولاً لأهدافهم على حين استهدف الناصريون تغطية مذهبية لسلوك القيادة ووسادة أيديولوجية يتكئون عليها لضرب الخصوم وكسب الأنصار .

ولا إخالنى متحازاً إذا أعلنت من البداية أن ماراج فى مصر من شعارات وما انتهج من سياسات طوال عهد القيادة الناصرية يصعب تفسيره بغير الرجوع إلى تيار الفكر الماركسى : فعن هذا التيار وهذه الممارسة أخذت مصر الكثير من أساليبها ، ومن هنا اختلطت اللهجات السياسية فى أفواه الحكام والمحكومين ، وتراوحت بين ناصريين يتكلمون لغة ماركسية . وماركسيين يتكلمون لغة ناصرية ! والفصل بين هذه اللهجات يقتضى مواجهات فكرية تعود بالقارئ إلى المنابع

المذهبية التى عنها استقت التجربة الناصرية ، وبها تأثرت قيادتها وتنظيمها وإنسانها !

وتجربة الأمس – وأعنى بها تجربة الثورة – على كثرة ما كتب فيها مازالت بعيدة عن متناول الباحثين ، فكثير من وقائعها مازال مبهماً ، وكثير من أسبابها مازال مجهولاً ، وكثير من أدوارها مازال مفقوداً !

وما طَفَا على السطح مما يتناقله الناس هو فى بساطة ما لا يمكن إخفاؤه ! . .

هو جسم الجريمة دون أسباب الجريمة ! .

هو نتائج الخطأ دون دوافع الخطأ !

هو حصيلة الانحراف دون بواعث الانحراف !

فالأسباب والدوافع والبواعث مازالت فى الوثائق المدفونة ، وفى الصدور المكتومة ، وفى السجلات المهربة ؛ ومن هنا كان طريق البناء محفوفاً بخطر كبير !

والذين يريدون البناء فوق أرض لا يُدْرَى ما تحتها – إنما يضعون مستقبل مصر فى مهب الرياح ! ويعرضون أمنها لخطر كبير ! فالجيل الجديد يجهل الكثير عن جيل الثورة . ويجهل الكثير عن أحداث الثورة ، ويجهل الكثير عن أخطاء الثورة وخطاياها !

وقد عمدنا أمام غيبة الملفات والتواء الحقائق إلى أسلوب التحقيق المباشر ، والمواجهة المفتوحة ، فوقفنا عند عدد من الشعارات المتداولة والقرارات الهامة والوقائع الرئيسية التى كان لها وقع مباشر على كيان مصر ومستقبلها ، وهى وقفة حوار طويلة أردنا من خلالها تفسير بعض ماراج من شعارات ، وتحليل بعض ما التبس من قرارات واستجلاء بعض ما غمض من وقائع !

وكلها شعارات وقرارات ووقائع أسهمت فى تضليل العقل ، وتبديد الجهد ،

وإهدار المستقبل خلال تلك الفترة المعتمة من التاريخ .

وهدفنا من هذه الرجعة التاريخية استخلاص ما أمكن من الدروس والإفادة ما أمكن من الخبرات التى تعين على تشخيص الأدواء وتحديد مواطن العلل فى التجربة المصرية ، وهى علل وأدواء لا ينهض بناء جديد بغير تلافيها ولا تسلم مسيرة اجتماعية بغير تجنبها .

وإذا كنا نحاول فى الفصول الأخيرة لهذا الكتاب أن نخطو بالقارئ خطوة إيجابية فى طريق البناء ، وأن نرسم الخطوط العريضة لمسيرة المستقبل - فإن هذه المحاولة تظل ضعيفة الأركان طالما ظل الكتمان مضروباً على الكثير من حقائق التجربة الماضية وخباياها ، ولن يكتمل البناء وتُدْعَم المسيرة بغير تحقيق شامل يبسط الحقائق كل الحقائق ، ويحدد الأسباب كل الأسباب ، ويفتح الطريق أمام غد مشرق عزيز .

د . إبراهيم دسوقى أباظة

كلام للجياع ! !

الفقراء كثرة . . والأغنياء قلة .

والمكدودون بالفقر أقدر على استيعاب الأحلام من المتخمين بالثراء ! فإذا ما تحركت كوامن الحقد فيهم أصبحوا شحنة نضال وأداة تغيير !

ولقد عنى ماركس هذه الحقيقة الفطرية ودعا إلى استغلالها لكسب الأنصار وضرب الخصوم ! ولخص استراتيجيته فى الاستيلاء على السلطة بتحريض الفقراء على الثورة وتبشيرهم – إن فعلوا – بجنة فى الأرض ينعم فيها كل إنسان بما يفى بحاجاته !

والفقراء على حد قوله لن يخسروا فى هذه الثورة سوى أغلالهم ، وأمامهم عالم سيكسبونه !

ولم ينقطع « التبشير بالجنة » منذ مات ماركس ، فقد حمل أتباعه المشاعل ، وطافوا بها فى أرجاء الأرض إلى أن طاب لهم العيش فى العالم الفقير ! فاستقروا بين

شعوبه يروجون التعاليم ، ويصنعون الأحلام ، يستجدون البطون ويداعبون الغرائز !

وظلت بيادقهم تعلو وتهبط مع كل موجة تجتاح الفقراء ، فوجدوا فى التبعية الاستعمارية أساس الداء ، وفى الرأسمالية المستغلة مربط الفرس !

وجاءوا فى النهاية بالنبأ العظيم : ارفضوا روابط التبعية ، وتحللوا من إسار الرأسمالية ، وتعالوا إلينا صاغرين ، فستجدوا الجنة من تحتكم ، والسماء من فوقكم !

بادرنى الرفيق :

– أتتوهمون فى الدنيا سلاماً وعلى الأرض غنىٌّ وفقير ؟

– ومتى يسود السلام ؟

– عندما تدرك الإنسانية نضجها التاريخى ، ويحل التناقض بين الطبقات !

– وإذا ما حل التناقض – فهل يبقى على الأرض أغنياء فقط أو فقراء فقط ؟

– لن يبقى سوى إنسان حر يكفى حاجاته !

– أى حاجات ؟

– حاجات الإنسان من كل متاع الدنيا .

– أتقصد حاجاته المادية ؟

– حاجاته المادية والمعنوية .

– هل يعرف مذهبكم المادى المعنويات ؟

– وهل المعنويات وقف على غيرنا ؟ إننا نستهدف انعتاق الإنسان الروحى وتحرره من أغلال القهر والتخلف ! أليست هذه أموراً معنوية ؟

– أنا لا أفهم فى الفلسفة !

– هذه مجرد عموميات لا أتصور أن مثقفاً مثلك يجهلها .

– معذرة يا رفيق ! فهذا البعد الإنسانى لا يراه سوى مؤمن بالحتمية التاريخية ، وكل ما أفهمه من حتميتكم هو أنها تبشر بغد تختفى فيه كل التناقضات وتسود فيه الوفرة !

– قل غدا ينتهى فيه استغلال الإنسان للإنسان . .

– وكيف ترون استغلال الشعوب الغنية للشعوب الفقيرة ؟

– نراه فى ظاهرة التخلف التى يفسرونها حتى اليوم تفسيراً خاطئاً : فالتخلف مرحلة تاريخية نتجت عن الاستغلال الرأسمالى للشعوب المقهورة ، تتحدد بوجود الاستغلال بجميع صوره : الاستغلال المادى والفكرى وما يستتبعه من علاقات تبعية بين النظم الرأسمالية المستغِلة والدول الفقيرة المستغَلة !

– ولماذا أفلتت بعض الشعوب من هذه المرحلة التاريخية ، فاستطاعت أن تبنى اقتصادها ، وأن تسوس غيرها ، وتسيطر عليه ؟ ألا ترى أن الاستغلال الرأسمالى نتيجة لمشكلة الفقر ، وليس سبباً لها ؟

ولو لم نكن ضعافاً متخلفين أفكان من الممكن للاستعمار أن يتمكن منا ، وينشب أظفاره فى أجسادنا ؟ إن الاستعمار ظاهرة سياسية اقتصادية اجتماعية نتجت عن التفاوت الصارخ بين حضارتين : حضارة صاعدة متقدمة ، وحضارة هاوية متردية ! ولولا هذا التفاوت لما تمكن الاستعمار من شعوبنا ، ولما استطاع نهب ثرواتنا ! ولماذا لم تستعمر دول أخرى كالسويد والنرويج والدنمارك وإيطاليا وإسبانيا ؟ ولماذا ظلت دول لم تُستعمر قط فقيرة متخلفة كتركيا واليمن ؟

الاستعمار – وإن كان قد عمق من التخلف وزاد من استفحاله – فإنه لا يعتبر سبباً له ، فنحن نخلط هنا بين السبب والنتيجة !

– إن المصادفات التاريخية قد جعلت شروط التحول إلى مرحلة أرقى تتجمع عند الشعوب الأوربية دون غيرها !

– وماذا تعنى بشروط التحول ؟

– أعنى بها عوامل التقدم الفكرى والتقنى والاكتشافات الكبرى التى عرفتها أوربا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ؟

– ألا تسمى هذه العوامل فى مجموعها بالحضارة الغربية ؟ لقد استطاعت هذه الحضارة تفجير الثورة الصناعية فى أوربا قبل غيرها على حين كان العالم الثالث كله يغط فى نوم عميق ! لقد كانت الحضارة الصينية فى هذه الآونة تلفظ أنفاسها ! وكانت الحضارة الإسلامية قد تجمدت عند القرن الرابع الهجرى ، فلم تتطور ، ولم تتقدم فى اتجاه التجديد !

– الصعود الحضارى والهبوط الحضارى مرتبطان دائماً بطبقة معينة ومن صنعها ، والحضارة الصناعية الغربية صنعتها الطبقة البورجوازية .

– بغض النظر عمن صنع الحضارة الصناعية : فهل استطاعت هذه الحضارة معالجة مشكلة الفقر علاجاً جذرياً ؟

– لا ولن تستطيع !

– إذن نحن متفقون على أنها لم تنجح فى حل المشكلة ، وأن علاجها لأمراض المجتمع الغربى الرأسمالى كان قاصراً !

– نعم !

–إذن ماذا تقترحون من حلول لعلاج مشكلة الفقر ؟

– نحن لا نقترح حلولاً ، إنما نتعجل الحلول التى يأتى بها التاريخ ! إن عملنا يقوم على تهيئة الظروف المناسبة للانتقال من مرحلة الرأسمالية المستغلة إلى مجتمع

التحرر والوفرة ، المجتمع الشيوعى حيث لا طبقات ولا دولة !

– وهل يمكن حقًّا توفير هذه الظروف وإسقاط الرأسمالية والانتقال إلى مجتمعكم ، مجتمع الحرية والرفاهية ؟ إننا لا نرى مثالاً واحداً لنجاحكم فى تحقيق هذا التحول فى الدول الرأسمالية الصناعية ، وهى الدول التى صاغ ماركس نظريته من واقعها والتى تنبأ بمآلها ، وهى الدول التى كان من المفروض أن تستجمع قبل غيرها مقومات الانتقال من الرأسمالية إلى الشيوعية ! فكيف تفسرون ذلك ؟

– لقد تدخلت عوامل موضوعية أخرت من هذا التحول ، ولكنّ تحول هذه الدول من الرأسمالية المستغلة إلى الشيوعية آت لا ريب فيه وإن طال الزمن !

– أنتم تقولون : إن الانتقال من الرأسمالية إلى الشيوعية قد تأخر بسبب عوامل معينة ، ونحن نقول : إن التحول فى هذا الاتجاه الذى تعتقدونه قد تعطل وإلى الأبد ؛ ذلك أن نظريتكم قد افترضت حياد عدد من العوامل ، ولكن الثابت أن هذه العوامل قد خرجت عن حيادها فى التجربة ، وأدت إلى فساد النبوءة التى بُنيت عليها الماركسية ! ألم تتدخل العوامل الفكرية والروحية والغريزية فى المجرى المادى للتاريخ ؛ لتحوله إلى مسار آخر غير المسار الذى تزعمون ؟

– ألا ترى أن الرأسمالية تترنح اليوم تحت ضغط الأزمات التى تحيط بها من كل جانب ؟ ألا ترى أن الغد الشيوعى يقترب بشكل واضح فى كل من فرنسا وإيطاليا وبلجيكا وغيرها من دول أوربا الغربية ؟

– فعلاً : إن الرأسمالية الغربية تعانى من الأزمات ! وإن بناءها كله مهدد بالسقوط ! ولكن هذه الأزمات التى تعصف اليوم بالنظام الرأسمالى ليست من النوع الماركسى الذى أسهب ماركس فى بيان أسبابها ؛ فالرأسمالية تعانى اليوم من أزمات تضخم وقصور فى الإنتاج بالقياس لمطالب الرفاهية المادية المتزايدة التى خلقتها عند بعض

الفئات الاجتماعية على حين أن أزمة النظام الرأسمالى عند ماركس أزمة انكماش وزيادة متواصلة فى الإنتاج تفوق بكثير حجم الطلب على السلع المنتجة !

وإذا كنا نقر بأن الرأسمالية مهددة بالسقوط فليس معنى ذلك إقرارنا بأن النظام الذى سيخلفها سيكون بالحتم والضرورة النظام الشيوعى ؛ فمن الممكن أن تنتقل المجتمعات الرأسمالية إلى أشكال جديدة أكثر أو أقل فعالية من النظام الرأسمالى فى علاج مشكلة الفقر ، وتحديد هذه الأشكال موكول للكثير من العوامل التى يصعب من البداية حصرها .

– إن تحليل المسار التاريخى اعتماداً على المادية الجدلية– يصل بنا لا محالة إلى حتمية الانتقال من مرحلة محددة إلى مرحلة محددة ! فالرأسمالية تخلفها الشيوعية فى السياق التاريخى وإن كان ذلك عبر مراحل وسيطة .

– ولكن التسليم بذلك يقتضى التسليم بكل القوانين التى تؤمنون بها ، وأخصها المادية الجدلية . والتسليم هنا مسألة ظنية لأنه مبنى على الإيمان بقوانين يكذبها الواقع ، فلم يسجل الواقع مثلاً سقوط نظام رأسمالى واحد حتى الآن وتحوله إلى الشيوعية !

– إن ما يميز الماركسية عن غيرها من المذاهب والنظريات هو التزامها المنهج العلمى فى البحث والاستنتاج ، فلا مكان فيها للحدس والتخمين .

– بمناسبة الروح العلمية التى تدعون التحلى بها أود العودة إلى بداية المناقشة لأسأل : كيف تواجهون مشكلة الفقر فى غير الدول الصناعية المتقدمة : أى فى الدول التى توصف اليوم بالمتخلفة أو الفقيرة ؟

– لقد واجهت الماركسية إمكانات التحول فى هذه الدول عن طريق تحطيم قيود التبعية التى تربطها بالعالم الرأسمالى المستغل وإرساء دعائم «اشتراكية الدولة» ،

والانطلاق فى بناء الصرح الصناعى من خلال تخطيط شامل تسيطر عليه الدولة وتوجهه .

— وما علاقة هذه الإجراءات بمذهبكم؟ إن إلغاء الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج ؛ ومن ثم إقامة صرح «اشتراكية الدولة» ، وانتهاج أسلوب التخطيط فى بلاد لم يتوافر فى أى منها شرط من شروط التحول إلى المجتمع الشيوعى التى استلزمها ماركس— خروجٌ على مقتضى النظرية الماركسية ، وابتعاد عن أصولها !

— لا ، وليس فى هذه الإجراءات خروج على مقتضى النظرية ! حقيق أن ماركس استلزم شروطاً معينة للتحول إلى المجتمع الشيوعى على رأسها بلوغ الدولة الرأسمالية أعلى درجات التقدم الصناعى ، ومن ثم توافر طبقة من البروليتاريا الصناعية على درجة عظيمة من الأهمية . . إلخ ، وبما أن هذه الشروط غير متوافرة فى الغالبية الساحقة من الدول المتخلفة المستغلة— فإننا لا نفعل أكثر من تهيئة الشروط الضرورية للتحول باستخدام الإجراءات السابقة .

— إذن أنتم تحاولون تحقيق شروط التحول التلقائى إلى المجتمع الشيوعى بوسائل مصطنعة وباستخدام أساليب من ابتكاركم ، وليست من صنع المادية التاريخية ؛ لأن ماركس لم يقل بالتخطيط ، ولم يقل بإقامة اشتراكية الدولة فى هذه المرحلة المتخلفة ، ولم يقل بما سميتموه بالبروليتاريا الزراعية ! إلخ

— وما ضرر ذلك . أليس من حقنا التجديد والابتكار؟ أليس من حقنا الاجتهاد لتطوير النظرية ؟ لقد تناول ماركس مشاكل العالم المتخلف من خلال رؤيته التاريخية ، وكان على من خلفوه إضافة ما يلزم— إلى النظرة الماركسية على ضوء ما استجد فى العالم من أحداث !

— لاشك أن من حقكم التجديد والابتكار ، ولكن يجب أن يكون التجديد

والابتكار منطلقاً من النظرية الماركسية إذا أردتم أن تنسبوه إليها ! ولكن ما علاقة هذه الإجراءات التى تنادون بتطبيقها فى دول العالم الثالث وتطوير نظريتكم؟ إن معظم هذه الإجراءات مصادمة لمقتضى النظرية ، وهادمة لروحها !

– إن هدفنا من هذه الإجراءات تحطيم التبعية الاستعمارية وتحرير الطبقات الكادحة من عسف الطبقة الإقطاعية ، وهذه خطوة أولية وضرورية لبناء المجتمع الشيوعى فى هذه الدول .

– إنكم تعملون على تحطيم علاقات التبعية الاستعمارية ، هذا صحيح ! ولكنكم تستبدلون بها علاقات تبعية مع دول الكتلة الشيوعية تحت إسم آخر . . اسم التقدم والتحرر ! وتَدْعَمُون علاقات التبعية هذه بنماذج مصغرة من « اشتراكية الدولة » ومن نظام الحزب الواحد والتخطيط الشامل !

– نحن نساعد الدول المتخلفة على التخلص من قبضة الاستعمار الرأسمالى ، ولكننا لا نرغمها أبداً على الدخول فى علاقات مع « دول الكتلة الشيوعية ! » والتعاون الذى يقوم بيننا وبين هذه الدول تعاون اختيارى لا إكراه فيه ولا قسر !

– وهل هناك مفر أمام الدول المتخلفة من الالتجاء إلى « المعسكر الشيوعى » بعد تحطيم علاقات التبعية التقليدية التى تربطها بالمعسكر الرأسمالى ؟

إن هذه الدول بحاجة دائماً إلى المساعدة المادية والفنية حتى تستطيع بناء اقتصادها ، وليس أمامها اختيار آخر سوى الارتماء فى أحضانكم ، وقبول كل الشروط التى تفرضونها !

– على كل حال شروط « المعسكر الشيوعى » دائماً فى مصلحة التحرر والتقدم ، وهو لا يقيم علاقات استغلال بينه وبين العالم المتخلف ، كما تفعل الدول الرأسمالية المستغلة !

– واقع السنوات العشرين الماضية يخالف هذه الأقوال ، فالمساعدة الفنية التى قدمتها دول الكتلة الشيوعية إلى غالبية دون العالم الثالث مشروطة ! كما أن القروض الممنوحة كانت غالبيتها العظمى بفوائد !

حقيق أن هذه الفوائد منخفضة عن مثيلاتها فى السوق المالية الدولية ، ولكن يجب ألا ننسى أن هذه القروض فى معظمها مقيدة بشرط الشراء من الدولة المقرضة ، وفى هذا مصلحة أكيدة للمعسكر الشيوعى ، لأن هذا الطرف غالبا ما يفرض أسعارا لمنتجاته تتجاوز أسعار السوق العالمية وذلك على خلاف الحال فى القروض غير المشروطة التى تبيح للدولة المتخلفة الشراء من أى بلد كان !

أضف إلى ذلك أن سداد قيمة هذه القروض يكون عن طريق السلع والمحصولات التى تنتجها الدولة المتخلفة ! وقد علمتنا التجربة أن دول الكتلة الشيوعية « وعلى رأسها الاتحاد السوفيتى » تحدد أسعار السلع التى سيتم السداد عن طريقها بأقل من الأسعار العالمية ! وقد وقع هذا بالنسبة للأرز والقطن المصرى الذى كانت تصدره مصر إلى الاتحاد السوفيتى سداداً للديون السوفيتية ! وناهيك عن القروض العسكرية التى منحها الاتحاد السوفيتى لبعض الدول التى اقتضت ظروفها أن تخوض حرباً حقيقية ضد الاستعمار الأمريكى وحليفته إسرائيل ! فقد منحت هذه القروض بفوائد ، كما أنها كانت بطبيعة الحال مشروطة بشراء الأسلحة من الاتحاد السوفيتى ، وكانت الأسعار المفروضة لهذه الأسلحة فاحشة ولا داعى لأن أعيد إلى الذاكرة النوعية الرديئة لهذه الأسلحة ، وانتماءها فى غالبيتها عدا بعض أنواع الطائرات – إلى فائض الإنتاج الحربى المتخلف من الحرب العالمية الثانية !

– لا يمكن إنكار ما تقوم به دول الكتلة الشيوعية من تصنيع وتطوير زراعى فى دول العالم الثالث ، وأمامك أدلة كثيرة على التقدم الذى أحرزته بعض هذه البلدان

نتيجة المساعدة المالية والتقنية لدول الكتلة الشيوعية ، ولدينا كوبا وغينيا وغيرهما من الأمثلة الناجحة !

— هل تريد أن تعتبر هاتين الدولتين مضرب المثل فى نجاح « اشتراكية الدولة ؟ » إن الاقتصاد الكوبى لا يستطيع العيش ساعة واحدة بغير مساندة الاتحاد السوفيتى ! ولولا شراء الاتحاد السوفيتى للسلعتين الفريدتين اللتين تنتجها كوبا وهما السكر والسيجار لهلك أهلها جوعاً ! ثم أين دلائل التقدم فى غينيا . أفى صناعة الصلب ، أم فى صناعة الآلات الثقيلة ، أم فى صناعة الصواريخ ؟

إن التقدم والارتقاء لا تفصح عنهما كتب الدعاية المدرسية ، وإنما يلمس لمساً من خلال تبادل السلع والخبرات وقياس المستوى المعيشى والثقافى الذى أدركه الفرد !

— لا يمكن أى خبير أن ينكر ضرورة « النموذج الاشتراكى » للنهوض بالدول الفقيرة ، إن الحتمية التاريخية تفرض هذا النموذج بديلا عن النظم الرأسمالية التى أقامها المستعمر لابتزاز خيرات هذه الدول ، وإذا لم يكن « النموذج الاشتراكى » فعالاً فى علاج مشكلة الفقر — فقولوا لنا : كيف نهض الاتحاد السوفيتى من التخلف ؟ وكيف استطاعت الصين أن تصبح القوة الثالثة فى العالم ؟

— نحن لا ننكر فساد الحل الرأسمالى وعدم صلاحيته لعلاج مشكلة الفقر والنهوض بالبلد المتخلف ؟ ولكننا ننكر الحتمية التى تقولون بها ، فالبديل ليس واحدا ، ولكنه متعدد ، والنموذج الذى درجتم على تسميته بالحل الاشتراكى ليس بالحل الأمثل ! أما النموذجان « السوفيتى » و « الصينى » فهما — وإن كانا نموذجين غير مسبوقين فى التاريخ الحديث — فإنهما يعتبران من قبيل الحالات الخاصة التى لا يجوز إقحامها فى هذه المناقشة إلا إذا كان القصد من هذا الإقحام التعمية والتضليل !

— النموذجان السوفيتى والصينى — نموذجان ملموسان لدولتين فقيرتين متخلفتين صناعياً وزراعيا استطاعتا خلال فترة وجيزة نسبياً أن تقهرا التخلف وأن تتقدما إلى مصاف الدول الرأسمالية المتفوقة صناعياً .

— دول العالم الثالث لا يمكن قياسها على الاتحاد السوفيتى ولا على الصين : الاتحاد السوفيتى والصين لا شبيه لهما تقريباً فى أى من الدول الفقيرة :

فالاتحاد السوفيتى بلد واسع المساحة ، غنى بموارد التربة ، ثرى بمصادر الطاقة من بترول وفحم ، يتمتع بوفرة سكانية هائلة ، ومهارات بشرية متنوعة ، وقد وفر له موقعه الجغرافى — الاستفادة من بعض نتاج الحضارة الغربية وإحرازه بعض التقدم فى مجال التجهيزات الأساسية اللازمة لكل انطلاقة اقتصادية ، فالاقتصاد السوفيتى لم يبدأ من الصفر كما تصور الدعاية السوفيتية ، ولكنه انطلق من بلد حقق درجة ما من التقدم الزراعى والصناعى ! صحيح أن هذه الدرجة تعتبر متواضعة بالقياس لإمكانات الاتحاد السوفيتى وقدراته ، ولكنها تكوّن أساساً هامًّا للإقلاع الاقتصادى وتكفى الإشارة إلى الدراسات والإحصاءات التى نشرت عن الصناعة الروسية قبل عام ١٩١٤ لإدراك هذه الحقيقة .

أما الصين فنحن لا نملك أى مقومات موضوعية للحكم على تجربتها ، ومع ذلك نستطيع التوكيد بأن مساحتها الهائلة وثروتها المادية والبشرية الضخمة وحضارتها العريقة تجعل لها مكاناً متميزاً يصعب مقارنته بأى من دول العالم الثالث .

— هذه الأسباب والمبررات يراد بها التهوين من شأن التجربتين السوفيتية والصينية ، ومن المقطوع به أن هاتين التجربتين قد حققتا النجاح المطلوب ، وأن التجربة السوفيتية على الأقل قد استطاعت تحقيق التقدم وإدراك الصف الأول بين الدول الصناعية خلال أقل من نصف الفترة الزمنية التى استغرقها تقدم الغرب الرأسمالى !

– قبل الكلام عن النجاح والتقدم – يجب أن تحددوا لنا معيار النجاح والتقدم :

هل معيار النجاح والتقدم هو الرغيف أو المدفع ! هل هو الرفاهية المادية والمعنوية أو القوة التدميرية العسكرية ؟ لقد أطلقت الهند مثلا صاروخاً إلى الفضاء ، وأجرت تجربة نووية : فهل معنى ذلك أن الهند قد انتصرت على الفقر ، وأصبحت فى عداد الدول المتقدمة ؟

ثم إن قصر المدة الزمنية التى استغرقتها التجربة السوفيتية والتى لا تكفون عن التغنى بها – لا تعود فى أساسها إلى فعالية التجربة السوفيتية بقدر ما تعود إلى حصيلة الاكتشافات والاختراعات العلمية التى سبقت الثورة البلشفية بزمن طويل ، والتى مكنت الاتحاد السوفيتى – بالإضافة إلى العوامل الأخرى – من إحراق المراحل (عصر البخار وعصر الكهرباء وعصر البترول) واللحاق فى سرعة بعصر الذرة . وكان لابد أن يختلف الزمن الذى تستغرقه التجربة لو أن الاتحاد السوفيتى قد بدأ البناء انطلاقا من عصر البخار مرورا بعصر الكهرباء والبترول ، ولو أنه لم يستخدم حصيلة العلوم والتكنولوجيا الجاهزة التى حققها الغرب الرأسمالى عبر تطور طويل !

– ولكن هناك إغفالا متعمداً للمخاطر والضغوط والتحديات التى تعرضت لها التجارب الاشتراكية وخاصة الاتحاد السوفيتى ! لقد استطاع هذا البلد أن يدفع أعتى قوة فى العالم وهى ألمانيا النازية ، وأن يقهرها ! ولولا الإيمان بالعقيدة الماركسية وقوة التجربة الاشتراكية وصلابتها لما أمكن صد الغزو النازى العتيد ولما أمكن تحطيم قوى المحور الهائلة ! لقد أرادت النازية إسقاط « الاشتراكية » فسقطت النازية . . وبقيت الاشتراكية !

– كلام جميل ! ولكنه لا يستقيم – مع الأسف – وحقائق الحرب العالمية

الثانية : فالذى قهر النازية وحطم جيوشها على الأرض السوفيتية – ليس الإيمان « بالاشتراكية العلمية » ولا الاعتقاد فى الغد الأحمر ، ولكن الذى قهر النازية وحطم جيوشها هو نداء الوطنية والقومية الذى أطلقه ستالين عندما اجتاحت جيوش النازية جزءا هاماً من الأراضى السوفيتية ، وحاصرت لينينجراد ، وأصبحت على بعد ثمانية كيلومترات من موسكو !

إن الذى أوقف زحف الجيوش النازية هو نداء التراث السوفيتى ، ونداء الماضى السوفيتى ، لا الإيمان بالاشتراكية العلمية ، ولا الدفاع عن المكاسب الثورية ، حتى النشيد الدولى – شعار الشيوعيين فى كل مكان – استبدلت به القيادة السوفيتية النشيد الوطنى السوفيتى ! ولم نسمع أحداً من القادة الشيوعيين السوفيت يهيب بالشعب أن يفتدى الاشتراكية أو يضحى من أجل الشيوعية ! إنما كان النداء دائماً يستنهض الحوافز الوطنية ، ويستميل العواطف القومية ، ويشيد بأمجاد الماضى وعظمته !

– لنعد إلى حتمية الحل الاشتراكى الذى تتنكرون له ، ولنسألكم ماذا كان يمكن أن يكون مصير الاتحاد السوفيتى والصين لولا هذا الحل الذى أخذتا به ، والذى وضعهما على طريق الشيوعية الحقة ، إن مصير الدول الفقيرة رهين بهذا الحل ! وعلى هذه الدول أن تستفيد من التجارب العملاقة التى خاضها الشعبان فى هذا الميدان !

– لا نستطيع أن نعرف – بطبيعة الحال – هل كان « الحل الاشتراكى » الذى أخذت به هذه الدول هو أفضل الحلول أو أسوأها ؟ لأن فرص الاختيار لم تكن موجودة ، فالبلاشفة قد أحدثوا انقلابهم فى روسيا عام ١٩١٧ وبين أيديهم مذهب وبرنامج عمل مجهز قاموا على الفور بتطبيقه ! ولم يكن لغيرهم أن يجادلهم فى

الفكرة ، وإنما فرضت فرضاً بحد السيف !

أما الدول الفقيرة فلن يفيدها فى شىء نقل تجارب الآخرين ومحاولة تطبيقها فى أراضيها ! فهذه الدول تعيش واقعاً مغايراً لواقع الاتحاد السوفيتى والصين ! ومن غير المجدى استيراد التجربة السوفيتية أو الصينية وتطبيقها فى هذه الدول حتى ولو جرت عليها عمليات التطويع والملاءمة !

— هناك وحدة فى الخبرة الإنسانية ، وتجارب الشعوب دروس مستفادة لشعوب أخرى ، ولولا هذه الوحدة لما استطاعت البشرية أن تبنى تقدمها ، وتحقق أمجادها !

— وحدة الخبرة الإنسانية تبيح الاطلاع على تجارب الآخرين ، والاسترشاد بما انتهجوه فى علاج المشكلات المماثلة ، ولكنها لا تتيح على الإطلاق النقل الحرفى والتقليد الأعمى !

ذلك أنه إذا كان من الممكن نقل الجانب المادى من تجربة ما — أى تنظيماتها وأساليبها — فإنه من المستحيل نقل جانبها المعنوى : أى فلسفتها وعقيدتها ! فهذا الجانب الأخير ثمرة تراث معين ، وعطاء حضارة معينة !

وهكذا فإن نقل تجربة إنمائية من بيئتها الأصلية إلى بيئة جديدة مغايرة — لابد أن ينتهى فى العمل إلى إخفاق محقق ، لأن النقل لا يتناول كل التجربة ، إنما يقتصر فقط على جوانبها المادية على حين تظل جوانبها الفلسفية والعقائدية بعيدة عن النقل والتطبيق !

وإذا كان هذا هو المبدأ العام فكيف نتصور نقل « تجربة اشتراكية » وتطبيقها فى دولة فقيرة لا يعلم شعبها شيئا عن الاشتراكية ؟ كيف يمكن تصور نجاح تجربة منقولة فى وسط لا يحيط علماً بالخلفية الفكرية التى بنيت عليها ؟

وهل من الممكن مطالبة المجتمع الفقير بالعمل والإنتاج فى إطار نموذج إنمائى

معين بغير أن تكون لديه قناعة بالفلسفة التى يصدر عنها ، وإيمان بالتصور الاعتقادى الذى يقوم عليه ؟

إن نقل « تجربة اشتراكية » على هذا النحو وزراعتها فى تربة مغايرة يجعل منها جسداً غريباً فى قلب المجتمع الفقير لابد أن يقاومه وأن يرفضه !

– نحن متفقون على عدم إمكان نقل تجربة ما دون جوانبها المعنوية ، ولكن هذه الجوانب المعنوية من التجربة يمكن تلقينها عن طريق الثقافة الجماهيرية ورفع مستوى التعليم : فالتعاليم الماركسية والاتجاهات الاشتراكية بدأت تغزو كل الأوساط فى دول العالم الثالث ، ولم تعد بعيدة عن متناول السواد الأعظم من الشعوب المقهورة ! ألا ترون الإقبال الهائل على القراءات الماركسية فى هذه الدول ، واتجاه نفر غير المثقفين إلى الاهتمام بالتعاليم التى طرحها ماركس ؟

– إن نسبة الأمية فى دول العالم الثالث تتراوح بين ٧٠ و ٨٥ ٪ – فكيف تريد لأغلبية عظمى لا تقرأ ولا تكتب أن تلم بمبادئ النظرية الماركسية ، وأن تتفهم فلسفتها ؟

إن قضية استيعاب النظرية وحدها تحتاج إلى حد أدنى من الثقافة . . فما بالكم بالعمل بها فى التطبيق ؟

ثم إن « التراث » الاشتراكى كله – بما فى ذلك النظرية الماركسية – هو نتاج المجتمع الرأسمالى ، وثمرة فكرية للحضارة الغربية ، وهذا « التراث » . لم يجىء عفواً ، ولم ينتج بمحض المصادفة . إنما جاء نتيجة تطور طويل أسهمت فى صنعه مجموعة من العوامل المادية والمعنوية المتباينة المعقدة ، والشعوب الفقيرة كانت طوال القرون الطويلة وحتى عهد قريب بعيدة كل البعد عن عوامل التطور هذه ، ولم تتفتح على مقومات الحضارة الغربية إلا مؤخراً ، فكيف تريدون لها استيعاب نتاج

الفكر الغربي لمرحلة معينة دون أن يكون لديها إلمام بما سبقه من مراحل ؟ ! وكيف ترون لها قدرة الملاءمة بين نتاج هذا الفكر وبين تراثها المحلي وحضارتها المحلية ؟ !

وهل من الممكن لطالب أن يستوعب علوم الجامعة قبل أن يستوعب علوم المرحلة الثانوية ؟

وهل من الممكن لأبناء حضارة عربية إسلامية مثلا أن ينقلوا تجربة حضارة أخرى بغير أن يصطدموا ومقومات تراثهم وصميم أوضاعهم الهيكلية ؟

– لم نقل : إن التطبيق الاشتراكي سهل المنال ، إنه بحاجة إلى جهود مستفيضة ، وبحاجة لنفر من المناضلين المخلصين ، وفوق ذلك : هو بحاجة إلى التضحية بالكثير من مقومات التراث المحلي التي تكون عقبة في سبيل تطبيقه ، ولا يوجد تقدم وارتقاء بغير تضحية ومعاناة !

– إنكم تتخذون من أحلامكم حقائق واقعة . . وتضعون التجربة « الاشتراكية » فوق مستوى الشبهات . . ومن أدرانا أن التجربة صالحة في ذاتها ، وأنه إذا بذلت في سبيل تطبيقها كل التضحيات وأزيلت من طريقها كل العقبات فسوف تثمر وتأتي أكلها ؟

إن الخبرات الماثلة في الكثير من الدول الفقيرة تشير إلى إخفاق التجارب الاشتراكية المنقولة على الرغم من التضحيات الجسام التي بذلتها الشعوب الفقيرة في سبيل إنجاحها ! فهل نعود مرة أخرى إلى المثال التونسي والغاني والمالي والمصري والإندونيسي وغيره ؟

أليس من الأجدى للشعوب الفقيرة أن تبحث عن تراثها ، وأن تستلهم من أصالتها ، وأن تأخذ من واقعها بدلاً من إضاعة الجهد والمال في استيعاب نظريات الآخرين ، وملاءمة تجارب الآخرين على ظروفها البيئية وأوضاعها الهيكلية ؟

— وما البديل الذى تتصورون للحل الاشتراكى ؟ أليس فى البحث عن هذا البديل أيضاً مضيعة للوقت والجهد والمال ؟

— إنكم تحبون تقديم « الحلول المجهزة » وتستنهضون بذلك عند الشعوب الفقيرة قانون الجهد الأقل ! إن على هذه الشعوب أن تبحث عن حلولها بنفسها ، لا أن تعيش على استيراد الحلول من الخارج !

لقد عمدت القيادة السوفيتية فى أعقاب « ثورة أكتوبر » إلى البحث عن حلول تخدم تصوراتها العقائدية ، وتلائم ظروف الاتحاد السوفيتى الهيكلية ، كما سلكت القيادة الصينية الاتجاه نفسه ، فلماذا يراد للدول الفقيرة أن تظل مقلدة لتجارب الآخرين وخبراتهم على الرغم من ذاتية هذه التجارب وخصوصيتها ؟

إن من حق الدول الفقيرة اختيار عقيدتها الاقتصادية والاجتماعية ، كما أن من حقها اختيار الإجراءات والأساليب التى تمكنها من إدراك الأهداف التى رسمتها العقيدة ، ولا يقيدها فى ذلك سوى مصالحها الحالية وآمالها المستقبلة !

— إننى لا أرى فى كلامك سوى رغبة فى العودة إلى مجتمع الصدقات وقهر الإنسان باسم التراث ، والتاريخ لا يعرف الاختيار الغريب عن منطقه ، إنما يعرف خطاً واحداً تتجه فيه الإنسانية إلى قدرها المحتوم !

— نفى الاختيار الغريب نفى للعقل والإرادة ؛ وحكم على الإنسان بسلوك طريق واحد لا محيد عنه ، والتاريخ لا يصنع الإنسان ، ولكن الإنسان هو الذى يصنع التاريخ !

— هذا منطق هيجيلى سقيم .

— إنما هو منطق الفطرة ؛ فالحياة الدنيا لا تعرف الحتميات ، إنما تعرف الممكنات ، والحتمية (الوحيدة) التى تعرفها الحياة الدنيا هى الموت يا رفيق !

بؤس الشعارات

عندما تدرك الشعوب قاع التخلف ، وتجسد المسئولية فى عدو مشترك تستملك القدرة على التجمع فى أى مذهب يساير أمانيها ، وفى أى دعوة تواكب أهدافها !

وسواء كانت الدعوة دينية أو وضعية طيبة أو خبيثة فإنها تنجح فى استقطاب الجماهير إذا ما أطلقت فى الوقت المناسب ، ووجدت الدعم المادى والمعنوى المناسب .

وذيوع الدعوة لا يعنى بالضرورة سلامتها ؛ فقد عرفت البشرية الكثير من الدعوات الفاسدة وعملت بها أزماناً طويلة أو قصيرة ! عرفت ألواناً من العقائد الوثنية ، وأنواعاً من الشطحات الفلسفية ، وأشتاتاً من البِدع السياسية ، ولكنها لم تنحَنِ طويلاً أمام كل هذه الترهات والأباطيل ، بل نفضت هامتها ، وانطلقت تبحث من جديد !

بادرت الرفيق :

– إنكم تفسرون أحلام الجائعين بسوق خبز كبيرة ! وتدعون امتلاك أبوابها ! ولم نر من خبزكم فى العالم الفقير كسرة واحدة تمسك رمق المحرومين ! .

– وهل ترون فى العالم الفقير عقائد يمكن أن تبنى عليها تجارب اقتصادية واجتماعية ناجحة ؟ إن بقايا التراث المحلى لا تصلح لتكوين أساس صالح للتنمية ، بل إنها تعتبر عند الغالبية العظمى من الخبراء معوقاً خطيراً للتنمية .

– إن ما تسمونه ببقايا التراث فيه الكثير من عناصر القوة والحياة ، بل ينطوى على أعظم الرسالات السماوية ، صحيح أن بعض عناصر هذا التراث قد أصابها العطب ، أو نالها التحريف ، ولكننا نستطيع دائماً ببعض الجهد أن نفصل الغث من السَّمين والصالح من الطالح ؛ أما رفض التراث المحلى بجملته وتفصيله فهو دعوة خبيثة قصد منها التخلص من الدين الذى يشكل حاجزاً منيعاً ضد انتشار دعوتكم !

– وليكن ما تدعى : فمن أى جوانب التراث تأخذ إذن لتبنى العقيدة المطلوبة ؟

– العقيدة موجودة فعلاً وقائمة فعلاً ، والمشكلة لا تتعلق بإيجادها ، ولكن تتعلق بتفهمها وتطبيقها ، إن العقيدة الإسلامية تقدم لنا أساساً فعالاً فى هذا الباب ، فجوهرها التوحيد ، وعمادها الاستخلاف فى الأرض ، وغايتها السعى فى مناكبها على عهد الله وشرطه .

ومقتضى هذا التكليف أن يكون جهد الإنسان فى حدود الفطرة ؛ فالإسلام دين الفطرة ، ومن هنا كان تفرده بنظرة خاصة إلى واقع المجتمع : فالحياة فى نص العقيدة وروحها لا تحتمل لوناً واحداً ولا مذاقاً واحداً ؛ إنما هى خليط من الألوان والأمزجة ، والأنشطة الاقتصادية لا تحتمل بالضرورة شكلاً واحداً من أشكال

الاستغلال ، إنما تحتمل أشكالاً متعددة تستجيب لطبيعة القطاعات والفروع الإنتاجية فى تنوعها وتعددها ؛ ومن هنا كان فرض شكل واحد من أشكال الاستغلال على جميع الأنشطة الإنتاجية ينطوى على مصادمة للفطرة وأضرار بمستقبل التنمية ! وقد نتج عن ذلك فشل اقتصاد الدولة فى إطلاق التنمية فى كل دول العالم الثالث ، وكل ما نجح فيه هو تجميع السلطات السياسية والاقتصادية بين يدى الدولة ، وتكبيل حرية الإنسان فى الاختيار والمبادأة !

والواقع أن مظنة إدراك العدالة قد دفعت بكم إلى الجمع بين سلطة تقرير الإنتاج وسلطة تقرير التوزيع فى نموذج واحد ! وحققتم ذلك الجمع تحت ما سميتموه باشتراكية الإنتاج واشتراكية التوزيع ، ونصبتم من الدولة قيّماً على الإنتاج والتوزيع ونسيتم أن هاتين الاشتراكيتين ليستا بالضرورة متلازمتين ، وأنه من الممكن تحقيق اشتراكية التوزيع دون اشتراكية الإنتاج ، وأن هذا الفصل حماية لحرية الإنسان من سطوة الدولة ، وحفاظ على قدراته الخلاقة فى الاختيار والمبادأة !

وعندنا أن وسائل الإنتاج الكبرى تبقى فى يد الدولة ، أما غيرها فيظل ملكاً خالصاً للأفراد ، والدولة بوصفها الممثلة للمصلحة العامة مسئولة عن كفالة عدالة التوزيع من خلال مؤسسة الزكاة وغيرها من الفرائض المالية التى تستوجبها الشريعة الإسلامية ، والتى تمنح ولى الأمر فى شأنها رخصة واسعة .

— ما تقول هو جوهر النظام الرأسمالى الذى ندعو لمحاربته وهدمه ، ولا أرى فارقاً بين نظامكم والنظام الرأسمالى إلا فى الدرجة ! .

— إن النظام الرأسمالى مؤسس على القوة الاقتصادية للأفراد المعبر عنها بالنقود على حين يقوم نظام الاقتصاد الإسلامى على الكفاية لكل أعضاء المجتمع المسلم

بغض النظر عن قدراتهم الاقتصادية . والكفاية هنا تتضمن معنى الكفالة والضمان . . والدولة مسئولة فى كل الأحوال عن توفير حد الكفاية ، وهى بهذا الوصف تتدخل فى مجريات الحياة الاقتصادية تدخلا إرادياً قصد توجيه النشاط الاقتصادى نحو تحقيق الهدف ، وقد زودت بما فى قبضتها من وسائل الإنتاج الضرورية لحياة الجماعة المرموز لها فى الحديث الشريف بالماء والكلأ والنار . أما وسائل الإنتاج الأخرى التى لا تتصل مباشرة بمصالح الجماعة فتبقى دائماً بين أيدى الأفراد ضماناً لحريتهم فى الاختيار وحافزاً لمبادأتهم فى الخلق والإبداع !

— مؤدى هذه النظرة هو إقرار اللامساواة ومباركتها ؛ لأن هذا النموذج الذى تقترحونه لابد أن ينتهى فى العمل إلى تفاوت صارخ بين من يملكون وسائل الإنتاج ومن لا يملكونها على حين ترفض الماركسية مثل هذا التفاوت عندما تنزع من الأفراد كل وسائل الإنتاج وتجعلها ملكاً خالصاً للمجتمع !

— أرى أنكم تصطدمون مرة أخرى بالفطرة الإنسانية ! ولا يمكن لهذه الفطرة أن تكون موضع عبث العابثين ! ويوم تفسد هذه الفطرة لابد أن يفسد الإنسان ؛ فعدالة توزيع ثمار الإنتاج شىء ، وعدالة توزيع وسائل الإنتاج شىء آخر ؛ فمن الممكن أن تجرى عدالة فى توزيع ثمار الإنتاج من غير إجراء عدالة حسابية فى توزيع وسائل الإنتاج !

ذلك أن النظرة الماركسية تخلط فى واقعها بين نوعين من التفاوت بين أعضاء المجتمع البشرى :

الأول تفاوت مصطنع يأتى نتيجة عوامل اجتماعية ظالمة تؤدى إلى تمايز فئة على فئة بالمال والجاه والسلطان . .

والآخر تفاوت طبيعى يأتى نتيجة ظروف طبيعية تؤدى إلى تفاوت أعضاء

المجتمع فى الملكات الذهنية والقدرات الجسدية .

والنوع الأول ترفضه كل الشرائع والمذاهب ؛ وما اندلاع الثورات الدموية وقيام الحركات الإصلاحية إلا للقضاء عليه وتخليص المجتمعات الإنسانية من آثامه .

أما النوع الآخر فلا سبيل إلى إصلاحه بالمساواة الحسابية بين الأفراد ؛ لأن فى هذه المساواة الحسابية إهداراً لحقوق الفطرة فى التمييز بين البشر : فالمساواة بين غير المتساوين بالفطرة هى اللامساواة بعينها ؛ فمن الحيف إعمال المساواة بين الخامل والعامل ! ، وبين الذكى والغبى ! وبين الموهوب وعديم المواهب ! والمجتمع الذى يجرى بين أعضائه هذا النوع من المساواة مجتمع محكوم عليه بالإعدام ، ومقضى عليه بالموت ؛ لأنه يستبدل باللامساواة الفطرية مساواة مصطنعة ، ويكبل من ثم طاقات الإنسان الخلاقة !

والحل هو ضمان حد أدنى من المساواة بين الجميع ، ثم فتح آفاق التنافس والمبادرة أمام الجميع فيما فوق هذا الحد ، ثم أخيراً وقف التجاوز الصارخ حتى لا يؤدى إلى تفاوت صارخ فى توزيع الثروات ! وكل ذلك ممكن من خلال سياسة حكيمة لتوزيع الدخول ، وقد استحدث الإسلام هذه السياسة عندما استحدث مؤسسة الزكاة وغيرها من الفرائض المالية ، ولكن أكثر القوم لا يعلمون !

— لا ، وإنهم يعلمون ! ودليل العلم واضح فى كل الأساليب والإجراءات الاشتراكية التى اتُخذت حتى الآن على صعيد دول كثيرة والتى تحاولون إنكارها ! ولكن السؤال الذى يثور بالنسبة لكم هو : كيفية تطبيق تلك الشعارات والسياسات التى تنادون بها ! إنكم تفتقرون إلى الإنتليجنسيا[1] ، تفتقرون إلى الطليعة القيادية ، وعدم وجود هذه الطليعة القيادية عندكم حتى اليوم — دليل واضح على

(١) الأنتليجنسيا : صفوة المفكرين .

إفلاس مذهبكم ، فلم تستطيعوا - برغم ما بذلتم وما تبذلون - إقناع أحد بنظريتكم ! هل نجحتم مثلاً فى تجنيد القيادة الفكرية القادرة على التطبيق ؟

- أعترف صراحة أننا لم ننجح بالسرعة التى نجحتم بها ! ذلك أن أساليبنا فى استقطاب الجماهير تخالف أساليبكم ، وأعتقد أنه ليس من الصعب تجنيد عناصر مثقفة وتكوين «قيادة طليعية» على غرار قيادتكم إذا سلكنا سلوك الالتواء : فأساليبكم تعتمد على الإثارة واستغلال الأحقاد الموروثة . وهذه أسهل أساليب الاستقطاب . فما أيسر تجميع الناس على الهدم واستنهاض كوامن الشر فيهم للانتقام والتدمير ! أما تجميع الناس على البناء والتشييد فهو الأمر العسير الذى يستنفد جهداً ويستلزم المثابرة والمعاناة !

- وهل تريدون أن تظل الطبقة الكادحة فى غفلة من أمرها ، فلا تثور ولا تستثار من أجل التغيير والانتقال إلى الأفضل ! هل تريدون لها أن تظل بقرةً حلوباً بين أيدى طبقة مستغلة ؟

- نحن ندعو أيضاً إلى التغيير والانتقال إلى الأفضل ، وهدفنا أيضاً كالهدف الذى تدعون ، وهو القضاء على الاستغلال بصوره كافة ! ، ولكن مذهبنا يخالف مذهبكم وأساليبنا تغاير أساليبكم ؛ فالقضاء على الاستغلال والانتقال إلى الأفضل ليس وقفاً عليكم وحدكم ، والواقع أن أساليبكم الإعلامية الطاغية هى التى جعلت شعاراتكم تطغى على غيركم ، فظهرتم فى النهاية وكأنكم الفئة (الوحيدة) فى العالم التى تكافح الاستغلال ، وتدعو إلى التقدم !

- ومن ذا الذى كافح الاستغلال ، وعمل على إدراك التقدم - كما كافح الشيوعيون وعملوا بعرض الساحة الدولية كلها ؟ وهل نسيت ما قدموه من تضحيات ودماء من أجل تحرير الإنسانية وإنقاذها من مهاوى الخرافات ومخالب الإمبرياليين

فى فيتنام وكوريا وكوبا واليمن الجنوبية وغيرها ؟

– لقد كافح الشيوعيون وعملوا حقاً ، ولكن من أجل مجدهم الشخصى ! ولقد بدأت قيادتهم الهزيلة فى كل دول العالم تبث الدعوة البراقة نحو مجتمع الوفرة والمساواة والحرية وتخاطب فى الإنسان جانبه السالب ، فتعمد إلى إذكاء الأحقاد الموروثة وإثارة تبرمه على القائم ، واستطاعت بوميض الشعار وغموض الكلمة ومطاطية الفكرة – أن تستميل إلى صفوفها نسبة من الجماهير المثقفين وأنصاف المثقفين والجهلة ! وقد نجحت بعض هذه القيادات الهزيلة فى اعتلاء السلطة فى بعض الدول عن طريق التآمر والانقلاب العنيف المباشر الذى ساندته دائماً روسيا البلشفية !

ولتقل لى « بربك » : كيف اعتلى الشيوعيون الحكم فى كل دول أوربا الشرقية ؟ هل كان هذا الاعتلاء ناتجاً عن اختيار حرٍّ من الجماهير أو حتى عن ثورة شعبية ؟ لقد فرضت هذه الأقليات الشيوعية فرضاً على رقاب العباد بعد اقتحام الجيش السوفيتى لأوربا الشرقية قبيل انتهاء الحرب العالمية الثانية بقليل ! لقد جاءت هذه الأقليات الشيوعية إلى مربع السلطة على أسنة حراب الجيش الأحمر ! ولولاه لما تمكن أى حزب شيوعى فى هذه الدول من اعتلاء السلطة !

– إن مفهومنا للسلطة يختلف عن مفاهيمكم ! ونحن نعد الاستيلاء على الحكم مرحلة تاريخية لابد منها لتحقيق الأهداف ، والتعاون مع الرفاق فى كل مكان واجب ولازم ؛ فدعوتنا دعوة عالمية ، ولا غضاضة فى التعاون ، بل طلب المساندة من الدول الشيوعية التى تشاطرنا المذهب والهدف ! وإذا لم نتكتل لندرك السلطة فى العالم أجمع فلن تقوم لنا قائمة ، وسوف تذرونا رياح الإمبريالية والرجعية العاصفة ! إن مساندة الاتحاد السوفيتى للطليعة الشيوعية فى دول أوربا الشرقية

مساندة شريفة وواجبة . وقد ضحى الشيوعيون بأرواحهم لدفع الغزو النازى ومقاومة الفاشية الطاغية ! وقد أكسبتهم هذه المقاومة شعبية كبيرة ومجداً واسعاً أهّلهم لتقلد كل السلطان والسير قدماً إلى الهدف الكبير.

– يعجبنى فى حواركم قدرة المراوغة ، وإتقان حرفة الهروب من الأصل إلى الفرع ، ومن الوضوح إلى التعمية ! لقد كان سؤالى واضحاً عندما استحلفتك «بربك» : هل أدرك الشيوعيون الحكم فى كل الدول التى يحكمونها اليوم بغير التآمر والانقلاب العنيف أى بالوسائل الديمقراطية ؟ هذا هو بيت القصيد فهلا أجبتنى عليه !

– لا ، لقد كانت هناك أوضاع ثورية تمنع من إجراء استفتاء أو انتخاب ! والثورة حدث تاريخى لا يمكن إنكاره ، وكل ثورة تكتسب شرعيتها من أحداثها ، وتبنى دائماً على أساس جديد ، وهذا ما وقع فى دول أوربا الشرقية وغيرها من دول الكتلة الشيوعية !

– أى ثورة وقعت فى بولندا وتشكيوسلوفاكيا والمجر ويوغوسلافيا وبلغاريا وألمانيا عند نهاية الحرب العالمية الثانية وبررت استيلاء الشيوعيين على الحكم ؟ ألم يكن الجيش الأحمر حاضراً بعَدده ومَدَده فى طول أوربا الشرقية وعرضها عندما وقعت تسويات معينة بين الحلفاء أدت إلى إقطاع الاتحاد السوفيتى هذه المنطقة من أوربا ، ليحكمها عن طريق أحزاب الأقليات الشيوعية ؟

أما دول الكتلة الشيوعية الأخرى والتى تدعون بأن الشيوعيين قد أدركوا أداة الحكم فيها بثورات مسلحة وحروب أهلية وهى الاتحاد السوفيتى والصين وفيتنام وكوبا واليمن الجنوبية – فهذه الدول لو عرفنا ظروفها وتدارسنا أوضاعها وكيفية استيلاء الشيوعيين على الحكم فيها لغيرنا من أبعاد الصورة التى رسمتها الدعاية

الشيوعية عنها ولا ستطعنا أن نرى بوضوح أكثر !

الاتحاد السوفيتى قام «بثورة أكتوبر» عن طريق انقلاب تآمرى مسلح ضد النظام القيصرى أسهمت فيه ألمانيا القيصرية بالسلاح والمال !

والصين قامت بثورتها المسلحة وحربها الأهلية بالأسلحة السوفيتية والأموال السوفيتية ، وفيتنام وكوريا وكوبا واليمن الجنوبية قامت «ثوراتها المسلحة» على أفواه المدافع السوفيتية والصينية ، ودعمت بالأموال الطائلة والخبراء من هذا المعسكر الشيوعى وذاك !

ولا أدرى ، أين هى الثورات الشعبية التى تقوم على إرادة الأغلبية والتى تكتسب الشرعية بتأييد الأغلبية ومساندة الأغلبية ؟

– ألا ترى فى الثورة الصينية والثورة الفيتنامية السند الشعبى الكاسح الذى لم يسبقه مثيل فى التاريخ ؟ إنها ثورات الأغلبية المسحوقة ضد قوى الإمبريالية ، وانتصار الأغلبية المسحوقة على القهر والاستغلال !

– عندما تملك فئة قليلة السلاح والمال ، وتساندها من خلف الحدود المتصلة قوة أكبر كالاتحاد السوفيتى فى حرب الصين وكالصين والاتحاد السوفيتى فى حرب الفيتنام ، وعندما تشارك عوامل الفقر والتخلف وكراهية الاستعمار هذه الفئة القليلة فى حربها – فلابد أن ترجح كفتها ، وأن يكون النصر حليفها !

إن الشعوب عندما تصل إلى قاع التخلف والحرمان ، وتجسد مسئوليته فى الاستعمار والإمبريالية – تستملك القدرة على التجمع لتحطيم العدو المشترك فى أى مذهب يساير أمانيها ، وفى أى دعوة تلائم متطلباتها ! وسواء كانت هذه الدعوة دينية أو قومية أو وضعية فإنها تنجح إذا ما أطلقت فى الوقت المناسب ، ووجدت الدعم المادى والمعنوى المناسب فى إدراك أهدافها القريبة ، أى إزالة العقبة التى

تعرقل طموحها ، وتسد أمامها الطريق !

وهذا ما وقع بالضبط فى الصين عند منتصف هذا القرن ، وهذا ما وقع بالضبط فى فيتنام منذ بضع سنوات ؛ ولكن عندما تنتهى مرحلة قهر العدو المشترك التى تسهم فى صنعها الأغلبية الساحقة – تبدأ مرحلة جديدة مختلفة ، وهى مرحلة ما بعد الحرب . .

هذه المرحلة التى يفترض فيها إعادة البناء تشهد فى الواقع أوضاعاً مختلفة وأساليبَ مختلفة : فالسلطة كلها تبقى بين أيدى الفئة القليلة التى يؤازها الحزب الشيوعى ، والشعب يظل بمنأى عن سلطة التقرير التى تكون وقفاً على الحزب نفسه ! والإجراءات الاستثنائية والقمع باسم الحفاظ على مكاسب الشعب تصبح الأسلوب التقليدى فى تصفية الخصوم ! والأخطاء السياسية والاقتصادية والاجتماعية تتراكم وتتراكم فى غيبة الرقابة الشعبية حتى تنتهى إلى فضائح أوكوارث لا يعلمها أحد إلاّ عند الصراع على السلطة وانتصار فئة حزبية على الأخرى ، أو عند سقوط قيادة حزبية ، واستيلاء أخرى على الحكم !

ألم يكن هذا وضع الصين بعد خلاف ماوتسى تونج مع ليوتشاوتشى وبعد صراع خلفه مع أرملته ؟

ألم يكن هذا وضع الاتحاد السوفيتى بعد موت ستالين وسقوط بريا ؟ أو لم يكن هذا وضع الاتحاد السوفيتى بعد اختفاء خروشوف ؟

كل قيادة جديدة تُحمل سابقتها أخطاء الإدارة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بل تذهب إلى اتهامها بارتكاب الجرائم وممارسة الطغيان ! ولكن قبل أن تظهر هذه الجرائم وقبل أن يكتشف هذا الطغيان كانت أبواق الدعاية الشيوعية فى العالم أجمع تطبل وتزمر وتصدح لتزيِّن للناس أبعاد الجنة الموعودة التى أقامها

المراكسة على الأرض !

– ولماذا نجح الفكر الماركسى بالذات فى حشد الشعوب وتوجيهها نحو التحرر من قيود الإمبريالية وعملائها ؟ لماذا لم ينجح فكر آخر فى مواجهة التحدى الإمبريالى وتحقيق الآمال الشعبية كما نجح الفكر الماركسى ؟ أليس هذا دليلاً جديداً على قوة هذا الفكر وفعاليته وسلامته وقدرته على التغيير ؟

– ليس من الضرورى أن يجتمع الناس حول فكرة سليمة لمواجهة التحدى الذى يتهددهم ، إنما المهم أن يعتقدوا سلامتها حتى لو كانت فاسدة المحتوى ، وفى التاريخ نماذج كثيرة لاجتماع الطاقات الشعبية حول أفكار خاطئة .

لقد اجتمعت بعض الشعوب على الأفكار الفاشية والنازية ؛ كما اجتمعت أيضاً فى القديم حول بعض الأفكار الوثنية ، ولم يكن اجتماعها حول هذه الأفكار ونضالها بها ومن أجلها دليلاً على سلامتها فى ذاتها ؛ وإنما كان دليلاً على اعتقاد هذه الشعوب فى سلامتها وقدرتها على قهر التحدى الذى تواجهه ، وعندما جاء دور الممارسة والتطبيق تكشفت للشعوب معايب الفكرة . وبدا فسادها وتداعيها عند أول امتحان مع الواقع !

ثم يجب ألا ننسى أن عمليات تجميع الشعوب وحشد الطاقات حول الفكر الماركسى تتم دائماً بمؤازرة دول أعظم تملك الإمكانات العملاقة ، وقبل هذه المؤازرة وخاصة « قبل الثورة البلشفية » لم يكن الفكر الماركسى يتمتع بانتشار يذكر فى كل الأوساط ، بل ظل محصوراً بين نفر قليل من أهل الفكر والمثقفين !

– هذا الكلام لا ينسحب على الماركسية ، فالماركسية فكر وعمل ، بل لم توضع النظرية الماركسية أصلاً إلا من أجل تطبيقها والعمل بها ! وإذا كان التطبيق تعتريه بعض الأخطاء أو الانحرافات فإن هذه الأخطاء أو الانحرافات لا تهدد بمجال

سلامة النظرية والنهج الذى ترسمه لإحداث التغيير!

– فلتقل: إن الماركسية دين ودنيا، وإنها تلائم كل زمان ومكان! ولتقل: إن العيب ليس فى الماركسية، ولكن فى هؤلاء الذين يسهرون على تطبيقها! فهذه حيلة قديمة التجأ إليها الكثيرون من أصحاب النظريات الوضعية عندما خابت نظرياتهم فى التطبيق! لقد أرادوا إنقاذها باتهام التطبيق ووصم القائمين عليه بالغباء والانحراف والتقصير! والواقع أن الفساد قد يعترى النظرية، وقد يلحق التطبيق؛ كما قد يصيب النظرية والتطبيق معا، ولست بحاجة إلى التدليل على أن الفساد الذى أصاب النظرية الماركسية يعتبر من هذا النوع الأخير.

– هل تريد الادعاء بأن الماركسية فاسدة كفكر وعمل؟ هل استطاعت نظرية أخرى أن تأخذ مكانها إلى اليوم؟

– نعم الماركسية تقوم على أسس خاطئة؛ ومن ثم لابد أن يؤدى التطبيق إلى أخطاء، بل إلى جرائم حتى لو كان القائمون عليه من «الأولياء الصالحين!» وقد سبق لنا الكشف عن عورات النظرية ومثالبها، وبينا قدر العته الذى أصاب صاحبها عندما أراد أن يبنى نظريته على مشهد واحد من تاريخ الرأسمالية استلهمه من الفترة التى عاشها، وأن يعمم هذا المشهد على التاريخ كله، وعلى الإنسانية جمعاء. وعليك إن شئت أن ترجع إلى ما كتبت، ولست بحاجة إلى أن أزيد[1].

أما زعمك بأن النظريات الأخرى لم تستطع احتلال المساحة التى تحتلها النظرية

(١) راجع فى الموضوع مؤلفاتنا التالية:

١ – تاريخ الفكر السياسى: دار النجاح – بيروت ١٩٧٢.

٢ – الاقتصاد الإسلامى: دار الشعب – القاهرة ١٩٧٤.

٣ – تقدميون إلى الخلف: دار المعارف – القاهرة ١٩٧٦.

الماركسية فى عالمنا المعاصر فلن أجادل فى صحته الآن ؛ إنما يكفى أن تعلم بأن سيادة نظرية ما واحتلالها الساحة الفكرية ليس دليلاً على سلامتها كما سبق القول : فقد عاشت كثير من الأمم والشعوب فترات طويلة من تاريخها فى ضلال مبين ! وكثير من الأفكار الفاسدة تحيا وتنتشر إلى حين ، ولكنها تذوى وتموت بعد ذلك ، وقد كانت الرسالات الدينية فى أول عهدها محدودة الانتشار ، وكان حَمَلتُها قلة قليلة ظلت سنواتٍ طوالاً تعيش فى بحر من الوثنية والإلحاد إلى أن انتصر الحق وسقط الباطل !

وعليك أن تعلم بأن الفكرة الجيدة قد تنحسر أو تموت إذا لم تجد الدعم المادى والمعنوى ! والفكرة الرديئة قد تعلو وترتفع إذا وجدت المال والسلاح !

والفكر الماركسى لو لم يجد الدعم الهائل والحماية الطاغية من دولتين كبيرتين لما كتب له انتشار على الإطلاق ! ولظل كما كان قبيل الثورة البلشفية حبيس عقول الحالمين وقلوب الحاقدين !

– كنت أود أن تعطينى مثالاً واحداً يدعم وجهة نظرك ! لقد خاض الفكر الماركسي أعنف الحروب ، وتصدى لأقوى التحديات ، وانبرت كل القوى المضادة لقتاله بالناب والمخلاب ابتداء بالإخوان المسلمين وانتهاء ببيادق الإمبريالية وعملائها ! ألم تنفق كل هذه القوى الجهد والمال فى سبيل وقف التقدمية الزاحفة عبر النظرية الماركسية ؟

– وماذا كان مصير الإخوان المسلمين وكل من نحا نحوهم فى بلاد المسلمين ؟ ألم تنقض عليهم قوى السلطة لتزقهم وتفتك بهم فى كل مرة حاولوا فيها التحرك ؟ وأين الجماعات الإسلامية التى تملك العدد والمدد الذى يقابل عددكم ومددكم ؟ ثم أين التنظيمات المحكمة والإمكانات العملاقة التى توفرها دول الكتلة الشيوعية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتى لخدمة الدعوة الماركسية ؟

إن قوى الإمبريالية التى تقول عنها تخشى المدّ الإسلامى فى المنطقة العربية أكثر مما تخشى المد الماركسى وتحارب المد الإسلامى بأعنف مما تحارب المد الماركسى ، وعليك أن تعود إلى ملفات التاريخ البعيد والقريب ؛ ففيه تذكرة وعبرة !

– ألم يضرب «عبد الناصر» ومن نحا نحوه المد الماركسى بالحديد والنار؟ ألم يحاربهم فكرا وعملاً بكل ما يملك من أجهزة السلطة؟

– بلى لقد حارب «عبد الناصر» الماركسيين المصريين ، ولكنه لم يحارب الماركسية ، وكانت حربه لهم حرب قوة لا حرب فكرة ! ثم كانت فوق ذلك حرباً خاطفة لا حرباً ممتدة ، فبعد أن اعتقلهم لم يلبث أن أفرج عنهم ليبوئهم أعلى المراكز !

– كيف تقول : إن «عبد الناصر» لم يحاربهم حرب فكرة ؟ وماذا كانت تفعل أجهزة الإعلام طوال مدة حكمه؟ ألم تكن تبث أفكاره ونظرياته ليل نهار ، وتحشرها حشراً فى كل مقال وبرنامج ؟ ألم يقحم على المدارس والجامعات فلسفته وآراءه ومبادئه الثورية ؟ ألم يجند الأدباء والفقهاء لإعلاء مذهبه وتسفيه مذاهبنا !

– ليته استطاع أن يفعل ! إن الفكرة لا تقتلها إلا الفكرة يا رفيق ، «وعبد الناصر» لم يكن يملك فكراً علميًّا يواجه به الفكر الماركسى ، «عبد الناصر» لم يكن يملك سوى أشتات آراء متناقضة جمعها من هنا ومن هناك ، ثم صبها فى النهاية فيما أسماه بميثاق العمل الوطنى !

ولو كان «عبد الناصر» يملك حقًّا فكراً ونظرية لأدرك النجاح فى تنظيماته السياسية ، ولاستطاع أن يجمع من حوله آلافاً من المؤمنين بمذهبه المناضلين من أجله ! ولكنه أخفق مرة بعد مرة : أخفق فى هيئة التحرير ! وأخفق فى الاتحاد القومى ! وأخفق فى الاتحاد الاشتراكى ! وكل ما نجح فيه هو تجميع حشد من

المنافقين والوصوليين وتجار السلطة !

– أليست القومية العربية فكرة ونظرية ؟ أليست مناهضة فى جوهرها للفكر الماركسى ؟ ألم يطلقها «عبد الناصر» من عقالها ، فاجتمع الشعب العربى من حولها ، وناضل من أجلها ، ومع كل ذلك : هل استطاعت هذه الفكرة أو غيرها وقف الزحف التقدمى الماركسى فى المنطقة العربية ؟

– أولاً : القومية العربية ليست من بنات أفكار «عبد الناصر» فجذور القومية العربية قديمة فى التاريخ ، ودعوة القومية العربية انطلقت مع الثورة العربية الكبرى فى العشرينيات من هذا القرن ، وتأسيس الجامعة العربية عام ١٩٤٦ لم يكن إلا باسم هذه الدعوة !

ثم إن القومية العربية دعوة سياسية وحدوية لا تدعى الرؤية الشمولية للظواهر الاجتماعية كما تدّعى النظرية الماركسية ، وهى على كل حال بعيدة عن أن تفرغ فى نظرية علمية لها حبكة وجاذبية النظرية الماركسية .

أما قولك – إن دعوة القومية العربية التى حملها «عبد الناصر» – لم تستطع وقف تقدم الماركسية لمردود لسببين :

أولهما أن الماركسيين العرب ارتدّوا على الفور رداء القومية عندما استشعروا خطر الدعوة ، وركبوا تيارها بكل براعة ، وقد سايرهم «عبد الناصر» فى خداعهم إلى آخر الشوط !

والآخر هو أن أفعال «عبد الناصر» على الصعيد العربى كانت مناهضة لأقواله وخاصة أفعاله فى سورية خلال الوحدة وسلوكه فى اليمن وتخاذله الطويل تجاه إسرائيل ! وقد أدى كل ذلك إلى إضعاف قيمة الدعوة القومية ، وزعزعة ثقة الجماهير بها !

— صحيح أن فكرة القومية العربية كانت قبل جمال عبد الناصر ولكن «عبد الناصر» هو أول من جعلها محوراً لسياسته العربية وأول من وضعها موضع التنفيذ ، والماركسيون العرب لم يركبوا الفكرة ، ولكنهم سايروها كمرحلة ضرورية لتحرير العالم العربي من قبضة الاستعمار السياسي والاقتصادي ، ولم يكن لهم أن يناهضوا الأماني القومية التي تنشد ما ينشدونه من تحرر واستقلال ، ولكن «عبد الناصر» استغل الموجة القومية ؛ ليضرب بها المد الماركسي كله ، ويمنع من تدفقه في الأراضي العربية .

— إن الفكرة النبيلة تفسد في الأرض إذا لم نعرف كيف نزرعها ، وقد عرف الماركسيون العرب كيف يستفيدون من تيار القومية ، فهو عندهم جزء من تكتيكهم المرحلي إذا ماركبوه استطاعوا بسهولة ويسر أن يصلوا إلى أهدافهم ، وقد فعلوا بل أفادوا من هذا التيار لضرب أعدائهم ؛ فدعوة القومية العربية مناهضة في لبها لدعوة الوحدة الإسلامية والذين تضرروا حقاً من دعوة القومية العربية ليسوا الماركسيين العرب ، ولكن دعاة الوحدة الإسلامية في كل مكان ، ورحم الله يوماً كانت هذه الدعوة تتهم بالتحالف الأمبريالي الرجعي ضد القومية العربية .

ثم ما سر هذا التأييد المطلق الذي حظي به «عبد الناصر» من قبل الماركسيين المصريين ومن فوقهم موسكو في السنوات الأخيرة من حكمه ؟ ألم تكن هناك مصلحة أكيدة للحركة الشيوعية من وراء هذا التأييد ؟

— نحن لم نؤيد «عبد الناصر» ولكن ظروف النضال الثوري في المنطقة العربية دفعت الماركسيين العرب إلى مهادنته !

— وهل هذه المهادنة مجانية أو أن لها ثمناً مدفوعاً . .

— أي ثمن ؟

– ثمن التمهيد لثورتكم والتمكين لوثبتكم إلى مقاعد الحكم ! ومن المستفيد الأول من حكم «عبد الناصر» والوارث الشرعى لنظمه غير الماركسيين المصريين ؟ ألم يُعَبِّد لهم طريق الحكم بضرب خصومهم وإزالة كلّ العقبات من طرقهم ؟

ألم يمنحهم عن قصد أو غير قصد وسادة فكرية ضخمة يتكئون عليها من خلال صحافة تنطق باسمهم وأقلام تدافع عن آرائهم ؟ لقد كان «عبد الناصر» بالنسبة للماركسية مرحلة ضرورية كما تفضلت بالبيان ، مرحلة سهلت مهمة الماركسيين المحليين !

– وهل سهل «عبد الناصر» حقاً مهمة الماركسيين المصريين ؟ لقد حاول بأقواله وأفعاله أن يقطع عليهم الطريق ويسبقهم إلى تطعيم الشعب المصرى ضد مبادىء الماركسية !

– وهل كان أعتى القادة الشيوعيين يحلم بأن يأتى رجل من بين العرب ليفتح للماركسيين المحليين الطريق إلى الحكم كما فعل «عبد الناصر» لقد دمر الرجل كل العقبات التى تقف فى وجه «ثورتهم» :

دمر المؤسسات الاقتصادية وحولها إلى قطاع عام . يأتمر بأوامر الدولة !

ودمر المؤسسات السياسية وأحالها إلى حزب واحد ينطق باسمه !

ودمر كل فكر ومذهب قادر على مجابهة المد الماركسى ! ولم يبق فى الساحة سوى «فكره» الذى لا يشكل عليهم أى خطر !

ودمر فوق ذلك ما تبقى للإنسان المصرى من قيم أخلاقية ، وهبط بالذات المصرية إلى خواء أخلاقى ، وتمزق وجدانى ! ومن ورائه تسلل الماركسيون المصريون إلى مربع السلطة يحتلون كل ركن فيه ، ويهيئون أنفسهم للقفزة الأخيرة !

وما إن جاءت هزيمة عام ١٩٦٧ حتى سقط «عبد الناصر» بين أيديهم ،

وأصبحت مصر كلها فى قبضتهم !

لقد كتب «عبد الناصر» بأقواله وأفعاله وصيته السياسية للماركسيين ، وأصبحت بموته واجبة التنفيذ !

— ما تسميه تدميراً أفاد منه الماركسيون ؛ إذ هو فى حقيقته بناء أفادت منه مصر !

— نعم : «مصر الماركسية !»

ضمير الذئاب

لا أريد أن أكون متجنياً فى مجادلتك ، فأنت تحمل ضميراً نُقشت عليه الحروف الأولى من فكرة كلية !

وقد سعيت أنت ورفاقك طويلاً لإقرارها ، . وتلاحمت أنت وكل القوى الداخلية والخارجية لترجمتها إلى واقع !

ولكننى لم أجد فى أساليبك ما يطمئننى على غايتك ، ولم أعرف من سلوكك سوى ما يبشرنى بجحيم فى الدنيا وخسران فى الآخرة !

وصدقنى يا رفيق أن الأفهام قد حارت فى تفسير مواقفكم ، والأفئدة قد عجزت عن تحديد نواياكم ؛ فأنتم تربطون اليوم دعوتكم بالدين ، وتصلون مذهبكم بالاشتراكية الناصرية ، وتصبُّون كل ذلك فى قوالب غامضة لا يتسع لها الضمير.

قلت :

– كيف ترى شيوعيين يؤمنون بالإسلام ؟

– كما ترى أنت مسلمين يؤمنون بمجتمع الكفاية والعدل !

– وهل تعنى الشيوعية مجتمع الكفاية والعدل كما عناه الإسلام ؟ .

– نعم ، تعنيه فى المعنى وإن اختلف المضمون ! ألا يستهدف الإسلام فى النهاية تأمين الحاجات الضرورية لأفراد المجتمع على أساس «لكل بحسب حاجته» ؟

– وهل يعنى الإسلام بالكفاية والعدل – كما تعنى الشيوعية – اختفاء الملكية الفردية وشيوع الأشياء والأموال بين أفراد المجتمع ؟

– هذا خلاف فى المضمون ! وليس خلافاً فى الغاية ، فلا تعارض فى النهاية بين ما تستهدف الشيوعية وما يستهدفه الإسلام .

– ومن الذى قال يا رفيق : إن الله قد مات ؟

– أنت تطرح الأسئلة المثيرة التى تستفز مشاعر الجماهير ؛ وتريد بذلك أن تكسب المعركة من البداية ! ولكننى مع ذلك أجيبك فى صراحة تامة بأن هذا الشعار من صنعنا ! ولا يعنى فى شىء أن تعرف قائله بقدر ما يهمنى أن تعرف أنه رمز ينهى استغلال الطبقات المسحوقة باسم الدين !

– وهل رأيت الله حتى تشهد بموته ؟ !

– إننى لم أر الله كما لم تر أنت كارل ماركس ! ومع ذلك فقد كان ماركس موجوداً وملموساً بجسده وأعماله ، أما الله فما دليل وجوده ؟ أنت لا تلمسه إلا من خلال الصدف المرتبة التى تستدل عليها بقلبك ، وهذا الاستدلال يمكن أن يخطئ ويمكن أن يصيب فهو التخمين والاحتمال ، وليس القطع واليقين ! ومستقبل الإنسانية لا يبنى على التخمين ، ولا يؤسس على الاحتمال !

إنكم توهمون البائسين بنعيم الآخرة ؛ لتسرقوا منهم متاع الدنيا . . وأنتم تصورون

لهم إلهاً عدلاً سوف ينتقم لآلامهم بعد الموت ؛ لتنعموا أنتم بملذات الحياة ! ولو كان الله موجوداً حقاً لما ارتضى هذه القسمة الجائرة بين أغنياء وفقراء ، ولاقتص للضعفاء فى الدنيا والآخرة !

— وهل تريد فعلاً أن ترى الله حتى تؤمن بوجوده ؟ هل تريد أن تلمسه بحواسك حتى تؤمن بوجود ؟ ألم تكن الكهرباء موجودة فى الكون قبل أن يكتشفها توماس أديسون ؟ هل معنى عدم اكتشاف الإنسانية للكهرباء قبل أديسون دليلٌ على عدم وجود الكهرباء فى الكون ؟

إن الجهل بالشيء ليس دليلاً على عدم وجوده ، وإذا كانت ملكاتك الحسية عاجزة عن إدراك وجود الله فليس هذا دليلاً على نفى وجوده !

هناك أنواع من الحيوان تستشعر الزلازل قبل وقوعها وهى من ثم أقدر على إدراك بعض الأمور من بنى الإنسان ! وإذا كانت ملكاتك أيها الرفيق قاصرة عن إدراك وجود الله أو كان كبرياؤك المذهبى قد حجب عنك إعجازه وقدراته فما حيلتنا فيك ؟ وما سبيلنا إلى إقناعك ؟ .

— هل تنكر أن الدين ينحاز اليوم إلى معسكر الرأسمالية المستغلة ، ويسخر لخدمة الظلم فى كل مكان ؟ .

— ليس صحيحاً ما تدعونه من أن الدين يكرس الحاضر للاستغلال والعسف ، . . وأنه أداة ماضية فى يد طبقة ضد طبقة ، وعليك أن تفصل دائماً بين الدين واستخدام الدين : فالدواء الشافى يمكن أن يتحول إلى سم قاتل إذا ما أسيء استعماله !

ولعل نقطة اللبس (الوحيدة) التى كسبتم من ورائها أنصاراً هى ادعاؤكم بأن الدين يساند الحاضر الذى تعملون على تغييره على حين أن الواقع هو أن الدين

يناهض الحاضر ، ويرفض كل آثامه ومظالمه ! فإن أنت سلمت بذلك نكن قد التقينا على نقطة بداية .

– الدين مرحلة تاريخية فى حياة البشرية ، وهو بهذا الوصف بناء فوقى عارض ولد مع ميلاد قوى الاستغلال الطبقى ، ولابد أن يموت مع موتها والله الذى قيل بأن الدين من عنده حيلة « ميتافيزيقية » عمدت إليها الطبقة المستغلة فى كل العصور والأزمان لتبرير استغلالها وإخفاء جرائمها !

– إن تصوركم للدين على أنه مرحلة تاريخية ناتج عن فلسفة مادية أخذتم بها ، ونهج « علمى » التزمتم به ؛ كما أنكم استخدمتم الأدلة « العلمية » للتنبؤ بمآل البشرية ورأيتم مجتمع الغد فى فردوس الشيوعية – فمن حق غيركم أن يستخدم أيضاً الأدلة العلمية فى التدليل على وجود الله وفى تحديد الصورة التى يرضاها – سبحانه – لمجتمع الغد ، . . وهى الصورة التى رسمت معالمها الأديان السماوية .

الله يقول : إن هناك حساباً فى الآخرة وعلى البشر أن يتهيئوا له فى دنياهم ، وأنتم تقولون : إن هناك فردوساً « موعوداً » سيأتى به التاريخ ولن يكون للظالم فيه نصيب ، إنما هو جنة للكادحين وملاذ للبشر أجمعين . وأنتم تدعون الناس « ليوم قيامة » تسقط فيه الرأسمالية على رءوس أصحابها ليأتى من بعدها النعيم المقيم !

فكما تنكرون أنتم حساب الآخرة ننكر نحن فردوس الدنيا الذى به تبشرون !

أنتم تسوقون الأدلة على ما تسمونه بحتمية التاريخ ، وتطالبون البشر بالاقتناع بهذه الحتمية والعمل على إدراكها بالأسلوب الذى تريدون ، ونحن نقدم الأدلة العلمية على وجود الله ، وندعو الناس إلى التمسك بدينه . ، والتهيؤ لليوم الآخر .

فلماذا إذن ترفعون « آخرتكم » إلى مرتبة الحتم واليقين ، وتخفضون آخرتنا إلى مرتبة الظن والتخمين ؟

— الفارق بيننا وبينكم يكمن فى نوع الأدلة المستخدمة والنهج المتبع : نحن نؤسس حتميتنا التاريخية على مبادئ علمية بحتة ، ونرفض كل غيبية أو ظنية ، ولا تعرف من أدلتكم سوى ما ادعاه الرسل ، وما جاءت به الأديان ، وعندما تعجز هذه الأدلة عن إسعافكم تحاولون الافتئات على العلم باستخدامه استخداماً ساذجاً للدفاع عن قضيتكم ! وهل لكم نظرية علمية تثبت مزاعمكم فى وجود الله ؟ إنكم تتصيدون بعض الدلائل العلمية من هنا وهناك لتدعموا بها ما قالته الأديان !

— ولنفرض أن ماتقدمون من أدلة نابع عن نظرية علمية فهل تعلم أن العلم الوضعى نسبى بدوره ، وأنه يمكن أن يخطئ ، ويمكن أن يصيب ؟ وعليك أن تنظر إلى النظريات العلمية التى تعاقبت على مر التاريخ لتتأكد من أن كثيرا منها قد نسخت ما سبقتها ، أو عدلت من محتواها ومضمونها ! إن « علمية » اليوم يمكن أن تصبح أكذوبة الغد فى ظل نظرية جديدة !

إذا كان ما نقدم من أدلة لا يقنعكم حقاً بوجود الله فلماذا تتمسحون اليوم فى الأديان ؟ ولماذا تدعون الوفاق والانسجام بين الشيوعية والدين ؟ إننى لا أفهم موقفكم هذا إلا من خلال انتهازية مكيافيلية تعمل على تكريس كل شىء لإدراك أهدافها !

— إن هذا القول محض اجتهاد من بعض الشيوعيين المحليين ؛ فهم يرون — ولهم العذر — أن الشيوعية والدين غير متعارضين ، وأن كليهما يحمل من المعانى النبيلة ما يجعل لقاءهما ممكناً ، بل لازماً ؛ فرسالات السماء كلها كانت ثورات على أوضاع جائرة ، وطالما أن الدين مسألة روحية لا تعرقل من بناء المجتمع الشيوعى فى شىء فإنه لا مانع عند هؤلاء من قيام مصالحة بين الدعوة الشيوعية وبين الدين !

— أى مصالحة تعنى بين الشيوعية والدين ؟ هل تعنى أن هؤلاء الشيوعيين المحليين

قد تخلوا عن المبادئ الأساسية للنظرية الماركسية أو تعني أنهم كرسوا الدين لخدمة النظرية ؟ ألستم أنتم أصحاب الرفض المطلق للدين ؟ فلماذا تتزلون اليوم عن رفضكم ؟ هل تغير شيء فى جوهر نظريتكم أو تغير شيء فى جوهر الدين ؟ هل أبدلتم مبدأكم «الأزلى» القائل بأن الدين بناء فوقيٌ صنعته الطبقات المستغلة لقهر خصومها ، أو بدَّل المسلمون وأَهل الكتاب مبادِئَهم واعترفوا بالمادية الجدلية التى بها تؤمنون. قل لى : كيف وقعت هذه المصالحة ؟ فنحن على شوق لسماع تفاصيلها !

– إن الميزة الأساسية للماركسية هى قدرة ملاءمتها – لمقتضيات الظروف والملابسات : فالسوفيت قد استخدموها بطريقة ، والصينيون استخدموها أيضاً بطريقة ، والعرب يجب أن يستخدموها بالطريقة التى تتمشى مع ظروفهم وأوضاعهم . وإذا كان الإسلام يشكل حجر الزاوية فى البناء الحضارى لكل الدول العربية – فإن على الشيوعيين العرب أن يأخذوا فى الاعتبار بهذه الحقيقة ، وعليهم أن يجتهدوا لإيجاد الحلول الكفيلة بدفع التعارض بين الشيوعية والدين ؛ فهذا قدرهم وتلك رسالتهم ، وقد دار الاجتهاد على هذا الأساس ، وأعطى ثماره النافعة ، ومناط الحل ما اكتشفه عدد من الشيوعيين العرب بعد دراسة مستفيضة من أن مبادئ الإسلام مثلاً لا تنطوى على أى عداء للاشتراكية العلمية ، بل تتضمن التلاقى والاتفاق على تصفية المظالم وإقرار العدل وبناء المجتمع الأفضل ! ولم يمنع اعتناق هؤلاء الشيوعيين العرب للماركسية من أدائهم للفرائض ، وإقامتهم للشعائر ، وتمسكهم بأهداب الدين ! إنها وجهة نظر لا يجوز لنا الاعتراض عليها أو انتقادها !

– سأسلم معك بأن الشيوعيين العرب قد أسسوا (هيئة) كبار علماء ، وعكفوا على الاجتهاد فى شئون الدين ، وخرجوا علينا بهذه النتيجة الغريبة العجيبة : فما قولك بما أعلنته موسكو من مصالحة بين الشيوعية والدين ، وما أبدته مؤخراً من تسامح إزاء

رعاياها المسلمين ؟ هل كان هذا أيضاً نتيجة اجتهاد من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ؟ إننا لم نسمع بهذه المصالحة المدّعاة إلا بعد أن أعلنتها موسكو رسمياً . أما قبل ذلك فقد كان الدين عندكم أفيون الشعوب ومخدر المسحوقين !

– وماذا يضر فى أن تنهج موسكو نهجا جديدا مع الأديان ؟ لقد استجابت موسكو لآراء المجتهدين من الشيوعيين العرب عندما أصدروا توصياتهم فى مؤتمر باكو برفع التعارض «المصطنع» بين الشيوعية والدين ! لقد حمل رجال الدين فى كل أرجاء العالم على الشيوعية منذ قيامها ، وحاربوا الثورة البلشفية باسم الدين ، وكان على الشيوعيين العرب ألا يأخذوا الأمور بظواهرها : فبعضهم تفقه فى الدين ودرس أصوله ، فتصدى لبحث القضية من كل جوانبها :

منهم من انتهى إلى أن الدين مسألة روحية لا تضر الدعوة الشيوعية فى شيء ، فهى متروكة لضمير الإنسان ووجدانه .

ومنهم من استبعد من النظرية الماركسية ما رأى فيه شبهة تتعارض مع الدين !

وقد انتهى هؤلاء وأولئك إلى التوفيق بين الشيوعية والدين .

– أى ضمير إنسانى هذا الذى يحتمل المعنيين فى آن واحد : معنى الشيوعية ومعنى الدين ؟ أبعد ما تعلن الماركسية عداءها للدين ، وتؤسس هذا العداء على فلسفتها المادية تقولون أن لا تعارض بين الشيوعية والدين ؟ إن التعارض بين المعنيين جذرى وأصيل ! وليس تعارضاً جدلياً قابلاً للحل بعمليات الملاءمة والتطوير !

إن قابلية المصالحة لا تقوم بين الماء والنار ؛ فكلاهما يعارض الآخر ، ولا يمكن جمعهما فى بوتقة واحدة ! وإذا كان الدين فى النظرية الماركسية وباعترافك أنت بناء فوقياً زائلاً يعبر عن أوضاع البناء التحتى ، ويتبدل بتبدل هذا البناء ، وأنه تعبير عن مصالح الطبقة المستغِلة ، وأداة قهر فى يديها – فكيف تقول بعد ذلك بإمكان

التوفيق بينهما وجمعهما فى إنسان واحد يحمل المصحف والإنجيل فى يد والمانيفستو فى اليد الأخرى ؟

كيف يمكن لضمير إنسان أن يحمل هذين الضدين إلا إذا كان ضمير ذئب يسعى من وراء ذلك إلى التحايل والمراوغة لاحتواء الدين وتحطيم مقاومته للمد الشيوعى فى بلاد العرب ؟

ثم إذا كان ظاهر الشيوعية والدين يقول : إن كليهما يسعى إلى أهداف نبيلة كالعدالة والمساواة والرخاء – فإن باطنهما يقول : باختلاف المنابع وتباعد الأصول ! فالشيوعية تقوم على المادية الجدلية التى لا ترى فى الإنسان إلا أحشاءه وما تحت أحشائه ، وتجعل الحركة الاجتماعية كلها رهينة بحركة العلاقات المادية ، وترفض أن يكون للفكر والمشاعر دور أساسى محرك فى تطور البشرية على حين يقوم جوهر الدين على عكس ذلك : فالإنسان فى النظرة الدينية مادة وروح ، وإذا كان للمادة خطرها فى حياته فإن للروح خطرها أيضاً فى حياته ، والمسيرة الاجتماعية عند الدين لا تنهض أبداً فوق المادة ولا تحكم أبداً بقوانينها الصماء ، ومآل المجتمعات لا يصير إلى حتمية مادية تاريخية مدّعاة ، ولكن إلى إمكان مادى وروحى تشكله إرادة الإنسان على عهد الله وشرطه الذى خطته الأديان .

– إن كانت هذه رؤيتك للشيوعية والدين فإن الشيوعيين العرب لهم رؤيتهم أيضاً ، وهم فى معظمهم مسلمون مثلك لهم رأيهم فى الدين وفى الشيوعية . أليس من حق كل إنسان أن يجتهد فى أمور الدين والدنيا ؟ لقد انتهى اجتهادهم إلى هذا الرأى ، وهم يطبقونه فعلاً فى سلوكهم ، وأمامنا زعامات شيوعية لا تفرط فى شعيرة واحدة من شعائر الدين ، فما مأخذك عليها إن كانت على قناعة كاملة بما تفعل ؟

– ليس لى سوى مأخذ واحد هو الانتهازية المفرطة عندما تتقمص ضمير ذئب !

فالقضية عندكم ليست قضية حرص على الدين ، ولكنها قضية حرص على الدعوة الشيوعية ! وقد دفعكم هذا الحرص إلى ادعاء الوفاق بين الدين والشيوعية لتتمكنوا من إزالة حائط الدين الذى يسد عليكم الطريق إلى دعوتكم . فالإسلام والمسيحية جذورهما عميقة فى المنطقة العربية ، والشيوعية بما تحمل من مبادئ الإنكار الأصيل للأديان لابد أن تصطدم فى تقدمها بهذا الجدار ! لذلك اقتضت مصلحة الدعوة الشيوعية أن تتلافى هذا الجدار . وأن تتسلل من ورائه لتطوقه من بُعْد وتهدمه من أساسه ! وإلا فلتقل لى : لماذا لم يعلن الشيوعيون مبدأ الوفاق هذا بين الدين والشيوعية من البداية ، أو على الأقل منذ قيام الثورة البلشفية ؟

لاشك أنهم توهموا يومها قدرتهم على تحطيم الدين فى هذه الأقطار بضربة واحدة ! ولكن عندما مارسوا تجربة دعوتهم فى بلاد العرب ، وتبينوا استحالة تقدمها فى مهد الأديان السماوية — انقلبوا إلى هذه البدعة ، بدعة الوفاق بين الشيوعية والدين حتى يضمنوا مهادنة الأديان وحياد الجماهير المؤمنة التى ترفض دعوتهم !

ثم هل كان الشيوعيون العرب وغير العرب يجرءون على الجهر بهذا الوفاق لولا أن موسكو قد أقرته وباركته ؟ لقد وجدت فيه ولاشك مصلحة أكيدة فى نشر الدعوة الشيوعية فى العالم العربى بعدما انتكست هذه الدعوة مرات ومرات طوال ربع القرن الماضى !

إن الشيوعية الدولية لم تبد تسامحاً مع الأديان إلا من باب التكتيك المرحلى الذى يستهدف احتواء الدين بعد أن فشلت فى محاربته بالأساليب المباشرة ، ولا يمكن أن نتصور أن الشيوعيين العرب يطلقون هذه الدعوة عن نقاء ضمير وحسن نية إلا إذا كانوا على جهل بيِّن بمبادئ الدين ، أو بمبادئ النظرية الماركسية .

أما جهلهم بمبادئ الدين فهذا أمر ممكن ، ولكن جهلهم بمبادئ الماركسية فأمر مستحيل ! إن الماركسية فكرة شمولية لا تقبل التجزئة : فإما أن تأخذ بها ، وإما أن نطرحها ! فالقول بأن الشيوعيين العرب يستبعدون من المبادئ الماركسية ما لا يتمشى مع تعاليم الإسلام – قول مغلوط ؛ لأننا ننزع من الماركسية فى هذه الحالة أهم ركائزها وهى الفلسفة المادية ونفرغها من ثم من مضمونها ، فلا يتبقى منها بعد ذلك شىء يستحق الذكر !

إن الملاءمة بين الماركسية والدين على أساس الأخذ والترك لا تعدو فى واقعها أن تكون عملية ترقيع ساذجة لا تفيد الشيوعية فى شىء ، ولا أعتقد أن الشيوعيين العرب على غفلة بهذه الحقيقة !

– وهل تنكر أن الإسلام ينطوى على كثير من المبادئ الاشتراكية ، وأن نصوص القرآن تحض على إنصاف الضعيف وإزهاق القوى ، وتوجب المساواة بين الجميع ، وترفض احتكار الثروة ، بل تعمل على توزيعها بالعدل والقسطاس حتى لا تكون دولة بين الأغنياء ، فتسود الطبقية ويعم الاستغلال ؟ إن الإسلام دين الاشتراكية فلماذا تتنكرون اليوم لمبادئ الاشتراكية ، وترفضون نسبتها إلى الإسلام عندما يأتى نفر من الناس ويدعون اليوم إلى تطبيقها ؟

– نحن لا نبحث للإسلام عن نسب بالاشتراكية كما تبحثون أنتم عن نسب للاشتراكية بالتمسح فى الإسلام ! ثم إن الاشتراكية مصطلح مطاط يتسع اليوم لآلاف المعانى والألفاظ ، وقد امتهنه الخصوم والأنصار ، فأصبح دمية مهلهلة لا وجه لها ولا قفا . فهناك مئات من الاشتراكيات فى الفكر الإنسانى ، وهناك عشرات من الاشتراكيات أيضاً فى التطبيق الإنسانى ، واشتراكيتكم تنفرد عن غيرها بادعاء « العلمية » وقد ميزت نفسها بالركيزة المادية التى تتكئ عليها ، وهذه

الاشتراكية العلمية أبعد ما تكون عن تعاليم الدين ! وإذا كان بعض فقهاء المسلمين قد حلاله أن يصف الإسلام بأنه دين الاشتراكية ، وأن يعلن عما أسماه بالاشتراكية الإسلامية – فإنه لم يكن يعنى على كل حال اشتراكيتكم العلمية ؛ إنما كان يعنى جملة المبادئ التى تدور حول العدالة والمساواة التى جاء بها مفكرون اشتراكيون سابقون عليكم ولاحقون لكم ، وكنتم أنتم على خلاف دائم معهم وإنكار كامل لمبادئهم !

فما الذى جرى فى الدنيا حتى تقبلوا الدخول إلى حظيرتهم وتدعوا الانتماء إلى أسرتهم ؟

– الاشتراكية فكرة موجودة صاغتها نظريات كثيرة ، والاشتراكيون أسرة واحدة على الرغم من أوجه الاختلاف التى تبدو بين أعضائها ! إننا على تعاطف مع كل القوى الاشتراكية أيا كانت أبعادها الفكرية ، والاشتراكية العربية مثلاً عضو من أعضاء تلك الأسرة الكبيرة ؛ فالأهداف واحدة وإن اختلفت الأساليب .

– إن التاريخ والتجربة تناهض ما تقول : فأهداف الاشتراكية العلمية تخالف أهداف غيرها من الاشتركيات ؛ كما أن وسائلها تختلف أيضاً ووسائل غيرها من الاشتركيات وأنتم تدخلون من باب الاشتراكية غير العلمية حيلة وخداعاً حتى تخلطوا الحابل بالنابل وتتسللوا إلى أهدافكم فى غفلة من الجميع !

أى قرابة مثلاً بينكم وبين الاشتراكية العربية حتى تقرروا الانخراط فى الاتحاد الاشتراكى العربى الذى أسسه «جمال عبد الناصر» ؟

«جمال عبد الناصر» على حد قوله لا يؤمن بالصراع الطبقى ، ولا يثق بالمادية التاريخية ، ولا يقبل مجتمع الشيوعية ؛ فما وجه الصلة بينكم وبين اتحاده الاشتراكى ؟

هل كنتم تؤمنون بما يؤمن ، وتسعون إلى ما يسعى ، أوكنتم تبحثون لأنفسكم عن قناع تستترون به إلى أن تحين فرصتكم فتقفزوا إلى أهدافكم وتدركوا مآربكم ؟

أنت لا تفهم أصول الجدلية التى تفرض القبول بأوضاع وسطية تخرج منها بعد ذلك أوضاع جديدة ! إننا نقبل الاشتراكيات الوسطية كمرحلة تاريخية ضرورية ، وهذا أساس فلسفتنا التاريخية ، وليس لنا أن نرفض تجمعاً اشتراكيا أيا كان طالما أنه قابل للتطور والانتقال بنا إلى مرحلة جديدة !

– ومتى كان «جمال عبد الناصر» اشتراكياً ؟ ومتى كان اتحاده الاشتراكى اشتراكياً ؟ إن المبادئ الستة لثورة (٢٣ يوليو) لم ترد فى طياتها كلمة واحدة عن الاشتراكية ! وهى المبادئ التى اتخذها رجال الثورة دستوراً دائماً لهم ! إن كلمة اشتراكية لم ترد على لسان «جمال عبد الناصر» إلا بعد خمس سنوات من الثورة وبالتحديد فى المؤتمر التعاونى الذى عقد فى القاهرة سنة ١٩٥٧ والذى أطلق فيه شعار «اشتراكية – ديمقراطية – تعاونية» ومن يومها لم يأت ذكر للاشتراكية على لسان «عبد الناصر» ، لا فى الأقوال ولا فى الأعمال إلا فى صبيحة يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٦١ عندما اتخذ قراراته المفاجئة بتأميم معظم المشروعات الإنتاجية وإعادة تحديد الملكية ! ومن يومها دقت طبول الاشتراكية ، وسمعنا عن المجتمع الاشتراكى والسلوك الاشتراكى ، والعدالة الاشتراكية ! إلى آخر ذلك من الكلمات والتصريحات التى زفتها وسائل الإعلام فى دهشة كاملة من الجميع !

– لا ، لقد كان «جمال عبد الناصر» يفكر فى الاشتراكية منذ أمد طويل ، وكانت بالنسبة له المخرج الوحيد للصراع الاجتماعى فى مصر ، بل كانت الأمل الأوحد للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ! وإذا كان «عبد الناصر» لم يستطع تطبيق الاشتراكية إلا بعد تسع سنوات من الثورة – فإن هذا لا ينفى عدم إخلاصه

للاشتراكية ، وعدم تحينه الفرص لتطبيقها ! إن الاشتراكية العربية واقع لامراء فيه ، واقع عاش وأثمر حقوقاً هائلة للعمال والفلاحين !

— الاشتراكية . . إن صحت كمذهب اجتماعى . . لا يمكن أن تكون صنيعة فرد واحد يفكر فى أصولها بمعزل عن الجميع !

الاشتراكية مسألة تثقيفية وتربوية لا يمكن فرضها بين يوم وليلة على مجتمع يجهلها !

الاشتراكية لا تستورد شعاراتها وقوالبها ونظمها من الخارج ؛ لتُفرض ذات صباح على شعب بأكمله !

الاشتراكية مسألة قناعة وإيمان يصنعها التفاعل بين الفكر والواقع ، والفكر الذى نعنيه ليس فكر تيتو أو لينين ؛ إنما هو فكر أبناء مصر وصفوة مصر ، والواقع الذى نعنيه ليس هو واقع يوغسلافيا أو الاتحاد السوفيتى ؛ إنما هو واقع مصر ، وظروف مصر !

الاشتراكية — يا رفيق — لا تفرض بقرار جمهورى ؛ إنما تَفرضها القواعد الشعبية إن اقتنعت بجدواها ! ويوم تفرض الاشتراكية بقرار جمهورى لابد أن تنتهى أيضاً بقرار جمهورى !

— لقد تناسيت فى عرضك مكاسب العمال والفلاحين الذين يشكلون الأغلبية الساحقة للشعب المصرى ، لقد أصابت الطبقات الكادحة من التطبيق الاشتراكى الشيء الكثير ، والاشتراكية لا تستهدف أساساً سوى مصالح هذه الطبقات ، وهذه النتيجة وحدها كافية لدحض مزاعمك !

— عن مكاسب العمال والفلاحين أترك لوزيرى الاقتصاد والمالية مئونة الرد عليك ؛ فهما على علم كامل بخسائر القطاع العام الذى يقال بأنه يوزع أرباحاً ! وهما

على علم كامل بمتوسط الدخل الحقيقى – لا النقدى – للعامل والفلاح بالقياس لخمس عشرة سنة خلت ، وهما أيضاً على علم كامل بالبطالة الفعلية والمقنعة التى يعانى من وطأتها أكثر من ٤٠ ٪ من عمال مصر وفلاحى مصر !

ماذا كسب العامل والفلاح بالقياس لما كان يمكن أن يكسبوا لو أن نظام « عبد الناصر » سلك سبيلاً سوياً فى سياسته الداخلية والخارجية ؟

لقد أنفق « عبد الناصر » أربعة آلاف مليون دولار على مساندة ما أسماه بالثورة الاشتراكية فى اليمن !

وهذه الأربعة آلاف مليون الدولار لو وزعت على جميع القرى المصرية – وهى أربعة آلاف قرية – لكان نصيب كل قرية مليون دولار !

– إنك تتجنى على الرجل من واقع حقدك الطبقى ! لقد جردكم « عبد الناصر » من السلطان والمال فى سبيل نصرة الكادحين ، وركب كل المخاطر فى سبيل إعلاء كلمة الاشتراكية على كلمة المستغلين ، وما الذى دفع « بعبد الناصر » إلى تحمل كل هذه الآلام والضربات سوى الإخلاص والقناعة للمبادئ الاشتراكية التى عاش لها ومن أجلها !

– قميص الناصرية الذى تحاولون به اليوم ستر عوراتكم لا يستر عورة ، لقد سقطت الجدران وتعرت الحقائق ! وثق أن ولع « عبد الناصر » المتأخر بالاشتراكية لم يكن عن حب لها أو إيمان بها بقدر ما كان حباً فى تثبيت السلطان ، وولعاً فى دعم الطغيان !

لقد كانت الاشتراكية المستوردة بالنسبة له السلاح الوحيد الذى يستطيع به تجريد خصومه ومعارضيه من كل قدرة على المقاومة والحركة ، وإخضاع الشعب إخضاعاً نهائياً لسلطانه ! ولو كان هناك سلاح مذهبى آخر يمكنه من ذلك ما تردد

فى استخدامه .

لقد استغل «عبد الناصر» الاشتراكية كسلاح سياسى ، ولم يستخدمها قط كمذهب اجتماعى ! وقد مكنته من جمع مقاليد السلطتين السياسية والاقتصادية بين يديه ، فأصبح المورد الأوحد للخبز فى مصر ، يملك وحده حق المنح والمنع ، ويوزع وحده الأرزاق على من يشاء بغير حساب !

وأرجو أن تعود يوماً يا رفيق إلى مراجعة قوائم التأميمات والحراسات والمصادرات التى تمت باسم الاشتراكية ؛ لتتحقق بنفسك من أسماء كبار المستفيدين منها ، ويومها لن تجد من بينهم كادحاً واحداً !

– إنكم تصرون على اتهامنا بالتستر بالناصرية ، وتتناسون حقيقة بديهية وهى أن الناصرية بالنسبة لنا مرحلة من مراحل البناء الاشتراكى فى مصر ، وهى مرحلة لازمة ولابد لكل ماركسى مؤمن أن يعانقها ويتفاعل معها فى سبيل الوصول إلى مرحلة أرقى ، وهذه أصول الجدلية التاريخية .

– «عبد الناصر» الذى لعنتموه ، ولعنكم ، واتهمتموه واتهمكم – هو اليوم صاحب مبدأ نضالى يدخل فى صلب نظريتكم ، وتبررون تعاطفكم معه بأصول جدليتكم !

أى فارق إذن بين أصول جدليتكم هذه وأصول الانتهازية البونابارتية أو المكيافيلية التى تدعو إلى ركوب كل وسيلة لإدراك الغاية ؟ أهذه أخلاقيات الاشتراكية العلمية التى تحملون عبء دعوتها ؟

– الأخلاقيات شيء نسبى ، ولكل مرحلة أخلاقياتها ، وفى الممارسة السياسية لا محل للأخلاقيات البرجوازية ؛ إنما العبرة بالوسائل الفعالة التى تقود إلى الهدف حتى ولو اصطدمت بما تسمونه أخلاقاً !

– معذرة يا رفيق ! فقد كنت أحسب أن حركة التاريخ قد تلطفت بضمائركم ، ولكن يبدو أنها دمرت فى طريقها كل شىء ، وحولتكم إلى جمع من الذئاب يركب كل وسيلة ! والوسائل إذا لم تكن من جنس الغاية أفسدت الغاية !

الوسائل – يا رفيق – إن كانت فاسدة فلابد أن تقود إلى غايات فاسدة .

– أى فساد فى غايتنا ؟ ألا تعرفون نظرية الضرورة ؟ إن الضرورات تبيح المحظورات . ولو أننا منعنا أنفسنا عن ركوب الوسائل المتاحة لما أدركنا هدفاً ، وما حققنا غاية .

– لو أن كل جماعة ركبت هذه الرخصة التى شرعت لحكمة لا تفهمونها – لسقطت كل المبادئ ، وفسدت كل الأهداف ، ولعادت البشرية إلى عهد الناب والمخلاب !

إن إدراك الأهداف النبيلة لا يكون إلا بالوسائل النبيلة ، ويوم تدرك كل جماعة أهدافها بالتضليل والمخادعة وسفك الدماء – فلن يصح هدف ولن تستقيم غاية ؛ لأن الوسائل فى هذه الحالة تصبح منافية للأهداف ومناقضة للغايات !

عندما أراد الحواريون تحرير السيد المسيح بالقوة من قبضة اليهود الذين حكموا بصلبه – نهاهم السيد المسيح عن ذلك قائلاً : إن التجاءكم إلى العنف فيه نقض للدعوة المسيحية من أساسها ! وهى الدعوة التى قامت على المحبة والسلام والاحتكام إلى الضمير !

– هذه مثاليات القرون الأولى ، ولكل عصر مثالياته وأساليبه ، ثم ما جدوى مثاليتكم وأساليبكم وسط عالم لا يعترف بها ؟ إن من السذاجة التعامل مع العصر بأدوات الماضى ! وهل ترى أن غيرنا يحترم هذه المثاليات أو يعمل بها حتى نُطالَب نحن باحترامها والعمل بها ؟

– الخطأ لا يبرر الخطأ يا رفيق ! وأنتم أول من ابتدئ هذه اللعبة فى العصر الحديث ، فتحالفتم أنتم وألد أعدائكم لبلوغ مآربكم ! ألم يتحالف البلاشفة وألمانيا الإمبراطورية فى سبيل الوصول إلى مقاعد الحكم فى روسيا القيصرية ؟ ألم يتحالف ستالين والدول الرأسمالية فى الحرب العالمية الثانية ليقتسما العالم ؟

– على كل حال : إن وسائلنا فى مصر لا تدعو إلى العنف المسلح كوسائل غيرنا ، ومن حقنا مهادنة نظام أو مسالمة حكومة إن كان فى هذه المهادنة أو المسالمة ضرورة مرحلية ، ونقطة الالتقاء الأساسية مع نظام «عبد الناصر» هى الوقوف إلى جانبه لمنع عقارب الساعة من العودة إلى الوراء ، وقطع الطريق على كل انتكاسة تدبرها القوى الرجعية العميلة ! وسبيلنا إلى ذلك ليس تأييد النظام الناصرى بالدجل والتضليل ، ولكن بالتوعية الجماهيرية الواسعة ، ونشر المبادئ الاشتراكية الحقِّ بين الطبقات الكادحة !

– يسعدنى حقاً أن أسمع أنكم دعاة سلام ومحبة ، ولكن يسعدنى أكثر أن تكون مسالمتكم هذه عن مقدرة لا عن عجز ! وقد علمتنا التجارب المعاصرة أن مسالمتكم مرحلية لا تلبث أن تنقلب إلى عنف ورصاص عندما تحين الفرصة وتأتى المناسبة ! ثم أين المبادئ الاشتراكية الحقُّ التى تنشرونها ؟ إننا لا نرى فى الساحة الفكرية سوى كشاكيل الدعاية الشيوعية ، ومحفوظات الماركسية اللينينية !

وكنا نود أن تواجهوا خصومكم ، وأن تدخلوا فى جدل مثمر مع من يخالفكم فى النظرة ، ولكنكم تصادرون على غيركم حق المجادلة ، وتفضلون الانفراد بالساحة الفكرية كلها !

– لقد كان للجدل وقتٌ ذهب وانقضى ، واليوم وقت العمل لا وقت المجادلات النظرية العقيمة ، فأمامنا أرض محتلة ، وأزمة اقتصادية قاتلة ، وكل

مصرى مدعو اليوم إلى مواجهة هذه المشاكل العاجلة ، والعمل بكل قواه من أجل حلها .

– إننا لم نسمع لكم صوتاً إلا فى الساحات الخاوية ! ولم نعرف لكم نضالاً إلا فى غيبة الرأى الآخر ! لقد انفردتم بالساحة الفكرية كلها طوال حكم «عبد الناصر» واليوم تهربون من أبوابها الخلفية بعد أن أتيحت فرصة الكلمة لغيركم !

– قلت : إن الظروف قد تبدلت واليوم يوم العمل لا يوم الجدل !

– ولنفرض أن اليوم يوم العمل ، فكيف يمكنكم العمل بغير نظرية أو مذهب يحدد لكم الوسائل ويعين لكم الطريق ؟ ألم يسبق الفكر التطبيق فى كل مراحل البناء الحضارى ؟ إن نظريتكم موضع جدل كبير ، ومحل شكوك كثيرة ؛ ومن حق الطبقات الكادحة التى باسمها تتكلمون أن تتأكد من سلامة النظرية ، وأن تستوثق من صلاحية مبادئها ! فلماذا تنسحبون من المجادلة إن كنتم على يقين من صلابة نظريتكم ، وإن كنتم على ثقة من جدواها !

– وهل تعتقد أن هناك آراء موضوعية تسترعى الانتباه وتستدعى المناقشة ؟ إن الرأى الآخر لا يطلق سوى التهم والأباطيل ، ولا يطرح سوى الأكاذيب والمزاعم ! ولسنا على استعداد لإضاعة الوقت فى مهاترات كلامية ، ومجادلات سفسطائية !

– إننا نقدر وقتكم الثمين ، ونقدر أكثر حرصكم المتين على إنقاذ الشعب المصرى من ورطته ، ولكن أليس من حقنا أن نسأل عن وسائل الإنقاذ ، وسبل الإسعاف التى إليها تلجئون ؟

– مزيد من الإشتراكية الحقّ ، وهذا يعنى مزيداً من التأميم ، ومزيداً من التخطيط ، ومزيداً من التعاون الوثيق مع البلدان الاشتراكية التى تشاطرنا الأهداف نفسها وتقاسمنا الأمانى نفسها ، ولن يكون ذلك إلا بحكم شعبى ديمقراطى يسمح

بمشاركة واسعة للجماهير الكادحة فى أعباء الحكم ، وما دون ذلك من الحلول لن يجدى نفعاً فى إنقاذ مصر من أزمتها !

– أليست هذه الحلول كلها من تصميم النظرية الماركسية ، ومن وحى مبادئها ؟ فما بالكم تصومون عن مجادلة خصومكم فى جدواها ، ومناقشة غيركم فى فعالية أساليبها ؟

– إنكم تحاولون جرنا دائماً إلى دائرة المناقشات العقيمة ! لقد أصبحت الماركسية حصان طروادة الذى يركبه أمثالكم حيلة وخداعاً ! إنها الشماعة التى تعلقون عليها كل الأخطاء ، وتنسبون إليها كل الجرائم ! ولكننا لن نمنحكم هذه الفرصة ، ولن نهب لكم هذا الشرف !

– ماركسيتكم هذه ، ليست بحصان طروادة ولا بحمار الحكيم ! ولكنها دابة نافقة ، لم يعد فيها ما يصلح للحياة !

ما دامت الماركسية دابة نافقة ، فلماذا تتعرون على مناقشتها ، وتتسابقون فى تفنيد مبادئها ؟

لماذا تحاولون أن تجعلوا منها نصباً تذكارياً للخطيئة والفشل ؟

– الماركسية بالنسبة لنا عثرات فكر تستلزم التقويم والمراجعة ، وعثرات الفكر يا رفيق تعتبر ضرورية فى تصحيح المسيرة الإنسانية ؛ فمن الخطأ تستلهم الصواب !

– السفسطة الكلامية لن تجدى فى إقناعنا بجدوى المناقشة النظرية ؛ فنحن ننطلق من شىء اسمه الواقع ، وإذا كنت لا ترى الشمس فلا أقل من أن تحس بحرارتها .

وهل من منكر أن الماركسية اليوم بما تقدمه من فكر وعمل هى وقود الحركة التحررية العربية كلها ، وهى محرك النضال العربى الثورى فى مواجهة الإمبريالية

وصنيعتها إسرائيل ؟ هذا واقع لامراء فيه وما دونه تنظير ، وفلسفة . وهراء !

– وهل تقبل الجدل حول هذا « الواقع » ؟

– لا مانع عندى ! وإن كنت على يقين من النتيجة . فلن تفلح فى إقناعى بآرائك !

– لا يهمنى إقناعك ، فربما نجحت فى إقناع غيرك !

من نصدق ؟

عندهم دواء القضية الفلسطينية . . .

ويوم تنتصر الطليعة الماركسية فى كل أجزاء الأرض العربية سوف تسقط الصهيونية من تلقاء نفسها ؛ لأن الصهيونية فكرة سياسية عنصرية ، والماركسية ترفض الوطنية الضيقة ، والعنصرية الحمقاء !

والطليعة الماركسية العربية ومن فوقها موسكو تعمل بهذه الوصية ، وتخطط لها ، وفى خط متواز يركب « عبد الناصر » جواد الحرب ، ويدعو إلى تدمير إسرائيل بقوة السلاح ، هل وقعت معجزة هندسية بالتقاء الخطين المتوازيين فى تحالف مقدس . الخط الذى يدعو إلى إسقاط الكيان الصهيونى بطريقة المذهب ، والخط الذى يدعو إلى إسقاط الكيان الصهيونى بطريق الحرب ؟

من نصدق ؟ ومن نكذب ؟

قال الرفيق :

– لقد كان للماركسية فضل فى بعث النضال العربى من أجل التحرر من سلطات الإمبريالية ، والمد الماركسى هو الذى أيقظ اليسار العربى كله وأعطاه أبعادا جديدة تمثلت فى الوعى المتدفق عبر الجماهير العربية فى كل مكان ، وفى الرفض الكامل للسيطرة الطبقية ! لقد استطاع المد الماركسى بعث الروح النضالية العربية وتأطيرها وقيادتها فى المنطقة العربية طوال العشرين سنة الفائتة ، ولولاه لما تحرر الفلاح من إسار الإقطاع ، ولما مزق العامل قيود الخضوع لرب العمل ولما حطمت كثير من الدول العربية أغلال التبعية والاستغلال !

– موجة التحرر العربى كانت قادمة قادمة ، وكل ما فعله اليسار الماركسى هو ركوبها واستخدامها لأغراضه ! لقد انطلقت هذه الموجة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية بقليل ، وبالتدقيق فى نهاية الخمسينيات ، وكان باعثها وموقظها الشعور الدينى والوطنى والقومى ، وقد استطعتم على الفور خلع ثوب العالمية الذى يطبع مذهبكم ، وارتديتم ثياب الوطنية المحلية والقومية الإقليمية ، بل ذهبتم مؤخرا إلى ارتداء ثياب الدين وإخفاء نظرتكم الأصلية له ، فلم يعد مخدرا للشعوب ، ولكن أصبح أداة فى استراتيجية الدعوة تخادعون بها الجماهير المؤمنة الرافضة لدعوتكم !

أما القول بتحرير الطبقات الكادحة على أيديكم فيحمل المغالطة والادعاء ! فقد انطلقت دعوات التحرير قبل وصول جحافلكم إلى المنطقة العربية بوقت طويل ، وكان الفضل الأول فيها لبعض أئمة المسلمين وخاصة جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، ثم الزعامات الوطنية من بعدهم كمصطفى كامل وسعد زغلول وعلال الفاسى وعمر المختار وغيرهم ، وحتى هذه الزعامات الوطنية كانت تستمد جذورها من الدين وتعمل بوحيه : ألم يحارب الإسلام الاستغلال بجميع صوره ؟

ألم يدعُ إلى تحرير الإنسان من ربقة الأغلال والتبعية ؟ ثم الانتفاضات القومية التى انطلقت من المنطقة العربية : ألم تكن كلها – بغض النظر عن محركيها – دعوة إلى رفض الاستغلال ومقاومة التبعية والانطلاق فى دروب التحرر؟

لقد كانت كل هذه الانتفاضات موجودة ومستمرة قبل وجودكم فى الأرض العربية بزمن طويل ! وعندما دنت ثمارها واقتربت نتائجها بعد الخمسينيات قفزتم إلى الساحة ، لتقطفوا الثمار وتحصّلوا النتائج !

– ومن الذى سمح بكسر احتكار السلاح والانطلاق إلى النضال ضد الإمبريالية ؟ . أليست دول الكتلة الشيوعية هى صاحبة الفضل فى ذلك . ولولا موقف الاتحاد السوفيتى وتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٥٥ – ١٩٥٦ . لما أمكن التحرر من سطوة الغرب وتسلطه على المنطقة ! لقد منحت هذه الدول مصر السلاح عن طيب خاطر ، وكان هذا المنح بداية أفول سلطان الغرب الرأسمالى فى المنطقة العربية كلها . .

– الواقع أن احتكار السلاح لم يكسر ، ولكننا انتقلنا من احتكار إلى احتكار : من الغرب الرأسمالى إلى الشرق الشيوعى ! ولا فارق بين الاحتكارين ، فكل يبحث عن مصالحه ونفوذه فى المنطقة العربية !

والاتحاد السوفيتى عندما منح العرب السلاح لأول مرة لم يمنحه عن رغبة صادقة فى تحرير المنطقة العربية من النفوذ الرأسمالى بقدر ما منحه عن ضرورة ملحة أملتها استراتيجيته الممتدة ، وهى النفاذ إلى البحار الساخنة ، وتحقيق حلم القياصرة القديم فى السيطرة على منابع البترول والمواقع الحيوية فى أرض العرب ! وصفقة السلاح الأولى التى حصل عليها العرب لم تكن بالنسبة للكتلة الشيوعية سوى صك الدخول إلى المنطقة العربية ، وقد رأينا نتائج هذه السياسية فيما بعد عندما أصبحنا نساوم على

كل قطعة سلاح وكل قطعة غيار ! وعندما خضنا حرب رمضان لم نجد ما يفى بحاجة قواتنا من سلاح وعتاد !

– لا أدرى كيف يصل بكم الجحود إلى إنكار دور الاتحاد السوفيتى فى دعم الصمود العربى ضد إسرائيل ، ومدكم بالسلاح والخبرة الكفيلة بتحطيم الكيان الصهيونى الإمبريالى على أرض فلسطين ؟

– إن الاتحاد السوفيتى أيها الرفيق لا يوزع السلاح جزافا ، ولكنه يعطيه بقدر مصلحته . ولم تكن له فى يوم من الأيام أى مصلحة فى إزالة الكيان الصهيونى من أرض فلسطين ، فهو معترف بوجودها « الشرعى » فى الأمم المتحدة وله فيها رجال وآمال ! وهل يعقل أن يسعى الاتحاد السوفيتى إلى إزالة السبب الذى من أجله دخل إلى المنطقة العربية ؟ وهل يعقل أن يعمد إلى تحطيم الكيان الصهيونى وهو جواده الرابح الوحيد فى المنطقة العربية ؟

إن الاتصال والتنسيق قائم على قدم وساق بين الشيوعيين الإسرائيليين والشيوعيين العرب ، والاتحاد السوفيتى يرعى هذه « الوحدة » الشيوعية ، ويباركها ولو كره الكارهون !

– ألم تكن الجيوش العربية مدججة حتى أسنانها بالأسلحة السوفيتية فى عام ١٩٦٧ ، وفى عام ١٩٧٣ ؟ .

لقد اعترف خبراء العالم أجمع بأن مصر وسورية كانتا تملكان أسلحة لا حصر لها ولا عد ! وأن تسليحها كان متفوقا على التسليح الإسرائيلى ، ولولا خيبة القيادة العربية لاستطعنا أن نسدد ضربة قاضية للكيان الصهيونى .

– أولا : لم تكن الجيوش العربية وخاصة جيش مصر وسورية مدججة بالسلاح

كما تزعمون ، اللهم إلا إذا اعتبرنا الكمّ دليلا على القوة العسكرية فى الحروب الحديثة ! لقد كانت إسرائيل تملك معدات تفوقنا كما وكيفا ، فلم تكن الأسلحة الجوية العربية تملك طائرة واحدة مقاتلة مقنبلة ، بل لم تكن تملك طائرات مقاتلة متفوقة ، وكانت تشكيلات القوات الجوية العربية تتكون فى غالبيتها من طائرات مقابلة من نوع ميج ١٥ و١٧ ، ٢١ ، وطائرات قاذفة من نوع اليوشن وت ى ، ولا أذيع سرًّا إن قلت : إن طائرات المقابلة محدودة المدى ، أما الطائرات القاذفة فلم تكن أصلح الطائرات لاستراتيجية المنطقة .

ولولا التعديلات الفنية التى أدخلت على الطائرات السوفيتية والجهود الجبارة التى بذلت فى التدريب وعنصر المفاجأة لما استطاعت إدراك أهدافها فى حرب رمضان .

وهذه الأنواع من الأسلحة البرية والبحرية والجوية التى باعها الاتحاد السوفيتى للعرب تعود فى معظمها إلى مخزون إنتاج الحرب العالمية الثانية وبعض النماذج القديمة من إنتاج ما بعد الحرب العالمية .

وعلينا أن نتساءل بعد هذا : أى مصلحة للاتحاد السوفيتى فى أن تتقدم قواتنا لتحطم الكيان الصهيونى عام ١٩٦٧ إن كان هو المدعم لهذا الكيان والمشارك فى بنائه ؟ وأى مصلحة له فى أن تتقدم قواتنا إلى عمق سيناء عام ١٩٧٣ بعد أن عبرت القناة ؟ .

لم تكن للاتحاد السوفيتى أى مصلحة فى كل ذلك : ففى عام ١٩٦٧ حذر القيادة العربية وقدم لها الضمان بأن إسرائيل لن تكون البادئة إلى أن ضربت ضربتها ! .

وفى عام ١٩٧٣ خان الإرادة العربية عندما منع عن الجيوش العربية المحاربة السلاح والعتاد بعد ما نجحت فى عبور القناة ! .

— إن مسئولية الفشل فى استعادة فلسطين تعود إلى الأنظمة العربية الرجعية التى ما فتئت تعمل على تمزيق الصف العربى والوقوف فى وجه الأمانى العربية !

وهل ننسى خيانة هذه النظم للقضية فى كل مرة نقترب فيها من الحل ؟

إن المسألة ليست مسألة سلاح فحسب ، بل مسألة إرادة شعبية وقيادية ! وإذا كانت الإرادة الشعبية موجودة وقائمة فإن الإرادة القيادية لم توجد بعدُ.

—كلام منمق وجميل ! لقد قلتم إن الرجعية توجد فى مصر ، فسقط النظام الملكى وقامَ نظام جمهورى « اشتراكى » وقلتم : إن الرجعية موجودة بسورية . فسقط النظام « اليمينى » فى سورية وجاءت نظم يسارية ظلت تتعاقب حتى استقرت على أقصى اليسار !

وقلتم : إن الرجعية توجد فى العراق ، فسقط النظام الملكى فى العراق ، وقامت نظم جمهورية ظلت أيضا تتعاقب إلى أن أدركت أقصى اليسار !

ألا يكفى إسرائيل بعد كل هذا ثلاث دول عربية يفوق عدد سكانها وإمكاناتها ما تملك بعشرات المرات ، أم أن القضية ليست فى الوجود الإسرائيلى ، ولكنها فى « الوجود » اليمينى « واليسارى » بالمنطقة العربية ؟ . .

— نعم : إن القضية أولا قضية يمين ويسار ، وعندما تصفى قوى اليمين العميلة فى المنطقة العربية يكون بالإمكان تحرير فلسطين ! إن عملية التحرير تفترض إمكانات عملاقة ؛ كما تفترض القضاء على كل عناصر الخيانة والرجعية فى الصف العربى .

— ومن أجل ذلك آزرتم إرسال الجيش المصرى إلى اليمن ، وباركتم تبديد قواه على أرضها فى وقت يتربص فيه العدو الصهيونى بالأمة العربية ، ويتحين كل فرصة لاقتناصها !

ومن أجل ذلك أيضا يجب ألا نجزع عندما تغتنم إسرائيل فرصة انشغالنا هنا وهناك بتصفية « الرجعية اليمينية » ؛ لتنتزع من تحتنا أراضي جديدة !

إن أنسب الفرص التاريخية أمام إسرائيل هي تلك الفرصة الثمينة التي ينشغل فيها العرب بلعبة اليمين واليسار !

وبحسبة يسيرة يمكنك أن تعلم بأن الوقت الذى يضيع بين يمين وهمى ويسار زائف كفيل بتحقيق كل أحلام بنى صهيون ! ويوم تتحقق هذه الأحلام فلن تنفعك وحدة تقدمية ، ولا محالفة شيوعية !

— ولكن يوم يدرك الماركسيون أداة الحكم فى كل الدول العربية سوف تسقط الصهيونية كفكرة سياسية من تلقاء نفسها ؛ لأن الماركسية ترفض العنصرية والوطنية الضيقة ، والصهيونية فكرة سياسية لا يمكنها أن تعيش وسط محيط ماركسى .

— أتريد أن يكون ثمن استعادة فلسطين مركسة كل الدول العربية وربطها بمذهب بعيد عن تراثها وأصالتها وأمانيها ؟ .

أنخاطر بعقيدة الأمة العربية ومستقبلها من أجل مذهب لا ندرى شيئا عن نتائجه القريبة والبعيدة ؟ وفى أى مكان فى العالم ذابت الحواجز السياسية بين الدول التى توحدت عقيدتها تحت راية الماركسية ؟ أفى دول أوربا الشرقية التى مازالت كل دولة تحتفظ بمقوماتها وذاتيتها أم فى اتحاد الجمهوريات السوفيتية الذى مازال يتشكل من جمهوريات لكل جمهورية طابعها وقوميتها ؟ .

إن إقامة دكتاتورية البروليتاريا فى كل الدول العربية وإجراء التلاحم المزعوم بين البروليتاريا العربية والبروليتاريا الإسرائيلية ، ومن ثم تصفية الكيان الصهيونى فكرة سخيفة لا تنطلى على أحد ! . .

وإن صح لكم حقا تصفية الكيان الصهيونى فماذا ستفعلون ببنى صهيون وخاصة

هؤلاء الذين نزحوا بكثرة من دول الكتلة الشيوعية ؟ .

إنهم سيظلون ولا شك أغلبية ساحقة متركزة فى أرض فلسطين ، وستظل لهم بالضرورة الإدارة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ! ولن تستطيع أن تنزع منهم هذه الإدارة تحت أى سبب كان طالما أنهم فى الظاهر ماركسيون مؤمنون يدينون بمذهب ماركس ويعملون بأسلوب لينين أما رفاقهم العرب فيظلون دائما فى مرتبة أدنى مهما بلغت درجة تمركسهم !

— إننا على ثقة من أن انتصار البروليتاريا فى العالم العربى سيفتح الطريق أمام تلاحم القوى العاملة الفلسطينية والإسرائيلية ، ولن يوجد تمييز يذكر بين فلسطينى ويهودى على أرض فلسطين !

— إنكم تفترضون أن انتصار البروليتاريا سيؤدى إلى نزول الصهيونى عن صهيونته واليهودى عن يهوديته ، فيتعايش الفلسطينيون واليهود تحت سقف واحد ، لكن قل لى « بربك » : متى وقع هذا ؟ وفى أى قطر شيوعى ؟ ألا ترى أن الواقع المعاصر يكذبكم ويفضح أمركم ؟ فبعد مرور أكثر من نصف قرن على « انتصار البروليتاريا » فى روسيا يخرج اليهودى السوفيتى مهاجراً إلى إسرائيل ، مهاجراً إلى بنى جلدته ومهبط أحلامه ! ولم يستطع النظام الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى برغم حسمه وضراوته أن يخرج اليهودى عن دينه وعقيدته وأن يقلبه مناضلا من أجل دينكم الجديد ! نعم : هناك يهود ماركسيون وهم أقلية ، ولكن إلى أى مدى تثق فى ماركسيتهم ؟

— أنت تتكلم من واقع عنصرى ، وترى اليهود والأقليات الأخرى بمنظار عنصرى ! إن نسبة هامة من قيادات الماركسية فى العالم من اليهود !

— القيادات : نعم ، أما القاعدة فلا ! لقد قفزت نسبة كبيرة من اليهود إلى

عجلة قيادة الشيوعية فى العالم ، وأدارتها بمهارة ، وكثيرا ما كان هذا القفز لمآرب خاصة تتعلق باليهود أنفسهم : لقد أرادوا خدمة يهوديتهم من وراء السيطرة على عجلة القيادة الماركسية فى العالم ، أما القاعدة الشعبية العريضة ، أما البروليتاريا الحقُّ فلا تكاد تجد فى صفوفها سوى نسبة هزيلة من اليهود !

– لك أن تدعى ما تشاء ولكن التاريخ وحده هو الفيصل بيننا ، وسيثبت التاريخ صدق عقيدتنا ، إننا لم نتحول عن مبادئنا لحظة واحدة منذ بدء النضال ضد الاستعمار والصهيونية فى المنطقة العربية ، ولم يجد العرب من يقف إلى جانبهم وقت الشدة إلا دول الكتلة الشيوعية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتى ، لقد كانت سياسة هذه الدول ومازالت ثابتة لا تتغير تجاه الوجود الصهيونى فى فلسطين.

– نعم لقد ظلت سياسة الكتلة الشيوعية ثابتة حقا خلف هذه العبارة المطاطة « استعادة الحقوق المشروعة لشعب فلسطين » وهذه العبارة لا تعنى أبدا تحطيم دولة إسرائيل ، ولا إزالة الكيان الصهيونى ؛ وإنما تعنى – إذا أردنا ترجمتها إلى واقع – تعويض اللاجئين الفلسطينيين بحفنة من مال وقطعة من أرض يقيمون عليها كيانا فلسطينيا جديدا ! وإذا أردت الدليل فانظر اليوم إلى « الثابتون على المبدأ . وكيف يتصرفون ؟ » ألم يبارك الاتحاد السوفيتى وقف إطلاق النار بين العرب وإسرائيل فى حرب رمضان ؟ ألم يعمل مع الولايات المتحدة جنبا إلى جنب على إعداد موائد التوقيع على الصلح فى جنيف ؟ ألم يؤيد قيام كيان فلسطينى فى غزة والضفة الغربية ؟

إن سياسة الاتحاد السوفيتى تجاه القضية الفلسطينية واضحة منذ عام ١٩٤٨ . . وترتكز على مبدأ « إسرائيل وجدت لتبقى ! » ونوايا القيادة السوفيتية كانت معروفة للقريب والبعيد منذ الدقيقة الأولى التى دخلوا فيها إلى المنطقة العربية ، والقيادات العربية التى عاملتهم كانت على علم كامل بالخطوط العريضة لهذه الاستراتيجية !

– إن الصداقة التى ربطت الاتحاد السوفيتى بالنظام الناصرى كانت تقوم على الأمانى المشتركة للشعبين المصرى والسوفيتى ، وهذه الأمانى جسدها النضال المشترك ضد قوى الامبرالية من أجل تحرير الشعوب ، والكيان الصهيونى جزء من الكيان الأمبريالى العالمى ، ولا شك أن للاتحاد السوفيتى مصلحة أكيدة فى تحطيم هذا الكيان !

– أرجو أن يتسع عقلك للتمييز بين أمانى دولة صغيرة كمصر وأمانى دولة كبيرة كالاتحاد السوفيتى ! وإذا كان من الممكن أن تلتقى أمانى الدولتين تكتيكيا فإنها لابد أن تختلف استراتيجيا ! الاتحاد السوفيتى لم يدع قط إلى تدمير إسرائيل بقوة السلاح ! ولكنه يدعو دائما إلى حلول سلمية كتعايش الشعبين اليهودى والفلسطينى فى إطار دولة علمانية وما إلى ذلك من مقترحات ! ولم يحمل الاتحاد السوفيتى ، ولا دول الكتلة الشيوعية يوما الدعوة – إلى تحطيم إسرائيل بطريق الحرب ، و«جمال عبد الناصر» وغيره من أصدقاء السوفيت فى المنطقة العربية يدركون ذلك تمام الإدراك ! .

– ولماذا إذن السلاح والتدريب والخبرة التى قدمها الاتحاد السوفيتى لمصر وسورية ؟ ألم يكن مفهوما أن كل هذه الاستعدادات العسكرية تجرى لاستعادة فلسطين ؟ وهل كان من الضرورى أن يعلن الاتحاد السوفيتى صراحة نواياه الخفية أمام العالم ؟

– نوايا الاتحاد السوفيتى الخفية تجاه إسرائيل كنواياه المعلنة ! وما تفضل به من سلاح وتدريب وخبرة كان المقصد القريب منه هو إيهام مصر وسورية بتزايد قدرتهما العسكرية فى مواجهة إسرائيل ! أما المقصد البعيد فهو بلشفة الجيوش العربية تمهيدا للاستيلاء على السلطة فى كل من مصر وسورية !

وكان الاتحاد السوفيتي يبرر سلوكه امام العالم برغبته فى الحفاظ على توازن التسلح فى المنطقة . ومساعدة العرب على صد أى عدوان إسرائيلى !

هذا محض ادعاء ، وعليك أن تتصور لحظة أن الاتحاد السوفيتى لا يعطى العرب سلاحا ولا تدريبا ولا خبرة : فماذا كان يمكن أن يكون عليه حالهم اليوم ؟

ليس أسوأ مما هو عليه الآن !

- وكيف استطاعت مصر وسورية وقف الزحف الإسرائيلى إلى القاهرة ودمشق فى أعقاب نكسة ١٩٦٧ ؟ . وكيف استطاعتا الانتصار فى حرب أكتوبر ؟ ألم يكن ذلك بفضل الأسلحة السوفيتية ؟ .

- الأسلحة السوفيتية لم تمنع قط من تقدم الإسرائيليين إلى القاهرة ودمشق فى أعقاب الهزيمة ! لقد توقف الإسرائيليون عند الحدود التى رسموها لعدوانهم ، ولم تكن لهم أى مصلحة استراتيجية فى احتلال القاهرة ودمشق ، وكانت المدينتان مفتوحتين أمامها ، ولقد قالها « عبد الناصر » عشية الهزيمة مباشرة عندما أعلن أنه لم يكن بين القاهرة والسويس جندى مصرى واحد !

أما حرب أكتوبر فلا يعود الفضل فيها للأسلحة السوفيتية بقدر ما يعود إلى مقدرة المقاتل العربى ، وعنصر المفاجأة ! ثم هل تمكنت الجيوش العربية من مواصلة زحفها ؟ لقد اصطدمت على الفور بحاجز السلاح الأمريكى المتفوق الذى تدفق على إسرائيل على حين منعت عنا الأسلحة المتطورة والذخيرة وقطع الغيار !

-- إنه لمن المكابرة ألا ترى جدوى للأسلحة السوفيتية التى كانت سبباً أساسيا فى تحديث الجيوش العربية ودعم قدراتها القتالية !

- أرى لها جدوى واحدة ، وهى إمداد إسرائيل بأحدث الأسلحة وأكثرها تطورا ! فقد كانت الصهيونية العالمية تجد فى الإعلان عن كل صفقة أسلحة

سوفيتية لمصر فرصة مواتية للضغط على الولايات المتحدة قصد تزويد إسرائيل بأسلحة أمريكية تفوق الأسلحة السوفيتية كماً وكيفا !

لقد كانت الأسلحة السوفيتية لمصر بوجه خاص الذريعة الكبرى التى مكنت الصهاينة من دعم جيشهم وتطوير استراتيجيتهم العسكرية !

وكانت كل قطعة سلاح متوسطة النوع يمنحها السوفيت تقابلها قطع سلاح متفوقة النوع تمنحها الولايات المتحدة !

والغريب فى الأمر هو أن السوفيت كانوا على إلمام كامل بميزان التسلح فى المنطقة العربية ، وكانوا على يقين كامل من تفوق إسرائيل فى السلاح والعتاد !

– طبيعى أن المنطقة كانت ومازالت تعيش سباق تسلح ، وتأخر الاتحاد السوفيتى فى توريد بعض الأسلحة المتفوقة راجع إلى ضعف قدرة الجيوش العربية على استيعاب التسلح الحديث ، لأن هذا الاستيعاب يحتاج إلى خبرة طويلة وتدريب شاق .

– أبعد عشرين عاما من التدريب والإعداد تتكلمون عن ضعف مقدرة الجيوش العربية ؟ ومنذ متى حصلت إسرائيل من فرنسا على طائرة الميراج ؟ لقد حصلت عليها منذ الستينيات على حين لم نحصل نحن فى الستينيات إلا على طائرات ميج ١٧ وعدد قليل من طائرات الميج ٢١ وكلها كما أشرت طائرات مقابلة محدودة المدى ، وليست طائرات مقاتلة مقنبلة ! وفى أعقاب هزيمة عام ١٩٦٧ غيرت إسرائيل تسليحها الجوى بعد أن حصلت على طائرة الفانتوم من الولايات المتحدة على حين لم نحصل نحن إلا على عدد محدود من طائرات الميج ٢٣ ، وهى أيضا طائرات مقابلة محدودة المدى !

فأين كان الاتحاد السوفيتى طوال عشرين سنة خلت ؟ ولماذا امتنع عن تقديم

طائرات متفوقة خلال هذا الزمن الطويل على الرغم من إلحاح القيادات العربية فى المطالبة بهذه الأسلحة ؟

— لقد قدم الاتحاد السوفيتى ما هو أشد وأقوى من سلاح الطيران : قدم الصواريخ الأرضية الجوية المتفوقة التى دمرت القوة الجوية الإسرائيلية تدميراً ، وأقعدتها عن بلوغ أهدافها فى العمق العربى !

— يا للفرحة ! لقد قدم الاتحاد السوفيتى الصواريخ لمصر وسورية بعد ما وقعت الهزيمة ، وضاعت الفرصة ! ثم هذه الصواريخ العظيمة ليست سوى وسائل دفاع يارفيق لاتعوض فى كثير أو قليل عن القوة الجوية الضاربة إنها فى صراحة سلاح العاجز الذى لا يملك طيرانا متفوقا !

— إن كنت تنكر فضل الاتحاد السوفيتى ودول الكتلة الشيوعية كلها فى الوقوف إلى جانب الحق العربى فبماذا تفسر كل هذه الجهود التى بذلها الاتحاد السوفيتى فى تسليح العرب ومدهم بالخبرة العسكرية ؟ ألم يكن الاتحاد السوفيتى قادرا على اتباع سياسة المساندة الأدبية بغير دعم مادى عسكرى ؟ ما الذى أكرهه على بذل كل هذه المعونات والمساعدات العسكرية سوى التزامه العقائدى بنصرة حقوق الشعوب وتحريرها من الإمبريالية والاستغلال .

— سبق أن أجبت عن سؤالك هذا وقلت : إن الاتحاد السوفيتى يستهدف من وراء تسليح العرب هدفاً استراتيجياً يرتبط بمصالحه ، وهو بسط السيطرة والنفوذ على المنطقة العربية بأكملها ، ولا يمكنه تحقيق هذا الهدف إذا وقف مكتوف الأيدى أمام الأمانى العربية فى استعادة فلسطين ! لذلك انتهج أسلوباً سياسياً يلائم مصالحه . فأعطى سلاحاً وعتاداً يكفى فقط كَسْبَ عطف الشعوب العربية لا كسب المعركة ضد إسرائيل ، ومنح معونات ومساعدات تكفى فقط دعم عقيدته ومذهبه

لا دعم الحق العربي في مواجهة إسرائيل ! ثم إنه يقبض ثمن هذه الأسلحة نقدا وعدا ، فلم تحصل الدول العربية على قطعة سلاح واحدة من الاتحاد السوفيتي بالمجان !

والسؤال الذي يحيرني يا رفيق هو : ماذا كانت تقصد القيادة الناصرية والبعثية من صداقة الاتحاد السوفيتي . هل كانت تقصد حقا تحرير فلسطين بمساندة الاتحاد السوفيتي وبأسلحته ؟

– بغير شك لقد كان الهدف ومازال تحرير فلسطين ! وهذه أمانة في عنق النظم التقدمية الثورية العربية ، ومازلنا جميعا على الطريق ، وما دون ذلك دعاية رخيصة تروجها الإمبريالية !

– ولكن كيف يمكنهم إدراك هذا الهدف ؟ إن نوايا الاتحاد السوفيتي في بقاء إسرائيل واضحة ، وتصرفاته خلال ربع القرن الأخير تؤكد هذه النوايا وأيدلوجيتكم الرسمية تقوم على تذويب الكيان الصهيوني بطريقة مذهبية : أي انتصار البروليتاريا في كل أجزاء الوطن العربي ! وبمعنى آخر : فإن أسلوبكم يخالف أسلوب « عبد الناصر » الذي يرى ضرورة تحطيم إسرائيل بالقوة العسكرية : فكيف يلتقي الضدان ؟ هل كانت النظم التقدمية الثورية العربية تريد استغفال الاتحاد السوفيتي ومفاجأته بتدمير إسرائيل ، أو أن الاتحاد السوفيتي هو الذي كان يريد استغفال هذه النظم واتخاذها ركيزة لبسط سلطانه على المنطقة العربية بأسرها .

– لقد كانت الروابط بين الاتحاد السوفيتي والنظم التقدمية الثورية العربية مازالت تقوم على الصداقة المصيرية التي تستهدف على البعد تحرير الشعوب وقهر الإمبريالية ، ولم تُبْنَ هذه الروابط في أي وقت على الخديعة أو الانتهازية !

– ألم تكن كل هذه النظم التقدمية تعلم يقيناً أن أصدقاءها السوفيت يرفضون

تدمير إسرائيل بطريق الحرب؟ ألم يقلها خروشوف ثم برجنيف صراحة « لجمال عبد الناصر»؟ ألم تتأكد هذه الحقيقة من بعد عندما حذر السفير السوفيتي «عبد لناصر» قبيل الهزيمة بأيام معدودات وفى ساعة متأخرة من الليل معبة الهجوم على إسرائيل على الرغم من أن إسرائيل هى التى بدأت بالتحرش . وحشدت قوات كبيرة على حدود سورية . ومصر ألم تتأكد هذه الحقيقة مرة أخرى فى حرب عام ١٩٧٣ عندما طالب السوفيت بإيقاف القتال فورا ومنعوا عن مصر الذخيرة والعتاد؟ .

— لقد حذر السوفيت ، لأن الوقت غير مناسب والحروب لا تخضع فقط لمزاج القيادات العربية ، ولكنها تخضع أيضا للظروف الدولية

— ومتى يكون التوقيت مناسبا؟ أعندما يصل الإسرائيليون إلى القاهرة . أو عندما تظل أراضينا محتلة مائة عام؟

ولنفرض أن الظروف الدولية أصبحت مواتية فأين الاستعداد العسكرى الذى سنواجه به إسرائيل؟

— هل سمعت عن تحرير بنجلاديش — لقد ظلت قضية بنجلاديش (باكستان الغربية) معلقة منذ استقلال باكستان . وحاولت الهند تخليص هذا الإقليم من قبضة الباكستانيين إلى أن سنحت فرصة دولية مواتية ، وتدخل الاتحاد السوفيتى لمساندة الهند ، وانتصرت الهند وتحررت بنجلاديش !

إن الاتحاد السوفيتى لا يتردد فى مساندة الشعوب المقهورة ولكن لابد من احترام قواعد التوازن الدولى !

— نعم لقد تدخل الاتحاد السوفيتى لفصل باكستان الغربية ، لأن له مصالح حيوية مع الهند ، وله مصلحة أكيدة فى إضعاف باكستان ، كما أن من ضرورات

استراتيجيته فى هذه المنطقة الحساسة من آسيا أن يصنع لنفسه ركيزة فى دولة تقدمية تدين له بالولاء ، ومصالحه فى المنطقة العربية تخالف كل ذلك ؛ فهو لا يبحث عن ركيزة أو موضع قدم فى الدول العربية ؛ كما بحث عنها فى دولة يريد صنعها بين الهند والباكستان ! فالكثير من الدول العربية قد دانت له بالولاء ، وفتحت له مطاراتها وموانيها . وإسرائيل لا تشكل على وجوده فى المنطقة العربية أى خطر كما تشكل الباكستان ؛ كما أن له بها مهاجرين كثيرين وأحزابا شيوعية مناضلة !

أضف إلى كل ذلك أنه لولا القضية الفلسطينية ، ولولا مشكلات التسلح التى أثارها الوجود الإسرائيلى – ما كان للسوفيت وجود فى المنطقة العربية بالصورة التى نلمسها اليوم !

– إننى أعترف بأن ظروف القضيتين مختلفة ، ولكننى أردت أن أدلل على أن السوفيت قادرون على العمل من أجل نصرة الشعوب ، ومن الخطأ أخذهم بالظاهر !

– إننى آخذهم بالظاهر والباطن ! وما قولك فى إمداد إسرائيل بالمهاجرين السوفييت وغيرهم من دول أوربا الشرقية ؟ أيهما أشد خطرا على العرب : إمداد إسرائيل بالسلاح أم بالرجال ؟ إن السلاح يمكن شراؤه فى كل وقت ، أما الرجال فلا يمكن صنعهم بسهولة ! إن العنصر النادر عند إسرائيل ليس هو السلاح إنما العنصر النادر هو الرجال ، ثم أى رجال ؟ الرجال المؤهلون تأهيلا فنيا عاليا والقادرون على حمل السلاح على الفور .

هل يعقل أن يعمل الاتحاد السوفيتى طواعية على إمداد اسرائيل بالمهاجرين اليهود ، ويسعى فى الوقت نفسه إلى تدمير إسرائيل ؟

– وهل تعتقد أن القيادات التقدمية الثورية العربية تقبل التحالف مع الاتحاد

السوفيتى إذا لم تكن متيقنة من إخلاصه وتفانيه فى خدمة القضية؟ إن الشاغل (رقم واحد) لكل هذه النظم هو تحرير الأرض العربية من الاحتلال الصهيونى ، ولا يعقل أن تعمل هذه النظم ضد مصالحها !

– فارق بين المصالح المعلنة ، والمصالح الفعلية يا رفيق وهذا جوهر سؤالى الذى طلبت عليه ردا : لقد كانت النظم التقدمية تعلم يقينا أن الاتحاد السوفيتى يرفض كل محاولة عسكرية لتدمير إسرائيل ، ومع ذلك فقد دأبت هذه النظم على توكيد عزمها على إزالة إسرائيل ، ولم يتردد «عبد الناصر» فى استعراض عضلاته العسكرية طوال مدة حكمه ، والتلويح فى كل مناسبة باستعداده لسحق إسرائيل.

هل كانت هذه النظم صادقة حقا فى دعوتها لتحرير فلسطين بقوة السلاح؟ وكيف لها بهذا التحرير إذا كان الاتحاد السوفيتى حليفها الأول يرفض ذلك؛ وكانت الولايات المتحدة العدو الأول ترفض أيضا ذلك؟

هل دخلت هذه النظم ضمن قواعد اللعبة السوفيتية ، فأصبحت قضية فلسطين جوادها الرابح للبقاء فى الحكم ونشر تقدميتها الثورية فى كل أرجاء الوطن العربى ، أو أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى هما اللذان سقطا فى اللعبة التقدمية التى تستهدف مغافلتهما معا واسترداد فلسطين؟

من نصدق؟ ومن نكذب؟

حسبة برما

هم بضعة آلاف فقط !

ولكنهم يحتكرون حق النقمة على الحاضر . .

ويذرعون الساحة برءوس تتلفت إلى الماضى .

يستنبطون المغانم من المغارم ، ويستخلصون الانتصارات من الهزائم . .

فما من مصيبة نزلت إلا صارت انتصارا ! . وما من خراب حل إلا أصبح كسبا !

وهكذا عرفت مصر الاشتراكية قاموس المكاسب والانتصارات ، ولم تعرف بعد قوائم الخسائر والنكبات !

قلت :

– هل أنتم راضون عن الحاضر؟

– لا !

– ونحن أيضاً !

– ولكن الفارق بيننا وبينكم شاسع ! نحن نرفض الحاضر بكل مضامينه ومشتملاته ، وأنتم ترفضون بعضه وتقبلون بعضه ! وهذا ما يسمح له باستمرار البقاء على حساب الشعب بأكمله .

– الواقع أنكم تحتكرون حق النقمة على الحاضر ! ولا ترون فيمن يخالفكم فى المذهب سوى مساير للحاضر أو داعم له ! من أين تفترضون أن غيركم يقبل الحاضر ويدعمه ؟ ألم تقبلوا أنتم الحاضر فى مصر فترات طويلة ؟ بل ذهبتم إلى أبعد من القبول السلبي ، وأخذتم تدقون له الطبول وتحرقون أمامه البخور !

ألم تنخرطوا فى التنظيمات التى صنعها «عبد الناصر» فى مصر ، فكنتم منذ عام ١٩٦٢ الاشتراكيين الغيورين على النظام الناصرى ؟

– إننا لم ننخرط فى هذه التنظيمات إلا لضرورة مرحلية يفرضها أسلوبنا فى العمل ، ولكن مذهبنا واضح ومفهوم ، فهو يرفض كل الحلول الوسيطة التى تفرضها البرجوازيات الصغيرة ، سواء جاءت عن طريق انقلاب عسكرى أو غيره . أما التيارات الأخرى فمذهبها – إن كان لها مذهب – قبول بعض الحاضر ورفض بعضه ، فهى إن صحت لا تعدو أن تكون تيارات إصلاحية تدعو إلى ترقيع القائم فترفض منه ما يناهض مصالحها ، وتقبل منه مالا يلائم تلك المصالح !

– إننا لا ننظر فى مواقفنا إلى مذاهب تمليها الفلسفة المادية ، ولكننا ننظر فقط إلى ظروف مصر ومصلحة مصر ! والمرحلة السابقة التى ساندتموها ودعمتموها قد أدت بمصر إلى خراب اقتصادى وانحلال اجتماعي واحتلال إسرائيلى ! وكان لابد من مراجعة كل النظم والسياسات المسئولة عن هذه الكوارث وإعادة تصحيح المسار الوطنى على أسس جديدة !

– إن تصحيح المسار الوطنى فى ظروف مصر الراهنة لا يكون بإلغاء الاشتراكية ولا بتصفية مكاسب الطبقات الكادحة وتسليم البلاد لقوى الرأسمالية وحفنة من المستغلين يستنزفون أموال الشعب ! إن تصحيح المسار الوطنى وإنقاذ البلاد من الخراب لا يكون بسوى مزيد من الاشتراكية ومزيد من المكاسب للعمال والفلاحين ! ولن يكون ذلك إلا بحكومة تقدمية ثورية تعيد للشعب حقه السليب ! وصحافة تنطق باسمنا .

– إذا كنتم تقررون من البداية أن الحل يكمن فى مزيد من الاشتراكية ، وتفترضون أن مكاسب العمال والفلاحين رهينة بها – فلماذا لا تحتكمون إلى الشعب من خلال منافسة ديمقراطية تتيح لكم عرض برامجكم وتتيح له حرية اختيارها أو رفضها ! أليس هذا الطريق أفضل فى نتائجه وتبعاته من العمل فى الظلام !

– نحن لا نحب العمل فى الظلام إلا إذا فرض علينا ، ونرحب دائماً باللعبة الديمقراطية ، وقد نادينا بها طويلاً ونجحنا أخيراً فى النزول إلى الساحة السياسية بحزب منظم ، ولكن غيرنا يفسد علينا أصول اللعبة ، ويصادر علينا حقنا فى الحركة والتعبير ، فنحن محاصرون من كل جانب : فقد تدخلت الحكومة فى الانتخابات لتمنعنا من الوصول إلى مقاعد المجلس ! ومنعتنا من حق التعبير الكامل فى الصحف الكبرى التى تسيطر عليها ! واستخدمت كل وسائل الإعلام لتشويه الصورة الحقيقية لدعوتنا ، ومع كل ذلك فنحن ماضون على الطريق ولن نحيد عنه أبداً !

– وهل أنتم واثقون من قدرتكم على المواجهة الديمقراطية ؟ إننى لا أشك فى قوتكم التنظيمية ؛ فأنتم التيار السياسى الوحيد الذى يحظى بتنظيم متفوق فى مصر ! وأنتم التنظيم الوحيد – فيما عدا الحكومة – الذى يملك مجلات متقدمة تنطق باسمه ، وتدعو له منذ سنوات طويلة . فمجلتا الطليعة ودراسات اشتراكية نطقت كثيراً

باسمكم ، وتعملان على نشر مذهبكم بالإضافة إلى مجلة روز اليوسف التى لم تكن تكف عن الدعوة لكم والدفاع عنكم ، ولكنكم أيها الرفيق قلة عددية ، قلة لا تتجاوز على أحسن تقدير نصفاً فى المائة من مجموع شعب مصر ، فكيف تأملون الوصول إلى مقاعد الحكم بهذه النسبة الهزيلة ؟

– هناك صحف تنطق باسم التقدمية فى مصر ، وهى ولا شك تخدم أغراض دعوتنا بوصفنا من الطليعة التقدمية الثورية ، ولكن هذه الصحف ضعيفة الانتشار ، ولا يمكن أن تواجه قوة أجهزة الإعلام الحكومية من صحف وإذاعة وتلفزة ! وإذا كنا نمتاز بها على غيرنا من التنظيمات غير الحكومية – فإن هذه الميزة راجعة إلى جهودنا ونضالنا من أجل اقرار نظام تقدمى فى مصر ، أما قضية العدد فلا قيمة لها ولا وزن ؛ فكثير من التنظيمات السياسية بدأت بعدد قليل من الأفراد ، ونحن نعمل دائماً على توسيع قواعدنا الشعبية بالطرق الديمقراطية على الرغم من الحروب التى تشنها علينا بعض الجهات الرجعية وبعض التيارات السياسية . وإذا أتيح جو من الحرية الحقيقية فى مصر فإن أعدادنا سوف تتضاعف ولا شك . . . بل سوف نصل إلى أغلبية عددية هائلة ! وهذا الوعى بقدرتنا على استقطاب الجماهير هو الذى يدفع بالحكومة وأعوانها إلى محاصرتنا ومحاولة وقف مسيرتنا !

– الواقع أن قيام صحافة ناطقة باسمكم لا يعود إلى نضالكم بقدر ما يعود إلى نضال الاتحاد السوفيتى ، فهو الذى ساندكم ودعمكم ، وفرض على نظام «عبد الناصر» مجلتين تدعوان لمذهبكم ! ولولا هذه المساندة السوفيتية ما قام لكم صوت فى مصر ! ثم هل اكتفيتم حقاً بالطريق الديمقراطى أو أن قيام حزب لكم فى مصر لا يعدو أن يكون وجهة يختفى خلفها نشاطكم الحقيقى ؟ إننى أسأل : هل أقلعتم فعلاً عن تنظيم الخلايا السرية وإعداد الأجهزة الخفية للانقضاض على الحكم

فى أول فرصة مواتية وهذه عادتكم التى تمرستم عليها من عشرات السنين !
لقد ظل عدد كبير من الشيوعيين المصريين بعيداً عن تنظيمكم التقدمى الوحدوى الثورى – فهل انقطعت صلتكم فعلاً بهؤلاء الشيوعيين أو أنكم فضلتم اقتسام مسرح اللعب فيما بينكم بين الخفاء والعلن : فريق يلعب تحت أجنحة الليل ، وفريق يلعب فى وضح النهار ؟

– إن هذه الشكوك ليست جديدة علينا فهى بضاعة تروجها السلطة الحاكمة للنيل من نضالنا ، ونحن لا نتحرك فى الظلام إلا اضطراراً ، وعندما تلوح فرص الحرية والمنافسة الحزبية فنحن أول المرحبين بها المبادرين إلى تقبل أصولها والعمل بمضامينها ! إننا لا نخشى الأضواء كغيرنا من عملاء السلطة وأذنابها ، فهم وحدهم الذين يخشون الأضواء ، ويرهبون المصارحة الشريفة فى كل ما يدور على أرض مصر من أحداث ! إنهم يحاولون إخفاء الفشل الذى أصاب سياستهم ، ويتوارون خلف الوعود الجوفاء ، ويحاولون تعليق خيبتهم السياسية على شماعة الماضى ! لماذا لا يصارحون الشعب بكل الحقائق ويقدمون إليه حساباً عن نتائج إدارتهم السياسية ؟ لماذا لا يجهرون بحقيقة الأوضاع الاقتصادية فى ظل سياسة الانفتاح التى دعوا لها وأصروا عليها ؟

– أنت محق فى هذا يا رفيق ؛ فمصارحة الشعب بالحقائق ضرورة لازمة فى هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ مصر ؛ ولا يمكن تصور الإصلاح إلا فى جو من المصارحة الكاملة بكل الحقائق ، ولكن أود أن أعلم : أى حقائق تعنى على وجه الضبط : حقائق حكم السادات أم حقائق الحكم كله منذ (٢٣ يوليو) ١٩٥٢ !

– لقد تسلم السادات مقاليد الحكم والبلاد فى أوضاع اقتصادية وسياسية وعسكرية دقيقة ترتبت كلها على الكفاح الطويل ضد قوى الإمبريالية وعميلتها

إسرائيل ، ولكن السادات لم يحاول استكمال المسيرة التى بدأها «عبد الناصر» بل ذهب إلى السير فى اتجاه معاكس تماماً للاتجاه الثورى الذى سلكه سابقه : فقد عطل العمل بالاشتراكية وذهب إلى الإعداد للحلول الاستسلامية ، وارتمى فى أحضان الرأسمالية الإمبريالية ، وسلط على البلاد نفراً من الأتباع والانتهازيين نهبوا ثمار عرق الكادحين ، وأحرقوا الأخضر واليابس من أرض مصر ! وكان لابد بعد ذلك أن تأتى الثورة ، ثورة العمال والطلبة والفلاحين ضد طغيان المستغلين !

– إن كنتم تلومون السادات . فهل يعنى ذلك أن تبرئوا سلفه من كل خطأ أو جريمة ؟

لقد تسلم السادات تركة مشحونة بالعبوات الناسفة كان أخطرها مطب الصلح مع إسرائيل ، والهاوية الاقتصادية الخطيرة التى لم تشهد مصر لها مثيلاً فى تاريخها الحديث كله ، لقد بدأت أزمة الاقتصاد المصرى منذ الستينيات مع سياسة التبذير والقروض التى انتهجها «عبد الناصر» ثم ضاعفتها حرب اليمن التى كلفت مصر أربعة آلاف مليون دولار ! ثم بلغت الأزمة قمتها مع الهزيمة الماحقة التى فقدت فيها مصر ألفين وخمسمائة مليون دولار من المعدات والمنشآت الحربية فقط ، وجاءت عملية بناء الجيش المصرى من الصفر بعد الهزيمة لتضيف إلى أعباء الاقتصاد المصرى أعباء جديدة تمثلت فى القروض المتزايدة ! وأخيراً تأتى جهود حرب أكتوبر لتضيف المزيد من الأعباء والالتزامات المرهقة التى ينوء بها أعتى اقتصاد فى العالم !

وقد ترتب على كل ذلك تزايد عجز الميزانية حتى بلغ عام ١٩٧٥ مقدار ١٤ مليار دولار على حين بلغ حجم الدين العام ٣٤ ملياراً من الدولارات !

– إنكم تكثرون الكلام عن الأعباء والديون . . وتتناسون عن عمد أن مصر كانت عند الثورة على حافة الإفلاس المالى المحقق ! وقد ثبتت هذه الحقيقة بالوثائق الدامغة ! وعليك أن تعود إلى مضابط محكمة الغدر ومحكمة الثورة التى حاكمت كبار

المسئولين عن العهد الملكى !

– مصر يا رفيق لم تكن مدينة حتى يوم (٢٣ يوليو) عام ١٩٥٢ إلا بمبلغ ٨٦ مليون جنيه . وهذا الدين عبارة عن سندات قرض وطنى بفائدة ٣ ¼ ٪ مملوكة كلها للمصريين ، ولم تكن مصر حتى ذلك الحين مدينة لأى دولة أجنبية ، بل كانت على العكس دائنة لبريطانيا بمبلغ ٤٥٠ مليون جنيه إسترلينى !

ثم إن البنكنوت المتداول سنة ١٩٥١ كان حوالى ١٨٠ مليون جنيه مصرى وكان يقابله غطاء إصدار من الذهب فى البنك الأهلى جملته ٦٠ مليون جنيه إسترلينى بالإضافة إلى أذونات تمثل ديناً على الخزانة البريطانية . وكان الجنيه الذهب مقوماً على أساس ٩٧,٥ من القروش المصرية فى الوقت الذى كانت قيمته السوقية حوالى أربعة جنيهات ! ومعنى ذلك أن غطاء الإصدار النقدى من الذهب والأذونات كان يربو بكثير على قيمة البنكنوت المتداول فى مصر !

وهذا الحساب الدقيق يمكنك مراجعته مع البنك المركزى المصرى .

– إذا كنت تريد إعطاءنا دروساً فى التاريخ النقدى فعليك أن تضيف أن المشروعات الاقتصادية الكبرى التى استهدفتها حكومة الثورة لم تكن ممكنة التنفيذ بغير تمويل خارجى ! لقد وضعت هذه الحكومة تخطيطاً طموحاً للنهوض بالاقتصاد المصرى ، وكان لابد من قروض هامة لتمويل هذا التخطيط ! ثم هناك أعباء التسليح وغيرها من الالتزامات التى يفرضها الواجب القومى على حكومة الثورة !

– المشكلة يا رفيق ليست فى مبدأ التمويل من الخارج ؛ فالغالبية العظمى من الدول النامية تتجه إلى الاقتراض من الخارج ولكن المشكلة الحقيقية فى مبررات الاقتراض وحجمه وشروطه ، والمتفحص لجداول القروض المصرية يتبين أن نسبة هامة من هذه القروض لا يمكن تبرير أسبابها أو أحجامها أو شروطها تبريراً مقنعاً .

وأن حاجة مصر السياسية والاقتصادية لبعض هذه القروض قد استغلت استغلالاً معيناً سواء من حيث قيمة القروض أو شروط السداد أو أسعار فوائدها !

ثم هل كانت وراء النزيف الإنفاق على أجهزة المخابرات ووسائل الدعاية وحرب اليمن – هل كانت وراء هذا النزيف الذى استهلك جانباً عظيماً من مواردنا وقروضنا – ضرورة حيوية تبرره ؟

– نعم . . كانت هناك ضرورة حيوية ؛ وهذه الضرورة لا يمكن رؤيتها بمنظاركم المثقوب ! إنما يمكن رؤيتها بمنظار شمولى يتعدى مداه المصالح الاقتصادية الحالة وظروف الصراع مع الإمبريالية العالمية هى التى فرضت كل هذه الأعباء المالية ، ولم يكن بد من مواجهتها .

وهل كنت تريد أن نترك للإمبريالية وعميلتها إسرائيل فرصة العمل المنفرد ؛ لتسيطر على المنطقة العربية كلها ؟ لقد كانت الحروب التى خاضها « عبد الناصر » واجباً قومياً وضرورة حيوية لدفع الخطر عن مصر والمنطقة العربية بأسرها !

– هل كانت حرب اليمن ضرورة قومية فى تلك الآونة ؛ أو أن الاستعداد لمواجهة إسرائيل هو الضرورة القومية « رقم واحد ؟ » أيهما كان أولى باحتلال الأولوية فى سلم الاختيارات السياسة والاستراتيجية : الذهاب إلى اليمن وتبديد الطاقات العسكرية والاقتصادية على أرضها أو ادخار هذه الطاقات وإنمائها لمواجهة العدو المتربص بنا ؟ ألم تضرب إسرائيل ضربتها عام ١٩٦٧ عندما كانت خيرة جيوشنا ومعداتنا تبدد تبديداً على أرض اليمن !

أين كان وجه الإرغام فى دخول مصر هذه الحرب ؟

ثم عليك أن تنبئنى عمن اتخذ قرار الدخول فى حرب مع إسرائيل فى مايو ١٩٦٧ ومكنها من رقابنا فى وقت لم تكن فيه مصر ولا دول المواجهة على أدنى

استعداد لخوض المعركة ؟

هل استشار «عبد الناصر» شعبه فى دخول هذه الحرب ؟ هل استشار دول المواجهة قبل إرسال القوات المصرية إلى سيناء ؟

لقد ركب «عبد الناصر» رأسه ، واتخذ القرار ، ووضع الجميع أمام الأمر الواقع !

– لقد كان «عبد الناصر» يستهدف من قراره تهديد إسرائيل فقط ، ولم يكن يقصد الدخول فى حرب معها ! –

– هذا عذر أقبح من ذنب ! وسواء قصد «عبد الناصر» من قراره تهديد إسرائيل أو قصد الدخول فى معركة معها – فإن النتيجة واحدة فى الحالتين ؛ فقد مكن إسرائيل من رقابنا ، ومنحها أعظم فرصة تاريخية فى الإجهاز علينا ! وهى تدمير أقوى جيوشنا العربية بضربة واحدة فى مصيدة سيناء ! وفى دنيا السياسة يا رفيق ! لا عبرة بالنوايا ، إنما العبرة بالنتائج ؛ وكلنا يعرف نتيجة هذا القرار الارتجالى الأهوج الذى اتخذه «عبد الناصر» : «كارثة عسكرية . . وخزى سياسى ، واحتلال إسرائيلى لأراضٍ عربية واسعة على امتداد جبهات ثلاث» !

– يجب ألا تنسى أن المواجهة مع إسرائيل كانت حتمية ، وكانت الإمبريالية تسعى لها إن عاجلاً أو آجلاً ؛ فإسرائيل ومن ورائها المخطط الإمبريالى تعتبر التوسع بالحرب جزءاً لا يتجزأ من استراتيجيتها !

– هذه حقيقة يعلمها القاصى والدانى ، ولكن ما وجه الإرغام فى قرار الحرب الذى اتخذه «عبد الناصر» عام ١٩٦٧ ؟ هل كان هناك خطر حال وقائم يستدعى الدخول فى معركة مع إسرائيل فى تلك الآونة بالذات ؟

لا ، لم يكن هناك إرغام على خوض الحرب فى تلك الآونة بالذات ، إنما

كان هناك اختيار تفرضه المناورة السياسية والخبرة السياسية والدهاء السياسى ! وإذا كان هناك إرغام حقاً على الحرب فلماذا تراجع «عبد الناصر» عن الحرب فى حديثه الصحفى الشهير يوم ٢٦ مايو ١٩٦٧ ؟

لقد كان دائم القول بأن الشعب العربى هو الذى سيحدد زمان المعركة ومكانها ، وإذا به يترك لإسرائيل تحديد زمان المعركة ومكانها ! لقد سقط فى الفخ الذى أعدته إسرائيل عندما أرسل قوات الجيش إلى سيناء ، وطلب سحب البوليس الدولى ، وأغلق خليج العقبة ! ولم يكن العدو يحلم بأكثر من هذه التصرفات ! فالجيش المصرى يتمركز فى مصيدة سيناء . والرأى العام العالمى يُهيَّأ لتقبل حرب «دفاعية» يشنها جيش الدفاع الإسرائيلى ضد العرب !

أى فرصة لإسرائيل بعد هذه الفرصة ؟

وأى أمل لها بعد هذا الأمل ؟

– ولنفرض أن «عبد الناصر» مسئول عن هزيمة عام ١٩٦٧ . وعن حرب اليمن أيضاً فهل يبرر ذلك انتهاج السادات سياسة مناهضة لكل القيم التقدمية التى زرعها «عبد الناصر» فى مصر لمصلحة الطبقات الكادحة ؟ لقد أدت سياسة الانفتاح إلى الإضرار بالاقتصاد المصرى والمساس بالطبقات الكادحة . ونمو الطبقة الطفيلية التى تعيش على أكتاف الشعب ! ولو أن السادات استكمل المسيرة الاشتراكية ما انتهينا إلى هذه الأزمة الطاحنة . وهذا التخبط الاقتصادى الذى تعرفه مصر اليوم !

– أنتم تريدون يا رفيق أن تروا فى أمراض الاقتصاد المصرى ما يدعم أحلامكم ، فتفسروا أسباب الأزمة الاقتصادية بالعدول عن الاشتراكية وتصفية المكاسب العمالية ، وكأن مصر شهدت فعلاً تطبيقات اشتراكية ، وجَنَتْ طبقاتها

الكادحة فعلاً ثمار هذا التطبيق ! وأود أن أكرر يا رفيق أن الاشتراكية لا تهبط من السماء ، ولكنها تنبت فى الأرض وما سمعنا فى التاريخ مذهباً يستورده أصحابه من خارج البلاد ويزرعونه فى تربتها ثم ينبت بعد ذلك نباتاً حسناً ! وما وقع فى مصر من تطبيقات باسم الاشتراكية لا يعدو أن يكون مجموعة من إجراءات التأميم التى استهدفت قبل أى شىء آخر وضع أرزاق المحكومين فى قبضة الحاكم !

لقد استخدمت الاشتراكية كسلاح سياسى . ولم تستخدم قط كمذهب اجتماعى !

– وهل ينكر أحد أن الاشتراكية تقوم أساساً على نقل ملكية وسائل الإنتاج للشعب ليسيرها بما يحقق مصالحه بعيداً عن استغلال حفنة من البرجوازية ؟ وهذا ما فعله بالضبط «جمال عبد الناصر» .

– إن كانت هذه حقًّا الاشتراكية فلتسقط الاشتراكية ! لأنها لم تورث مصر غير الدمار الاقتصادى والفساد الإدارى والظلم الاجتماعى !

– لماذا ؟ وهل كانت مصر سليمة اقتصادياً ونظيفة إداريًّا وعادلة اجتماعيًّا قبل الثورة ؟ لقد كان الانهيار والفساد والظلم فى كل مكان ! وهذه أمور واضحة ليست فى حاجة إلى برهان !

– إن نقد الحاضر لا يعنى بالضرورة الدفاع عن الماضى ، فنحن لا ندافع عن نظام ما قبل عام ١٩٥٢ ، ولكننا تطلعنا بعد ثورة يوليو عام ١٩٥٢ إلى الانتقال بمصر إلى حياة أفضل ! وتصور كل فرد من أبناء مصر أن الثوار سيتجهون إلى بناء مصر جديدة ، . . . مصر قوية بلا تخلف ، مصر نظيفة بلا مفاسد ، مصر عادلة بلا مظالم ! فإذا بمصر تسقط بكل طاقاتها فى أعمق أعماق التخلف ! وتنزلق بكل أجهزتها إلى أدنى مراتب الفساد ! وتندفع بكل طبقاتها إلى أقسى أنواع المظالم !

– إنك تخالف الحقائق الصارخة ! ومن الذى حقق الإصلاح الزراعى ، ووزع آلاف الأفدنة على الفلاحين؟ ومن الذى ملك العمال المصانع ومنحهم حق إدارتها ، ووزع عليهم أرباحها ! ومن الذى أنجز التصنيع ، وأقام قاعدة الصناعة الكبرى فى مصر؟ أليس هو «عبد الناصر» وسياسته الاشتراكية ؟

– وهل الاشتراكية عندكم مجرد ثورة فى مواقع السلطة تبدأ وتنتهى بمجرد إصدار قرارات بتوزيع رقع الأرض الزراعية أو تأميم بعض المشروعات الإنتاجية ؟

إن الاشتراكية على ما نفهم من نظرياتها تجاوز ذلك بكثير ! إنها تطوير مستمر لمستوى الإنتاج كمًّا ونوعاً ، ولا يمكن الفلاح أو العامل أن يحقق تقدماً فى معيشته وهو خاوى اليدين لا يملك من أدوات الإنتاج المتطورة شيئاً ! ولا يملك من أساليب التقنية الحديثة شيئاً .

إنكم تأخذون القضايا الاقتصادية بيُسْرٍ يدعو إلى الإشفاق ! ولو أنكم وزعتم أرض مصر الزراعية كلها (ستة ملايين فدان) على جميع فلاحى مصر (٧٠ ٪ من السكان) فلن يصيب كل فلاح أكثر من ثلث فدان.! ولو أنكم وزعتم كل المصانع القائمة فى مصر على جميع عمال مصر ما أصاب كل منهم سهماً واحداً !

إن القضية الأولى فى مصر ليست قضية توزيع كمٍّ ضئيل ثابت ، ولكن توزيع كمٍّ متكاثر متصاعد ! فماذا فعلت الاشتراكية لزيادة الإنتاج الزراعى والصناعى وتطويره ! ماذا أضافت من مساحات زراعية إلى أرض مصر ! وماذا أضافت من صناعات ناجحة إلى الصناعات التى عرفتها مصر !

– وهل كنت تريد أن تبقى الأرض والمصانع ملكاً لحفنة من الرأسماليين المستغلين لا يتجاوز عددهم نصفاً فى المائة من شعب مصر ! هل كنت تريد استمرار الفوارق الطبقية العنيفة بين القلة المتخمة والكثرة المعدمة ؟

لقد رفعت الثورة ظلماً لاشك فيه عندما قضت على تلك الطبقة المستغلة ، وردت ملك الشعب للشعب !

– إننى لا أدافع عن الاستغلال ، ولا أطالب ببقاء الفوارق الصارخة بين غنى وفقير ، ولكنى أطالب بعدالةٍ توزيعية صاعدة ترتبط بالإنتاج وتتصاعد مع تصاعده !

إن القضاء على الاستغلال وإزالة الفوارق لا تكون فقط بحسن توزيع ما هو كائن ، ولكن أيضاً بحسن توزيع ما سوف يكون : أى بالزيادة المستمرة فى الإنتاج كماً ونوعاً حتى نحقق الرفاهية للجميع !

فمجتمع الكفاية والعدل الذى استهدفته الاشتراكية لا ينهض أبداً بتوزيع الفقر على الجميع ؛ وبتحويل مجتمع النصف فى المائة من الأغنياء إلى مجتمع المائة فى المائة من الفقراء !

لقد اختار اشتراكيونا أسهل السبل وأقلها مشقة ؛ فاهتموا بمشكلات التوزيع ، وأغفلوا مشكلات الإنتاج ، وكانت النتيجة ما نراه اليوم فى الزراعة والصناعة !

وعليك أن تسأل عن مدى ارتفاع إنتاجية الفدان خلال العشرين السنة الماضية ، ومدى التوسع الزراعى الذى حققته الاشتراكية خلال الفترة نفسها ، فإنك ستدهش كثيراً عندما تعلم أن انتاجية الفدان لم ترتفع خلال تلك الفترة إن لم تكن قد انخفضت بسبب البطالة المقنعة ، وأن مساحة الأراضى الزراعية لم تزد ولم تنقص ! ، وما أضافه السد العالى من مساحات زراعية متواضعة التهمه التوسع العمرانى فى الريف !

ثم عليك أن تسأل عما أنجزته الاشتراكية من صناعات ناجحة . وأعنى بذلك صناعات تحقق عائداً اقتصاديًّا مقبولاً بغير إعانة من الدولة ، لا صناعات تنتج

بخسارة وتعيش عبئاً على الدولة ! فإنك ستصعق هذه المرة إذا علمت أن أكثر من ٧٠ ٪ من الصناعات الجديدة التى أنجزها العهد الاشتراكى صناعات فاشلة تخسر أكثر مما تكسب ! وتبدد أكثر مما توفر ! بل إن الفشل والخسارة قد امتدا إلى الصناعات المؤممة بسبب الفساد والتسيب وسوء التدبير والتسيير !

– لنفرض أن هناك أخطاء فى التنفيذ ؛ فلكل تجربة أخطاؤها ويكفى أن مصر قد عرفت الصناعة لأول مرة فى تاريخها الحديث ، وأنها حققت خطوة على طريق التصنيع حتى لو كانت هذه الخطوة – وباعترافك أنت – لا تزيد نسبتها على ٣٠ ٪ .

– من المغالطات التاريخية الخطيرة الادعاء بأن مصر لم تعرف صناعة ولا تصنيعاً إلا فى العهد الاشتراكى ! إن التصنيع فى مصر قد انطلق فى الوقت الذى بدأ فيه التصنيع فى ألمانيا : أى فى أوائل القرن الماضى ؛ وقد تمكنت مصر من إرساء دعائم الكثير من الصناعات المدنية والعسكرية فى عهد محمد على ، وكانت السفن تبنى فى مصر ، والمدافع الحربية والأسلحة بأنواعها تصنع فى مصر ! وأول صناعة نسيج فى العالم العربى انطلقت من مصر ! ثم جرت جهود كبيرة فيما بين الحربين العالميتين لتوسيع القاعدة الصناعية فى مصر ! وكان رائدها هذه المرة بنك مصر وشركاته ، وجاءت الحرب العالمية الثانية لتعطى الصناعة المصرية دفعة جديدة لم تشهدها أى دولة من دول العالم الثالث ، فقد أدى انقطاع وسائل المواصلات الذى سببته الحرب إلى قيام الكثير من الصناعات المعدنية والتحويلية التى أسهمت فى دعم القاعدة الصناعية وتطويرها . .

– أتريد الحديث عن الصناعة فى مصر قبيل الثورة ؟ أتريد إيهامنا بوجود صناعة فى مصر خلال العهد الملكى البائد ! إن مصر لم تعرف سوى بعض

الصناعات القليلة العدد المحدودة الإنتاج ! وهل كانت هناك صناعة ثقيلة أو صناعة سيارات أو غيرها من الصناعات الحديثة ؟ إنه لمن المغالطة الكلام عن الصناعة والتصنيع قبيل عام ١٩٥٢ !

– طبيعى أن تتكلم بهذا المنطق يا رفيق ، فقد صورت لكم الدعاية الاشتراكية أن مصر كانت قبيل عام ١٩٥٢ صحراء جرداء لا زرع فيها ولا نماء ؛ وواقع التاريخ الاقتصادى لمصر يخالف هذه الدعاية وينفيها !

لقد عرفت مصر صناعات كثيرة قبل ١٩٥٢ :

عرفت صناعة النسيج بكل أنواعها وفروعها ، وعرفت الصناعات الكيمياوية فى الكثير من فروعها . وخاصة صناعة الأسمدة . . والكحول والبلاستيك والأدوية ، وعرفت الصناعات المعدنية وخاصة الحديد والنحاس ، وعرفت صناعة الزجاج والورق والخزف والأسمنت ، وعرفت عدداً من الصناعات الميكانيكية والهندسية ، وعرفت أيضاً عدداً من الصناعات الزراعية وخاصة صناعة التعليب والتجفيف واستخراج الزيوت النباتية !

والقائمة طويلة ولا أريد أن أزيد عليها !

هذه الصناعات تسلّم القطاع العام معظمها . . .

فما الذى أضافه إليها من استثمارات ! وما الذى فعله بكمياتها ونوعياتها ! أرجو أن تفتح عينيك على حقيقة إنتاجنا الصناعى فى هذه القطاعات ، لترى إلى أى مدى هبط إنتاجها وانحطت نوعيتها فى ظل التنظيم الاشتراكى والإدارة الاشتراكية ! وأرجو أن تعود إلى ميزاننا التجارى وأسواقنا الدولية ؛ لتعرف الأبواب التى أغلقت فى وجه منتجاتنا الصناعية بسبب انحطاط نوعيتها حتى اضطررنا إلى تصريف سلعنا الصناعية عن طريق فرضها بأسعار رخيصة فى المبادلات الثنائية وخاصة تلك التى

تربطنا بدول «الكتلة الشيوعية» !

– إن الواقع يؤكد أن صادرات مصر إلى الخارج قد ارتفعت ارتفاعا كبيراً خلال التطبيق الاشتراكى ، كل ما فى الأمر أن مصر فقدت أسواقاً تقليدية وكسبت أسواقاً أخرى أكثر اتساعاً وأكثر عدالة ، لقد تحولت عن أسواق الغرب الرأسمالى إلى أسواق الدول الاشتراكية ، وأفادت تجارتها الخارجية كثيراً من هذه الأسواق !

– طبيعى أن تتزايد صادرات مصر إلى الخارج خلال السنوات العشرين الماضية ، ولكن العبرة ليست بالزيادة ، ولكن بمعدل هذه الزيادة ! لقد كان هذا المعدل ضعيفاً لا يرقى بحال إلى مقتضيات التنمية ، ولا يطاول بحال الطموح الذى صورته الدعاية عن منجزات الخطط الخمسية ، أما معدلات المبادلة مع دول الكتلة الشيوعية فقد كانت غالباً فى مصلحة هذه الدول ! ولم تكن دائماً عادلة ولا نزيهة . . فقد فُرضت علينا سلع صناعية لا تجد أسواقاً إلا عندنا ، وكانت أسعارها فى الكثير من الحالات تفوق الأسعار السائدة فى الأسواق الدولية !

وهذا الكلام ليس جديداً ، إنما هو ثابت فى تقارير وزراء الاقتصاد والمالية ودراسات خبراء التجارة الخارجية ، العبرة بمعدل الزيادة ، وليس بالزيادة فى ذاتها ! لقد أصيب ميزاننا التجارى بعجز مستفحل مع معظم الدول التى نعاملها ، بل توقفت مصر عن الكثير من التزاماتها التصديرية بالنسبة لدول كثيرة بسبب قصور الإنتاج ؛ كما أصيبت منتجاتنا بنكبة كبيرة فى الدول التى تتعامل بالنقد الحر ، وهى الدول التى نسعى إليها ، كما تسعى إليها تماماً دول الكتلة الشيوعية للحصول على بعض الموارد من النقد الحر لتمويل بعض وارداتنا وهى الواردات التى لا تستطيع دول الكتلة الشيوعية الوفاء بها !

– عليك ألا تنسى أن الدول الاشتراكية دول صناعية متقدمة ، وهى قادرة فى

كل الأحوال على الوفاء باحتياجاتنا الاستهلاكية والاستثمارية ، ولا داعى لتصور عدم إمكان الاستغناء عن السوق الغربية الرأسمالية ، فهذا خطأ فاحش سببته الدعاية الاستعمارية التى تريد ربط العالم الفقير برباط التبعية الدائمة !

– وما قولك يا رفيق فى الصناعات الكثيرة التى بنيت على أساس غربى ! ما رأيك فى النسبة الهامة من الصناعات المصرية التى قامت على معدات وتجهيزات وطرق إنتاج غربية ؟ هل نهدمها ونعيد بناءها على أساس شرقى ! إنها ثروة قومية موجودة فعلاً ، وتعمل فعلاً .. شئنا أم أبينا ! ولابد من الاستمرار فى إمدادها بقطع الغيار والتجهيزات اللازمة خلال مدة عمرها الافتراضى على الأقل !

وأمامك مثلاً صناعة النسيج ، وصناعة الأدوية ، وجزء هام من صناعة الحديد والصلب ، وصناعة الأسمنت ، وصناعة تكرير البترول ، وكذلك خدمات المواصلات وخاصة المواصلات البرية .

ماذا تريد أن تفعل بكل هذه الصناعات والخدمات ! أليس من الضرورى تمويلها بالعملة الحرة لضمان استمرارها !

أما التبعية المقول بها فهى قائمة أيضاً عند ربط تعاملنا بدول الكتلة الشيوعية ؛ بل إن هذه التبعية أشد وأقسى من التبعية لدول الغرب الرأسمالى ؛ فتناقض المصالح الاقتصادية لهذه الدول يجعلنا أمام نوع من الاختيار فى حالة امتناع دولة غربية عن إمدادنا بسلعة معينة ، إذ نستطيع غالباً الحصول على السلعة نفسها أو بدائلها من دولة غربية أخرى .

أما الكتلة الشيوعية فإنها تخضع لسياسة موحدة ، وعندما يمتنع الاتحاد السوفيتى مثلاً عن توريد سلعة ضرورية لاقتصادنا فثق أنك لن تستطيع الحصول على هذه السلعة أو بدائلها من أى دولة شيوعية أخرى !

وأعطيك مثالاً عملياً : عندما قطعنا العلاقة الدبلوماسية بألمانيا الغربية عام ١٩٦٦ ظلت مصر تستورد من ألمانيا الغربية كل احتياجاتها الصناعية سواء مباشرة أو عن طريق دول وسيطة !

ثم هناك أنواع من السلع الاستهلاكية والاستثمارية الضرورية لا نستطيع الحصول عليها من دول الكتلة الشيوعية ، لأن هذه الدول نفسها تستوردها من الخارج ، أو تعتمد على الخارج فى إنتاجها !

خذ مثلاً صناعة السيارات بأنواعها : هذه الصناعة ضعيفة ، متخلفة فى دول الكتلة الشيوعية لدرجة أنها تستعين فى إنتاجها بالشركات الغربية كشركة فيات الإيطالية ورونو الفرنسية ، وخذ مثلاً صناعة المشروبات الغازية وهى ضرورية فى البلاد الحارة : هذه الصناعة أيضاً متخلفة فى دول الكتلة الشيوعية ، وقد استعان الاتحاد السوفيتى نفسه بشركة كوكاكولا الأمريكية لإنتاج المشروبات الغازية فى بلاده !

– لا داعى للتمادى فى الدفاع عن وجهة نظرك ، ويكفى مصر فخراً أنها استطاعت أن تقيم على أرضها أكبر صناعة ثقيلة فى العالم العربى ، ولولا مساعدات الدول الاشتراكية والنضال الثورى الذى خاضته الطليعة المصرية ما أمكن إرساء دعائم هذه الصناعة !

– وعليك أن تضيف إلى هذه المفاخر صناعة الصواريخ ! ألم يكن الشعار الخالد من « الإبرة إلى الصاروخ » ؟ إن الصناعة الثقيلة يا رفيق منذ بدأت مازالت إلى اليوم تعانى من سوء التخطيط والتنفيذ ومازالت على الرغم من انقضاء أكثر من خمسة عشر عاماً على قيامها تنتج بتكلفة مرتفعة تفوق بكثير التكلفة فى الدول الصناعية المتقدمة ! كما أن نوعية إنتاجها ما زالت منخفضة عن مثيلاتها فى الدول المتقدمة !

ومازلنا حتى اليوم يا رفيق نستورد الكثير من موادها الأولية ومعداتها الآلية من الخارج ! إننا نستورد لها الطاقة الضرورية لتشغيلها وهى فحم الكوك . ونستورد لها معدات الأفران العالية وأجهزة الدرفلة ، وأرجو ألا تنسى أبداً أن هذه الصناعة — صناعة الحديد والصلب — كانت قائمة قبيل عام ١٩٥٢ ، وكانت مادتها الأولية الحديد الخردة . . وكانت طاقتها الأساسية الأفران الكهربية ! . وفى عام ١٩٥٦ أنجزت شركة ديماج الألمانية الغربية أول مصانع للحديد والصلب تستخدم خامات الحديد التى بأسوان ! ثم تولى الاتحاد السوفيتى بعد ذلك مهمة التوسع فى صناعة الحديد والصلب ، وجرت استثمارات ضخمة فى هذا القطاع ، ونرجو أن تعود إلى وزير الصناعة ووزير الاقتصاد ليدليا لك برأيهما الفنى عن نوعية الإنتاج وعوائد هذه الصناعة بالقياس لرأس المال المستثمر !

— طبعاً إنكم لا تريدون الاعتراف للعهد الاشتراكى بأى منجزات ، حتى أعظم المنجزات تريدون تشويهها بمختلف الوسائل والأساليب ! وهل ينكر عاقل أن صناعة الحديد والصلب هى قلعة الصناعة فى مصر ، وأساس تقدمها الاقتصادى !

— من السهل أن ندبج عبارات التبجيل ، ولكن من الصعب دائماً يا رفيق أن نقول الرأى الفنى ! إن هناك مقاييس فنية لتقدير مدى نجاح صناعة ما ! فما المقصود من إقامة صناعة ؟ أليس المقصود فى النهاية هو زيادة الدخل القومى إلى أقصى حد ممكن ؟ فإذا كانت الصناعة الجديدة تضيف إلى الناتج القومى قيمة ملموسة تفوق بكثير قيمته السابقة اعتبرت صناعة ناجحة ومفيدة للاقتصاد القومى .

وبمعنى آخر : العبرة ليست بإقامة صناعة حيثما اتفق ، فمن الممكن أن تقوم أى صناعة فى أى دولة إذا ما توافر رأس المال اللازم ! ولكن المهم أن تكون الصناعة الجديدة ناجحة من الوجهة الاقتصادية . أو على الأقل أن تكون قابلة للنجاح

خلال مدة معقولة ! ومعيار النجاح هنا يقاس بمقارنة رأس المال المستثمر بالعائد الذي تأتى به الصناعة !

– وما قولك فى صناعة السيارات ، وصناعة الإطارات ! أليست كلها من إنجازات التطبيق الاشتراكى ؟ هل يمكنك أن تدعى أنها كانت من هبات العهد الملكى البائد !

– أؤكد لك – مرة أخرى – أن مصر عندما تخلصت من العهد الملكى كانت تتطلع دائماً إلى مستقبل أفضل ، ولم يكن هناك وطنى واحد يقنع بإنجازات العهد الملكى ؛ فهذه الإنجازات على أهميتها تتضاءل بشدة أمام الطموح الشعبى الذى كان يرسم لمصر صورة زاهية تضعها فى مصاف الدول الصناعية المتقدمة ، غير أن التطبيق الاشتراكى لم يلبث أن حول هذا الطموح إلى رماد ! فما تسميه إنجازات فى قطاع صناعة السيارات وصناعة الإطارات ما هو إلا خطوات أولية فى هذه الميادين ، وهى خطوات جمدت وتوقفت منذ بدايتها ؛ وأورثتنا فى النهاية مصنعاً لسيارات «نصر» يقتصر نشاطه على تجميع أنواع محدودة من هذه السيارات ، ومنذ إنشاء هذا المصنع ومعظم أجزاء السيارات تستورد من الخارج ، ونسبة ما نصنعه محلياً من أجزاء السيارة لا يتجاوز ٢٥٪ .

أما مصنع الإطارات فقد قام فى أساسه على أكتاف القطاع الخاص ، وكان وديع سعد هو أول من أدخل صناعة الإطارات فى مصر ، ولكن الحكومة لم تلبث أن أممت المصنع بعد قيامه بسنوات قليلة ، ومن يومها وهو يعانى من نقص فى إنتاجه وتدهور فى نوعية هذا الإنتاج ، وعليك أن تقارن بين الإطارات التى ننتجها اليوم والإطارات التى تنتجها أى دولة صناعية لتلمس الفارق البعيد بين هذه وتلك ! وهو فارق يدعو حقاً إلى الخجل !

– مهما قيل عن تعثر صناعة السيارات فإن المجتمع قد حقق كسباً من قيامها : لقد أضافت جديداً إلى قاعدة الصناعة فى مصر ! أما صناعة الإطارات فقد اتسعت استثماراتها بعد أن تولت الحكومة أمرها ، وأصبحت تغطى احتياجات الاستهلاك ، بل كانت مصر تصدر نسبة من إنتاجها إلى الخارج ، إننا أمام حقائق ثابتة لا يمكن بحال إخفاؤها !

– ولا يمكن أن نخفى أيضاً حقائق أخرى أولها : أن مصر لم تعرف إلى الآن صناعة سيارات ، ولكنها عرفت عمليات تجميع أجزاء بعض أنواع السيارات ، وفارق كبير بين الحالين ! ثم إن تصدير الإطارات الذى أشرت إليه قد جرى فعلاً خلال فترات معينة من تاريخ العهد الاشتراكى ، ولكن هل يعنى تصدير سلعة وفرة إنتاجها المحلى ! . إن مصر تصدر الأرز مثلاً إلى الخارج : فهل معنى ذلك أن مصر قد كفت استهلاكها من الأرز ! إن تصدير بعض السلع خلال العهد الاشتراكى كان يتم لسداد التزامات مصر الخارجية ، لقد حرمت السوق الداخلية من الكثير من أنواع السلع الاستهلاكية لمواجهة أعباء الديون الخارجية التى كانت تتزايد يوماً بعد يوم ، وكان العهد الاشتراكى يحاول سداد هذه الالتزامات بتصدير أى شىء حتى لو كان القوت الرئيسى للشعب المصرى !

وإطارات السيارات المصرية – على الرغم من قصور إنتاجها وانحطاط نوعيتها – كانت تفرض فرضاً وبأسعار بخسة على بعض الدول التى تربطنا بها اتفاقيات تجارية ثنائية وخاصة بعض دول العالم الثالث ، وبعض الدول الشيوعية !

وهذه الحقائق ثابتة أيضاً ، ويجب أن نضيفها إلى الحقائق التى ذكرتها حتى تكتمل الحقيقة ، فلا تعلن نصفها ونخفى نصفها !

– إنك تغفل دائماً عوامل هامة منها : الزيادة السكانية الهائلة التى تجعل من

التنمية الاقتصادية أمراً صعباً للغاية . ولو لم تكن هذه الزيادة الهائلة فى السكان لأمكنت مواجهة مشكلات البناء الاقتصادى بسهولة ويسر ! ثم هناك المؤامرات الاستعمارية التى تحاول دائماً عرقلة مسيرتنا الاقتصادية . وهذه المؤامرات بدورها لابد أن تدخل فى حسابنا إذا ما أردنا تقويم التجربة الاشتراكية فى مصر ، وكل الناقمين على الاشتراكية من أمثالك يتغافلون هذه العوامل عن عمد ! لقد استطاع العهد الاشتراكى على الرغم من قيام هذه العقبات من بناء السد العالى أعظم مشروعات التنمية الزراعية والصناعية فى العالم العربى ! ولولا هذا السد العتيد ما استطاعت مصر مواجهة تلك الزيادة السكانية الخطيرة ، وما تمكنت من تحطيم الحصار الذى فرضته الرأسمالية على مسيرتها الاقتصادية !

– لاشك أن لكل تنمية اقتصادية مشكلات تواجهها ، وعقبات تعترضها ، ولا شك أن موضوع الزيادة السكانية يشكل أخطر العقبات التى تواجه واضعى السياسة الاقتصادية فى مصر ، ولكن هل يمكنك أن تدلنى على جهود العهد الاشتراكى فى تذليل هذه العقبة ؟

لقد كان معروفاً منذ الخمسينيات أن مصر مقبلة على زيادة سكانية هائلة ، وأنه يجب العمل بكل الوسائل على تخفيض معدل هذه الزيادة حتى يمكن الارتفاع بحجم الإنتاج كمًّا ونوعاً ، ومنذ منتصف الخمسينيات . . والخبراء الاقتصاديون والاجتماعيون يطلقون صيحات الإنذار ويطالبون الحكومة بالتدخل لإعداد تخطيط سكانى يستهدف تخفيض معدل النسل والسهر على تنفيذه ، فماذا كانت النتيجة ؟ لم تحرك الحكومة ساكناً ، بل ذهب «جمال عبد الناصر» إلى حد الاستخفاف بآراء الخبراء فى خطاب رسمى ألقاه بسورية إبان الوحدة عام ١٩٥٨ . . وقال إن الخبراء يطالبون بتحديد النسل ، ولكنه لن يأخذ بهذا الرأى ، ولن يقبله بل يطالب الشعب

على عكس آراء الخبراء بالتكاثر والتناسل ! فقد ولدت على حد تعبيره أمة كبرى فى هذا الشرق - يعنى الجمهورية العربية المتحدة - وهذه الأمة بحاجة إلى قوة بشرية هائلة تسهم فى بنائها !

وهكذا يبيع «جمال عبد الناصر» جلد الدب قبل اصطياد الدب ، ويدعو إلى الزيادة فى السكان قبل أن تتوافر لديه قدرات الزيادة فى الموارد ، ثم يأتى الانفصال ولا تفكر الحكومة فى برنامج جدى لتنظيم النسل إلا فى أوائل الستينيات وبعد أن تكون الزيادة السكانية قد استفحلت ووصلت إلى قمتها !

وعلى الرغم من أن مواجهة الحكومة للمشكلة قد جاءت متأخرة فإن وسائلها فى العلاج جاءت قاصرة ومفككة ! ومن ثم فقد فشلت فى وقف المد السكانى أو حتى مجرد التخفيف من حدته ! والنتيجة هى ما نعرفه اليوم من فيض سكانى يضعف من قدرتنا على الحركة والتقدم !

- على الرغم من كل مزاعمك فإن الإحصاءات الرسمية تقول : إن مصر قد نجحت خلال العهد الاشتراكى فى مضاعفة إنتاجها .

- نعم ، لقد نجحت فعلاً يا رفيق فى مضاعفة إنتاجها البشرى !

مدرسة الاعتذار !

لم تعد دكتاتورية اليمين الشكل النافع للانفراد بالحكم ؛ فقد تطورت فنون الفردية المطلقة على يد « الديمقراطيات الاشتراكية » وبدت أدنى إلى أحلام الجماهير من دكتاتوريات اليمين التقليدية ، وتطورت معها فنون الاعتذار عن الخطأ ، واتجهت مسئولية الحاكم أمام غيبة موازين الحساب – إلى تدبيج الأعذار وتجسيد الخطيئة فى النصب الذى تمقته الجماهير ، وهكذا شاء منطق الفردية الجديدة أن يصبح الاستعمار والرجعية « إبليس الشعوب » الذى وسوس للحاكم بالانحراف ، أو دفع به إلى الخطأ ! وأن تُدعى الجماهير لرجمه كلما ألمت بها مصيبة ، أو نزلت بها كارثة !

ولم يكن غريبا أن يصبح هذا المنطق المنقول الغذاء اليومى لأدوات الدعاية الناصرية فتأخذ به وتُطور فيه ؛ لتصنع منه فى النهاية فقها للتبرير ومدرسة للاعتذار !

قال :

– إن أسوأ ما يضر الحقيقة هو إغفال الظروف الملابسة للحقيقة ، وقد درج كثير من الأقلام الرجعية والنزعات العميلة على إدانة النظام التقدمي الذى أقامه « جمال عبد الناصر » بغير تقدير للظروف التى عايشتها والملابسات التى عاناها !

لقد مالت هذه الأقلام والنزعات إلى استجماع عناصر الحكم مما تراه أمامها على المسرح ، ولم تحاول قط النفاذ ببصيرتها إلى ما وراء المسرح ! ولو أنها كلفت نفسها مشقة البحث خلف الكواليس لاكتشفت الكثير من العوامل ، والكثير من التيارات التى كانت تسهم فى صنع القرار السياسى وتتحكم فى مساره !

لقد واجهت ثورة (٢٣ يوليو) منذ مولدها حروبا ضارية ، وتصدت لتحديات صعبة ، وما كان لقوى الإمبريالية العالمية أن تستسلم أمام هذا المد الثورى التقدمى الذى أيقظ أفريقيا وامتد إلى آسيا ، بل كان عليها أن تضربه بكل قواها . ، وأن تضع فى طريقه كل العقبات السياسية والاقتصادية والعسكرية !

وعندما تتكلم عن أخطاء النظام الناصرى أو فشله عليك أن تضع هذه الأمور فوق كل اعتبار .

وهل تنكر تعرضنا لمؤامرات إمبريالية وصهيونية طوال سنوات المسيرة الاشتراكية ؟ هل تنكر أننا كنا فى معركة دائمة مع القوى الاستعمارية الغربية وربيبتها إسرائيل ؟

– المؤامرات الاستعمارية موجودة دائما ومستمرة دائما ! وليس هذا بجديد على مصر أو الدول النامية ، إنما الجديد هو استخدام هذه المؤامرات مطيةً سهلة للهروب من الفشل ، وغطاءً جاهزا للتستر على الخيبة ، فما من مرة أساء العهد الاشتراكى التصرف السياسى أو ارتكب حماقة اقتصادية إلا نسبها إلى مؤامرة استعمارية خبيثة تريد النيل من استقلالنا وحريتنا وكرامتنا ! وغالبا ما يقرن هذه « اللافتة التبريرية »

بعمليات قمع واعتقال فى الداخل ، أو عمليات هجوم إعلامى على الخارج !

وكانت إحدى الوظائف الأساسية لأجهزة المخابرات هى صنع المؤامرات من النوعين «الإمبريالى» و«الرجعى» وتقديمها جاهزة للرأى العام !

وعندما رفضت بعض سلعنا فى الأسواق الدولية قالوا : إنها مؤامرة إمبريالية لإجبارنا على الخضوع ، ولم يفكروا لحظة أن يبحثوا عن العيب فى السلعة التى يصدرونها ، وكأن المفروض أن تجبر أسواق العالم على قبول السلعة المصرية أيا كانت نوعيتها ، وأيا كان مستواها !

وعندما انقطعت عنا بعض مصادر التمويل الغربية — قالوا : مؤامرة استعمارية صهيونية للضغط على مصر ، ولم يفكروا لحظة فى إعادة النظر فى مخططاتهم الاقتصادية أو التيقن من مدى سلامة المشروعات التى يطالبون بتمويلها ، وكأن العالم الرأسمالى مطالب بتمويل أى مشروع إنتاجى مهما كانت جدواه الاقتصادية ، ومهما كانت درجة سلامته الفنية .

وعندما توقفت دول رأسمالية وغير رأسمالية عن تصدير بعض السلع الضرورية لتنميتنا قالوا : إنها مؤامرة رجعية لعرقلة المسيرة الاقتصادية !

ولم يفكروا لحظة فى أن توقف هذه الدول عن تصدير السلع الضرورية لتنميتنا ناتج عن عدم الوفاء بالتزاماتنا التصديرية والمالية تجاه هذه الدول ، وكأن القاعدة أن نأخذ ولا نعطى وأن نستورد ولا ندفع !

وحتى ضربات الفشل السياسى والعسكرى كانت تُبَرَّرُ كلها بهذه اللافتة السحرية : فعندما تورط جيشنا فى حرب اليمن قالوا : السبب راجع إلى المؤامرات الصهيونية والرجعية ، ولم يسألوا أنفسهم لحظة عن مدى سلامة حساباتهم السياسية وصحة تقديراتهم العسكرية عندما قرروا الدفع بالجيش المصرى إلى أرض اليمن !

وكأن تدخل الإمبريالية جاء مفاجأة لنا ! وكأن من واجبها ان تبارك وجودنا العسكرى فى اليمن وترعاه بمالها وجهودها !

هذه « اللافتة التبريرية » التى تُرفع عند كل صدمة تصيبنا هى التى أدت بالعقلية المصرية فى النهاية إلى التفتيش عن الأخطاء عند الآخرين ، وإلقاء التبعات على الآخرين ، وهى التى صرفتها دائما عن البحث عن أسباب الفشل فى واقع تصرفاتها ، وفى صميم أعمالها : فكل اعوجاج أو خيبة نجد أسبابها عند الأعداء . اما نحن فمعصومون من كل خطأ أنقياء من كل رجس !

— وما قولك فى النضال الذى خاضته مصر من أجل بناء السد العالى والمؤامرات العنيفة التى واجهتها فى الداخل والخارج ؟ ألم تكن كلها مؤامرات حقيقية استهدفت الضغط على مصر وإجبارها على الإذعان لشروط الدول الاستعمارية ؟ ألم تسحب الولايات المتحدة عرضها بتمويل بناء السد العالى عندما رفضت مصر الدخول فى دائرة نفوذها ؟ ثم العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ، ألم يكن هو أيضا مؤامرة استعمارية صهيونية للعودة بمصر إلى السيطرة الإمبريالية ؟

— كنت أحسب أن ذكاءك سيجنبك طرح مثل هذا السؤال ، وهو سؤال يحمل الكثير من المعانى والكثير من المرارة !

ولا أظنك تجهل أن سحب تمويل السد العالى من قبل الولايات المتحدة قد دفع بحكومة الثورة إلى تأميم قناة السويس ، وأن هذا التأميم هو الذى أدى إلى العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ !

ولنعد إلى القرار الأصلى الذى رتب كل هذه الأحداث وهو مشروع السد العالى ، ولنسأل : هل كان هذا المشروع سليما من الناحيتين الفنية والاقتصادية ؟ وبمعنى آخر : هل كان مدروسا دراسة كافية تضمن له النجاح فى التطبيق ؟

يقول التاريخ السرى لهذه الفترة (١٩٥٢ - ١٩٥٦) : إن هذا المشروع لم يكن مدروسا الدراسة الكافية ، ولم يفتح المسئولون يومها آذانهم على الجوانب السلبية له والتى أبرزتها دراسات بعض الخبراء المصريين وبعض الهيئات الدولية !

وعندما تكلم المرحوم الدكتور عبد العزيز أحمد الأستاذ السابق بكلية الهندسة وهو من أكبر خبراء مصر فى هذا النوع من المشروعات . . وعارض مشروع السد العالى «لأسباب فنية» ! واقتصادية كان نصيبه الحرمان من جائزة الدولة التقديرية بقرار من «جمال عبد الناصر» ! وكذلك الأمر بالنسبة للمهندس على فتحى الذى أقيل من منصبه بسبب معارضته للمشروع .

والواقع أن مشروع السد العالى هو أحد المشروعات الكثيرة التى كانت محل بحث الحكومة المصرية قبيل عام ١٩٥٢ ، وأصول المشروع نفسه كانت بمكتب وزير الأشغال العمومية السابق عثمان محرم !

– ولماذا لم تفكر الحكومات السابقة فى دراسة هذا المشروع الحيوى الذى تقول : إن أصوله كانت بمكتب وزير الأشغال العمومية ؟ لماذا لم نسمع عن هذا المشروع إلا بعد الثورة ؟

– لقد أجاب عثمان محرم عن سؤالك هذا أمام محكمة الغدر التى عقدت لمحاكمته ؟ وعندما سئل عن الأسباب التى دعته إلى دفن أصول المشروع فى مكتبه أجاب : لأن الحكومة رأت أن مضار المشروع أكبر من مكاسبه ، وأنه من الأفضل لمصر البحث عن بديل آخر لتوفير المياه وتوليد الكهرباء !

والواقع أن حكومات ما قبل عام ١٩٥٢ كانت لديها دراسات لمشروع سد مشترك بين مصر وأوغندا على منابع النيل ، وقدر نصيب مصر فى تكاليفه بمليون جنيه استرلينى ؛ كما كانت هناك دراسات أولية لتوليد الكهرباء من منخفض القطارة .

ولكن حكومة الثورة ركبت رأسها وتمسكت بمشروع السد العالى ، وزين لها بعض الخبراء المصريين والأجانب أن هذا المشروع سيثبت من أقدام الثورة ، وسيجلب على مصر الكثير من المكاسب السياسية والاقتصادية !

– وإذا كان مشروع السد العالى فاشلا كما قلت فلماذا قبلت الولايات المتحدة تمويله فى أول الأمر؟ ألم تكن قد درسته وتيقنت من جدواه ؟

– إن الولايات المتحدة لا تعنى كثيرا بالجدوى الاقتصادية للمشروع فى مثل هذه الحالات ، إن ما يعنيها أكثر هو النفوذ السياسى والعسكرى الذى ستحققه من وراء التمويل ! وكم من مشروعات فاشلة مولتها الولايات المتحدة فى دول العالم الثالث لمجرد بسط النفوذ وتحقيق السيطرة ! وكم من مساعدات منحتها الولايات المتحدة لدول كثيرة بغير مقابل وبغير أن تستهدف من ورائها تمويل مشروعات بعينها ! إن سياسة القروض والمساعدات الخارجية التى تنتهجها الولايات المتحدة لا ترتكز دائما على قاعدة الجدوى الاقتصادية المباشرة لهذه القروض والمساعدات ، إنما تستند أحيانا إلى الجدوى السياسية التى ستحققها من وراء هذه المساعدات والقروض !

وموافقة الولايات المتحدة على تمويل مشروع السد ثم سحبها للعرض من بعد لا يعنى سوى أنها تستخدمه كأداة ضغط سياسية لتحقيق مآربها البعيدة ، وهى إدخال مصر إلى دائرة نفوذها السياسى والعسكرى !

– لقد قام السوفيت أيضا بدراسة دقيقة للمشروع ، وقبلوا تمويله وتنفيذه بشروط سهلة ولا يمكن الادعاء بأن السوفيت يغامرون بالتمويل فى مشروع فاشل !

– هذا مربط الفرس يا رفيق ؛ فالسوفيت شأنهم شأن الولايات المتحدة . لا يعنيهم كثيرا نجاح المشروع أو فشله بقدر ما يعنيهم وضع أقدامهم فى مصر ومنطقة

الشرق الأوسط بأكملها ! ولعل مشروع السد العالى كان البداية الحقيقية للنفوذ السوفيتى فى مصر ، بل لعله عربون الدخول إلى منطقة الشرق الأوسط بأسرها ! لقد كان السوفيت فى هذه الآونة يدرسون مشروع السد العالى سرا ، وكان صراع النفوذ بينهم وبين الولايات المتحدة حول مصر ومنطقة الشرق الأوسط قد بلغ أشده ، وقد انتهزوا فرصة رفض الولايات المتحدة تمويل المشروع ليتقدموا بعرضهم «السخى» بعد أن أوعزوا لحكومة الثورة بتأميم قناة السويس للاستفادة من مواردها فى سداد القرض السوفيتى !

وهكذا أممت قناة السويس ، وكانت نتيجتها الطبيعية الاعتداء الثلاثى على مصر !

– أتعتبر الاعتداء الثلاثى نتيجة طبيعية لتأميم قناة السويس ؟ . أمَنْ يسترد حقوقه المغتصبة لابد أن يقابل بالعدوان ؟

– نعم ، فأنت فى عالم لا يعرف العواطف ، ولا يؤمن بسوى منطق القوة ، وبصفتك من المناضلين ضد القوى الإمبريالية عليك أن تعلم بأن من يخرج على نفوذها . أو يتطاول على احتكاراتها لابد أن يُعد نفسه لتلقى ضرباتها ! وماذا كنت تنتظر من الدول المالكة لشركة قناة السويس ؟ ماذا كنت تنتظر من إنجلترا وفرنسا وقد أصيبت مصالحها فى الصميم ؟ هل كنت تنتظر أن تباركا تأميم القناة ، وأن يحنيا الرأس إجلالا وخشوعا ؟ وماذا كنت تنتظر من إسرائيل وهى التى تتربص بنا فى كل آونة وتتحين كل فرصة للنيل منا ؟ إن تأميم قناة السويس قد منح إسرائيل أكبر فرصة تاريخية لتنفيذ بعض مخططاتها التوسعية ، فسارعت بعرض خدماتها على فرنسا وإنجلترا ونجحت فى المشاركة فى الاعتداء على مصر والخروج من الحرب بنصيب الأسد !

– أى نصيب خرجت به إسرائيل سوى الخسارة والخيبة التى لحقت بها كما لحقت بحلفائها ؟ .

– لا ، يا رفيق ! إسرائيل هى الطرف المعتدى الوحيد من بين أطراف العدوان الثلاثة الذى خرج من العدوان بكسب خطير ! لعل هذا الكسب هو الذى مهد لها من بعد فى أن تضرب ضربتها التالية عام ١٩٦٧ .

– هذا منطق غريب لم أسمع به من قبل !

– إننى لا أتكلم الآن بوحى المنطق ، ولكن بإملاء الواقع ؛ والواقع الذى ظل مدفونا سنوات طوالاً وبالتحديد منذ الاعتداء الثلاثى فى أكتوبر عام ١٩٥٦ حتى يونيو عام ١٩٦٧ !

لقد كان الثمن الذى قبضته إسرائيل من اشتراكها فى العدوان على مصر عام ١٩٥٦ إلى جانب فرنسا وإنجلترا كبيرا وكبيرا جدا ، وهو رفع السيادة المصرية عن شرم الشيخ وسواحل خليج العقبة ؛ وفتح الملاحة فى البحر الأحمر أمام السفن الإسرائيلية ! وحتى تنفذ إسرائيل هذا المخطط رفضت الانسحاب من سيناء إلا بعد إحلال قوات الطوارئ الدولية من شرم الشيخ جنوبا حتى قطاع غزة شمالا ؛ وبذلك أصبحت مضايق العقبة التى كانت تحكمها المدفعية المصرية تحت سيطرة البوليس الدولى ، وقامت إسرائيل على الفور عام ١٩٥٧ بإنشاء ميناء إيلات وتسيير خطوط ملاحية إلى شرقى أفريقيا وآسيا !

وقد استطاعت إسرائيل استثمار هذا الكسب إلى أقصى الحدود ؛ إذ استغلت ظرف إغلاق قناة السويس بسبب العدوان ، وتقدمت بعرض مغرٍ إلى شركات البترول العالمية التى تضررت من هذا الإغلاق مؤداه أن تقوم هذه الشركات بمد خط أنابيب بترولية عبر إسرائيل يصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض ، وتم إنجاز

المشروع بالفعل بعد العدوان بسنوات قليلة ، بل تمكنت من إقامة صناعة تكرير البترول وصناعة بتروكيماوية بالاعتماد على جزء من البترول الخام الذى يمر عبر هذه الأنابيب !

وعندما وقعت هزيمة عام ١٩٦٧ استطاعت إسرائيل أن توسع من مشروع أنابيب البترول ، فأصبح قطر هذه الأنابيب مترا بعد أن كان نصف متر ؛ كما طورت مشروعات التكرير والصناعة البتروكيميائية !

وهذه الحقائق التى يجهلها الكثيرون تفسر لك يا رفيق السبب فى عدم انزعاج دول الغرب الرأسمالى من إغلاق قناة السويس بعد حرب عام ١٩٦٧ وعدم تحمسها لإعادة فتحها .

لقد ظلت قناة السويس بعد هزيمة عام ١٩٦٧ مغلقة ثمانى سنوات متوالية على حين لم يمض على إغلاقها عام ١٩٥٦ سوى تسعة أشهر فقط !

والسبب أن هذه الدول لم تصب بأزمة الطاقة البترولية كما أصيبت بها عام ١٩٥٦ ، لأنها أعدت نفسها منذ ذلك التاريخ لمفاجآت إغلاق قناة السويس فى وجه الناقلات البترولية ، وكانت إحدى وسائلها البديلة خط أنابيب البترول الذى يمر عبر إسرائيل !

— لكل نضال من أجل تحرير الشعوب ثمنه الفادح ، والبشرية لا يمكنها أن تتقدم من غير تضحية ومعاناة ! وكل سياسة لها أخطاؤها ومكاسبها ، وهذا مالا تستطيعون تفهمه أو إدراكه مادمتم تجهلون منطق التاريخ !

— فارق يا رفيق بين النضال والعبث ! إن هذا السلوك لا يدخل بحال فى باب النضال من أجل التقدم ! فليس نضالا أن تجعلنى أربح ألفا ثم أخسر مليونا ! النضال ؟ كما قال زعيمكم لينين — خطوة للوراء وخطوتان للأمام ؛ أما فى حالتنا

هذه فهو نصف خطوة إلى الأمام وألف خطوة إلى الوراء !

وأكرر أن العبرة فى السياسة يا رفيق ليست بالنوايا الحسنة والعواطف الجياشة ؛ ولكن بالنتائج المتحققة والإنجازات الملموسة ؛ وفى حالتنا هذه حقق القرار مكاسب تكتيكية حالة ؛ ولكنه ألحق بنا فى الوقت نفسه خسائر استراتيجية ممتدة ! والسؤال الذى يجب طرحه هنا هو : ما محصلة الأرباح والخسائر التى عادت على مصر والعرب من مشروع السد العالى بتوابعه السياسية والاقتصادية ؟

– إن الكسب محقق ، ويكفى أن هذه القضية قد أيقظت مصر والأمة العربية من المحيط إلى الخليج ، وأكدت الذات العربية ، ومهدت لتصفية الاستعمار فى كل الأقطار العربية والأفريقية !

وهذا فى ذاته يعتبر أكبر كسب لحركات التحرير العربية والأفريقية ، بل حركات التحرر فى العالم أجمع !

– هذا هو الكسب التكتيكى القصير المدى الذى دفعنا مقابله ثمنا فادحا ! لقد أيقظنا العملاق العربى بمشروع السد وتأميم القناة والعدوان الثلاثى ، ثم دفناه حيا بعد ذلك ! أعطيناه جرعة منبهة لم يلبث أن ذهب مفعولها بعد حين !

ذلك أن العهد الاشتراكى لم يخطط لشىء ، ولم يأخذ الأمور إلا ارتجالا ولو أجرى الحساب الدقيق لقراراته الكبرى واختياراته الأساسية لسلك طريقا آخر ! ولاستعمل أساليب أخرى غير تلك الطرق والأساليب التى استعملها وأصر عليها !

ولتعد معى إلى مشروع السد العالى بتوابعه السياسية والاقتصادية .

فالمشروع مملوء بالأخطاء الفنية ، والمضار الاقتصادية التى ترتبت على تنفيذه مؤكدة ! وقد أشارت تقارير اللجان الفنية التى شكلت عام ١٩٧٥ سواء من مجلس الشعب أو من خارجه إلى الخسائر الجسيمة التى أصابت الأراضى الزراعية ،

بالإضافة إلى الانهيارات الخطيرة التى لحقت مجرى النيل والتى تهدد كل القناطر والجسور المقامة عليه ! وعليك أن تعود إلى التقارير الرسمية والدراسات الفنية وتصريحات بعض كبار المسئولين عن الآثار الجانبية للسد العالى !

والنتيجة أنه لابد من إعداد وتنفيذ مشروع مضاد لتلافى كل هذه الخسائر ، وربما كانت تكاليف هذا المشروع أكبر من تكاليف بناء السد العالى نفسه !

ثم قرار تأميم قناة السويس علينا أن نناقشه بهدوء بعيدا عن العواطف الملتهبة والأمانى الحالمة . وعليك أن تعرف أولا وبالحساب الدقيق أن عقد امتياز قناة السويس كانت نهايته المؤكدة عام ١٩٧٨ بمعنى أن القناة كان لابد أن تعود لمصر خالصة من كل التزام فى هذا التاريخ ، فماذا كسبت مصر والعرب باسترداد قناة السويس قبل موعدها باثنتى عشرة سنة ؟

١ - كسبت اولا دخل القناة حوالي عشر سنوات . لأنها أغلقت مرة أخرى إثر هزيمة يونيو ١٩٦٧ .

٢ - وكسبت ثانيا كسبا معنويا بفشل الاعتداء الثلاثى على مصر . .

أما خسارتها وخسارة العرب فكانت كما يلى :

١ - دفعت مصر لحملة أسهم شركة قناة السويس المؤممة تعويضات تربو على دخل قناة السويس طيلة السنوات العشر التى أعقبت التأميم !

٢ - تمكنت إسرائيل من تحطيم السيطرة المصرية على مضايق خليج العقبة وأنشأت ميناء إيلات [illegible] هو ثمرة عدوان عام ١٩٥٦ ثم فتحت الملاحة لسفنها عبر البحر الأحمر ، ودعمت من علاقتها التجارية مع دول أفريقيا الشرقية وبعض دول آسيا .

٣ - ثم استغلت إسرائيل - كما سبق آنفا - إغلاق قناة السويس بعد الاعتداء

الثلاثى ، وأنشأت بالتعاون مع احتكارات البترول العالمية خط أنابيب لنقل البترول من إيلات إلى حيفا عبر الأراضى العربية التى تحتلها بالإضافة إلى إقامتها لصناعات تكريرية وبتروكيمياوية تعتمد على استغلال جزء من البترول الخام الذى يمر عبر أراضيها ؛ ومن ثم فقد سلبت مصر جزءا من امتيازها الجغرافى . وهو إطلالها على بحرين : البحر الأبيض والبحر الأحمر وعتعها بممر مائى يربط بينهما . ولعلك يارفيق تعلم أن حوالى ٨٥٪ من عابرات القناة تتشكل من ناقلات البترول . وهكذا تدعم الاقتصاد الإسرائيلى على حساب الاقتصاد المصرى والعربى !

٤ – امتدت تحركات البحرية الإسرائيلية إلى البحر الأحمر . وأصبحت تهدد مداخله ومخارجه من باب المندب جنوبا إلى مدخل العقبة شمالا ، بالإضافة إلى تهديد سواحل مصر والسودان والأردن والمملكة العربية السعودية واليمن الشمالية والجنوبية .

وقضية أمن البحر الأحمر التى تشغل العرب اليوم وتؤرق مضاجعهم هى إحدى ثمار « الانتصار العظيم » الذى حققناه فى حرب عام ١٩٥٦ .

– لقد ذهبت بعيدا فى تحليلك ونسبت إلى العهد الاشتراكى سلسلة من النتائج التى لم يكن من الممكن ترجيحها ، وهل كنا نرجح اعتداء ثلاثيا نتيجة تأميم قناة السويس ، أو كنا نرجح اشتراك إسرائيل فى هذا الاعتداء ! إن كل هذه النتائج لا تعدو أن تكون ردود فعل ضعيفة الاحتمال من قبل الاستعمار وأعوانه لإسقاط النظام الثورى والعودة بمصر إلى حظيرة الأحلاف الاستعمارية .

– أى حساب سياسى جاد ودقيق لابد أن يرجح ردود الفعل هذه على قرار التأميم ، وهذا هو الفارق بين الاحتراف والهواية فى دنيا السياسة : الحساب السياسى لابد أن يضع كل احتمال فى موضعه عند اتخاذ قرار خطير من هذا النوع ، ولابد أن

بحسب الآثار المباشرة القريبة للقرار والآثار غير المباشرة والبعيدة له ، ولا يوجد من ينكر أن قرار تأميم قناة السويس له أبعاد استراتيجية بعيدة المدى ليس على مصر وحدها ، بل على الأمة العربية جمعاء .

ولا يمكن بحال استبعاد ردود الفعل العنيفة من الدول التى يهدد مصالحها قرار التأميم ؛ كما لا يمكن استبعاد قيام إسرائيل باستغلال هذا الظرف لاستعداء دول الغرب علينا أو إسهامها مباشرة فى مغامرة عسكرية ، وهذه الترجيحات وغيرها ما هى إلا ألف باء فى عالم السياسة !

– لو أننا أخذنا بوجهة نظرك ، ورجحنا احتمالات الخطر القريبة والبعيدة لكل قرار سياسى ما كتبت الحياة لأى قرار سياسى ! إن عنصر المخاطرة طبيعة لاصقة بكل قرار سياسى مصيرى ، ولابد من قبول مبدأ المخاطرة فى العمل السياسى طالما أن الاحتياطات اللازمة قد اتخذت لمواجهة آثاره . .

– صحيح أن كل قرار سياسى ينطوى على عنصر مخاطرة ، ولكن يجب أن تكون نسبة هذه المخاطرة محسوبة حسابا جيدا ، وعندما يتجاوز عنصر المخاطرة النسبة المعقولة يصبح القرار مغامرة خطيرة العواقب ! وعلى كل حال فهذه القضية لم تواجه قيادتنا السياسية ؛ فكل الدلائل تشير إلى أن هذه القيادة قد أخطأت الحساب السياسى ، ولم تستطع تقدير حجم المخاطر المترتبة على قرار التأميم ، وذهبت إلى الاعتقاد بأن الاعتداء المسلح على مصر من قبل إنجلترا وفرنسا أمر ضعيف الاحتمال ! ولا شك أن اتخاذ قرار مع الجهل بمخاطره أخطر بكثير من اتخاذ قرار مع العلم بمخاطره إذ يصبح القرار فى هذه الحالة من قبيل المغامرة التى تستهدف المضاربة على المجهول ؛ وأنا لا أعارض فكرة استرداد قناة السويس ، ولكننى أعارض توقيتها المحلى والدولى ، لأن هذا التوقيت اختار ظروفا عربية ودولية غير مناسبة ، وانتهى بنا

إلى خسارة أجزاء حساسة من ترابنا ، ومنح عدونا قوة اقتصادية جديدة وسيطرة عسكرية بحرية هددت شواطئنا ! وما حققته إسرائيل من مكاسب إقليمية واقتصادية وعسكرية فى عدوان ١٩٥٦ هو الذى مهد لضربتها العسكرية عام ١٩٦٧ !

– إن إسرائيل لها مخطط توسعى وتسعى بكل الوسائل لتنفيذه ، وسواء أممت قناة السويس أو لم تؤمم فقد كانت تعد عدتها منذ عام ١٩٥٦ لتضرب ضربتها فى أول فرصة ، وتبتلع بالقوة أراضى عربية جديدة ! وقد وجدت فرصتها فى ذلك الحين فى قرار التأميم ، وكان من الممكن أن تخلق لنفسها فرصا أخرى إذا شاءت .

وقد تكرر النمط العدوانى نفسه عام ١٩٦٧ ؛ فقد وجدت فرصة مواتية فى قرار «عبد الناصر» بحشد قوات على حدودها فى سيناء ، وكان من الممكن أن تجد فرصة أخرى إذا لم تسعفها هذه الفرصة ! إن الطبيعة العدوانية لإسرائيل هى التى تحكم تصرفاتها فى العالم العربى ، وهذه الحقيقة يجب أن تكون واضحة وضوح شمس الصيف !

– طبيعة إسرائيل العدوانية ليست اكتشافا جديدا يا رفيق ، وتحين بنى صهيون الفرص للانقضاض على العالم العربى ليس طلسما غامضا تحار فيه الأفهام ! إنما الذى تحار فيه الأفهام حقا هو دور القيادات العربية وخاصة القيادة المصرية فى دَرْء هذا الخطر ، وتفويت الفرص على إسرائيل فى تحقيق مخططاتها !

وعليك أن تنبئنى بما فعلته هذه القيادات فى تلافى الضربات وتخفيف الخسائر عند وقوعها .

ألم تحدد إسرائيل زمان المعركة ومكانها فى مرحلتين متواليتين الأولى عام ١٩٥٦ . والأخرى عام ١٩٦٧ ؟

ألم تستسلم قياداتنا لتحديداتها الزمانية والمكانية . بل أسهمت فى تسهيل مهمة العدو فى الإجهاز على جيشنا والاستيلاء على أراضينا ؟

– أتتهم القيادة المصرية بالخيانة والتواطؤ ؟

– لا . فأنا لا أملك دليلا على الخيانة والتواطؤ ، ولكننى أملك أدلة على سوء التدبير والتخطيط ! أملك أدلة على الرعونة السياسية والارتجال العسكرى ! أملك أدلة على طغيان روح المغامرة على روح القرار السياسى المحسوب ! ولست من هواة النظر إلى نوايا العدو ونسيان النظر إلى نوايانا تجاهه ! وعلينا أن نبدأ أولا بالبحث عن أسباب التقصير فى قيادتنا قبل أن نبحث عن أسباب التفوق عند العدو !

– ماذا كنت تريد للقيادة الثورية أن تفعل أكثر مما فعلت ؟ لقد وقفت فى حومة النضال ومن خلفها الصف العربى كله . وكانت الدول التقدمية تساندها بكل قواها وجهودها .

– لقد كان خطأ القيادة الأول هو خطأ التوقيت السياسى فى قرار التأميم ، وخطأ انعدام الحساب السياسى الاستراتيجى للنتائج البعيدة التى يرتبها قرار من هذا النوع ، وكان من الممكن تحين فرصة عربية ودولية أخرى لتأميم القناة غير تلك الفرصة التى اختارتها القيادة ! ثم عليك أن تحلل تصرفات القيادة تجاه العدوان على مصر . لقد سلكت سلوكا عسكريا غريبا أدى إلى خسائر عسكرية جسيمة كان من الممكن تلافيها لو كان هناك بعض التفكير والتدبير ! وخذ مثالا واحدا من واقع عدوان ١٩٥٦ .

لقد كانت الدنيا كلها تتحدث عن احتمالات عدوان مسلح من إنجلترا وفرنسا على مصر بعد أن فشلت محاولاتها للوصول إلى تسوية سلمية .

وكان الجميع يترقبون هجوما على مصر فى أى لحظة . وفجأة تقوم إسرائيل

بإنزال قوات محمولة جوا فى ممرات متلا والكتتلا فى عرض سيناء يوم ٢٩ من أكتوبر عام ١٩٥٦ فماذا يكون تصرف القيادة المصرية ؟ تدفع بقواتنا المسلحة إلى عرض سيناء فى وقت لا نملك فيه سلاحا جويا فعالا ، وتكون النتيجة أن تتدخل بريطانيا وفرنسا بثقلها العسكرى بعد يومين من الهجوم الإسرائيلى ويقطع كوبرى الفردان المعبر الوحيد إلى الضفة الغربية لقناة السويس ! ونحاصر جيشنا فى سيناء بالقوات الإسرائيلية من أمام والقناة من الخلف والطيران الإنجليزى والفرنسى من فوق ! لقد سقطنا فى الفخ الذى نصبته الدول المعتدية للجيش المصرى ! ولم يكن هذا بعيدا عن الاحتمال ، بل كان ماثلا فى أذهان عدد من القادة العسكريين المصريين أن تقوم إسرائيل بمغامرة لاجتذاب الجيش المصرى إلى مصيدة سيناء والإجهاز عليه هناك ! وكان واضحا أن إسرائيل بإلقائها قوات من المظليين فى عرض سيناء وفى هذه الظروف بالذات إنما كانت تقدم «طعما» لإغراء الجيش المصرى على العبور والإيقاع به بين فكى الكماشة ! ولو كانت القيادة المصرية تتمتع بحاسة التقدير السياسى والعسكرى للموقف ما غامرت قط بإرسال جندى واحد إلى سيناء !

– أكنت تريد للقيادة أن تقف متفرجة على الهجوم الإسرائيلى على الممرات

– على كل حال لقد وقفت متفرجة لا على الهجوم الإسرائيلى وحده على سيناء ، ولكن أيضا على مذبحة الجيش المصرى هناك ! !

– لا أحد ينكر أن الجيش المصرى قد حارب ببسالة فى سيناء ، وكبد العدو خسائر فادحة . وانسحب سالما إلى الضفة الغربية .

– إننى لا أنكر بسالة الجيش المصرى واستماتته فى الدفاع عن سيناء ، ولكننى أستنكر استشهاده على رمال سيناء بغير جدوى ولا طائل ! إننى أستنكر دفعه إلى الموت بغير نتيجة مجزية ! ولو أن القيادة السياسية أعدت حساباتها بدقة وروية

ما أقدمت على هذه المغامرة ولاحتفظت بالجيش كله على طول الضفة الغربية للقناة .

– وهذا تماماً ما فعلته القيادة المصرية ، فبعد أن أنزلت بالعدو أفدح الخسائر انسحبت عائدة إلى الضفة الغربية قبل أن تتمكن قوى العدوان الثلاثى من الإطباق عليها فى سيناء !

– واقع الأمر يخالف ذلك : لقد سقط جيشنا بين فكى الكماشة ، وكابد خسائر فادحة فى الأرواح والمعدات ، وخاصة خلال ساعات تراجعه إلى الضفة الغربية ، وما تسميه انسحابا لم يكن فى حقيقته سوى اضطراب وفوضى سادت صفوف الجيش بعدما تعرض للهجوم الجوى الضارى من إنجلترا وفرنسا ! فقد دمرت خطوطه الخلفية ، وقطعت عليه كل سبل العودة إلى الضفة الغربية بعد تدمير كوبرى الفردان !

– لا ، لقد كان انسحابا مخططاً ومنظما ، وليس عيبا أن ينسحب جيش من معركة ليُعِد لمعركة أخرى ، وهذا ما فعله الجيش المصرى .

– أنا لا أقول إن الانسحاب عيب ؛ بل هو جزء من طبيعة الحرب ، ولكن أين الانسحاب بمعناه الفنى فى عمليات عام ١٩٥٦ ؟ إن عمليات الانسحاب أدق واقسى من عمليات الهجوم ، ولا بد لها من حماية جوية فعالة وخاصة فى حرب الصحراء ، فأين الحماية الجوية فى حالتنا هذه ؟ لقد كان سلاحنا الجوى فى هذه الآونة حديث التكوين محدود العَدد والعُدة ، بل لم يكن قد استكمل بعد تدريبه على الطائرات السوفيتية ، فكيف يتصور أن ترجو القيادة غطاء جويا لقواتنا فى سيناء بهذا السلاح ؟ لقد شل سلاحنا الجوى منذ الساعات الأولى لتدخل الطيران الإنجليزى الفرنسى ، ودمرت نسبة هامة من طائراتنا التى قال عنها «عبد الناصر»

بعد ذلك إنها طائرات خشبية ! أضف إلى ذلك أن عنصر المفاجأة – مفاجأة تدخل إنجلترا وفرنسا بالنسبة للجيش وقطع طرق الاتصال بالضفة الغربية – لم تمكن القيادة الميدانية من القيام بانسحاب منظم يحمى الأرواح والمعدات . وكانت النتيجة خسائر جسيمة فى الأفراد والعتاد ! .

وقديما قيل : إذا لم تستطع تحطيم أنياب الأسد فلا تضع رأسك فى فم الأسد !

– نعم ، هناك خسائر ، فنحن نواجه جيوشا ثلاثة منها جيشان لدولتين عُظْمَيَيْن ، وقد تمكنا من الانتصار فى النهاية على كل هذه الجيوش ، ولم نمكنها من تحقيق أهدافها ، ويكفى أن تنتصر إرادتنا أمام قوى العدوان !

– لو أن القيادة السياسية واجهت أخطاءها فى ذلك الحين ، ونشرت حقائق العمليات العسكرية فى سيناء – ما كان هناك داعٍ أن أجهد نفسى فى الرد عليك . ولكن المأساة كل المأساة أن القيادة السياسية أخفت عن الشعب أخطاءها العسكرية والسياسية ، وحولتها إلى انتصارات يتغنى بها الناس فى كل مكان ! ولو أن هذه الأخطاء تكشفت للشعب وحظيت بالدراسة والتحليل – لما كانت كارثة ١٩٦٧ !

– أنا لا أنكر وقوع أخطاء عسكرية ، وهل هناك حرب تخلو من الأخطاء العسكرية ؟ ثم إن هذه الأخطاء كانت موضع مساءلة عسكرية من جانب القيادة السياسية ، وقد اعترف بها المشير (عبد الحكيم عامر) أمام الرئيس «جمال عبد الناصر» فى اجتماع عقد بمبنى القيادة العامة للقوات المسلحة فى أعقاب العدوان ، لقد راجعت القيادة السياسية كل الأخطاء وتدارستها فى صراحة تامة وخرجت منها بكل الدروس المستفادة !

– وهل تدارس الأخطاء يكون فقط على مستوى القيادة وفى إطار كلمات العتاب الأخوية التى تدور بين صاحب السلطة السياسية وصاحب السلطة

العسكرية ؟ إن الاجتماع الذى جمع عبد الناصر وعبد الحكيم عامر عشية حرب عام ١٩٥٦ قد انتهى إلى خنق كل حقائق هذه الحرب . فقد وجه « عبد الناصر » اللوم إلى « عبد الحكيم » عن الخسائر التى لحقت الجيش وقال : إن هذه الخسائر لم يكن لها مبرر ! ورد عبد الحكيم قائلا : إنه لا يفهم فى السياسة . وأن تقدير الموقف السياسى ليس من اختصاصه ، وأنه يحرك قواته تبعا لما يصدر إليه من تعليمات السلطة السياسية . وإن الخطأ يكمن فى القرار السياسى الذى لم يستطع تحديد المكان الذى سيأتى منه الهجوم ! ثم هدد بالاستقالة من منصبه ، فما كان من المجتمعين ومن بينهم « عبد الناصر » نفسه إلا أن جددوا الثقة بقيادته للقوات المسلحة !

ومن يومها لم يفتح تحقيق واحد فى تصرفات القيادة السياسية والعسكرية ، ولم يعرف شعبنا ولا جيشنا شيئاً من خبايا هذه الحرب سوى أنها انتصار عسكرى مبين على قوى العدوان !

وعليك أن تسترجع نتيجة التعامى عن الأخطاء ودفن الحقائق يا رفيق ، كانت النتيجة أن هاجمتنا إسرائيل عام ١٩٦٧ مستخدمة الخطط ذاتها والأساليب التى استخدمت عام ١٩٥٦ ذاتها ! لقد أعدت هجومها الشامل على نفس محاور الهجوم التى استخدمتها عام ١٩٥٦ ، وبادرت بضربة جوية مماثلة للضربة الجوية لعام ١٩٥٦ ، كل ما هنالك أنها استخدمت طيرانها لأول مرة بدلا من طيران حليفتيها فى العدوان الثلاثى .

وإذا قارنت خرائط الهجوم الإسرائيلى لعام ١٩٥٦ بخرائط الهجوم الإسرائيلى لعام ١٩٦٧ وجدت التشابه بينهما إلى درجة مذهلة .

— حرب عام ١٩٦٧ موضوع آخر تحيط به ظروف أخرى غير تلك التى كانت قائمة عام ١٩٥٦ ، ولا وجه للمقارنة بين الحربين ، ولا سبيل للربط بينهما من

– إن الربط قائم وأكيد ، ولو أن حسابا للأخطاء قد جرى عام ١٩٥٦ ما دهتنا كارثة عام ١٩٦٧ !

ولن أتكلم الآن عن الأخطاء السياسية الرهيبة لهذه الحرب . ولكن يكفى أن أقول إن الأخطاء العسكرية الجسيمة التى أدت إلى الكارثة كان من الممكن تلافيها لو أن القيادة العسكرية صححت أخطاءها فى أعقاب حرب عام ١٩٥٦ ، لقد صدقت هذه القيادة نفسها ، وتصورت أنها انتصرت فعلا فى حرب عام ١٩٥٦ ، وكانت معاهدنا العسكرية تدرس « الانسحاب العظيم » الذى قاد إلى النصر خلال هذه الحرب على حين أن الواقع المرير قابع فى السجلات والوثائق لا يجد من يبحث فى أمره ، أو يكتشف خباياه !

– لقد جرت تغييرات هامة فى صفوف الجيش منذ ذلك التاريخ ، وأدخلت تعديلات جوهرية على التكتيك العسكرى والاستراتيجية العسكرية ، كما استكمل الجيش تسليحه الحديث ، ولم يكن وقت الاعتداء الثلاثى قد استوعب الأسلحة التشيكية التى سلمت إليه .

وأكرر أنه لا وجه للربط بين حرب عام ١٩٥٦ وحرب عام ١٩٦٧ !

– كيف تتصور عدم إمكان الربط بين الحربين ؟ هل تغير شىء فى قيادة الجيش العليا ؟ لقد ظل « عبد الحكيم عامر » بعد حرب عام ١٩٥٦ قائدا عاما للقوات المسلحة ، ولعلك تعلم أن معلومات « عبد الحكيم عامر » العسكرية قد انتهت منذ تخرجه فى الكلية الحربية عام ١٩٣٩ وأن الخبرة المتواضعة التى جمعها خلال حرب عام ١٩٤٨ لم تلبث أن تبددت بانشغاله فى التنظيمات السياسية السرية فى الجيش ، ثم بعد ذلك فى أعباء الحكم وتبعاته .

وهل تعتقد فى قرارة نفسك أن ضابطاً برتبة رائد يمتاز بهذه الصفات قادرٌ على أن يقود أكبر جيش فى العالم العربى ، ويواجه به أخطر يهود الأرض ومن خلفهم أقوى دول العالم ؟ هل تعتقد أن فى هذا الاختيار ما يتفق مع منطق الظروف السائدة فى المنطقة العربية ؟ ثم هذا التغيير الذى طرأ على صفوف الجيش فى أعقاب حرب عام ١٩٥٦ ما صلته بأخطاء هذه الحرب ؟ لقد جرت فعلا حركة « تطهير » فى صفوف الجيش ، ولكن هذا « التطهير » لم يستهدف سوى تثبيت السلطان على الجيش بتقريب المخلصين من القيادة ، وابعاد غير المخلصين عن الجيش ، ولم يخرج ضابط كبير واحد من منصبه القيادى بسبب التقصير فى حرب عام ١٩٥٦ أو بسبب الخطأ فى حسابات هذه الحرب !

لقد كنا نتوقع أن يجرى تحقيق على أرفع المستويات ، وأن تعلن نتائجه على الشعب ، ولكن ذلك لم يحدث ، وظلت كل القيادات السياسية والعسكرية المسئولة عن أخطاء حرب عام ١٩٥٦ فى مواقعها القيادية إلى أن حلت هزيمة عام ١٩٦٧ ، وهنا فقط تمزقت القيادة العسكرية ، ودب الخلاف بين صاحب السلطة السياسية وصاحب السلطة العسكرية ، وكان لابد أن يذهب أحدهما عن الدنيا ليفسح المجال للآخر !

— إنك لا تستطيع استيعاب علاقات القوى داخل جهاز السلطة ، لقد أراد « عبد الناصر » أن يحافظ على سلامة النظام ووحدة الجيش ، ولم يشأ أن يقدم على الاصطدام بعبد الحكيم عامر فى هذه الآونة وكان من الممكن أن يؤدى الخلاف إلى تمزيق صف الثورة . . وفتح الطريق إلى الثورة المضادة !

— إذا لم يضع النظام مصلحة الأمة العليا فوق مصالح بقائه فما الجدوى التى ترجوها الأمة من بقائه ؟ وسلامة الجيش وصلابته هى قمة الأمن والأمان بالنسبة لمصر والأمة العربية جمعاء ! وأحد مبادئ الثورة الستة بناء جيش قادر على مواجهة العدوان !

فهل نفذت قيادة الثورة هذا الوعد ؟ إن المشكلة ليست فقط فى بقاء «عبد الحكيم عامر» على رأس قيادة الجيش . ولكن المشكلة فى الآثار التى ترتبت من بعدْ على سلوك الجيش وانضباطه ؛ فقد حل الإخلاص محل الكفاية فى المناصب القيادية ، وحلت الفوضى محل الانضباط . وأصبح التدرج العسكرى ألعوبة بين أيدى القيادة ، وصارت الأقدمية العسكرية عبثا فى صفوف الجيش وانتهت القوات المسلحة إلى قبضة ضباط من الرتب الصغيرة يتحكمون فى مصيرها ، ويرسمون سياستها .

– ربما كانت بعض هذه الادعاءات صحيحة ، ولكن لا يجوز المبالغة فى تقديرها ، والقول بأنها السبب المباشر للهزيمة . لقد كان الجيش المصرى معدا إعدادا جيدا ومسلحا تسليحا يقارب تسليح العدو إن لم يفقه فى بعض المعدات الآلية !.

– لعلك تتذكر أن الطائرات التى زودنا بها الاتحاد السوفيتى كانت كلها من الطائرات المقابلة التى لا يتعدى مداها نصف ساعة طيران ، ولعلك تعلم أن السلاح الحاسم فى حرب الصحراء هو الطيران ، وهذه الحقائق تكفى وحدها الردَّ على ادعائك بأن الجيش كان مسلحا تسليحا جيدا . أما الأسلحة الأرضية من آليات ومدفعية فلا قيمة لها بغير طيران يحمى القوات على أرض مكشوفة ! والاتحاد السوفيتى يا رفيق لا يعطى السلاح إلا بقدر مصالحه ، ومن مصالحه الأكيدة التى لا يخفيها بقاء إسرائيل واستمرارها ، ولذلك فقد حرص على إمدادك بطائرات لا تصل إلى قلب إسرائيل ، ولا تدرك فى العمق أهدافها الحيوية !

– ولماذا بادرت إسرائيل بتدمير سلاحنا الجوى مادام هذا السلاح غير فعال وغير مؤثر ؟

– لقد بادرت بتدميره لتنفرد وحدها بسماء المعركة دون عائق جوى أيا كان . . وهذا ما يسهل مهمتها فى الإجهاز على قواتنا المكشوفة فى عرض الصحراء وفى تهديد أهدافنا الحيوية فى عمق مصر .

ولتعلم يا رفيق أن الضربة الجوية التى وجهتها إسرائيل إلى العمق المصرى لا تستطيع أن توجهها مصر إلى العمق الإسرائيلى ؛ فسلاحنا الجوى حتى مع توافر ممكنات المبادرة كان عاجزا عن إدراك أهدافه فى قلب إسرائيل .

– إننى مصر على أن الجيش المصرى كان فى وضع يؤهله لكسب الحرب ضد إسرائيل ، ولكن تقصير القيادة العسكرية ووجود خيانة فى صفوف الجيش هما اللذان أديا إلى الهزيمة .

– تقصير القيادة ! ولماذا قصرت القيادة ؟ إن قيادة الجيش إنما هى كل شىء فى الجيش . وجيش بلا قيادة كجسد بلا رأس ، وتقصير القيادة أو تواطؤها مع العدو ليس مسؤليتنا على كل حال ، فلم يستشرنا أحد فى تقليد «عبد الحكيم عامر» قمة القيادة ، ولا فى اختيار قادة الأسلحة وقيادة الأركان ، إن تقصير القيادة العسكرية هو مسئولية القيادة السياسية التى اختارتها ونصبتها على رأس الجيش ، وعليها أن تواجه هذه المسئولية وحدها !

أما قولك بوجود خيانة فى صفوف الجيش – وهذا ما أطلقته فعلا أجهزة المخابرات فى ذلك الوقت لتبرئة ساحة «عبد الناصر» فلم نسمع على حد علمنا أن قُدِّم للمحاكمة من قيادات الجيش أو غيرها خائنٌ واحد وكل ما شاهدناه هو محاكمات لبعض قادة الأسلحة عن تهمة التقصير !

– لقد كان واضحا أن القيادة العسكرية لم تقم بواجبها ، وقد حذر «عبد الناصر» نفسه قيادة الجيش قبيل النكسة بساعات معدودة من مخاطر هجوم

إسرائيلى مفاجىء ، بل ذهب إلى تحديد ساعة الهجوم الإسرائيلى ، ولكن القيادة قابلت تحذيره بالاستخفاف !

– أن يكتف رئيس الدولة بالتحذير شأنه فى ذلك شأن أى مواطن عادى .
فهذا أمر لا تعرفه السياسة وأصول الحكم ! رئيس الدولة المسئول لا يكتفى فى موقف كهذا بتوجيه النصائح الأخوية ولا يعفيه من المسئولية الادعاء بأنه حذر القيادة .
الدول لا تساس على طريقة العزب والتفاتيش ! ثم إن بعض قادة الأسلحة قد بهموه مرارا وخاصة يوم تحذيره الشهير بأن قواتنا المسلحة لن تقوى على تحمل ضربة أولى من إسرائيل ! ولن تتمكن من ثم من توجيه الضربة الثانية !

فهل تصرف صاحب القيادة السياسية على ضوء هذا الرأى ؟

– وماذا كان يستطيع أن يفعل فى هذا الوقت الضيق ؟

– ألم يكن على علم سابق بأوضاع القوات المسلحة ؟ ألم يكن يعلم على الأقل ن خيرة قواتنا الضاربة بعيدة فى أرض اليمن ، وأن سلاحنا الجوى على درجة كبيرة ن ضعف الإعداد والتجهيز ؟ ألم تطالب قيادة القوات الجوية باعتمادات خاصة تجهيز سلاح الطيران وكانت إجابة القيادة العامة دائما سلبية ؟

إن جمال عبد الناصر وهو صاحب القيادة السياسية رجل عسكرى ويحمل مؤهلات عسكرية عالية فكيف نتصور جهله بكل هذه الأمور ؟

– لم يكن «عبد الناصر» على علم بالكثير من شئون الجيش ، وكانت كل السلطات العسكرية بين أيدى «عبد الحكيم عامر» .

– إن كان «عبد الناصر» يجهل الكثير من أمور الجيش وهو قمة الأمان لمصر والأمة العربية فماذا كان يعلمه من شئون الدولة على وجه الضبط ؟

ألم تسعفه أجهزة مخابراته فى الوقوف على أوضاع الجيش كما أسعفته فى التعرف

على زواج «عبد الحكيم عامر» من برلنتى عبد الحميد ؟

أليست أوضاع الجيش وظروف إعداده من أوليات الأمور التى يجب أن تخضع لتقدير رئيس الدولة قبل أن يفكر فى فتح جبهة مع إسرائيل ؟

– على كل حال هذه الأحداث أصبحت تاريخا . ومن الصعب البت فى حقائقها بعد أن ذهب أبطالها ؛ وعلينا اليوم أن نكف عن بكاء الماضى ، ونمضى قدما إلى المستقبل .

– بناء المستقبل مرهون بحقائق الماضى ، والماضى لم يصبح تاريخا بعد ، بل هو المجهول الكبير الذى يؤرق كل يوم عقلنا الباطن ، ولا يمكن أى أمة أن تمضى إلى الغد وقد حذفت من ذاكرتها تجارب الأمس .

ونحن لا نسترجع الماضى لبكاء أطلاله ، وإنما للاستفادة من دروسه ، والاستزادة من عبره ، وبغير استرجاع الماضى لا يمكن تصحيح المعوج من أمورنا وتصويب الخاطئ من أفعالنا . .

– لا أرى جدوى من فتح الملفات القديمة سوى إلهاء الشعب عن مشاكله الحالة وصرفه عن قضاياه المصيرية ، ونحن نعرف الهدف الذى يسعى إليه أنصار هذه الدعوة .

– أتريد لشعبنا أن يصدر عفوا عاما عن المرحلة السابقة وأن يسقط موازين الحساب عن كل أولئك الذين أخطئوا أو أصابوا من غير أن يعرف شيئ عمن الذى أخطأ ومن الذى أصاب ؟ أترى مثالاً واحدا فى التاريخ لأمة منيت بهزيمة ماحقة كهزيمة عام ١٩٦٧ وتركتها بغير تحقيق أو مساءلة ؟

أجبنى يا رفيق ؛ فنحن اليوم نعبر السنة الحادية عشرة للهزيمة !

تقول الحكمة

من لم يتعظ بالنصيحة فليتعظ بالاعتبار ! . . فالعظة بالاعتبار ألصق بالمشاعر من العظة بالنصيحة ، ورفاقنا على كثرة ملاحظاتهم لم يستخلصوا العبرة من تجاربنا ، ولم يستوعبوا الدرس من واقعنا ، وقد ساقهم الجدل إلى حد العناد والمكابرة ؛ وضل بهم المنطق إلى غاية الزيف والمداورة . .

فهم لا يرون فى الهزيمة العربية سوى أخطاء عسكرية وزلة قيادة . ولا يجدون فى خراب مصر إلا ضرورة ثورة وحتمية مرحلة ! .

وهكذا لم يعد مجديا أن يمتد الحوار إلى نقاط جديدة ؛ فقد استبانت المواقف ؛ واتضحت النوايا . .

فالتجربة الناصرية ليس فيها ما يستدعى المؤاخذة ، ومسارها ليس فيه ما يستلزم التعديل !

وليس هذا موقف اليسار الماركسي وحده ، ولكنه أيضا موقف نفر من المصريين فرقهم بعد المشرب وجمعهم قرب المخبز . . فطفقوا يقذفون الحق بالباطل ، أو يتوسلون السلامة بالصمت ! وهذه المواقف لن تغير من واقع الأمر شيئا !

فنتائج الإدارة الناصرية ماثلة أمامنا وإن غابت الأسباب ، وآلامها تعيش بيننا وإن غمضت الدوافع ، وكلها تشير بإصبع الاتهام إلى نظام حكم وقيادة رجل .

نظام خلف وراءه أعظم المظالم الاجتماعية ، وأفدح الخسائر الاقتصادية ، وفوقها هزيمة عسكرية ماحقة فقدت مصر فيها المال والأرض والولد !

نظام كان من أسباب قيامه تحرير مصر والسودان ، فأذل مصر وأضاع السودان . .

نظام كان من أسباب قيامه استعادة الحق السليب لشعب فلسطين ومحو عار الهزيمة التى مُنيت بها الأمة العربية ضد جحافل الصهيونية عام ١٩٤٨ ، فإذا به يقود الأمة العربية إلى هزيمة أعظم يضيع فيها فوق ما أنقذه العرب من أرض فلسطين عام ١٩٤٨ أراضى واسعة لمصر والأردن وسورية !

نظام كان من أسباب قيامه توفير طاقات الأمة لمواجهة الخطر الصهيونى الذى يتهددها ، فإذا به يبددها بغير حساب على أرض اليمن !

نظام تسلَّم خزائن مصر دائنة بأربعمائة وخمسين مليونا من الجنيهات الإسترلينية وسلمها مدينة بعشرات المليارات من الجنيهات !

نظام تسلم الاقتصاد المصرى بقاعدة صناعية قوية وتجهيزات أساسية سليمة ، وسلمها بمصانع مستهلكة ، ومشروعات صناعية خاسرة ، واقتصاد زراعى مهلهل !

نظام أحال مصر إلى دولة موظفين يتسلط الحاكم على أرزاقهم ، ويتحكم فى

مصائرهم ، يعطى الوظيفة من يشاء ، ويمنع الوظيفة عمن يشاء !

نظام جعل شعاره حماية العامل والفلاح من مفاسد الإقطاع واستغلال رب العمل ، فإذا به ينتهى بالعامل والفلاح إلى إقطاع الدولة واستبداد الإدارة ، ويورثه فقرا على فقر ، وتخلفا على تخلف !

إن مصر على خلاف ما يرجف المرجفون – لم تهزم عسكريًّا إلا بعد ما هزمت سياسيا واقتصاديا واجتماعيا !

فالهزائم العسكرية الماحقة لا تصيب الأمم فى لحظات قوتها ومجدها ، وإنما تصيبها دائما فى لحظات ضعفها وتمزقها وانحلالها !

وهذا حال مصر قبيل هزيمة ١٩٦٧ لقد جاءتها الهزيمة العسكرية لتتوج الهزائم المتراكمة على كل مستويات حياتها ، لقد جاءتها كنتيجة طبيعية لكل تلك الجرائم والمفاسد والأخطاء التى توالت على رءوس أبنائها خلال عهد القيادة « التقدمية » الناصرية ومصر اليوم مازالت تئن تحت حطام الخرائب والأطلال التى خلفتها هذه القيادة ومازال شعبها يعانى الجهل بكل حقائقها وأسبابها !

ومصر اليوم تؤدى ثمن هذا الجهل من أمنها واستقرارها ، تؤديه قلقا وترقبا . . فالمتربصون بها أقوى من أن تلين لهم عريكة أو يهدأ لهم بال .

لقد حرك هذا الجهل كوامن التمرد على الحاضر ، وحنين الردة إلى الماضى ، وفتح دروبا طويلة لفلول اليسار وبقايا المنتفعين بالحكم السابق ؛ ليدخلوا منها إلى متاهات الكذب والمخادعة والتضليل ، فتعالت أصواتهم تسبح بأمجاد الماضى وتندد بمسارات الحاضر ؛ وانطلقت من خلفهم أصوات مخدوعة تردد ما رددوه باسم الناصرية والتقدمية والثورية !

ولاشك أن هؤلاء المخدوعين بالعهد السابق المطالبين بعودة نظمه وأساليبه قد بنوا

قناعتهم على أساس ما أتيح لهم أن يعرفوه من حقائق وعلى أساس ما سمح لهم أن يلمسوه من أدلة وبراهين .

ولكن يبقى دائماً فارق خطير بين ما عرفوه وتلمسوه وما يجب أن يعرفوه ويتلمسوه من حقائق ، هذا الفارق الخطير الذى أخل ولا شك بموازين الحكم والتقويم ليس مسئولية أصحاب هذه الأصوات ، ولكنه مسئولية كل أولئك الذين تستروا على حقيقة النظام السابق بالصمت أو بالتشويه !

هى مسئولية كل أولئك الذين تركوا الباب مواربا لا تدخل منه سوى أنصاف الحقائق دون الحقائق ، وأشباه الأسباب دون الأسباب ، هى مسئولية كل أولئك الذين حرفوا الكلام عن موضعه وقدموا الزيف للناس فى ثوب الحقيقة !

وهى مسئولية لا شك خطيرة ندفع ثمنها اليوم فى مقارنات خاطئة بين نظام ونظام ، مقارنات تستدر بكاء الماضى ، وتندب أطلال الحاضر . تصور الأمس فى حلم جميل واليوم فى كابوس مزعج !

ولو كان الكلام مباحا والتحقيق ممكنا . لسقطت الجدران . . وسطعت الحقائق ، ولعلم المضللون . كيف كانت تحكم مصر فى العهد السابق ، وكم كلفها هذا الحكم من المال والأرض والولد !

نعم لو كان الكلام مباحا . والتحقيق ممكنا لتغير الحكم واختلف التقويم !

فماذا يعرف أصحاب الصوت الرنين عن النظام السابق ؟

ماذا عرفوا عن سياسته الاقتصادية وتصرفاته المالية ؟

ماذا عرفوا عن سلوكه السياسى الداخلى وتصرفاته السياسية الخارجية ؟

ماذا عرفوا عن حقائق الانفصال السورى وماذا عرفوا عن كارثة حرب اليمن ؟

ماذا عرفوا عن أسباب هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ ؟ وماذا عرفوا عن أوضاع

الاقتصاد المصرى قبل وبعد الهزيمة ؟

لم يعرف هؤلاء ولا غيرهم كثيرا من الحقائق الغائبة إلا بعض مالمسوه باليد أو ما اكتشفوه بالمصادفة ! وهذا (البعض) قليل قليل إلى جانب ما يجب أن يعرفوه من حقائق خطيرة تهتز لها الضمائر ، ويخجل لذكرها التاريخ !

لو عرف هؤلاء كيف كانت تصاغ ميزانية الدولة ؟ وكيف كان يتم التصرف فى أبوابها وبنودها لأدركوا أن مالية مصر كلها فى العهد الفائت لم تكن أكثر من ميزانية العزب والتفاتيش التى يتصرف فيها أصحابها بغير رقيب أو حسيب ، وأن الكثير من بياناتها كان ممنوعا من التداول حتى بالنسبة لكبار المسئولين عن الشئون المالية أنفسهم ، وأن بعض الميزانيات الخاصة كانت تعد فى سرية تامة ، وتقدم إلى الحاكم فى أغلفة مغلقة لا يعلم الوزراء المختصون عنها شيئا وأن ديوان المحاسبة (ثم الجهاز المركزى للمحاسبات من بعد) لم تكن له أى رقابة فعلية على حسابات الدولة ، بل كانت مجرد سلطة ميتة تجردت من كل اختصاص رقابى على إيرادات الدولة ونفقاتها !

وعلى هؤلاء الناصريين الغيورين أن يسألوا أنفسهم : هل كانوا يعلمون شيئا عن حجم القروض التى استدانها العهد الفائت من العالم الخارجى قبيل عام ١٩٦٧ وعن الأوجه التى استهلكت فيها هذه القروض ؟

عليهم أن يسألوا أنفسهم : هل كان الحاكم قد استشار شعبه ولو مرة واحدة فى استدانة مبالغ هذه القروض قبل أن يقدم عليها ، ويلزم أجيالنا الحاضرة والقادمة سداد أصولها وفوائدها ؟

لقد مرت كل عمليات الاستدانة ابتداء من حجم القروض إلى فوائدها

وشروطها بغير استشارة أحد ! وغرق شعب مصر فى ديون لم يسهم فى إقرارها أو قرار شروطها .

لو عرف هؤلاء الناصريون الغيورون أن عهد تصنيع الإبرة والصاروخ لم يستطع تصنيع إبرة ولا صاروخ ، وأن القاعدة الصناعية التى وعد بها مصر قد ماتت قبل أن تولد ، وأن مصر فى العهد الفائت لم تشهد سوى تصنيع على الورق ، ومصانع مهلهلة استهلكت معظم تجهيزاتها المستوردة قبل أن تستكمل عمرها الافتراضى بوقت طويل !

لقد عاشت الصناعة المصرية طوال العهد الفائت على حساب الدفعة الماضية وشهد إنتاجنا الصناعى تدهورا فى الكم والنوع أدى إلى اختفاء السلعة المصرية من السوق الدولية وأصبحت منتجاتنا لا تجد تصريفا إلا عن طريق فرضها بسعر بخس فى المبادلات الثنائية وخاصة تلك التى كانت تربطنا بدول أوربا الشرقية ، وانتهت الصناعة المصرية على مشارف الهزيمة العسكرية إلى عبء اقتصادى على المجتمع ينفق عليها أكثر مما يكسب منها ! فلا صيانة لأجهزتها ، ولا استثمار فى فروعها ، ولا تنظيم وتدبير فى تسخيرها !

ولننظر إلى مرافقنا وتجهيزاتنا الأساسية فأحوالها واضحة للأعمى والبصير ، ولقد عاش العهد الفائت على المرافق والتجهيزات الأساسية الموروثة منذ عام ١٩٥٢ ! ولنسأل أنفسنا كم كيلو متر من السكك الحديدية قد أضيف إلى شبكات السكك الحديدية فى مصر منذ عام ١٩٥٢ ؟ وكم كيلو متر من الطرق قد عبد ؟ وكم من شبكات المياه والكهرباء والتليفون قد مدت ؟ وكم من الموانى والمطارات قد أنشئت ؟

لاشك أن ما أضيف من مرافق وتجهيزات جديدة يتضاءل أمام احتياجات

الزيادة السكانية وضرورات التنمية الاقتصادية وحتى تكتمل الصورة علينا أن نسأل عن سلوك الحكومة إزاء صيانة المرافق والتجهيزات الأساسية التى تسلمتها منذ عام ١٩٥٢ : ألم يكن لصيانة هذه المرافق بنود اتفاق دائمة فى الميزانية ؟ أين ذهبت إذن مخصصات الصيانة التى كانت ترصد فى الميزانية سنة بعد أخرى ؟ لقد أدى تضاؤل هذه المخصصات إلى انهيار المرافق وتدمير التجهيزات الأساسية الموروثة حتى انتهت إلى الأوضاع المزرية التى نراها اليوم !

ولنتوقف قليلا عند قطاع الخدمات ، لنرى ما استحدثه العهد الفائت فى هذا القطاع من وسائل الإدارة الحديثة وأساليب التجهيز الحديث ! فستكون الصدمة كبيرة عندما نكتشف بالوقائع والأرقام أن قطاع الخدمات فى مصر قد ظل جامدا على حاله منذ عام ١٩٥٢ ، وأن القيادة الحاكمة لم تتحرج مع ذلك من رفع شعار (من الإبرة إلى الصاروخ !) على أنقاض قطاع خدمات متهالك يعمل بمنطق القرن التاسع عشر !

كيف يتصور مثلا أن يظل تنظيم خدمات البنوك على الأسس العتيقة الموروثة من القرن الماضى ، وأن يبقى البنك الأهلى المصرى أعرق بنوك مصر والعالم العربى يتعامل فى حسابات المودعين على أساس « دفتر الأستاذ » الذى يستخدمه كتاب التفاتيش والملتزمون فى العهد المملوكى ؟ وكيف يعقل مثلا أن تظل خدمات البريد والبرق طوال العهد الفائت محكومة بنظم وأساليب القرن الماضى بغير تعديل أو تحديث ؟ ثم كيف يعقل بعد ذلك أن يصدقنا أحد عندما نقول : إننا نفجر الثورة الصناعية على أرضنا ونحن لا نملك من أساليب الخدمات العصرية ووسائل الاتصال العصرى سوى تلك الأساليب والوسائل المهلهلة التى ورثناها من عصر السلحفاة ؟ ألا يكفى مثالا غيبة نظام التليكس الذى يعتبر عصب الاتصال فى الاقتصاد الحديث والذى

لم يفكر العهد الفائت لحظة فى إدخاله إلى مصر . فى وقت أصبح فيه أداة الاتصال العادية فى الكثير من الدول العربية ؟

ومن الواجب أن نتساءل : أين كان العهد الفائت من كل ذلك ؟ وأين كانت أموال مصر !

ولماذا لم تظهر هذه الأموال على الأقل لصيانة المرافق والتجهيزات الأساسية ، كما ظهرت لتمويل الحملات العسكرية أو للإنفاق على أجهزة المخابرات السرية ؟

وإننى أسأل الناصريين الغيورين : هل كانوا على علم بحقيقة العهد الذى قال « ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستعباد ؟ » ولو علم هؤلاء كم كانت تساوى حرية الإنسان فى مصر ، وكم كان يساوى أمنه وماله – لارتعدوا خجلا. لما لحق آلاف المصريين من اعتقال وعسف وتشريد ! ولبكوا دما على جثمان العدالة التى أزهقها العهد الفائت من أجل سطوة الحكم ودعم السلطان !

ولو فتحت السجلات لتبين هؤلاء أن أكثر من ثمانين فى المائة من مثقفى مصر على اختلاف ألوانهم ومشاربهم كانوا نزلاء دائمين أو مؤقتين فى السجون والمعتقلات ، وأن أغلبهم قد عاش سنوات طويلة وراء القضبان بغير تحقيق أو محاكمة !

ولو فتحت الملفات لوعى هؤلاء كيف كانت تصادر أموال الأرامل والقصر والأبرياء بمجرد قرارات إدارية تحت اسم حراسة الأمن والطوارئ ؟ وكيف كانت تسند إدارتها إلى حفنة من لصوص ينهبونها باسم الشعب العامل والشعب العامل منها براء !

وعلى الناصريين الغيورين أن يسألوا أنفسهم : باسم من ارتكبت كل هذه الجرائم ؟

باسم الشعب ؟
من أجل حماية الشعب من أعداء الشعب !
إن كان ذلك فما معيار التمييز بين أحباء الشعب وأعداء الشعب ؟
ومن هو الحكم والفيصل بين هؤلاء وأولئك ؟
أليس هو الحاكم الفرد يميل مع الهوى خصما وحكما فى آن واحد ؟
ومن أجل من فرضت الحراسات ؟
أمن أجل الشعب العامل ؟
إذا كان ذلك فأرجو أن ترجعوا إلى ملف الحراسات ؛ لتعرفوا من المستفيد الحقيقى منها ؟ ويومها لن تجدوا من بين هؤلاء كادحاً واحداً !

ثم ماذا يعرف الناصريون الغيوريون من تفاصيل الانفصال المصرى السورى عام ١٩٦١ لعلهم لا يعرفون من أسبابه سوى ما روجه العهد الفائت من أنه ضربة غدر من الرجعية والاستعمار !

ولو أنهم تعمقوا النظر فى قضية الانفصال لتبينوا أن السياسية التى اتبعها ذلك العهد إزاء الوحدة هى المسئولة الأولى عن تدمير الوحدة !

لقد انتقلت دولة المخابرات إلى سورية ، وانتهى الحكم هناك كما كان هنا إلى فردية مطلقة يمارسها ممثل للحاكم بأمره فى دمشق ! وأقصيت القوى الوطنية التى أسهمت فى بناء الوحدة ليحتل مكانها المحاسيب والأنصار ! وتحولت سورية إلى قاعدة للتدمير والتآمر تزرع الخلف والأحقاد فى كل الدول العربية المحيطة بها !

ولتسألوا أهل سورية ولبنان كم من الملايين المصرية قد بعثرت لتدبير مؤامرة هنا أو إشعال حرب أهلية هناك ؟

اسألوا كم كان ثمن قنبلة فى منشأة ؟ وكم كان ثمن اغتيال سياسى فى مدينة ؟

فقوائم الأسعار كانت تمسك بها سفارتنا فى بيروت « وصندوق النقدية »بالعملة الصعبة كان تحت تصرف مخابراتنا هناك ؟

اسألوهم كم أضاع بلد فقير بماله فقير بإمكاناته من ملايين الملايين لفرض زعامة بالإرهاب فى وطن عربى يناهض زعامة الإرهاب !

اسألوهم ، واسألوا أنفسكم كم دفعنا ثمنا لهذه السياسة ؟ وكم كسبنا من ورائها ؟

لقد خسرنا مئات الملايين ، وخسرنا فوقها الصف العربى كله !

وأود أن أقف مع الناصريين الغيورين قليلا عند واقعتين : حرب اليمن . وهزيمة ١٩٦٧ وإن كنا قد أشرنا إليهما لماما فيما سبق :

لماذا ذهب جيشنا إلى اليمن ؟

ومن أذن بدفعه إلى الحرب هناك ؟

وهل استشير الشعب فى أمواله ودمائه قبل أن يبذلها رخيصة على أرض اليمن ؟

لا ـ لم يستشر أحد فى حملة اليمن بل لم يعلم شعبنا أن جيشه يخوض حربا فى اليمن إلا بعد أشهر من إرسال قواتنا إلى هناك ؟

ومن أجل من ظلت خيرة جيوشنا تقاتل على أرض اليمن خمس سنوات كاملة !

أمن أجل القومية العربية والاشتراكية العربية ؟

وماذا كسبت القومية العربية والاشتراكية العربية من استنزاف جيوشنا ومعداتنا على أرض اليمن ؟

ألم تخسر معركتنا الحقيقية فى مواجهة إسرائيل عندما كانت أقوى فرقنا المسلحة مشغولة بالحرب هناك ؟

هل كان من أولويات معركتنا القومية أن نترك العدو الإسرائيلى المتربص بنا

لنفتح جبهة عربية على بعد آلاف الأميال من فلسطين ؟

أمن الحنكة السياسية والفطنة العسكرية أن نقلب الأولويات فنقدم الأقل أهمية على الأكثر أهمية ؟

ألم نحاسب النظام الملكى السابق لأنه دفع بالبلاد فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ دون أن يكون جيشنا مستعدا لها ، ثم يأتى بعد ذلك من يدفع بجيشنا إلى حرب فى جنوبى الجزيرة العربية ، ويترك جبهتنا مع العـدو الإسرائيلى خالية من التجهيز والعتاد ؟

ثم كم كلفتنا حرب اليمن من المال والدماء ؟

لقد كلفتنا آلاف القتلى بالإضافة إلى أربعة آلاف مليون دولار نقدا وعدا !

هل تقدرون القيمة الحقيقية لأربعة آلاف مليون دولار بالنسبة لدولة نامية كمصر ؟ إن هذه الأربعة الآلاف مليون الدولار تكفى تمويل خطة إنمائية كاملة على امتداد خمس سنوات !

ولنتأمل طويلا هزيمة عام ١٩٦٧ تلك الهزيمة التى خسرنا فيها المال والأرض والولد ، وفوقها كرامة الأمة العربية بأسرها !

من الذى صنع قرار المواجهة مع إسرائيل عام ١٩٦٧ ؟ ومن الذى اشترك فى صنع هذا القرار ؟

نحن ؟ لا !

الدول العربية ؟ لا !

لقد فوجئ العالم العربى كله — ما عدا سورية — بقرار تركيز قواتنا فى سيناء ؛ كما فوجئ العالم العربى كله — ما عدا سورية — بالقرارات التالية التى حركت كل أسباب الحرب (قرار سحب البوليس الدولى ، قرار إغلاق خليج العقبة) ووضعت

مشروعيتها بين يدى إسرائيل .

ثم لماذا اتخذ النظام السابق قراره يوم ١٥ من مايو بتركيز قواتنا المسلحة فى سيناء ؟

وهل كان يقصد حقا خوض حرب شاملة ضد إسرائيل ؟ وإن كان يقصد ذلك فلماذا دفع بقطاعات كبيرة من الجيش إلى مصيدة سيناء وخيرة قواتنا الميكانكية الضاربة غائبة على أرض اليمن ؟ هل كان يعتقد هزيمة إسرائيل بغير جيش كامل العدة والعدد أوكان يحسبها مظاهرة عسكرية لمجرد المناورة والتهويش ؟

وإن كان القصد هو المناورة والتهويش فلماذا لم يبعث بقوة رمزية تجنبنا مخاطر المغامرة بدماء الآلاف من أبنائنا ؟

لاشك أن الناصريين الغيورين قد استمعوا إلى النظام السابق يقول : إن إسرائيل قد خدعته ، وبادرت بالهجوم من الغرب على حين كان فى انتظار منازلتها من الشرق أو أن الدول الكبرى قد خذلته عندما أقنعته بالعدول عن الهجوم ، وتركت إسرائيل تبادر بالهجوم . أو أن القيادة العسكرية قد خيبت ظنه عندما أوهمته بقدرة المواجهة فى المعركة ثم أساءت التصرف فى المعركة !

وأيا كان التبرير الرسمى للهزيمة . فإنه يبقى على الناصريين الغيورين سؤال واجب يمليه الضمير .

وهل كان النظام السابق يجهل تربص إسرائيل بنا ، ونوايا الولايات المتحدة تجاهنا . وقيام صدع فى صفوفنا ، ووجود ضعف فى تجهيز جيوشنا ؟

إن النظام السابق لم يكن يجهل أيا من هذه الحقائق فلماذا قدم رءوسنا طعمة سائغة لإسرائيل وحلفائها ؟ لماذا دفع بجيشنا إلى مصيدة سيناء بغير تجهيز ولا تدبير وخلق كل أسباب الحرب التى تذرعت بها إسرائيل ؟ لماذا وهب لها مجانا تلك

الفرصة التاريخية فى الإجهاز على قواتنا بضربة واحدة ؟

ولا أريد تجاوز هذا القدر من الأسئلة الحائرة التى تستحث العقل على التمهل قبل إصدار الأحكام واتخاذ المواقف ، ولكننى أضيف فقط القدر المتيقن من الخسائر المادية التى لحقت مصر وحدها من جراء هذا التصرف السياسى !

– ملياران ونصف المليار من الدولارات قيمة المعدات والأسلحة العسكرية التى فقدت فى المعركة !

– قطاع غزة بكل إمكاناته الاقتصادية والبشرية !

– أراضى سيناء كلها بما فيها من ثروات منجمية بالإضافة إلى آبار بترول كانت تكفى مجموع استهلاك مصر من هذه الطاقة !

– دخل قناة السويس بالعملة الأجنبية لمدة ثمانى سنوات !

– عشرة مليارات من الجنيهات كابدتها مصر من عام ١٩٦٧ إلى عام ١٩٧٣ لإعادة بناء الجيش من الصفر !

– عشرة مليارات من الجنيهات لتمويل حرب رمضان (١٩٧٣) قصد إزالة آثار الهزيمة .

– مليار ونصف المليار من الجنيهات سنويا تتحملها الميزانية المصرية حاليا لمواجهة الإنفاق العسكرى .

هذا القدر المتيقن من الخسائر يجب أن يقارن بإمكانات مصر المادية وقدرتها الاقتصادية ! وهذه المقارنة كفيلة بإبراز فداحة العبء المالى الذى سببته هزيمة عام ١٩٦٧ وفداحة الآثار الاقتصادية المترتبة عليه !

بقيت قضية الاشتراكية والمكاسب الاشتراكية التى قال الناصريون الغيورون : إن النظام الحالى قد انحرف عنها ، وخرج على أصولها !

وأسألهم : هل مصر قد شهدت حقا نظرية اشتراكية وعاشت حقا تطبيقا اشتراكيا ؟

وأستأذنهم فى الرجوع الى التاريخ القريب ؛ ففيه الكثير من عناصر الإجابة !

إن المبادئ الستة لثورة (٢٣ يوليو) وهى المبادئ التى اتخذها الثوريون دستورا دائما لهم لم يرد فى طياتها كلمة واحدة عن الاشتراكية ولم نسمع عن الاشتراكية إلا بعد قيام الثورة بخمس سنوات وبالتحديد فى المؤتمر التعاونى الذى عقد بالقاهرة عام ١٩٥٧ عندما أطلق « جمال عبد الناصر » شعار : اشتراكية — ديمقراطية — تعاونية ! ومن يومها لم يرد للاشتراكية ذكر لا فى الأقوال ولا فى الأعمال إلا صبيحة يوم (٢٣ يوليو) عام ١٩٦١ عندما أعلن النظام السابق فجأة عن القوانين الاشتراكية . ومن يومها دقت طبول الاشتراكية ، وسمعنا عن الاقتصاد الاشتراكى والمجتمع الاشتراكى والعدالة الاشتراكية ، والسلوك الاشتراكى إلخ !

والاشتراكية على حد علمنا لا يمكن أن تكون صنيعة فرد واحد يفكر فى أصولها بمعزل عن القواعد الشعبية العريضة ، ولكنها مسألة عقيدة وإيمان تنبع من ضمير الجماعة .

الاشتراكية على حد علمنا ليست مجرد سلعة نستوردها من الخارج ، ولكنها مسألة تربية وتعليم وتثقيف تنبت فى أرض الواقع !

الاشتراكية على حد علمنا ليست مجرد ثورة فى مواقع السلطة تبدأ وتنتهى بتوزيع رقع من الأرض الزراعية أو تأميم مشروعات صناعية . ولكنها نظام إنتاجى وسلوك حياة اجتماعية !

وفى كلمة : الاشتراكية لا تفرض بقرار جمهورى ، ولكن تفرضها الجماهير الواعية إن اقتنعت بجدواها ! ويوم تفرض الاشتراكية بقرار جمهورى لابد أن

تنتهى أيضا بقرار جمهورى !

إن من أكذب الأكاذيب أن يقال : إن العهد السابق قد اعتنق الاشتراكية أو عمل بأصولها ! إن العهد السابق لم يأخذ بالاشتراكية كمذهب اجتماعى ولكنه استخدمها كسلاح سياسى ، ولم تكن بين يديه سوى أداة تحكم فى الأرزاق وأداة قمع لضرب الخصوم . ودعم السلطان !

فمجتمع الكفاية الذى استهدفته انتهى إلى مجتمع العجز ، ومجتمع العدل الذى قصدته انتهى إلى مجتمع الفوارق !

أما المكاسب المقول بها - مكاسب العمال والفلاحين - فاترك لوزيرى الاقتصاد والمالية مهمة تحديدها ، فعليهما أن يبينا لنا متوسط الدخل الحقيقى لا النقدى للعامل والفلاح عام ١٩٦٧ بالقياس لخمس عشرة سنة خلت ، وعليهما أن يحددا ما كان يمكن أن تفعله مئات المليارات التى بددت فى النهوض بمستوى الإنتاج والارتفاع بمستوى الجماهير الكادحة !

عليهما أن يعملا القياس لا على النظام الملكى السابق ، ولكن على الإمكانات المتاحة للعهد الفائت أى على مجموع الموارد المالية التى توافرت لهذا العهد من إيرادات سيادية وقروض أجنبية خلال الفترة الممتدة من عام ١٩٥٢ إلى عام ١٩٧٠ ! هذه الموارد المتاحة يجب أن توضع فى مواجهة المنجزات المتحققة بعد أن نضيف إليها موارد أخرى لا نعرف أين ذهبت على وجه الدقة والتحديد ! عليهما أن يحددا لنا مثلا : أين ذهبت أموال الأسرة المالكة ؟ وأين ذهبت حقوق مصر المالية تجاه الخارج والتى تمثلت فى ٤٥٠ مليون جنيه إسترلينى قيمة الديون المستحقة لمصر على الخزانة البريطانية بسبب الحرب العالمية الثانية ؟ وأين ذهبت أموال الحراسة على الأجانب فى مصر عام ١٩٥٦ ، وأين ذهبت نسبة هامة من أموال الحراسة على

المصريين بعد عام ١٩٦١ ؟ .

عليهما أن يحددا لنا فوق ذلك : أين ذهبت أموال سلمت يدا بيد فى شكل معونات وهبات دون أن تمر على خزانة الدولة ؟

لقد وقف جمال عبد الناصر فى ٢٣ من يوليو عام ١٩٥٤ يندد بالعهد الملكى قائلا بالحرف الواحد :

« إن الفساد الذى استشرى فى الماضى قد جعلنا اليوم أقل قدرة على أداء الخدمات الضرورية لشعبنا ! لقد بذر العهد البائد مليونا ونصف المليون من الجنيهات لتجديد اليخت الملكى (المحروسة) ! ويجب أن نقف قليلا عند هذا الرقم لنتساءل إلى أى حد كان من الممكن استعمال هذا المبلغ فى سد حاجة البلاد من المدارس والمستشفيات التى تعوزنا فى ظل النظام الحالى » .

واذا كان عبد الناصر قد ارتاع لإنفاق مليون ونصف مليون جنيه على إصلاح اليخت الملكى المحروسة فمن حقنا أن نرتاع للنزيف الإنفاق الذى بدد مواردنا ، وموارد غيرنا من المعونات والقروض ! ومن حقنا أن نرتاع للنفقات الجسيمة التى بذلها العهد الفائت لتجديد اليخت الملكى نفسه بعد أن أطلق عليه اسم « الحرية » !

إن من حق ضمائرنا علينا ألا نجرى تقويم المنجزات التى حققها العهد الفائت فى المطلق ، ولكن بعد إجراء المقارنات مع التضحيات المالية التى كابدتها مصر فى سبيل تحقيقها ؛ فمقارنة التضحيات المبذولة بالنتائج المتحققة شرط أساسى لسلامة الحكم وصحة التقويم !

وبعد . .

فقد بقيت كلمة أخيرة أوجهها إلى من يستغلون جهل الأمة بحقيقة نظام ،

فالعبرة فى تقدير أى نظام سياسى ليست فى حسن نية قيادته ، ولكن بالنتائج الملموسة التى حققها هؤلاء القادة بالقياس للتضحيات المادية والمعنوية التى كابدها المجتمع . . !

العبرة فى السياسة ليست بالنوايا ، ولكن بالنتائج والمنجزات ؛ فالطريق إلى الجحيم محفوف بالنوايا الطيبة كما يقولون . والسياسة لا تعرف العواطف . . إنما تعرف فقط النتائج النهائية ، والمنجزات الصافية !

والعهد الذى تدافعون عنه قد مضى بعد أن أورثنا تركة مشحونة بالخسائر الجسيمة التى تتضاءل أمام فداحتها كل المنجزات :

– أورثنا خرابا اقتصاديا انطلق منذ الستينيات .

– أورثنا دماء غالية يبكيها كل بيت فى مصر !

– أورثنا احتلالا إسرائيليا لأراضينا يقترب اليوم من سنته الثانية عشرة !

– أورثنا دمارا أخلاقيا وتمزقا عربيا لم ندركه فى أى مرحلة سابقة من تاريخنا الحديث !

– إلخ ! . .

أين إذن المكاسب والمنجزات التى تعوض مصر كل هذا ، أو بعض هذا ؟

إن كل المكاسب والمنجزات التى حققها العهد الفائت لا تساوى فى النهاية قطرة دم واحدة أهدرت عام ١٩٦٧ على رمال سيناء ، ولا تساوى شبرا واحدا اغتصبه العدو الصهيونى من الأرض العربية !

هذه محصلة الإدارة السياسية لعهد « عبد الناصر » شهادة حقيقية يلمسها الأعمى قبل البصير ! وهى – إن كانت تثير خلافا فى أسبابها وجدلا حول دوافعها فإنها لا تثير خلافا فى نتائجها ولا جدلا حول آثارها .

فجسم الجريمة ماثل أمامنا ، شاخص إلينا !

فهل من منكر ؟

هل من منكر لضياع السودان ؟

هل من منكر لذهاب السيادة المصرية عن مضايق العقبة منذ أكتوبر عام ١٩٥٦ ؟

هل من منكر لضياع دماء غالية فى اليمن وفوقها أربعة آلاف مليون دولار ؟

هل من منكر لضياع فلسطين كلها بالإضافة إلى أرضٍ واسعة لمصر وسورية والأردن ؟

هل من منكر لضياع أكثر من عشرة آلاف مليون جنيه فى محاولة لزحزحة إسرائيل من الأراضى العربية التى تحتلها ؟

ثم هل من منكر أن النظام الذى كان يدعى حكم الشعب بالشعب لم يفكر يوماً واحداً فى استشارة الشعب ؟

* قرار توقيع المعاهد المصرية البريطانية عام ١٩٥٤ الذى أدى إلى انفصال السودان اتخذ ونفذ بغير استشارة الشعب !

- قرار تأميم قناة السويس اتخذ ونفذ بغير علم الشعب !

* قرار الوحدة المصرية السورية عام ١٩٥٧ اتخذ ونفذ بغير علم الشعب !

* قرار دخول حرب اليمن . اتخذ ونفذ بغير علم الشعب !

* قرار تأميم الصناعات والأنشطة الاقتصادية اتخذ ونفذ بغير علم الشعب !

* قرار إرسال قوات الجيش إلى سيناء فى مايو ١٩٦٧ ، وقرار سحب البوليس الدولى . وقرار إغلاق مضايق العقبة - كل تلك القرارات الخطيرة التى مهدت لهزيمة عام ١٩٦٧ اتخذت ونفذت بغير علم الشعب ، بل الأمة العربية

جمعاء – باستثناء البعث السورى الحاكم – شعوباً وحكومات !

وبعد كل الذى كان يسأل المرجفون عن أسباب الانهيار والتردى . ثم ينسبونها جملة إلى حساب الحاضر ! ويسأل الصامتون عن الأسباب نفسها . ثم ينسبونها جملة إلى حساب الماضى !

وبين حاضر المرجفين وماضى الصامتين تضيع الحقيقة . ومعها تضيع مصر !

ومصر الحقيقة موزعة الخطى بين حاضر ينوء بأثقال الماضى . وبين غد فى طى المجهول .

* * *

والذين يريدون بناء الغد بجهالة الأمس إنما يزرعون فى وادى العدم ، ويضيفون إلى ما ضاع من عمر الأمة ضياعا جديدا على مسار الزمن ، إنهم ينادون جيلا شب على رؤى الباطل ! ويستنهضون هما تصدع إيمانها فى غد أفضل ! ويستحثون عقولا توزع ولاؤها بين الدخيل من المذاهب والمستورد من البدع !

هم ينادرون جيلا ضائعا لا يدرى حقيقة أمسه ، ولا يعرف واقع حاضره ويطالبونه بالبناء فوق ماضٍ مجهول !

إن الحاضر جزء من الماضى ، والماضى هو ذاكرة الأمة ورصيد تجاربها .

والأمم لا تستأنف مسيرتها بذاكرة مفقودة ، ولا تبنى غدها بأمسٍ مجهول !

ومانزل بمصر من أحداث خلال ربع القرن الماضى ليس بحادثة سير يسيرة ، ولا هو بحلم مزعج ذهب وانقضى ، ولكنه سيل من النوازل والأعاصير التى خلفت بصماتها عميقة فى جسد الأمة ، وتركت خلفها الكثير من علامات الاستفهام التى تسأل جوابا ! والكثير من علامات التعجب التى تتطلب تفسيراً !

والكثير من دلائل الجريمة التى تقتضى تحقيقا وعقابا !

ومن حق الأمة بل من واجبها أن تسأل الحساب الشامل عن أحداث الماضى، وأن تطالب به مدعوما بالوثائق والأرقام ، فحساب الماضى ضرورة قومية تعلو على كل الضرورات ، وخطوة أولية تتقدم كل الخطوات !

ومع ذلك يقول المرجفون والصامتون لا تسألوا الماضى حسابا ، بل اسألوا المستقبل أملا وتفاولا !

وزعمهم أن الماضى قد انتهى ومات ووراوه فى مقابر التاريخ !

والماضى لم يدفن بعد !

بل مازال ماثلا أمامنا . .

ولكنه الماثل المجهول الذى لا نعرف عن حقيقته شيئا !

ولن يصبح الماضى تاريخا إلا بعد الوقوف على كل ملامحه والتعرف على كل أبعاده !

ويومها يصبح الماضى تجربة ندفن آلامها ونحفظ دروسها . .

ويقول المرجفون والصامتون : لا تسألوا الماضى عقابا ، فالله غفور رحيم ، وهم ينسون أن رحمة الله لا تنزل على من أسقطوا حدود الله وعاثوا فى الأرض فسادا !

ولله فى حدوده حكمة بها تنهض حياة الجماعة ، وتستقيم فى الأرض أمورها . ولولا موازين الجزاء والعقاب ماخرج الإنسان من حياة الغاب إلى حياة المجتمع المنظم ، وما كتب لجنسه البقاء على وجه الأرض !

وهذه الموازين لم تشرع عبثا ، ولكنها شرعت لحماية الإنسان من الإنسان ، ووقاية المجتمع من انحرافات نفر أو خطل جماعة !

وإذا كان القصاص واجباً على من قتل نفسا بغير حق أو سرق مالا بغير مسوغ فإنه أوجب على من ساس أمور الجماعة . . فأهلك أبناءها بغير طائل ، وابتز أموالها

بغير مبرر ، ويبذر مواردها بغير سند مشروع !

وهل من المنطق أن نحاكم العهد الملكى على دفع البلاد فى حرب فلسطين بغير أن تكون على استعداد لها ، ثم نغفل من دفع بالبلاد إلى حرب اليمن ، ومن ساقها إلى هزيمة عام ١٩٦٧ ؟

هل من المنطق أن نحاكم العهد الملكى على تبذير مليون ونصف المليون من الجنيهات على تجديد اليخت « المحروسة » ثم نغفل من بذر ما يفوق العشرين مليارا من الجنيهات فى مغامرات طائشة وحروب خائبة ؟

هل من المنطق أن نحاكم العهد الملكى على جرائم الفساد واستغلال النفوذ لبضعة ملايين من الجنيهات ، ثم نهمل من جعل الفساد قاعدة لحكمه والمحسوبية أساسا لنظامه ؟

هل يعقل أن نحاكم العهد الملكى عن جريمة قتل واحدة ، ثم نعفى من قتل الآلاف من الأبرياء ؟

إن على المرجفين والصامتين أن يعلموا أن أمجاد الأمم لا تبنى على ضلالة ، ولا تصنع من إحسان ومغفرة !

ويوم تختل الموازين ، وتسقط الروادع — يبقى الباب مفتوحا إلى معاودة الجرائم ، وتكرار الأخطاء ؛ ويظل المجتمع مهددا بمخاطر الردة محوطا بأسباب الانتكاس والتردى !

الديمقراطية أبداً

والآن . . .

كيف نقيم البناء والزيف فى كل مكان ؟ . . .

كيف نشيد المجتمع الأفضل ، مجتمع الخير والحرية ؟ . .

إن النفاذ إلى أعماق القضية ليس ميسور المنال . فزحام الشعارات يغطى كل الساحة .

وتهافت الأقلام الرفيقة يعكس الأدوار ويقلب المعانى . . .

ومع كل يوم تأتى ألوان من المصطلحات والتفسيرات . . .

ولم نعد نعرف أين الغيث ؟ وأين السمين ؟

الديمقراطية ذات المعنى الواحد الأصيل تعددت معانيها فى قواميسهم ، وأصبح أعتى الطواغيث لا يستحى من إلصاقها على أبواب حكمه .

الحرية : ذات المفهوم الدقيق تكاثرت مفاهيمها فى كتاباتهم ، وأضحى جهابذة المستبدين لا يتحرجون فى التلويح بإعلامها فوق رءوس الأشهاد .

التنمية الاقتصادية : تجاوزت حقيقتها كل التحديدات الفنية ، لتصبح ألعوبة فى أيدى الرفاق . وأفواه المناصرين !

وهكذا ضاعت المعانى فى محيط الألفاظ !

وغرقت المفاهيم فى بحر الشعارات !

ولم تعد تعرف أبيض الهديل من الغراب ولا أبلج الصباح من المساء ؟

وأصل الداء يرتد بنا إلى حكم الفرد . . . وركوب الرأى الواحد سياسة الأمة واحتكاره المطلق لكل السلطات . . والسلطة المطلقة مفسدة مطلقة تميل مع الهوى فى غيبة الرقابة وسقوط القانون . . .

وقد حاربت الإنسانية حكم الفرد منذ مولده . . . وجاءت الأديان السماوية لتستنكره وتدينه . . . وعكف الفلاسفة والمفكرون فى كل العصور والأزمان على مقاومته واقتراح الحلول الكفيلة بتجنب مخاطره . . .

وما زالت الإنسانية تعانى حتى اليوم أمراض الفردية السياسية . . وتجهد فى الخلاص منها إلى حكم الجماعة وسيادة القانون .

وكل إصلاح جذرى لابد أن يبدأ من هذه النقطة ، فنظام الحكم هو قمة القيادة فى الأمة . . . إذا صلح صلحت أمورها . . وإذا فسد فسدت أمورها . . .

وهذه القيادة يجب أن تنتهى إلى أيدى الأغلبية من خلال ديمقراطية حقيقية تتنافس فى إطارها الآراء ، وتسود فى ظلالها الحرية .

والديمقراطية ليست أفضل صور الحكم على الإطلاق . . ولكنها – ولا شك – أقلها ضرراً وأدناها خطراً على مصير الأمة . . فما تستوجبه من ضرورة الاحتكام إلى

الشعب واحترام إرادة الأغلبية ، وما تستلزمه من ضمانات الرقابة على أعمال السلطة التنفيذية ، وما تقره من حقوق المعارضة للأقلية ، وما تفرضه من حدود زمنية على ولاية الأغلبية - يجعل منها السبيل الوحيد لحكم الشعب بالشعب ، ويحول دون تحويل الحكم إلى تركة موروثة يستبد بها فرد ، أو تتناقلها جماعة . .

وإقرار الديمقراطية فى مصر بعد هذه المرحلة العصيبة يعتبر من أشق المهام . . وأشدها تعقيداً ودقة . . .

فقد دمرت المؤسسات السياسية . . . وسحقت المعارضة الدستورية . . . وغاب الرأى الآخر . . وأفرغت الساحة تماماً من رواد العمل السياسى . . .

والعودة إلى استئناف المسيرة الديمقراطية بعد هذا الانقطاع الطويل يقتضى الكثير من الجهد . . والكثير من الصبر . . والكثير من المعاناة . . والذين يحلمون ببناء ديمقراطية سياسية فى مصر بين يوم وليلة يسقطون فى وهم كبير . . .

فانقطاع التجربة الديمقراطية بعد عام ١٩٥٢ . . قد خلف فراغاً سياسياً خطيراً . . لا يمكن تداركه فى غمضة عين . . .

وبرغم هذه المصاعب والعقبات فإن بناء الديمقراطية فى مصر ليس بالأمر المستحيل .

فقد سقطت شعوب وأمم قبلنا فى قبضة الدكتاتورية . . وخرجت من التجربة مهزومة حسيرة . . ولكنها استطاعت أن تستجمع إرادتها وتلملم جراحها وتمضى قدما فى إعادة بنائها السياسى على أسس ديمقراطية سليمة .

لقد أسقطت اليونان حكم الفرد . . وعاودت طرق أبواب الديمقراطية من جديد . .

وهزمت إسبانيا الطغيان ، وخطت خطوات واسعة فى طريق الديمقراطية .

وتخلصت البرتغال من مرض دكتاتورى مزمن . . وانطلقت قدماً إلى آفاق الديمقراطية .

وليس صحيحا ما يدعيه بعضهم من وجود حتمية تاريخية تضع الشعوب الفقيرة تحت رحمة الدكتاتورية . . فالشعب الهندى استطاع أن يغرس بذور الديمقراطية . . وأن يمارس أصولها برغم العثرات والمصاعب . .

وأمامنا تجربة سقوط أنديرا غاندى من سدة الحكم ، ورضوخها للإرادة الشعبية فى الانتخابات العامة الأخيرة . . تحمل الدليل على فساد هذا الادعاء .

والحق أن الممارسة الديمقراطية لم تبدأ أبداً قوية عملاقة ، ولكنها بدأت دائماً متعثرة بطيئة .

والدول العريقة فى الديمقراطية كإنجلترا وفرنسا والسويد وغيرها . مرت كلها بأزمات ومصاعب عندما أخذت طريقها لأول مرة إلى الممارسة الديمقراطية ، ولكنها استطاعت بالجهد والإرادة أن تصحح من أخطاء التطبيق ، وأن تتخطى عقبات الممارسة الأولى ، وتمضى قدماً فى طريق استكمال البناء الديمقراطى .

والذين يتذرعون بصعوبة الممارسة الديمقراطية فى مصر عليهم أن يفهموا بان نجاح الديمقراطية — شأنها شأن أى مذهب سياسى أو اجتماعى — رهين بالإيمان بمبادئها والتفهم لأصولها . والوعى بضرورتها ولزومها كسبيل وحيد لتصحيح الانحراف وتأمين المسيرة ، فقضية الديمقراطية ليست قضية حروف ميتة تصاغ فى دساتير أو تفرغ فى مواثيق ، ولكنها قضية مبادىء حية تعيش فى القلوب والعقول .

ومن هنا تبرز الحاجة الأولية إلى تعليم الديمقراطية ، وتربية الأجيال القادمة على قيمها ومبادئها ، وهذا التعليم والتربية يجب أن يكونا مقرونين بالتثقيف الديمقراطى الواسع الذى يضع مبادئ الديمقراطية وفلسفتها فى متناول الجميع .

وإذا كانت التربية والتعليم والتثقيف ضرورة أساسية فى بناء الديمقراطية ، فإنها ضرورة أوجب فى بلد انقلبت فيه المفاهيم ، وانتكست فيه المبادىء حتى أصبحت عبادة الفرد قيمة سامية تنافس عبادة الله ! ! .

ولا شك أن تبديد ما استقر فى الأذهان من خطل . . وما عم الأفئدة من ضلال يستلزم الجهد المكثف . . والصبر الطويل . . . واليقظة الكاملة . . فجراثيم الفردية ما زالت تعيش بيننا . . . والحنين إلى عبادة الأصنام ما زال يتربص بنا .

وقد حان لشعبنا أن يبدد أسطورة البطل المنقذ الذى يسوس فلا يخطئ ، ويحكم فلا يظلم ، ويقود فلا يهزم . هذه الأسطورة العتيقة التى داعبت أحلام السذج والبسطاء من أبناء شعبنا لا جود لها فى عالم اليوم ، ولا مكان لها فى التاريخ إلا فى أحلام فلاسفة الإغريق الذين نادوا بمدينة فاضلة قيادها لفيلسوف حكيم .

وأسطورة الرجل المعجزة كثيراً ما تجد سبيلها إلى الظهور خلال دورات الضعف والانهيار التى تعترى مسيرة الأمم ، فتتطلع الجموع اليائسة إلى رجل معجزة يأخذ بيدها من موارد التهلكة إلى بر الأمان . . وكثيراً ما تصنع الظروف معجزة كاذبة ، فتسوق إلى السلطة رجلا لا يلبث أن يسوق السلطة إليه ، ويصادرها لحسابه . . ثم يذهب عن السلطة بعد أن يكون قد ذهب بشعبه إلى موارد التهلكة والضياع .

والرجل المعجزة لا وجود له فى عالم الحقيقة ، إنما هو صنيعة عجز الشعوب عن سياسة أمورها ، ووليد ضعفها عن قيادة نفسها بنفسها . .

ويوم تدرك الشعوب حقيقة الحكم . يوم تدرك أن قيادة الأمة أكبر من أن تدار بعقل واحد . وأن سياسة الأمة أعظم من أن تنهض على الرأى الواحد ، وأن مصير الأمة أخطر من أن ينفرد به رجل واحد — يوم تدرك الشعوب كل الحقيقة فسوف تسقط أسطورة الرجل المعجزة ، ويعودها الوعى بضرورة حكم نفسها بنفسها .

وبناء الديمقراطية فى مصر يجب أن ينطلق من البيت والمدرسة والشارع ، يجب أن ينطلق من تغيير شامل لبرامج التربية والتعليم والثقافة . . ليغرس الفكرة الديمقراطية وبعمق مبادئها ، ويلقن الطفل من مراحله الأولى شجاعة الرأى وحرية المجادلة ، ويدربه على احترام الرأى الآخر ، والرضوخ لإرادة الأغلبية .

وبرامج التربية والتعليم والثقافة المتداولة اليوم هى المسئولة الاولى عن الصعاب التى يواجهها التطبيق الديمقراطى فى مصر ، وقد بنيت على أساس عبادة الفرد ، وتقديس الاستبداد ، وإذكاء للأحقاد ، وتشويه القيم الديمقراطية — وكان من نتاجها تلك الآراء الخاطئة التى استشرت فى أوساط شبابنا عن مضمون الديمقراطية ، والتى ترفض كل محاولة تستهدف الخروج من حكم الفرد إلى حكم الشعب . .

وقد عانت مصر من شعارات ومصطلحات لم يتعد أكثرها دائرة اللفظ الزائد ، استخدمها العهد الفائت لتبرير سلوكه السياسى ، فتحولت من كثرة الترديد والتداول إلى مبادئ سامية وأسس دستورية لا يجوز المساس بها أو التطاول عليها .

وتتسرب هذه الشعارات والمصطلحات إلى واقع حياتنا الجديدة . . وتسيطر على بعض النزاعات لتصنع منها قيوداً ملزمة ، تحاول بها تكبيل حق تكوين الأحزاب السياسية فى مصر ، بل تكبيل الديمقراطية كلها !! .

وأخطر هذه القيود على الإطلاق مفهوم الحتمية التاريخية الذى حاول البعض إقحامه على الاشتراكية العربية وربطه بالأسس المذهبية التى تنهض عليها . . . بيما يدلل الواقع على بعد الشقه وفساد النسب بين مفهوم الحتمية ومفهوم الاشتراكية .

وإذا كان من المفهوم أن يؤمن بعض الناس بالاشتراكية كمذهب اجتماعى فانه من غير المفهوم أن يفرض هذا الإيمان عنوة على الأمة بكافة مللها ونحلها ، وتكره جميع طوائفها ونزعاتها على الالتزام بحتمية الحلول التى تقدمها .

وإذا أردنا أن نسمى الأشياء بمسمياتها وأن نحدد مضمونها العلمى الدقيق بعيداً عن المضاربات الفكرية والتفسيرات العشوائية فإن علينا أن نقرر بأن الحتمية هذه قد أقحمت إقحاماً على الاشتراكية العربية ، وألصقت بها من غير أن يكون لها نسب مشروع إلى الأسس الفكرية التى تقوم عليها .

والحتمية فى أصولها الأولى فكرة ماركسية ، وجدت سندها فى المادية الجدلية ، وتقوم فى جوهرها على التسليم بتطور المجتمعات وفقا لمراحل تاريخية حتمية تؤدى كل منها إلى التى تليها فى التركيب ، حتى ندرك فى النهاية مجتمع الشيوعية حيث تختفى الطبقات وتسقط الدولة .

والإنسان أمام هذا التطور الحتمى لا حول له ولا طول ، إنما هو مفروض عليه فرضاً كقدر أخرق لا يدفع . فعلاقات الانتاج المادية هى المحرك الأوحد لمسيرة التاريخ وهى الموجه الأوحد لمسارها نحو غد معلوم .

والحتمية التاريخية تمثل قمة الفكر الراديكالى الماركسى الذى انحسر اليوم أمام ممارسات التطبيق .

وقد ظلت هذه الحتمية مسيطرة على أذهان القيادات الشيوعية فى العالم إلى أن ألتقى الفكر الماركسى بتجربة التطبيق . . فبدا عاجزاً عن تفسير واقع المجتمعات التى تهيأت للأخذ به ، قاصراً عن دفع مسارها نحو الغد الشيوعى الأفضل .

وكان لينين أول من وعى هذه الحقيقة فأعلن بعد قيام الثورة البلشفية بسنوات أربع أن شروط التحول إلى المجتمع الشيوعى لم تتحقق بعد فى روسيا ، وأن عليه تحقيقها بوسائل صناعية . فأقام نظام رأسمالية الدولة ليخرج بروسيا من أعماق التخلف الذى كان يعصف بها . ثم جاء ستالين ليتابع المسيرة منتهجاً أسلوب التخطيط الشامل فى تسيير اقتصاد الدولة ثم خلفه خروشوف ليدخل الكثير من

التعديلات على الحلول التى انتهجها لينين وستالين. وهكذا واجهت روسيا مشكلاتها العاجلة بحلول من عندها ، ورسمت صورة جديدة لمجتمعها تختلف اختلافاً بيناً عن تلك الصورة التى رسمها ماركس وتنبأ بحتمية قيامها.

وكما اتخذ المجتمع السوفيتى مساراً آخر غير ذلك المسار الحتمى الذى أعلنته الماركسية فقد سلكت كثير من دول أوروبا الشرقية بدورها مسالك جديدة ، خرجت بها من دائرة الحتم إلى دائرة الإمكان.

ولم تمر الصين من خلال مجتمعها الزراعى بالحتمية التاريخية المعقول بها ، بل سلكت طريقاً جديداً يتلاءم وواقعها ويستجيب لتراثها.. وهى تواجه اليوم الكثير من الممكنات فى مسيرتها إلى الأفضل.

والدول الرأسمالية بدورها لم تسلك خط التطور الحتمى الذى زعمه ماركس فلم تسقط النظم الرأسمالية فى أى منها كما استوجبت ذلك الحتمية التاريخية ، بل واجهت أزماتها بممكنات عدة وبدائل كثيرة.. وتمكنت من تعديل مسارها وتغيير اتجاهها إلى أشكال اجتماعية جديدة..

وإذا كانت المجتمعات الصناعية بشرقها وغربها قد سلكت فى تطبيقها للاشتراكية طريق الممكنات فإن بعض دول العالم المتخلف قد جمدت عند حدود الحتميات ، وطفقت تسأل الاشتراكية حلا لمشاكلها فظلت كل مشاكلها حتى اليوم بغير حل !.

ولعل أهم أسباب الجمود الذى أصاب هذه الدول هو ذلك الانقطاع الخطير بين الفكر والواقع ، بين الفكر وتطبيق الفكر.

وهذا الانقطاع مردود فى أساسه إلى أسلوب التطبيق ، فقد فرضت المذاهب الاشتراكية فى كل هذه الدول من قمة هرم السلطة بغير أن يكون للقواعد الشعبية

العريضة قدرة على استيعاب مبادئها . . وتفهم أصولها . . وإبداء الرأى فى جدواها . . . ومن هنا انتفى كل تفاعل بين الفكر والواقع ، وسدت أمامها ممكنات الرؤية البديلة .

وأمام خطورة القضية أجدنى مضطرا للرجوع إلى واقع التطبيق الاشتراكى فى مصر ، والظروف التى لابسته ، فهى خير معين فى نظرنا على بحث سند شرعية الاشتراكية ، وسند شرعية حتميتها الذى يريد بعض الناس أن يجعل منه مبدأ عاماً وقيدا مطلقا على حرية الحياة السياسية فى مصر .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن المبادئ الستة لثورة ٢٣ يوليو لم ترد فى طياتها إشارة واحدة للاشتراكية وهى المبادئ التى اتخذها رجال الثورة دستوراً دائماً لهم .

وإذا كانت القيادات السياسية قد عمدت فى ذلك الحين إلى تقنين سلوكها بتبنى الاشتراكية فى ميثاق العمل الوطنى الذى صيغ عام ١٩٦٢ ، فإنها قد سقطت فى تناقض خطير عندما تبنت فى الميثاق مبدأ حتمية الحل الاشتراكى . .

فالاشتراكية العربية كما يقول صاحبها – لا تؤمن بالمادية الجدلية ولا تثق بصراع الطبقات ولا تقبل بمجتمع الشيوعية . . وحتمية الحل الاشتراكى تعنى كل ذلك . . فكيف يستقيم الجمع بين المعنيين ؟ ! !

الواقع أنه يستحيل التوفيق بين المذهب والمصطلح . . بين الاشتراكية العربية وحتمية الحل الاشتراكى إلا إذا كان واضعو الميثاق قد تصوروا لحتمية الحل الاشتراكى معنى آخر غير المعنى العلمى الدقيق الذى قصدته النظرية الماركسية . .

إن الحل الاشتراكى ليس فى الواقع سوى أحد الحلول الكثيرة التى يمكنها مواجهة مشكلة البناء الاقتصادى والاجتماعى فى مصر . . وإذا كانت ثمة مكاسب يمكن أن يحققها للعامل والفلاح . . فهذه المكاسب ليست وقفاً عليها وحدها ،

وليست رهينة بها وحدها . فقد حققت حلول أخرى الكثير من المكاسب للفئات الكادحة وأتاحت للعامل والفلاح فرصاً حقيقية للتقدم والرخاء .

ولا يخامرنا شك فى أن بعض الاتجاهات فى مصر تؤمن بالاشتراكية كمذهب اجتماعى وتثق بحتميتها كحل نهائى . . ولا ينكر عليها أحد هذا الإيمان . . فلها أن تؤمن بما تشاء . . فهذا حقها . . وتلك قناعتها . . ولكن عليها أيضاً أن تترك لغيرها فرصة الإيمان بغيرها من المذاهب . . وفرصة البحث عن غيرها من الحلول . . عليها أن تترك طريق الممكنات مفتوحاً لكل التيارات السياسية فى مصر . فلا تسده فى وجهها بقيد ثقيل يعدمها حرية الاختيار . . ويحرمها حرية التفكير ويسلبها حرية الحركة .

لقد سقطت الحتميات أمام ضراوه التجربة . . ولم يعد لها وجود فعلى سوى فى بطون الأدب الماركسى .

ونحن اليوم نستقبل عصر الممكنات ، وعصر الممكنات لا يفرض على مجتمع من البداية حلا معيناً للارتقاء إلى الأفضل . . ولا يكبله بوسائل محددة للصعود إلى الأعلى ، إنما يضع أمامه حلولا متعددة ، ونماذج متعددة تنبع من تباين المجتمعات ، وتباين ظروفها الهيكلية . .

هناك فى الواقع حلول كثيرة ونماذج عدة يمكن أن يخرج بها كل مجتمع إذا ما أعمل اجتهاده ونبش تراثه وأحاط بواقعه .

أما الإيمان بحتمية حل دون حل فإلى جانب ما يتضمنه من وصاية على الفكر فإنه يفرض حجراً على الواقع ، ويجمد المسيرة الاجتماعية عند خط معين لا تخرج عنه ولا تحيد .

لنبن إنساناً

وفى الظلمات قبس من ضوء يلمع من بعيد . . .

تكاد لا تحجبه الآلام المتراكمة . . . والنوازل المتراحمة . . .

يرسم على البعد طريق الأمل . . ويعين على القرب سبيل العمل . . .

هو بقية باقية من الإنسان المصرى مازالت تئن بالحياة . . . ولكنها كبقية لهب متقد وسط نار تخبو . . . تنتظر من ينفخ فى صورها بريح من عنده . . .

وفى ضمير كل منا تعيش هذه البقية . . .

ترفض ما كان من أمسنا . . .

وتترقب ما يكون من غدنا . . .

وبين الرفض والترقب ينهض اليأس سدًّا دون الإرادة . . .

واليأس لا يصنع شعبًا ؛ إنما يقتله . . .

ومن حكم الله أن جعل من بعض الأدواء دواء . .

وما أصاب مصركم من نكبات ومحن – كتاب مفتوح يروى قصة الحق ، وقصة الباطل . . . وكل رمز فيه منار ضوء يلهم الصواب . . . ونذير خطر يجذب العاقبة . . وباستقراء رموزه يتحول الماضى إلى تجربة نافعة . .

وتجارب الأمم عدتها وزادها فى بناء المستقبل .

ليس بالتشريع وحده يجرى الإصلاح والتغيير . فالتقنين والتنظيم والتخطيط إن هى إلا مناهج ومسارات أنيط بالإنسان تطبيقها . . فإذا لم تحفظها الصدور وتعها العقول وتؤمن بجدواها القلوب – ظلت حروفا ميتة لا يتعدى أثرها مجموعة خطوط على الورق . . !

والإصلاح الدستورى وحده لن يمنع من أن يداس الدستور بالأقدام . . ولا أن تنتهك حرمته . . أو تعطل نصوصه . .

والإصلاح الاقتصادى وحده لن يمنع من السقوط فى مهاوى الإفلاس والانهيار . . . ولا أن تحيد المسيرة الاقتصادية عن أهدافها أو تتنكب طريقها المرسوم .

والإصلاح الاجتماعى وحده لن يمنع من استمرار مجتمع الغاب . . ولا أن يقهر القوى الضعيف أو يستغله ويستذله .

إنما الذى يمنع من كل ذلك ، ويضمن للإصلاح نجاحا وتوثقاً ورسوخا هو الإنسان الحر فى عقيدته . . المالك لمشيئته . . . العاقل لحقيقته .

هو الإنسان المؤمن بوجوب الإصلاح . . المستوعب لفلسفته . . المدرك لأساليبه . . هو الإنسان الذى يصبر من جوع . . ويصبر من جهل . . ويصبر من مرض من أجل غد أفضل .

ومصر اليوم بحاجة لهذا الإنسان الجديد . . ولعل بناءه وإعداده يعتبر من أخطر ما يواجه مصر من أعباء البناء !

فما لحق بمصر من مخاسر الطغيان يتجاوز بكثير مجرد الدمار المادى . . . ولو أن خسائر مصر فى ملايين المليارات – لهان الأمر . ولأصبح الطريق إلى الإصلاح سهلاً ومأموناً .

ولكن يد الدكتاتورية امتدت إلى داخل الإنسان المصرى لتدمر فيما تدمر قيمه التراثية ومقوماته المعنوية وترده مسخاً ضال العقيدة سقيم البنيان !

فقد عمدت الدكتاتورية الحالمة بنسخ الماضى وإرساء الجديد إلى ركوب الموجة الاشتراكية التى عمت العالم الثالث . . فاستوردت مبادئها فى قوالب جاهزة وتفننت فى فرضها بالسيف والقلم . . وكان لها من الفقر الموروث حليف ، ومن الأحقاد الكامنة مؤزر ونصير . . . ! فطفقت تضرب الناس بعضهم ببعض باسم القيم الجديدة . . . وتذكى الأحقاد باسم التحول إلى المجتمع الاشتراكى !

وكان لها من رءوس الشر وذيوله جيوش التفت حولها ./. وزينت لها ضرورة السطو على العقول الشابة . . والاستيلاء على القلوب المريضة . . . من خلال أبواق الدعاية وبرامج التوعية والتوجيه . . فزيف التاريخ ؛ ليقول باطلاً فى أعظم رجالات مصر . . ولينطق كفراً فى أقدس أحداثها !

وشوهت برامج التربية والتعليم ؛ لتهذى بعبادة الحاكم . . وتزجى المدائح والأناشيد لأقواله وأفعاله !

وضربت القيم الدينية فى عقر دارها ، وفتحت الأبواب على موجات الإلحاد والزندقة ، وأسهمت أدوات القمع بنصيب موفور فى تخريب الذمم وإفساد الضمائر ، وركبت إلى أغراضها سبل الإغراء والتهديد والفتك . . فأصبح الجهر

بالرأى خيانة ! والانصراف عن تمجيد الحاكم جريمة !

وانتهى التجسس والوشاية إلى قيم سامية يتهافت عليها من فى قلوبهم مرض . . والنفاق والكذب بضاعة رائجة يتسابق إليها من ينشد التسلل إلى أبهة الحكم وسطوة السلطان !

وهكذا انقلبت معايير الارتقاء فى المجتمع ، وحل أهل الثقة محل أهل الكفاءة ، وأصبح توزيع الأرزاق والمناصب رهيناً بالعمالة لأجهزة الحاكم ، وشرطاً للترقى إلى المناصب العليا فى الدولة ! .

وكانت محنة هؤلاء الذين لم يستطيعوا مسايرة تلك القيم الجديدة من الكفاءات الشابة وأهل العلم . . . ولم يجدوا بدًّا من الانزواء فى الداخل أو الهجرة إلى الخارج طلباً لعيش كريم افتقدوه فى وطنهم !

إن الشعوب ، كل الشعوب ، تستطيع دائماً النهوض من كارثة مادية . . . وتستطيع دائما رفع الأنقاض والخرائب ومعاودة الانطلاق من جديد فى أقصر الأزمان . .

أما الدمار المعنوى فلا سبيل إلى إصلاحه بإعانات مالية . . ولا وجه لتعويضه بقروض خارجية ، إنما يقتضى علاجه جهداً فكريًّا وجهاداً روحيًّا لا توفره المادة بقدر ما توفره إرادة الأمة وملكاتها . . .

وهذه مسئولية الصفوة من رجالات الفكر والفن والدين . . فهى مصدر الزاد الفكرى والروحى الذى يغذى عقل الأمة وروحها وهى مسئولية خطيرة فى ظروف مصر الراهنة ، والنهوض بأعبائها لا يقتضى فقط وجود الصفوة العريضة المؤهلة فكريًّا وفنيًّا ودينيًّا ، إنما يقتضى فوق كل ذلك أن تكون الصفوة قادرة على تحمل

مسئولياتها القيادية . . قادرة على تحمل التضحيات الجسام التى تفرضها هذه المسئوليات . .

وقد كان فى مصر صفوة من رجالات الفكر والفن والدين يوم تنكبت طريقها إلى حكم الفرد . . ويوم جنحت بكل أثقالها إلى مهاوى التردى والضياع . . وكان من بينها نفر ساند الحاكم ، وجعل من نفسه عقله وقلبه وعصاه !

ويوم يكتب التاريخ سيقول : إن هذه الصفوة المساندة هى التى حولت القمع والإرهاب إلى شرعية ثورية . .

وهى التى حولت عبث الدكتاتورية بحقوق الشعب إلى فلسفة تاريخية . . وهى التى حولت الهزائم والنكبات إلى مكاسب وانتصارات !

سيقول التاريخ : إن هذه الصفوة المساندة هى التى بايعت الطغيان باسم الدين وحللت حرامه لهوى الحاكم !

سيقول التاريخ : إن هذه الصفوة المساندة صنعت من الكلمة الزائفة والخبر الكاذب بضاعة لتشويه العقول وتضليل الوجدان ؟

سيقول التاريخ : إن هذه الصفوة المساندة هى التى أطربت الطغيان برخيص من الشعر وتافه الغناء ؟

سيقول التاريخ : كلاماً كثيراً هو أبعد اليوم عن كل تصديق !

سيقول : إن هذه الصفوة المساندة لم تقف وقفة معارضة واحدة من أجل مصر ، ولكنها وقفت طويلاً أمام القلة العالمة من رجالات الفكر والفن والدين الذين رفضوا الطغيان وقاوموه ، وانبرت لقتالهم بالقلم المسموم والكلمة الزائفة . . وتسابقت فى الإيقاع بهم عند الحاكم والتمكين لسيفه من رقابهم !

هذه الصفوة المساندة التى تحالفت هى والطغيان على نكبة مصر هى التى تدعى

العمل للحرية بنفس الحماس الذى عملت به للدكتاتورية ، وهى التى تزعم التغنى بالانفتاح بنفس القوة التى تغنت بها للانغلاق ! . وهى التى تلعن اليوم حكم عبد الناصر . . بالحيوية التى رقصت بها نفسها يوم عدل عبد الناصر عن استقالته !

هذه الصفوة المساندة أسهمت بنصيب وافر فى تخريب العقول وإفساد الضمائر ، وشاركت الحاكم فى هدم الجليل من القيم وتخريب النافع من أنماط السلوك التى ميزت الذات المصرية عبر تاريخها العريق !

هذه الصفوة المساندة لم تعدم الوسائل لتبرير سلوكها والتنصل من مسئوليتها . . فانبرت شراذمها تلتمس العذر بالخوف من بطش الحاكم . . والحاكم لم ينقلب بطاشاً إلا بفضلها . . ولم يتماد فى الطغيان إلا بتواطئها وخنوعها . . . ولو أنها تمسكت برسالتها . . . وتصدت لمسئوليتها ما كان لبذور الطغيان أن تنمو ، وما كان لدولته أن تستتب !

ومواجهة بناء الذات المصرية يقتضى أولاً وجود الصفوة النقية المخلصة التى تملك شجاعة الكلمة قبل أن تملك براعة الكلمة . . والتى تملك قدرة العطاء قبل أن تملك عناصر العطاء . . . فلا حاجة بمصر لصفوة عاطلة ترهب المواجهة مخافة البطش . . . وتؤثر المهادنة ثمناً للسلامة بقدر ما هى بحاجة إلى صفوة عاملة تعى جسامة مسئوليتها ، وتدرك عظم دورها فى بناء ما تهدم من صرح الإنسان المصرى وما انهار من معنوياته !

ولا شك فى أن إقرار الديمقراطية وإصلاح أداة الحكم يتيح للصفوة العاملة آفاقاً واسعة للعمل الخلاق من أجل تقويم ما اعوج من عقل الأمة وما فسد من ضميرها .

وأول خطوات الإصلاح هو المسارعة إلى رأب ما تصدع من أركان الدين . . وعلاج ما انحرف من مناهجه . . فالدين هو ضمير الأمة ومناط سلوكها . . . وهو القوة الضابطة لنوازعها وأهوائها . . . وهو القدرة الدافعة لجهودها وجهادها : فليس بالعلوم والفنون والصنائع فقط يحيا الإنسان ، ويتقدم جنسه إن لم تكن له قوة تدفع به دائماً إلى الأمام وتحركه دائما نحو الأصلح . .

فالأمم لا تنهض فقط بهذه الأسباب : فالعلوم والفنون والصنائع إن استطاعت ابتكار الآلات وبناء المصانع وإشاعة العمران – فإنها لن تستطيع حمل العامل على الجد فى عمله والإخلاص فى أدائه . ولن تستطيع منع الموظف من الإهمال فى وظيفته والعبث بالمصلحة العامة . ولن تستطيع ردع المسئول عن استغلال نفوذه والميل إلى هواه !

ولن تستطيع كل هذه الأسباب منع المجتمع من استهلاك طاقته المادية والمعنوية فى الشهوات والرذائل . . وتبديد موارده فى المغامرة والتدمير ، ولن يعصم قادته من السقوط فى مهاوى الطغيان والانزلاق إلى خيانة الأمانة . . . وبيع الأوطان تحت الإغراء أو الوعيد !

من أجل ذلك كله لن يجد المجتمع فى العلم والمال وحدهما عوامل استمراره وازدهاره ؛ إنما ضمان البقاء والاستمرار والازدهار فيما يتوافر للمجتمع من روابط روحية وما يستقر فى أعماقه من قيم خلقية وما يلتزم به من أنماط سلوكية ، وهذه رسالة الأديان فى كل زمان ومكان : فالدين كما يحدثنا المغفور له مصطفى صادق الرافعى :

« هو حقيقة الخلق الاجتماعى فى الأمة ، وهو الذى يجعل القلوب كلها طبقة واحدة على اختلاف المظاهر الاجتماعية عالية ونازلة وما بينهما ، فهو بذلك الضمير

القانونى للشعب ، وبه لا بغيره ثبات الأمة على فضائلها النفسية . وفيه لا فى سواه معنى إنسانية القلب » .

« ولولا التدين بالشريعة ، ما استقامت الطاعة للقانون فى النفس ، ولولا الطاعة النفسية للقوانين ، ما انتظمت أمة ؛ فليس عمل الدين إلا تحديد مكان الحى فى فضائل الحياة وتعيين تبعته فى حقوقها وواجباتها . وجعل ذلك كله نظاما مستقرًّا فيه لا يتغير . ودفع الإنسان بهذا النظام نحو الأكمل . . . ودائماً نحو الأكمل » .

وتصحيح الوعى الدينى ينتقل بنا إلى قضية الدعوة والدعاة . . وهى القضية التى مازالت تشغل مكان المؤخرة فى نشاط المحافل والهيئات الإسلامية .

فمناهج الدعوة الإسلامية مازالت بعيدة عن واقع العصر الذى نعيشه . . . تتحرك بمعزل عن مشكلاته ومعضلاته . . . ومازالت ترتكز على افتراض الفطرة فى المخاطب وخواء الساحة من الفكر المناهض . . . ومن هنا اتجه خطباؤها إلى الوجدان قبل العقل . . وإلى الوعظ قبل الإقناع والتوجيه !

أما الدعاة الذين هم أداة الدعوة وسلاحها ، والذين هم قوتها وقدوتها — فلا نكاد نجد لهم فى حياتنا سوى القلة النادرة التى ساقتها جهودها الذاتية إلى طريق الدعوة بغير قصد مسبق أو إعداد مخطط . .

وفى هذا الفراغ الدينى نبتت ألوان من التيارات المادية ، وأثمرت أنواع من الانحرافات العقائدية ، وغشى الضباب والبلبلة العقول الشابة . وأصبحت أجيال مصر القادمة مهددة كلها بمخاطر التمزق والضياع !

وإذا كان طريق يبسط الضوء أمام هذه الجموع الشابة ، ويجنب المجتمع أسباب التمرد والانتكاس — فهو طريق إصلاح جهاز الدعوة والدعاة . ولا شك أن

المحافل الدينية والأزهر الشريف بوجه خاص تتحمل مسئولية أكبر فى هذا المجال ؛ فعليها يقع العبء الأكبر فى النهوض بمناهج الدعوة وتكوين الدعاة والارتقاء بهما إلى مستوى المواجهة مع تيارات الغزو الفكرى التى تهدد باقتلاع تراثنا وتدمير ذاتيتنا .

غير أن مثل هذه الجهود تظل ضعيفة الجانب محدودة الأثر إذا لم تجد البيئة التربوية الملائمة والمناخ الثقافى المناسب ؛ فما جدوى الدعوة الدينية الجادة فى مجتمع يناهضها بمناهجه الدراسية وثقافته العامة ووسائله الإعلامية ؟

إن المتفحص لمناهج التعليم الدينى فى المدارس والمعاهد والجامعات لا يخطئ الحكم على ضحالتها وتناقضها وسوء توزيع موادها على مراحل التعليم المختلفة بالإضافة إلى تلوثها بالمدسوس من الإسرائيليات والخاطئ من التفسيرات ؛ فهى بحاجة عاجلة إلى تنقية وتنقيح وتعديل ؛ لتساير أصولها أصول الدعوة الإسلامية الصحيحة ؛ كما أنها بحاجة عاجلة إلى رفع العوائق من طريقها ، وأهم هذه العوائق برامج التربية الوطنية التى صاغها العهد الفائت ، وحملها الكثير من المفاهيم والمصطلحات التى تصطدم هى وجوهر الدين وتثير الشكوك حول رسالته !

فقد تضمنت هذه البرامج شروحاً لبعض نصوص ميثاق العمل الوطنى . . وهى نصوص تأثرت فى روحها بتيار الفكر الماركسى . . . واختلطت بالعديد من الشعارات الفجة والقيم المغلوطة التى تناهض تراثنا ، وتناقض أعرافنا . .

وجاءت هذه الشروح أشد إمعاناً فى الغموض وأكثر إغراقاً فى الخطأ من النصوص الأصلية ؛ فلم تقتصر على تكريس الحاضر لهدم الماضى ، بل صنعت منه صورة وردية لمجتمع العدل ، ونموذجاً مثاليًّا لاستشراف المستقبل !

وكان تشربها بالنهج الماركسى سبباً فى سقوطها فى هذا المنظور الاجتماعى الساذج

الذى لا يرى التطور إلا من خلال الصراع الطبقى ، ولا يلمح التغيير إلا من خلال الحتمية التاريخية ، وهكذا فتحت الباب واسعاً أمام الانحراف الفكرى والتوزع الوجدانى الذى زرع الشقاق عميقاً فى العقول الشابة ، وأضعف من قدرتها على المحاكمة والتقييم .

هذه البرامج التربوية التى أرادوا بها خلق أجيال جديدة فى فكرها وفى روحها وفى سلوكها — هى إحدى الآفات الخطيرة التى تبدد طاقتنا ، وتدمر عقيدتنا ، وتستعبد فكرنا ؛ وهى إحدى العوائق الكبرى التى تقف أمام كل خطوة جادة فى طريق البناء !

وإذا كان لابد من إصلاحها وتهذيبها فإن هذا الإصلاح والتهذيب يقتضى بداية جديدة تغاير فى روحها وأسلوبها الطريقة التى صيغت بها هذه البرامج . . والطريقة التى فرضت بها على مراحل التعليم المختلفة .

فالتربية الوطنية السليمة ليست اختراعاً جديداً يتيه فى وصفه العلماء ، ولكنها مجموعة من الأصول والمبادئ المستقرة التى تستهدف إيقاظ المشاعر الوطنية . . وإنماء الرابطة بين الوطن والمواطن والتعريف بحقوق كل منها تجاه الآخر ؛ فهى لا تخلط بحال بين المشاعر الوطنية والدعاية السياسية ، ولا تضع آراء الحاكم فى مرتبة قدسية ، ولا تصنع من شخصه صنماً للوطنية !

ثم إن الحكمة من التربية الوطنية هى تلقين الناشئة أصول الوطنية وبث روح المواطنة فى قلوبهم وسلوكهم ، ومن هنا كانت ضرورة فرض برامجها فى مراحل التعليم الأولى . .

أما تعميم هذه البرامج والصعود بها إلى مراحل التعليم الجامعى — فهذا تزيد لا مبرر له إلا فى ظلال النظم الشمولية التى تسخر برامج التربية الوطنية لخدمة

أغراضها الدعائية . فالمستوى الجامعى يفترض فى الطالب النضج الوطنى والتفتح السياسى . ويفسح له مجال التخصص فى العلوم والفنون بغير مزاحمة من برامج إضافية تنتحل اسم التربية الوطنية أو غيرها من الأسماء .

نعم . . إن الشابَّ فى مراحل التعليم الجامعى ليس بحاجة إلى تربية وطنية بقدر ما هو بحاجة إلى ثقافة سياسية حرة تنمى وعيه ، وتصقل عقله ، وتصنع منه مواطناً عاملاً فى مجتمع عامل .

وليس من مهام الجامعة إكراه الطالب على تقبل الثقافة السياسية من خلال افتعال بعض البرامج وفرضها ، ولكن مهمة الجامعة من هذه الزاوية تتحدد فى توجيه الطالب إلى هذا النوع من الثقافة وإثارة اهتمامه بها فى إطار مناخ جامعى حر يتيح للطالب تكوين ثقافته السياسية من خلال وسائل الثقافة العامة داخل الجامعة وخارجها .

وتوفير الثقافة السياسية يطرح أمامنا قضية الثقافة بوجه عام . وهى القضية التى استشكلت على أهل الرأى والمعرفة فى مصر . ووجه الإشكال لا يعود إلى غيبة الثقافة عن الساحة المصرية ، بل إلى تلوثها ببعض التيارات الوافدة وخضوعها لبعض المؤثرات السياسية ؛ فقد اختلطت منابعها والمذاهب المادية . . . وخضع مسارها لأوامر السلطة . . وانتهت إلى ألوان من المعارف المتناقضة حيناً . . والهابطة أحيانا ! .

ورسالة الثقافة لا تنهض فى وسط يكبلها بقيود السلطة . ويحددها بزاوية واحدة من زوايا الرؤية السياسية ، ثم يطلقها بعد ذلك بغير ضابط أو وجه ؛ ليلجها كل قلم . ويركبها كل ذى غرض ومأرب !

إن رسالة الثقافة تكمن فى حمل أمانة المعرفة بغير تحريف أو تشويه . . وتدريب

العقول على عناء التفكير وموضوعية النظرة . . وتوجيه السلوك إلى خدمة أهداف المجتمع فى حياة أفضل .

وهذه الرسالة لا تكتمل إلا فى محيط حر يعى دور الثقافة فى بناء الإنسان . . ويدرك خطرها فى تنمية المجتمع.

وهذا المحيط لا تتوافر مقوماته إلا فى ظلال ممارسة ديمقراطية تحرر الثقافة من مؤثرات السلطة وتنأى برروادها عن العسف والتشريد . . .

ولكن الحرية وحدها لا تكفى إعلاء الثقافة ، بل لابد من نشرها على كل صعيد، والتمكين لها من أداء رسالتها فى كل الأوساط .

وهنا تصطدم الثقافة هى وعجز الإمكانات المتاحة لتداولها وتعميمها فنصيبها فى الميزانيات المختلفة أدنى نصيب ؛ وتوزيع مخصصاتها على أوجهها المختلفة أسوأ توزيع . . ومأساة الكتاب الشعبى والمسرح الشعبى والفن الشعبى . تصرخ بهذه الحقيقة المؤلمة التى تقتضى تدخلاً حاسماً وتغييراً جذريًا .

ولن تجد الثقافة دورها فى بناء الإنسان من غير أن يقترن تحريرها وقدرة تداولها ونشرها . . . وتحقيق هذه القدرة يستلزم العدول عن اعتبار الثقافة لوناً من ألوان الترفيه . . . وسلعة من سلع الاستهلاك الكمالى لابد من تحديد تعاطيها وحصر تداولها فى أضيق الحدود !

ويوم تصبح الثقافة فى تقديرنا غذاء روحيًا . . بل خبزاً (يوميًّا) للشعب، لها ما لضرورات الحياة الأساسية من دعم . . يوم تحظى الثقافة بهذا التقدير سيعود نبضها المؤثر فى تكوين شخصية الإنسان الذى تنشده مصر .

وليكن واضحاً أن خطوات الإصلاح الدينى والتربوى والثقافى التى أشرنا إلى ضرورتها لا تشكل غايةً فى ذاتها . . ولكنها مجرد وسيلة لخلق تيار فكرى قادر على

ترسيخ العقيدة . . وترشيد العقل . . وضبط السلوك . .

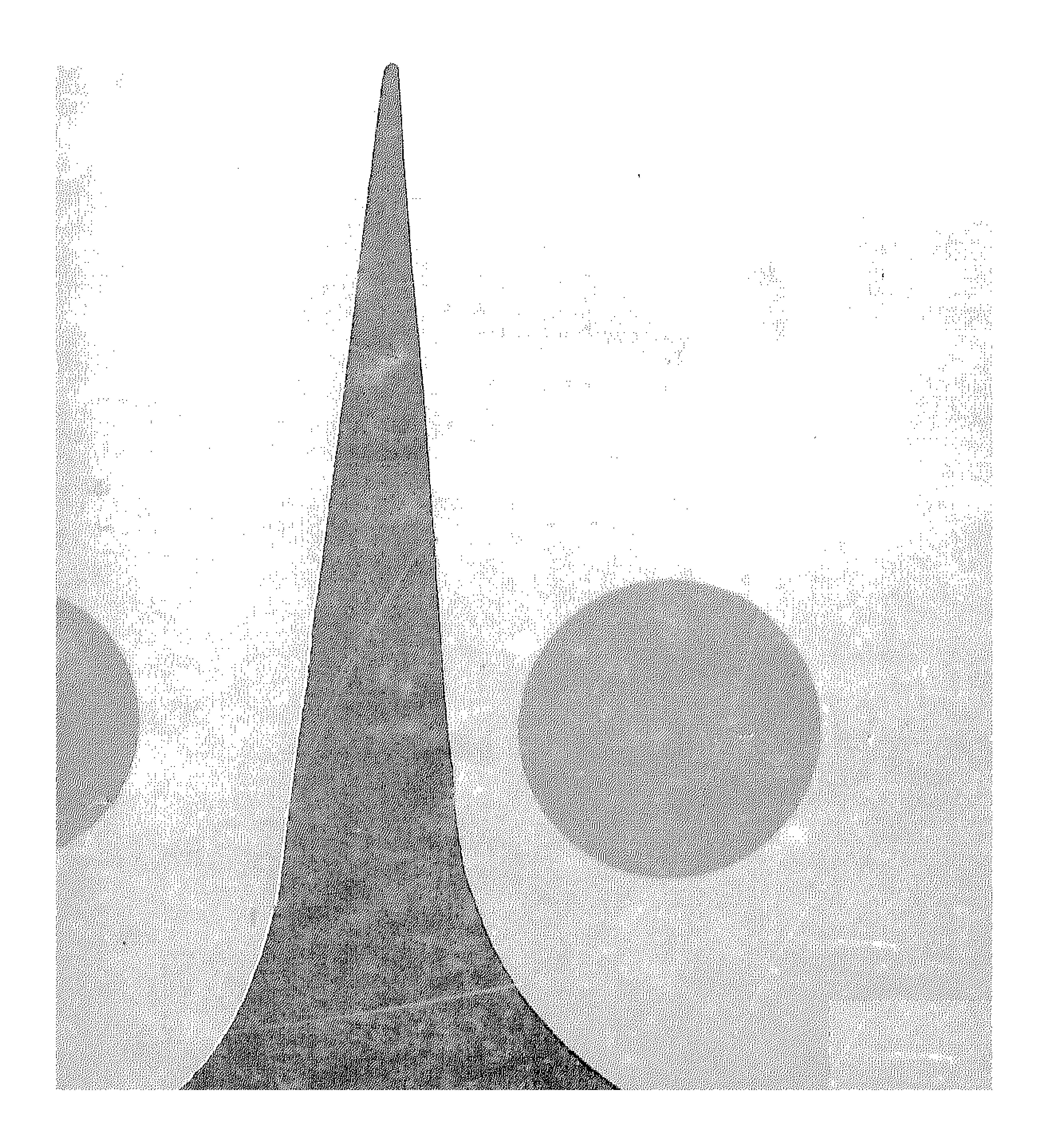
هى مجرد منارات على طريق بناء أيديولوجية جديدة تنبع من واقعنا ، وتستلهم من تراثنا . . . وتستقى من أصالتنا . .

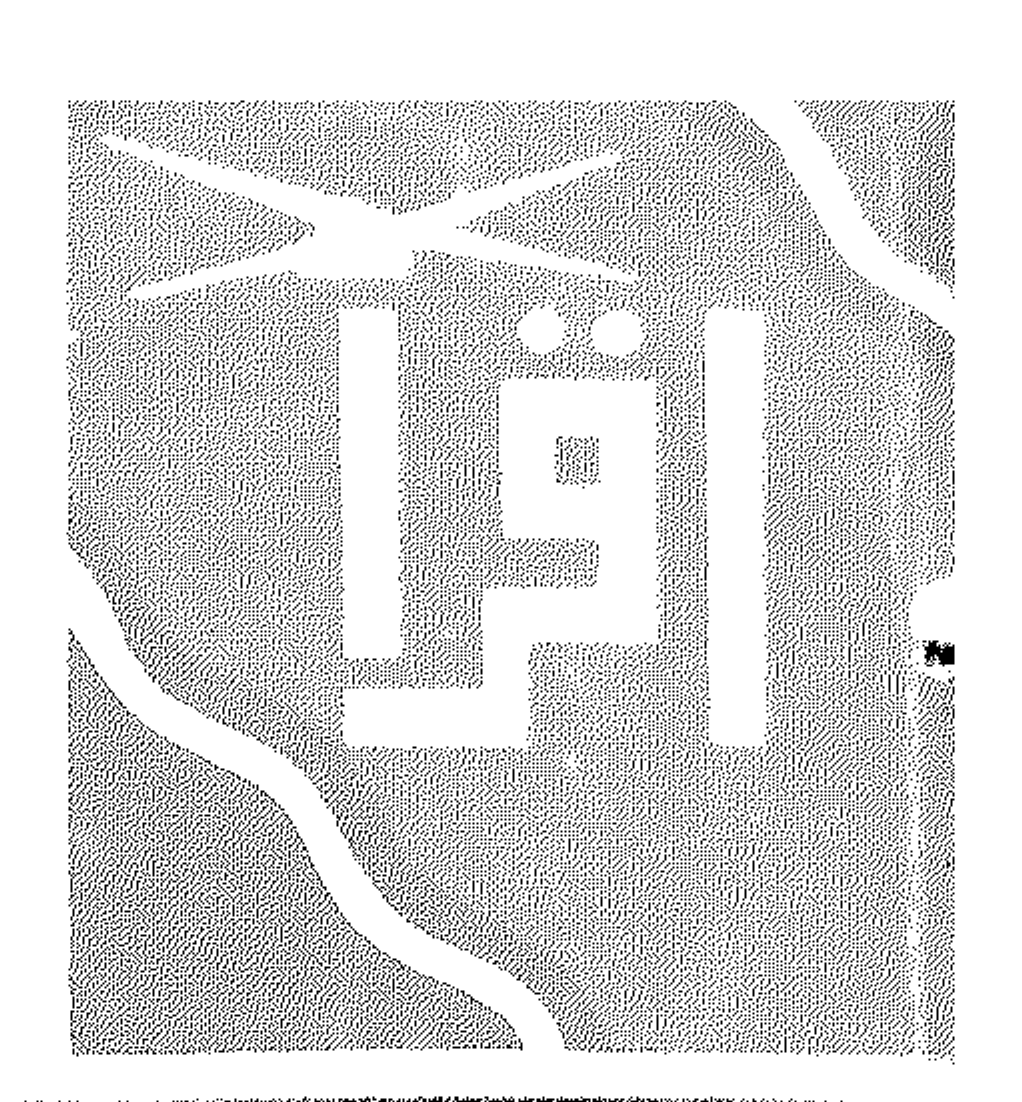
أيديولوجية تعيد للإنسان المصرى ما ضاع من إيمانه ، وتحدد له معالم الطر إلى غد أفضل .

رقم الإيداع	١٩٧٩ / ٣٠٨٩
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٧١٦ - ٥

١ / ٧٨ / ١٢٨

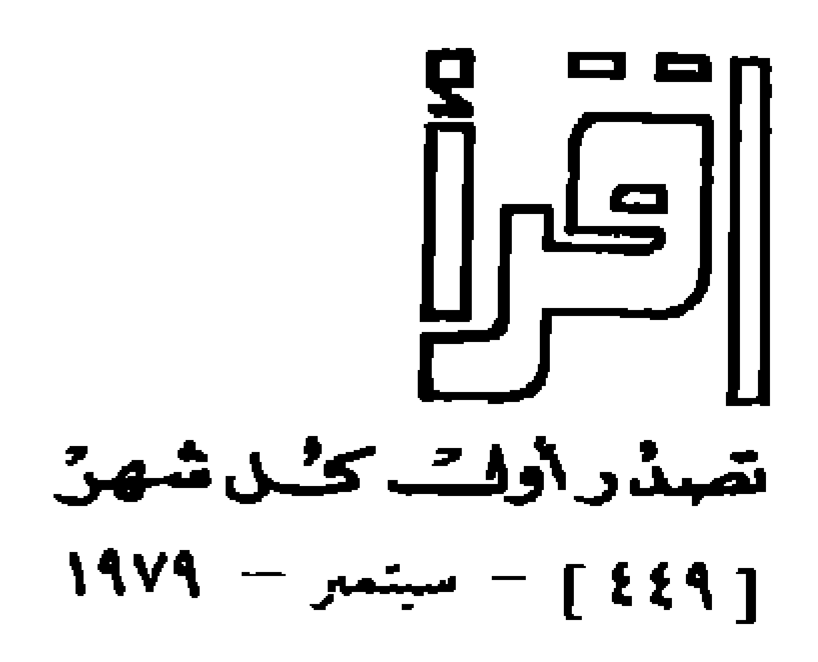
طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)





د. بول غاليونجي

كل.. لا تأكل



تصدر أول كل شهر

[٤٤٩] - سبتمبر - ١٩٧٩

رئيس التحرير أنيس منصور

د. بول غليونجي

كل.. لا تأكل


دار المعارف

تصميم الغلاف : أحمد أبو عمر

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

المحتويات

مقدمة

إن للإقبال على بعض ألوان من الطعام والعزوف عن بعضها الآخر فى حضارة ما معانى تتجاوز حدود التسجيل التأريخى لهذه الحضارة ، وتتناول البيئة والاقتصاد ، وتخوض أعماق القيم الدينية والروحانية ، وتتصل بالنظرة إلى الكون وتصور تركيبه اللذين سادا عهدها ، وهذه المعلومات لا يستطاع معرفتها إلا بتحليل ما كدسه المؤرخون من خلال دراسة آلاف السنين الماضية وما سبق الحقبة الطويلة التى ينحصر فيها إرثنا القابل للسبر والتحليل .

وإننا - إذ نلاحظ رسوخ الرواسب التى خلفتها العادات القديمة والتقاليد العتيقة التى كثيراً ما ظلت متحجرة بعد زوال الدوافع إليها ونسيان عللها ، وعلى تعاقب النظريات التى ابتكرت لتفسيرها على مر السنين وفقاً للتطور الفكرى الذى قارنها .

وإذْ نعترف بعلاقة أغلب الاتجاهات الشائعة فى عالمنا الحالى بالديانات السماوية الثلاثة السائدة فيه ، وهى الإسلام والمسيحية واليهودية .

ثم إذْ نلاحظ نشأة هذه الديانات بلا استثناء فى رقعة صغيرة من البسيطة هى التى تسمى بالشرق الأدنى ، بل إذْ نظرنا إلى توارث العقائد والشعائر بعضها عن بعض - إننا فى هذه الحالة يتبين لنا أهمية إدراك نشأة العادات الخاصة بما يؤكل وبما لا يؤكل ، هذا إذا ابتغينا تبيان عقلية إنسان القرن العشرين .

وبما أن تجميع كل المعلومات المفيدة عن بلاد الشرق الأدنى بأكملها مُحال فى نطاق هذا المؤلف المحدود - سنقصر أكبر جزء من بحثنا على شعوب مصر القديمة ، وعلى ما ورد عن العبرانيين وعرب الجاهلية ، وهى الشعوب التى توفر لنا أكبر قدر من المعلومات ، مع بعض الإضافات عن البلاد المجاورة أو المتصلة بها ، أو عن بلادٍ تكون عبرة للدارسين ؛ عسانا نوفق إلى رسم صورة عامة لا تنقصها الدقة ، عن نشأة تلك العادات وتطورها على مرّ القرون والحضارات .

وإننا حين نبادر بمثل هذه الدراسة إنما نسعى إلى تحقيق غايات عدة ليس أقلها أهمية معرفة الإنسان للإنسان : فمعرفة طعام قوم سواء أكانوا من سكان الكهوف أم من رواد ناطحات السحاب إنما هى إحدى السبل إلى معرفة طائفة من العناصر تجمع بين علوم التاريخ ، ومعرفة الأساطير ، والمذاهب والجغرافيا الاقتصادية والمناخ والفن والطب والآثار .

يتاح عندئذ الاقتراب إلى أسمى هدف يتعين على المؤرخ ، ذلك الهدف الذى عبر عنه سقراط الفيلسوف الإغريقى - بنصيحة أسداها إلى تلاميذه لتكون لهم منهجاً ونبراساً ، تلك النصيحة التى استحالت إلى شعار كتب على معبد دلفى وهى : « اعرف نفسك »[1]. ولعل هذا الشعار يذكرنا قولاً آخر مأثوراً وهو : « قل لى : ماذا تأكل أقل لك من أنت ؟ »

ومن ثم فإن مثل هذه الدراسة تمهد لنا إلقاء الضوء على عاداتنا المتقلبة من زاوية جديدة ، وتقرب لنا فهم التقاليد والأوهام الأجنبية التى تبدو لنا غريبة أو منفرة أو غير معقولة .

وفى عالمنا الراهن الذى انفجر عدد سكانه انفجاراً مخيفاً ، والذى اتسم بعدم التساوى فى توزيع الثروات الغذائية ، وبكثرة المجاعات ونقص التغذية فى بعض البلاد مع انتشار أمراض الاكتظاظ فى بلاد أخرى - فى عالمنا هذا - قد يتيح إدراك أصول هذه التقاليد إزالة العوامل التى تعوق توسيع الرقع لموائد بعض الشعوب المكبلة بقيود عتيقة عازفة عن التمتع بما جاء به الخالق الكريم لأسباب وهمية ومخاوف زائفة .

ولذا فإننا بعد أن اقتبسنا كلمة سقراط تروقنا كلمة منسوبة إلى كاتب إغريقى لاحق هو مناندر الأثينى الذى علق على كلمة سقراط بكلمته المأثورة : « قد يكون مبدأ (اعرف نفسك) مبدأ محموداً ، ولكنك لا تضمن سلامته فى جميع المواقف ؛ فإن منها ما يفضل معه قول : اعرف غيرك ! » .

هذا إننا نعيش فى تناقض عجيب ربما وصفه المثل العامى : «باتت جعانة وجوزها خباز ! » إننا نسرف فى استهلاك عدد محدود من الثروات بدون مبالاة أو تخطيط ، ثم نشكو قلتها على حين تجهل أو نتجاهل عشرات أمثالها لانفكر فى استغلالها ، بل نصر على نبذها خضوعاً لعادات عقيمة أو لأسباب عاطفية وهمية !

لقد سخر لنا الخالق الكريم الملايين ولم يحرم إلا أربعة :

(ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة . .) سورة لقمان / ٢٠ .

مازالت القبائل التقليدية تنعم بهذه الكثرة ، وتتمتع بصحة جيدة برغم تأخرها الفنى ، فقد كتب جريفى[٢] أن سكان بوتسوانا يتغذون بنحو من مائة نوع من

الأصناف الأليفة ، بالإضافة إلى مائتين وعشرين نوعاً من الأطعمة الوحشية ،
منها : الحيوانية كالإبل والسلاحف والثعالب على أنواعها ، والتمس والأرنب الوحشى والقطط الوحشية والجاموس والقنفذ والغزال والظبي والضبع وابن آوى وبقر الوحش والماعز الوحشى والسنجاب والدب والذئاب والأسماك والرباح والعرس والوبر والعلند والديكر والظراف والفيل ووحيد القرن والضفدع والوعل والجراد والنمل والزنبور والدود وحشرات أخرى وما يربى على ثلاثين نوعاً من الطيور الوحشية .

ومنها النباتية وهى تشمل الخضر الورقة والجذور والأبصال والثمار والأصماغ والقشور والفطريات والزهور .

غير أن عدد المأكولات ينحصر مع التمدين لجهل السلالات الحديثة بالمأكولات الوحشية وزيادة الوقت الممضى فى المدرسة والذى كان يمضى فى الغابات حتى إننا إذا أمعنا النظر فى طعامنا وجدنا ٩٠٪ منه إنما يعتمد على أربعة أصناف من اللحوم ، هى : البقر والغنم والدجاج والسمك ؛ وعلى ستة حبوب ، هى : القمح والشعير والأذرة والدخن والفول والعدس وعلى نحو من عشرة أصناف من الخضر ومثلها من الفواكه .

ولنذكر مما لا يؤكل فى بلادنا وإن كان يوفر طعاماً مفيداً ورخيصاً يروق غيرنا – أن الصينيين يستحسنون الكلاب والقرود والطحالب وعش الخطاف ، وأن بعض الأفريقيين مولعون بالحشرات والكلاب ودهن النمل وبأصناف لا ندركها من الثمار والجذور ، وأن المكسيكيين يتهافتون على أكل الكلاب ، وأن العرب يعدون الجراد والضب أكلا شهياً ، وأن صحارينا تأوى ملايين القواقع يعزف البدو عن أكلها مع ما يعانونه من نقص الزلاليات ، لعلنا نجد فى هذا عظة وعبرة .

وبما أننا فى دراستنا سنعتمد على آثار عريقة وروايات قديمة – علينا أن نذكر

بعض التحفظات التى - لو أهملناها - أضاعت قيمة تفسيراتنا ، فى حين أنها - إذا سقناها - أضافت دقة إلى دراستنا .

وتلك التحفظات يمكن ذكرها على الوجه الآتى :

١ - خطر قياس الأحداث القديمة بمعايير متخذة من سيكولوجيا إنسان القرن العشرين أو ثقافته أو خبرته .

٢ - خطأ اعتبار عادات وتقاليد دولة يمتد تاريخها عبر ثلاثة آلاف سنة وهى مدة تساوى ضعف التاريخ الهجرى - خطأ اعتبار هذه العادات والتقاليد ثابتة طوال هذا التاريخ : ذلك أن الاختلاف بين حياة معاصرى (مينا) موحد القطر المصرى ، وبين رعايا البطالمة قد يوازى على صورة ما الفارق بين حياة عربى الجاهلية ، وبين حياة حفيده ساكن أحدث العواصم العربية .

٣ - خطأ الأخذ بعادات حقبة معينة فى دولة ما على أنها تمثل العادات العامة لكل سكان هذه الدولة ، ومن ثمّ خطورة إهمال الفوارق الناتجة عن اختلاف الطبقات الاجتماعية وعن تباين البيئات كحسبان غذاء الفلاحين قياساً على غذاء البدو أو مآدب أثرياء المدن ، أو تعادل طعام سكان السواحل وغذاء سكان الواحات والصحارى ، أو إطلاق ما اعتاده أتباع الإله (أوزيريس) على أتباع (ست) ؛ كما سنرى فيما بعد .

٤ - عند بناء استنتاجاتنا على أساس ما كشف عنه من بقايا نباتية أو حيوانية فى خلال عمليات التنقيب خطورة إهمال العوامل التى أدت إلى بقاء تلك الآثار ، أو التى دفعت إلى إيداعها فى القبور أو المعابد حيث تم الكشف عنها - فإن هذه البقايا - وإن بقيت فى أرض مصر بفضل جفاف تربتها وجوها - من الكثرة والتباين مالا يجعل لها مثيلا ، غير أنها لاتشمل سوى جزء ضئيل مما كان يؤكل عندئذ ، وإلى هذا فإن القدر الباقى يختلف مع اختلاف قدرته على البقاء وتحمله

عوامل التلف ، ولذا فإن البقايا الحيوانية لاحتوائها عناصر صلبة كالأسنان والعظام – أقدر على البقاء من المواد النباتية . والنبات المركب من ألياف أو خشب كالبذور والجذور أصلح للبقاء مما لا يحوى إلا جرماً طرياً كالفواكه والثمار . وأخيراً فإن مجرد ورود مادة – لا يقيم برهاناً قاطعاً على استخدامها طعاما : فقد يكون الحيوان المدفون من بهائم النقل ، أو من الحيوانات المؤلهة ، أو من الحيوانات الأليفة ، وقد يكون استعمال النبات لمجرد الزينة

٥ – اتخاذ الحجة الغيابية برهاناً : كاستنتاج عدم وجود ظاهرة ؛ لأنها لم تذكر ، أو لأنها لم يكشف عنها بعد ، وهذا النوع من الأدلة يعده علماء المنطق أضعف البراهين .

٦ – تغير معنى اللفظ الواحد على مرّ السنين ، أو تباين مدلوله فى البلاد المختلفة : ولنضرب لذلك مثالا من العهد القديم ، هو استعمال هيردوت لفظة (زيا) بمعنى الحنطة ، وهى الآن تطلق على الأذرة وفى العصر الراهن اختلاف مؤدى (الخوخ) أو (البطيخ) أو (العيش) فى بلاد متجاورة تنطق بالضاد . ونضيف إلى هذه الصعوبة عدم تقسيم القدامى الفصائل الحيوانية أو النباتية فى الدقة التى نراها ضرورية اليوم .

٧ – عوامل خاصة بالمؤرخ : إن أغلب الذين أرخوا للشرق الأدنى كانوا من المسافرين الإغريق وعلى رأسهم هيردوت وقبل أن نأخذ بحقيقة رواياتهم – علينا أن نتحفز لها لأسباب ناتجة عن طبيعة صلاتهم بأهل البلاد التى زاروها ، أو بنزعاتهم الخاصة ، أو بإهمالهم تسجيل بعض الملاحظات وتركيزهم على ما بدا لهم غريباً أو طريفاً :

(ا) إن المركز الاجتماعى الذى يتمتع به المؤرخ الجائل يحدد الطبقات التى يسمح له بمعاشرتها ، والمناطق التى يزورها ، والمرافق أو المعاهد التى يتفقدها ، ومن

ثم نوع الخبرة التى يجنيها . وجدير بالذكر أن أكثر المؤرخين كانوا من السياح الأثرياء ، أو كانوا ينتمون إلى فئة من فئات الكهنة أو الفلاسفة ؛ فكانت أغلبية الأوصاف التى أوردوها فى كتاباتهم تعكس بطبيعة الحال عادات الطبقات المقابلة لهم وتقاليدها ، كما أنها صنفت لمتعة مستمعين من الطبقات نفسها وإثارة فضولهم . فألحت على النواحى الغريبة ، وربما تجاوزت الحقيقة فى تقديرها لها .

(ب) ومن جهة أخرى فإن علماء المصريين وكبارهم كانوا يحتقرون هؤلاء الزوار ، ويعدونهم دون مستواهم ، ويعزفون عن لقائهم على حسب ما ذكر هؤلاء المؤرخون أنفسهم . ومن أوقع ما ورد من هذا القبيل قول أحد كهنة هليوبولس (عين شمس) إلى (صولون) مشرع الإغريق وواحد من حكمائهم السبعة : « ياصولون ، إنكم لا تزالون أطفالا ! لا يوجد شيخ (عالم) من بين الإغريق »[٣] .

ويؤكد كانيادس هذه النظرة فى القرن الثانى - الثالث ق . م : فقد جاء عن لسانه : إن الكهنة لا يختلطون بغيرهم إلا فى الأعياد الرسمية ، أما فى الأيام الأخرى فإن الوصول إليهم يستعصى على أى امرئ يرغب فى محادثتهم[٤] .

وقد عرف العرب ستار السرية الرهيبة الذى كان يسدل على العلوم المصرية . وصعوبة رفعه : فقد روى ابن أبى أصيبعة [٥] ما واجه فيثاغورس من المحن عندما توجه إلى الديار المصرية للاطلاع على قبس من علوم كهانها . قال :

« اشتاق فيثاغورس إلى الاجتماع بالكهنة الذين بمصر ، فابتهل إلى فولوقراطس أن يكون له على ذلك معيناً ، فكتب إلى أماسيس ملك مصر كتاباً يخبره بما تاق إليه فيثاغورس ، ويعلمه أنه صديق من أصدقائه ، ويسأله أن يجود عليه بالذى طلب وأن يتحسن عليه ، فأحسن أماسيس قبوله وكتب إلى رؤساء الكهنة بما أراد ، فورد على أهل مدينة الشمس ، وهى معروفة بزماننا بعين شمس بكتب ملكهم فقبلوه قبولا كريما ، وأخذوا فى امتحانه زماناً ، فلم يجدوا عليه نقصاً ولا تقصيراً ، فوجهوا

به إلى كهنة منف ؛ لكي يبالغوا في امتحانه ، فقبلوه قبولاً على كراهية . واستقصوا امتحانه فلم يجدوا عليه معيباً ولا أصابوا له عثرة ، فبعثوا به إلى أهل ديو سبولس ؛ ليمتحنوه ، فلم يجدوا عليه طريقاً ولا إلى إدحاضه سبيلاً لعناية ملكهم ، ففرضوا عليه فرائض صعبة مخالفة لفرائض اليونانيين كيما يمتنع عن قبولها ، فيدحضوه ويحرموه طلبه ، فقبل ذلك ، وقام به ، فاشتد إعجابهم منه ، وفشا بمصر ورعه حتى بلغ ذكره أماسيس فأعطاه سلطاناً على الضحايا للرب تعالى وعلى سائر قرابينهم ولم يعطَ غريبٌ ذلك قط .

(جـ) اضف إلى هذا صعوبة اتصال الزائر بالشعب اتصالاً مباشرا لاختلاف اللغة ، وإن كان معروفاً أن مدارس للترجمة لتعليم الأغريقيين اللغة المصرية أسست في مصر منذ عهد الأسرة الثامنة عشرة[٦] إلا أن أكبر الظن أن هؤلاء التراجمة كانوا يجهلون غوامض الأسرار الدينية ، وأنهم لم يعتادوا التصريح إلا بما يوافق كرامتهم الوطنية ، أو ما يثير إعجاب (زبائنهم) كما يفعل اليوم (التراجمة) في المواقع السياحية . وأنهم كانوا يتكتمون ما كانوا يعدونه مخجلا ، أو ما يظنونه مثيراً للسخرية من لدن الزوار ، أو عدم تفهم الزوار حقيقته ، أو ما كانت السرية التي كانت تغشى كل الأمور الدينية لا تسيغ الإجهار به .

(د) إهمال المؤرخ أو مرشده ذكر ما يظنه مفهوماً بداهة : كعدم ذكره الماء من بين المشروب أو الخبز من بين المأكول .

٨ – خطورة قبول التفسيرات السهلة التي تبتكر من آن لآخر دفاعاً عن عادات قديمة أو تعصباً لها ، أو إشباعاً لغريزتنا السببية التي لا تستريح إلا بابتداع تفسير ، ولا ترضى منه إلا ما أُلبِسَ لباساً ذا مظهر تعقلي يروق من يدعي ثقافة علمية دون تحقيق دقيق .

٩ – وهنا علينا أن نبين سبب استنادنا إلى حجج متخلفة من روايات وأساطير

يجوز الشك فى حقيقتها التاريخية . هذا إن لكل رواية شكلا وموضوعاً .

والشكل إنما هو ثوب جميل طرزته مخيلة الراوى مستمدة خيوطها من غرائزه وميوله وتكوينه وبيئته وإرثه ومن كل عنصر ذاتى أو خارجى كيّف ذهنه وحدد أهواءه ومشاعره .

أما الموضوع فهو مستمد : إما من الذاكرة الجماعية التى توارثت تاريخ الأسلاف - وإن لم يخل من التحريف - وإما أن يكون من خلق الراوى . فلا يخلو اختياره أو ابتداعه من التأثيرات التى حددت هى نفسها الشكل . وعليه فإن الأسطورة إذا ورثها الشعب وراقت عينيه ، ورددتها السلالات المتتالية - إنما هى مرآة لذهن هذا الشعب وترجمة لفكره ، يتيح تحليلها إدراك أساليب تفكيره .

١٠ - وختاماً يجب أن نعترف بازدواج تأثير العنصر الواحد وباختلاف اتجاهه على حسب الظروف : كأن يكون حكم التقديس تارة الإقبال تقديرا للشىء المقدس ، وأطواراً النهى احتراماً له ، وبالعكس : أن يكون حكم العداوة والنفور الإحجامَ عن اشمئزاز أو النحر للانتقام ، ويمكن وضع العناصر ونفوذها فى الجدول التالى :

الاتجاه	أسباب إيجابية	أسباب سلبية
السماح	التكريم استساغة الذوق الوفرة	الانتقام
النهى	التقديس الضرر الصحى التميز عن حضارة مجاورة أو معادية مجاملة قوم فاتح أو مجاور أو صديق اعتبارات دينية عوامل موسمية	النفور عن إله معاد عدم استساغة الطعم عدم الوفرة وخشية اندثارها اعتبارات دينية النــدرة

الباب الأول

بعض العوامل المؤثرة على اختيار الطعام ومناهج البحث فيها

اكتسب الأكل لشدة أهميته وللحاجة الأساسية إليه– معانى تفوق مجرد قيمته الغذائية ، وتنبع عن أعماق الذهن التى لاتزال تفكر بأساليب تحت المنطقية ، أساليب ورثتها من أجيال من القحط والجوع والمعاناة بحثاً عن الزاد .

يبحث الإنسان عن طعام يشبع بدنه ومشاعره ، ولا يعنى بمركباته الكيمياوية أو بقيمته السعرية ، ولذا فإن العلم الحديث المبنى على علمى الكيمياء الحيوية ووظائف الأعضاء – مع إنجازاته الهائلة – عجز عن تفسير التباين بين قوت شعب وقوت غيره .

فالأكل جماعة تحية وديباجة عندما يقدم قدح من القهوة أو حفنة من التمر ، وهو تكريم عند إقامة الولائم ، وإعلان الإتفاق عند عقد الصفقات ، وترحيب ، وضيافة ، . . . ، و . . . .

وطالما قدر المصريون مآكلهم وأسندوا إليه صفات ومعانى واضحة فى عاداتهم وتقاليدهم منها : معان دينية ، ومنها معان اجتماعية :

معانى الطعام الدينية

مفهوم الذبح وشعائره : من المرجح أن هيبة الحياة وخشية الموت أدخلتا فى قلب الإنسان احترام كل مظاهر الحياة ، ولما كان الموت بسبب النزف فى الحرب أو القنص أمراً يشاهد كل يوم فإن الدم عد مركز الروح إن لم يكن هو الروح نفسها ، وسنأتى فيما بعد بنصوص تثبت رواج هذه الفكرة . وانطلاقا من المبدأ أن الإله - لأنه مانح الحياة - هو الوحيد الذى يحق له سلبها - فقد قُدس الدم وقدست الحياة ، وأصبحت عملية نحر البهائم عملية طقسية لا يقوم بها إلا ممثل الإله على الأرض ، وهو إما الكاهن وإما شيخ العشيرة ، واشترط فيها تقديم الذبيحة إلى الإله على النصب مصحوباً بطقوس معينة وبتلاوة اسم الإله عليها . وقد نتج كذلك عن مثل هذه الاعتبارات أن بعض أجزاء الذبائح كانت تخصص للإله أو للكهنة : إما لمعناها الروحانى ، وإما لملابسات تاريخية ، وإما لمجرد الاستئثار بها ، وهذا ما سنناقشه فيما بعد .

أكل اللحوم الآدمية : إذا استثنينا أكل اللحم الآدمى للضرورة - كما يحدث فى المجاعات - وجدنا أن هذه العادة المنكرة إنما كانت قديماً طقساً دينياً يراد به استيعاب الآكل للمأكول ، وامتلاك شخصيته ، واكتساب صفاته ؛ ومازالت على ذلك حتى اليوم عند القبائل البدائية : فإننا نرى شعوب أواسط أفريقيا وبعض مناطق أمريكا يأكلون البشر فى خلال مآدب يتكتمون أمرها ولا يشاركهم فيها غير المريدين والمقبولين فى جمعياتهم السرية ، ثم يخضعون أنفسهم لطقوس معقدة من التطهير .

ويبدو أن الإنسان البدائى عندما ارتقى ذهنه إلى البحث عن هويته وعن حقائق الكون خمن أن الأكل وسيلة لاقتباس طبيعة المأكول . وتركت هذه الفكرة رواسب لونت النظريات الطبية حتى عصر النهضة ، ودعت فلاسفة الأطباء أمثال ابن سينا إلى البحث عن طبائع الأطعمة لمحاولة التوفيق بينها وبين طبيعة الشخص الذى يتناولها (انظر الباب الخامس) وإننا نقابل هذه النظرية على أكملها فى المظاهر الآتية :

تمثيل الآلهة وما هو سوى امتداد للنظرية السابقة ، نجد فى بعض نصوص الأهرام ما يشير إلى عادات سحيقة القدم لم يبق منها فى عصر الفراعنة إلا تلاوات مفادها أكل الآلهة لاكتساب صفاتها مثلا :

« أوناس[1] هو ثور السماء الذى يتغذى من جوهر كل إله ، ويأكل حواياهم .

هو الذى يأكل الرجال ويزدهر بأكل الآلهة . . يأكل سحرهم ويستوعب أرواحهم ، ويخصص الكبار للإفطار والمتوسطين للغذاء والصغار للعشاء » !

ومع تقنين الأديان وتنظيمها نصبت هذه الشعائر الرامية إلى « تمثل » الآلهة على غرار تمثل الطعام أسساً للكثير منها . والأمثلة لهذه الطقوس كثيرة : إما فى شكل تناول لحم حيوان طوطمى مؤله ، وإما فى تناول لون من الطعام تليت عليه العبارات التى تمنحه صفة الإله وهويته .

أكل أجزاء الحيوان لاكتساب طبائعها المزعومة كأكل قلب الأسود لاكتساب الشجاعة . وهذا النوع من التفكير ساد العلاج الطبى سنين حيث كانت توصف الحجارة الحمراء لعلاج ضعف الدم ، والأزهار الصفراء لعلاج اليرقان ، إلخ . وهى التى أدت بالعالم الفرنسى (براون – سيكار) إلى تعاطى الغدد الجنسية

(١) أوناس : فرعون من الأسرة الخامسة (حوالى ٢٤٥٠ ق . م) .

لاستعادة شبابه المفقود ، ففتحت الباب لعلم الغدد الصمّ .

ومن هذا اللون من التفكير نسبت صفات وهمية لبعض الأطعمة وفرضت روابط خفية بينها وبين أجزاء البدن ، ويمكن رد هذه الروابط تارة إلى أسطورة أو حدث تاريخي ، وطورا إلى قوانين التشابه والقياس التي تحكم السحر والتي تستنتج الأفعال من الشكل واللون إلخ . وقد جمع جريفتي[٢] في أواسط أفريقيا أمثلة عدة من الربط بين الطعام وبين السن ومراحل الحياة والمركز الاجتماعي ، نذكر بعضاً منها :

١ - لا يأكل الصبيان بقايا العصيدة العالقة على الملاعق الخشبية خشية تضخم الثديين .

٢ - لا تأكل الصبيات البيض خشية الإنجاب مبكراً ؛ والصلة بين البيض والخصب واضحة .

٣ - يحرم على الصبيان والبنات ستة أصناف :

(ا) العسل إذا وجد في الحفر

(ب) العسل الذى على الأشجار خشية فقدان الذاكرة ، ولا يخشى ذلك المسنون لضعف ذاكرتهم .

(حـ) الدجاج الحبشي ذو العرف .

(د) الدّراج

(هـ) الحتوّ : وهو طائر ضخم المنقار خوفاً من استطالة وانعواج الرقبة في صورة منقار هذا الطير .

(و) السلحفاة ، خشية الإصابة بحدبة

٤ - أما ما حرم على البالغين فإنه يرتبط بالجنس وبمراحل الحياة :

(ا) إذا حملت امرأة حرم زوجها أكل لحم بقرة نفقت في أثناء الولادة ؛ لأن هذا يعرض حياة الأم ووليدها للخطر .

(ب) تُمنع الحوامل من أكل اللحم والشحم وجلد البطن خوفاً من أن يولد لهن أطفال ذوو بطون ضخمة وبهم بشع.

ومن اللبن الحامض لأنه يعرض أطفالهن للقيء المستمر.

ومن معدة البقر الرابعة خوفاً من تعسر الولادة.

ومن أمعاء البقر الغليظ للسبب نفسه.

ومن البيض لئلا يتوقف نَفَس المولود.

ومن لحم سيقان البقر ونخاعها للسبب نفسه.

ومن الحلوى وإلاَّ كثر بصاق المولود.

٥ - وبالعكس: توصف أطعمة خاصة لبعض الفئات:

يعطى الأطفال لحم الأرانب والغزلان ليكتسبوا مهارة.

يغذون بالسمك لأنه غذاء نافع للدماغ.

تخصص العصافير للصغار.

تخصص (الكلاوى) للشيوخ، وكذلك المعدة الثالثة والعجول الميتة فى أثناء الولادة تحفظ للعجائز المعدة الرابعة والأنف والذقن.

يحرم للجميع دب النمل وهو الحيوان الملكى للقبيلة.

وقد ذكر «جريفى» أيضا أن أجزاء معينة من الحيوانات، وبصفة خاصة من القنص، توزع فى بعض القبائل التقليدية على حسب نظام غاية فى الدقة:

يئول الكبد لسيدة المنزل، والأطراف الأمامية لأكبر أولاد صاحب المنزل أو أكبر إخوته، وفى غيابهم لأعلى الحاضرين مركزا، وتئول الأطراف الخلفية إلى أصغر الأنجال وإن كانت أكبر من الأطراف الأمامية، والسبب هو أن الصغار يحتاجون إلى اللحم أكثر من حاجة الكبار إليه.

ويعطى لحم ناحية من الظهر كبرى البنات، والناحية الأخرى كبرى

الأخوات . ويختص صاحب الدار بالصدر ، اللهم إلا إذا كان لحم صيد ، فيختص به رئيس القبيلة ، والضلوع من نصيب صائد الفريسة وخاله .

وتُجزأ الحوايا على الوجه التالى : أعلى المستقيم للعم ، والرأس والقرنان والجلد للخال ، والمعدة الرابعة للزوجة لتطبخها وتأكلها مع سيدات الأسرة ، والكليتان والمعدة الثالثة لأكبر الحاضرين سناً ، والمعدة الأولى للشبان من غير الأقرباء ، والقلب والرئتان لمتوسطى السن من غير الأقرباء ، والأنف والذقن لأكبر السيدات سناً ، والبنكرياس (حلويات البطن) للراعى .

معانى الطعام الاجتماعية :

لقد سبق أن أشرنا إلى المعانى الاجتماعية المرتبطة بالطعام ، ولا أدل على رسوخها من تبلورها فى الكلام الشعبى ، كنسبة بعض الأطعمة إلى الأولياء والاستعارة والتشبيه فى تسميتها ووصفها واستخدامها فى التعبيرات والأمثلة الشائعة :

ومن الأساليب الأولى نسبة الترمس إلى سيدنا الأنبابى ، والبطاطة إلى سيدى جابر ، والخس إلى المليجى ، وحب العزيز إلى السيد البدوى إلخ .

ومن الأساليب الأخرى إطلاق الصفات الحسنة والأسماء المحببة على الفواكه والحلوى : كغزل البنات وكعب الغزال ولقمة القاضى (وبراغيت) الست وعين الجمل والعنب البناتى والبلح الزغلول وحب العزيز واللديدة وعيش السراى والخد الجميل وكل واشكر وكوز العسل وقمر الدين وإصبع الست وسرة النائم والشهد إلخ .

وكذلك سميت الأولاد بأسماء متخذة من المأكولات المستحسنة ، وبصفة خاصة فى البلاد حيث تقل الفواكه : فقد سمعنا الأسماء الآتية : خوخة ، موزة ،

تفاحة ، كوز العسل إلخ .

أما أوقع هذه التعبيرات وأجملها لما تنم عليه من ابتكار شاعرى تلقائى - فتلك التى يؤلفها بائعو الفواكه والخضر الجائلون ، ويمكن تقسيم أساليبهم إلى :

١ - وصف الصنف بصنف أثمن أو تفضيله عليه ، وهذا الأغلب :

« يا جمع العصارى يا خيار يالوبيا » .

« يا ورق العنب يا خبازى » .

« لوز يا ترمس » .

« أحلى من العسل يا بصل » .

« اللوز يا ملانة » .

« نواك لوز يابلح » .

« لا تين ولا عنب زيك يا ضانى يا أمهات » .

« حمام وزغاليل يا ورور »

« قشدة ياأرنبيط » .

« زبدة يا قلقاس » .

٢ - الوصف بما هو أثمن من غير المأكولات :

« زى الجواهر يا أوطة » .

« ورد يا طماطم » .

« يا جواهر يا عنب »

٣ - نسبتها إلى الأولياء .

« خسك يا مليجى » .

« مدد يا اتبابى مدد (عن الترمس) .

٤ - إسناد صفات محببة إليه :

« يا حراقى يا مسقى عسل » .

« يا حلو يا ابن البحر يا ترمس » .

« الملاح ولا يربى الملاح إلا الصبايا الملاح » (عن الفراريج) .

« الشفاء من الله يا حلبة » .

ولعل أدل من هذه التشبيهات كنز الأمثال الشعبية المبنية على الأكل أو الطهو . والأمثال الشعبية على حسب قول أحمد أمين[٧] نوع من الأدب يؤلفه الفلاح فى غيطه والعجوز فى دارها والعامل فى مصنعه والتاجر فى حانوته ، ليعبروا بها عن خبرتهم فى الحياة يقول الأستاذ أحمد أمين :

« أمثال كل أمة مصدر هام للمؤرخ والأخلاقى والاجتماعى يستطيعون منها أن يعرفوا كثيراً من أخلاق الأمة وعاداتها وعقليتها ونظرتها إلى الحياة : فالعربى البدوى نجد أمثاله مشتقة من عيشته من جمال وخيام وأرض وجدب وخصب ومطر ونحو ذلك ، والذين يسكنون السواحل يشتقون أمثالهم من البحر والسفن والصيد والسمك ونحو ذلك ؛ كما نستطيع أن نفهم من الأمثال ما تثيره فى أنفسهم من معانٍ وما يستحسنه الشعب وما يستعجبه . . . وهناك أمثال تختلف فيها الأمم إما من حيث اختلاف التعبير ، وإما من حيث اختلاف البيئة ، وإما من حيث اختلاف الظروف الاجتماعية » .

ولنذكر من هذه التعبيرات : « فرخة بكشك » فى وصف من يتمتع بالتدليل والمحبة ، « والعيش والملح » للوفاء والعشرة الطيبة ، « وكانى مانى » ومعناها باللغة القبطية السمن والعسل » .

وقد جمعت الدكتورة سيريس ويصا واصف ٧٧٣ مثلا شعبيا[٨] تستخدم الطعام أو الطهور للتشبيه . وإننا إذ نذكر بعضاً منها نعتذر لضرورة ذكرها باللغة الدارجة :

لحسن المقابلة :

« لاقيني ولا تغديني »

« دفيني ولا تعشيني » .

« لقمة هنية تغدى مية » .

للمحبة والوفاء :

« حبيبك يمضغ لك الظلط ، وعدوك يتمنى لك الغلط » .

« كُلْ عيش حبيبك تسرّه ، وكل عيش عدوك تضره » .

« ما تاكل عيش إلا لِلّيحبك » .

« الرغيف المدور للصاحب اللى يدوَّر » .

الأكل بوصفه تبادلا اجتماعياً :

« أمى تطعمنى وتنكر طعّمتنى ، ومراة أبويا تطعمنى من غير طعام ! » .

« من ياكل وحده شرق وحده »

« إطعم الفم تستحى العين » .

« اللقمة تدفع النقمة » .

« فِضِل يحاتيه لما أكل منه ! » .

للتظاهر والمفاخرة :

« لولاك يا كُمّى ما كلت يا فُمّى » .

« دقوا فى أهوانكم سمّعوا الجيران » .

« عرايا مقفقفين جابوا لعشاهم ياسمين » .
« اللى مافيش فى بيته طحام مالوش فيه مقام ! » .
« سكر الباب وصاح : عيشْ يا جعان » .

للتعبير عن البخل :

« دخانك عمانا وطعامك ما جانا » !
« عيشك يحلالى يا خالى قال من سوء بختى يا ابن أختى »
« يفت على دخان »

فى القناعة والعزة :

« لقمة جارى ما تشبعنى وعارها متبعنى »
« نَىّ حدايا ولا مستوى حدا الناس » .
« يا بخت من أكل من قرصه ويؤانس بحسه »

فى الجوع والشبع :

« آخر لقمة عجين » .
« حلال كلنا حرام كلنا » .

فى عدم المبالاة :

« خبز بلا إدام ويعزم الجيران » .
« مسك القطة مفتاح الكرار » .
« صامت يوم واتمخطرت للعيد »

« من يأكل بالخمسة لازم يلطم بالعشرة » .
« كل واشرب وخَلٍّ الدنيا تخرب » .
« تَاكُلْ خيره وتعبد غيره » .

إنكار الجميل :

« زى القطط ياكُلْ وينكر »
« أكل أكلهم وكشف سترهم » .
« أكل عيشكْ ونتف ريشكْ » .

الاستغلال :

« المتعود على أكلك لما يشوفك يضحك لك » .
« حطوا تقليتكم وأنا لقمة بجملتكم »

البيئة :

الوفرة : لم يعرف العالم القديم ما نتمتع به الان من وسائل الاتصال السريع وطرائق حفظ المأكولات بالتبريد والتعليب ، ولذا فإن الغذاء كان محدداً بوفرته فى المكان والزمان ، ولم يستطع البدوى الراحل تناول منتجات الساحلىّ الصياد أو الزارع المستقر ، ولم يتيسر لساكن البلاد الشمالية أكل ثمار البلاد الاستوائية .

حجم الفريسة أو البهيمة : إنه من البداهة أن أسرة من ثلاثة أشخاص لا تستطيع أكل ثور فى يوم واحد ، الأمر الذى يعرض لحمه للتلف ، ولذا فإن حجم الفريسة أو البهيمة الكبيرة قصر أكلها على القصور حيث عددٌ قادر على استهلاكها قبل إصابتها بالتعفن وبقى هذا إلى أن احترفت مهنة القصابة ، أما صغار

القوم فكان عليهم الاعتماد على الطيور والأسماك والدواب الصغيرة . ومن نتائج الاعتماد على الصيد فى المجتمعات البدائية أن الصياد إذا ما حصل على فريسة كبيرة أكل هو وأهله حتى أتخموا ، ولم يعتادوا الوجبات المتوسطة الحجم المتكررة ، بل ظلوا بين تخمة ومخمصة حتى استقروا فى حياة زراعية أو مدنية .

الجو والمواسم والفصول : ومن أهم العوامل البيئية التى تؤثر على وفرة الطعام :

الجو : فإن الحنطة قليلة فى البلاد الحارة ، ويستعاض عنها بالدخن أوببذور أخرى ، والنخل مجهول شمال البحر المتوسط . ولايسع سكان المناطق البعيدة عن البحار الانتفاع بالسمك لصعوبة نقله دون إفساده . ومثال ذلك ما رواه المقريزى قال :

« وإذا كان فى الشتاء وأول الربيع – حُمل من بحر الملح سمك كثير ، فيصل إلى هذه المدينة (فسطاط) وقد عفن وصارت له رائحة منكرة جداً فيباع فى القاهرة ، ويأكله أهله وأهل الفسطاط ، فيجتمع فى أبدانهم منه فضول كثيرة عفنة[٩] . (المقريزى ، الخطط : ١ ، ٣٣٩ طبعة بولاق) .

ومن ظواهر جهل سكان الواحات للسمك أنهم كانوا إلى عهد قريب يتخوفون من شكله الغريب ، كما أن سكان بعض مناطق وسط أفريقيا ينفرون منه .

الموسمية : وفى هذا المجال يؤدى تسلسل المواسم دوراً هاماً فى تكييف العادات الزراعية والغذائية : ففى البلاد الشمالية لانعدام العلف الطازج فى الشتاء تنحر البهائم فى الخريف ، وتحفظ لحومها بالتمليح والتدخين ، كما تحفظ فى الصحارى بالتجفيف ، لتؤكل فى ظروف الشتاء القاسية ، وتضاف إليها التوابل لتغطية روائحها العفنة ، وهذا أدى من جهة إلى تباين واضح بين غذاء الشتاء وغذاء الصيف ، وانتشار الأسقربوط وأمراض نقص الفيتامينات فى الشتاء ، ومن جهة أخرى إلى تهافت سكان البلاد الباردة على اقتناء التوابل ، الأمر الذى أدى إلى

تنافس بين البلاد التجارية والأساطيل ، ومحاولة الوصول إلى منابع هذه الثروة النباتية ، وإلى حروب ضارية منها الحرب التى سميت « حرب الفلفل » .

عوامل تاريخية : ظلت مأكولات تعد دارجةً اليوم مجهولةً لشعوب كثيرة ردحاً طويلا من الزمن ، ولم تنتشر إلا نتيجة للحروب أو الهجرات : فالدجاج – على سبيل المثال – لم يعرفه قدامى المصريين إلا فى العصور المتأخرة إلى حد أن فرعون (تحتمس الثالث) عندما أهديت إليه ثلاث دجاجات فى خلال إحدى غزواته لبلاد بين النهرين عدّ هذا الحدث حرياً بالتسجيل فى حولياته . ولنذكر ثلاثة أحداث تاريخية كان لها آثار بالغة فى تطور الغذاء فى الشرق الأوسط :

أولها : حروب إسكندر المقدونى التى عرّفت العالم القديم منتجات آسيا عن طريق المؤرخين الذين اصطحبوه ، ومن هذه المنتجات قصب السكر الذى سموه « العشبة التى تنتج العسل دون معاونة النحل » .

ثانيها : انتشار الإسلام الذى جمع فى دين واحد وحضارة موحدة العالم المعروف قاطبة ، فأضاف إلى قوائم الأكل فواكه وأطعمة كالأرز والسكر والقهوة والبرتقال والمشمش . . إلخ .

ثالثها : هو اكتشاف أمريكا الذى أدخل أمثال الأذرة والبطاطس والطماطم والديكة الرومية .

الندرة المستجدة : وهى الندرة الناتجة : إما عن تغيرات فى المناخ أو عن المبالغة فى الاستهلاك ؛ كما حدث فى المناطق التى اضطرت سلطاتها إلى تحديد الصيد واحتجاز مساحات كبيرة « جنات » تسمح لتلك الحيوانات بالتكاثر فى سلام منعاً لانقراضها . وقد ورد فى نصوص أثينيوس الإغريقى(١٠) :

« قال فيلوخورس : إنه قد حدث أن عدد البقر قل فصدر أمرٌ يحرم هذا الحيوان للسماح بازدياد عدده » (٩ : ٣٧٥ : C)

ومن هذا جدب المكسيك قبل كولومبس بسبب زراعته دون دراسة ، وتحول مناطق واسعة وسط أمريكا إلى صحراء بعد إزالة غاباتها ، وتحول شمالى أفريقيا إلى رمال بعد الجفاف الذى طرأ عليها .

ومن الغريب أن الندرة قد تنتج ليس عن افتقار ، ولكن عن ثراء مستحدث : فمن أمثلة الندرة المستحدثة التى تدعو إلى التعجب ما عرف أخيراً عن مواجهة اليابان احتمال حدوث أزمة غذائية (الأهرام ، ٦ / ١ / ١٩٧٩ ص ٥) ، واليابان اليوم ثالثة قوة صناعية فى العالم ، وصاحبة عملة من أقوى العملات المتداولة ، ويزيد إنتاجها الصناعى على مجموع الإنتاج الصناعى لكل دول السوق الأوربية المشتركة !

هذا وقد غيرت الثورة التكنولوجية اليابانية الكثير من تقاليدها وملامحها الاقتصادية . فقد أصبح اليابانيون شعباً يعيش إلى حد كبير على الزلاليات الحيوانية بدلا من النشويات : فأخذ استهلاك الأرز - وهو الطعام الأساسى التقليدى - فى التناقص ، وزاد الدخل الفردى بنحو اثنى عشر ضعفاً بين عامى ١٩٤٥ و ١٩٦٠ ، وزاد التعداد من ٨٢ مليوناً عام ١٩٤٥ إلى نحو من ١١٢ مليوناً عام ١٩٧٥ ، فزاد استهلاك الأطعمة الغالية التى لا ينتجون أغلبها .

ومع تغيير العادات الغذائية طولبت الزراعة التى كانت تكاد تحقق الاكتفاء الذاتى بالتغيير والتجديد ، ولكن الصناعة اليابانية التهمت المزيد من الأراضى المزروعة ؛ كما راحت تشغل ملايين الفلاحين حتى لم يعد يعيش فى الريف سوى ١٢٪ من السكان ، نصفهم فقط لا يعملون بغير الزراعة والأعمال المرتبطة بها ، و ٨٥٪ منهم من الشيوخ والنساء والأطفال .

لم تنتبه الحكومات المتعاقبة إلى الأزمة المتوقعة إلا عام ١٩٧٢ حين بدأت أزمة الغذاء العالمية ، فاكتشفت أن اليابان تنتج ٧٢٪ فقط من حاجاتها الغذائية

الأساسية ، و ٣٦٪ فقط من الأغذية الزلالية و ٥٤٪ من مجموعة السعرات الحرارية التى يحتاج إليها الشعب و ٤٪ من القمح و ١١٪ من الشعير و ٤٪ من فول الصويا .

علاوة على أنها ظلت الدولة الأولى فى العالم فى صيد الأسماك ، فإن معظم هذه الكمية تصطاد من المياه الإقليمية لدول أخرى ؛ إلا أن دول العالم تتجه إلى مد مياهها الإقليمية إلى مسافة ٢٠٠ ميل بحرى . وقد أضاف إلى هذه التهديدات ارتفاع الأسعار فى قفزات رهيبة وازدياد الطلب العالمى على الأغذية . وهكذا وضعت هذه البلاد الغنية فى مواجهة الإحساس بأن أمنها الغذائى مهدد حتى فى وقت السلم وحتى مع ثروتها التى تسمح لها باستيراد احتياجاتها ، بل - إلى حد ما - بسبب ثرائها الجديد .

تطور طرق الطهو : ويمكن التمثيل له بالتطور الذى طرأ على كيفية أكل الحبوب : فقد كانت تؤكل - أول الأمر - فجة وخضراء ، ثم بعد اختراع النار وبعد ابتكار الآنية الفخارية طبخت فى أنواع من العصيدة ، وأخيراً بعد قيام حضارة المدن طحنت وغربلت وحولت إلى خبز غير مخمر ، ثم أضيفت لها الخمائر .

٥ - محاكاة الأنماط السائدة (الموضة) : ومن أمثلتها وأمثلة المحاكاة العمياء ما أصاب من تطورات الخبز الأسمر المجعول من دقيق يحوى نسبة مرتفعة من الردة فقد كان يعد فيما مضى خبزاً رخيصاً لا يصلح إلا لغير القادرين ، وتفاخر الأثرياء ببياض خبزهم . ثم مع تقدم معرفتنا للفيتامينات التى فى قشرة الحنطة ولتأثير الردة على الأمعاء - اعتبر الخبز الأسمر خبزاً مثالياً ، واتهم الخبز الأبيض بإحداث تسوس الأسنان ، والإمساك ، ولين العظام ، إلخ .

ومن الأمثلة المأثورة لآثار (الموضة) أن القواقع وأنواع المحار ظلت مهملة محتقرة فى أوربا قروناً طويلة ، وأصبحت الآن أفخر الأطعمة وأثمنها .

مناهج البحث فى الأنماط الغذائية :

لقد طرق الباحثون فى المجالات السابق ذكرها مناهج مختلفة نذكر منها :

المنهج البيئى الذى يبحث عن السببية التى تربط بين كل من البيئة والصحة والطعام ، وقد جنح الآخذون بهذا المنهج إلى أن الأنماط الغذائية إنما تحددها عوامل بيئية ، وهذا الرأى ليس بجديد ، وأول من سجله كان أبقراط فى القرن الخامس ق . م . وأكبر أبطاله فى قرننا الحالى هما هنتجتون (١١ ، ١٢) وسمبل (١٣ ، ١٤) .

ويتفرع عنه علم التبوؤ الذى يعنى بالضغوط المتبادلة بين الإنسان ومحيطه ، والذى يحاول معرفة أسرار التوازن بينهما ، ولنذكر مثلا لهذه الدراسات : نفوذ شبكة المواصلات داخل مجتمع محدد الرقعة على التركيب الاجتماعى للقبيلة ، وتأثير قائمة الطعام المتوفر على ابتكار الوسائل الرامية إلى الإكثار من الأطعمة الحيوانية أو الاقتصاد فى استهلاكها ، وقد تكون تلك الوسائل طقسية أو دينية .

المنهج الإقليمى : وهو – على نقيض المنهج البيئى الذى يقصر بحثه على المناطق الصغيرة – يميل إلى الاعتقاد بأن إنتاج الغذاء واختياره يتبعان تيارات عالمية واسعة .

علم التأريخ الثقافى : هو الذى يستمد المعلومات عن طريق دراسة الآثار واللغات والتاريخ والتقاليد المنقولة شفوياً ، ويشمل هذا العلم النظر فى تأثير المعتقدات الدينية (١٥ ، ١٦) أو – كما فعل سيمونز (١٧) – فى الحقائق التاريخية ؛ بحثاً . عن أصول التحريمات الغذائية .

وقد جمع بعض الباحثين بين هذا المنهج والمنهج البيئى ، وأسفرت دراساتهم عن معلومات مفيدة فى شأن علاقة الثقافة والبيئة بظواهر مختلفة كأكل المواد الأرضية (الجيوفاجيا) ، وكتطور الغذاء مع تطور الزراعة وسياسات الاستيراد ،

وكتاريخ ورود الأذرة (الذرة الشامى) إلى العالم القديم : فقد زعم[١٨] أن هذا النبات وصل إلى أفريقيا قبل كولومبس ، على عكس الرأى الشائع وهو أنه جلبه كولومبس من أمريكا فى القرن السادس عشر ، وانتشر بسرعة من إسبانيا إلى إيطاليا وتركيا ومصر ، وتسبب فى ظهور مرض البلاجرا فى هذه البلاد .

المذهب الانتفاعى : Functionalism القائل : إن العادات الغذائية نشأت بقصد إشباع حاجات اجتماعية ، وإن الغذاء والأكل يرمزان إلى علاقات إنسانية ؛ لأنهما يثبتان عمليات إنتاج الطعام ومعالجته وتبادله ، ويقويان أواصر المجتمع .

والنظرية مبنية على العقيدة بأن البحث عن الطعام مرتبط باستعماله لأغراض حضرية أكثر من ارتباطه بأغراض التغذية ؛ فالأكل ليس خبزاً ولحماً وزاداً فحسب ، إن نواحيه غير الغذائية قد تفوق أحياناً قيمته الغذائية . وقد يؤدى دوراً هاماً - (كفنجال) القهوة - فى تسهيل العلاقات الإنسانية ، فالحاجة إليه (يومية) ويحضر ويُؤكَل جماعة ، وكل سماط حدث اجتماعى يوثق أواصر شديدة ، وقد يبلغ مجرد الجلوس إلى مائدة واحدة رسالة على شكل أوقع من تبليغها شفوياً أو كتابياً . وبالإضافة فإن الأكل والشرب أسهل ملذات الحياة معالجة فى المناسبات العامة ، وأثبت وأرخص طرائق التمتع بالحياة . وإذا كان الاشتراك فى الأكل يخلق زمالة قوية كان منطقياً أيضاً إقامة المآدب والولائم فى شكل متكلف لتحقيق التبادل الاجتماعى .

ويؤكد هذا المذهب الانتفاعى أن سبب فشل بعض البرامج الرامية إلى الإصلاح الغذائى يرجع إلى عدم أخذها فى الاعتبار دور الأكل من نواحيه غير الغذائية . وقد أدى تطبيق هذه الآراء إلى تفسير نفور بعض الشعوب من أغذية معينة ، والوصول إلى منطق تقاليد غذائية تبدو - أول وهلة - مضياعة .

ومن أغرب هذه التقاليد تهالك بعض قبائل الهنود الحمر فى «كفاحات» سلمية، مؤداها تحدى القبائل بعضها البعض فى تبادل الهدايا للمباهاة برفعة مكانتهم وسعة ثرواتهم، ولإرهاق مدخرات منافسيهم، ومن ثم وجوب تخزين جزء كبير من محصولاتهم للحيطة خوفاً من هذه التحديات، وقد أدى هذا إلى مجاعات على حين كانت المخازن مكتظة بالغذاء[19]!

المنهج الحسابى: الذى يعتمد على قياسات متعددة الأبعاد لتحديد أنسب الغذاء لظروف اجتماعية معينة وأكثرها قبولا وأرفعها فى القيمة الغذائية وأقلها فى التكاليف.

الأسلوب الإكلينيكى: المبنى على معرفة الإنتاج المحلى وقيمته الغذائية واستخدام الفرد له. هذا إلى أن غذاء الشعوب العائرة قد لا يكون ناقصاً. ولنضرب مثالا لذلك: إن قبيلة الأوتومى بالمكسيك تحصل على الكالسيوم من الحجارة المستخدمة فى طحن الأذرة وعلى الفيتامينات من تخمير الصبار[20]. إلخ وإن كميات كبيرة من الفيتامينات والأحماض الأمينية الأساسية تتكون عند اختمار الكشك ومشروب البوظة، وتضيف إلى الغذاء صفات لا يحسبها مجرد وزنه[21].

الباب الثانى

المحرّمات فى مصر القديمة

إذا عرضنا الآن إلى المحرمات عبرنا العتبة الفاصلة بين المعقول وغير المعقول . ودخلنا عالم الأساطير ، وإن كان البعض اليوم يفسر التحريم بمنطق القرن العشرين ومحصيلته العلمية . والحظر فى مصر القديمة لم يتناول إلا أنواعاً معدودة من الأطعمة ، واقتصر على مناطق محدودة ، أو مواسم دينية أو حقب تاريخية قصيرة .

كما أنه - على الأرجح - لم تمتثل له إلا الطبقات العليا وفئة الكهنة ، وهم ذوو المصلحة فى الحفاظ على طقوس الدين الرسمى وعبادة الآلهة الذين ينتمون إليها . أما الشعب - وبصفة خاصة الشعب المصرى - فلدأبه المعروف على الاحتجاج والمساءلة ولعدم مبالاته باعتبارات الطبقات العليا ، أو لعدم قدرته على اختيار طعامه - فمن المرجح أنه لم يأخذ - عامة - بهذه الأحكام .

وأهم المحرمات التى ذكرت هى المحرمات الحيوانية ، وقد لعبت أسطورة أوزيريس وإيزيس دوراً رئيسياً فى تحديدها .

قدس الحيوان أو نجسه فى مصر القديمة :

خضعت حياة المصرى فى عهد الفراعنة إلى مقتضيات دين دار حول أسطورة إنما تعبر - على حسب ما أفتى أهل العلم - تعبيراً روائياً جذاباً عن أحداث تاريخية طواها الزمن ونسيت ، اللهم إلا حين كان الشعب يردد فصول هذه الملحمة الآخذة :

روت هذه الأسطورة أن (أوزيريس) ملك مصر العادل بعد أن ابتكر الزراعة وعلم رعاياه فنونها - غادر بلاده ليجول فى أنحاء البسيطة حاملا رسالته للبشر أستاذاً ومعلماً ، وكان أخوه (ست) يحسده على ملكه ، فدبر له مكيدة ، ليتخلص منه ويرث عرشه : دعاه لدى عودته إلى مأدبة سخية ، وكان قد أمر بصنع تابوت فاخر على شكل أخيه ومقاسه ؛ ليتحف به - على حد قوله - من يوافقه حجماً وشكلا ، فأدخل فيه المدعوين واحداً واحداً ليختبرهم ، وما إن أدخل أخاه حتى أحكم إغلاق الصندوق وألقى به فى البحر ! فحزنت (إيزيس) أرمل (أوزيريس) على زوجها حزناً عظيماً ، وما فتئت تبحث عنه حتى وجدته ، بعد مغامرات طويلة ، فى بيبلوس (مدينة جبيل بلبنان) غير أن أمرها وصل إلى (ست) ، فبحث عن التابوت حتى كشف عنه ، وقطع جسد الشهيد إرباً إرباً وبعثر أشلاءه فى أقاليم الوادى . حشا عضو التذكير وألقى به فى اليم ، فابتلعه السمك . وعادت (إيزيس) تجوس خلال الديار لتجمع أشلاءه ، فوجدتها كلها ما عدا ذلك العضو الذى ابتلعه السمك . وعندما ترعرع (حور) ابنها من (أوزيريس) اختصم إلى القضاء الإلهى بهليوبولس (عين شمس) وغيرها ؛ ليسترد عرشه المغصوب ، ثم جرت بينه وبين (ست) ورهطه ، حروب ووقائع رددتها الأساطير ، وانتهت بانتصار (حور) على عمه .

ولهذه الملحمة ذيول وفصول ممتعة سنذكر منها بعض ما يتعلق بموضوعنا :

لقد ورد فى بردية (نو)[٢٢] أنّ الإله (رع) قال لـ (حور) ذات يوم : دعنى أنظر إلى عينك ، ثم قال : انظر إلى هذا الخنزير الأسود . فما إن وجه (حور) نظره إليه حتى أصيبت عينه ، وقد كان للخنزير شكلا اتخذه (ست) ليضرب عين (حور) فقال (رع) للآلهة : إن الخنزير رجس لـ (حور) ، ولكن الفوز قدِّر (لحور) وإن كان الخنزير رجساً له .

وروى بلوتارخ وهو الذى سرد أكثر التفاصيل عن هذه الأحداث :[٢٣] أن القصة التى يرويها المصريون فى خلال الظرف الوحيد الذى يذبحون فيه خنزيراً ويأكلون منه عندما يكون القمر بدراً - هى كيف أن تيفون (وهو اسم ست عند الإغريق) ، وهو يطارد خنزيراً على ضوء بدر القمر - وجد الصندوق الخشبى الذى أودع جثمان أوزيريس ومزقه وبعثر أشلاءه ؛ كما ورد أن ست ورهطه ، بعد أن لاحقهم حور ألقى بهم فى النهر فى شكل حمير وخنازير وأفراس البحر ، وأن هذا هو السبب فى أنها تعد من الكائنات المنتمية إلى ست ، وتنال من المقت والنفور مايناله هذا الإله من لدن أتباع أوزيريس .

ويذهب المؤرخون إلى أن هذه الأسطورة إنما هى نقل شاعرى للحروب التاريخية بين شعب جنوبى مصر وإلهه (أوزيريس) ، وبين شعب شمالى مصر وإلهه (ست) ، وهى الحروب التى انتهت بانتصار الجنوب وسيطرته على سائر القطر ، ومن ثم أدت إلى سيادة كهان أوزيريس ، اللهم إلا فى بقع محدودة كمدينة تانيس (وهى صا الحجر) حيث ظلت عبادته قائمة . تردد صدى هذه الأسطورة فى أرجاء جميع العالم المعروف ، ورئى فيها رموزاً بالغة المعانى ، فصورت فى الخيال الجماعى انتصار الحضارة والزراعة على الفوضى والجدب ، واختفاء الثمار فى الشتاء ، ثم بعثها فى الربيع ، وظهرت أساطير مماثلة فى غير مصر : إما نقلا عن

مصر ، وإما لتشابه التفكير الإنسانى وتخيلته .

فعند شعوب الشرق روى أن آدون ، وهو بعينه من سمّاه الإغريق (أدونيس) يمثل الربيع ، وكان يصور فى شكل فتى جميل من أبناء الملوك : روى أن أفروديت (وقيل إشتار) إلهة الحب هامت بحبه منذ ولادته ، فسلمته إلى (برسفون) إلهة غور الأرض لتربيه فأحبته (برسفون) ، وتنازعت الإلهتان إلى أن أنصفهما (زيوس) ، فحكم بمنحه نصف السنة لكل منهما بالتناوب ، غير أن (أفروديت) احتفظت به زمناً أطول من نصيبها ، فاغتاظت (برسفون) وأشعلت الغيرة فى قلب الإله (آريس) زوج (أفروديت) فتنكر (آريس) فى شكل خنزير ، وتربص به حتّى لاقاه ذات يوم فى الصيد فى جبال لبنان ، فهاجمه وأسال دمه . فتحول الدم إلى زهرة الشقار الحمراء التى تغطى سفح جبال بيلوس (وهى جبيل بلبنان) فى الربيع ، ولوّن النهر الجارى فى هذه المنطقة ، والذى سمّى فيما بعد أدونيس ، على اسم البطل فلم يخرج (أدونيس) عن طبيعة (أوزيريس) الذى صارعه الشرير (ست) ، ورمزه الخنزير .

وفى محيط الأساطير التى مثلت نشأة الزراعة ، روى أن الإله (هادس) إله الجحيم وباطن الأرض هام بحب (برسفون) ابنة (ديمتر) إلهة الزراعة والأمومة ، فاختطفها إلى مملكته فى الأعماق المظلمة ، ومابرحت (ديمتر) تبحث عنها حتى لاقت تربتوليموس ابن الملك الذى ساعدها على استرداد ابنتها ، فوهبت له فن الزراعة . ثم بادر (تربتوليموس) بالجولان فى أنحاء العالم ليبث هذا العلم ، كما فعل (أوزيريس) من قبل ، فرمزت هذه الرواية — ومثلها مثل رواية أوزيريس — إلى اختفاء الخضرة فى الشتاء (اختفاء برسفون فى أعماق الأرض) ثم إلى ظهورها فى الربيع . وهذه الرواية لا ينقصها التلميح إلى الخنزير ؛ فقد كان (أوبوليوس) (Eubuleus) أخو (تربتوليموس) يرعى الخنازير فى إلوزيس

(Eleusis) وهى مـــدينة (ديمتر) عندما انفجرت الأرض ، فابتلعت الخنازير فى الفجوة التى انفتحت ؛ كما أن الخنزير كان يشترك فى الطقوس الألوزية السرّية [1] ، وصكت النقود بصورها فى تلك المدينة ، واعتاد أتباع (ديمتر) غرس شىء من لحم الخنزير فى الأرض مع الثمار رجاء الحصول على حصاد غزير [24] .

ولنعد إلى مصر : فقد كان عدد الحيوانات المحرمة فيها كبيراً ، أما أن تحريم البعض منها بات محصوراً فى مناطق ضيقة فإنما سببه أن حظ كل حيوان من الحصانة أو من النحر والوقوع ضحية للقصابين إنما هو حظ الإله الذى يرمز إليه من مدى السيادة وانتشار العبادة ، وقد قال هيردوت فى هذا الصدد [25] :

« . . ولكن المصريين يقدسون كل الحيوانات التى فى بلادهم ، وإذا أردت أن أتكلم عن الأسباب التى من أجلها قدست الحيوانات – استطردت فى حديثى إلى الشئون الدينية التى أتجنب بوجه خاص الخوض فيها بالتفصيل . . وإذا قتل امرؤ أحدها عمداً كان جزاؤه الموت ، أما إذا قتله بغير قصد فيدفع الغرامة التى يقررها الكهنة . فأما عقوبة الموت فلا مفر منها لمن يقتل « أبا منجل » أو « باشعا » سواء ارتكب القتل عمداً أو بدون عمد (٢ : ٦٥) .

وقال هيردوت أيضاً : « ويمتنع الذين يملكون معبداً لزيوس الطيبى (آمون) ، وكل الذين فى ولاية طيبة – كلهم يمتنعون عن تضحية الأغنام ويضحون بالماعز ؛ (لأن المصريين يعبدون على حد سواء الآلهة نفسها ما عدا (إيزيس) وأوزيريس وهذا الأخير – على حد قولهم – هو (ديونسيس) إذ إن كلهم بغير استثناء يعبدون هذين الإلهين ، فأما الذين لديهم معبد لمنديس ، ثم أهل مقاطعة منديس –

---

(١) ديانةسرية شاعت من القرن السادس ق . م . إلى القرن الميلادى ، وانتمى إليها كبار فلاسفة هذا العصر ، ولم يبح بأسرارها أحد منهم .

فلا يضحون بالماعز بل بالضأن .

ويقول أهل طيبة وأمثالهم ممن يضحون بالأغنام : إن هذه السنّة فرضت عليهم لهذا السبب : أراد « هيراكليس » أن يرى (زيوس) بأى حال ، ولكن هذا لم يرغب فى أن يراه (هيراكليس) ، وفى نهاية الأمر -لما استمر الأخير فى إلحاحه- فكر « زيوس » فيما يلى :

سلخ كبشاً وبعد أن قطعَ رأسه وضعه على وجهه ، ثم لبس الفرو ، وأظهر نفسه لهيراكليس بهذه الكيفية . لذلك يصنع المصريون تمثال (زيوس) وله وجه كبش وقد نقل الآمونيون ذلك عن المصريين . والآمونيون هاجروا من مصر والحبشة . ويتكلمون لغة وسطاً بين لغتى الشعبين ، ويبدو لى أن الاسم نفسه الذى اتخذه الآمونيون علَماً عليهم يشتق من ذلك ، لأن (زيوس) عند المصريين اسمه (آمون) ، ولذلك لا يضحى أهل طيبة بالكباش ، ولكنهم يقدسونها . ومع ذلك ففى يوم من أيام السنة ، يوم الاحتفال بعيد (زيوس) — يذبحون كبشا واحدا ويسلخونه ويغطون بجلده تمثال زيوس ، ثم يحضرون بالقرب منه تمثالا آخر لهيراكليس . . ثم يدفنونه فى قبر مقدس» (٢ : ٤٢) .

إن هذا النص الطويل يتطلب بعض التعليق ، وقد اقتبسناه من إيضاحات الدكتور أحمد بدوى ؛ فإن الماعز لم يكن له بين حيوان مصر المقدس قيمة ، وكان من قبيل (ست) ورهطه ، وإنما كان المصريون يجعلونه عند الضرورة الملحة بديلا عن الضأن ، وكانت التضحية به كرهاً وزهداً فيه ، ولكن المصريين كانوا يقدسون الكباش دون التيوس منذ أقدم العصور التاريخية ؛ لأنها جاءتهم وافدة مع النيل من قلب أفريقيا فربطوا بينها وبين النيل ، وهو لديهم مصدر الخصب والحياة ، وخالوه حارساً على منابع النيل التقليدية ، وزادوا على ذلك فخالوه بارئا للبشر يصورهم من صلصال كالفخار ، وكان الكبش أيضاً من حيوان (آمون) فهم صوروا هذا



(شكل ١) كاهن طبيب يراقب عملية النحر ويبدى إرشاداته . الدولة القديمة . سقارة

المعبود فى هيئة بشر له رأس كبش ، هذا وأكبر الظن أن الحيوان المقدس فى منديس كان كبشاً وإن كان الإغريق جعلوه تيساً : ففى العصور المتأخرة استبدل أهل منديس الضأن بالماعز ، كما فعل أهل طيبة حيث جاء فى جبانتها ذكر الماعز بوصفه الروح المقدس لآمون .

البقر

لم يرد عن تحريم البقر وما إليه فى مصر القديمة إلا النزر اليسير ، وإنما ورد شيء من هذا فى كتابات الإغريق من بعد القرن السادس ق . م ، وقد خص هذا التحريم أحياناً ببعض أجزاء الحيوان أياً كان نوعه ، وخص البعض الآخر بالحيوان بأكمله إذا بدت عليه بعض السمات أحياناً أخرى وتزخر المقابر برسوم تمثل النحر تحت رقابة طبيب كهنى وإرشاداته (شكل ١)

أجزاء الحيوان : قال « أبو التاريخ » هيردوت عن الضحايا المقدمة للأرباب : « وبعد ذبحها يقطعون رأسها ويسلخون جسدها ، ثم يمطرون على رأسها وافر اللعنات ! وإذا كانت لهم سوق ويقيم عندهم تجار يونانيون فإنهم يحملون الرأس إلى هناك ويبيعونه ، أما الذين ليس بينهم يونانيون فإنهم يلقون به فى النهر . أما عن اللعنات التى يتلونها على رءوس الضحايا فهذا مدلولها :

« إن كان هناك خطب سيحل بالمضحين أنفسهم أو بمصر كلها فلينزل على هذا الرأس . . » ووفقاً لهذه السنة لا يذوق أحد من المصريين مطلقاً رأس أى كائن حى (٢ : ٣٩)

ومن البين أن هذا النص يشير إلى أن الرأس كان يتحمل الخطايا أو ذنب ناحر الضحية ، كما أنه يدل بوضوح على أن سنة خصت أول أمرها - القرابين الدينية -

عمِّمت فيما بعد حتى شملت أنواع الحيوان المأكولة كافة .

أما أسلوب التخلص من الأجزاء النجسة ، فيماثل الأسلوب الذى فرضته التوراة : لا تأكلوا جثة ، تعطيها الغريب الذى فى أبوابك ، فيأكلها أو يبيعها لأجنبي ؛ لأنك شعب قدس للرب إلهك . لا تطبخ جدياً بلبنه » (تثنية ١٤ : ٢١) .

ومع ذلك فإن موائد القربان على جدران المقابر لم تخل من رءوس الذبائح من البقر أو الطير . وقد ذهب المؤرخون إلى أحد تفسيرين لهذا التناقض : إما أن الرأس فى هذه الرسوم يمثل حيواناً بأكمله ، كقولنا « مائة رأس غنم » ، وإما أن رأس الضحية كان كفارة [٢٦] .

الحيوان بأكمله : تشمل هذه الفئة كل حيوان يحمل على جسمه سيماء معينة ، ومنها العجول الحمراء التى ذكرها ديودور الصقلى (١ : ٨٨ : ٤ — ٥) وقال : إنها تضحى انتقاماً من ست وكيداً له ؛ لأن اللون الأحمر هو لونه . ولهذا التميز أيضاً ما يماثله فى التوراة حيث كانت الأبقار الحمراء تتخذ « ذبائح خطية » . . . « قل هذه فريضة الشريعة التى أمر بها الرب قائلا : كلم بنى إسرائيل أن يأخذوا إليك بقرة حمراء صحيحة لاعيب فيها لم يعل عليها نير فتعطونها لإلعازار الكاهن ، فتخرج إلى خارج المحلة وتذبح قدامه ويأخذ إلعازار الكاهن من دمها بإصبعه وينضح من دمها . . وتحرق أمام عينيه ويكون الكاهن نجساً إلى المساء . . إنها ذبيحة خطية (عدد : ١٩ : ٢ — ١٩) .

وكان التيقن من طهارة الحيوان يجرى فى دقة متناهية (شكل ٢) : « فإذا رأى الكاهن العبرانى شعرة سوداء واحدة فى جسد الثور عدّه نجساً . وقد أكد بلوتارخ [٢٧] إخضاع المصريين ضحاياهم لهذا الشرط ؛ إذ قال : « إن المصريين — لاعتقادهم أن تيفون كان أحمر البشرة — يخصصون للتضحية من أنعامهم النقية

ذات اللون الأحمر . . . ويعتقدون أن تقديم حيوان ذى شعرة سوداء أو بيضاء واحدة خطأ جسيم . . » . .

ثم كانَ الكاهن يسحب لسان الضحية ليرى : هل كان نقياً من علامات خاصة سنتحدث عنها فى فصل آخر[1] وينظر كذلك فى شعر الذيل (ليرى) أن نبته طبيعى . فإذا كان الثور طاهراً من كل الوجوه وضعت عليه علامة . . . أما من يضحى بثور غير موسوم بهذه الكيفية فالعقوبة على ذلك الموت » (هيردوت ٢ : ٣٨) .

ومن هذه الفئة أيضاً كل ما اتسم بسمات العجول المؤلهة وهى عجول (آبيس) و (منيفيس) و (بوخيس) ، بالإضافة إلى عجول كثيرة قدست محلياً ولم تصل إلى منزلة الآلهة . وكان لكل عجل من هذه العجول ميزات ، كلون الفرو وخلو اللسان من بعض العلامات وما إلى هذا من صفات خارجية . ويلاحظ أن هذه السمات لم تكن من دلائل المرض ، وقد يكون أثراً من آثار معاشرة اليهود للمصريين فى وطنهم - أنهم عند رحيلهم إلى سيناء صنعوا عجلا من الذهب وعبدوه (الخروج ٣ : ٣ - ٤)

ألّه المصريون عجل آبيس ، واعتقدوا أن أمه تلده ولادة بتوليةً بفعل نار من السماء (وقيل من القمر أيضا) ؛ كما زعموا أيضاً أن (حور) ولد بفعل نار أو برق أخصب أمه إيزيس[٢٨] .

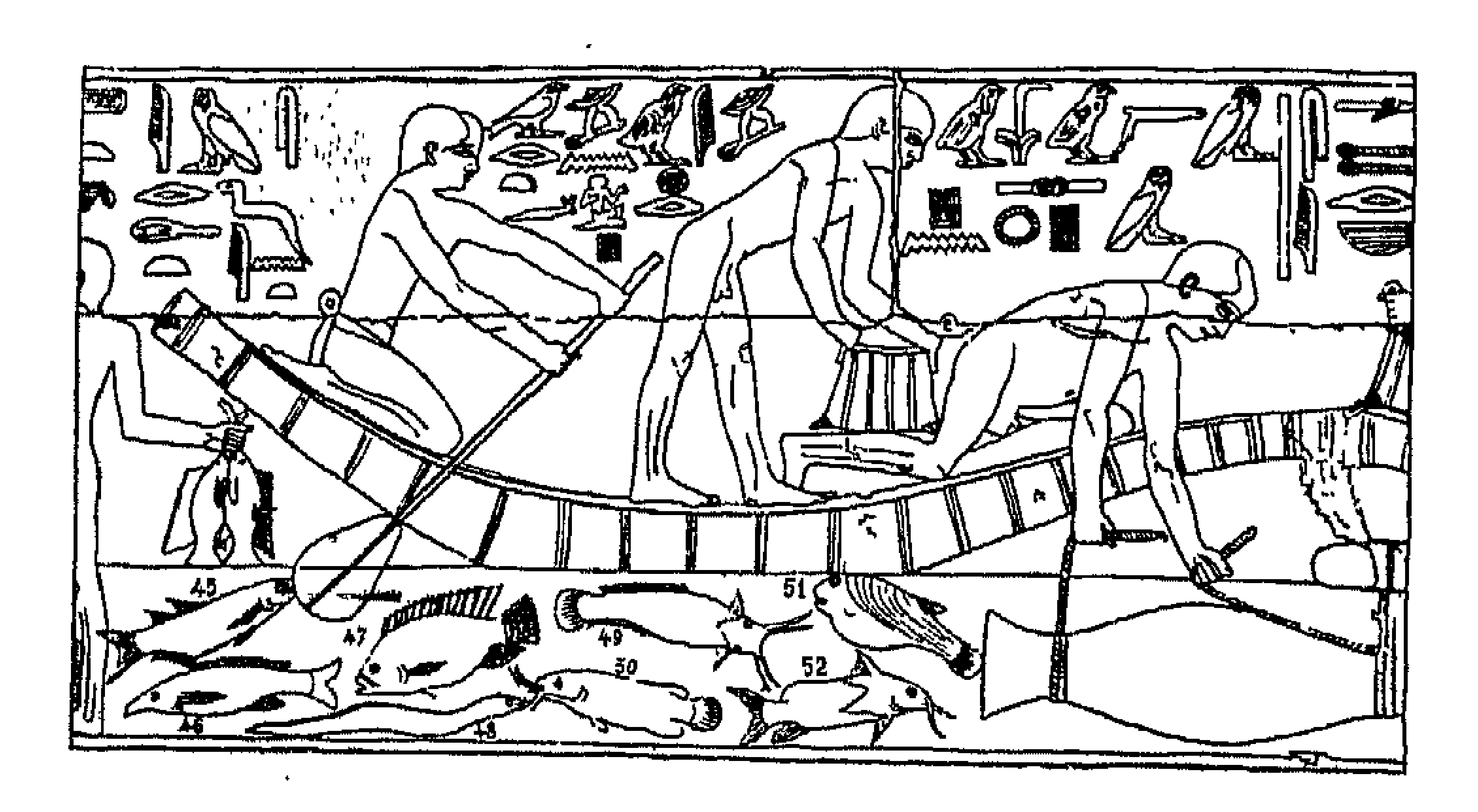
ولم يكن تقديس المصريين للعجول بالأمر الغريب ؛ فقد كانوا لإدراكهم أهمية فيض النيل فى إخصاب أرضهم يقدسون النهر ويعدونه فحل أرضهم ،

---

(١) تحدث عنها هيردوت فى الجزء الثالث من كتابه (٣ - ٨) . وهى خاصة بالعجل المقدس آبيس ، ومن المصادفات الطريفة أن تفحص اللسان يجرى الآن لمعرفة إصابة الحيوان بمرض السستسركوز .



(شكل ٢) فى وسط هذه الصورة الطبيب الكاتب (نخت) ممسكاً قلماً يعد الأبقار وربما يختار أصلحها . بنى حسن . الدولة المتوسطة



(شكل ٣) صيد الأسماك . وقد رسمت الأسماك فى دقة سمحت بمعرفة أنواعها المختلفة . منها البورى (رقم ٤٥) والبلطى (رقم ٤٧) والثعبان (رقم ٤٨) والشال (رقم ٥٢) وغيرها . سقارة . الدولة القديمة .

ويمثلونه فى هيئة آدمى له رأس فحل ، ويسمون فيضه « هبة الفحل » ، كما لقبوا الفحل بـ « خالق نفسه » لقوته المخصبة ، ووصفوا فرعون بـ « الفحل القوى » ، كما كان العرب يقولون : « فلان كبش قومه »[٢٩] .

وربط المؤرخون أيضاً بين أبيس و (أوزيريس) ، لعلاقة الثور بالزراعة ، ولعقيدتهم بأن الزراعة من مبتكرات (أوزيريس) ، وسجل ديودور الصقلى هذا التفسير حيث قال : « إن الثيران المقدسة – وإنى أعنى هنا عجلى أبيس ومنيفيس – تكرم مثل الآلهة ، على حسب ما أمر أوزيريس ؛ لأن صيت الذين كشفوا عن ثمار الأرض – انتقل إلى الأجيال اللاحقة وإلى الأبد بجهود هذه الحيوانات (١ ، ٨ ، ٤) ، وتجاوزوا هذا إلى حد القول بأن روح (أوزيريس) تقمصت – بعد وفاته – ثوراً ، وأنه واصل بعد ذلك التقمص من ثور إلى ابنه وأن (إيزيس) أودعت أشلاء (أوزيريس) – بعد أن صرعه (ست) – صندوقاً من الخشب مصنوعا على شكل ثور (ديودور ١ : ٨ : ٤ – ٥) وروى بلوتارخ أن الكهان أكدوا له بأن (أوزيريس) هو (آبيس) ، وأن ديونيزيوس - (أوزيريس) كان أول من استورد الثيران من الهند إلى مصر ، وكان عددها اثنين ، واسم أحدهما (آبيس)[٣٠] .

أما عجل (منيفيس) الذى تركزت عبادته فى عين شمس فقد جمع بينه وبين الإله (رع – أتوم) من جهة ، وبينه وبين عبادة (أوزيريس) من جهة أخرى[٣١] ، وذهب البعض إلى أنه أبو عجل (آبيس) ، وقدس للشمس فى حين أن (آبيس) قدس للقمر ، وقد وردت قصة فحواها أن الملك (بوخورس) أراد ذات يوم إذلال المصريين ، فأرسل بقراً وحشياً ضد (منيفيس) ليقضى عليه ، غير أن رجل البقر زلت فخر صريعا على شجرة لبخ ، وانكسر قرنه ، فهاجمه (منيفيس) عندئذ وجرحه ، وزاد كره المصريين لبوخورس من جراء هذا

الحدث [٣٢].

وثالث الفحول المؤلهة كان عجل (بوخيس) الذى عدّ تجسيماً للإله (منت) ، وكان مقدساً للشمس : وعبادته فى أرمنت . حيث وجدت مقابره .

البقرة : قال هيردوت : ويضحى المصريون كلهم بالثيران والعجول الطاهرة . ولا يباح لهم أن ينحروا الأبقار فهى مقدسة لإيزيس . وتمثال إيزيس فى الواقع على شكل امرأة وله قرنان ، كما يصور اليونانيون (إيو) . والمصريون جميعا - بغير استثناء - يخصون الأبقار من بين الماشية كلها بأكبر تعظيم ، ولهذا السبب لا يقبّل مصرى أو مصرية يونانياً على الشفاه ، ولا يستعمل سكين يونانىٍّ أو سفافيده أو قدره ، ولا يذوق لحم ثور طاهر إذا قطع بسكين يونانية (٢ : ٤١) ، وهذا النص ينفى أن منبع التحريم خشية العدوى ، كما أنه يشبه رواية الوليمة التى أولمها يوسف لإخوته وللمصريين :

« . . . فقدموا له وحده (الطعام) ، ولهم وحدهم (إخوته) ، وللمصريين الآكلين عنده وحدهم ؛ لأن المصريين لا يقدرون أن يأكلوا طعاماً مع العبرانيين ؛ لأنه رجس عند المصريين» (سفر التكوين ٤٣ : ٣٢) .

وقال هيردوت أيضاً - وهو يتحدث عن واحة سيوة ، ويؤكد أنها جزء من مصر « إن إجابة وحى آمون لتؤكد أن مصر عظيمة الامتداد ، كما أوضحت هذه الإجابة . . »

حدث أن أهل مدينتى « ماريا وآبيس [١] » الذين يسكنون أجزاءها التى تتاخم ليبيا كانوا يعتبرون أنفسهم ليبيين لا مصريين . (وذلك) لما أثقلتهم الشعائر الدينية بما لا طاقة لهم به ، ورغبوا فى أن يأكلوا لحم البقر ، وأرسلوا إلى آمون

---

(١) ماريا هى حالياً : مريوط ، وآبيس قيل : إنها على مسيرة خمسة أيام من واحة سيوة فى الصحراء الغربية .

مدعين أن ليس هناك شيء يجمع بينهم وبين المصريين ؛ لأنهم يسكنون خارج الدلتا ، وأن ليست بينهم (وبين المصريين) صلة فى اللغة ، وأنهم شاءوا أن يحل لهم أكل كل طعام . . . . » (٢ : ١٨)

وأكد (بورفيرى) هذا الرأى فى القرن الثالث الميلادى ؛ إذ قال : « إن المصريين والفينيقيين ليفضلون أكل لحم الآدميين على أكل لحم البقر ! (٢ : ١١) .

ويبدو تسلل الأساطير من مصر إلى اليونان واضحاً إذا ما قارنا بين ما يخص منها البقر ، وبين رواية (إيو) الإغريقية . كانت (إيو) ابنة أول ملوك (أرجوس) شابة جميلة هام الإله (زيوس) بحبها ، فحملت بلمسة منه ، فحقدت عليها زوجته (هيرا) وخشى عليها (زيوس) من حسدها ، فحولها إلى بقرة ، وهربت (إيو) إلى مصر حيث أعاد إليها (زيوس) شكلها الآدمى ، فتزوجت ملك مصر ، وأنجبت (إبافوس) الذى حملته من (زيوس) ، ومعنى هذا الاسم : وليد اللمسة . وأضاف الإغريق أن (إبا فوس) هذا هو عجل (آبيس) . ثم إن الإغريق رسموا (إيو) فى شكل شابة على هامتها قرنا بقرة ، وهى الصورة التى رسمها المصريون لإيزيس – حتحور .

هذه هى الأدلة والنصوص التى تؤكد تحريم أكل بعض فئات البقر أو بعض أجزائها . ومع ذلك ، فهناك نصوص كثيرة تشير إلى السماح بنحر البقر على موائد قرابين الآلهة ، إننا إزاء التناقض بين أقوال المؤرخين من جهة ، وبين هذه النصوص وما نراه مرسوماً على جدران المقابر والمعابد من جهة أخرى – يحق لنا أن نتساءل بما أن تحريم أكل الرأس وإناث البقر وحاملى بعض السمات المعينة لم يُذكر إلا فى مؤلفات مؤرخى العهود المتأخرة فهل لنا أن نستنتج أن هذه كانت شائعة منذ عهد الأسر الأولى وإنما كتم أمرها لسرية الشعائر الدينية ؟ هل خلط المؤرخون بين

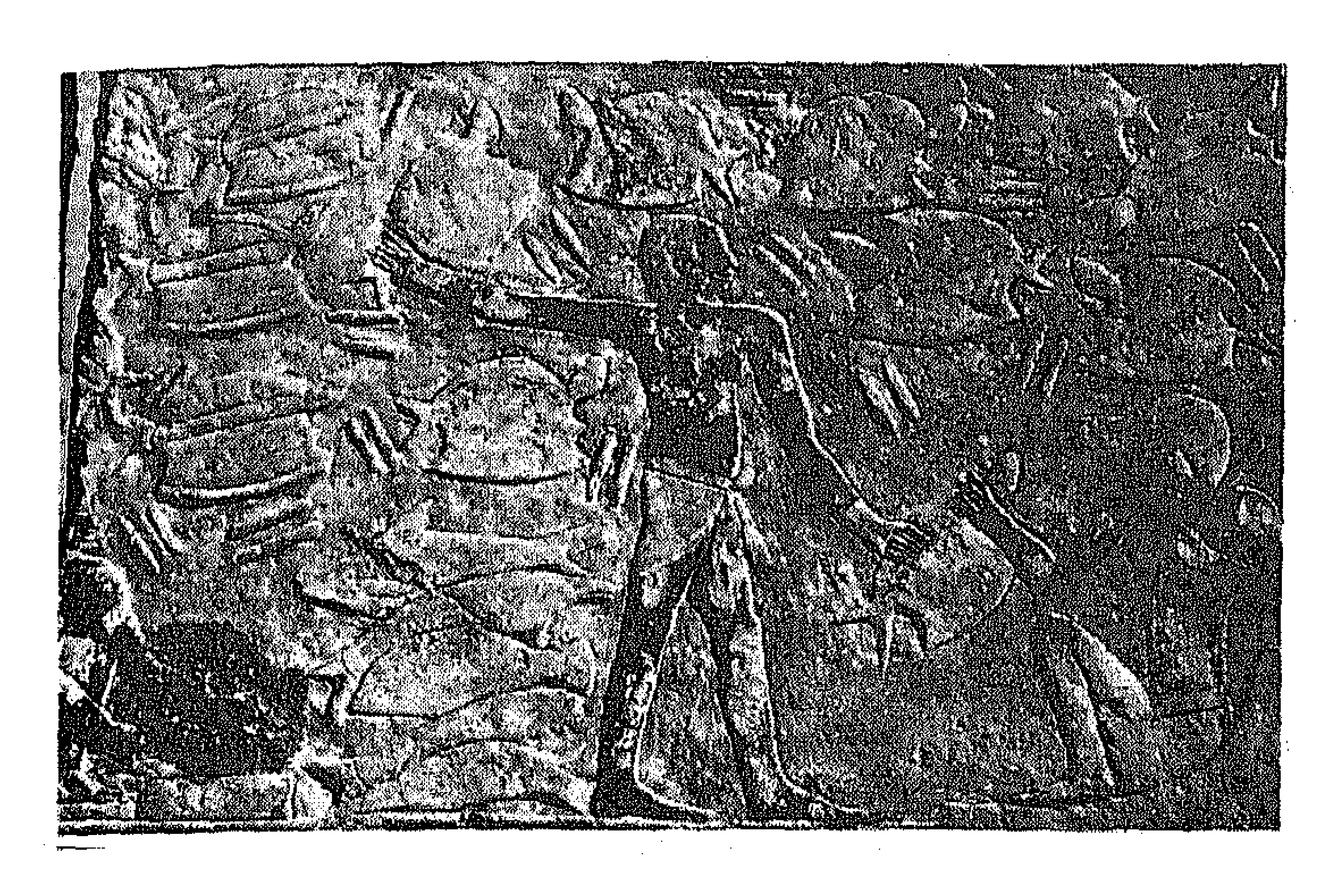
محرمات اليهود ومحرمات المصريين ؟ هل استجدت هذه التحريمات فى العهود المتأخرة ؟ وفى هذه الحال ما الأحداث الداخلية أو التأثيرات الخارجية التى طرأت على مصر فأدخلت هذه البدع ؟ ثم هل كان التحريم مقصورا على ما يقدم للآلهة ؟ وهل كان بعض المصريين أو كلهم يتجنبون فعلا لحم الرأس فى كل ظروف حياتهم ؟

وختاماً نعود فنقول : إن مميزات التحريم لم تكن من بينها واحدة تشير إلى مرض مُعْدٍ أو إلى ضرٍ يلحق بآكلى هذه اللحوم .

السمك

روى بعض المؤرخين أن السمك كان يعدّ نجساً فى مصر القديمة ، ولكننا نحار فى أمر هذه الرواية حين نستمع أغنية رائجة وردت على لسان صبية خرجت من الماء وقميصها قد التصق بجسمها وهى تغرى حبيبها بسمكة تمسكها بيدها . كما أن حيرة مماثلة تنتابنا إزاء ثروة الرسوم التى تمثل صيد السمك (شكل ٣) ، وحفظه ، وطهوه واستخراج البطارخ (شكل ٤) على جدران المقابر أو على النصوص التى تذكر ما كان يقدم منه للآلهة قرابين ، أو للجند جرايات ، وعلى نقوش المعابد ، كذلك النقش الذى أمر (أمنحتب) بنحته على معبده الجنزى بطيبة على صورة إله السمك والدواجن [٣٣] إننا إذا اعتمدنا على تلك الرسوم استطعنا الجزم بأن الشعب المصرى كان ينال منها قسطاً وافراً .

غير أن المؤرخين القدامى ذكروا بعض استثناءات خاصة بالعاملين الرئيسين اللذين حددا شكل حياة المصريين عامة ، ومأكلهم خاصة ، وهما : الأول النزاع الشبيه بالتاريخى الذى نشب بين أتباع (حور) الجنوبيين وبين أنصار (ست)



(شكل ٤) السماكون يشقون السمك لتجفيفه فى الشمس ، وينتزعون منه البطارخ وهو مرسوم منتثراً وسط الأسماك على شكل أسطوانات مستديرة الأطراف .

الشماليين ، وهو الذى أورث تحريمات توازى ما خص الخنزير منها ، والآخر دخول شعوب من الغرب ومن الجنوب أملت عقائدها على المناطق التى احتلتها .

السمك وعلاقته بأسطورة أوزيرس :

لقد أوضح بلوتارخ [٣٤] رأيه فى سبب تحريم بعض الأسماك فى مصر القديمة ؛ إذ قال : «إن الجزء الوحيد من أشلاء جثمان (أوزيرس) الذى لم تعثر عليه (إيزيس) هو عضو التذكير ، وهذا لأنه ألقى به فى النهر حيث التهمه اللبدوتس (البنّى lepidotus,?barbus bynni) والفاغرس (كلب البحر Phagrus,? hydrocyon Forskalii) والأكسيرنكس (أبو بويز

Oxyrhynchus Soles) . وهـذه هى الأسماك التى حرص المصريون على الامتناع عنها :

أما أبو بويز فإنه كان يعبد فى مدينة (أكسيرنكس) وهى البهنسا ، وكان يعد من مقدسات (ست) لاشتراكه فى التهام عضو (أوزيريس) . ونتج عن ذلك أن تابعى (ست) اجتنبوه عن احترام وتكريم وتابعى (أوزيريس) عن كره ونفور .

وقد وصف بلوتارخ عنف المشاعر نحو هذه السمكة حين روى أن أهل (أكسيرنكس) للانتقام من أهل بلدة (كينوبولس = بلدة الكلب) الذين اعتادوا أكل السمكة المقدسة لهم - قتلوا كلباً ذات يوم وأكلوه . فنشبت من جراء ذلك حرب فاتكة بينهما .

وقد سجل آيليان (١٠ : ٤٦) عادات استوحاها صيادو أسماك هذه المنطقة من العقائد نفسها ، وهى تفحص شباكهم بعد سحبها من الماء للتيقن من خلوها من هذه الأسماك ، وتفضيلهم سحب شباك فارغة على أكبر صيدة إذا حوت إحداها ، وعدم أكل ما يصاد بالصنانير خوفا من ان تكون صنارة منها خدشت إحدى هذه الأسماك فى الماء .

ولم تولد هذه الروايات فى مخيلات روائها ؛ إذا إنه وجد نص يمين كان يطلب التوقيع عليه إلى صيادى المنطقة ، يقسمون بموجبه : إنهم لم يصطادوا ألبتة سمكتى اللبدوتس أو الأكسيرنكس[٣٥] .

ومع ذلك فقد رسم صيد هذه السمكة مع أسماك اخرى على جدران كل مقابر الدولة القديمة . وقد يكون لهذا التناقض أسباب مختلفة : فإما أن رواية العداء لهذا السمك كانت ابتكاراً متأخراً أو إضافة إلى الأسطورة القديمة ، وإما أن يكون لهذه الرسوم قيمة محلية محدودة فحسب ، وإما أنه لم تكن أية علاقة بين تمثيل هذه السمكة وأكلها .

والفاغوس : قدّسه أهل أسوان فى الحقب المتأخرة ، ويستنبط من أقوال مؤرخى الإغريق انفصام الشعور نحوه : فقد قال آيليان (١٩ : ١٠) : إن هذه السمكة كانت تسبق فيضان النيل وتبشر به ، فى حين أن بلوتارخ قال كما أسلفنا : إنها إحدى الأسماك التى تغذت بعضو (أوزيريس) وإن المصريين يتجنبونها .

أسماك أخرى مقدسة : وقد ألّهت بعض المدن أنواعاً أخرى من السمك دون أن يعثر على أى دليل على تحريمها .

وأخيراً لنذكر الشعائر الدينية التى كانت تقام بكل سنة ابتهاجاً بانتهاء مدة ترمّل إيزيس فى مدينة إدفو حيث نشبت – تبعاً للرواية – المعركة الفاصلة بين (حور) و (ست) ، وكانت الطقوس تقضى بتقطيع آلاف من الأسماك ، ثم التزوح إلى الحقول المجاورة لسحقها تحت الأقدام !

النفور من السمك نتيجة للاحتلال الأجنبى :

عمت الفوضى البلاد بعد انتهاء عصر المملكة القديمة فى غضون حقبة يطلق عليها المؤرخون « المرحلة الانتقالية الأولى » وأنهكت غزوات القبائل الليبية فى خلالها قرى الدلتا ، واحتلت بعضها ، وقد وصفت (تنبؤات نفررهو) بؤس حال البلاد نتيجة لهذه الغزوات ، وذكرت ضمن ما ذكرت « تخريب البرك المتألقة بالسمك والطيور » وعلى العكس ، ازدرت نصوص أخرى السمك والصيادين ، وإلى القارئ بعضها :

« إن الصياد أسوأ حالا من رائد أية مهنة أخرى »[٣٦] .

وإليك نص آخر « تأمل أن اسمى ممقوت أكثر من صيد السمك ، أكثر من رائحة الصيادين ومن نتن الشواطئ بعد أن انتهوا من الصيد »[٣٧] .

كما أن نصوصاً أخرى قالت – تكريها للسمك : إن الجثث يلقى بها فى النهر

حيث يتغذى منها[٣٨] .

وبعد الغزوات الليبية بزهاء ١٥٠٠ سنة فتح مصر شعبٌ من الجنوب بقيادة (بيعانخى) كان ينجّس السمك ويعد أكله كفراً ، يشهد بذلك خطاب وجه إليه « إن هؤلاء الملوك والأمراء من الشمال (أى المصريين) الذين حضروا ليشاهدوا روعة جلالتك لم يسمح لهم بدخول دار الملك ؛ لأنهم نجسون ويأكلون السمك ، أما الملك (نملوت) فقد سُمح له بالدخول لأنه طاهر ولم يأكل السمك ألبتة[٣٩] .

وقد كان هيردوت عندما زار مصر نحواً من ثلثمائة سنة بعد فتح بيعانخى من أوائل الإغريق الذين سجلوا تجنب كهان مصر للسمك ، قال : « إن الطعام المقدس يطهى لهم ويحضر لكل منهم كل يوم لحم البقر والإوز بكثرة . . . ونبيذ العنب كذلك ، ولا يسمح لهم بأكل السمك » (٢ : ٣٧)

ومن الجائز أن يكون تحريم السمك – وبصورة خاصة بين الكهان – بدعة مستحدثة مردّها فى هذا العصر إلى نفوذ بيعانخى الفاتح ؛ كما أنه من المحتمل أن تكون هذه البدعة أضافت ثقلها إلى رواسب العقائد الأوزيرية وتبلورت فى التحريم الذى سجله هيردوت .

ومن الأمور التى قد تكون ذات مغزى أن واحدة من هذه التحريمات لم تتعرض للأسماك السامة أو للأسماك الحاملة للديدان كالهتروفيس الذى ينقله البورى ، أو البوثريوكفالس الذى يسبب الأنيميا الخبيثة . . !

مخلفات تحريم السمك :

لم يبق من هذه التحريمات شيء حالياً سوى تحريم التوراة لما ليست له زعانف ولا خرشف ، كما سنرى فيما بعد .

غير أن خرافة شاعت شرقاً وغرباً حتى فى أمريكا ، وهى عدم جواز الجمع

صحياً بين السمك ومنتجات اللبن فى وجبة واحدة ، وهى التى تبلورت فى المثل المصرى الشائع « سمك ولبن وتمر هندى » التى تطلق على ما يدنو من الخَبل أو ينافى العقل والمنطق .

ويرى البعض أن فكرة عدم تجانس السمك واللبن إنما هى انعكاس لتناقض حضارتين مختلفتين : حضارة قاطن الشواطئ الذى يعرف السمك ويقبل عليه ، وحضارة الرعاة وبدو الصحارى الذين يجهلون من السمك حتى شكله ويعتمدون على الألبان واللحوم .

لا ندرى : أين نشأت هذه العقيدة التى لا يبررها علم ولا خبرة ، فهى لم تكن من عقائد المصريين كما نعرفها ، ولم ترد عند الإغريق الذين كانوا يتلذذون بأكل السمك المطهو بالجبن(٤٠) وقد وردت فى الطب النبوى(٤١) وقد تكون نشأتها فى الهند على حسب قول ابن سينا : «وقد قال أصحاب التجارب من أهل الهند وغيرهم : إنه لا ينبغى أن يؤكل لبن مع الحموضات ولا لبن مع السمك فإنهما يورثان أمراضاً مزمنة منها الجذام»(٤٢) .

خرافات خاصة باستعمال السمك فى العلاج :

واقتحمت الخرافات الخاصة بالسمك مجال العلاج : فقد ذكرت بردية إبرز (رقم ٤٠٥) علاج ضعف النظر بصفراء السمك من نوع (أبدو) . وربما تكون العلة فى هذا هى العقيدة بأن هذه السمكة المعينة كانت ترشد زورق الإله (رع) فى ظلمات العالم الخفى . وذكر كذلك علاج سحابة العين بصفراء السلحفاة (رقم ٣٤٧) وفى مقابل هذه الوصفة نجد رواية الملاك روفائيل الذى أرشد طوبيا إلى علاج عين والده المصابة بالسحابة بدهنها بصفراء سمكة اصطادها (طوبيا ١١ : ٦ - ١٤) .

ومما يشير أيضاً إلى علاقة هذه القصة بمصر أنها استطردت ، وأضافت أن طوبيا بخّر زوجته بكبد السمكة فطرد منها عفريتاً فرّ هارباً إلى مصر ! وسفر طوبيا يشك البعض فى أصالته ، والأرجح أنه صنف – على الأكثر – فى القرن الثالث ق . م : أى فى عصر كانت فيه تقاليد مصر القديمة حية .

ولننظر الآن إلى وصفتين من (القانون) فحواهما استعمال جلد سمك معروف بسيفيانوس لإزالة البياض من عيون المواشى (٤٣) وصفراء الدب والغراب والحجل والكركى والضبع والماعز لإزالة ظلمة العين (٤٤) .

ثم لننظر أيضاً إلى هذه النبذة من القانون٤٣ : «الرعاد الحى إذا قرب من رأس المصدوع أخدره عن الحس بالصداع » هل يجوز وضعها وضع المقارنة بعلاج الصداع النصفى بدهك ناحية الرأس المصابة برأس سمكة مقلية (إبرز رقم ٢٥٠) أم هل كان ابن سينا يقصد الهزة الكهربية على غرار علاج الحالات النفسية الحديث بالصدمة الكهربية ؟ وفى مقابل هذا نوّه جالينوس إلى ملاحظة تثير الدهشة : هى أن الذين يلمسون السمك الرعاذ ينعدم حسّهم ، وقد يصل بهم الأمر إلى السبات والغيبوبة (٤٥) .

الخنزير

تردد تعليل تحريم الخنزير ، وهو تحريم شاع فى أكثر من بلد منذ فجر التاريخ . بإدراك الإنسان علاقة الإصابة بالتركينا بأكل لحمه ، وإننا نعترف بصعوبة قبول هذا التعليل : ذلك أنّ من الصعب التصديق بأن الشعوب البدائية التى أحاطت الجثث بالإجلال والرهبة ، ونهت عن العبث بها أو عن تشريحها – وصلت إلى هذه المعرفة التى لم يصل إليها الطب إلا منذ مائة سنة ، ونقدم للقارئ بعض العناصر التى بنينا عليها شكوكنا !

١ – إن الأديان والتقاليد لم تتعرض قط لهذا العديد من تلك الحيوانات الأخرى التى تنقل أمراضاً ، وإن كانت العلاقة بينها أوضح من علاقة الخنزير بالتركينا ، ونذكر منها درن المواشى ، وإصابة السمك بالمتروفس أو الديبوثريوكفالس .

٢ – ثم إنها لم تتعرض للحوم الحيوانات السامة بطبيعتها مثل بعض الأسماك ، ولا لأمور عرفها القدامى كالتسمم من أكل السمان الذى حدث للعبرانيين فى سيناء (عدد ١١ : ٣٢ : ٣٣) فى شكل جماعى ، وذكرت حالات منه فى فرنسا واليونان وغيرهما ، وعزى إلى السمان أنه يحب أكل بذور الخربق ولا يتأذى منه هذا فى حين أن الآثار التى تتبقى من هذا السم فى لحمه قد تؤدى بحياة آكلية[٤٦] ، ومن العرب ذكر ابن سينا وابن ميمون تعرض آكلى السمان للتسمم وإن أنكر ابن سينا علاقته بالخربق ، إذ قال : « أكل لحمه يخاف منه السدد والتشنج ، لا لأنه يأكل الخربق فقط ، بل لأن فى جوهره هذه القوة ، وإذا ظن أن اغتذاءه بالخربق فهو لمشاكلة المزاج (القانون ، كتاب فى الأدوية المفردة ، حرف السين) .

٣ – وقد كاد النقاش أن ينحصر حول الخنزير ، فما بال المؤرخين يهملون عشرات المحرمات لدى الشعوب المختلفة : كالبقر فى الهند والجمال والأرانب ، والقريدس (الروبيان أو الجمبرى) عند اليهود ، إلخ .

٤ – وقد خلت الأديان من أى تحريم للنباتات السامة التى تفتك بآكليها فتكاً أسرع وأمضى من فتك أى لحم موبوء اللهم إلا نباتات قليلة لايمت تحريمها إلى الصحة بصلة ، وهذا ما سنتناوله فى باب لاحق .

ولذا يجدر بنا البحث عن أسباب التحريم عامة ، ومن ثم عن أسباب تحريم الخنزير بصورة خاصة فى أركان أخرى من أركان الفكر الإنسانى مستعينين بتاريخ هذا التحريم وبتطوره على مر القرون :

الخنزير فى مصر فى العهد السابق لعهد الأسر (قبل حوالى ٣٠٠٠ق.م):

فى الوجه البحرى : وجدت بقايا الخنازير بغزارة فى مواقع فى حلوان والفيوم ترجع إلى عهد وسيط بين العصر الحجرى القديم والعصر الحجرى المتوسط[٤٧، ٤٨] وبما أن احتمال تدجين هذا الحيوان فى هذا العهد القديم أمر مشكوك فيه – يرجح أن تكون هذه العظام من بقايا أنواع برية . وفى مرمدا بنى سلامة[٤٩] (٥,٠٠٠) ق . م ، دفعت غزارة العظام التى وجدها المنقبون إلى اعتبار أكل الخنزير إحدى الصفات المميزة لحضارة هذا العهد . واستمر شيوع تربية الخنازير وأكل لحمها فى سائر الدلتا (العمرى ، المعادى) من الألفية الخامسة حتى عصر توحيد نصفى القطر الشمالى والجنوبى : أى حتى حوالى سنة ٣٢٠٠ ق . م .

أما فى الصعيد : فقد كشف عن بعض بقايا الخنزير فى أرمنت والبدارى وأبيدوس ، غير أن الاختلاف الصارخ بين كثرتها فى الشمال وضآلتها فى الجنوب يشير إلى تركيز تربية هذا الحيوان وأكله فى الشمال .

الخنزير فى مصر بعد التوحيد :

تدل عمليات التنقيب على انخفاض كبير فى استهلاك هذا الحيوان طرأ بعد أن سيطر الجنوبيون على الشماليين ومن التعليلات التى فسرت بها هذه الظاهرة اقتباس الشمال عادات الجنوب التى إنما عكست عقائده وأساطيره فإذا قبلنا قصة الصراع بين (أوزيريس) وابنه (حور) وبين (ست) ، على أنها رواية مقنعة للحروب التى نشبت بين نصفى الوادى وانتهت بانتصار أهل الجنوب أتباع (أوزيريس) وجدنا فى اختلاف النظرتين إلى الخنزير ما يلقى ضوءاً على أسباب انحطاطه إلى منزلة

دينية حطيطة ، وإنهاء سيطرته على موائد الشمال .

أما فى عصر الدولة الوسطى (٢٢٠٠ - ١٥٨٠ ق . م) فالنصوص خالية من أية إشارة إلى التحريم ، ولا تعود دلائل النفور منه إلا فى عهد الأسرة التاسعة عشرة : أى فى عصر الدولة الحديثة : فقد وردت فى قبور (حور محب) و (سيتى الأول) و (رمسيس السادس) كتابات ونقوش تعكس عقائد أوزيرية ، وتهكم على (ست) والخنازير ، كرسم يبين (أوزيريس) جالساً أمام زورق حيث يرى الإله (تحوت) ، إله العلم والمعرفة يضرب خنزيراً (شكل ٥) وقباله نص معاد لـ (ست) ولهذا الحيوان .

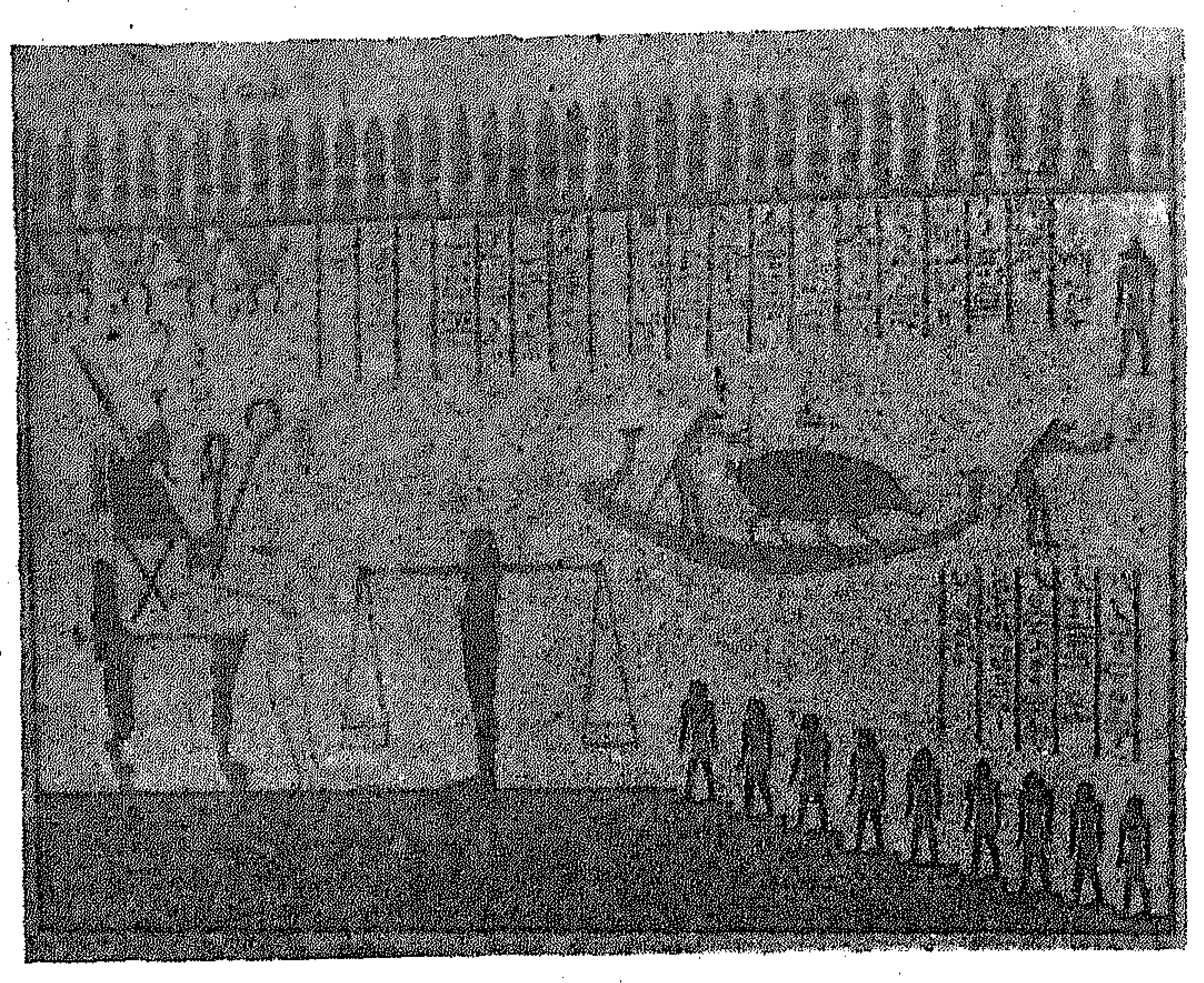
ومن الشواهد الأخرى ما جاء فى بردية (نو) خاصاً بالقرابين التى على المتوفى تقديمها : « ويقدم المتوفى ثيراناً وطيوراً ذوات ريش وبخوراً وكعكاً وجعة وأعشاباً ، وعليك أن ترسم هذا ملوناً على قرميدة جديدة مصنوعة من طين لم يطأه خنزير أو أى حيوان آخر[٥٠] » .

والحجة المتخذة من صمت النصوص تعدّ أقل البراهين قوة ، غير أنها إذا أضيفت إلى غيرها فى الميزان زادت من ثقلها : فقد وردت فى بردية هارس[٥١] قائمة بما قدمه رمسيس الثالث (١١٩٨ - ١١٦٦ق م) إلى الآلهة تكاد تذكر كل منتجات مصر والأراضى التابعة لها ولكنها خالية من ذكر الخنزير .

تحريم الخنزير فى العهد المتأخر والعهد التالى لعهد الأسر :

عاصر هيردوت الاحتلال الفارسى الأول لمصر (الأسرة ٢٧ ، من ٥٢٢ - ٤٠٤ ق . م) وجمع من الكهان ومن مخبرين آخرين فى خلال زيارته حصيلة من العقائد والمعلومات الخاصة بالخنزير ، وإلى القارئ بعض ما رواه :

« والمصريون يعتبرون الخنزير نجساً ، لذلك إذا مسّ مصرى خنزيراً فى أثناء



(شكل ٥) لوحة فى مقبرة بطيبة تمثل الإله (تحوت) فى شكل قرد ينهال ضرباً على خنزير وهو يمثل الإله (ست). الدولة القديمة

مروره به ذهب فى الحال وألقى بنفسه فى النهر دون أن يخلع ملابسه ؛ كما أن رعاة الخنازير – ولو أنهم مصريون بمولدهم – لا يدخلون – دون سائر المصريين – أى معبد من جميع معابد مصر ، ولا يرضى مخلوق أن يزوج أحد هؤلاء الرعاة ابنته ، ولا أن يتزوج منهم ، ولكنهم يتزاوجون فيما بينهم ، والمصريون لا يضحون بالخنازير لسائر الآلهة حاشا « سيلينى » و « ديونسيس » وحدهما ينحرونها ضحية لهما فى الوقت الذى يكون فيه القمر بدرا . وبعد نحرها يأكلون من لحمها . أما لماذا ينفرون مشمئزين من الخنازير فى بقية الأعياد ويذبحونها فى العيد ؟ فلذلك قصة يرددها المصريون ، ولكنى أرى – برغم علمى بها – أن سردها غير مناسب . وهكذا

تكون تضحية الخنازير لسيليني : عند نحر الضحية توضع نهاية الذيل والطحال والغشاء المهبلي بعضها مع بعض ، ثم تلف معاً مع كل ما هو حول بطن الحيوان من دهن ، ثم تحرق قربانا ، ويؤكل باقي اللحم في ليلة البدر الذي تقدم فيه الضحية ، ولا يذاق مطلقاً في سائر الأيام . والفقراء منهم لضآلة موردهم يشكلون من العجين خنازير ويخبزونها ، ثم يقدمونها قرباناً (٢ : ٤٧) .

« وفي ليلة العيد ينحر كل فرد أمام بابه خنوثاً لديونيسيس ثم يتركه إلى الراعي الذي باعه إياه . . . » (٢ : ٤٨)

ويعلق الدكتور أحمد بدوي[٥٢] على هذا النص فيقول : إنه جاء في تقويم الأعياد من الدولة القديمة أن المصريين كانوا ينحرون من الضحايا عنزاً أو خنزيرا ، وذلك في الاحتفال بعيد « سكريس » وهو اليوم الذي يزعمون أن « سكريس — أوزيريس » قد دفن فيه ، ويضيف أن هيردوت لم يخطئ حين ذكر أن الضحية كانت تحرق في اليوم الخامس عشر من شهر (بشنس) ، ثم يعزو عدم تعرض هيردوت للروايات الدينية إلى عهد أخذه هيردوت على نفسه ، وأكده في مواضع عدة بعدم التحدث عن المقدسات والشعائر إلا بمقدار .

ويؤكد آيليان[٣٢] هذه الرواية بعد هيردوت بستمائة سنة : « إن المصريين يعتقدون أن الخنزير رجس للشمس والقمر ، ولذا فإنهم عند احتفالهم بعيد القمر ، ينحرون خنزيراً مرة كل سنة ، ولكنهم لا ينحرون هذا الحيوان لهذين الإلهين أو لأي إله آخر في المواسم الأخرى (١٠ : ١٦) »

وأضاف بلوتارخ أن المصريين ينفرون من الخنزير ، لأنه يتزاوج عندما ينمحق القمر[٢٣] وما هذا إلا انعكاس للعقيدة بأن امحاق القمر إنما هو من فعل خنزير يقضم القمر (وهو عين الإله حور) . وهذا كان نذيراً بتغلب قوى الفساد على قوى الخير والبناء .

ومن خلال هذه الأساطير . بالإضافة إلى الروايتين اللتين ذكرناهما فى صدد قداسة الحيوان أو نجاسته ، وهما الخاصتان بإصابة عين حور بلهب من عين ست ، وبعثور ست على صندوق أوزيريس فى أثناء ملاحقته لخنزير ، نرجح أن المؤرخين القدامى نسبوا مقت المصريين للخنزير لأسباب دينية بحتة . والوحيد الذى ذكر صلة الخنزير بمرضٍ هو آيليان[٣٢] عن لسان مانيثو (القرن الثالث ق . م) قال : وعلمت من مانيثو ، وهو رجل وصل إلى أعلى مراتب المعرفة ، يقول : إن أى شخص يذوق لبن الخنزير يصاب بالجذام » (١٠ : ١٦) .

وقد ألبست الأساطير اليونانية العلاقة المزعومة بين الخنزير والجذام ثوباً شاعرياً إذ روت أن ملك (توثرانيا) بقر خنزيراً فى خلال صيد فصاح الخنزير فى وجهه : إنه جدير بالرحمة ؛ لأنه حاضن الإلهة أرتميس ، فلم يستجب الملك لطلبه وقتله ، فعاقبته أرتميس وأنزلت به الجذام[٥٣] ! وقد ظل الكتّاب يتناقلون العلاقة بين الخنزير والجذام حتى القرن التاسع عشر[٥٤].

مظاهر النفور عند قدماء المصريين :

لم ينحت المصريون التصويرات الرائعة التى تزين مقابرهم لدوافع فنية بحتة ، وإنما كان الباعث على ذلك الإنتاج العقيدة بأن مجرد رسم صورة أو التلفظ بكلمة أو كتابتها – تخلق مدلولها . ومن بقايا المعابد القليلة التى تزدرى الخنازير بعض (لوحات) فى معبد أدفو تصوّر حور وهو يسدد ضربة رمح إلى ست وقد رسم فى هيئة خنزير أحيانا وفى هيئة فرس البحر أحياناً أخرى . وأدفو هى – على حسب الروايات التقليدية – المنطقة التى وقعت فيها المعارك الفاصلة بين الإلهين . .

وهناك نحت آخر فى معبد (مندولس) بكلابشة – يسجل قراراً من محافظ المنطقة ينهى عن إدخال الخنازير فى حصن معبد ولاية تلميس[٥٥] .

دلائل الإقبال على الخنزير :

غير أن هناك شواهد أخرى تناقض النهى الذى سبقت الإشارة إليه ، بل وتشير إلى الشغف بهذا النوع من اللحم : فقد وجد بالإضافة إلى بقايا العظام التى سبق ذكرها - صلاية من أول عهد الأسر صنعت على شكل خنزير ، ومثل هذه الصلايات كان يستخدم لنثر مساحيق الزينة ، أو لأغراض طقسية ، ومهما يكن من أمرها فلا يعقل أن تطلى سيدات المجتمع الأنيقات وجوههن بشىء لمس صورة حيوان يشمئزن منه[٥٦] أو أن يستعملن آلات طقسية فى شكل حيوان نجس فى أثناء إقامة الشعائر الدينية .

ونقرأ كذلك أن أحد نبلاء الأسرة الثالثة أهدى لنجله ، فيما أهدى له خدما وخنازير ، ونشاهد تماثيل صغيرة من الخزف تمثل خنازير فى حصن معبد (أبيدوس) حيث دفن قلب أوزيريس على حسب القصص التى كان الكهنة يرددونها وحيث كانت جماهير الحجاج تفد لتتبرك بزيارته[٥٧] وقد يبدو وجود هذه التماثيل فى مركز عبادة أوزيريس غريباً ، ولكننا لا نستغرب أن تربى هذه الخنازير هناك لتضحى لعدوها .

على أن نصوصاً عدة تلمح إلى أن خنزيرة أنجبت الإله (من) ، وقد تكون هذه النصوص استمدت وحيها من منطقة قريبة من (منف) ، كان يطلق عليها (مقاطعة الخنزيرة البيضاء) وفى مقبرة من مقابرها صورة الخنزير محدداً لفظياً لبعض الكلمات[٥٨] .

وأخيراً لنذكر من الدولة القديمة رسماً فى مقبرة (كاج نى) بسقارة (٢٤٢٣ ق . م) يمثل فلاحاً يغذى حيواناً قيل : إنه خنزير ، وإن غايرت مخالبه هذا التشخيص الأمر الذى أدى إلى القول بأنه حيوان مركب من رأس خنزير وجذعه ،

ومن أقدام كلب .

ومن المرحلة الانتقالية الأولى : (٢٢٠٠ - ٢٠٦٠ ق . م) بعد سقوط الدولة القديمة تمثل بعض مقطوعات الأدب المصرى اليأس مما لحق بالبلاد : « لم يبق بعد أعشاب أو ثمار للطيور ، وينتزع الأكل من أفواه الخنازير[٥٩]» كما جاء فى قصة (الفلاح الفصيح)[٦٠] ذكر الخنازير ، ضمن ما كان يمتلكه الفلاح من قمح وشعير وحمير » .

وفى عهد سنسرت الأول (١٩٧٠ - ١٩٣٦ ق . م الدولة المتوسطة) لقب أحد الأعيان « مراقب الخنازير » .

وفى نهاية الحقبة القلقة التى فصلت بين الدولتين ، المتوسطة والحديثة ، وصف (خاموزى) الاستقرار الذى عاد إلى مصر : « إن جزيرة الفيلة (الفانتين) أضحت قوية ، وحقولنا تحرث ، وثيراننا ترعى فى مراعى الدلتا ، والحنطة ترسل إلى خنازيرنا[٦١] .

ويزداد عدد النصوص والآثار التى تشهد بالإقبال على الخنزير فى فنون الدولة الحديثة : كذكر تربية قطائع وصل عدد بعضها إلى ١٥٠٠ [٦٢] ، وتسجيل قرابين من الخنازير فى عهد (ستى)[١] ورسم الخنازير ورعاتها فى المقابر . ومن التصويرات الطريفة صورة تمثل خنزيراً يعاون الزارعين فى عملهم ، على النمط الذى أورده هيردوت : « عندما يفيض النهر عندهم من تلقاء نفسه ، ويروى الحقول ، ثم ينحسر (ثانية) بعد ريها - هنالك يلقى كل منهم بالبذور فى حقله ، ويطلق فيها الخنازير ، وعندما تدوس هذه البذور وتغرسها ينتظر بعدئذ يوم الحصاد ، وهنالك يدرس القمح بالخنازير ثم يحمل بعد ذلك فى الدار » (٢ : ١٤) . وما من شك فى أن المصريين ما كانوا ليستخدموا الخنازير فى زراعتهم

---

(١) يدل اسم ستى على نسبته للإله ست .

إذا كانوا يرون أية نجاسة .

ومن العجيب أن نشاهد عادة مماثلة فى بعض مناطق ألمانيا ، حيث يؤكل الخنزير فى يوم أربعاء الرماد (السابق لذكرى موت المسيح) ، ثم تحفظ عظامه حتى موسم الزرع ، وهناك تدفن مع الثمار . ومن الواضح ما فى هذا من تشبيه بين غرس الثمار ثم إنباتها من جهة ، وبين موت المسيح ، ودفنه ، ثم قيامه من الأموات يوم الفصح ، من جهة أخرى .

وتردد صدى الروايات الرابطة بين الخنزير والزرع فى اليونان ، حيث قُص أن الإلهة (أرتميس) أرسلت خنزيراً برياً لتخريب مزارع ملك (كالدونيا) والفتك ببهائمه ، فاشترك أبسل الإغريق فى مطاردته وقتله استجابة إلى طلب الملك ، وأن (آريس) تنكر فى صورة خنزير ليقتل (أدونيس) . وهى الرواية التى أسلفنا أن ذكرناها .

وقد كانت ذكرى وفاة أدونيس تحيا فى منطقة (ميزيا) بالشرق الأدنى ، حيث كان أحد السكان يرتدى جلد خنزير برى ونابين من الذهب ، ويطارد ، ولا ينجو من الموت إلا إذا نجح فى اللجوء إلى معبد أرتميس[٦٣] .

وهى مأساة تترجم ترجمة شاعرية ظاهرة اختفاء الزرع ستة أشهر من السنة وازدهاره فى خلال الأشهر الستة الأخرى ، كما نجد فيها تفسيراً روائياً لتلون النهر بالطمى الذى يحمله فيضه كل ربيع .

وقد فسر فريزر[٦٤] تردد الربط بين الخنزير والزرع ، فقال : إن الخنزير البرى يعتاد ارتياد مزارع القمح والاختباء فيها ، وعند الحصاد ، إذ تنكشف الأرض أمام الحاصدين ولا يبقى له معتقل - يخرج هائجاً للدفاع عن نفسه ، ويهاجم كل من يعترض طريقه فى وحشية متناهية ، وهكذا يخال الزارعون أن روح القمح تتجسد فى جسم خنزير للفرار .

وكان اصطياد هذه الوحوش أحد مقتضيات الحياة اليومية بغية الحفاظ على حياة العباد ومزارعهم ومنازلهم ، ورغبة فى حماية الحضارة من الخراب ، ومازال شىء من هذا شائعا فى بعض البلاد : كمستنقعات العراق القريبة من البصرة ، حيث يقوم العرب بحملات منظمة بهذا الغرض[٦٥] أو لا يذكرنا هذا إله الدمار (ست) ورهط حيواناته الجائرة ؟

ولنعد إلى مصر ، ولنسأل : ماذا أصاب الخنزير من تقدير أو كره فى عصر البطالمة ؟

الجواب أن تناقض الشهادات يعكس ازدواج العادات والعقائد . قال سكستس إمبركس[٦٦] : إن اليهود وكهنة المصريين يؤثرون الموت على أكل الخنزير . وأكد بلوتارخ[٦٧] وآيليان (١٦ : ١٠) هذا الرأى ، فى حين أن غيرهم لم يشاركهم فيه ، وأن الشواهد تشير إلى تمتع رعاة الخنازير باعتبار لم يقلّ عما ناله غيرهم من المصريين[٦٨] ، وإلى تنظيم رعاية هذا الحيوان وتغذيته ، وكيفية تضحيته ، وتقديمه من خلال الولائم الدينية ، على حسب لوائح دقيقة[٦٩] .

أما الإغريق فإنهم لم يتحرجوا قط عن أكل لحمه ، قال أبو الطب أبقراط : إن لحم الخنزير أفضل اللحوم ، وإنه يجب اختيار ما لا يكون مفرط السمنة أو النحافة ، أو متقدما فى السن وإنه يجب أكله باردا دون جلده .

ومع ذلك تجنب البعض أكله ، لأن خنزيراً قتل إلههم ، كما أسلفنا فى روايات أدونيس وعشيقتيه الغيورين .

هل نستطيع التوفيق بين هذه التناقضات ؟

بعد سرد ما سبق نرى أن من المستطاع حلّ بعض هذه التناقضات إذا راعينا كيفية نشأة العادات وانتشارها والظروف المتغيرة التى شاهدتها العهود المختلفة .

أولا : لا يجوز إطلاق ما نعرفه من تقاليد منطقة ما على البلاد بأسرها ، أو حتى على المناطق المجاورة لها : ذلك أن مصر قلما أخضعت فكرها لمذهب ديني موحد ، كما تبين من استمرار عبادة (ست) فى تانسى وكوم امبو فى الوقت الذى كانت عبادة أوزيريس مسيطرة فيه نفسه على الدولة.

ثانيا : طبيعة المصريين كانت دائما تميل إلى التعايش وإلى السماح ببقاء العبادات المحلية إلى جانب العبادة الرسمية ، ولذا فالكشف الذى يدل على استحسان الخنزير فى منطقة بصفة عامة لا يدل على استحسانه فى كلّ مكان .

ثالثا : اعتاد المصريون – نتيجة لتسامحهم – مزج الآلهة وابتداع شخصيات إلهية مركبة ، كإله (سرابيس) المركب من أوزيريس وأبيس ، وغيره . ومن الأمثلة التى تعنينا ، تصوير (نوت) إلهة السماء التى كثيرا ما خلط بينها وبين إيزيس ، فى شكل خنزيرة عملاقة .

رابعا : كانت العقائد والتقاليد تتطور على مرّ الزمن بسبب فرض آلهة دخيلة عليها : إما نتيجة لفتح أجنبي ، أو لقيام سلطان جديد ، أو رغبة فى مجاملة جيرانها .

خامساً : قد تشيع العقائد لدى فئة النبلاء والحكام ، ولكن هذا لا ينسحب بالضرورة على الطبقات الشعبية ، وذلك لاختلاف الأصل أو لاستطاعة الأثرياء تنويع مأكولاتهم ؛ كما أن الكهان كانوا مرغمين على الخضوع لشروط النقاوة الدينية على حين أن غيرهم لا يبالى بها . ويشتد هذا الاختلاف كلما فرض الحظر بالقوة .

وخلاصة القول أننا نجد فى حلقة أوزيريس – حور – ست ، وما حام حولها من ذيول وَزِيَنٍ ثانوية – أقدم مفتاح يحل لغز الخنزير ، فإن هذه الأسطورة سبقت بقرون قوانين موسى التى سنشير إليها فيما بعد ، وهى تجيز تفسير استحسان الخنزير

عند شعب ،أو فى قرية ،أو فى خلال حقبة . واستقباحه عند شعب آخر ، أو فى قرية مجاورة ، أو فى خلال حقبة مختلفة ، على شكل منطق صحيح ، وأسس تاريخية محققة .

الباب الثالث

التغذية واضطراباتها فى مصر القديمة (١)

والآن بعد أن ناقشنا الديانة الأوزيرية وما فرضته على الأنماط الغذائية وعلى الحياة العامة – يجدر بنا النظر فى الحالة الغذائية فى مصر القديمة :

يقوم تحديد الحالة الغذائية من الناحية العلمية على قياس عناصر محددة تؤثر تأثيراً مباشراً أو غير مباشر فى نفقات المعيشة ، وفى تيسير السلع ، ومن هذه العناصر الكثافة السكانية ، وسعة الرقعة الزراعية ، وإمكانات الرى والصرف ، وفاعلية وسائل الزراعة والإنتاج ، وتوافر الموارد الحيوانية والصناعية ، ونشاط التجارة الخارجية .

يضيف الأطباء إلى هذه العوامل العامة – عاملاً آخر ، وهو ماقد يصيب العباد

---

(١) يمكن القارئ الاطلاع على صور كل الأشخاص والعاهات المذكورة فى هذا الكتاب فى مؤلف الدكتور بول غليونجى والسيدة زينب الدواخلى[٩٧]

من أمراض تعوق امتصاص الغذاء من الأمعاء ، فيعيش الإنسان جائعاً وسط اليسر ، وهذه الحالات كثيراً ما تنتج عن الإصابات الطفيلية التى ترتبط بالمناخ وبالعوامل الجغرافية عامة :

ففيما يتعلق بكثافة السكان فى مصر يبدو فى ضوء المعلومات الضئيلة وغير المحققة التى وصلتنا أن مصر لم تعان من اكتظاظ بالسكان فى غضون الدولة القديمة ، أما فى خلال الدولة الحديثة فإن مصر كانت آهلة بالناس ، وإن كان عدد هؤلاء لم يفق ما يستطيع وادى النيل تغذيته ، وقد قيل : إن عدد السكان فى عصر (سايس) - أى فى القرن السابع قبل الميلاد - كان عشرين مليوناً . ولكن هذا التقدير غير يقينى ؛ لأنه بنى على اعتبارات تنطبق على العصور الحديثة ،ولم يرتكز إلى أى سند واقعى .

وفيما يخص العهود القريبة منا فإننا نستطيع استقراء كتابات المؤرخين الإغريق وهى على جانب كبير من الصحة بسبب اعتياد الأباطرة وبصفة خاصة البطالمة إجراء إحصاءات دورية : قدر هيردوت فى القرن السادس قبل الميلاد عدد المدن فى مصر بعشرين ألفاً ، ولكنه تحفظ إذ أضاف أن تقديره مبنى على أقاويل وصلت إليه ؛ وبعده بخمسة قرون روى ديودور الصقلى أن عدد المدن كان ثمانية عشر ألفاً قبل بطليموس سوتير ، وأنها وصلت فى عهده إلى ثلاثين ألفاً [٧٠] .

ولقد قدر بوتزر [٧١] مساحة الرقعة المزروعة فى مصر فى أواخر العصر السابق للتاريخ بستة عشر ألف كيلو متر مربع ، وهى فى رأيه مساحة تكفى تغذية عدد يتردد بين ١٠٠,٠٠٠ ، ٢٠٠,٠٠٠ مواطن ، ولكن هذه المساحة ظلت تتسع بفضل سياسة الحكام وتحسين وسائل الرى والتحكم فى فيضان النيل الذى - إذا صدق هيرودت - بدأ فى عهد مينا ، أول فرعون فى التاريخ ، ويشهد على هذا الاهتمام المبكر نقش على إناء يظهر فرعون (نعرمير) من الأسرة الأولى وهو يحرث هو نفسه

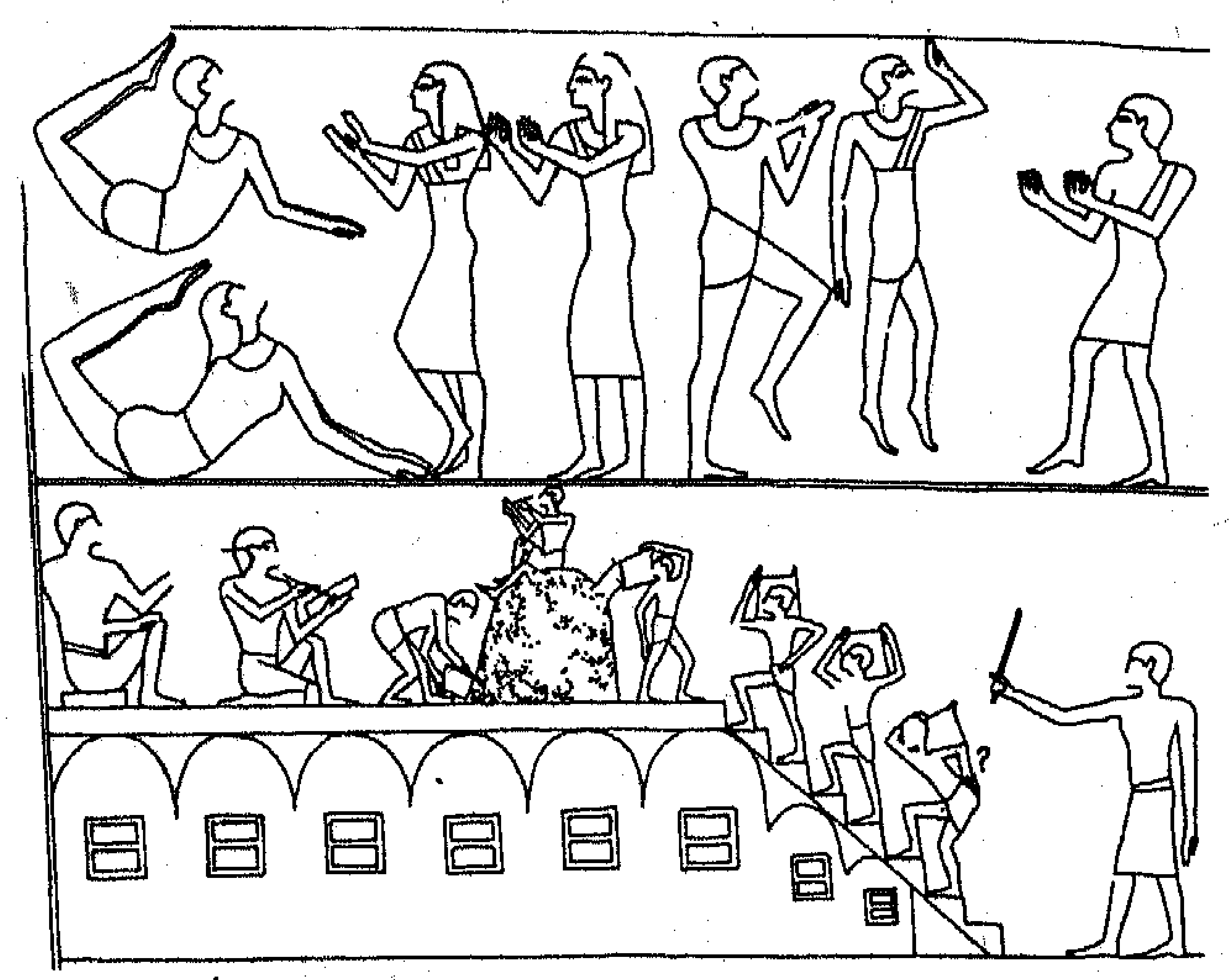
أرضاً ويحفر القنوات .

يأتى بعد المساحة المزروعة عامل آخر وهو خصب الأرض ، وهذا لا يحتاج إلى تفصيل حين نتحدث عن أرض مصر التى سميت (كمت) أى الأرض السوداء لتمييزها عن الصحراء وكانت تسمى الأرض الحمراء . ولطالما تعجب المؤرخون من خصب أرض تنتج ثلاثة محصولات فى السنة ، ولا تعتمد على المطر فى ريها ، وأشادوا بثراء مصر الزراعى (شكل ٦) . ويكفى أن نذكر أن ضيعة واحدة لأحد أمراء مدينة الكاب كانت تغذى ١٢٢ من البقر و ١٠٠ من الخراف و ١٢٠ من الماعز و ١,٥٠٠ من الخنازير ، وأن حاكماً واحداً هو رمسيس الثالث قدم ٥١٤,٦٩٨ من البهائم الكبيرة الحجم و ٦٨٠,٧٦٤ إوزة إلى معابد آمون - رع خلال إحدى وثلاثين سنة . وتلك الأعداد الضخمة من الماشية تفترض وجود مراع غاية فى الخصب والازدهار .

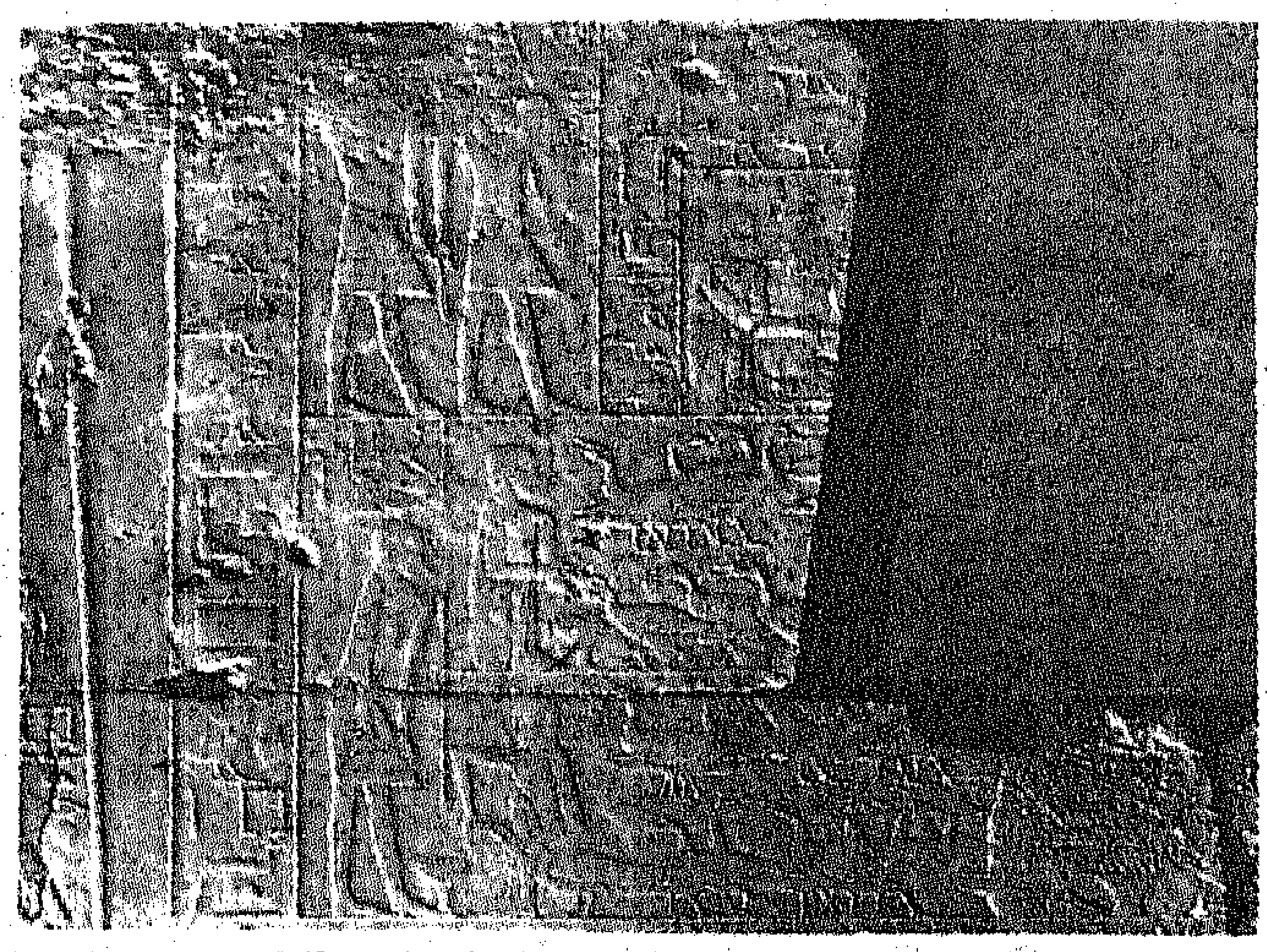
وبالإضافة فإن مصر - منذ الدولة القديمة - على اقتصارها سياسياً فى ذلك العصر على حدود بلادها ، وعدم توسيع حدودها - نقول : إن مصر كانت على علاقات دائمة - وإن كانت متقلبة - مع جيرانها : النوبيين فى الجنوب ، والليبيين فى الغرب ، والفينيقيين فى الشرق ، حتى مع أهل بلاد (بونت) بالصومال الذين نراهم على جدران معبد الدير البحرى فى طيبة ، وهم يقدمون الهدايا من إنتاج بلادهم .

أما فى عهد الدولة الحديثة - حين تجلت روح الاستعمار فى مصر - فقد ازدهرت التجارة الخارجية ، وامتدت لتشمل كذلك جزيرة كريت وجزر بحر إيجه .

وإذا نظرنا الآن إلى نفقات المعيشة أدركنا قلة معلوماتنا عنها ، ولا داعى هنا إلى أن نتطرق إلى الحديث عن استعمال المصريين للعملة النقدية ، ولا عن قيمة المعايير



(شكل ٦) حفلات الغناء والرقص التي كانت تقام ابتهاجا بالحصاد (أعلى الصورة) وتخزين القمح في الصوامع (أسفل الصورة).



(شكل ٧) تسمين الإوز. الدولة القديمة. سقارة

التي كانت تقدر بها السلع عند التعاقد ، لكن المعروف أن الأثمان تغيرت بطبيعة الحال بتغيير الأحوال السياسية ، وكذلك الجرايات : فقد ذكر أن مئونة العمال قبل سنة ٣٨ من حكم بطليموس فيلادلف كانت توفر - على حسب تقدير ركمانز[٧٢] مقدار ٣٧٨٢ سعراً من البذور ، على حين انخفض ما كانت توفره بعد ذلك التاريخ إلى ٢٨٣٦ سعراً .

وقد يشير نص متشائم برسم حياة الزارع بأقتم الألوان إلى انتشار الجوع والفقر بين الفلاحين ، غير أن المقصود منه كان التشجيع على الانخراط فى سلك الكتبة الموظفين والتشهير بجشع السلطات وأصحاب الأملاك ؛ إذ يبدو أن غذاء الشعب كان كافياً .

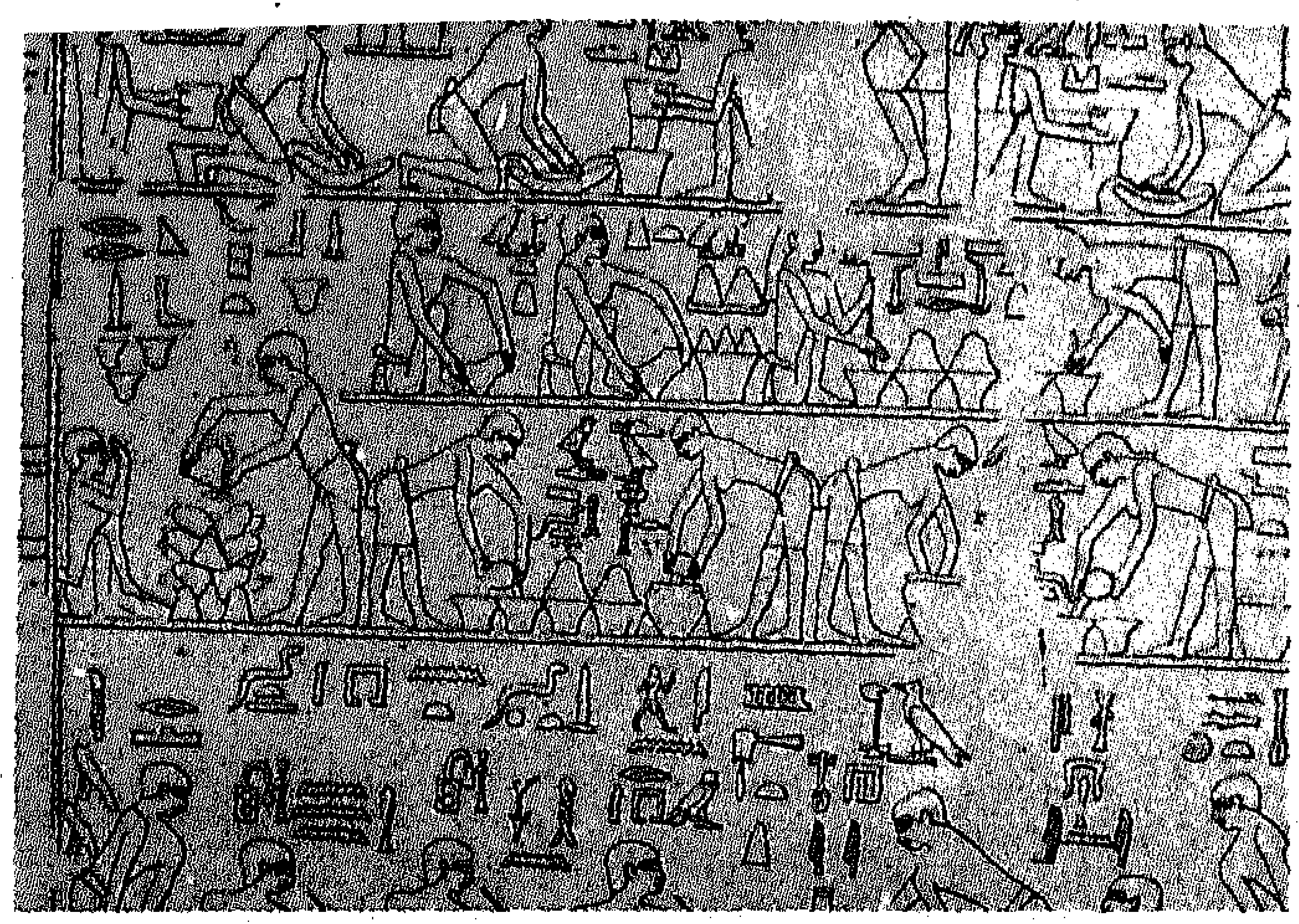
يقول هيردوت (٢ : ٧٧) عن المصريين إنهم : «أصح الناس عامة بعد الليبين . . . إنهم يأكلون خبزاً من القمح ذى الحبة الواحدة . . ويأكلون السمك نيئاً ومجففاً فى الشمس أو بعد حفظه فى الملح . ومن الطيور السمان والبط (شكل ٧) والعصافير التى يتناولونها نيئة بعد تمليحها ، فضلاً عن الطيور الأخرى باستثناء ما يعدونه منها مقدساً – وكل ما تبقى يأكلونه مشوياً أو مسلوقاً» . ويجدر بنا الإشارة هنا إلى أنهم كانوا يجهلون الدجاج .

وتحدثنا النصوص عن الجرايات التى كانت توزع على العاملين فى الدولة أمثال ألف العامل الذين أوفدهم سيتى الأول لنقل تماثيل آمون – رع الآلهة التسعة : فقد أمر فرعون بأن يُقدَّم كل يوم إلى رسول الملك ورافع لوائه خبز جيد ولحم بقر ونبيذ وزيت حلو ودهن وعسل وتين وسمك وخضر[٧٣] .

وإذا كانت هذه الجراية قد خصصت لشخص عادى فبطبيعة الحال كانت وجبات الملوك أكثر ترفاً : فما ذكرته قائمة مأكولات (أوناس) الذى اعتلى العرش حوالى سنة ٢٦٠٠ ق . م . : «لبن ، ثلاثة أنواع من النبيذ ، أربعة أنواع من

الخبز ، عشرة أشكال من الكعك ، أربعة ألوان من اللحوم ، شرائح لحم مختلفة ، لحم مشوى ، لحم الصدر والأطراف والذيل ، إوز ، حمام ، تين ، وعشرة أنواع أخرى من الفاكهة ، حنطة ، شعير ، خمسة زيوت ، وخضر طازجة [٧٤] . وقد أضافت العهود اللاحقة إلى الموائد ألواناً فاخرة من الأطعمة المستوردة من قبرص وبابل وبلاد الحيثيين وغيرها .

ولكن هذه القوائم شبه الإلهية اختلفت تماما وقوائم أكل الشعب ، ويدل على ذلك ما فعله (خوفو) إذْ أرادَ تقديم الهدايا بمناسبة معجزات رويت له : لقد قدَّم ألفَ رغيف ، ومائة إناء جعة ، وثوراً كاملاً لذكرى الملك الذى وقعت أحداث القصة فى عهده ، فى حين أنه لم يقدم إلى الساحر صانع المعجزات سوى كعكة واحدة ، وإناء واحد من الجعة ، وشريحة واحدة من اللحم [٧٥] !



(شكل ٨) تفاصيل صناعة الخبز والجعة . الدولة القديمة . سقارة

وهنا يتحتم علينا عدم الأخذ بالروايات على أنها حقائق تاريخية ، وأقصى مثال للمبالغة ورد فى رواية الساحر (جيدى) الذى كان يلتهم كل يوم - ربما بفضل سحره - خمسمائة رغيف وفخذ بقرة كاملة ومائة إناء من الجعة [٧٥] . ولنا أن نشك فى أن معدة قدماء المصريين كانت بهذه السعة .

ومع ذلك فإن مثل هذه الروايات - إذا أخذت بالحيطة والتحفظ - ترسم لنا صورة حية لحياة الشعب ، شأنها شأن قصص (ألف ليلة وليلة) و(كليلة ودمنة) وغيرها من إنتاج الخيال الشعبى . ولذا فإننا جمعنا ألوان الطعام التى ذكرت فى قصص قدامى المصريين الشعبية وتبين لنا أن أكثر الألوان وروداً هى الخبز والجعة (شكل ٨) والفاكهة والخضر (انظر الجدول المرافق) ، والشىء الذى كان له مغزى خاص هو ذلك القول الذى كان سائداً «خبز وجعة» الذى كان يشير إلى الأكل عامة مثل قولنا العامى «العيش والملح» ، والذى كان يقال أيضا للتحية .

ولا شك أن المصرى القديم - وهو فى هذا لا يختلف هو والمصرى الحديث -

ألوان الطعام المذكورة
فى القصص المصرية التى ترجمها ليفبر

النوع	عدد المرات
الحبوب والخبز	
شعير	٦
قمح	٤
خبز	١٥
كعك	٥
المجموع	٣٠
الخضر	
بدون تحديد	٢
عدس	٢
حمص	١
خيار	١
المجموع	٦

النوع	عدد المرات
فواكه	
دون تحديد	٢
تين	٢
عنب	٢
جميز	٢
حب العزيز	١
المجموع	٩
مختلف	
لبن	٤
عسل	١
زيت زيتون	١
المجموع	٦

النوع	عدد المرات
لحوم	
دون تحديد	٣
لحم مسلوق	١
بقـر	٦
كبد بقر	١
مواشٍ	٢
ضأن	١
خنزير	١
حيوانات صغيرة	٢
حيوانات برية	١
سمك	١
المجموع	١٩

النوع	عدد المرات
طيور	
دون تحديد	٤
طيور مائية	١
طيور مشوية	١
المجموع	٦
مشروبات	
جعة	١٦
نبيذ	٥
المجموع	٢١



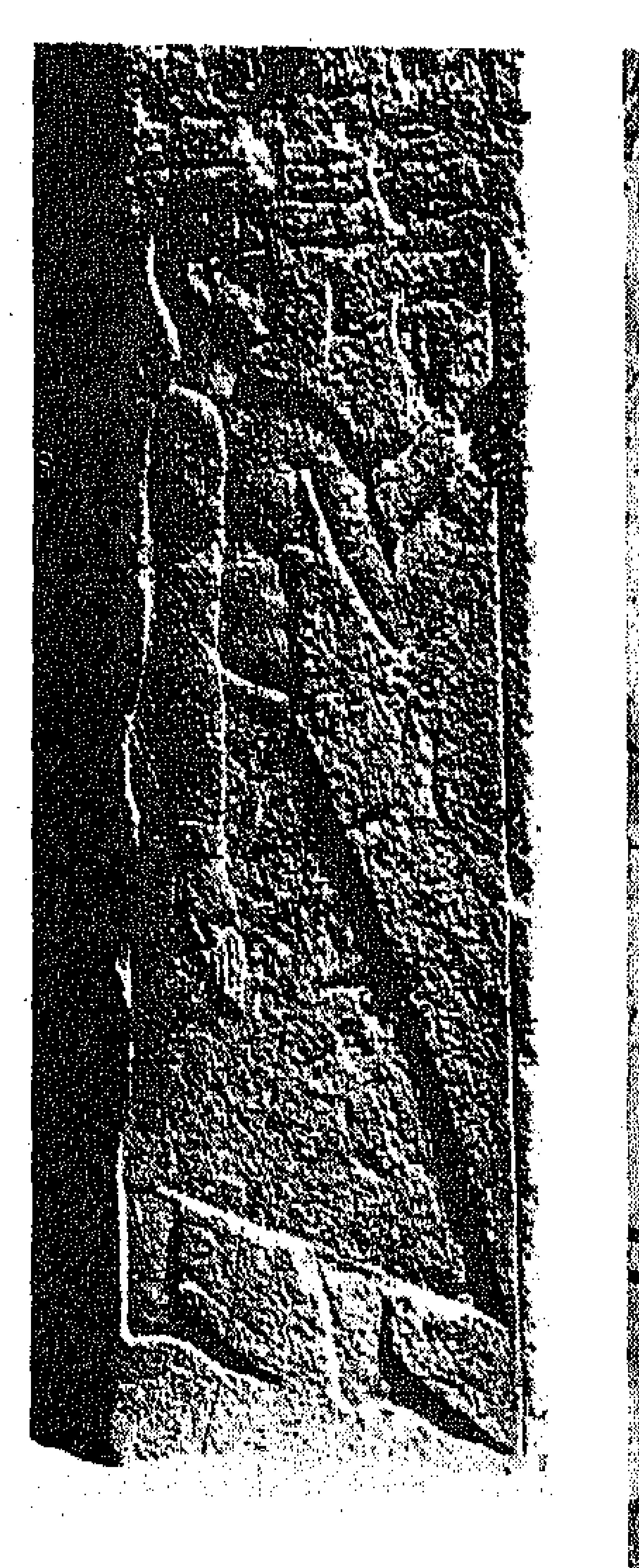
(شكل ٩) قرابين للموتى : اوزتان ، بصل ، خس ، فخذة ، قرع ، ارغفة مختلفة . وجرتان . مقبرة من الأسرة ١٨ من أبيدوس . متحف القاهرة . رقم ٣٤٠٠٢ .

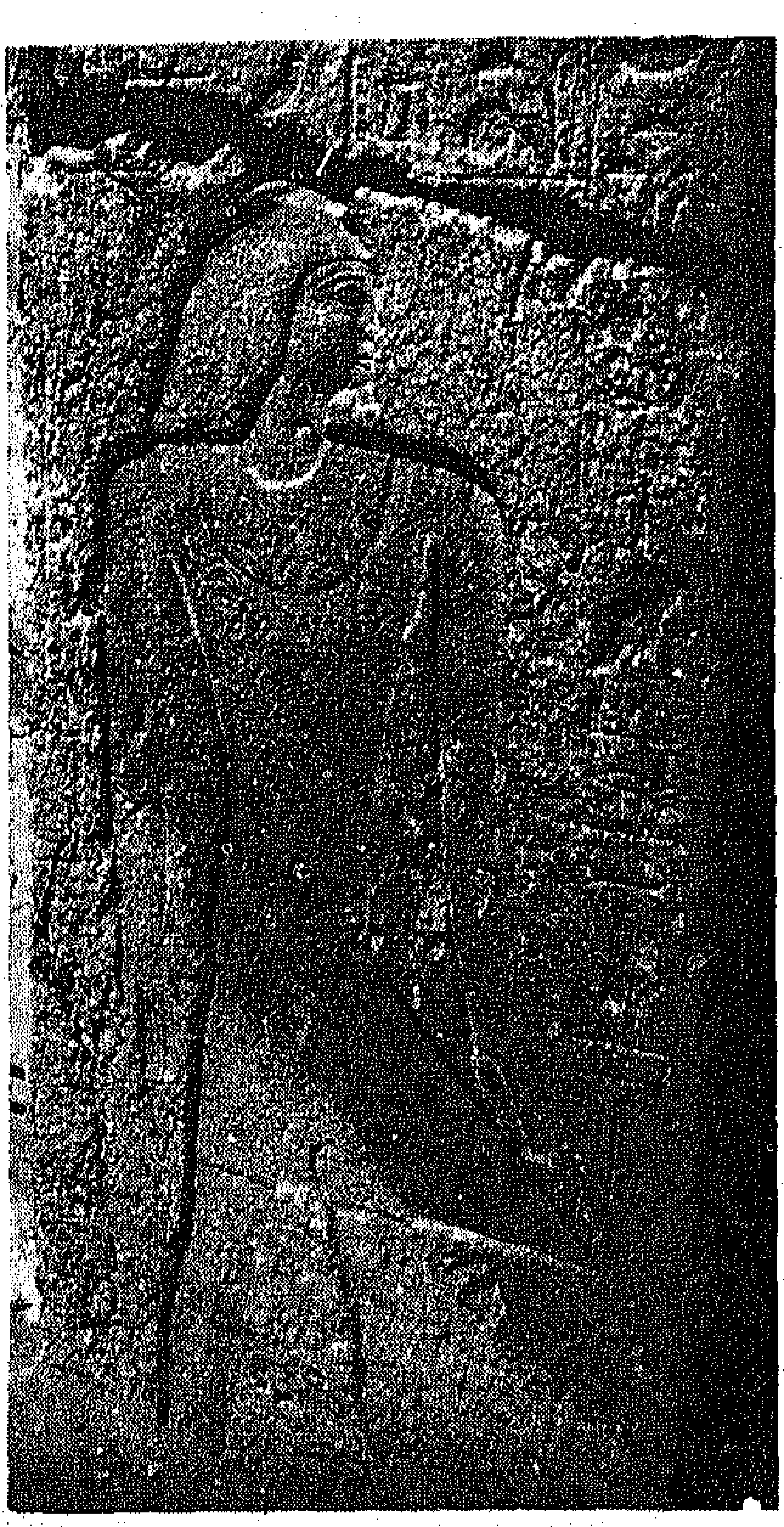
لاشك فى أنه أحب مأكله ومشربه ، فقد غطى جدران مقابره ، وكان يسميها «بيوت الخلود» بما كان يشتهى أكله فى حياته الأخرى . (شكل ٩) . ونرى فى هذه المقابر مناظر جميلة للفلاحة الوسيمة وهى تعجن ، وللنحال وهو يجنى العسل من خلايا لا تكاد تختلف هى والخلايا الريفية الحديثة ، وللكاهن الطبيب وهو يشرف على الذبائح أو يشم دماً يقدمه له القصاب على أصابعه ، ليحكم على صفائه ، ولحانوت القصاب حيث تعرض شرائح اللحوم ، ولصيد الطيور ونزع ريشها تَوّ صيدها ، ثم شيها ، أو لصيد الأسماك وفتحها لتجفيفها فى الشمس واستخراج البطارخ منها (شكل ٤) ، وللفلاح وهو يجنى التين من الشجر على حين تخطفها منه القرود ، أو للحصاد الذى كان يُعد عيداً مصحوباً بنغمات عازف الناى (شكل ٥) ، أو بآلاف الصور التى لا يتسع وقتنا لعرضها حتى إذا خصصنا لها مؤلفاً كاملاً .

أما بالنسبة للأطفال فكانت مدة الرضاع ثلاث سنوات ، وكان يُلْجأ عند الضرورة إلى مراضع محترفات ، وهؤلاء كانت مهنتهن - على الأقل فى عصر البطالمة - خاضعة لقوانين دقيقة . وقد ذكرت بردية إبرز (٩٣=٧٨٨ ، ٩٤=٧٩٦) طريقة التمييز بين اللبن الصالح وغيره بالشم .

ويمكن عامة قبول قول هيردوت : إن مستوى التغذية فى مصر كان جيداً حين قال : إن المصريين أصح الناس بعد الليبيين (٢ ، ٧٧) وهذا ما تشهد به آلاف التماثيل والصور التى تصورهم فى أجمل أشكال الرجولة أو الأنوثة .

ولكن : ما قيمة هذه الصور ؟ وهل تعدل قيمتها قيمة الوثائق التاريخية ؟ وفى رأيى أن هذه الأجسام المفتولة العضلات ، المثالية تشريحياً وفنياً ، الشبيهة بأجسام فلاحينا - كانت صوراً مستوحاةً من الطبقات العاملة التى درب أصحابها على العمل الجسمانى الشاق وعلى تناول طعام هزيل . أما الطبقات الغنية فإن الأدلة تشير





(شكل ١٠) صورتان للشخص نفسه عنخ- ما-حور من مقبرته في سقارة

إلى تفشى البدانة بينها :

من هذه الأدلة أننا كثيراً ما نجد صورتين للشخص الواحد على حجر واحد : تصور إحداهما وهى القريبة من داخل المقبرة - المتوفى على النحو الذى يرغبه لنفسه فى حياة الخلود : أى نحيف وكأنه بطل رياضى على حين تصوره الصورة الأخرى فى اتجاه الدنيا البائدة بديناً كما كان فى الحقيقة (شكل ١٠) والسبب فى هذا إتاحة تعرف الروح على جسمها حتى تتقمصه وتنعشه من جديد !

نرى الرغبة فى إخفاء معالم المرض والتشوه لتجنب الاحتفاظ بها فى الحياة الأخرى ، نراها مجسمة فى صور فرعون (سبتاح) الذى نعرف من مومياه المحفوظة بمتحف القاهرة أنه أصيب بضمور فى ساقه ، فلم يشأ أن يسجل هذا التشوه على صوره الرسمية التى كانت - حسب ظنه - تدب فيها الحياة بفعل السحر بعد موته .

وكانت البدانة بغيضاً فى نظر المصريين حتى فيما يتعلق بالحيوانات المؤلهة . وفى هذا الصدد يقول بلوتارخ [٧٦] عن الكهنة ! إنهم لا يحبون أن تكون عجول آبيس سمينة ، بل ولا يريدون هذا السمن لأنفسهم ، لأن أجسامهم - وهى كساء أرواحهم - يجب أن تكون خفيفة لا يسيطر فيها العنصر البائد على العنصر الإلهى .

ولكن هذه الاعتبارات لم تحل بين الفنانين وبين تصوير البدانة . بل ربما كان يروقهم أن يمضوا فى تصويرها سخرية من الأغنياء والكسالى . ونرى هذا فى صورة لحارس باب معبد وكأنه بواب من بوابينا أو لطاهى مقبرة عنخ - ما - حور ، أو لربان زورق جالس بين خدم انشغلوا بتقديم الطعام له .

أما فيما يتعلق بتصوير الأجانب فقد تمتع الفنانون بحرية تامة ، ولذا فإن تمثال هروا الحبشى نموذج للبدانة ، وكذلك تمثال (أريجاد جادن) ، ونحت ملكة بنط الصومالية التى رسمت لها رسوم هزلية (كاريكاتورية) فى عهدها .

ولا شك فى أن البدانة نتجت فى هذا العصر - كما تنتج اليوم - عن حب

المصريين لطيبات الدنيا. وقد روى هيردوت أنهم فى ولائمهم بعد أن ينتهوا من الأكل – يطوف بهم رجل يحمل فى نعش جثة من الخشب تشبه تماماً جثة آدمية، ويعرضها على الحاضرين ويحثهم على الشرب والتمتع، لأنهم سيصيرون مثلها بعد الموت ! (٢ ، ٧٨).

ولم يكن بعض الملوك ليشذوا عن هذا السلوك: نقرأ عن الملك أمازيس أنه كان ما يكاد يفرغ من تصريف أمور الحكم حتى ينكب على الشراب والمزاح واللهو مع ندمائه.. ولما أبدى أصدقاؤه سخطهم أجابهم: إن الأقواس إذا ظلت مشدودة إنقطعت، والإنسان إذا ظل جاداً ولم يلهَ اختل وعته (هيردوت ٢ ، ١٧٣).

وكانت الجعة – ولم تختلف هى و(البوظة) إلا قليلاً – الشراب الشعبى الأول، كما أنها ظلت على مدى القرون شراب شعوب العالم قاطبة المفضل، وهناك ما يدل على أنها فضلت على الماء الذى عد مصدراً للأمراض لعدم الإدراك لطبيعة التلوث وللجهل بوسائل تطهير مياه البرك والآبار، فكان إنتاجها – وإلى درجة أقل من إنتاج النبيذ – ضخماً. وإننا لنرى الفتيات يصفين العجين لتحضيرها، ونرى عمال الكروم يدهسون العنب وهم ممسكون بالحبال وكأنهم يخشون الانزلاق من تأثير أبخرة التخمير وكان النبيذ يوضع فى جرات تسجل عليها سنة الإنتاج، ودرجة الجودة، والنوع، والكرم الذى استخلص منه، واسم صاحبه، واسم المصنع.

غير أن النبيذ كان مشروب الأعيان، ونرى سيدة فى مأدبة تأمر الساقى: أعطنى ثمانى عشرة كأساً من النبيذ ! إنى أريد مواصلة الشراب حتى الثمالة ! إن حلقى جاف «جفاف القش» ! وفى مقبرة أخرى واصلت سيدة «أنيقة» الشراب حتى تقيأت؛ كما نشاهد فى رسم هزلى حارس مخزن خمور وهو فى حالة تخدر

عميق ، فلا يستجيب للقارعين على باب القبو ، ويتشدق عندما يقول أحدهم : «إنه نائم من الخمر» فيجيب : «لا ، لست نائماً» ! .

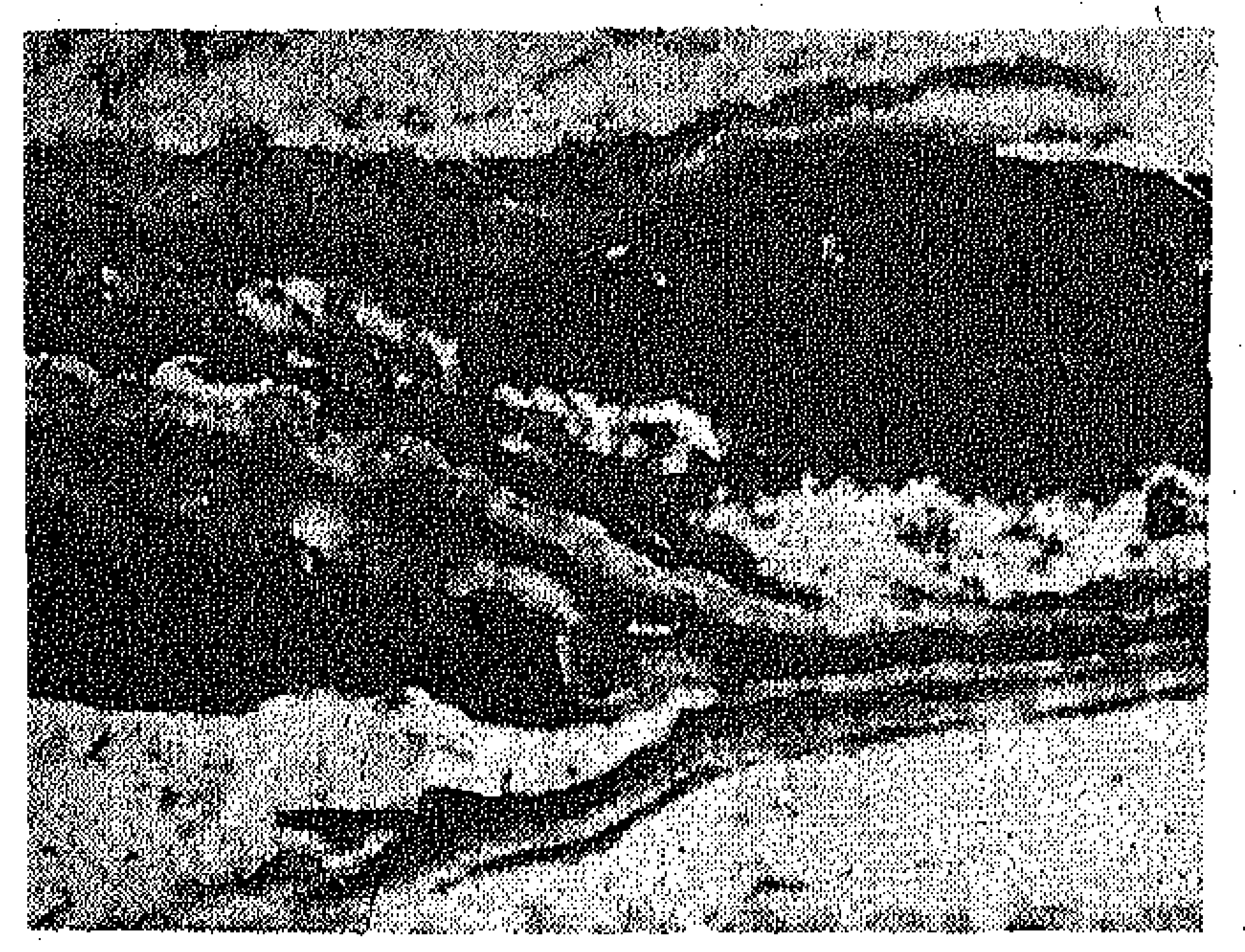
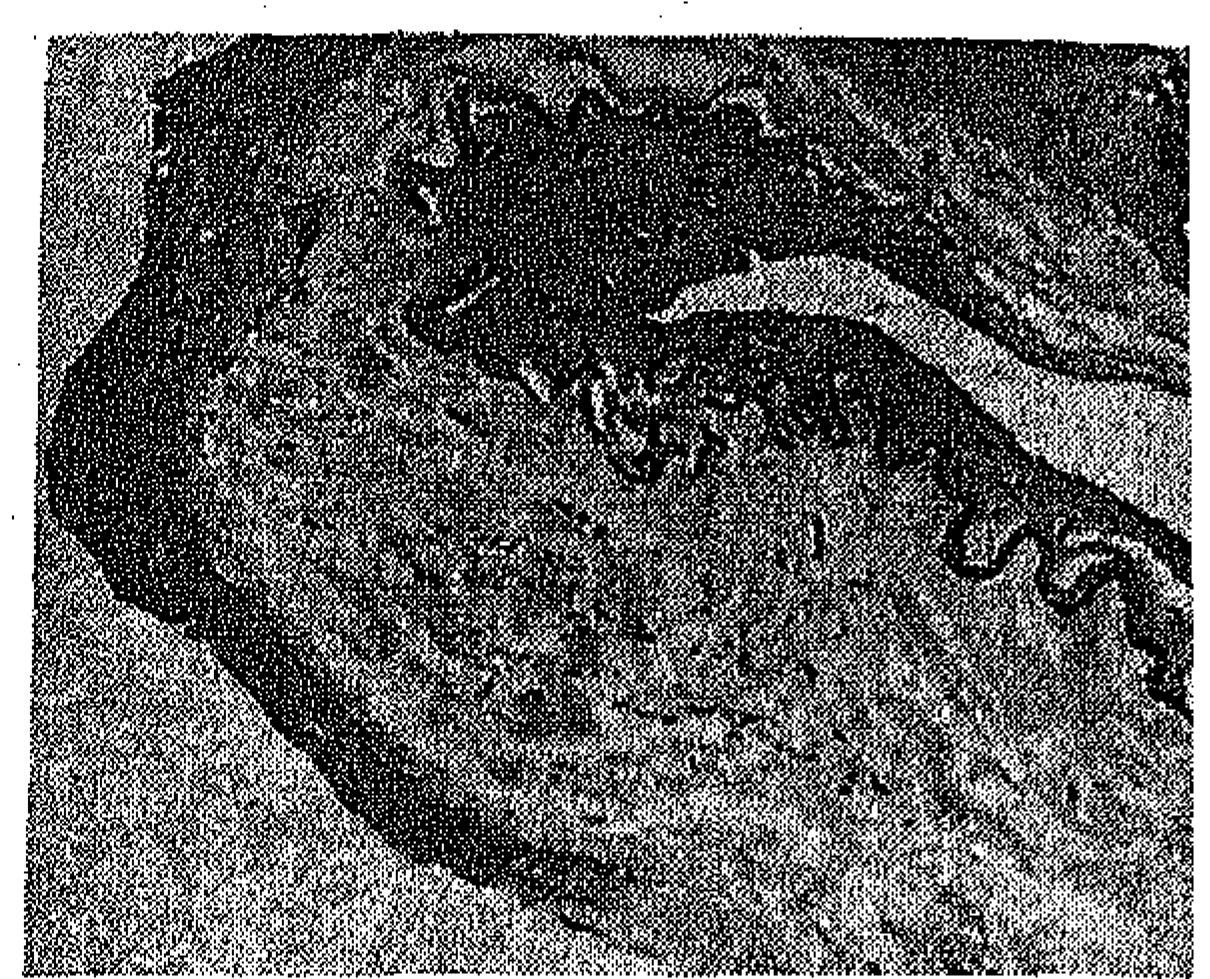
ولذا فإن أدب هذا العصر لم يخل من النصائح للنهى عن الشرب أو السخرية من مدمنيه : «إنك تتجرجر من ردهة إلى ردهة ، لقد فاحت رائحتك بالجعة ، إنك كالمقذاف المكسور ، كالبهلوان على حائط . . انظر إلى نفسك . . غريق فى العطر وأكاليل الزهور حول عنقك ، تُطَبِّل علىّ معدتك ، تترنح على الأرض بين القمامة ! » .

وجاء ضمن نصائح (آنى) الحكيم : «لا تلتزم من قبيل الزهو بشرب أبريق كامل من الجعة ؛ فإنك (بعد ذلك) إذ تتكلم يخرج من فيك قول لا معنى له ، وإذا سقطت وانكسرت ساقك فلن تجد من يمد إليك (يده) . وإخوانك فى الشراب سيقفون ويقولون : ابعدوا عن هذا الأحمق ! . وإذا حضر إنسان ليبحث عنك ليستجوبك وجدك طريح الثرى مثلك فى هذا مثل الطفل الصغير ! .»

كان من الطبيعى إذن أن يصاب الكثيرون بأمراض الإفراط فى الغذاء .

وقد كشف روفر [٧٧] وإليوت سميث [٧٨] ولونج [٧٩] بتشريح المومياوات عن مرض تصلب الشرايين الذى يُعزَى اليوم إلى ارتفاع نسبة الدهنيات فى الدم (شكل ١١) ، ومن المومياوات المصابة به مومياوات رمسيس الثانى ومنبتاح وغيرهما ، وقد أدت وسائل الفحص الحديث بالأشعة السينية إلى الكشف عنه فى مومياوات كثيرة أخرى [٨٠، ٨١، ٨٢] حتى فى مومياوات ترجع إلى ما قبل التاريخ [٨٣] . ولا تخالف معالم هذا التصلب المجهرية بمعالمه فى عصرنا هذا ، فقد وجد سانديس [٨٤] التغيرات نفسها ، وهى ضيق الممر فيها ، وترسب مواد دهنية فى أغشيتها وازدواج الغشاء المرن الداخلى وتليفه ، وتكلس الغشاء الوسيط !

ووُجِدَ حصى الصفراء فى جثة كاهنة من كاهنات آمون من الأسرة ٢١ ، كما

(شكل ١١) شرايين مومياء تبين تحت المجهر كل مظاهر تصلب الشرايين

كشف عنها بالأشعة فى جثة أخرى ، ووجدت آثار نقوس فى جثة ترجع إلى أوائل العهد المسيحى [٧٧] .

أما حصى المسالك البولية فقد عثر على عدد منها وإن كان نادراً : حالتين بالمثانة وثلاث حالات بالكلى من بين ٣٠,٠٠٠ جثة مصرية ونوبية [٧٨، ٧٩] ، ولا ندرى هل كان هذا الحصى من النوع الناتج عن اضطرابات التمثيل الغذائى أو عن البلهارسيا ، أو عن أسباب أخرى ؟

ويمكن تأويل بعض الملاحظات الواردة فى بردية إبرز عن إدرار البول (٢٦٤ ، ٢٧٤ ، ٢٨٠) بأنها تخص البول السكرى . ووصف لها العسل ، ولو أن المصريين فطنوا إلى حلاوة طعم البول فى هذا المرض لقلنا : إنهم وصفوا العسل علاجاً تعويضياً ، ولكنهم لم يتركوا أى نص يسمح لنا حتى بمجرد تخمين هذا .

* * *

وإذا انتقلنا من كثرة التغذية إلى نقصها جاز لنا أن نتساءل : إذا كان الخير فى مصر وافراً فهل يمكن حدوث أمراض نقص التغذية ؟ والإجابة هى : أن مجرد معرفة ألوان الأطعمة المتوافرة لا يكفى معرفة كنه الغذاء ؛ فقد تعم المجاعة لأسباب خارجية كالحروب والأعاصير ، وقد يصاب الناس بأمراض سوء الامتصاص . وقد تهمل بعض الأطعمة نتيجة للجهل أو للحظر .

تعتمد مصر اعتماداً كلياً على النيل لرى أراضيها ، وقد حاول الحكام منذ عهد مينا – على حسب قول هيردوت(٢، ٢٩٩) – بناء السدود وإقامة المشروعات الكفيلة بتنظيم انسيابه ، وخصصوا كبار الموظفين لمراقبته ، يحملون ألقاب محافظ البحيرات ، ومدير السدود ، ومراقب الصرف ، والمشرف على الفيضان وعلى أراضى «طرح البحر» [٨٥] ، وهذا لأنهم اختبروا نزوات (هع $\frac{1}{}$ پى) إله النيل الذى زادت بدانته وحجم ثدييه كما زاد كرمه ، وهى نزوات «زيادةً كانت أو نقصاناً» – طالما أنزلت بالدولة أبشع النكبات ! وقد وردت نصوص تصف بشكل واقعى آثار هذه الكوارث ، ولذا جنح الحكام – كما فعل سيدنا يوسف – إلى جمع الحنطة فى سنى الرخاء لتوزيعها خلال سنى القحط ، ورسموا الصوامع التى تحفظ بها فى أشكال من كل العصور ، والفلاحون يملئونها من أعلى ويفرغونها من فتحات من أسفل .

وربما كان أحد هذه الأحداث سبب النحافة الجماعية الرهيبة التى أصابت بعض رعاة البقر فى مقابر مير ، أو الأشخاص الذين رسموا على نحتٍ فى سقارة قارنه دريوتون [٨٦] مع النصوص التى تصحبه بوصف عبد اللطيف البغدادى للمجاعة التى أصابت مصر سنتين متواصلتين فى القرن الثالث عشر الميلادى نتيجة لعدم وفاء النيل .

والسبب (الثانى) لحدوث أمراض سوء التغذية مع وفرة الغذاء هو سوء الامتصاص ، وأهم أسبابه الإصابة بالطفيليات والديدان ، برهن على هذه الحقيقة الدكتورة وازلين وزملاؤها ، إذ أثبتوا بالبحث والتحليل وجود نقص واضح فى الحديد والزنك والفيتامينات عند المصابين بالديدان [٨٧] .

وذكرت بردية إبرز أسماء عدد من الديدان ، وكشف روفر [٧٧] عن بويضات البلهارسيا البولية فى أنسجة بعض المومياوات. ولكننا لا نعرف شيئاً عن البلهارسيا المعوية التى تفوق الأولى من حيث آثارها على التغذية ، ويمكن التخمين بأنها لم توجد فى الصعيد - كما هى الحال اليوم - بسبب طريقة الرى المتبعة فيه ، وعلى العكس من ذلك فإن الدلتا - بسبب اتساع المستنقعات المنتشرة فيها - كانت بلا شك تكفل لهذا النوع من البلهارسيا بيئة ملائمة .

وقد وجد روفر كبداً واحدةً متليفة ولكنه لم يذكر سبب تليفها ، وهناك بعض صور فى مقبرة ميحو بسقارة تتميز فيها الأشخاص بانتفاخ البطن والفتق السرى وتمدد الصفن كما لو كانوا يعانون من تليف الكبد والاستسقاء .

ويعزز هذه الفكرة رسم آخرين فى المقبرة نفسها بثديين كثدى النساء وبأعضاء تناسلية متضخمة تضخماً غير طبيعى ، وهاتان الظاهرتان - أى تضخم الثديين والأعضاء التناسلية - قد تسببها البلهارسيا الكبدية والبولية ، كما يعزز هذا أيضاً قصر هذه المناظر على أشخاص يعملون فى المياه الراكدة كالصيادين وحاملى البردى .

وقد دار حوار طويل حول حقيقة مرض سمى باللغة المصرية القديمة (عاع) تشمل أعراضه - كما وصفتها النصوص - : انتفاخ البطن وألم البطن وخفقان القلب الذى ربما يقصد به عثرة القلب ، وهى أعراض الأنيميا التى تنجم عن

الإصابة بالديدان أو بالبلهارسيا التى هى عادة إصابة مزدوجة : أى بأكثر من دودة واحدة ، وقد أضاف جونكير[٨٨] وشويتهاوزر[٨٩] إلى هذه الأعراض من جانبهما وبدون مبرر البولَ الدمويَّ ، لا لسبب إلا لورود نبذة عن (عاع) بين وصفة لنزف الرحم وأخرى لنزف الشرج ، فأكدا أن وضع العاع بين الشرج والرحم يشير إلى أن المقصود به هو النزف البولى ، وأن (عاع) هو البلهارسيا – مع أن البردية التى وردت بها هذه الفقرة – وهى بردية سحرية وليست بردية طبية بالمعنى الصحيح – لم تتبع أى ترتيب تشريحى .

وأضافا – بجسارة – أن المصريين عرفوا دودة البلهارسيا بانين حجتهم على ورود صفة دواء قيل عنه : «يتعطاه شخص ببطنه دود ، وأن (العاع) هو الذى تسبب فى ظهوره» هذا مع أن النص نفسه يؤكد أن (العاع) هو سبب وجود الدود ، وليس بالعكس ، ولذا فقد ذهب علماء اللغة المصرية أمثال جرابو وفون داينس [٩٠] إلى أن (عاع) كان فى تصورهم روحاً شريرة أو عملاً سحرياً يحدث المرض . ونضيف فنقول : إذا كان المصريون القدامى قد ربطوا حقيقة بين (عاع) والديدان فإن الديدان التى شاهدوها إنما كانت الديدان المعوية التى تسهل مشاهدتها فى الإفرازات وليست دودة البلهارسيا التى لا تكاد ترى وهى مختبئة فى الوريد البابى والتى تبلى بسرعة بعد الوفاة [٩١] .

ولم يرد أى وصف للبلاجرا ، وكان أول من ذكر اسم هذا المرض فى مصر (سونينى) فى سنة ١٧٩٩ [٩٢] حين أشار إلى حب النيل متسائلاً : هل ذلك هو اسم البلاجرا المحلى ويرجع ذلك الخطأ إلى جهله باللهجة المصرية وبحقيقة ما نسميه اليوم حمو النيل أو حب النيل .

أما أول من وصف البلاجرا وصفاً صحيحاً فى مصر فهو (برونربك) فى سنة ١٨٤٧ [٩٣] .

وقد يكون ظهور هذا المرض فى هذا التاريخ نتيجة لدخول زراعة الأذرة الشامية فى مصر ؛ فقد سجل الرحالة فورسكال فى ملاحظاته التى نشرها فى سنة ١٧٦١ أنه شاهد زراعة الأذرة الشامية فى مصر ، وثبت أن إنتاج الأذرة كان ١٣,٣٨٢ طنًّا فى سنة ١٨٣٣ : أى قبل وصف (برونر) بخمس عشرة سنة ، الأمر الذى يشير إلى أن الأذرة الشامية دخلت مصر فى القرن السادس عشر الميلادى آتية من مركز زراعتها الأصلى بأمريكا الوسطى .

ومن أمراض سوء التغذية الأخرى : ذكرت بردية إيرز (رقم ٣٥١) مرضاً سمى (شارو) ، وكان هذا المرض يعالج بوضع عصارة الكبد على العين ، وبما أن اليونانى ديوسقوريدس وابن سينا وابن النفيس وصفوا هذا العلاج نفسه لغشاوة الليل ، بالإضافة إلى أن الكبد تحوى كميات كبيرة من الفيتامين (أ) الذى له فائدة معروفة فى علاج غشاوة الليل - فإنه يمكن الأخذ بالرأى القائل : إن مرض (شارو) كان مرض غشاوة الليل الناتجة عن نقص فى فيتامين (أ) ثم إنه ورد اسم مرض آخر هو (ونم - ن - سنف) ، ومعنى هذه العبارة (آكل الدم) ، وهذا المرض يصيب فم المعدة وداخل الجسم واللثة ، وقد ترجمت هذه العبارة (بالأسقربوط) .

أما الكساح فإنه لم يذكر له وصف ، كما أننا لا نعرف أية مومياء مصابة به من بين آلاف المومياوات التى تفحصها العلماء بالتشريح أو الأشعة السينية . ولكن روفر نشر صوراً لأناس مشوهين ونسب تشويههم إلى هذا المرض ؛ كما أن أطراف إحدى التابعات على زورق من كنز توت - عنخ - آمون ملتوية وكأنها مصابة بهذا المرض .

ومن الآفات المرتبطة بالتغذية والتى قد ترجع إلى نقص الكالسيوم أو الفيتامين د ، أو إلى تناول كميات كبيرة من السكر أو طعام لين - تسوس

الأسنان ، وهذا المرض من القدم بحيث وجد فى أقدم سلالات القرود الشبيهة بالإنسان التى ترجع إلى ما قبل تاريخ البشر . غير أنه أيضاً من أمراض الحضارة التى لم تتفش إلا عندما انتقل الإنسان من حياة الصيد والجمع إلى حضارة الزراعة والاعتماد على البذور ، وببردية إيبرز وصفة الخشوسنة مسوسة (إيبرز٧٤٣) ، إلا أن تفحص الجثث بين أن التسوس كان نادراً فى الدولة القديمة فى حين انتشرت البيوريا والتآكل بالاحتكاك والخراريج السنخية والالتهابات حول الأسنان . ولم يتفش التسوس إلا خلال العصور القريبة وبين الطبقات الثرية نتيجة لتناول المأكولات اللينة والحلوى . وكان التسوس يعالج على حسب ما ورد ببردية إيبرز - بحشو الأسنان المصابة بخليط من مادة راتنجية وأملاح معدنية ، ووجدت بعض الأسنان المتخلخلة مربوطة بجاراتها بسلوك من الذهب أو الفضة (شكل ١٢) .

وآخر مظهر من مظاهر نتائج سوء التغذية التى أعرض لها تضخم الغدة الدرقية .

وهذه الآفة لم يصفها أى طبيب زار مصر حتى علماء حملة نابليون ، وأول ذكر لها جاء فى مقال الأستاذين الدكتورين مصطفى عمر ودولبى [٩٤] ، وأول من فطن إلى استيطانها فى أجزاء من مصر هو أستاذنا جميعاً الدكتور على باشا إبراهيم فى سنة ١٩٣٢ [٩٥] ، أما قدماء المصريين فيبدو أنهم جهلوا حتى مجرد وجود الغدة الدرقية ، فلم يذكروا لها اسماً ، غير أن طريقة النحت العالى المستدير التى مارسها الفنانون فى العهد البطلمى أبرزت الأعناق بصورة توحى بوجود «جواتر» ، مما أدى إلى جزم يازون [٩٦] بأن كليو باترا كانت مصابة به وهو - بلا شك - مخطئ فى هذا التشخيص ، إذ إن جميع فراعنة ذلك العهد صوروا بهذه الطريقة نفسها .

وهذا مثال آخر لخطر التسرع كاستنتاج وجود مرض من مجرد خروج رسم عن التقاليد المعهودة ، وقد أشرنا آنفا إلى أمثلة أخرى مرد انحرافها إلى اختلاف العقائد



(شكل ١٢) سنة ربطت بجارتيها بوساطة سلك من الفضة

والأنماط والأهداف . ولعل ذلك يدعونا إلى الاعتماد أولاً وقبل كل شيء على تفحص البقايا البشرية نفسها ، ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً .

أما السبب الأخير لسوء التغذية برغم كثرة أنواع الطعام فقد يكون التحريم الديني أو القبلي ، وهذا ما تناولناه في الباب السابق .

الباب الرابع

محرمات اليهود والنصارى والجاهلية

علق الأستاذ الدكتور عبد الحميد زايد [٩٨] على قرار للجنة التوراة البابوية بالفاتيكان بما مفاده أن نسبة الأسفار الأولى إلى موسى لا تتضمن بصفة قاطعة الاعتقاد بأن سيدنا موسى خط بيده أو أملى على كتابه نصوص هذه الأسفار ، وأضاف : «أن الكتب الخمسة المذكورة قد تعدلت نصوصها مع مرور الزمن بحيث أضيف إليها نصوص ، وزيدت عليها تفسيرات ، وتحولت تعبيرات قديمة إلى أخرى مستحدثة .

ولذا فإنه من الخطأ أن ينظر إلى تعاليم التوراة على أنها صبت فى قالب نهائى مرة وإلى الأبد ؛ إذ إن الأسفار التى تضمنتها صنفت فى مناسبات متتابعة ومتباعدة تبعاً لوحى سائر الأحداث التى مر بها العبرانيون فى خلال جولاتهم ، فقد أملى سفر التكوين وهم لا يزالون قلة تعيش حياة الرحل لم تستقر تقاليدهم بعد ، ثم مكثوا

فى مصر قروناً وعاصروا حضارتها ، وتأثروا بفلسفتها ، وعندما خرجوا منها سنت لهم فئة الكهنة واللاويين القوانين تبعاً للظروف والأحداث : فأملى أولاً سفر الخروج ، وبعده سفر اللاويين ، وتوج كلَّ هذا سفرُ التثنية أى الإعادة ، وهو الذى صب فيه موسى - بلسانه - القوانين السابقة جميعاً فى شكل موحد .

وهذا التتابع الزمنى حقيقة قلما أخذت فى الاعتبار عند النظر فى التحريمات التى تثاقلت على اليهود حتى أصبح عددها يربى على المئات ، وهى حقيقة تفرض علينا متابعة التحريم زمنيًّا حتى ندرك تطوره :

كان أول تحريم ورد فى التوراة خاصًّا بالدم : «ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض . كل دابة حية تكون لكم طعاماً كالعشب الأخضر دفعت إليكم الجميع . غير أن لحما بحياته دمه لا تأكلوه . وأطلب أنا دمكم لأنفسكم فقط» (تكوين : ٩ : ٢) .

أبيحت إذن الحيوانات كلها دون أى استثناء ، وكل أجزائها ، حاشا الدم ، وهذا السبب دينى أوضحه سفر التثنية (١٢ : ٢٣) : « لأن الدم هو النفس فلا تُؤكل مع اللحم» ، وكذلك سفر اللاويين (١٧ : ٨) : «لأن نفس الجسد هى الدم فأنا أعطيتكم إياه على المذبح للتكفير عن نفوسكم» ، وأيضاً : «وكل إنسان من بنى إسرائيل . . . يصطاد صيداً . . . يسفك دمه ويغطيه بالتراب ؛ لأن نفس كل جسد دمه هو بنفسه (لاويين ١٧ : ١٣ - ١٥) ومعنى كل هذا أن الدم هو الروح ، وأن الروح ملك لله ، ويجب أن تعود إليه .

ومما يزيد التوكيد على أن الدم لم يحرم لنجاسته الذاتية ، وإنما ليحفظ لله لقداسته - أنه كان يرش على الهيكل ، ويطلى به القائمون بالشعائر القربانية : «ويذبح العجل أمام الرب ويقرب بنو هارون الكهنة الدم ويرشون الدم مستديراً على المذبح الذى لدى باب خيمة الاجتماع» (لاويين ١ : ٥-٦) ، وكذلك :

«وأخذ موسى من دمه وجعله على شحمة أذن هارون اليمنى وعلى إبهام رجله اليمنى (لاويين ٨ : ٢٢ – ٢٥). ويبدو أن تقديس الدم إنما كان من بدع العبرانيين ؛ فإن المصريين القدامى لم يحرموه ولم يقدسوه ، وتشير إلى عدم تحريمه عبارة فى بردية إبرز الطبية (رقم ١٩٨) تشبه فضلات أمعاء مريض بالدم المطهو ، فتنوه بأن الدم كان يطبخ ويؤكل ؛ كما أن مقبرة (بتاح – حتب) بسقارة تحوى رسماً لكاهن طبيب يشم دماً يقدمه إليه قصاب ، ويقول له : «إنه طاهر».

أما الإغريق فقد ظن البعض منهم أن الدم يقتل خنقاً (هيردوت ، ٣ : ١٥) ، وروت أساطيرهم أن (يازون) قائد (الأرجونوت) شرب دم الثيران عندما أراد الانتحار [٩٩] .

جاء يعقوب بعد نوح بزهاء أربعمائة سنة [١٠٠] ، وصادف أن قابل شخصاً لا يعرفه فى خلال سفر ، وصارعه حتى طلوع الفجر ، ولما تعسر على هذا الشخص قهر يعقوب ضرب حق فخذه فانخلع ، وقال : أطلقنى ؛ لأن الفجر طلع ! فقال يعقوب : لا أطلقك إن لم تباركنى . . . ولذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النسا الذى على حق الفخذ ؛ لأنه ضرب حق فخذ يعقوب على عرق النسا» (تكوين : ٣٢ : ٢٤ – ٣١) .

ثم حرمت أجزاء أخرى من الذبائح على التتابع : فحرم شحم الثور والكبش والماعز ، وحلل «شحم الميتة والمفترسة لكل عمل سوى أكله» (لاويين ٢٧ : ٢٢ – ٢٦) ؛ لأن الشحم المحرم كان يحفظ لله على حسب فرائض عينها سفر اللاويين لمختلف أنواع القرابين التى كانت تقدم فى مناسبات محددة ، وهى ذبيحة الإثم ، وذبيحة الخطيئة ، وذبيحة الملء ، والمحرقة ، والتقدمة .

ومن المعروف ما كان للتثاقف المتبادل بين مصر واليهود ، وللاحتكاك (اليومى) بينهم من النفوذ فى تكوين أدب العبرانيين وفلسفتهم حتى أناشيدهم الدينية [١٠١] ،

ولعلنا ندرك مدى اقتباسهم للعادات المصرية إذا قارنا طقوس القرابين بين الشعبيين ، وقد وضعناها فى جدول مقارن .

الخنزير عند العبرانيين :

وإذا تدرجنا الآن إلى القوانين المحرمة للخنزير لم نجد لها ذكراً قبل خروج اليهود من مصر ، وهذا يجيز التساؤل : «هل كان لمجاورتهم المصريين أثر فى هذا ؟ فقد عاشوا فى منطقة (زوان) بالقرب من تانيس (صا الحجر) ، وهى منطقة ظل سكانها يعبدون (ست) ويقدسون حيوانه الخنزير منذ فجر التاريخ حتى آخر عصر الأسر ، فهل كان سبب نفور اليهود منه رغبتهم فى تمييز أنفسهم عن أسيادهم المصريين ، وبغضهم لعبادة الأوثان ، والحيوان ؟

ونجيب أن الخنزير لم يكن إلا واحداً من جمهرة التحريمات التى شملت الآتى :

من الأنعام : مالا يستوفى شرطين معاً ، هما : أن يجتر ، وأن يشق الظلف : فسمح بالبقر والضأن والماعز والإبل والظبى واليحمور والوعل والرئم والتيتل والمهاة ، وحرم الجمل والأرنب والوبر والخنزير (تثنية ١٤ : ٣) .

ومن الأسماك : سمح بأكل ما له زعانف وحرشف ، وحرم غيره كالربيان (الجمبرى) والسرطان (أبو جلمبو) .

ومن الطيور : حرم النسر والأنوق والعقاب والحدأة والباشق والشاهين والغراب والظليم والسأف والباز والبوم والكركى والبجع والقوق والرخم والغواص واللقلق والببغاء والهدهد والخفاش ، وكل دبيب الطير الماشى على اربع ، وسمح بما له كراعان فوق رجليه يثب بهما على الأرض . (لاويين ١١ : ٢١) .

كما حرم أيضاً كل ما يمشى على كفوفه ، أو على بطنه ، وابن عرس ، والفأر

قرابين المصريين (هيردوت ٢ : ٣٨ - ٤٠)	قرابين العبرانيين
يخصصون للتضحية أنعامهم النقية ذوات اللون الأحمر ، ويعتقدون أن تقديم حيوان ذى شعرة واحدة سوداء أو بيضاء خطأ جسيم[٢٧]	أن يأخذوا إليك بقرة حمراء صحيحة لاعيب فيها فتعطوها ألعازار الكاهن .. وتذبح قدامه (عدد : ١٩ : ٢٠).
لذا فإنهم يفحصونها بهذه الكيفية .. فإذا كان الثور طاهراً من كل الوجوه يضع عليه علامة ، أما من يضحى بثور غير موسوم بهذه الكيفية فالعقوبة على ذلك الموت	لاتذبح للرب إلهك ثوراً أو شاة فيه عيب .. لأن ذلك رجس لدى الرب إلهك (تثنية ١٧ ، ١) إذا كان فيه عيب .. فلا تذبحه للرب إلهك (تثنية ١٥ : ٢١)
يوقدون ناراً	يجعل بنو هارون الكهنة ناراً على المذبح (لاويين ١ ، ١ - ١٧)
ثم ينحرونها مبتهلين إلى الإله	ويضع يده على رأس المحرقة فيرضى عليه للتكفير عنه ، ويذبح العجل أمام الرب (لاويين ١ ، ١ - ١٧)
وبعد ذبحها يقطعون رأسها ويسلخون جسمها ثم يعطرون على الرأس وافر	ويسلخ المحرقة ويقطعها إلى قطع . ويرتب بنو هارون الكهنة القطع من

قرابين المصريين (هيردوت ٢ : ٣٨ - ٤٠)	قرابين العبرانيين
اللعنات .	الرأس والشحم فوق الحطب (لاويين ١ ، ١ - ١٧) وأما التيس الذى خرجت عليه القرعة لعزازيل فيوقف حياً أمام الرب ليكفر عنه ليرسله إلى عزازيل إلى البرية (لاويين ١٦ : ٨ - ١٠)
عندما يسلخون الثور وينتهون من صلاتهم يخرجون المعدة على حين يتركون الحوايا والدهن داخل الجسم ، ثم يقطعون الأرجل ونهاية العجز والأكتاف والرقبة ، وبعد ذلك يملئون بقية جسم الثور خبزاً طيباً و.. فإذا ملئوا الجوف بذلك فإنهم يسكبون عليه زيتاً وافراً ثم يحرقونه .	وأما أحشاؤه وأكارعه فيغسلها بماء ، ويوقد الكاهن الجميع على المذبح محرقة وقود (لاويين ١ ، ١ - ١٧)
وعندما ينتهون من اللطم يوضع أمامهم طعام مما تبقى من الذبائح .	والباقى من التقدمة هو لهارون وبنيه قدس أقداس من وقائد الرب (لاويين ٢ : ١٠)
وإذا كانت لهم سوق ويقيم عندهم تجار يونانيون فإنهم يحملون الرأس إلى هناك ويبيعونه .	لاتأكلوا جثة ما . تعطيها الغريب الذى فى أبوابك فيأكلها أو يبيعها لأجنبى .

والضب والجرذون والورل والوزغة والغطاية والحرباء وكل ماكثرت أرجله (لاويين : ١١ : ٢٩).

وعلى العكس : سمح بالجراد والدبا والحرجوان والجندب (لاويين ١١ : ٢١ : ٢٢).

ومن الغريب أن مشرّع اليهود نجّس كل من يمسّ حيواناً نجساً (لاويين ١١ : ٢٤) وأمر بكسر «كل متاع خزف وقع فيه» (لاويين ١١ : ٣٣) فى حين أنه استثنى من هذا الحكم «العين والبئر التى يقع فيها (لاويين ١١ : ٣٦)، مع أن خطر العدوى منها إذا ما ألقى فيها بجثث مصابة بمرض منقول - يفوق خطر التلوث من مجرد لمس جثث الحيوانات ! وقد يكون السبب فى استثناء العيون عزّتها فى المناطق التى مرّ بها اليهود بعد خروجهم من مصر، وضرورة الانتفاع بكل ما يوجد منها . ولنذكر فى هذا الصدد أن القدامى كانوا يؤلهون العيون والينابيع والآبار ، ويعينون لها الجوارى .

ولنعد إلى الخنزير : قد نستغرب تخصيص الخنزير بأبشع صور النجاسة ، وقد بينا الأسباب التى دعتنا إلى الشك فى أن سبب هذا الحكم الصارم هو إصابته بمرض التركينوز ، وأبدينا ما يراودنا من أنه يجوز رده إلى تقديس هذا الحيوان ، عند قوم ، وإلى رغبة قوم معاد فى التميز عنهم واستخلصنا حجتنا من أساطير المصريين : هل نجد عند اليهود اختلافاً بين فئة مقبلة على هذا الحيوان وفئة تنهى عنه ؟

والجواب أن مظاهر هذا الاختلاف توجد فى التوراة نفسها ، حيث عبر النبى (إشعيا) عن غضب الله من هؤلاء اليهود الذين يقيمون شعائر تخالف الشعائر السائدة ، ويحسبون أنفسهم أقدس من غيرهم :

وإلى القارئ ماورد فى سفر إشعيا (٦٥ : ٢ - ٥ و٦٦ : ١٧ - ١٨) ! بسطت

يدى طول النهار إلى شعب متمرد سائر فى طريق غير صالح وراء أفكاره ، شعب يغيظنى بوجهى دائماً يذبح فى الجنات ويبخر على الآجر. يجلس فى القبور ويبيت فى المدافن ، يأكل لحم الخنزير وفى آنيته مرق لحوم نجسة ! يقول : قف عندك : لا تدن منى لأنى أقدس منك . هؤلاء دخان فى أنفى نار متقدة كل النهار !

وقد وردت أيضا فى النص نفسه هذه العبارة :

«الذين يقدسون ويطهرون أنفسهم فى الجنات وراء واحد فى الوسط آكلين لحم الخنزير والرجس والجرذ يفنون معاً» .

إن هذه النصوص تتيح وضع تحريم العبرانيين للخنزير فى إطار تضارب الانتماءات والأديان ، وهو الإطار الذى أشرنا إليه نفسه ونحن فى صدد الصراع بين أتباع (أوزيريس) وأتباع (ست) .

المحرمات عند النصارى :

كاد مثل هذا التضارب السابق نقاشه يحدث فتنة فى صدر المسيحية ، عندما اعتنق بعض اليهود والوثنيين الدين الجديد ، فخشى المتنصرون من اليهود التنجس من هذا الاختلاط وبصفة خاصة عندما بشر بطرس الرسول برفع كل خطر سابق .

«ولما صعد بطرس إلى أورشليم (القدس) خاصمه الذين من أهل الختان (اليهود) قائلين : إنك دخلت إلى رجال ذوى غلفة وأكلت معهم ؛ فابتدأ بطرس يشرح لهم بالتتابع قائلاً :

أنا كنت فى مدينة يافا أصلى ، فرأيت فى غيبة رؤيا إناءً نازلاً مثل ملاءة عظيمة مدلاة بأربعة أطراف من السماء ، فأتى إلىّ فتفرست فيه متأملاً فرأيت دواب الأرض والوحوش والزحافات وطيور السماء ، وسمعت صوتاً قائلاً لى : قم يابطرس اذبح وكل ، فقلت : كلا يارب ، لأنه لم يدخل فى قط دنس أو

نجس ؛ فأجابني صوت (ثانيةً) من السماء : ما طهره الله لا تنجسه أنت !.(أعمال الرسل : ١١ : ٢-٩) .

ولكن بطرس وجد نفسه مضطرًّا إلى مجاملة اليهود المتنصرين ، فمنع عما ذبح للأصنام وعن الدم والمخنوق (أعمال الرسل : ١٥ : ٢٨ -٢٩) .

وقال يعقوب الرسول : «ولذلك أنا أرى ألّا يثقل على الراجعين إلى الله من الأمم ، بل يرسل إليهم أن يمتنعوا عن نجاسات الأصنام والزنى والمخنوق والدم ؛ لأن موسى منذ أجيال قديمة له فى كل مدينة من يكرز به ؛ إذ يقرأ فى المجامع كل سبت (أعمال الرسل : ١٥ : ١٩ - ٢١) ، ولكن هذا التحريم لم يراعَ ، ولم يمتنع النصارى عن أى طعام ! .

ومن ثم فإن الخنزير لم يحرم على النصارى ، بل إننا نجدُ - على العكس - بعض الطوائف الغنوسطية ، وهى طوائف أخذت بأن الخلاص يأتى عن طريق المعرفة الروحية توحد بين المسيح والإله ست الذى كان يرمز إليه بالخنزير [١٠٢] وإن كان هذا القول غير أكيد .

ولكن تحريم الخنزير بسبب العادات بين المتجاورين والمحاكاة بين المتعايشين ولصعوبة إزالة التقاليد إذا ما تأصلت ورسخت - لا يزال تاركاً آثاراً واضحة بين بعض النصارى إلى يومنا هذا مثلاً : فى الحبشة ، وبالمثل فإن التحريمات التقليدية الأخرى تشاهد بقاياها اليوم .

من هذه المظاهر تحريم اللحوم والمنتجات الحيوانية فى خلال أيام الصيام التى تُربى عند الأقباط على مائتى يوم فى السنة مع استثناء السمك الذى حرم ثمانية وخمسين يوماً فقط . ومما قد يكون ذا مغزى خاص أن ثلاثة أيام من أيام تحريم السمك تسمى أيام (يونان) ، وهو الذى ابتلعه حوت ثلاثة أيام على حسب ما ورد فى التوراة .

وقد كان لمجاورة الأقباط للمسلمين أثران عكسيان ، يتمثل الأول : فى التميز عن عادات المسلمين ؛ إذ نرى أقباط الحبشة يمتنعون عن أكل لحم الجمال ؛ لأن

أكله من مميزات المسلمين ؛ والإخر : فى رواية وردت فى مذكرات الرحالة الفرنسى سونيتى [١٠٣] مؤداها أن بعض من اتصل بهم من المسيحيين فى صعيد مصر دعاه ليشاهد حيواناً غريباً يُرَبَّى فى دير كاثوليكى فى نقادة ، فكم كانت خيبة أمله عندما وجد أن هذا الحيوان الفريد لم يكن سوى خنزير !

المحرمات فى الجاهلية :

ورث العرب فى عصر الجاهلية عن جمهرة الشيع والطوائف التى اختلطوا بها أو بدافع عقائدهم الذاتية تحريمات يصعب علينا الآن حصرها ، وإن كنا على علم ببعضها . وقد أوضح كتاب الله أن ما حرم على اليهود إنما حرم عقاباً لهم على ما اقترفوه .

(وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظُفُر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ، فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يُرد بأسه عن القوم المجرمين) . الأنعام / ١٤٦ - ١٤٧ .

(وقالوا هذه أنعام وحرث حِجْر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سنجزيهم بما كانوا يفترون ، وقالوا مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتةً فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم) الأنعام/ ١٣٨ - ١٣٩ .

هذا إن هؤلاء الذين كانوا يخدمون الأصنام كانوا يخصون لأنفسهم ما كانت تحمله الأنعام فى بطونها حاشا الميتة منها .

ثم إن عرب الجاهلية كانوا يعتقون بعض البعير ، سجل منها ما أُطلق – البحيرة والسائبة والوصيلة والحام :

والبحيرة هى الناقة التى شقت أذنها ، والسائبة هى التى كانت تعتق لنذر ، أو لأنها ولدت عشرة أبطان كلها إناث ، فكانت لا تركب ، ولا يشرب لبنها إلا ولدها أو الضيف ولا تمنع عن ماء أو كلأ حتى تموت ، والحام خيار الإبل .

وقد أكدت آيات كريمة عدم جواز الأخذ بهذا :

(ومن الأنعام حمولة وفرشاً كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) (الأنعام/ ١٤٢) .

(ما جعل الله من بحيرة ولاسائبة ولا وصيلة ولا حامٍ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون) (المائدة/ ١٠٣) .

وقد حددت المحرمات وهى قليلة : (يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد) (المائدة/ ١) (حُرمت عليكم الميتةُ والدم ولحم الخنزير وما أهِل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السُبع إلا ماذكيتم وماذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق) (المائدة/ ٣) .

وبهذا حصر التحريم فى التالى :

١ – ما يصطاد فى مناطق الحرام وهذا لأن الصيد محرم فيها .

٢ – ما أهل لغير الله به وما ذبح على الأصنام ؛ لأن عرب الجاهلية اعتادوا نحر الذبائح على هياكل الأصنام ، فأمر الله بتقديم الذبائح له بأن يذكر اسمه تعالى عليها : (ولا تأكلوا مما لم يُذكر اسم الله عليه ، وإنه لفَسق) (الأنعام/ ١٢١) .

٣ – ما اقتسم بالأزلام لأن الأزلام حرمت .

٤ – الدم لأن عرب الجاهلية كانوا يطبخون الدم ويأكلونه ، وكانوا يسمون هذا الطعام الفصيدة .

٥ – مالم يذبح ولم يسفك دمه ، وهذا لسببين هما : أن اسم الله لم يذكر عليها ، وأن الدم مازال فيها ، إلا أن اصطيد بحيوانات مدربة على الصيد ، ثم سكب دمها : (يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلِّبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم ، واذكروا اسم الله عليه ، واتقوا الله إن الله سريع الحساب) (المائدة/ ٤) غير أن الخالق الرحيم لم

يبتغ من التحريم تعجيز المؤمنين : (فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم) (البقرة/ ١٧٣) .

وقد تكرر هذا السماح فى أكثر من آية كريمة ، الأمر الذى يشير إلى أن العبرة فى التحريم ليست نجاسة ذاتية فى المحرم كما هى فى الأديان الهندية التى تعد مجرد لمس المحرم تنجيساً حتى لو كان اللمس مصادفة ، بقدر ما هى ميثاق بين الخالق تعالى والمخلوق لامتحانه : كمنع آدم عن الاقتراب إلى شجرة بعينها فى الجنة .

(ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) (الأعراف/ ١٩) .

كما أن الطاعة واجبة دون تساؤل .

(يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبد لكم تسؤكم) (المائدة/ ١٠١) .

وبهذا يتخذ انتهاك التحريم شكلاً خطيراً ، هو التحدى السافر والعصيان المعلن ، وهذا ما لا يغفره دين .

غير أن الخيال الشعبى أضاف محرمات استنبط مبادئها من القياس ، وقد ورد العديد منها فى كتابات أمثال الدميرى والقزوينى وغيرهما ، حيث نقرأ أن الضفادع نُهِىَ عن قتلها ؛ لأن الله جعل نفيقهن التسبيح : «يا مسبح بكل لسان ومذكور بكل مكان» (الدميرى : ١ : ٦٤٨) ، والهدهد ؛ لأنه كان دليل سليمان على قرب الماء (القزوينى : ٢٨٦) ، والعلق ؛ لأنه دم خارج من الرحم كالحيض (الدميرى : ٢ : ٧٤) ولعل هذا لخلط بين العلق وهو دود والعلق وهو الجنين قبل ظهور سماته .

ولنستخلص مما تقدم التأويلات المختلفة التى تزح إليها علماء التأريخ والنفس وعلم السلالات لتفسير ظاهرة التحريم وقد ذكرنا فيما سبق بعضها :

١ - الرمزية : ومن هذا أن الجزّ الذى اشرطه اليهود لإباحة اللحوم يرمز إلى

حياة التأمل والتفكير التى ينبغى على المؤمن سلوكها . [١٠٤]

٢ - الاستقذار والاستخباث .

٣ - الضرر للصحة .

٤ - فرض الانضباط .

٥ - امتحان الطاعة .

٦ - رسوخ رواسب من العقائد والشعائر الدينية ومنها ذكرت عادة آسيوية قديمة تفرض نثر قطع من اللحم المسلوق فى اللبن على سطح الحقول لاسترضاء الإلهة إشطار ، على أنها الأصل فى تحريم اليهود طهو اللحم باللبن أو منتجاته .

٧ - الرغبة فى التميز وابتكار أنماط تكفل التمييز وتقويه : ومن هذا القبيل حرص محاكم التفتيش على تعليق شىء من لحم الخنزير فوق رءوس القضاة لتأكيد عدم انتمائهم إلى الدين اليهودى .

وقد ذهب إلى هذه النظرية علماء اليهود لتبرير محرماتهم فاليهودى - على حد قول رب كوهين [١٠٥] ليس على دينه أن يميزه عن غيره فحسب ، بل عليه أن يذكره فى كل لحظة من حياته أنه ينتمى إلى العنصر اليهودى والديانة اليهودية . وعلى اليهودى أن يتميز - ليس بمجرد عقيدته - ولكن كذلك بسلوكه ، وأن يبتدع - حتى فى أنشطة الحياة اليومية - مظاهر تظل تذكره يهوديته .

٨ - الإشراط فى الطفولة : ويطلق لفظ الإشراط على حدوث ظاهرة ما استجابة لمنبه لم يكن يثيرها فى الأصل . وهذا بسبب تكرار تتابع - اتفاقاً - المنبه والظاهرة ، ولهذا السبب يضحى عدد من أصبحوا غير مؤمنين بعقائد صباهم - ينفرون من محرماتها للارتباط المحكم فى أذهانهم بين المحرم وبين نجاسته . وقد يصل الاستخباث إلى التقيؤ والإسهال !

ومن الأمثلة المأثورة للإشراط ما رواه غاندى من أنه أراد أكل اللحم عساه يحصل منه على قوة الطغاة الإنجليز ، فتناول ذات ليلة شيئاً من لحم الماعز ، فبات طوال الليل يتقيأ ، ويعانى مغصاً شديداً ، وكابوساً يتخيل فى خلاله أن معزاة حية تثغو فى أحشائه !

الباب الخامس

حكم بعض المأكولات الأخرى

الخيل . الحمير . والبغال . والقطط . الكلاب . الثعابين . الحشرات .
البيض . اللبن . المحرمات غير الحيوانية . النباتات . الملح .

الخيل :

انتشرت عادة أكل لحوم الخيل من بلاد المغول فى وسط آسيا ، حيث نشأ هذا الحيوان ، إلى غربى أوربا فقد قطن بقلب القارة الآسيوية رعاة هيئوا حياتهم حول هذا الصديق الأليف ، واستخدموه كما استخدم العرب البعير ، فأفادوا من سرعته فى القتال ومن لحمه وجلده ولبنه ، واعتمدوا عليه فى السلم والحرب .

ولجمّ حبهم له ابتدعوا الأساطير حوله : فزعم الياقوت أن الحصان هدية إله خيّر علّمهم - ضمن ما علمهم - فن تخمير لبنه لصناعة مشروبهم المفضل

(القمز) ، واعتادوا إذا نفق حصان رفع عظامه ووضعها على منصة تكريماً له ، وإذا مات أحد رجالهم ، دفن حصانه معه في قبره ، وتفانوا في أكل لحمه وتقديمه في المآدب والأعراس على أنه طعام فاخر ولذيذ .

وقد أولع العرب مثلهم بتربية الخيل واقتناء أثمنها واستيلاد سلالات أصيلة منها ، وقالوا عنها العجب العجيب ، أورد منه الدميرى في كتابه «كتاب الحيوان الكبير» روايات تفخمها وتبين مكانتها عندهم .

فقد روى - على سبيل المثال - أن معاوية مر بأبي ذر رضى الله عنهما وهو يمرغ فرساً فسلم عليه ثم قال : يا أباذر ، ما هذا الفرس ؟ فقال : هذا فرس لا أراه إلا مستجاب الدعاء ! قال : وهل تدعو الخيل وتجاب ؟ قال : نعم ، ليس من ليلة إلا والفرس يدعو فيها ربه فيقول : رب ، إنك سخرتنى لابن آدم وجعلت رزقى فى يده ، اللهم فاجعلنى أحب إليه من أهله وولده (الدميرى ١ : ١٥٤) ففسر تفسيراً شاعرياً تفضيل الخيل على الأهل .

كما ذكر الرواية التى مفادها أن أول من ركب الخيل كان إسماعيل عليه السلام ، ولذلك سميت بالعراب ، وكانت قبل ذلك وحشية ، ولذلك أسند إلى النبى ﷺ القول : «اركبوا الخيل فإنها ميراث أبيكم إسماعيل» (الدميرى : ١ : ٤٤٢) .

وروى الترمذى إسناداً ضعيفاً عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه : «جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال : «إنى أحب الخيل فهل فى الجنة خيل ؟ فقال ﷺ : «إن دخلت الجنة أتيت بفرس من ياقوتة لها جناحان فتحمل عليها فيطير بك فى الجنة حيث شئت» (الدميرى : ١ : ٤٤٣) .

وفى رواية أخرى أن رسول الله ﷺ قال : «لما أراد الله سبحانه وتعالى أن يخلق الخيل قال لريح الجنوب : إنى خالق منا خلقاً أجعله عزة لأوليائى ومذلة

لأعدائى وجمالاً لأهل طاعتى ؛ فقالت الريح : اخلق يارب ، فقبض منها قبضة فخلق منها فرساً ، وقال جل وعلا : خلقتك عربياً ، وجعلت الخير معقوداً بنواصيك والغنائم على ظهرك ، وبوأتك سعة من الرزق ، وأيدتك على غيرك من الدواب ، وعطفت عليك صاحبك ، وجعلتك تطير بلا جناح ، فأنت للطلب وأنت للهرب ، وإنى سأجعل على ظهرك رجالاً يسبحونى ويحمدونى ويهللونى ويكبرونى (الدميرى : ١ : ٤٤١) .

أما الأفريقيون فقد اختلفوا فى شأن أكل الخيل ، ولا داعى للإطالة هنا فى ذكر عاداتهم المختلفة واحدة واحدة ، فقد أفرد لها سيمونز [١٧] باباً طويلاً ، وفى أوربا استحسن لحمها ، ويبدو أن الأوربيين ربطوا بين هذا الحيوان النبيل وبين الإله الوثنى (أودين) ، فنفر المسيحيون منه وحرم لحمه عليهم تدريجا إلى أن أصدر البابا جريجورى الثالث سنة ٧٣٢ أمراً يحرمه نهائياً . ومن جراء هذا التحريم امتنعت بعض شعوب آيرلندا عن اعتناق الدين المسيحى مدة طويلة .

ولكن مثل هذه الأوامر وما تبعها لم تمح هذه العادة محواً تاماً ، وظل الأوربيون يستسيغون هذا الطعام ، ولا سيما فى آيرلندا حيث شملت طقوس التتويج جلوس الملك فى حمام من فوق فرس ذبح لهذه المناسبة ، ثم اشتراكه مع قومه فى أكل لحمه وشرب شىء من مرقه .

ثم مر هذا اللحم بحقبة فتور ازدُرِىَ فى أثنائها ، وعد غير ملائم للموائد المحترمة إلى أن تجدد الاعتماد عليه فى خلال مجاعات القرن الثامن عشر ، وعرفت مزاياه ، واعتاد جراح الحملة الفرنسية فى مصر - بارون لارى - تغذية مرضاه به ، واجتهد بعض المفكرين فى القرن التاسع عشر بإعادة ترويجه . ومن مظاهر حملتهم إقامة مأدبة (حِصانية) سنة ١٨٦٥ فى فندق من أفخر فنادق باريس لم يقدم خلالها من الأطباق سوى ما صنع من لحم الخيل المطهو فى أشكال مختلفة ، ثم افتتحت

جزارات خاصة لبيع هذا النوع من اللحم وحظر بيعه فى غيرها ، وأنشئت جمعية لتشجيع أكله ، ولا يزال قوم يعتقدون أنه علاج شافٍ للسل والهزال والأنيميا وما إليها من الأمراض .

واتفق أغلب الفقهاء على السماح بأكل الخيل استناداً إلى حديث شريف فحواه أن الرسول ﷺ رخص فيها يوم خيبر (صحيح البخارى [١٠٦] : ٥ : ١٧٣) ، كما ورد فى الصحيحين :

عن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما أنها قالت : «نحرنا فرساً على عهد رسول الله ﷺ فأكلناها» وفى رواية «ونحن بالمدينة» وفى سند الإمام أحمد «نحرنا فرساً على عهد رسول الله ﷺ فأكلناها نحن وأهل بيته» (الدميرى : ٢ : ١٦٤).

وذهب قلة إلى أنها مكروهة إلا أن كراهتها عند مالك تنزيه لا كراهية تحريم ، واستدلوا بما فى سنن أبى داود والنسائى وابن ماجه «أن النبى ﷺ نهى عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير لقوله تعالى : (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) (النحل/ ٨) وقال صاحب الهداية فى الحنفية : الآية خُرِّجت مخرج الامتنان والأكل من أعلى منافعها ، والحكيم لا يترك الامتنان بأعلى النعم ويمتن بأدناها» (الدميرى : ٢ ، ١٦٤) .

أما فى مصر فإن الخيول لم تعرف إلا بعد عصر الهكسوس ، وربما كانت حداثتها النسبية السبب فى عدم تأليهها ، ومن ثم فى عدم ورود أى حظر عنها ، ولم تؤكل إلا فى عهد المماليك : فقد روى المقريزى [١٠٧] أن الأمير بكتاش كان يذبح لسماطه فى دمياط (يوميًّا) خمسين رأساً من الغنم وفرساً لابد منه ، غير أن هذه العادات الدخيلة لم ترسخ .

الحمير والبغال :

يثير أكل الحمير والبغال دهشتنا بل ونفورنا ، وبصفة خاصة عند الاطلاع على «ملف» الحمير التاريخي : فني مصر القديمة أشرنا إلى أن الإله حور نجل أوزيريس والقائم بثأره بعد أن انتصر على ست - ألقى به ويرهطه فى نهر النيل فى شكل حمير ، وأن هذه الرواية التى ترمز إلى حدث تاريخي -كانت السبب فى عد الحمير ضمن الكائنات المنتمية إلى ست ، وفى نيلها مانالها هذا الإله من مقت المصريين وكراهيتهم .

ولنذكر حواراً مقتطعاً من مؤلف لبلوتارخ [108] نسب إلى إيزوب هذا الحديث :

«إذا علمت أن صناع المزامير يستبدلون عظام الحمير بعظام الغزال زاعمين أن صوتها أرق وأرخم عجبت من أن يكون للحمار - مع ما هو عليه من الفظظ ومع بعده كل البعد عن عرائس العلوم والفنون - أن يكون عظمه فى هذه الرقة والرخامة» . فأجاب نلوكسينوس : «حقًّا إن هذا ما يأخذه سكان بوزيرس [1] علينا نحن سكان نوكراتس [2] وهو أننا نجعل من عظام الحمير مزامير فى حين أن مجرد سماع الأبواق مقت عندهم لتشابه أصواتها ونهيق الحمير . ألا تعلم أن الحمار مقيت عندهم أبغض المقت بسبب (تيفون) ؟

ولكن القدامى عدّوا لحم الحمير من الطيبات : فقد حرص الإغريق على إضافته إلى (السجق)١٠٩ .

وشغف أثرياء الرومان بأكله فى أفخر الولائم ، وراق كذلك كبار القوم فى

(١) بوزيرس : إحدى المدن التى ألقيت فيها أشلاء أوزيريس .

(٢) نوكراتس : مدينة فى شمالى الدلتا أقامت فيها جالية كبيرة من الإغريق .

فارس : فقد ورد فى كتيب باللغة البهلوب [١١٠] يرجع تاريخه إلى القرن السادس أو السابع أن كسرى عند امتحانه أحد أولاد الأشراف ، وكان بلغه ما اتسم به هذا الشاب من رفعة الذوق وسعة المعرفة – سأله عن أفضل المأكولات ، فأجاب : إن ألذ هلام (بالوظة) هو الهلام المجعول من لحم حمار مبتل ومنقوع فى لبن حامض قبل إدماجه فى الهلام .

ومال إليه الإفرنج فى القرون الوسطى : ومما روى عن الملك داجوبير الثانى فى القرن السابع الميلادى انه اعتذر يوماً عن عدم أكل جحش مشوى محشو بالعصافير وسمك الثعبان ، لأنه كان يعد نفسه فى اليوم نفسه لتخليص بعض المحكوم عليهم لعجزهم عن سداد ديونهم معتبراً أن هذا الطعام المترف لايتفق مع التقوى المناسبة لهذا الواجب الإنسانى ! [١١١]

وورد فى (قاموس لاروس فى حسن الأكل) [١١٢] ، وهو دستور هواة الطعام الفاخر والطهو المترهف أن الفرنسيين – وحسن تذوقهم معروف – كانوا يربون الحمير ويسمنونها لموائدهم ، وأن سكان جزيرة مالطا عندما حاصرهم الأسطول الإنجليزى اغتذوا مجبورين بالكلاب والقطط والفئران والحمير وغيرها من الحيوانات ، ثم إنهم نتيجة لهذا أحبوا لحم الحمير وفضلوه على لحم الأبقار والعجول ، ثم يضيف هذا القاموس أن ولهلم ملك ألمانيا قدم لنابليون الثالث ليلة انتصاره عليه فى سيدان مخ حمار مطهوًا على طريقة سماها « الطريقة الدبلوماسية » ! والنكتة فى هذه الرواية هى أن اجتماع العاهلين كان اجتماعاً دبلوماسياً أملى ولهلم فى خلاله شروط الصلح لنابليون المهزوم . وتنتهى مناقشة لحم الحمير فى هذا المصنف الحجة إلى أن لحم الحمير التى لم يتعد سنها سنتين غاية فى الرقة ، وأنها تضاهى لذتها لذة لحم العجول !

ومن المعروف أن النكهة الخاصة التى تحبب السجق الإيطالى والمنغارى للهواة

إنما تأتيه من لحم الحمير والبغال الذى يضاف إليه .

أما الآن فإن حكم لحم الحمير هو تحريمه عند أكثر أهل العلم ، والرخصة فيه إنما رويت عن ابن عباس رواها عنه أبو داود فى سننه (الدميرى -جزء١ - ص٣٥٨) : وهناك حديث متفق عليه « أن النبى ﷺ نهى عن لحوم الحمر الأهلية وأذن فى لحوم الخيل » . وقد ورد حديث رواه غالب بن أبجر قال : « أصابتنا سنة فشكونا ذلك لرسول الله ﷺ فقلت : يارسول الله لم يكن عندى ما أطعم أهلى إلا سمان حمر ، وإنك حرمت لحوم الحمر الأهلية » فقال : أطعم أهلك من سمين حمرك فإنما حرمتها من أجل جوال القرية » . فلو صح حديث غالب لحمل على الأكل منها حال الاضطرار وهى فى رأى الدميرى قضية عين لاعموم لها ولا حجة فيها (الدميرى : ١ : ٣٥٨) .

أما الحمار الوحشى وكان يسمى الفراء فإن أكل لحمه يحل بالإجماع (الدميرى : ١ : ٣٦١ صحيح البخارى ٧ : ٩٦ و ٥ : ١٦٧ و ١٧٣) وكان العرب مولعين بصيده .

وحكم البغال يختلف على حسب مولدها : فإن المتولد منها بين الحمار الأهلى والفرس يحرم أكله ، لأنه متولد بين مايحل وما يحرم ، فيغلب جانب التحريم ، فإن تولد بين حمار وحشى وفرس حل ، وأما الحديث الذى روى بإسناد صحيح عن أبى واقد « أن قوماً مات لهم بغل ولم يكن لهم شئ غيره فجاءوا إلى رسول الله ﷺ فرخص لهم فيه » ، فهذا محمول على أنهم كانوا مضطرين يحل لهم أكل الميتة (الدميرى : ١ : ٢٠٣) .

القطط :

تنفر جل الشعوب من أكل لحم هذا الحيوان الأليف الذى يميل إليه

الكبار والصغار على السواء ، وقيل الفلاسفة والأدباء ، وقل أكله إلا أن يغش به لحم الأرانب ، الأمر الذى جعل البعض يمقت الأرانب لشبهها بالقطط .

وكان المصريون يقدسون القطط ، ويحفظونها بعد الموت ، ويصنعون لها التماثيل ، وقد عثر على قبورها بسقارة وبنى حسن ، ونالت أكثر ما نالته من الحظوة فى أيام الملوك الذين اتخذوا من كعبتها « بوبسطة » عاصمة لملكهم ، ثم خلط الناس بين القطط ونظائرها ، فعدوا الهرة (بسطت) الصورة الضاحكة للبؤة الفتاكة (سخمت) ، كما تخيلوا (رع) فى هيئة قط يصرع الحية (أبو فيس) وجعلوا للأرواح التى تقيهم شر الحيات فى العالم الآخر رءوس قطط . وقد روى ديودور الصقلى أن عقاب من قتل قطاً كان الإعدام .

وقد حرم أكل الهر وإن كان حيواناً طاهراً : فقد ورد فى الحديث الشريف « أن النبى ﷺ دعى إلى دار قوم فأجاب ، وإلى دار آخرين فلم يجب ، فقيل له فى ذلك ؛ فقال : إن فى دار فلان كلباً ، فقيل له : وإن فى دار فلان هرة ، فقال ﷺ : الهرة ليست بنجسة وإنما هى من الطوافين عليكم والطوافات » والطوافون الخدم والطوافات الخادمات ، فجعل القطط بمنزلة المماليك وكأنها من أهل البيت (الدميرى : ٢ : ٤٠٠ ، ٤٠١) .

الكلاب :

إنه من المسلم به أن الكلب كان أول حيوان دجنه الإنسان وإن كان القول بأنه إنما دجن ليؤكل (١١٣) قولاً يحتمل الشك . ويبدو أن (العهد) الذى وقع بين الإنسان وهذا الحيوان الأليف تم باتفاق متبادل بين الطرفين ! ورد البعض هذا التآلف إلى أن أرهاط الكلاب المتوحشة اعتادت تتبع القناصين متوقعة غذاء وافراً من الأحشاء والبقايا ، ثم سبقتهم لاستشعار الفرائس بفضل حدة شمها والإرشاد

إليها وإتمام الحصار حولها ، وقوّت هذه الرابطة قدرة الكلاب على معرفة أمزجة أصحابها وتفهم بعض الألفاظ والاستجابة إليها .

ولكن هذه العلاقة ظلت مزدوجة ومتناقضة طوال التاريخ :

فقد آله قدماء المصريين ثلاثة كلاب :

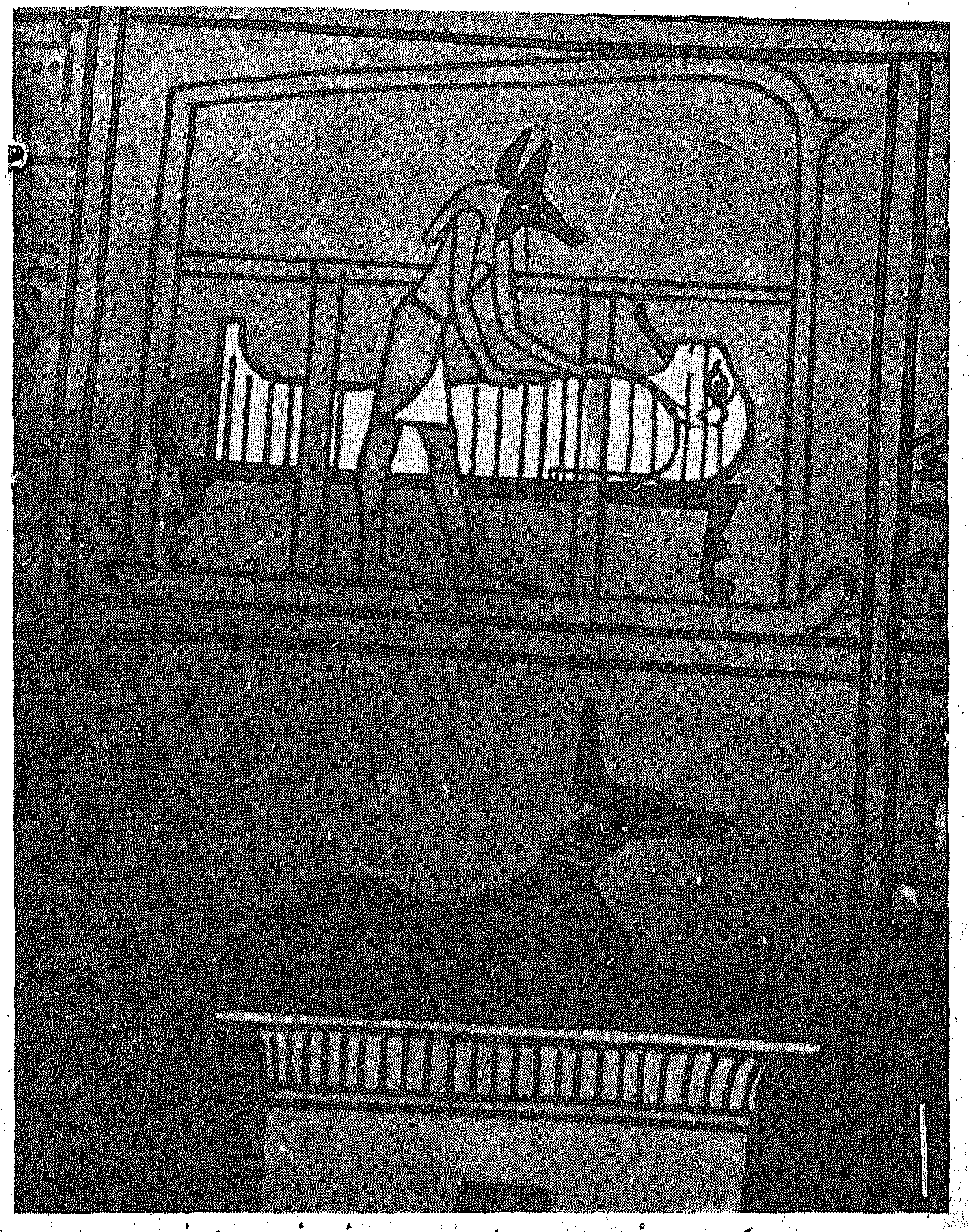
أولها : (وب – وأوت) ومعنى اسمه فاتح الطريق ، وكان يعبد فى أسيوط ، وكانت شاراته تتقدم مواكب الملوك والزوارق المقدسة

ثانيها : (خنتى – أمنتو) : أى الأول فى الغرب : أى الأول فى عالم الموتى ، وكان إله أبيدوس (العرابة المدفونة) حيث دفن ملوك الأسرة الأولى .

ثالثها وأشهرها : أنوبس ، وزعم أنه ابن أوزيريس وإيزيس ، وفى رواية أخرى ابن أوزيريس ونفتيس عندما ظنها إيزيس . وحظى هذا الإله بأ ـقاب عدة منها سيد البقر الحلوب ، وإله المحنطين ، وقاضى الآخرة ! وقد صور فى شكل ابن آوى أو إنسان ذى رأس ابن آوى . وكان الكهنة المحنطون يرتدون قناعاً فى شكل رأس هذا الحيوان فى خلال عمليات التحنيط (شكل ١٣) . وراجت عبادته فى العالم القديم عندما انتشرت الديانة الأوزيرية وما صاحبها من العقائد الخاصة بالبعث وبالآخرة فى العالم الرومانى والهيلينى المتشبع بالحضارة اليونانية .

وفى روما روى بلينيوس [١١٤] أن الكلاب كانت تصلب على حين كانت الكلاب الرضيعة تعد طاهرة وجديرة بتقديمها قرابين للآلهة وتؤكل تمجيداً لإلهة من إلهات الولادة اسمها (جفيتا منا) . غير أنه أضاف فى مواضع أخرى (٦ : ٣٢) أنه حرم دخولها جزيرة سيجاروس وأن إقليماً من أقاليم السودان كان يحكمه كلب يصدر أوامره بالإشارة ! (٦ : ٣٥) .

وفى الشرق الأوسط – على حسب قول سيمونز [١١٥] – عدّ الزرادشتيون الكلب أقدس الحيوانات ، ونهوا عن قتله أو سوء معاملته .



(شكل ١٣) أعلى الصورة : كاهن يرتدى رأس أنوبيس فى أثناء
التحنيط أسفل الصورة : الإله أنوبيس

وزعمت شعوب من أفريقيا ومدغشقر وجنوب شرق آسيا أنهم اكتسبوا الحضارة من الكلاب وأنهم من سلالة كلاب جعلوها حيواناتهم الطوطمية .

ولذا فإن النفور من أكل الكلاب بعيد كل البعد عن العموم وإن كان آخذاً فى الانتشار بفضل ضغط الحضارات التى تنهى عنه : إما حباً لهذا الحيوان الأليف ، وإما تنجيساً له ، وإما تأليهاً له ، وقد تكون نشأة هذه المواقف المختلفة تفاعلات متباينة لاعتبار واحد .

ينتشر أكل الكلاب الآن فى شرق آسيا من سيبريا شمالاً إلى أسام جنوباً وجزر هاواى شرقاً . واستولد الصينيون نوعاً منها ، وخصصوه للمائدة ، وبلغ ميلهم إليه مبلغ تسميتهم إياه فى فورموزا (اللحم العطر !) وينتشر أيضاً فى غربى أفريقيا وفى حوض الكونجو حيث كانت الكلاب تستبدل بالعبيد إلى عهد قريب . وكذلك فى المكسيك حيث انحصرت هذه العادة بعد أن كانت تعم القارة الأمريكية قبل الفتح الإسبانى .

أما فى مصر القديمة فإننا لا نجد ذكراً لأكل الكلاب إلا فى واقعة واحدة رواها بلوتارخ ، مفادها أن أهل مدينة أكسيرنخس الذين ألهوا سمكة (أبو بوير) ذبحوا كلباً وأكلوه انتقاماً من أهل مدينة كينوبولس عباد الكلب الذين كانوا يأكلون هذا النوع من السمك ، وأن هذه الواقعة أدت إلى الحرب بين المدينتين .

هذا ، وإن كان حافز أكل الكلاب فى هذه الرواية الانتقام فإنما يدل على عدم تحريم أكل الكلاب فى أكسيرنخس (١١٦) .

الثعابين :

تأكل شعوب عدة الثعابين ، رواه الرحالة العرب أمثال الإدريسى والعمرى (١١٧) .

يشير الدميرى (١ : ٤٠١) إلى عداوة الحية للإنسان منذ آدم وحواء والحية وإبليس ، وإلى أن قتل الحيات واجب .

وقد حرم أكل الثعابين لضررها ، وحرم أيضاً التّرياق المعمول من لحومها إلا اضطراراً بحيث يجوز أكل الميتة . أما السمك المكون فى شكلها فحلال .

الحشرات :

إنى أدرك تمام الإدراك عنف المشاعر التى ستثيرها مجرد فكرة أكل الحشرات ، وصعوبة مقاومة الآراء المستحكمة فى أعماق أذهاننا ، وإنى أعترف بأنى – بحكم نشأتى – أشارك القراء فى نفورهم عن هذا اللون من الطعام ، وأقر بأنى إذ أدافع عن رأى مخالف لميولى الشخصية إنما أدافع عنه بواعزٍ من المنطق لا بدافع الميل .

لقد استساغت شعوب كثيرة أكل الشراعم والحشرات : كان أثرياء الرومان يسمنون الدود فى مزيج من دقيق الحنطة والنبيذ ، ثم يأكلونه مشوياً ، وكان الإغريق يقدمونه لضيوفهم المكرمين ، وروى آيليان أن ملكاً من ملوك الهند اعتاد تقديم شرانق مشوية للجفاوة بضيوفه ، ومن المعروف أن الجاويين مشغوفون بنوع من الخنافس[١] وأن الصينيين ولعون بأكل براعيم دودة القز ، وأن أهل أواسط أفريقيا يطهون أطعمتهم بزيت النمل ، ولا عجب فما العسل إلا لعاب النحل .

ولا ينفر أناس من أكل دود الجبن زاعمين أنه من جوهره .

وقد جمع بودنهايمر[١١٨] معلومات مفيدة عن أكلة الحشرات وأفادت مثل هذه الدراسات فى تدريب جنود (الكوماندو) على أكل مايتسنى لهم من الطعام فى الأدغال ، ومنه الثعابين والديدان .

وزعم هايز[١٠١٩] – قياساً بالشعوب القديمة – أن قدماء المصريين تغذوا

---

(١) Holt 118 -Melolontha hypoleuca. Cockcgafer.

بالشرانق والديدان ، ولكنه لم يستند إلى أى دليل من الواقع .

ولذا يتحتم التفرقة بين الحشرات النقية والحشرات القذرة لأن تركيب أبدان الحشرات قاطبة لايخالف تركيب أبداننا .

ويتساءل هولت [١٢٠] : إذا كان الفيصل بين مايؤكل وما لايؤكل هو نقاوة الطعام وعدم أكل الميتة والقاذورات - فإن بعض الشرانق والحشرات نباتية تماماً ، فن أين تأتى قذارة دود الجبن وهو منذ لحظة الفقس يتغذى بالجبن حتى أصبح جزءاً منه ؟ ومن أين قذارة دود القز وهو لا يقرض سوى ورق التوت النضر ؟ وأين قذارة براعم القطن والكرنب وكل أنواع الدود التى تعتمد على النبات فى غذائها ؟ هل تقارن هذه الدبيبات بالدجاج الذى يبحث عن طعامه فى القاذورات حتى فى الروث ، أو بالسمك الثعبان والسرطان (أبو جلمبو) و (الأستاكوزا) التى تكسح قامة البحار ؟

أما إذا كان الفيصل هو الشكل فكيف نستقبحها على حين نتلهف على المحار والكرشة على بشاعة شكلها ؟ .

ولا شك فى أن أكثر الحشرات رواجاً بين القدامى كان الجراد ، فقد روى سترابو [١٢١] أن بعض الآسيويين كان يقذف بالأخشاب المحترقة فى الحفر التى يلجأ إليها الجراد ويصطاده عندما يطير وقد أفقده الدخان البصر .

وذكر بلينيوس شعوباً كثيرة استساغته ، وأباحت التوراة (اللاوين ١١ : ٢٢) أنواعاً منه وحرمت أنواعاً أخرى ، فدفعت صعوبة التمييز بينها علماء اليهود إلى تحريم أكلها خوفاً من الخطأ [١٢٢] .

واشتهر العرب إلى اليوم بميلهم إليه ، وورد فى إنجيل متى أن سيدنا إدريس عليه السلام (القديس يوحنا المعمدان) أمضى أربعين يوماً فى الصحراء لا يأكل إلا الجراد والعسل . وفى سنة الرسول ﷺ ، قال عبد الله بن أبى أوفى ، غزونا مع

رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد » رواه أبو داود والبخارى والحافظ أبو نعيم وفيه : ويأكله رسول الله ﷺ معنا » وروى ابن ماجه عن أنس قال : «كان أزواج النبى ﷺ يتهادين الجراد فى الأطباق » ومن الروايات الأخرى أن مريم بنت عمران عليها السلام سألت ربها أن يطعمها لحماً لا دم له فأطعمها الجراد ، والدليل على عموم حله قوله ﷺ : « أحلت لنا ميتتان ودمان : الكبد والطحال والسمك والجراد » .

أما الحشرات الأخرى فقد حرم أكلها أغلب العلماء ، غير أن مالكاً قال : إنها حلال لقوله تعالى : (قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة)[1] (الآية) . واحتج الشافعى والأصحاب بقوله تعالى (ويحرم عليهم الخبائث)[2] وهو ماتستخبثه العرب ، وقالوا معنى الآية : قل لا أجد – (الآية) هو : مما كنتم تأكلونه وتستطيعونه . وقال الغزالى فى الوسيط : لا يؤكل من الحشرات إلا الضب (الدميرى : ١ : ٣٣٣ و ٣٣٤) .

أما الدود فيحرم أكله بجميع أنواعه ، لأنه مستخبث إلا ماتولد من مأكول ، وفيه ثلاثة أوجه : أصحها أكله معه لا منفرداً ، والثانى أنه يجب تمييزه ولا يؤكل أصلاً ، والثالث أنه يؤكل معه ومنفرداً (الدميرى : ١ : ٤٨٨) .

وإلى هذا فقد استخدم الطب أنواعاً من الديدان للعلاج : نرى قدماء المصريين يصفون أحشاء حشرات مختلفة لتقوية البصر (إبرز : ٣٣٩ و ٣٤٢ و ٣٤٣) ، والخنافس بعد نزع رءوسها وأجنحتها لمقاومة السحر (إبرز : ٧٣٣) ودودة سميت (أنارت) لإسقاط الشعر (إبرز : ٤٧٤) وذنب العقرب لعلاج أمراض الأذن (بردية برلين : ٧١) ، ولا شك فى أن أغلب هذه الوصفات مبنية على اعتبارات سحرية وليست طبية .

---

(١) الأنعام / ١٤٥ . (٢) الأعراف / ١٥٧ .

لم يختلف الإغريق أو العرب فى استخدامهم أجزاء الحشرات . ولنذكر بعض أمثلة مستخرجة من كتاب الحيوان الكبير للدميرى :

« إذا أخذ دود القز وخلط بالزيت ولطخ به بدن إنسان نفع من نهش الهوام وذوات السموم .

ودودة القز إذا أخرجت منه وأكلها الدجاج حصل له سمن كثير .

ودود الزبل الأصفر الذى يخلق منه إذا طبخ فى زيت عتيق حتى ينضج ، ويدهن بذلك الزيت داء الثعلب فإنه يبرئه » (الجزء الأول : ٤٨٨) .

« إذا وضعت العقرب فى إناء فخار وسد رأسه ثم وضع فى تنور إلى أن تصير رماداً وسقى من ذلك من به الحصى نفعه وفتتها (الجزء الثانى : ٦٤) .

إذا يبس العلق فى الظل وسحق مع نشادر وطلى به موضع داء الثعلب نبت الشعر عليه (الجزء الثانى : ٧٤) .

« الدراريج تخلط فى الأدوية الموافقة للأورام كالسرطان والقوابى الرديئة قال الرازى : الاكتحال منها ينفع الطرفة فى العين ، وإذا طلى بها مسحوقه قتلت القمل ، وإذا طبخت فى زيت أبرأ ذلك الزيت داء الثعلب (الجزء الأول : ٥١١) .

« قال ابن سينا : إذا أخذ منه اثنتا عشرة جرادة ونزعت رءوسها وأطرافها وجعل منها قليل من الآس اليابس وشربه صاحب الاستسقاء نفعه » (الجزء الأول : ٢٧٠) .

« الخنفساء : الاكتحال بما فيها من الرطوبة يحد البصر ويزيل البياض ، وإن أخذت خنفساء وطبخت بعصير السمسم وقطر فى الأذن منه فإنه نافع من جميع أوجاع الأذن (الجزء الأول : ٤٧٧) [١٢٣]

البيض .

البيض من الأطعمة التى نستغرب تحريمها ، ولكن هذا الطعام المحبوب أملى اعتقادات ومخاوف لاتزال تلون عادات شعوب كثيرة لاحتوائه عنصراً حياً كامناً .

وقد ورد نص يؤكد تحريم البيض فى أثناء مآدب العرس فى مدينة نوكراتس المخصصة لإقامة الإغريق فى مصر القديمة دون تحديد منبع هذا التحريم ، أكان إغريقياً أصلاً أم كان مصرياً وانتقل إلى الإغريق ؟

وفى جنوبى السودان يجتنب ذكور (النوير) اليوم البيض لاعتقادهم أنه طعام لايناسب سوى النساء والأطفال ! ولايزال مثل هذا التحريم قائماً فى بعض قرى اليونان النائية ويعتقد سيمونز أنه من رواسب أسرار الديانة الإلوزية .

وعلى العموم يمكن تقسيم أنماط اجتناب البيض على الوجه الآتى :

١ - التحريم تحريماً باتاً على الجنسين .

٢ - السماح بالبيض ومنع الدجاج .

٣ - تحريم البيض الملقح .

٤ - تحريم البيض غير الملقح .

٥ - السماح به للنساء والشيوخ فقط .

٦ - التحريم على النساء فى سنى الإنجاب خوفاً من العقم .

٧ - التحريم على الصبيات قبل إنهائهن طقوس البلوغ .

٨ - التحريم على الصبيان خوفاً من رسوبهم فى امتحانات البلوغ .

٩ - اجتناب الرجال للبيض خوفاً من التخنث .

١٠ - منع الحوامل والمراضع من أكله .

ويلاحظ فى كل هذه التقاليد المختلفة وجود خيط واحد موصل بينها هو فرض

صلة بين البيض والقوى المولدة .

أما فى مصر فإنه يسود الاعتقاد بعدم ملاءمة البيض للأمراض المنسوبة إلى « برد » . والبرد عند العوام يشمل الزكام والإنفلونزا ، كما يشمل الاضطرابات المعوية والآلام الروماتزمية وجمهرة من العلل غير محددة .

ويعلق الأقباط وسط الكنائس بيضة نعام ، ولا ندرى معنى هذا التقليد على التحقيق ! وإن كنا سمعنا له تفسيرين قوامها أن النعام لايثنى نظره عن بيضه طوال مدة الحضانة ، فالمسيح يرعى كنيسته بالعناية نفسها ، والمؤمن لايثنى انتباهه عن العبادة لحظة واحدة .

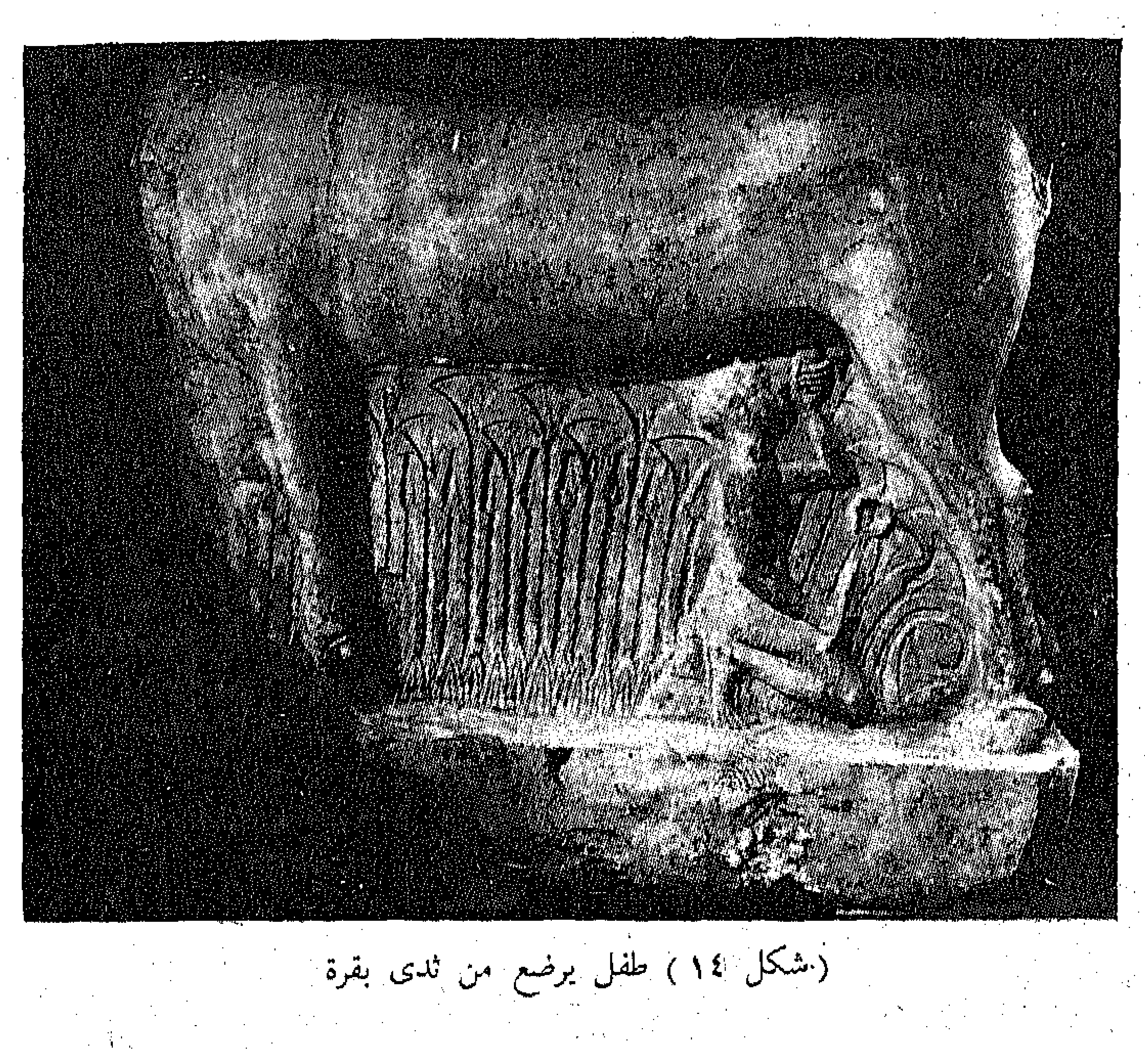
اللبن :

اللبن فى مصر القديمة :

كان الأطفال فى مصر القديمة يرضعون لثلاث سنوات ، وكان يلجأ عند الضرورة إلى مراضع محترفات ، وهؤلاء كانت مهنتهن - على الأقل فى عصر البطالمة - خاضعة لقوانين دقيقة . وقد ذكرت بردية إبرز طريقة التمييز بين اللبن الصالح وغيره .

لم يرد أى نص يشير إلى استخدام الحيوانات للرضاعة مباشرة ، وإن كانت الأدلة توحى بهذا : فقد ورد بين نصوص الأهرام على لسان إلهة من إناث الرخم الحديث التالى الموجه إلى الملك المتوفى : « يابنى أيها الملك ، أمسك بثديى واحتلبه . لِمَ تنقطع عن الحضور إلىّ فى كل يوم من أيامنا هذه ؟ ويضيف النص : « لقد حضر إلى أميه الرخمين الأنثيين ، ذاتى الشعر المسدول والأثداء المتدلية . . فجذبتا أثداءهما نحوه ولن يفطماه أبداً (١٢٦) .

ومما يدعو إلى التعجب أن فرويد (١٢٧) وصف أيضاً الرخم بأنه من رموز



(شكل ١٤) طفل يرضع من ثدى بقرة

الأمومة وهذا بعد تدوين ذلك النص بأربعين قرناً أو يزيد .

ومن البديهى أن الرخم ليس من الثدييات ، وأن الغرض من هذا النص الذى ربما كان مصحوباً بحركات سحرية كان تأكيد انحدار فرعون من سلالة إلهية وإعادة الحياة إليه بغذاء إلهى .

وهذا القصد واضح أيضاً فى نصوص دينية أخرى ، منها : باب من (كتاب الموتى) نقشت له نحوت وتماثيل جميلة تمثل الملك المتوفى – ولونه أسود لون الموت – متجهاً غرباً : أى نحو مغرب الشمس وبلاد الأموات ، حيث تقابله الإلهة (حات – حور) ، إلهة المستنقعات الغربية ، وتعرض عليه حليبها ، فيقبله ، وما إن يشربه حتى يستحيل لونه إلى أحمر : أى لون الحياة ، الأمر الذى يرمز إلى دخوله الحياة الأبدية .

ومع ذلك فإن بعض التماثيل تمثل أفراداً لا ينتمون إلى الأسر الملكية وهم يرضعون بصحبة العجل الأمر الذى قد يرجح أن الحيوانات كانت تستخدم كالمراضع (شكل ١٤) .

وفى غير هذه الحالات كان الحليب يقدم للأطفال بملاعق : أو أوان خاصة نذكر منها ثلاثة أنواع :

الأول : أوعية على شكل سيدة على حجرها طفل هزيل ، قيل : إنهما يمثلان الإلهة إيزيس والطفل الذى أنجبته من زوجها أوزيريس بعد وفاته على حسب رواية كانت تمثل على جدران الغرف السرية الخاصة بالطقوس الأوزيرية بالمعابد . حيث نرى الإلهة على شكل طائر يرفرف فوق عضو أوزيريس وهو ملقى على ظهره ، ويعتقد أن هذه الأوعية كانت تستخدم لحفظ لبن الأمهات اللائى ينجبن أطفالاً ذكوراً ، وهو كان يعد دواءً ممتازاً .

والنوع الثانى عبارة عن تماثيل صغيرة مجوفة تمثل أنثى فرس البحر ، الإلهة

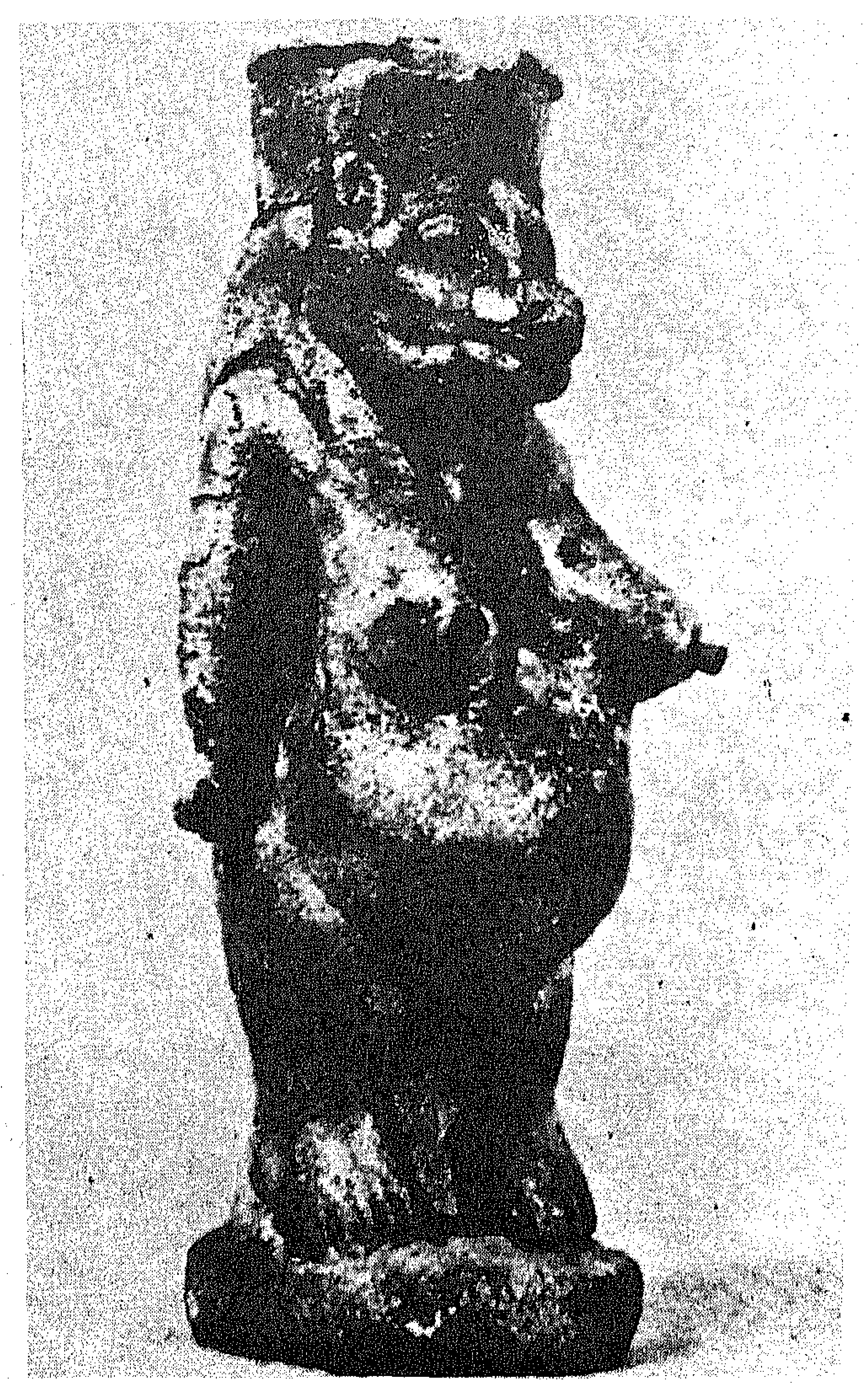
(تاورت) إلهة الولادة والطفولة . والثديان المنقوشان على كل منهما منقوبان بحيث يسمحان بامتصاص اللبن الذى بداخله ، وكأنهما ثديان حقيقيان لأم ترضع وليدها . (شكل ١٥) .

أما النوع الثالث من الأوعية فيمثل قروناً مجوفة قيل : إنها استعملت للحقن الشرجية ، وإن كان هذا الزعم يدعو إلى الشك ، إذ إن ضعف اندفاع السائل منها يجعل تصور انتقاله إلى الأمعاء مستحيلاً . ونحن نرجح أنها كانت تستخدم فى التغذية ، ونستند فى ذلك إلى استعمال القرون لتغذية صغار الحيوانات والرضع طوال العصور الوسطى بأوربا .

ولعل القارئ أدرك مما سبق معنى شرب اللبن الرمزى وهو تأكيد التسلسل من الأم واكتساب شخصيتها والدافع إليه وهو وضع الملوك بين الآلهة لاحتسائهم لبن الإلهات ، وهو معنى تلك الرسوم والنحوت التى تعج بها المعابد المصرية والتى تمثل الإلهات وهن يرضعن الأمراء وورثاء العرش .

وكان الحاجز بين الإنسان والحيوان غير محدد فى الخيال البدائى : روت أساطير الإغريق أن زوس كبير الآلهة كان يتحول بسهولة فائقة تارة إلى ثور وطوراً إلى بجعة أو إلى حيوان ثالث ليقترب من النساء اللائى كان يرغبهن ، وأن ديونيسوس تحول إلى سبع ، وأن بحارته تحولوا إلى درافيل وأن الإله أبولو حول أذنى ملك إلى أذنى حمار ! وهذه الروايات وغيرها سجلها أوفيد فى الأجزاء الخمسة عشر من مؤلفه المشهور « التحولات » .

وتحدثنا روايات أخرى عن حيوانات أرضعت أمراء وملوك : كالفرس التى غذت بيلياس ، والنعجة التى غذت أسقلابيوس إله الطب ، والدبة التى غذت أطلانطا ، والكلبة التى غذت قيروش ، ولعل أشهر هذه الروايات رواية الذئبة التى



(شكل ١٥) وعاء من الخزف فى شكل فرس البحر (الإلهة تاورت راعية الولادة والطفولة) كان

أرضعت رومس وروملوس مؤسسي روما ، ولا تزال صورة الذئبة ورضيعيها رمزاً ورنكا لهذه العاصمة .

لبن الأم :

تقول أمثالنا الشعبية « أحلّ من لبن الأم » وعن الرجل الشهم الشريف الأصيل إنه « شارب من لبن أمه » .

وأفضل لبن عند قدامى المصريين كان لبن الأمهات اللائى أنجبن وليداً ذكراً ، وكانت تنسب له صفات علاجية ممتازة ، وقد اعتاد أبقراط وديوسقوريد وأطباء الأقباط وصفه ، وفسّر أرسطو تفضيله فقال : إن السيدات الحاملات لأجنة من الذكور يتمتعن بقوى تفوق اللائى يحملن إناثاً ، ولذا فإنه من الطبيعى أن يكون لبنهن أفضل (١٢٨) .

وللبن الأم شأن كبير عند العرب ، لما يتركه من أثر فى طبيعة الولد ، ولذلك كانوا يرون أن تكون الأم مرضعة الولد ، إلا إذا تعذر ذلك لسبب ، فترضعه مرضعة قريبة من أهل المولود أو من المرضعات السليمات من المرض ، ومن ذوات العرق الطيب . لأن اللبن يؤثر فى شاربه .

واهتم العرب باختيار المرضعات ، لما يكون للبان الرضاع من أثر فى الرضيع ، ولما يكون للمرضعة ولبيئتها من أثر فيه ، كما اهتموا باختيار من يتأبط المولود ويحمله لتسليته وتلهيته ، لما يتركه ذلك من أثر فى تربيته وخلقه . وفى حديث عمرو بن العاص : ماتأبطتنى الإماء ولا حملتنى البغايا فى غبرات المآلى : أراد أنه لم تتول الإماء تربيته . وغبرات المآلى : بقايا خرق الحيض .

وإذا أرادوا مدح إنسان والثناء عليه ذكروا مرضعته وصفاء لبنها الذى رضعه ، فقالوا : « نعمت المرضعة » ، و « نعمت المرضعة مرضعته » . وإذا أرادوا

ذم إنسان قالوا : « بئست المرضعة مرضعته » كناية عن أنها هى التى أرضعته ، فخرج رضيعها على شاكلتها . وفى الحديث حين ذكر الإمارة ، فقال : « نعمت المرضعة وبئست الفاطمة » : ضرب المرضعة مثلاً للإمارة وما يوصله إلى صاحبها من الأحلاب ، يعنى المنافع ، والفاطمة مثلاً للموت الذى يهدم عليه لذاته ويقطع منافعها .

وتعد الرضاعة بمنزلة الأخوة بين المتراضعين ، ويفتخر ويتعزز الواحد منهم بالآخر وخاصة إذا كان من السادات والأشراف . والعرب تقول : « هذا رضيعك ، أى أخوك فى الرضاعة ، وتقول : « استرضع فى بنى فلان » ويصير كأنه واحد من القوم الذين استرضع فيهم . وتكون المراضع بمنزلة الأم للرضيع ، حتى إنه حرم زواج الإخوة من الرضعة :

(حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة) (النساء ٢٣) .

اجتناب اللبن :

ومع مظاهر التقدير للبن التى أدت إلى ابتكار بعض العبارات مثل « عسل على لبن » — أن البعض يتجنبه أو يعد شربه معيباً . ومن هؤلاء بعض الهنود المسلمين[١٢٩] الذين اصطبغوا بطبائع البرهميين الذين يحيطون بهم ، وبعض قبائل آسيا وأفريقيا . وقد تكون العلة فى هذا النفور نقصاً خلقياً فى خميرة (لكتاز) المعوية ، وخاصتها هضم سكر اللبن (لكتوز) وتحويله إلى سكريات قابلة للامتصاص ، حيث إن هذا النقص منتشر فى الشرق وفى أفريقيا ويندر فى الغرب .

وفى غانا تجتنب المرضعات الأطعمة المحرمة على الرجال خوفاً من تحولها إلى

ألبانهن ، ومن ثم إرضاع أطفالهن الذكور هذه المحرمات ، ولربما نشأت هذه العقيدة عن ملاحظة تأثر اللبن ببعض الأطعمة كالثوم والبصل وبعض العقاقير كالملينات .

أما فى الشرق الأوسط فلا يلاحظ شيء من هذا ، اللهم إلا فى ثلاثة ظروف محدودة :

١ - عدم خلط اللبن بالسمك ، وقد سبق ذكره .

٢ - اجتناب الأقباط كل المواد الحيوانية فى خلال أيام صيامهم العديدة .

٣ - عدم أكل اليهود اللحم واللبن فى أكلةٍ واحدة . ووصل الترمت عند بعض اليهود إلى عدم تناول أية كمية من اللبن قبل مضى ساعتين من تناول اللحم .

ومن الغريب أن نجد مثل هذه العادة بين (المازاى) القاطنين أعالى النيل الذين يتغذون بلبن ودم أبقارهم ، ولا يتناولون شيئاً من اللحم إلا استعداداً للقتال ! وهم فى هذه الحال يلجئون إلى أعنف المسهلات للتخلص من أدنى بقايا اللبن فى أمعائهم قبل تناول اللحم .

وليس ثمة من شك فى أن هذه التحريمات لا تمت إلى أى اعتبارات صحية بصلة .

المحرمات غير الحيوانية :

ومما يدعو إلى التأمل أن الحظر الدينى لم يتناول فى شتى الأديان سوى المواد الحيوانية وهى التى فى عرف القدامى كانت حاملة لأرواح : كالبيض والحليب ولحوم بعض الحيوانات ، باستثناء الديانة المصرية التى حرمت على الكهنة البصل والفول والملح :

يروى مؤرخو الإغريق ورحالتهم (١٣٠) أن البصل حرم : لأن الروائح المتصاعدة ممن

يأكلونه تنجس المعابد ، وأن الفول - وقد حظره الفيثاغوريون - يحدث عفونة تماثل عفونة الموتى ، الأمر الذى حدا بهم إلى الزعم بأنه يحوى أرواح الموتى !

والنباتان اللذان قيل عنهما : إنهما حرما على قدماء المصريين - هما الفول والبصل :

أما عن الفول فقد حرم (فيثاغورس) أكله على أتباعه ، وهذا لإيمانه بأن الفول إنما ينتج عن المواد المتعفنة التى يخلق منها الإنسان ، وقد قال بعض الرواة : إنه استمد هذه العقيدة من الكهنة المصريين فى خلال تتلمذه عليهم فى مصر ، والأرجح أنه استنبطها من إيمانه فى تقمص الأرواح ، أما بلينى [١٣١] فإنه رد هذا التحريم إلى سببين وهذا فى نص واحد ، إذ قال : إن الفول يورث الأرق ثم قال : إن أرواح الأموات فى الفول ، وهو قول أخذه - على الأغلب - عن فيثاغورس . أما ديودور الصقلى فقد ذهب إلى أن السبب هو وجوب تدريب الإنسان على إنكار الذات حتى مما كان مفيداً . [١٣٢] .

وقد كرر هيرودوت ذكر كره الكهنة للفول ، قال : ولا يبذر المصريون الفول فى بلادهم مطلقاً ولا يذوقون ما قد ينبت منه فجًّا أو مطبوخاً ، أما الكهنة فلا يطيقون حتى رؤيته ، ويعتقدون أنه بقل «نجس» : (٢ : ٣٧) ولا يفوتنا ما فى هذا القول من المبالغة .

ويرى الدكتور بدوى أن التحريم يكون قد اقتصر على الكهنة لإثارته بعض المظاهر الكريهة فى أثناء العبادة . أما العالم الفرنسى لورى [١٣٣] فإنه ذهب إلى أن اللفظة التى ترجمها الإغريق (فول) كانت - فى الحقيقة - تدل على ثمار السوسن الوردى الذى قدسه المصريون .

ويقوِّى شكّنا فى صحة تعليل التحريم بدوافع صحية أن نصًّا واحداً من النصوص الخاصة بالفول لم يعرض للأنيميا القتالة التى تصيب بعض الأطفال

عقب تناول الفول مباشرة ، وفى صورة تجعل العلاقة بين السبب والمسبب أقرب للعين وأوضح للملاحظة من علاقة الخنزير بالتريكينا ، ولكن الكتّاب اتجهوا إلى تعليل التحريم بأحد سببين ، هما : إنتاج الروائح الكريهة ، وإيواء أرواح الموتى ! وقد يكون الربط بين نتانة الروائح وتعفن الجثث هو الوصلة بينهما.

ونشاهد فيما قيل عن البصل والثوم الاختلاف الذى واجهناه نفسه فى شأن الفول : فإن النصوص تشير إلى أن البصل كان غذاء مفضلاً ، وسجلت التوراة تحسر اليهود فى سيناء على البصل والكراث الذى كانوا يأكلونه فى مصر (عدد : ٥ : ١١) ، كما عيّر بلينيوس [١٢٨] المصريين اعتيادهم القسم بالثوم والبصل (كما نقسم نحن اليوم بالعيش والملح) ، وروى هيرودوت (٢ : ١٢٥) أن بنائى الهرم كانوا يتناولون منه كميات كبيرة .

وعلى العكس : قال جو فنال[١٣٤] « لايعبد أحد منهم (ديانا) ، ولكنهم لا يضعون فى أفواههم البصل أو الكراث لأن هذا فى نظرهم غير ملائم » .

وجمع بعضهم بين البصل وبين ست على النحو الذى جمعوا عليه بين ست والخنزير : « إن الرواية التى فحواها أن (دكتيس) رضيع إيزيس غرق فى النهر إذ بسط يده للإمساك برزمة من البصل لا تصدق ، ولكن الكهنة يتجنبون البصل لأنه - دون غيره - يزدهر عند أمحاق القمر[١٣٥] (١) » .

وقد يكون السبب الحقيقى فى اجتناب الكهنة البصل خشية تصاعد الروائح الكريهة فى المعبد .

الملح :

من المأكولات الأخرى التى نستغرب ضمها إلى قائمة المحظورات . والتى تعزز

---

(١) انظر الباب الرابع فى الخنزير .

الطابع الديني للتحريم – من هذه المأكولات الملح الذى يبدو أنه حرم على الكهنة فى مصر وعلى بعض الفئات الدينية فى اليونان .

والملح من المواد التى طالما أوحت بأوهام وتخيلات نسجت حوله :

يرى علماء السلالات أن الإنسان لم يشعر بفائدة الملح إلا عند انتقاله من حياة القنص وأكل اللحوم إلى حياة الزراعة : وذلك لأن البذور تتميز بنقص الصوديوم وكثرة البوتاسيوم ، ويرون أن ضرورة إضافة الملح إلى الخبز هى أصل العبارة الدارجة : « العيش والملح » التى تعبر عن الوفاء والإخلاص ، والتى اتخذت قسماً يحلف به . . ومن هنا اعتبر انسكاب الملح على موائد الطعام فألاً سيئاً ونذيراً بوقوع بغضاء ! .

وقد ورد الملح فى التوراة ضمن القرابين ، واستعمل الملح فى إنجيل متى رمزاً للفضل والجدارة ؛ إذ قال سيدنا عيسى إلى رسله : « إنكم ملح الأرض ، فإذا فسد الملح فبماذا يملح ؟ إنه لايصلح بعد لشىء سوى الطرح والدهس » .

ونظر الرومان إلى الملح على أنه دعامة الحياة المتمدينة ، إلى حد أنهم عبروا عن حدة الذكاء وخفة الروح بكلمة Sales : أى الملح .

ونجد مثل هذا التعبير فى لغتنا إذ نصف المهارة والذكاء بالحذاقة ونقول « ملح الله فيه » : أى بارك الله عيشه و « ملح الشىء » أى بهج منظره فصار مليحاً ونقول حين نتعجب : « ما أملحه » : أى ما أحسنه ! و « مالحه » أى أكل معه ، وتملح « أى تكلف الظرف . . إلخ .

وفضلاً عن ذلك فقد نسب بعض القدامى إلى الملح روحاً حية هى التى تمنع تعفن اللحوم المملحة .

وعن الملح فى مصر ، روى بلوتارخ(١٣٦) أن الكهنة كانوا يتجنبونه ، ظناً منهم أنه من العناصر الموالية للإله (ست) ، وذلك لنشأته من البحر ، والبحر هو

(ست) ، لأنه يلتهم النيل فى آخر مجراه ، والنيل مصدر رخاء مصر ؛ كما شبهوا ثورة البحر وعواصفه بعنف (ست) وهياجه . ولهذه الأسباب فإن الكهنة - على حد قول بلوتارخ- يبتعدون عن البحر وينبذون الملاحين ، ولا يضعون الملح على الموائد .

ثم جنح بلوتارخ إلى تفسير آخر لتجنب الكهنة الملح : وهو أنه ينبه العطش والشهية فيدفع إلى الشرب وكثرة الأكل ، وهذا غير مرغوب فيه ، وبصفة خاصة فى مواسم الصوم ، كما أنه يثير الرغبة الجنسية .

وهذه الخاصة الأخيرة – أى تنبيه الرغبة الجنسية – إنما هى فى تصوره سبب نعت أية امرأة على جانب من الفتنة والإغراء متجاوبة ، غير متمنعة . ولا عنيدة – بأنها مالحة أو حذقة ، وكذلك قول الشعراء : إن أفروديت إلهة الحب كانت ابنة البحر المالح !

ومن جانب آخر نرى الملح مستخدماً فى بعض الطقوس الدينية فى مصر القديمة ، وتفيد النصوص أن كهنة آمون كانوا يجتلبونه من سيوة إلى الوادى لإهدائه إلى الحكام ، ويضيف بلينيوس صاحب هذه الرواية أن ملح آمون هذا استخدم دون غيره فى الطقوس الدينية لنقاوته .

ومن هذه التناقضات جميعاً يمكن – مع ذلك استخلاص عدة حقائق ، أبرزها : أن الملح المستخرج من البحر كان نجساً فى نظر الكهنة ومحرماً عليهم ، على حين سمح لهم باستعمال كميات معتدلة من الملح المعدنى . أما الشعب فإنه لم يخضع لهذه البدع .

الباب السادس

الاعتبارات الصحية والغذاء

لقد طالما كان للأطباء ومدعى الطب شأن خطير فى تحديد الغذاء سواء على المستوى الفردى أو على المستوى الجماعى :

وعلى المستوى الفردى نرى مثلا الأطباء يصطحبون الملوك والأمراء لمراقبة غذائهم وإبداء النصح فيما يؤكل منه وفيما لا يصح أكله . بل ربما أيضا لتذوق الطعام خوفاً من دس السم فيه . وبطبيعة الحال كان نصحهم مصطبغاً باتجاهاتهم الطبية .

أما على المستوى الجماعى فما فتىء الدجالون والتجار يبتدعون نظريات وهمية لاستغلال سذاجة القراء وترويج مستحضراتهم !

وقد اهتم بالغذاء أطباء كل العصور وعلماؤها : فقد آمن قدماء المصريين بدور محتويات الأمعاء فى إحداث الأمراض ، وأعاروها رعاية فائقة ، واعتاد كهنتهم

تناول المقيئات والمسهلات بانتظام للاحتفاظ بنقاوتها ، وأبدى أطباؤهم إرشادات حكيمة : كتجنب الجعة الساخنة واللحم العفن والجميز الفج والأكل قبل فراغ المعدة إلخ (بردية إيرز) .

وعندما سادت النظريات الكونية الفكر الطبيّ فى العصر اليونانى تخيل العلماء أن المادة على اختلاف أشكالها – ومن ضمنها البدن والغذاء – مكونة من أربعة عناصر أو أركان هى الأرض والماء والنار والهواء ، وأن نسبها فى أية مادة تكون (مزاجها) ، ثم إن لكل ركن زوجاً من أربع صفات أو كيفيات هى : الرطوبة ونقيضها اليبس ، والحرارة ونقيضها البرودة .

فنسبت للنار الحرارة واليبس ، وللهواء الحرارة والرطوبة ، وللماء البرودة والرطوبة ، وللأرض البرودة واليبس . وسميت نسبة الأركان وما يتبعها من الكيفيات فى كل جسم « مزاجه » .

لم يختلف الغذاء وهذا ، وزُعِم أن أركانه تتحول فى الجسم إلى سوائل هى الأخلاط الأربعة : الدم والبلغم والمرة الصفراء والمرة السوداء ، وهى التى تنشأ عنها الأعضاء الرئيسة : القلب والدماغ (المخ) والكبد .

ثم زعم الأطباء أن الدم ساخن رطب ، والبلغم بارد رطب ، والمرة الصفراء حارة يابسة ، والمرة السوداء باردة يابسة . ومثلما عرفت المادة بمزاجها فقد عرفت الأعضاء والأبدان بأمزجتها : أى بنسبة الأخلاط الأربعة والكيفيات الأربع فيها .

ولنقتبس نبذة من وصف ابن سينا[١٣٧] للتفاعل بين الغذاء والبدن حيث قال : إن ما يؤكل أو يُشرب يفعل فى البدن من وجوه ثلاثة : إما بكيفيته ، وإما بعنصره ، وإما بجملة جوهره :

أما الذى يفعل بكيفيته فإنه يبرد البدن ببرودته ، ويسخنه بسخونته من غير أن يتشبه به .

وأما الذى يفعل بعنصره فإنه يستحيل إلى صورة عضو من أعضاء الجسم أو صورة جزء من عضو إلا أن عنصره مع قبوله الصورة الجديدة يحتفظ بكيفيته ، مثل : الدم المتولد من الخس ، فإنه مصحوب ببرودة تفوق برودة الدم ، والدم المتولد من الثوم بالعكس .

وأما الفاعل بالجوهر فإنه يفعل بالصورة الحاصلة بعد المزاج إذا امتزجت بسائطه وحدث منها شىء قبل كيفيات ليست بالكيفيات الأولى ولا بالمزاج (الكائن) عنها ، مثل : القوة المغنطيسية أو اللون أو الرائحة .

ثم قسم ابن سينا الأفعال أربع مراتب : المرتبة الأولى : هى أن يكون فعل المتناول فى البدن بكيفيته فعلا غير محسوس إلا أن يتكرر أو يكثر .

والمرتبة الثانية : هى أن يكون الفعل أقوى من ذلك ، ولكنه لا يبلغ الضرر بالأفعال أو تغيير مجراها الطبيعى .

والمرتبة الثالثة : أن يكون فعلها موجباً لضرر بيِّن دون الإفساد أو الإهلاك .

والمرتبة الرابعة : أن يبلغ الفعل الإفساد أو الإهلاك ، وهذه خاصة الأدوية السامة .

ثم ميز بين الغذاء والدواء باختلاف تفاعلها مع البدن ؛ فقد يتغير الشىء المتناول ولا يغير البدن ، فإذا تشبه بالبدن كان غذاء ، وإذا لم يتشبه به كان الدواء المعتدل .

وقد يتغير ويغير البدن ، فإذا تشبه به كان غذاءً دوائياً ، وإذا لم يتشبه به كان دواء مطلقاً .

أما إذا لم يتغير وغير البدن فهو السم .

وبهذا التقسيم الأنيق وضع الفيصل بين الدواء والغذاء فى الاستحالة إلى مادة البدن أو عدم الاستحالة .

وبالإضافة – نظر إلى سهولة تحويل ما يرد إلى البدن إلى شيء مشابه له فقيل على سبيل المثال : إن النبيذ وصفار البيض وعصير اللحوم قريبة جداً إلى الدم ، وإن الخبز واللحم أقل قرابة إليه ، وإن ما يبعد عن طبيعة الدم هو الغذاء الدوائي ؛ كما أنه ميز بين الغذاء الغليظ والغذاء الرقيق ، وبين كثير الغذاء وقليله .

وبنيت على هذه المعطيات تقسيمات معقدة نسوق لها أمثلة مقتبسة من (القانون) :

إن النبيذ وعصير اللحوم وصفار البيض والبيض المغلى إغلاء خفيفاً – أغذية رقيقة وكثيرة الغذاء ؛ لأن أكثر جوهرها يتحول إلى غذاء .

والجبن والقديد والباذنجان غلاظ وقليلة الغذاء ، لأن ما يتحول منها إلى دم قليل .

والبيض المسلوق ولحم الأبقار غليظان ومغذيان .

وكل من الجلاب والبقول الخفيفة والتفاح والرمان رقيق وقليل الغذاء .

ثم إن الغذاء قسم على حسب طبيعة الكيموس المتولد عن هضمه : فزعم أن الكيموس المتولد من صفار البيض والنبيذ وعصير اللحوم والخس والتفاح والرمان محمود .

والفجل والخردل وأغلب البقول رقيقة قليلة التغذية وتولد كيموساً رديئاً .

والرئة رقيقة كثيرة التغذية وتولد كيموساً رديئاً .

والبيض المسلوق والضأن غليظان كثيرا التغذية ويولدان كيموساً محموداً .

ولحم الأبقار والبط والخيل غليظة ومغذية وتولد كيموساً رديئا ، والقديد غليظ قليل التغذية ويولد كيموساً رديئاً .

ولنعد إلى غموض الحد بين الغذاء والدواء ، فإن عدم الدقة فى التمييز بينهما واضح من ورود الأطعمة ، وعددها يزيد على مائة صنف ، فى الكتاب الثانى من

القانون ، وهو الكتاب المخصص للأدوية المفردة ، وقد وردت أوصافها فى الصيغة التى وصفت بها نفسها العقاقير والسموم . وإلى القارئ بعض النماذج منها :

الأرز : حار يابس ، ويبسه أظهر من حره ، ولكن قوماً قالوا : إنه أحر من الحنطة يغذو غذاء صالحاً ، فإذا طبخ باللبن ودُهن اللوز غَذَّى غذاءً أكثر وأجود . . . مطبوخه بالماء يعقل إلى حد ، والمطبوخ باللبن يزيد فى المنى ولا يعقل إلا أن تزيد « الغلية » فى قشره . . . » .

الباذنجان : الحديث أسلم والعتيق منه ردىء وطعمه وطبعه كالقلى . وهو عند ما سرجويه بارد ، لكن الصحيح أن قوته الغالبة عليه الحرارة واليبوسة فى الثانية لمرارته وحرافته . يولد السوداء والسدد ، ويفسد اللون ، ويسود البشرة ويولد السرطانات والصلابة والجذام والصداع ، ويبثر الفم ، ويولد سدد الكبد إلا المطبوخ بالخل فإنه ربما فتح سدد الكبد ، ويولد البواسير ، وإذا طبخ فى الدهن أطلق أو فى الخل حبس » .

الباقلاء المصرى : لولا بطء هضمه وكثرة نفخه ما قصر فى التغذية الجيدة عن كشك الشعير ، بل المتولد منه دمه أغلظ وأقوى . . . وإصلاحه إطالة نقعه وإجادة طبخه ، وأكله بالفلفل والملح والحلتيت والصعتر ونحوه مع الأدهان . وهو قريب من الاعتدال فى المزاج وميله إلى البرد واليبس أكثر وفيه رطوبة فضلية . . . وهو يجلو قليلا وينفخ جداً . . إذا ضمد به شعر الصبى رققه ، وإذا ضمد به عانة الصبى منع نبات الشعر . . . يجلو البهق والكلف والنمش . . . ينفع من تشنج العضل ، ويضمد بمطبوخه النقرس مع شحم الخنزير . . . مصدع ضار لكل من يعتريه الصداع . . . جيد للصدر ومن نفث الدم ومن السعال ، وإن خلط مع عسل ودقيق الحلبة ينفع من أورام الحلق واللوزتين ، وضماده جيد لورم الثدى وتجبن اللبن فيه . . . عسر الانهضام غير بطىء الانحدار والخروج . . . »

اللحم : أفضله لحم الضأن والفتىّ من الماعز والعجاجيل . . . والجدى أقل فضولا من الحمل ولحم الرضيع عن لبن محمود جيد ، وأما عن لبن غير محمود فهو ردىء ، ولحم الهرم من الغنم ردىء ، وكذلك لحم العجيف ولحم الأسود أخف وألذ ، وكذلك لحم الذكر ، والأحمر المفصول من الحيوان الكثير السمن والبياض أخف . . وأفضل اللحم وأمرؤهُ عائره بالعظم أيضاً ، والأيمن أخف وأفضل من الأيسر ، وأوسط العضل أنقى اللحم من العيب ، وأما اللحم الرخو الذى لا عصب عليه فإنه ربما لذ ، وخصوصاً ما كان بسبب توليد اللبن مثل لحم الثدى أو لتوليد اللعابية مثل لحم أصل اللسان . . إلخ » .

ثم ذكر عضواً بعد عضو وحيواناً تلو حيوان ، والتدرج والدجاج والقباج والطياهج والدراريج والتيس ، مضيفا أن لحوم السباع رديئة وجميع الطيور الكبار المائية وذوات الأعناق الطوال والطواويس والخربان والحامات الصلبة والقطا والعصافير كلها رديئة . وأضاف قول النصارى بأن خير لحوم الوحش لحم الخنزير البرى . ثم تناول هذا الباب لحم الطير أجمع فقال : إنه أيبس من لحم ذوات الأربع ؛ ووصف لحم البقر بأنه أيبس من لحم الماعز ، وأن لحم الماعز يابس وأعسر هضماً من لحم الضأن ، ولحم الأرنب حار يابس ، ولحوم كبار الطير والإوز والخربان غليظ ، وأما لحوم البط والمائيات فشديدة الرطوبة وقريبة فى ذلك من لحم الضأن ، واللحم السمين والإلية حارة رطبة .

وعن أفعال اللحوم قال ابن سينا : إن اللحم غذاء مقو للبدن وأقرب غذاء استحالة إلى الدم . ومطجنه ومشويّه أيبس ، وغذاء مسلوقه أرطب ، والمطبوخ بالأبازير والمرى ونحوه قوته قوة أبازيره » والسمن والشحم ردىء الغذاء ، قليله ملطف للطعام ، وإنما يصلح منها قدر يسير بقدر ما يلذذ ، واللحم المملوح ، وإن كان فى الأصل مرطباً – يعود مجففاً أشد من تجفيف كل لحم ، وغذاؤه قليل . . .

إلخ . ثم أفرد للأمراض التى تنتج عن مختلف اللحوم .

هذا عن الأطعمة وأنواعها ، وكان للأطباء آراء فى الغذاء عامة ، من حيث الكم والكيف ، ومناسبته للمرضى والصبيان والمسنين ولفصول السنة . . إلخ ، وإن كانوا لم ينحرفوا عن لبّ ما سبق ، تماشيا مع عدم التميز بين الدواء والطعام .

وخصص الرازى ما يربى على ستين فصلا من (فصوله) وعددها ثلثمائة وسبعة وسبعون لمياه الشرب وللغذاء عامة وللنبيذ ولتدبير غذاء المرضى (١٣٨) .

أكد - أول الأمر - ضرورة الأكل فقال :

كل ما ينمو فإن الذى يصير إليه من غذائه يفضل على ما يتحلل منه ، وكل ما يذبل فإن الذى يتحلل منه يفضل على ما يستحيل إليه .

لما كانت جثة الإنسان فيما يتحلل منه لم يمكن أن تبقى أو أن تنمو إلا بأن يكون ما تحصل عليه أكثر مما يفصل منه . والذى يحلل الأبدان حرارتان : الحرارة الواردة من الهواء والحرارة الغريزية .

والحرارة قد تحيل شيئاً عن آخره كفعل النار فى النفط ، أو قد تحيل منه بعضاً وتترك بعضاً : كالنار تحيل بعض الخشب وتترك بعضه .

والاغتذاء قد يكون غير موافق لأحد الأسباب الآتية :

(ا) لأنه لا يلائم المغتذى فى جوهره : كالأشياء المعروفة برداءة الغذاء نحو السمك المالح والخبز اليابس والثوم والبصل ؛ إذ إنه يجب فى الغذاء أن يكون موافقا للمغتذى .

(ب) لأنه - وإن كان موافقاً فى جوهره - غير موافق فى كميته : كالخبز النقى ، إذا كثر أحدث التخمة ، وإذا قل أحدث الفساد التنشيطى ؛ لأن مقدار الغذاء يجب أن يكون بقدر الحاجة لا أقل ولا أكثر .

(جـ) لأنه لم يؤخذ فى وقت الحاجة ، مثلا إذا أخذ على غير جوع . والوقت المناسب هو عند تحرك الجوع الصادق والمعدة نقية لا بلغم فيها ولا مرار ولا ضعف .

(د) لأنه خلط بما يفسده كالخبز النقى إذا أكل بالأدم الردىء كالكوامخ .

(هـ) لأنه لم يبق فى المعدة وقتاً كافياً فينزل غير منهضم .

(و) لأنه بقى أطول من المدة التى ينبغى .

(ز) لأنه قدم قبله ما كان ينبغى أن يتبعه وبالعكس ، والترتيب الموافق هو أن يقدم الأرق والأضعف قبل الأغلظ والأقوى والأوفق .

(ح) لأنه أكل معه ما يحتاج إلى زمان أطول أو أقصر لانهضامه .

(ط) لأنه صادق من خارج هواء غير موافق ، أو حركة غير موافقة .

ثم إن الشهوات قد تملى اختيار غذاء ليس بأوفقه ، ولكن تميل إليه للذته والطعام الذى إليه الشهوة أميل – وإن كان أردى مما لا يشتهى – ينبغى أن يؤثر على مالا يشتهى إلا أن يكون ردىء الخلط جداً . ومع ذلك لا ينبغى أن يدمن : ذلك أن المعدة تحتوىَ على المشتهى وتجيد هضمه ، فتصلح أكثر رداءته وتختار الطبيعة منه امتياراً أكثر فتقوى به .

أما فى تغذية المرضى فقد أوصى بالتالى :

مِلْ إلى ما يشتهيه العليل فى تغذيته أدنى ميل ولو كان رديئاً وأعطه الشىء اليسير ، ولاسيما إذا كان ساقط القوة ، أو ضعيف الشهوة ، أو كان تقلّب النفس والقيء لازماً له .

وإذا اتفق أن يكون ما يشتهى العليل نافعاً كان كما يقال فى المثل : « أتم السعادة هوىً وأوفق عقلا » .

لا تحرّم على من ليس من عقلاء الرجال ، ولا على الملوك والصبيان ترك شىء يشتهونه بواحدة ، لكن رجّهم ، ومنّهم ذلك ، وأنلهم منه اليسير . ولا تعدهم

بالكثير . . . وهوِّل عليهم فى الاستكثار منه ؛ فإنك تدفعهم بذلك عن أن يأكلوا منه سراً شيئاً كثيراً .

ما قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية . . والماهر بطبائع الأغذية فى ذلك متسع .

وإليك بعض أمثلة من تقدير ابن سينا للغذاء :

يجب أن يجتهد حافظ الصحة فى ألّا يكون جوهر غذائه شيئاً من الأغذية الدوائية مثل البقول والفواكه وغير ذلك ؛ فإن الملطفة محرقة للدم ، والغليظة مبلغمة مثقلة للبدن ؛ بل يجب أن يكون الغذاء من مثل اللحم خصوصاً لحم الجدى والعجاجيل الصغار والحملان والحنطة المنقاة من الشوائب المأخوذة من زرع صحيح لم تصبه آفة ، والشىء الحلو الملائم للمزاج ، والشراب الطيب الريحانى . ولا يلتفت إلى ما سوى ذلك إلا على سبيل التعالج والتقدم بالحفظ . وأشبه الفواكه بالغذاء التين والعنب الصحيح النضيج الحلو جداً والتمر فى البلاد والأراضى المعتاد فيها ذلك . . .(ا و١٦٣)

ويجب ألا يؤكل إلا على شهوة ولا يدافع الشهوة إذا هاجت ، ولم تكن كاذبة كشهوة السكارى . .

ولا شىء أردأ من شبع فى الخصب يتبعه جوع فى الجدب وبالعكس ، والعكس أردأ .

وإذا وقع الخطأ فتنُوِول شىء من الأغذية الدوائية فيجب . . . أن يُتحرز من سوء المزاج المتوقع منه باستعمال ما يضاده عقيبه : فإن كان بارداً مثل القثاء والقرع عدل بما يضاده مثل الثوم والكراث ، وإن كان حاراً عدل بما يضاده أيضاً مثل القثاء وبقلة الحمقاء . . .

ويجب أن يكون النوم على اليمين . . ثم ينام على اليسار ثم ينام على اليمين .

واعلم أن الدثار ورفع الوسادة معين على الهضم ، وبالجملة أن يكون وضع الأعضاء مائلا إلى تحت ليس إلى فوق .

وتقدير الطعام هو بحسب العادة والقوة ، وأن يكون مقداره فى الصحيح ما لا يثقل ولا يمدد الشراسيف ولا ينفخ ولا يقرقر ولا يطوف ولا يعرض غثى ولا شهوة كلبية ولا سقوط ولا بلادة ذهن ولا أرق ولا أن يوجد طعمه فى الجشاء بعد زمان ، ولا أن يعرض منه عظم نبض مع صغر نفس ؛ فإنه إنما يعرض بسبب مزاحمة المعدة للحجاب .

ومن كان يعجز عن هضم الكفاية كثّر عدد اغتذائه وقلل مقداره .

والسوداوى يحتاج إلى غذاء مرطب كثيراً مسخن قليلا .

والصفراوى إلى ما يرطب ويبرد .

ومن كان دمه حاراً - إلى أغذية باردة قليلة الغذاء .

ومن كان دمه بلغمياً - إلى أغذية قليلة الغذاء فيها سخونة وتلطيف .

أما عن ترتيب الغذاء فقد قال - كما قال من قبله الرازى : إنه يجب أن يراعى عدم تناول ما هو رقيق سريع الهضم على غذاء قوى أصلب منه ، فينهضم قبله وهو طاف عليه ولا سبيل إلى النفوذ ، فيعفن ويفسد ما يخالطه .

ويجب ألا يتناول مثل هذا الطعام المزلق وفى إثره طعام صلب ؛ فإنه ينزلق معه إلى الأمعاء ولمّا يستوف الحظ من الهضم .

ومن أهم نصحه قوله ، وهو قول يدل على تجربة طويلة وحكمة رشيدة :

وليغلب التجربة فيه على القياس ؛ فربّ غذاء مألوف فيه مضرة أوفق من الفاضل غير المألوف ، ولكل سحنة ومزاج غذاء موافق مُشاكِلٌ فإن أريد تغييرها فإنما يأتى بالضد .

وكان أهل الفكر ينهون عن الإسراف فى الطعام ، وأولهم الرسول ﷺ فى

أحاديث شريفة عدة[139] .

« المؤمن يأكل فى مِعى واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء » (صحيح : ٧ ، ١٢) ، « أصل كل داء البردة » ، والبردة هى التخمة ؛ لأنها تبرد حرارة الشهوة ، « ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه : بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه : فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنَفَسه » .

وقال تعالى : (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) الأعراف / ٣١ .

وقال عمر رضى الله عنه :

« إياكم والبطنة فإنها مفسدة للجسم ، مورثة للسقم ، مكسلة عن الصلاة ، عليكم بالقصد ، فإنه أصلح للجسد ، وأبعد عن السرف[139] .

وفى هذا المعنى روى الجاحظ[140] فى (البخلاء ص ٢٢٠) الواقعة الآتية ومغزاها واضح ، قال :

« شهدت الأصمعى يوماً وقد أقبل على جلسائه يسألهم على عيشهم وعما يأكلون ويشربون ، فأقبل على الذى عن يمينه فقال : أبا فلان ، ما إدامك ؟ قال : اللحم ؛ قال أكلَّ يوم لحم ؟ قال : نعم ؛ قال : وفيه الصفراء والبيضاء والحمراء والكدراء والحامضة والحلوة والمرة ؟ قال : نعم ؛ قال : بئس العيش هذا ، ليس هذا عيش آل الخطاب : كان عمر بن الخطاب رحمة الله عليه ورضوانه يضرب على هذا ، وكان يقول : مدمن اللحم كمدمن الخمر !

ثم سأل الذى يليه ، قال : أبا فلان ، ما إدامك ؟ قال : الإدام الكثيرة والألوان الطيبة ، قال : أفى إدامك سمن ؟ قال نعم ؛ قال : فتجمع السمن والسمين على مائدة ؟ قال : نعم قال : ليس هذا عيش آل الخطاب ، كان ابن الخطاب رحمة الله عليه ورضوانه يضرب على هذا ، وكان إذا وجد القدور المختلفة الطعوم كدرها فى قِدْر واحدة وقال : إن العرب لو أكلت هذا لقتل بعضها بعضاً !

ثم يقبل على الآخر فيقول : أبا فلان ، ما إدامك ؟ قال اللحم السمين والجدى الرضيع ؛ قال : فتأكله بالحوارى ؟ قال : نعم ؛ قال : ليس هذا عيش آل الخطاب : كان ابن الخطاب يضرب على هذا أو ما سمعته يقول : أترونى لا أعرف الطعام الطيب : لباب البر بصغار المعزى ، ألا تراه كيف يتنى من أكله ويتنحل معرفته ؟

ثم يقبل على الذى يليه فيقول : أبا فلان ، ما إدامك ؟ فيقول : أكثر ما نأكل لحوم الجزور ، ونتخذ منها هذه القلايا ، ونجعل بعضها شواء ؛ قال : أفتأكل من أكبادها وأسنمتها وتتخذ لك الصباغ ؟ قال : نعم ؛ قال : ليس هذا عيش آل الخطاب : كان ابن الخطاب يضرب على هذا ، أو ما سمعته يقول : أترونى لا أقدر أن أتخذ أكياداً وأفلاذاً وصلائق وصناباً ؟ ألا تراه كيف ينكر أكله ويستحسن معرفته ؟

ثم يقول للذى يليه : أبا فلان ، ما إدامك ؟ فيقول : الشبارقات والأخبصة والفالوذجات ؛ قال : طعام العجم وعيش كسرى ولباب البر بلعاب النحل بخالص السمن ! حتى أتى على آخرهم ، كل ذلك يقول : بئس العيش هذا ، ليس هذا عيش آل الخطاب : كان ابن الخطاب يضرب على هذا ! . . . . إلخ » .

ولكن الغذاء المعتدل والمعقول تحول مع الزمن ومع الثراء المتزايد ، والامتزاج بالفرس والشوام والبيزانطيين والمصريين ، وأصبح من السخاء مالا يتصوره العقل ، ولنأخذ مثلا وصف الأكلة التى سماها عبد اللطيف البغدادى (١٤١) « رغيف الصينية » :

« ومن غريب ما يتخذونه رغيف الصينية وصفته : أن يؤخذ من الدقيق الحوارى ثلاثون رطلا بالبغدادى ، ويعجن مع خمسة أرطال ونصف شيرجاً عجن

خبز الخشكنان ، ثم يقسم بقسمين ، ويبسط أحدهما رغيفا فى صينية نحاس . . . قطرها نحو أربعة أشياء ثم يعبأ على الرغيف ثلاثة أخرفة مشوية محشوة الأجواف بلحم مدقوق مقلوبا بالشيرج والفستق المهروس والأفاويه العطرة الحارة كالفلفل والزنجبيل والقرفة والمصطكى والكزبرة والكمون والهال والجوز ونحو ذلك . ويرش عليه ماء ورد قد ديف فيه مسك ، ثم يجعل على الخرفان وبين خلالها عشرون دجاجة وعشرون فروجاً وخمسون فرخاً بعضه مشوى ، محشو بالبيض ، وبعضه محشو باللحم ، وبعضه مطجن بماء الحصرم أو بماء الليمون أو نحو ذلك ، ثم يشور بالسنبوسك والقاقم المحشوة باللحم بعضها وبالسكر والحلوى بعضها وإن شئت أن تزيده خروفاً آخر . شرائح فلا بأس وكذا جبناً مقلواً فإذ نضد ذلك وصار كالقبة نضج عليه ماء ورد قد ديف فيه مسك وعود . ثم غطى بالقسم الثانى من العجين بعد أن يمدد رغيفاً ، ويلحم بين الرغيفين كما يلحم الخشكنان . . . وبعد ينضج فى التنور ويرش عليه ماء ورد ومسك .

وقد كتب الكثيرون فى هذا المعنى ، معنى إيثار الأكل الفاخر على الغذاء المتواضع البسيط ، ولنذكر منهم الكاتب الهزلى الشيخ يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر الشربينى الذى – وإن كان من العلماء – وضع فى القرن السابع عشر الميلادى قصيدة هزلية وشرحها فى كتيب أسماه « هزالقحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف »(١٤٢) ذكر فيه خطبة زعم أنه ألقها فى المأكولات . وهذا المؤلف فيه وصف اجتماعى دقيق لحالة الفلاحين فى عصرهم وبؤسهم وظلم الحكام لهم وأنواع عاداتهم فى المأكل والمشرب ، وفيه تدوين للغة الفلاحين كما ينطقونها ، وفيه حكايات ظريفة مما سمعها أو شهدها . ويضيف الأستاذ الدكتور أحمد أمين(١٤٣) أن المؤلف رأس المدرسة التى عنيت بالتنكيت عن طريق اللعب بالنحو والخروج من باب إلى باب من غير مناسبة والمفارقات ونحو ذلك .

ذكر الشربيني في هذا الكتاب خطبة ألفها في المأكولات ، مزج فيها الجد بالهزل وبالمحاكاة الساخرة للخطب المحذلقة ، قال :

« الحمد لله مستحق الحمد على التحقيق الذى وفق بين الفريج والضيق ، وأمر بالحج إلى بيته العتيق ، وجعل السمن البقرى للعسل النحل رفيق ، أحمده حمد من عنده من الجوع دسيسة ، وأغاثه الله بقصعة من البسيسة بالفطير الرقيق ، فملأ منها بطنه ، وأحسن بالله ظنه ، ونام على راحة من الله وتوفيق ، وأشكره شكر عبد تقلع عن الحوامض والمش العتيق .

(أيها الناس) مالى أراكم عن الزردة بالعسل النحل غافلون وعن الأرز المفلفل باللحم الضانى تاركون .

وعن البقلاوة فى الصوانى معرضون ، وعن الأوز السمين والدجاج المحمر لاهون ، فما هذا يا إخوانى إلا حال « المفلسون » وأفعال الفقراء « المقلون » فجدوا رحمكم الله فى تحصيل الدراهم ؛ لتغتنموا المآكل النفيسة والمطاعم اللذيذة وقد قيل : لذة الدنيا أكل اللحم ، وركوب اللحم ، فمن أنعم الله عليه فليشكر ، ومن حرمه فليصبر ، وعليكم بالأرز باللبن ، فإنه طعام جيد حسن ، وصاحبه أبرك الصباح خصوصا .عند الفلاح إذا جاء وحلب بقرته ، وأتت زوجته بالدست وعلقته وصبت فيه اللبن ، وقادت عليه وحركته بالأرز الأبيض ، وطبخته وفى الصحون غرفته فجاء الشيخ الكبير وقعد وثنى ركبته ، فعند ذلك يا إخوانى صفت الأوانى ، ولاذ كل إنسان بإنسان ، فلا ترى إلا (الأيادى) تقطع وأحنكة تبلع ، وزراديم تفرقع ، وحلق يتقلقع ، والعين من كبر اللقمة تدمع ، والبطن لا تشبع بل تزيد انفعالا وهو يقول : جل ربنا وتعالى ، فإذا سبقك أخوك بلقمة فبادر إلى جدع رقبته بلكمة ، واغتنموا رحمكم الله تعالى هذه الموعظة ، ودعوا أكل المغلظة كالعدس والبيسار والمدمس والفول الحار والبسلة والكشك بالفول وجبن النور

المعمول فإنها تورث الأرياح وليس فى أكلها صلاح ، وعليكم بالأطعمة الفاخرة كاللحم الضانى ؛ فإنه سيد طعام الدنيا والآخرة ، وعليكم بالشراب البارد ففيه حديث وارد ، واحمدوا الله أيها الأغنياء المتنعمون ، واصبروا أيها الفقراء.

نسأل الله أن يمن علينا وعليكم بالأطعمة الفاخرة ، ويرزقنا وإياكم الراحة فى الدنيا والآخرة ، وأن يجعلنا وإياكم من الآكلين المتخمين ، وينجينا وإياكم من موارد الجيعانين المقلين ، وأن يغفر لنا ولكم ولجميع المسلمين آمين فاستغفروه يغفر لكم يا فوز المستغفرين.

ثم دعا هذا الدعاء : وارض عن الأربعة الأعيان الذين ذكرهم الله تعالى فى القرآن والتين والزيتون والخوخ والرمان ، وارض اللهم عن الستة الباقية من العشرة الأطعمة المفتخرة الماوردية والمهلبية والشعرية بالزغاليل المرئية والأرز المفلفل باللحم الضانى المحشى المحمر والكنافة المبتلة بالسمن والعسل النحل واللوز والسكر والقطائف الغارقة بالسمن والعسل والقرع المحشى باللحم والبصل والبقلاء الموصوفة وخرفان اللقمة المعلوفة ، واليخنى السمين ، والقرمزية ، متعنا الله وإياكم بهم أجمعين.

وكأنَّ المؤلفين فى الأكل خشوا تهمة الشراهة والانحراف ، وأحسوا بضرورة الدفاع عن اهتمامهم بالطيبات ، فيستهلون كتبهم بحمد الله على ما من به على البشر ، ويحثون على الاستمتاع به لأن – على حد قول «كتاب الوصلة إلى الحبيب فى وصف الطيبات والطيب» لأحد الأمراء الأيوبيين «فى تناول الطيبات تقوية على العبادة» ولننقل للقارئ هذه الديباجة الطويلة (١٤٤) :

بسم الله الرحمن الرحيم
رب يسر يا كريم

الحمد لله الواحد الخلاق ، المتكفل بالأرزاق ، المستحق للمحامد على الإطلاق ، أحمده حمداً يكون بمزيد رزقه كفيلا وعلى شكر ما من به علينا دليلا ، حيث قال فى تكريم بنى آدم : (ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) الإسراء / ٧٠ .

أنكر على من حرم طيب الرزق على عباده ولامه ، فقال تعالى : (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) الأعراف / ٣١ ، وأبرز تعالى فى كتابه العزيز أمره الكريم فى معرض الامتنان على خلقه فقال : (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) الملك / ١٥ .

بعث محمداً صلى الله عليه وعلى آله بتوحيده إذ قال غيره بثالث ، وبين لأمته أحكام الوقائع والحوادث بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث اختصه فى كل خير بأوفر نصيب » وحبب إليه من الدنيا زهرة النساء ورائحة الطيب ، صلى الله عليه وعلى آله صلاة أكرم محب لأعز حبيب (وبعد) .

فإنه لما كان معظم اللذات الدنيوية والأخروية فى تناول شتى المآكل والمشارب وكان تطيب الثياب والبدن مما يقرب إلى الأحباب والحبائب ، واقتضى ذلك سلوك تطيبها للآنس والآكل والشارب ، وفى تناول الطيبات تقوية على العبادة للعبيد ، وهى تستخرج من القلب خالصة الحمد ، فلذلك كررت المنة بها فى كتاب الله

العزيز ، وأخرج ذكرها مخرج المدح والتمييز . فلهذا جمعت هذا الكتاب وسميته كتاب الوصلة إلى الحبيب فى وصف الطيبات والطيب ، ولم أضع فيه شيئا إلا بعد أن ركبته مراراً وتناولته مدراراً واستخلصته لنفسى ، وباشرته بذوقى ولمسى ، وقد بدأت فيه بالطيب لشرف قدره وطيب عرفه ونشره وانتشار ذكره ، ثم سقت الفصول بعده على ما تراه من الترتيب ، وأرجو من كرم الله تعالى أن أفوز من الثواب بأوفى نصيب ، وأسأل الله أن ينفع بما وضعته فيه إنه قريب مجيب .

* * *

وبالإضافة فقد ربط الأطباء بين الأفلاك وفصول السنة وبين الجسم الآدمى ، ولم يفلت الغذاء من هذا الاتجاه ، ولنضرب مثلا له ما ورد فى (كتاب الأزمنة) ليوحنا بين ماسويه (١٤٥) .

يقول ابن ماسويه :

تشرين الأول : برجه الميزان وسلطانه المرة السوداء ، وينفع فيه من الطعام اللحم السمين والرمان المز والجزر والقرظ (كراث المائدة) الرومى والجرجير وأصناف الفاكهة بعد الطعام والسمن والعسل والحلاوى .

ويستحب أن يشرب فى أوائل النهار جرعة من الماء الحار على الريق ، ويستنشق الطيب ، ويتجنب الجماع والحمام وأكل البطيخ والقثاء والخيار والسلق ولحم البقر واللبن الحامض والحبوب غير الرز ، ولا يشرب فيه الماء البارد لأنه يزيد فى المرة .

تشرين (الثانى) : برجه العقرب وسلطانه المرة السوداء ، ينفع فيه أكل لحم الطير مطبوخاً بالحمص والقلايا والثريد بالثوم وسليقة الجزر والسلجم . ويشرب الماء الجارى والماء الحار وماء الجزر ، وهو أن يؤخذ الجزر فيقطع ويطبخ ، ثم يجعل فى مائه العسل وعروق الزنجبيل ومثقال أنيسون وعشر حبات فلفل ، ويشرب فى

أول النهار وآخره ، فإنه ينفع من عرق النسا ووجع الوركين والصلب . ويدخل الحمام فى أول النهار . . . ويتجنب فيه شرب الماء فى الماء لانه يتخوف منه حدوث الماء الأصفر فى العين ، ويتجنب فيه أكل السمك الطرى والمملوح وصيد الماء وكل شىء مالح ، ويقلل من الجماع ويتجنب السمن والعسل والبقول .

كانون الأول : برجه القوس وسلطانه البلغم ، فى هذا الشهر يجامع الرجل خلاله لالتماس الولَد ؛ لأن طبائع النساء تلين فى هذا الشهر دون الشهور ، وينفع فيه أكل كل حار وحريف ، ويشرب على الريق جرع ماء حار ، ويكثر أكل القطائف ، ويكثر من دخول الحمام والمشى والتعب ، وينعم الجسم بالدهن ، ويتجنب أكل لحوم البقر والباذنجان والترنج ، ويكره شرب الماء بعد النوم خوفاً من حدوث الماء الأصفر .

كانون (الثانى) : برجه الجدى وسلطانه البلغم ، الاغتسال فيه بالليل أفضل منه بالنهار ، ويحذر من السفر البعيد ، ويقل من الجماع ، وينفع فيه أكل كل طعام حار وحريف والسمن والعسل والحلاوى كلها ولحم الضأن والثريد بالثوم وسليقة الجزر والكراث . . . ويشرب ماء الجزر بعد الطعام ؛ فهو نافع ؛ ويتجنب فيه أكل لحم البقر ولحم الماعز والسمك وكل شىء يخرج من الماء والبقل والفجل والبصل ، ويتوقى فيه أكل السهل الطرى والمالح وكل شىء بارد رطب ، ولا يكثر من البقول مثل السلق والقنبيط والأسبانخ .

شباط : برجه الدلو وسلطانه البلغم . وفى هذا الشهر يستحب أكل الحلاوى والطير والصيد كله والكماة والثوم والفاكهة اليابسة والأترج والرمان وقصب السكر ، . . . ويكثر فيه أكل الحمص المطبوخ والرز والجوز واللوز والصنوبر ويشرب العسل وكل شىء حلو يؤكل فيه هو نافع والتمر والتين ، ويتجنب فيه أكل الجبن العتيق والسمك الطرى والمملوح واللبن والعدس والبصل والكراث والسلق

والخل وكل شيء مالح وحريف ، ويتوقى أكل لحم البقر والماعز ، لأنه يضر فى هذا الشهر .

آذار : برجه الحوت وسلطانه الدم : ينفع فيه أكل الحلاوى والعسل والفاكهة اليابسة والرز والبيض المشوى وشرب ماء الحلبة . ويشرب النبيذ بماء حار فى أول النهار ، وفى آخره بماء بارد . ويؤكل الترياق ؛ فإنه يحرق البلغم وينشف المرة ، ويذهب الرياح ويطرد المليلة ، ويتجنب فيه أكل السمك الطرى والمملوح والقديد والبصل والثوم وكل شيء مالح وحامض وحريف .

نيسان : برجه الحمل وسلطانه الدم . وفى هذا الشهر يهيج الدم ، ويصلح الفصد ، وتشرب الأدوية السهلة . وينفع فيه كل بارد رطب ، ويشرب فيه الأسوقة والرُّب ، ويشرب كل يوم على الريق جرع ماء حار ، وتؤكل لحوم الصيد والخردل والخل والزيت والبصل والبقل والقرع وكل شيء رطب فإن المرة فيه متحركة ، ويتجنب أكل الفجل وكل حلو ومالح ، ويتجنب فى هذا الشهر خاصة أكل الدجاج ويقل من الجماع .

أيار : برجه الثور وسلطانه الدم ، وفى هذا الشهر ينفع أكل كل بارد رطب ، ويؤكل اللحم والشوىّ والسمك الطرى والبيض والهلبون والبصل والفاكهة اليابسة والحلاوى ، ويتجنب فيه أكل كل حار يابس والسمك المملح والرءوس والأكارع لأنه يخاف من ذلك اليرقان الشديد ، ويتجنب لحم الأرانب وأفراخ الحمام ولحم البقر ولحم الماعز والوحوش .

حزيران : برجه الجوزاء ، وسلطانه المرة الصفراء حار يابس ، وفى هذا الشهر ينفع أكل كل بارد رطب ولحم البقر ولحم الماعز والطير والصيد والسمك الطرى واللبن والكوامخ والمخلل والقرع والبقول والخيار والفاكهة الرطبة ، ويتجرع كل يوم ثلاث مرات الماء البارد على الريق . . ويشرب ماء الورد بالعسل والسوس ،

ويؤكل فيه الخردل ويكثر من شرب اللبن والحليب ، وتستعمل ألوان الأشربة العسلية والأسوقة ، ويتجنب فيه أكل كل حار يابس وشم المسك والعنبر واللبان ، ويتجنب فيه اللوز والفاكهة اليابسة والعسل وحده والأنبذة الحارة وأكل العدس خاصة أكثر من كل الحبوب ، ويتجنب الجماع خاصة جماع المرضع .

تموز : برجه السرطان ، وسلطانه المرة الصفراء حار يابس ، وفى هذا الشهر يتجنب الفصادة والحجامة وشرب الدواء ، ويستعمل كل بارد رطب ، ويتجنب كل حار يابس ، وتؤكل الفواكه والبقول وطعام الحصرم والكشيء (هو الشواء المنضج) ، وينفع شرب الماء البارد على الريق ، وما يشرب فيه من الشراب يكون كثير المزاج بالماء البارد ، ويتجنب كل ما يتجنب فى حزيران ويقل من الجماع والطيب .

آب : برجه الأسد : وسلطانه المرة الصفراء حار يابس ، وفى هذا الشهر يكره أكل الفاكهة ، ولا ينفع أكل اللبن والبصل ، وينبغى أن يقل من الشرب وما شرب فيه من شراب يكثر مزجه بالماء البارد ، ويتجنب فيه أكل الفاكهة والجماع وكل ما يتجنب فى حزيران وكل شيء مالح والماء الحار .

أيلول : برجه السنبلة وسلطانه المرة السوداء بارد يابس ، وفى هذا الشهر يصلح الفصد وشرب الدواء المسهل ، وتكره الحكماء فيه الحجامة ، وينفع أكل كل حار لين ، ويؤكل السمن والعسل وأصناف اللحوم والحلوى ، ويجتنب أكل كل بارد رطب ويابس والبقل حتى يصيبه المطر والبطيخ والخيار ولحم البقر ، وتكره فيه الحجامة لئلا تقوى المرة السوداء .

* * *

شغف المثقفون فى القرون الوسطى بالاطلاع على المؤلفات الشعبية الخاصة بالصحة مثلما يميلون اليوم إلى الكتب الطبية المبسطة وإلى أحاديث الإذاعة الطبية ،

ومن أكثر هذه المؤلفات فى القرون الوسطى انتشاراً مجموعة من القواعد الخاصة بتدبير الغذاء والراحة والرياضة ، وضعها أعضاء مدرسة سالرنو بجنوبى إيطاليا لتقديمها إلى ملك من ملوك إنجلترا وعرف باسم(١٤٦) Regimen Sanitatis Salernitanum .

ومدرسة سالرنو إحدى القناطر الرئيسية التى عبرها الطب من العرب إلى الغربيين : بدأت مدرسة هذه المدينة تحت لواء أبقراط ، فسميت حين ذاك بالمدينة الأبقراطية ، ثم دخلت فى نطاق الطب العربى فى القرن الحادى عشر الميلادى عندما تولى التدريس فيها قسطنطين الأفريقى الذى لم يتورع عن نقل المؤلفات العربية إلى اللاتينية دون ذكر أصولها !

ولنذكر من دستور سالرنو الذى ساد الطب الأوربى علماً وعملا قروناً طويلة ما يكفى الدلالة على مدى نفوذ العرب فيه .

« على الطبيب الحكيم وصف حجم الأكل ونوعه ووقته وكيفيته خوفاً من أن يتلف المزاج تلفاً لا رجوع عنه » .

« على من يصف الغذاء مراعاة ستة أمور : النوع ، الفائدة ، الوقت ، المكان ، العدد ، والكمية . ومن لا يراعى هذه الأمور يحدث ضراً ولا يشفى ، وأمثاله ليسوا بالقليلين » !

« اعلم أن لحم القلب ردىء لأنه غليظ وعسر الهضم وأن (الكرشة) لا تملأ البدن بعصير جيد ، وأن الرئة رقيقة ، وأن الأجزاء الخارجية أفضل ، وإذا كان المخ غذاء جيداً - وهذا محل نقاش - فإن مخ الدجاج هو أفضله وأسرعه انهضاماً ، وأن الشبت طارد للأرياح » .

« إن قشر جوزة الطيب يشرح القلب والدماغ ، يميل إلى المسك والرئة إلى عرق السوس ، والطحال يستريح إلى الكبر ، والمعدة إلى الخولنجان .

اللبن يملأ الأوردة ولكنه ردىء لمن يشكو الصداع ، والجبن بارد وغليظ

وقابض ، ويجب أكله بالخبز الجيد ، وهو جيد للأصحاء ، ولكنه ردىء لمن يشكو عسر الهضم .

- غذاء الجبن الطازج ، والنخاع ، وكل لحم لذ طعمه ، والنبيذ اللطيف ، والبيض الطرى - غذاء جيد .

يؤكل الخوخ بالنبيذ ، والجوز مع العنب ، والزبيب ينفع الرئة ويضر الطحال ، ينفع الكبد إذا انتزع عنه جلده ونواياه .

أما اللفت فإنه صديق المعدة والرئة وطعمه لذيذ ويدر البول ، ولكنه يجلب الأرياح ويفسد الأسنان وإن أكل نيئا فإنه يسبب مغصاً شديداً .

والهال يطرد الريح ، والزعفران يجلب السعادة ويصلح الكبد ، والبنفسج يزيل السكر والصداع والزكام ، والكراث يساعد النساء على الإنجاب ، والخبازى تلين وتعيد الطمث ، والفلفل يذيب البلغم ويخفف السعال ويساعد على الهضم ومما يضر النظر الثوم والعدس والفلفل والبصل والفول والكراث والخردل .

تتمتع ستة أصناف بقوى خفية تقاوم السموم ، وهى الكمثرة والثوم وبذور الفجل والجوز والشلجم والسذاب وعلى رأس هذه القائمة الثوم .

وهناك نصيحة تبدو منقولة عن ابن سينا نقلا : « يفضل الكبير من السمك الطرى والصغير من السمك الصلب » .

وينتهى دستور سالرنو بهذا الدعاء : « يا قارئ قواعد الطب ، أسأل الله تعالى ألا يحوجك إليه » .

كثرت المصنفات فى هذا الموضوع ، وسنكتفى لإظهار مدى اعتماد الغرب على العرب بذكر مؤلف ليحيى بن عيسى بن غزلة المتوفى سنة ٤٩٣ هـ (١٠٠٠ م) الذى نقله (جامبينوس) بأمر من شارل دى أنجو ملك نابولى [١٤٧] وقد احتفظ بعض هذه المؤلفات بأسمائها العربية فسميت Tacuinum Sanitatis ، وهى

تسمية مشتقة من كلمة « تقويم »العربية ، وما يزال لفظ (تاكوينو) Tacuino شائعا فى إيطاليا بمعنى (نتيجة) أو (رزنامة) .

لم تكن هذه المؤلفات محض « حبر على ورق » فقد كان الأطباء - كما سبق - يصاحبون العظام عند تناولهم أى غذاء لاختيار أنسب الأطعمة لمزاجهم . وقد قرّظ الكاتب الإسبانى (سرفنتس) عادات الأكابر وغرور الأطباء فى مشهد مأثور من مشاهد روايته الساخرة (دون كيخوتى[١٤٨]) حيث روى أن حاكم إحدى المقاطعات أوهم خادم دون كيخوتى ، وكان شرهاً أنه عيّنه محافظ جزيرة خيالية . ثم أمر بتقديم أشهى الأطعمة له ، وأوصى طبيبه الخاص بسحب الأطباق ، الواحد تلو الآخر قبل أن يتذوقها الخادم المسكين !

قام الطبيب فعلا بسحبها من تحت أنف الخادم المحروم ، مردداً كل مرة : « يا سيدى ، إنى طبيب وإنى أتلقى راتبى فى هذه الجزيرة لتطبيب المحافظين ، واهتمامى بصحتهم يعلو اهتمامى بذاتى ! إنى أمضى الأيام والليالى فى دراسة صحة سيدى المحافظ ؛ لأتعرف على مزاجه ولأدبر له وسائل العافية . وأهم واجب يقع على عاتقى هو حضورى فى أثناء غذائه وعشائه ؛ لأغذيه بما أراه لائقاً ولأثنيه عما أراه ضاراً . ولذا فقد أمرت باستبعاد الفاكهة ؛ لأنها مفرطة الرطوبة والطبق الآخر ؛ لأنه حار تُبِّل بإفراط ، والتوابل ، لأنها تثير العطش والشرب بكثرة . تهلك وتحرق الرطوبة الغريزية حيث تكمن الحياة ! » .

ثم قدم للخادم (سانشو بانسا) حجالا مشوياً ، فقدم الخادم يده إليه فأوقفه الطبيب قائلا :

لن يأكل سيدى منها أبداً طالما أنا على قيد الحياة ؛ لأن أبقراط نجم الطب قال : «إن كل تخمة رديئة ، ولكنّ أردأها تخمة الحجال» مزيفا قول أبقراط الحقيقى : «إن كل تخمة رديئة ولكنّ أردأها تخمة الخبز» .

الخلاصة

لقد حقق كل منهج سلك فى دراسة العادات الغذائية أهدافاً محددة ، ولكن لم يتح واحد منها جمع كل المعلومات التى ينبغى إخصائى التغذية الحصول عليها ؛ لأن لكلٍ من المناهج - إلى جانب مزاياه - حدوداً ! .

فالنظرة الإقليمية قد تكشف عن الأنماط العريضة ، وتشير إلى فروض عامة ، ولكنها تهمل التفاصيل الدقيقة على صعيد القرية أو المنزل أو الشخص .

والنظرة البيئية التى راقت الأطباء وإخصائى التغذية فى السنين الأخيرة أهملت الإنسان وما لميوله وذوقه ونزواته من التفوذ : إذ إن مجرد توافر نوع من الغذاء لا ينبئ باستخدامه ؛ كما أن اختيار الغذاء الفاخر أو التفاخرى لا علاقة له بالمحددات البيئية ؛ فالغذاء يتطور على حسب الإدراك الحضرى ، والمجتمعات تستغل الموارد التى تشبع حاجاتها المادية والمعنوية على السواء . الأمر الذى يُعجز الغريب عن إدراك مجموع الموارد المتاحة لمجتمع جديد عليه ، ويعرضه لحرمان لا يعانى منه أفرادُ هذا المجتمع الأصليون .

أما الثقافة البيئية فإنها تبين التفاعل بين الإنسان والطبيعة ، ولذا فإن قراراتها أقل حتمية من قرارات غيرها ؛ لأنها تتسم بالتوازن والواقعية ، غير أنها تتناول مناطق ضيقة وتهمل العوامل التاريخية وأسباب الإحجام عن بعض الأطعمة .

ويطلق المنهج الثقافى - التاريخى أبواب عالم آخر من الحقائق لا يتم الانتفاع بها إلا إذا ضمت إلى واقع الإنتاج الغذائى ؛ فهو فى هذه الحال يحدد صورة الأنماط الغذائية فى خلال حقب متتالية من التاريخ ، ويلقى الضوء على منابع العادات الحالية ، ولكنه لاعتماده إلى حد كبير على الأساطير والروايات الشفوية والتحليل

اللغوى يسمح بالشك فى بعض أحكامه .

والمنهج الانتفاعى يعرفنا دقائق التغذية فى محيط حضرى محدود ، ولكنه يقصر نظره على الحاضر ، ويهمل حصيلة المناهج الأخرى .

وبالرغم من التقدم المحسوس الذى حققه استخدام النماذج التنبئية التابعة عن المنهج الحسابى الكمى فإن قضايا هذا المنهج تتصف بالجمود وبعدم مجاراة الأوضاع المحلية : فلننظر مثلا إلى رفض زارعى المكسيك زراعة الحبوب ذوات الخواص الرفيعة الذى بدا أول الأمر بعيداً عن المنطق وعن روح التقدم ، غير أن التجربة بينت أن هذه الحبوب الدخيلة عرضه للإصابة بالآفات المحلية لعدم تعرضها السابق إليها .

ثم إذا تغلب الباحثون على هذه المشكلة فقد يحجم الزارعون عن زراعتها لاختلاف طعمها أو لونها أو قوامها عما اعتادوه ، أو لعدم قابليتها للتخزين أو لأسباب أخرى لم تؤخذ فى الحساب .

ولهذه الأسباب ، أى لافتقارنا إلى طريق موحدة نحو هدفنا — فإننا طرقنا أبواباً عدة لحصره .. ولكل باحث — بعد دراسة كل المناهج — انتخاب أكثرها ملاءمة للمجتمع موضوع دراسته . وإذا كنا ركزنا فى بحثنا على الإنسان أى على ميوله وعقائده ونزواته فإنما فعلنا هذا لإيماننا بأن الغذاء يتم عن اختيار : أى أنه عملية ذهنية تتدخل فيها كل العناصر المكونة لهذا الكائن الفاتن ، هذا الحيوان الوحيد الذى يأكل بلا جوع ، وهو الإنسان .

المراجع

١ – على حسب قول بوزانياس (١٠ : ٢٤: ١) ، وقد نسب البعض هذه الكلمة المأثورة لغيره .

2 — Grivetti, L., 1945, «Cultural Investigations on food and Diet.» Research among the ba Tlowka -ba Moshaweng, Southeast District, Republic of Botswana, Dept. of Geography, Unirversity of California, Davis, California.

٣ – أفلاطون طياوس ، ٢٢ ،ب

4 — Porphyry, 1965, On abstinence from animal food, 4:6, London: Centaur Press.

٥ – ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، طبعة دار الفكر ببيروت ، ١٩٥٧ ، الجزء الأول ، ص ٦٠ .

6 — Daumas, F., 1956, «Postface à Platon à Héliopolis», par R. Godel, Paris: Les Belles Lettres.

٧ – الدكتور أحمد أمين ١٩٥٣ قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، الطبعة الأولى ، القاهرة : مؤسسة التأليف والترجمة والنشر ، ص ٦١ .

8 — Wissa Wassef, C., 1971, Pratiques Rituelles et Alimentaires des Coptes, le Caire: Institut Français d' Archéologie Orientale

٩ – تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد المقريزى ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطوط والآثار ، ١٩٦٧ – ١٩٦٨ : دار التحرير للطبع والنشر .

10 — Athenaeus. Deipnosophists. 9: 375: C
11 — Huntington. E., 1943, The Geography of Human Productivity. Annals. Association of American Geographers. 33:13.
12 — Huntington, E.; 1945 Mainsprings of Civilization, PP. 424 - 458, New York: John Wiley and Sons.
13 — Semple, E. C., 1921. «Geographic Factors in Ancient Mediterranean grain trade. Annals Association of American Geographers, 11 : 47.
14 — Semple, E.C.,1922, «The influence of geographic conditions upon ancient Mediterranean stock - raising», ibid. 12 : 3
15 — Deffontaines, P., 1948, Geographie et Religions. Paris: Gallimard, PP. 367 - 394.
16 — Isaac, E., 1959. «Influence of Religion on the spread of citrus», Science, 129 : 179.
17 — Simoons. F.J. 1961. Eat not this Flesh. Madison: University of Wisconein.
18 — Jeffreys, M.D.W., 1967, «Pre- Columbian Maize in South-Africa», Nature, 215 : 695.
19 — Lea, D., 1969, Some non - nutritive functions of food in New Guinea, in: Settlement and Encounter. Geographical Studies presented to Sir Grenfell Price, P.P. 173 -184. New York : Oxford University Press
20 — Anderson, R.K., Calvo, J., Serrano, G., and Payne, G.C., 1946, «A study of the nutritional status and food habits of Otomi Indians in the Mezquital valley of Mexico», Amer. J. Publ. Health, 36: 883.
21 — Morcos, S. R., S.M. Hegazi and S.T, El- Damhougy, 1973, «Fermented Foods of common use in Egypt., II - The chemical composition of bouza and its ingredients», J. Sci. Food Agric. 24, 1157 - 1161.
22 — Budge, E.A.T.W, 1960, The book of the Dead, P. 336. New York: University Books.
23 — Isis and Osiris, 353 : 8 : F; 354 : 8 : A

24 — Frazer J ; G. 1959. The New Golden Bough. p. 450. New York : New American Library

٢٥ - أحمد بدوى ومحمد خفاجة ، ١٩٦٦ . هيرودوت يتحدث عن مصر ، ص ١٣٦ . القاهرة : دار القلم .

26 — Erman, A., 1934 Die Religion der Aegypter, P. 33. Berlin : Walter de Gruyter.

27 — Isis and Osiris, 363 : 31; B

28 — Faulkner, R.O.; 1968. «The pregnancy of Isis», Jour. Eg. Archaeology, 54, 40:44

٢٩ - أحمد بدوى[٢٥] ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

30 — Isis and Osiris, 362: 29 : B-D

31 — Isis and Osiris, 364:33:C

32 — Aelian, 11:11, 1958-1959, On the Characteristics of Animals Cambridge : Harvard University Press

33 — Breasted J. H, 1906 Ancient Records of Egypt, 2 : 833, Chicago University Press

34 — Isis and Osiris, 358:18 B

35 — Hunt, A.S and Edgar, C.C, 1934, Select Papyri, 2:329. New York :Putnam's sons.

36 — Erman, A., 1966, The Ancient Egyptians. A Source book of their Writings, p. 70; New York : Harper and Row

37 — Erman,[36], p. 86

38 — Erman[36] PP 88 -89

39 — Breasted[33] 4 : 882.

40 — Athenaeus, Deipnosophists, 7 : 325F, 326A

٤١ - الطب النبوى ، ١٩٦١ ، ص ١٠ .

٤٢ - القانون ، الكتاب الأول ، التعليم الثانى ، الفصل السابع .

٤٣ - القانون ، الكتاب الثانى ، الأدوية المفردة ، السمك .

٤٤ - القانون ، الكتاب الخامس : المقالة الثانية من الجملة الثانية .

45 — Siegel R., 1970. Galen. On Sense Perception, p. 183. Basel: Krager.

46 — Lucretius, De rerum naturae. 4:639,640; Pliny; Natural History, 10:33

47 —Caton-Thompson, G. and Gardner, E.W. ; 1952. The Desert Fayum, PP. 25.34. London: Athlone Press

48 — Hayes, W.C. 1964, Most Ancient Egypt, P. 71; Chicago : Chicago University, Press.

49 — Junker, H. 1929, Vorlaüfiger Berichte... Merimde Beni-Salama. Akad. d. Wiss. Wien. Phil-Hist. Klasse. 218

50 — Budge, E.A.T.W.,[22] ch. 125:47, pp. 595,596

51 — Breasted[33] V : 4 151,412.

٥٢ - أحمد بدوى[٢٥] ص ١٤٤ .

53 — Graves, R., 1955, The Greek Myths, 2,141 h. Baltimore: The Penguin Books.

54 — Sonnini, C.S. 1799, Travels in Uppet and Lower Egypt, 3:254 London: Stockdale

55 — Gauthier, H., 1911, Le Temple de Kalabchah, 1, 1913; Le Caire: Service des Antiquités

56 — Ruffer, M.A., 1919, Food in Egypt. Mém. Inst. Eg., Cairo, I, 1-88.

57 — Petrie, W.M.F., 1914, Amulets..., London: Constable.

58 — petrie, W.M.F. 1892, Medum London: David Nutt.

59 — Erman, A.[36]. p. 99

60 — Gardiner, A.H., 1923, The Eloquent Peasant, J.Eg. Archaeol., 9: 5-25.

61 — Erman[36], p. 53

62 — Sethe, K., 1906, Urkunde der 18. Dynastie, 4:75:1, Leipzig: Hinrichs

63 — Graves[53], 2, 141 : 3

64 — Frazer[24], p. 451

65 — Thesiger, W., 1964, The Marsh Arabs, ch. 3, Penguin.

66 — Sextus Empiricus, Outlines of Pyrrhonism, 1933,3 : 220 New York : Putnam's Sons
67 — Isis and Osiris, 353 : 5.
68 — Hunt, A.S, and Edgar, C.C[35] Vol 2,210
69 — Athenaeus 10,4 : 150.
70 — Diodorus Siculus, 1933-1962. Library of History, 12 vols., New York : C.B. : Putnam's Sons
71 — Butzer, K.W., 1960, Archaeology and Geology in Ancient Egypt, Science, 132 : 3440 :1617-1624
72 — Reekmans, T., 1966, La Sitométrie dans les Archives de Zenon, Bruxelles: Fond. Egyptol. Reine Elisabeth.
73 — Breasted, [33], III, 207 - 208,
74 — Pyramid Texts, 16 d- 115 c
75 — Lefebvre, G., 1949, Romans et contes Egyptiens de l'Epoque pharaonique, pp. 74-80 Paris : Adrien - Maisonneuve
76 — Isis and Osiris, 6 : 353.
77 — Rüffer,1921.Studies in the palaeopathology of Egypt Chicago - Chicago University Press
78 — Elliott - Smith, G. and Dawson, W., 1924, Egyptian Mummies, London : George Allan and Unwin
79 — Long, A.R., 1931, «Historical Review. Cardiovascular renal disease, Report of a case of three thousand years ago». Archives of pathology, Chicago : 12: 92-94
80 — Gray, P.H K., 1966, « Radiological Aspects of the mummies of Ancient Egyptians in the Rijksmuseum van oudheden, Leiden», Oudheidkidge Mededlungen, 47: 1- 29
81 — Gray, P. H. K, 1927, Radiography of Ancient Egyptian Mummies, Medical Radiography and photography, 43 : 34;44
82 — Harris, J.E. and K. Weeks, 1973, X - Raying the Pharaos, New York; Scribner
83 — Moodie, R.L., 1931, Roentgen studies of Egyptian and Peruvian Mummies, Chicago Field Museum of Natural History Vol. III.
84 — Sandison, A.T., 1962, «Degenerative Vascular Disease in an Egyptian Mummy», Medical History, 6 : 77-81

85 — Petrie . W.M.F. 1925, «The Cultivators and Their Land», Ancient Egypt, 4:105 - 110

86 — Drioton, E., 1943, «Une representation de la famine sur un bas-relief Egyptien de la Ve Dynastie,» Bull. Inst. d'Egypte, 25 : 45-54.

87 — Waslien, C.I ., Z. Farid and W. J. Darby, 1973, «The Malnutrition of Parasitism in Egypt», Southern Med. Journal, 66:47 - 50

88 — Jonckheere, F., 1944, Une Maladie Egyptienne, Bruxelles : Fond. Egyptol. Reine Elisabeth.

89 — Scheuthauer, G , 1881, Virchow's Archiv, 85: 343

90 — Grapow, H. and H. von Deines, 1958, Grundriss der Medizin der Alter Aegypter, IV, II, Berlin:Akademie Verlag.

91 — Ghalioungui, P. 1962, Z.f. Aeg. Spr. u. Altertumsk., 87, II, 108 - 114.

92 — Sonnini, C.S., 1799, Travels in Upper and Lower Egypt, London: Stockdale.

93 — Pruner, F., Die Krankheiten des Orients von Standpunkte der vergleichenden Nosologie, Erlanger: J.J. Palm and E. Enke

94 — Dolbey, R.V. and M. Omer, 1924, «A Note Concerning the Incidence of Goitre in Egypt. An Analysis of 216 cases». The Lancet, 11,549-550

95 — Ibrahim, A, (Pacha), 1932, «Endemic Goitre in Dakhla Oasis of Egypt». J. Eg. Med. Assoc., 15:401 -404.

96 — Iason, A.F., 1946, «The Thyroid Gland in Medical History, New York : Froben.

٩٧ – الحضارة الطبية فى مصر القديمة ، د . بول غليونجى و ز . الدواخلى ، ١٩٦٥ ، لجنة النشر والتأليف والترجمة .

٩٨ – د . عبد الحميد زايد : نظرات عابرة فى العلاقات بين لغات الشرق الأدنى القديم ، عالم الفكر المجلد الثانى ، العدد الثالث ، ص ٢٢٦ .

99 — Graves [53] 155 A

100 — Davis J.D. 1965 Dictionary of the Bible, 1965, Revell & Westwood, p. : 133

١٠١ - فى صدد انتقال الفلسفة والأدب من المصريين إلى العبرانيين انظر :

Paul Humbert, «1929 Recherches sur les Sources égyptiennés de la littérature sapientiale d' Israel» Mém. de l'Univ. de Neuchâtel, t. VII .

Raymond Weill 1950 «Les transmission littéraires d'Egypte à Israel», Rev. d'Egyptol. Cahier Complémentaire, p. 43

102 — Michailidis, G., 1962, Bull. Soc. Archéol. Copte, XVI, 19,

103 — Sonnini [54] III, pp. 255,256

104 — Davies, G.H. 1967, Exodus, p. 189, London : S.C.M Press

105 — Cohen, A., 1971, Everyman's Talmud, p XVII, London : Dent & Sons

١٠٦ - صحيح البخارى ، طبعة الشعب ، القاهرة .

١٠٧ - المقريزى[٩] : ٢ : ٣٤٩ .

108 — Defradas, Plutarque, Le Banquet des Sept Sages, Paris, 1954, p. 44; and Sauneron, S., «Remarques de Philologie et d' Etymologie», 1966, Bull. Inst. Fr d'Archéol. Or., LXIV, p. I

109 — Pauly - Wissowa, 1921, Reallexikon.., P.950. Stuttgart: Metzler.

110 — Unvala, J. M, n.d, King Husrav and his Boy, Paris: Geuthner

111 — Blond, G. and Blond, G., 1960, Histoire Pittoresque de Notre Alimentation, P. 162, Paris : Fayard

112 — Montagné, P., 1961, Larousse Gastronomique, p. 350, New York: Crown Publications

113 — Langkavel, B., 1899 - 1900. «Dogs and Savages», pp. 651- 675 Ann. Rep. Regent Smithsonian, Wash. D.C.

114 — Pliny, Natural History, XXIX : 14

115 — Simoons [17]

116 — Isis and Osiris 380, 72, B-c

117 — Lewicki, T., 1974, West African Food in the Middle Ages..., pp.19, 98, 99, Cambridge: University Press.

118 — Bodenheimer, F.S, 1951 Insects and Human Food. The Hague : Junk.

119 — Hayes

120 — Holt, V.M., 1885, Why not Eat Insects, Reprinted 1978. Faringdon. Oxon: E.W Classey
121 — Strabo, Geography, 16.: 4 : 12
122 — Hertz, H., 1976, Pentateuch and Haftorahs, 2nd ed., p. 451 London: Sonsino press.
123 — Ghalioungui, P. , 1969, «Ancient Remedies and Mediaeval Arabic Writers, Bull. Inst, Fr. Archéol. Or., LXVIII, 41-46
124 — Athenaeus[10], 4, 150- A
125 — Simoons[17], p. 72
126 — Erman[36], P. 9
127 — Freud, S., 1947, Leonardo daVinci, New York: Vintage Books.
128 — Darby, W. J., Ghalioungui, P. and Grivetti, L., 1977 Food: The Gift of Osiris, p. 771. London:Academic Press.
129 — Simoons[17], p. 48.
130 — Simoons[17] p. 109
131 — Pliny, 18 : 30 : 118
132 — Diodorus[70], 1 : 89 : 4
133 — Loret, V. 1892, La Flore Pharaonique, p. 94, Paris: Ernest Leroux
134 — Juvenal, 1957, The Satires, in Juvenal and Persias, 15,10. London: Heinemann.
135 — Pliny[114], 19 : 32
136 — Isis and Osiris, 353:8

١٣٧ - القانون ، والكتاب الأول ، ص ٩٥ ، دار الفكر ، بيروت .
والكتاب الثانى فى الأدوية المفردة .

١٣٨ - ألبير زكى إسكندر ، ١٩٦١ ، كتاب المرشد أو الفصول للرازى ، مجلة مجمع المخطوطات العربية ، القاهرة ، جزء ٧ ، ١ جامعة الدول العربية بالقاهرة .

١٣٩ - الطب النبوى ، تأليف الحافظ أبى عبد الله محمد بن أحمد الذهبى ، ١٩٦١ ، القاهرة مطبعة مصطفى البابى الحلبى ص ١٠ و ١١ .

١٤٠ - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، كتاب البخلاء : ١٣٢٥ هـ ، ص ٢٢٠ القاهرة ، المطبعة الخيرية .

١٤١ - عبد اللطيف البغدادى ، كتاب الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر. لندن : جورج ألن وأنوين ، ١٩٦٤ ، ص ١٩٤ - ١٩٦ .

١٤٢ - الشيخ يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر الشربينى : هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف ، المكتبة المحمودية ، القاهرة ، ميدان جامع الأزهر الشريف .

١٤٣ - أحمد أمين ، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، ١٩٥٤ ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ص ١١ .

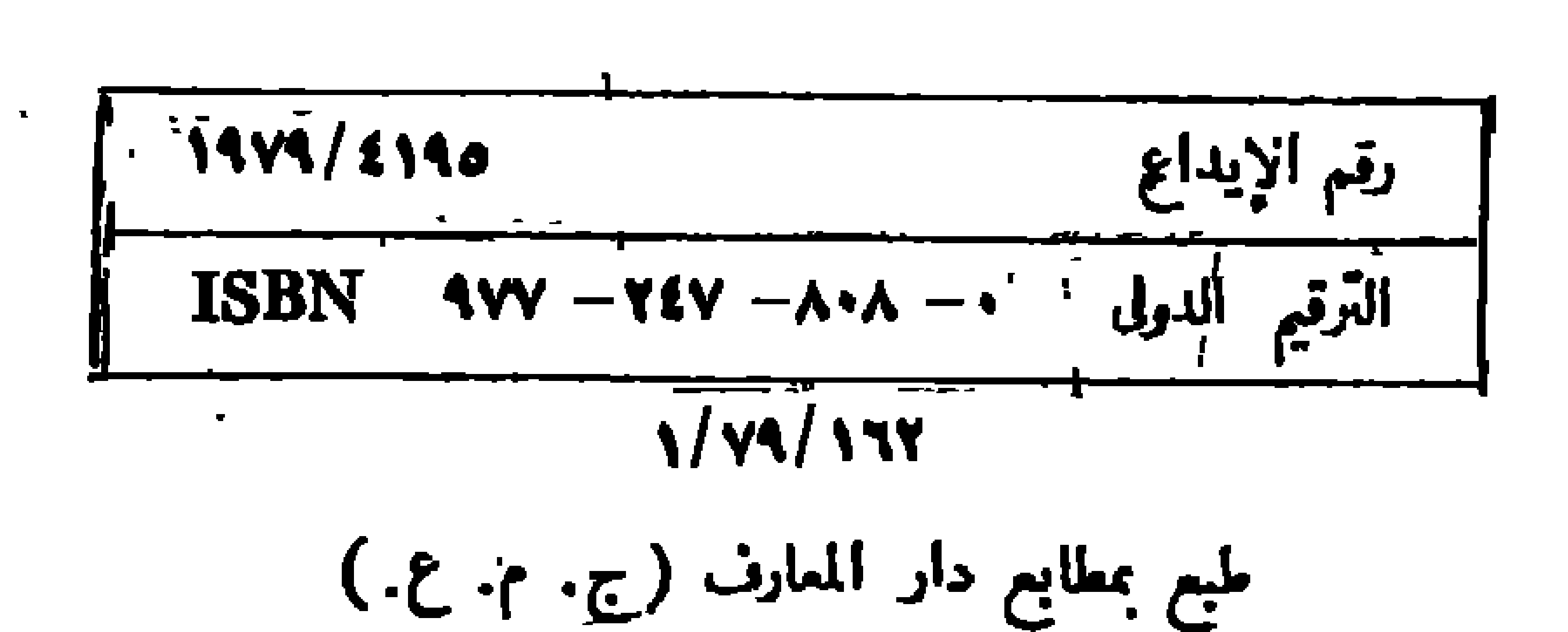
144 — Rodinson, M., 1950, Recherches sur les documents arabes relatifs á la cuisine, Paris: Geuthner.

145 — Sbath, R.P. 1933, «Le livre des Temps d'Ibn- Massawaih», Bull. Inst. d'Egypte, XV, 235 - 237

146 — Regimen Sanitatis Salerni, J. Harington, 1953, Rome: Edizione Saturnia.

147 — Leclerc, D.1929, Histoire de la Médecine Arabe, Amsterdam: Israel & co.

148 — Cervantes, M., 1947, Don quijote de la Mancha, II, ch. XLVII, pp. 774 - 776. Madrid: Castilla.

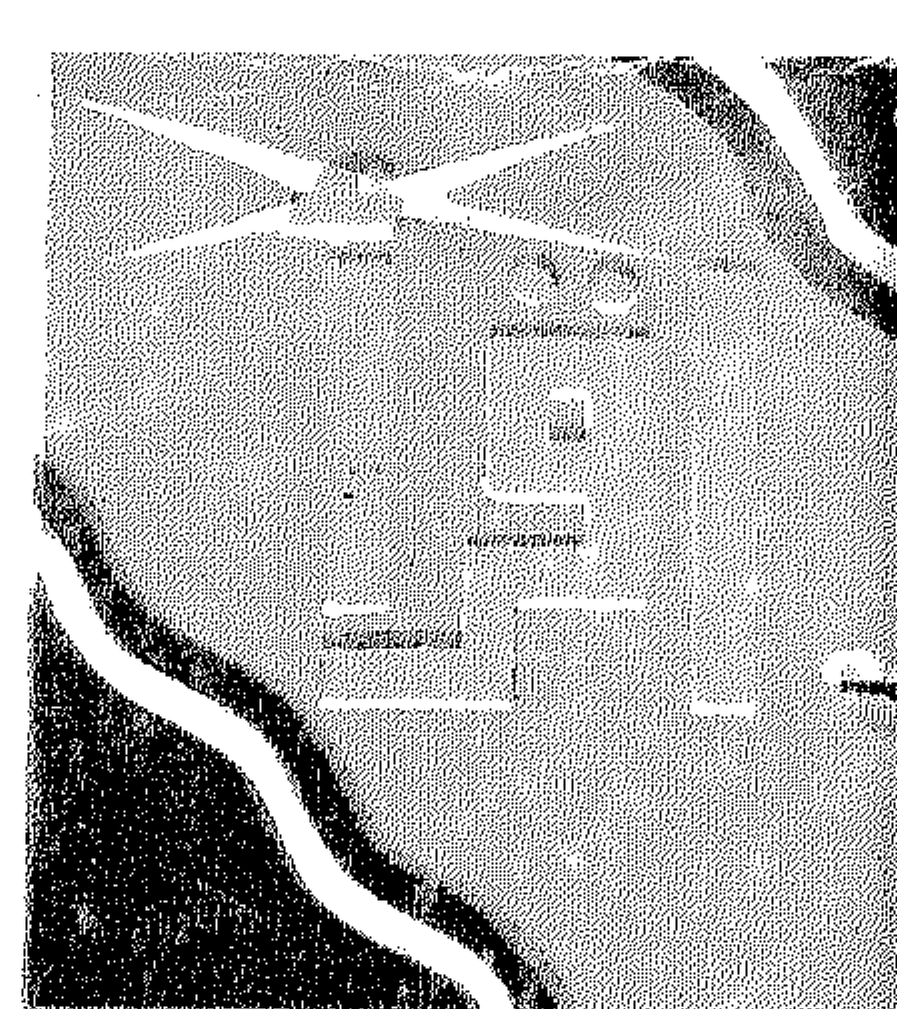


رقم الإيداع	١٩٧٩/٤١٩٥
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٨٠٨ - ٠

١/٧٩/١٦٢

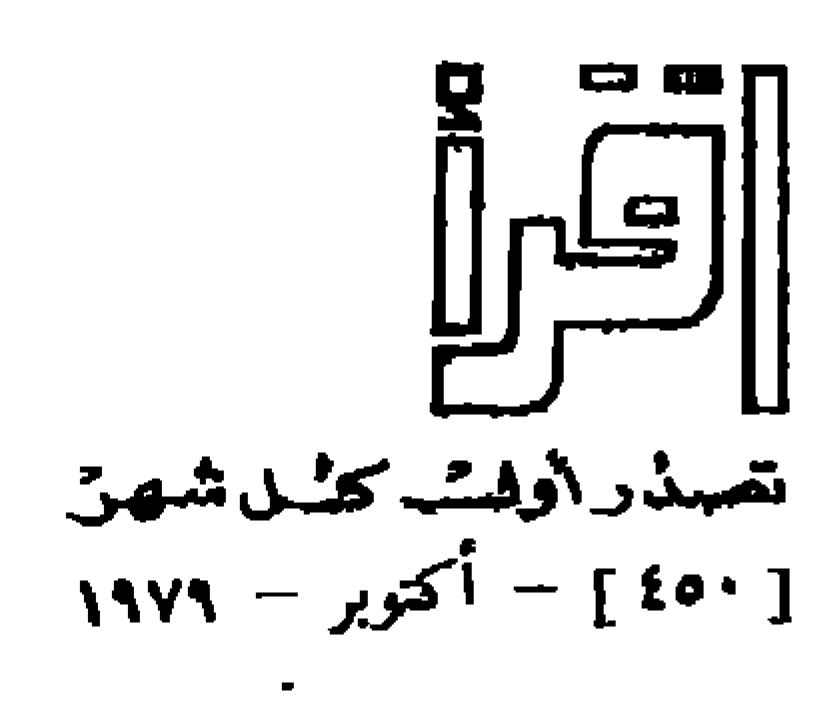
طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)





عبد المنعم شميس

شخصيّات في حياة شوقي



تصدر أول كل شهر

[٤٥٠] - أكتوبر - ١٩٧٩

رئيس التحرير أنيس منصور

عبد المنعم شميس

شخصيّات في حياة شوقي



دار المعارف

تصميم الغلاف : أحمد أبو عمر

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

شوقي شاعراً

(١٢٨٥ – ١٣٥١ هـ / ١٨٦٨ – ١٩٣٢ م)

لم يختلف الناس منذ نشوء الشعر العربي حتى اليوم ؛ كما اختلفوا حول المتنبي وشوقي ، وسيظل هذا الخلاف قائماً ، لأن هذين الشاعرين يمثلان العبقرية الحقيقية في شعر العرب ، ويعترف بذلك أحبابهما وحسادهما على السواء .

وقد اتهم نقاد كثيرون المتنبي بأنه سرق من شعر غيره ، ثم جاء من بعدهم نقاد اتهموا (شوقي) بأنه سرق من شعر المتنبي ، ولكن هؤلاء النقاد جميعاً لم ينظروا إلى معنى العبقرية في الشعر ، فكانوا يشرّحون الأبيات تشريحاً قاتلاً للوصول إلى معنى أو لفظ يجرحون به سمات العبقرية .

ومنذ قديم اخترع نقاد الأدب العربي باباً اسمه (السرقات الشعرية) ، ضموه إلى أبوابهم الثابتة في النقد التي اهتمت بأشعر بيت قالته العرب ، وأحسن بيت قالته العرب ، إلى غير ذلك من أشياء لا قيمة لها في موازين النقد بمفهومه الجمالي الفني .

وليس من هدفى أن أحدثك عن شىء من هذا ، لأننى لست ناقداً ، ولكننى أنظر إلى شوقى من جانب آخر ، هو التعريف ببعض ملامحه عن طريق الشخصيات التى أثرت فى حياته الشعرية ، وكان له ارتباط بها . وقد بحثت عن هذه الشخصيات ، وانصرف اهتمامى إلى بعضها مما أثر عن قريب أوبعيد فى حياة أمير الشعراء .

ولكن (شوقى) كان يعرف شخصيات لاحصر لها ، ومنهم مشهورون ، ومنهم مغمورون . وكانت حياته العامة والخاصة تحفل بالناس من أهل السياسة والصحافة والشعراء والفنانين والأدباء وغيرهم ، كما كانت له صداقات وعداوات ، وقد روى عنه معاصروه الروايات . وكان مؤثراً فى هؤلاء الناس ، ومتأثراً بهم .

وقد تسألنى : لماذا لم أجعل (محمود سامى البارودى) واحداً من المؤثرين فى شوقى ؟ وأقول لك : إننى لم أحس بأثر للبارودى فى شاعرية شوقى ، وليس هذا القول من النقد الأدبى ، ولكنه إحساس لاعلاقة له بالنقد ، وقد عرف شوقى الشاعر الفارس (محمود سامى البارودى) . وكان جاره فى حلوان ، كما أن الشيخ المرصفى كان أستاذاً لهما ، ولكننى بعد أن طالعت شعر البارودى وشعر شوقى لم أشعر بوجود علاقة وجدانية بين الشاعرين ، ولم أجد بينهما صلة من ناحية التركيب الفنى للشعر مع أنهما أخذا من نبع واحد ، كما كانا كلاهما من رجال القصر ، فقد كان البارودى ياوراً لإسماعيل ، كما ولد شوقى بباب إسماعيل .

ويبدو لى أن صلة شوقى بالبارودى كانت صلة عابرة ، أوعلاقة احترام من شاعر شاب لفارس من فرسان الشعر العربى الحديث . كما أن البارودى كان مغضوباً عليه من القصر بعد عودته من المنفى ، على حين كان شوقى شاعر الأمير . ولم يكن فى الإمكان وجود انسجام عاطفى بينهما ؛ حتى لو كان بينهما احترام . وقد اضطر شوقى إلى إهانة (عرابى) بعد عودته من المنفى بقصيدة غريبة لاتتوافق هى ومزاج

شوقى وأخلاقه إرضاء لأميره ، فكيف تنسجم عواطفه وكبير من رجال الثورة العرابية مثل البارودى ؟

ولذلك لم أجعل البارودى من الشخصيات التى بحثت عنها فى حياة أمير الشعراء .

ومن الواضح أننى أتحدث عن الشخصيات المعاصرة لشوقى ، وهم الذين عرفهم وعرفوه ، ولاأتحدث عن الشعراء القدماء أوالأدباء القدامى الذين أثروا فى شوقى ، وكان أولهم المتنبى ، فقد صحب شوقى ديوان المتنبى معه حين سافر إلى فرنسا ، ولم يكن معه ديوان شعر غيره ، كما روى الأمير شكيب أرسلان .

هذا ماأردت أن أحدثك به فى البداية .

أما تاريخ نشأة شوقى فإنه يرويه لك بنفسه ، ويقول لك :

« سمعت أبى رحمه الله يرد أصلنا إلى الأكراد فالعرب ويقول : إن والده قدم هذه الديار يافعاً يحمل وصاة من أحمد باشا الجزار إلى والى مصر (محمد على باشا) ، وكان جدى وأنا حاملُ اسمه ولقبه يحسن كتابة العربية والتركية خطاً وإنشاء ، فأدخله الوالى فى معيته ، ثم تداولت الأيام وتعاقب الولاة الفخام وهو يتقلد المراتب العالية ، ويتقلب فى المناصب السامية إلى أن أقامه سعيد باشا أميناً للجمارك المصرية . فكانت وفاته فى هذا العمل عن ثروة راضية بددها أبى فى سكرة الشباب ، ثم عاش بعمله غير نادم ولامحروم ، وعشت فى ظله وأنا واحده أسمع بما كان من سعة رزقه ، ولاأرانى فى ضيق حتى أندب تلك السعة فكأنه رأى لى كما رأى لنفسه من قبل ألاَّ أقتات من فضلات الموتى ! »

ثم ذكر طرفاً من سيرة جده لوالدته[1] ، إلى أن قال عن نفسه :

---

(١) كانت جدته لوالدته يونانية من بلاد المورة . سباها إبراهيم باشا فى الحرب ، ثم أعتقها وزوجها (محمد بك حليم) أحد رجاله الأتراك ، وهو جد شوقى لوالدته .

أنا إذن عربي ، تركي ، يوناني ، جركسي ، بجدتي لأبي : أصول أربعة في فرع مجتمعة تكفله لها مصر كما كفلت أبويه من قبل إلى أن يقول :

« أما ولادتي فكانت بمصر القاهرة وأنا أحبو اليوم إلى الثلاثين : حدثني سيد ندماء هذا العصر المرحوم الشيخ (على الليثي) قال : لقيت أباك وأنت حمل لم يوضع بعد ، فقص عليّ حلما رآه في نومه ، فقلت له وأنا أمازحه : « ليولدنّ لك ولد يخرق كما تقول العامة خرقاً في الإسلام ! »

ثم اتفق أني عدت الشيخ في مرض الموت ، وكانت في يده نسخة من جريدة الأهرام فابتدر خطابي يقول : هذا تأويل رؤيا أبيك ياشوقي ، فوالله ما قالها قبل في الإسلام أحد : قلت : وما تلك يامولاي ؟ قال : قصيدتك في وصف « البال » التي تقول في مطلعها :

حف كأسها الحبب فهي فضة ذهب

وهاهي ذي في يدي أقرؤها ! فاستعذت بالله وقلت : الحمد لله الذي جعل هذه هي « الخرق » ولم يُضِرّ بالإسلام فتيلاً .

أخذتني جدتي لأمي من المهد ، وكانت منعمة موسرة ، فكفلتني لوالدي وكانت تحنو عليّ فوق حنوها ، وترى لي مخايل في البر مرجوة .

حدثتني أنها دخلت بي على الخديو إسماعيل وأنا في الثالثة من عمري ، وكان بصري لاينزل عن السماء من اختلال أعصابه ، فطلب الخديو بدرةً من الذهب ، ثم نثرها على البساط عند قدميّ ، فوقعت على الذهب أشتغل بجمعه واللعب به ، فقال لجدتي : إصنعي معه مثل هذا ، فإنه لايلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض ! قالت : هذا دواء لايخرج إلا من صيدليتك يا مولاي ! قال : جيئي إليّ به متى شئت ؛ إني آخر من ينثر الذهب في مصر ، ولايزال هذا الاختلال العصبي في الإبصار يعاودني وكان المرحوم الشيخ على الليثي كلما التقت عينه وعيني ينشد هذا

المصراع للمتنبى :

(محاجر مسك ركبت فوق زئبق)

ثم عرض لنشأته الدراسية فذكر أنه دخل مكتب الشيخ صالح فى الرابعة من عمره ، وأخيراً التحق بمدرسة الحقوق فوجد ممانعة من ناظرها بسبب صغر سنه ، ومكث بها سنتين ، ثم دخل قسم الترجمة وتخرج منه بعد سنتين .

قال : « وبينما أنا أتردد على المغفور له (على باشا مبارك) فى شأن ورد عليه مرسوم من المعيّة بطلبى إليها ، فكان سروره بذلك أضعاف سرورى بالنعمة المفاجئة . فذهبت إلى السراى وهنالك استؤذن لى على المرحوم الخديو توفيق باشا ؛ فلما مثلت بين يديه ولم أكن رأيته من قبل ، ولكن مدحته مراراً وأنا فى المدرسة خاطبنى بهذا اللفظ الشريف :

«قرأت يا شوقى فى الجريدة الرسمية أنك أعطيت الشهادة النهائية ، وكنت أنتظر ذلك لألحقك بمعيتى ، لكن ليس بها الآن محل خال ، فهل لك فى الانتظار ريثما يهيئ الله لك الخير؟ » . فاستلمت أذيال العزيز وقبلتها ثم قلت : حسبى يا مولاى أنك قد ذكرتنى من تلقاء نفسك الشريفة ، وأى خير يهيئ الله لعبدك أفضل من هذا ؟ فأطرق هنيهة وقال : قد سمعت أن أباك عطل من الخدمة فأبلغه أننى ربما أدخلته فى عمل قبلك ، ثم تهلل وأذن لى فى الانصراف .

لبثت فى المعية بضعة أشهر أنتظر فرجاً يأتى به الله ، وكان المرحوم (على باشا مبارك) لم يقطع عنى الراتب إلى أن كان يوم كثر غيمه وتثاقل مطره ، فخرجت قبيل الأصيل فى حاجة لى على حمار أبيض كان لوالدى ، وبينما أنا عائد إلى منزلى أجتاز ميدان عابدين بصرت بالعزيز فى بهو السراى يشرف منه ، فنزلت عن الدابة أمشى كرامة للمليك المطلّ ، وأمرت الخادم أن يبتعد بها وأن يلاقينى خلف القصر ، ثم مشيت على الأقدام حتى إذا انتهيت من الميدان اعترضنى رسول من

الأمير يدعونى إليه ، فوافيت حضرته وأنا لاأعرف السبب ، وكان معه ساعتئذ المرحوم (عبد الرحمن باشا رشدى) فتحلى الحلم بصورة الغضب وقال : أليس لى أن أطل من بيتى حتى نزلت عن حمارك وألجأتنى إلى الانثناء؟ قلت : عفواً يامولاى ! هكذا أدبنا الأوائل حيث يقول شاعرهم :

وإذا المطىّ بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام

فتبسم ضاحكاً ثم قال : إنكم معشر الشعراء تتفاءلون بالغيوم ، وهذا اليوم من أيامكم ، فاسمع للباشا فإن عنده لك فألاً ، فالتفت الباشا عندئذ إلىّ وقال : الآن أمرنى أفندينا أن أبلغك تعيين أبيك مفتشاً فى الخاصة الخديوية ، وأما أنت فتعين بعد شهر . ثم مد العزيز إلى يده فقبلتها واجماً ، قد غلب علىّ السرور حتى أنسانى الشعر وكان ذلك وقته » .

ثم عرض شوقى لأول عهده فى وظيفته بالمعية السنية ، وكيف أراد له الخديو توفيق أن يدرس فى أوربا الآداب الفرنسية ، والحقوق وكان ينقد ستة عشر جنيهاً نصفها من الخاصة ونصفها من المعية ، وأعطاه يوم سفره مائة جنيه بعث بنصفها إلى مدير الإرسالية ليهيئ له جميع مايحتاج إليه ، ووصف ركوبه البحر لأول مرة إلى مارسيليا على أن يقضى عامين فى مدينة «مونبلييه» وعامين فى « باريس » .

ولما انقضت السنة الأولى التمس من الخديو توفيق أن يأذن له فى الحضور إلى مصر ، فأبى عليه أمنيته وأوصاه أن يبقى أربع سنوات كاملة فى أوربا ، وأرسل إليه خمسين جنيهاً لينفقها فى رحلة يختارها إلى أى بلد سوى مصر ، فتقبل دعوة رفاقه الفرنسيين إلى مدنهم المتفرقة فى الجنوب وقضى فيها شهرين ، ووصف ما رأى فى هذه الأقاليم الفرنسية من كرم ضيافة ، إلى أن يقول وصفاً للفلاح الفرنسى :

« وعرفت الفلاح الفرنسى فى داره ، وكنت ألقاه فى مزرعته وأماشيه فى الأسواق ، فيخيل إلى أنه قد خلف العرب على قرى الضيف وإكرام الجار ، وكان

أعجب مارأيت مدينة « كركسون » : وجدتها قسمين ، وألفيت القوم عليها صنفين : فمنهم الباقون إلى اليوم كما كان آباؤهم عليه فى القرون الوسطى ، بناؤهم ذلك البناء ، ولباسهم ذلك اللباس ، وعاداتهم وأخلاقهم تلك العادات والأخلاق » .

وبعد انتهائه من السنة الثانية سافر فى صحبة الطلاب المصريين ومدير الإرسالية إلى إنجلترا على نفقة الخديو توفيق ومكث فى إنجلترا شهراً ، ولم يلبث هو وإخوانه أن سئموها . وفى السنة الثالثة أصيب بمرض شديد كان فيه بين الحياة والموت ، وأشار عليه الأطباء أن يقضى أياما تحت سماء أفريقية ، فوقع اختياره على الجزائر ، وكان دليله إليها أحد القضاة الفرنسيين الموظفين بها ، إلى أن يقول :

« أما جو الجزائر فلا يعدله بين الأجواء فى صحوه وطيب نسمته مع توقد شمسه إلا جنوب فرنسا ، ولم أتأثر فيها كتأثرى من رؤية المصريين فى القهاوى البلدية إذ أكثر أصحابها وغلمانها منهم ، إلى أن قال : ولاعيب فى الجزائر سوى أنها قد مسخت مسخاً ، فقد عهدت مساح الأحذية فيها يستنكف من النطق بالعربية ! وإذا خاطبته بها لم يجبك إلابالفرنسية ! » .

وبعد أن أقام شوقى فى الجزائر أربعين يوماً عاد إلى باريس وحصل على الشهادة النهائية ، ورأى الخديو عباس أن يبقى ستة أشهر أخرى ، وعاد إلى مصر بعد ذلك ، وفى سنة ١٨٩٤ م انتدب لينوب عن مصر فى مؤتمر المستشرقين الذى عقد فى جنيف بسويسرا ، فأقام بها شهراً ثم رحل إلى بلجيكا وزار المعرض الذى أقيم فى مدينة « أنفرس » ثم أصيب برمد فى عينيه ، فسافر إلى الآستانة ومكث بها أربعين يوماً .

ويروى كيف سمى ديوانه « الشوقيات » : فيذكر صلته وهو يطلب العلم فى باريس بالأمير شكيب أرسلان وقد تمنى عليه أن يرى مجموعة شعره وأن يسميها

« الشوقيات » إلى أن يقول :

«كانت وفاة والدى من نحو ثلاث سنوات ، فكان لى عجباً أن وجدت بين أوراقه شيئاً كثيراً لى من مشتت منظومى ومنثورى مانشر منها وما لم ينشر ، وقد كتب بعضه بالحبر وبعضه الآخر بالرصاص ، وكلٌ بخط يد المرحوم وقد لفه فى ورقة كتب عليها هذه العبارة : « هذا ماتيسر لى جمعه من أقوال ولدى أحمد وهو يطلب العلم فى أوربا ، فكنت كأنى أراه وأنى آمره أن يجمعه ثم ينشره للناس لأنه لايجد بعدى من يعتنى بشئونه ، وربما لم يوجد بعده من يعنى بالشعر والآداب » . فبينما أنا ذات يوم تعب بهذه الأوراق ، حيران لوصية الوالد كيف أجريها زارنى صديقى (مصطفى بك رفعت) ، فحدثته حديثى ، فسألنى أن أعيره الأوراق أياماً ، ثم يعيدها إلىّ ففعلت ، ثم لم يمض شهر حتى بعث بها إلىّ وإذا هى قد نسخت بقلم سليم يؤيده ذوق صحيح بحيث لم يبق إلا أن تدفع إلى الطابع ، فأخذتها وبودى لو وفيت صديقى المشار إليه حقه من شكر الصنع وأنا أقول فى نفسى : لئن صدق أبى فى الأولى لقد ظلم فى الثانية فإن الخير لايزال فى الناس».

وكان شوقى قد بلغ الثلاثين من عمره عندما كتب تاريخ نشأته .

ثم عاد شوقى من مؤتمر المستشرقين الذى ألقى فيه قصيدته الشهيرة التى سماها (كبار الحوادث فى وادى النيل) . ويقول فى مطلعها :

همّت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تُقل الرجاء

وهى رواية من الروايات الخالدة لتاريخ مصر منذ الفراعنة إلى عهد أبناء (محمد على) .

وعينه الخديو عباس حلمى شاعره الخاص ، ورئيساً للقسم الإفرنجى بقصر عابدين ، وكان له من النفوذ والدالة ما استرعى إليه أنظار ذوى الحاجات ، ولاسيما طلاب الرتب والأوسمة ، فكان لايرد طلباً ، ولايخيب فى سؤال ، فأفاد بذلك ثروة

حسنة . وكان قد تزوج وهو فتى فى منتصف العقد الثالث . فحملت إليه زوجته ثروة ضخمة عن أبيها ، فأصبح من كبار الموسرين .

ولما نشبت الحرب العالمية الأولى خلعت بريطانيا الخديو عباس حلمى ، وعينت السلطان (حسين كامل) سلطاناً على مصر ، وأبعدت شاعر الأمير عن مصر ، فأقام بالأندلس ، واتخذ برشلونة له سكناً .

يقول ولده (حسين شوقى) الذى صحبه مع أخيه على ، فى منفاه إلى الأندلس ، وهو يصف هذه الفترة من حياة شوقى :

«عندما أعلنت الحرب الكبرى كنا مع والدى فى تركيا ، فبرحناها على الفور عائدين إلى مصر إذ إن الإشاعات وقتئذ فى الآستانة كانت تدل على أن تركيا سوف تدخل فى الملحمة . . ولكن الحال كان قد تبدل فى مصر ، وكذلك نظام الحكم ، فصار يخشى لقاء والدى أصدقاؤه الذين كانوا بالأمس – فى أيام بأسه – لا يتركون له ساعة للراحة من كثرة طلباتهم وحاجاتهم حتى اضطر فى أواخر أيام حكم سمو الخديو السابق إلى أن يفتح لنفسه غير الباب العمومى باباً صغيراً متوارياً فى الحديقة ليفر منه ! وقد ذكر لنا أن صديقاً حميماً له شهده – بعد عودته من الآستانة – سائراً فى الطريق ، فانتقل هذا الصديق إلى الرصيف المقابل ، حتى لا يتهم بمصافحته أحد رجال النظام القديم ، لذلك كم قابل والدى بارتياح حكم السلطة العسكرية فى ذلك الوقت حينما كلفته مغادرة مصر لينجو من الدسائس ، ولا يتألم بمثل هذه المشاهد ، وهو الشاعر الشديد التأثر والإحساس» .

وعاد شوقى إلى مصر فى أواخر سنة ١٩١٩ ، وقد تغير سكان قصر عابدين ، فابتعد عنه ، وانصرف إلى العمل المنتج العظيم ، ولم تفتر همته على كبر السن ، وإيذان الشمس بالغروب .

وفى سنة ١٩٢٧ عُقد مهرجان لتكريمه فى دار الأوبرا ، فجاءت وفود الأدب

من جميع الأقطار العربية ، وبايعته بإمارة الشعر .

وعاش سنواته الأخيرة عيشة هادئة خصبة ، يتمتع بجاه عريض ، ومال وافر وشهرة طائرة ، حتى توفاه الله[1] فى اليوم الثالث عشر من أكتوبر سنة ١٩٣٢ .

استقبل شوقى يوم الخميس ١٣ أكتوبر سنة ١٩٣٢ كما كان يستقبل أمثاله من الأيام ، وما درى أن شمس هذا النهار لن تطلع عليه مرة أخرى إلا وهو فى جوار ربه ، وقد رآه أصدقاؤه كما كانوا يرونه فى أيامه السالفة نشيطاً حلو البادرة وإن كانت السنون والأحداث قد أعيته بأعبائها فبدا شاحباً كثير التحوط والتخوف . وقد تناول غذاءه ، واستراح متمددًا على كرسيه إلى وقت الأصيل ، فأقلته سيارته للتنزه على سنته وبرفقته وكيل أعماله وكاتب شعره الذى يلازمه فى السنتين الأخيرتين فى غدواته وروحاته . وقد طاب له ارتياد الأماكن الخلوية ، فمازالت السيارة تسير به إلى أن وصلت طريق السويس فى صحراء مصر الجديدة ، فرأى أن يترجل مستنشقاً للهواء الطلق .

وبعد أن قضى أربه من النزهة عاد قاصداً منزل (إسماعيل شرين بك) كدأبه كل أمسية : إذ يسمر مع نخبة من كرام القوم فى مجلس أنيق ؛ وأكثر من كان يناقشه ويحاوره هناك . العالم المهذب (فؤاد سليم بك والسيد المفضال إسماعيل شرين بك) ، لكن مجلس السمر لم يكن منعقدا فى تلك الليلة ، فعاد « شوقى » راغبا فى تناول العشاء ، وهو منشرح الصدر ، منبسط النفس .

تعشى فى مطعم (سلستينو) على ماجرت عليه عادته أيضاً ، ثم رغب فى أن يتم بقية البرنامج الليلى الذى قلما يحيد عنه ليلة واحدة .

وبقية البرنامج الذى أخذ نفسه به زيارة دار « الجهاد » فلم ينقطع عنها ليلة واحدة مادام مقيماً فى القاهرة ، بل هو قد يكررها فى الليلة الواحدة . وهو لايفتأ

---

(١) جريدة الجهاد القاهرية ١٤ من أكتوبر ١٩٣٢ .

يجد راحة نفسه ساعة يجلس فى حجرة صاحب « الجهاد » ويتحدث إليه ، ثم يتناول قهوته وتُقِله سيارته فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، فيأوى إلى فراشه .

وصل دار « الجهاد » حوالى الساعة العاشرة من مساء الخميس ، ولما رأى . . حجرة صاحب « الجهاد » تموج بالزائرين تلك الليلة رغب فى التحول إلى حجرة سكرتيرية التحرير فجلس هناك ، وفطن الأستاذ (توفيق دياب) صاحب « الجهاد » إلى جلوس « شوقى » فى الحجرة المجاورة فاستأذن من زواره ، وانتقل إلى حيث يجلس « شوقى » وجعل يحييه ، ويسأله عن صحته فيحمد الله عليها ، ثم بدا « لشوقى » أن يدخن سيجارة وأن يقدم أخرى لصاحب « الجهاد » وجلسا يدخنان . وحانت التفاتة من صاحب « الجهاد » فلمح « شوقى » يعالج سعلة خفيفة ، فاستفسر منه عن أسبابها ، ورجا أن تكون آثار برد أوتسرب هواء فأجابه « شوقى » إنى أشعر بآثار برد فى قصبة الرئة ، وقد يكون مسبباً عن تغيير الأجواء بين الفصلين ، ثم شرب القهوة ، ولم يبد على ملامحه ولا على قسماته شىء غير مألوف . انتهى حديث البرد ثم قال لصاحب « الجهاد » : لعلى أصيب دفئاً فى بيتى الآن فلأتأهب للذهاب . فودعه صاحب « الجهاد » كما يفعل كل ليلة . ولما أشرف على اعتلاء السيارة قال للسائق : رويدك فى السير فإن أمامك أربطة من الجنود فى منطقة الجيزة ، وقد شاهدت مايفعلون عند مغادرتنا للمنزل . وسارت به السيارة إلى ماينتظره بعد ساعات .

بلغ « شوقى » منزله الساعة الحادية عشرة ، وصعد إلى مخدعه ، وطفق خادمه الخاص يقوم بخدمته ويهيئ له حوائج الليل ثم أرخى عليه سدول الكلة ، وذهب لينام .

وماكاد الخادم يدخل فى النوم حتى سمع صلصلة الجرس يستدعيه إلى حجرة

سيده ، فقام مسرعاً ، وله عادة قد جرت على ذلك . فلما انتهى إلى حجرة النوم رآه مستيقظاً وكانت الساعة الثالثة أوتزيد فشكا بعض ضيق فى التنفس ، وطلب ماء ساخناً وورق كافور ، فبادر الخادم وأحضرهما . غير أن «شوقى» رأى هذه النوبة لاتعالج بعلاجه هو الذى يباشره «بنفسه» فطلب إلى الخادم استدعاء أحد الطبيبين اللذين يعالجانه دائماً (الدكتور برسكا ، والدكتور جلاد) فذهب الخادم يستدعى بالتليفون الدكتور «جلاد» ، ثم عاد إلى الحجرة ، فرأى سيده يطلب استدعاء أفراد الأسرة وإيقاظهم ، ليراهم تلك الساعة ، فصدع بالأمر ، ثم عاد إليه يخبره أن السيدة البارة قرينته ستحضر غير أن «شوقى» رأى الفترات الباقية تتلاحق ، وأن الحين وشيك ، فأراد ليقول الكلمة الأخيرة ولو لم يحضر أحد من أفراد أسرته ، قال لتابعه : «إنى أشعر بانتهاء أمرى فبلغ يا «أحمد» سلامى وتحيتى إلى أصدقائى ، وقل ذلك (لأحمد أفندى عبد الوهاب) فهو يعرفهم . وهنا حضرت السيدة قرينته فإذا هو يسلم الروح إلى بارئها . وقد حضر الطبيب ولكن لات حين علاج ، فقد حم القضاء ، وسكنت تلك الأنفاس التى كانت تروّح على الناس فى فترات الحياة كلما اشتدت نكباء الدنيا !

وشيعت جنازة أمير الشعراء فى جمع حاشد من الناس ، من داره كرمة ابن هانىء ، ولم تكن جنازة ضئيلة القدر قليلة الأفراد كما قال الدكتور (زكى مبارك) ، فقد نشرت الصور الفوتوغرافية للجنازة فى الصحف ، وقد حمل نعشه أعضاء «جمعية أبولو» ومنهم الدكتور (زكى مبارك) نفسه .

وقد رثاه على صدر جريدة الجهاد صاحبها الأستاذ (توفيق دياب) كما رثاه على صدر جريدة البلاغ صاحبها الأستاذ (عبد القادر حمزة باشا) .

وألقى الأدباء والشعراء كلمات وقصائد على قبره وقال الدكتور (إبراهيم ناجى) من قصيدته :

ماكنت إلاّ أمة ذهبت والعبقرية أمةُ الأمم
أو شعلة أبصارنا خلبت ومنارة نصبت على علم

وتولت وزارة المعارف تنظيم حفلة الأربعين لتأبين أمير الشعراء ، فدعت إليها البلاد العربية ، وجاء أهل الشعر والأدب من أقطار العرب كافة .

لم يوجد عند العرب شاعر أكثر إنتاجاً من شوقى ، وظل يقول الشعر حتى آخر أيام حياته ، بل إنه كان فى سنواته الأخيرة أعظم خصباً ، وأوفر شعراً ، وأعمق عبقرية .

وقد جمع شعر شوقى فى ديوان (الشوقيات) وهو أربعة أجزاء . ولكن الدكتور (محمد صبرى) اشتغل فترة طويلة فى جمع مالم ينشر من شعر شوقى ، وأصدر كتاب (الشوقيات المجهولة) فى جزأين ، وهو بذلك يكمل الشوقيات .

أما مسرحياته الشعرية المنشورة فهى : مصرع كليوباترة ، ومجنون ليلى ، وقمبيز ، وعلى بك الكبير .

وفى النثر له كتاب (دول العرب وعظماء الإسلام) ومعظمه أراجيز مزدوجات التزم فيها من القوافى مالا يلزم — على طريقة أبى العلاء — وهى تتحدث عن تاريخ الإسلام منذ عهدة النبوة حتى عهد الفاطميين .

وله أيضا فى النثر رواية (أمير الأندلس) وكتاب (أسواق الذهب) .

تناول شوقى فى أشعاره موضوعات كثيرة متعددة : فله شعر تاريخى وسياسى واجتماعى وإسلامى ، وله شعر فى الوصف والغزل والمدح والرثاء والحكمة والأخلاق ، كما أنه له شعر تعليمى إلى جانب الفن الذى ابتدعه فى الشعر العربى وهو المسرحيات الشعرية .

وقد صدرت كتب ودراسات ، وكتبت مقالات عن شوقى يصعب حصرها ؛ كما ترجمت بعض آثاره الشعرية إلى اللغات الأجنبية .

ومما يحسن ذكره أنه عندما أنشئ كرسى الأدب المصرى فى كلية الآداب بجامعة القاهرة أطلق عليه اسم كرسى (شوقى) ، تكريماً لأمير الشعراء .

وهذه الصفحات التى أقدمها إليك عن بعض الشخصيات فى حياة شوقى ليست إلاقراءة بين السطور ، أرجو أن تلقى ضوءا جديداً على حياة أمير الشعراء .

إن حياة العباقرة تظل وهجاً دائماً يضىء طريق الشعوب .. وأمير الشعراء وهج لاينطفئ ، ونور لايخبو ، وسيظل العرب يتغنون بشعره فى كل الأجيال .

عبد المنعم شميس

١ – الشيخ زكى سند

خلال رحلتى الطويلة مع الأدب كنت أحاول معرفة الخفايا والأسرار ، وقد نبهنى إلى هذا منذ بدايات حياتى أستاذى وشيخى (أمين الخولى) ، وكأنه كان يريد عودة عصر الرواية ، فيروى التلميذ عن شيخه ماسمعه منه . ولكن الشيخ (أمين الخولى) كان أكثر دقة وعلماً من سابقيه ، لأنه كان يوصينى دائماً بالتشكك فيما أسمع مهما كانت شخصية الذى أتحدث معه ، كما كان يردد كثيراً قول القدماء : إن المعاصرة صعبة : ومعنى ذلك أن المعاصر لايستطيع أن يحكم على عصره . وأحداث عصره ، ورجال عصره ، حكماً صحيحاً بعيداً عن الهوى .

وقد أخذ الأوربيون هذه الفكرة عن السلف العالم من المسلمين الذين تحرجوا من إصدار الأحكام على معاصريهم . وقالوا كلمتهم الناصعة : إن المعاصرة صعبة . وأنت ترى كيف يحفظ الإنجليز وغيرهم وثائق السياسة سنين عدداً ، حتى تتغير

الأحوال وتتبدل الأجيال ، ويأتى جيل جديد وعصر جديد يرى فى هذه الوثائق رأيا غير ما رآه السابقون .

ذات يوم أردت أن أعرف شيئاً عن حياة الشيخ (على الليثى) شاعر إسماعيل الخديو فقال لى الشيخ (أمين الخولى) : اذهب إلى السيد (على الببلاوى) نقيب الأشراف فى مصر ، فإنه من معاصرى الشيخ (على الليثى) ، وله به معرفة ، ولكن إياك أن تأخذ الكلام على علاته .

وقابلت السيد (على الببلاوى) مرات عديدة فى قصره بالحلمية الجديدة بالقاهرة ، واستمعت إليه ، وأخذت منه ، ولكن الصورة ظلت شاحبة باهتة ، فلم أعرف حقيقة الشيخ (على الليثى) وهو شاعر إسماعيل ونديمه وصفيه حتى اللحظة الأخيرة فى لحظات ملكه ، بل إنه هو الذى ودعه باكياً فى مقطوعته الشهيرة :

أنا أستحق اللى جرى ما حد غيرى اللى انظلمْ
طاوعت أسباب الهوى حتى غدا خصمى الحكمْ

وقد لحنها محمد عثمان فى قصر الجزيرة (فندق عمر الخيام بالزمالك) ، وغناها (عبده الحامولى) بين يدى الخديو المعزول ، فبكى إسماعيل وأبكى من حوله ، وهو يردد مع المغنى :

أنا أستحق اللى جرى .

فى حياة الشعراء خفايا وأسرار ، وقد ظل سر الشيخ (على الليثى) مسجوناً فى صندوق جمع فيه أوراقه ، ولعن من ينشرها ، ثم ضاع الصندوق ، وضاعت الأوراق ، ومازال صديقى (المهندس الزراعى أحمد عبد الجواد) سبط الشيخ على الليثى يغدنى بالصندوق الضائع حتى اليوم !

وذات يوم قدمت إلى إحدى السيدات قصيدة للشاعر إبراهيم ناجى مكتوبة على علبة سجائر ، وقد نشرتها فى مجلة الأدب التى أصدرتها بعد وفاة شيخى (أمين

الخولى) ، ثم انطفأ نور هذه المجلة وسط الزحمة والدخان الكثيف الذى أحرق الأدب ، وأطفأ أنواره .

كان (إبراهيم ناجى) يكتب قصائده على علب السجائر ، ويكتبها بأقلام الحواجب التى تستخدمها النساء إذا لم يجد معه قلماً ، وقد يكتبها بوسائل أخرى كثيرة لايعجز عنها الشاعر ، بل يتلذذ بها الشاعر .

ألم يكن شعر أبى نواس يكتب على عصائب الحسان ، وعلى المناديل ، وعلى غيرها من ثياب النساء فى عصره ؟

وقد روى الرواة أن أمير الشعراء كان يكتب بعض قصائده على علب السجائر ، وكانت علباً غليظة الورق ظهرها أبيض ، ويقال : إن شوقياً كان يجلس مع أصحابه ذات ليلة فى فندق سميراميس ، فهب واقفاً وتركهم ، ثم انطلق إلى كوبرى قصر النيل يتمشى ، وكتب على ظهر علبة السجائر :

من أى عهد فى القرى تتدفق ؟

وكان هذا المطلع هو مطلع حواره مع نهر النيل ، ثم كان مطلع قصيدته الرائعة عن النيل .

ولكن الدكتور (زكى مبارك) له رواية أخرى عن المناسبة التى دفعت أمير الشعراء إلى كتابة هذه الرائعة البديعة ، وسأحدثك عن ذلك عندما نأتى إلى سيرة (زكى مبارك) الذى قال : إنه حضر ولادة هذه الدرة الغالية .

المهم هو أن (شوقى) كتب القصيدة عند كوبرى قصر النيل أمام فندق سميراميس رحمه الله .

وكنا نجلس فى فندق سميراميس فى أثناء زهوة الدنيا وبريقها ولمعانها ، ونسهر حتى يوشك الديك أن يصيح ، ومعنا الشاعر المبدع (كامل الشناوى) ، وكفها بين كفيه ، وعيناها فى عينيه . . أعتذر اليك . . كان هو معنا ، ولم نكن نحن معه .

فهو صاحب الكلمة والضحكة والهمسة والنادرة . . وهو العاشق بلاعشق ، المحب للحب .

وكان (كامل الشناوى) يقول الشعر لنفسه مع نفسه . ولاتسمعه منه حتى يكتبه وحيداً بعيداً محلقاً . وهو شاعر مقل . ولكن قليله مثل الألماس النادر لاتجد له مثيلاً بين الجواهر .

آه ! لو عاش المتنبى معنا لحظة واحدة لغير مطلع قصيدته :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى .

وقال :

الحب والليل والأنداء تعرفنى .

كان الندى يسقط على الرءوس والكئوس ، حتى تهتز القلوب وتصحو النفوس مع صحوة الفجر .

والشعر ابن ليل .

ذات ليلة ، قلت : (لكامل الشناوى) : إن أبا نواس قال :

اسقنى حتى ترانى أحسب الديك حمارا

فأين حمارتك ؟

وكانت حمارته هى سيارته التى حملتنا معاً إلى المعادى ، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى القاهرة ، ليصطبح بوجه الصباح ، عندما تشرق الشمس ، فقد كان لاينام قبل أن يرى نور الصباح !

أسفاً على ذلك الزمان الذى كان يقال فيه شعر .

كنا نتنسم فيه روح شوقى وريح شوقى تهب علينا من الجيزة الفيحاء . . من كرمة ابن هانئ .

وقد قسم الله لى أن أولد وأنشأ فى الحى الذى ولد فيه شوقى ونشأ ، بل إن

والدى تعلم فى المدرسة التى تعلم فيها شوقى وهى مدرسة (الشيخ صالح أبى حديد) بحى عابدين . . وقد عرفت منذ طفولتى وصباى الأماكن التى سار فيها أمير الشعراء وسلكها ، حارة بعد حارة ، وشارعاً بعد شارع . بل إن والدى سلك طريق شوقى فى التعليم ، حتى مدرسة الحقوق . فارتبط الحب الأبوى والحب الشاعرى على غير قصد منى ولامعرفة .

وعندما كنت تلميذاً فى المدرسة الإبراهيمية الثانوية زاد عشقى لشوقى ، وحفظت روايته (مجنون ليلى) وقدمتها ومعى زميلى الإذاعى الشهير (عبد الوهاب يوسف) على مسرح المدرسة فى حفل ختام تخرجنا قبل أن نذهب إلى الجامعة . وكان (عبد الوهاب يوسف) هو بطل المسرحية . . وهو قيس . وقد لمع رحمه الله ، وكان له نبأ ، ثم انطفأ ، ولاحول ولاقوة إلا بالله .

وذات يوم قال قائل :

– إن الشيخ (زكى سند) هو الذى يكتب لشوقى أسعاره .

وكان الشيخ (زكى سند) يسكن فى حارة السقايين ، على بعد خطوات من دار شوقى فى حى الحنفى ، وكان مدرساً للغة العربية فى مدرسة الآباء اليسوعيين .

الشيخ (زكى سند) !

هل تهتز الصورة الجميلة الرائعة بسبب الشيخ (زكى سند) ؟

وكان معنا شاب مكفوف مفسود ممن حفظوا القرآن ، ولفظهم الأزهر ، فلم يصل إلى شىء فى العلم غير المهاترة والسباب ، وكان يقول : إنه أكثر علماً من (طه حسين) ، وأنصع بياناً ، وأقول قولاً وكلاماً ، وكان ينشر بعض كلامه فى جريدة (كوكب الشرق) التى أصدرها (حافظ عوض بك) السكرتير السابق للخديو عباس حلمى المخلوع ، ثم تولى رياسة تحريرها فيما بعد (طه حسين) .

أنا لاأذكر اسم هذا الشاب الذى خلع الجبة والعمامة ، وتزيا بزى طه حسين

ووضع على عينيه نظارة سوداء ، ولكنني أذكر أنه أشاع فى الحى بعد إشاعته عن نفسه بأنه أعظم من (طه حسين) أن الشيخ (زكى سند) هو الذى يكتب لشوقى أشعاره .

وعرفت أن هذا الشيخ (زكى سند) من حارة السقايين ، وكان لى فيها أهل ، وكان لجدى هناك بيت ، فأغرانى نزق الصبا أن أبحث عن بيت الشيخ (زكى سند) لأعرفه ، وأعرف حكايته ، فسألت ، وكان لى صاحب عجوز من أبناء الشراكسة ، ونحن من أبناء الفلاحين ، اسمه (حسن أفندى) وله بيت كبير فى حى الحنفى ، على مقربة من بيت والد أمير الشعراء ، وكان (حسن أفندى) رجلاً طروباً بالشعر والغناء ، فسألته عن بيت الشيخ (زكى سند) حتى أراه ، وأتحدث معه . فقال لى :

– لاتتعب نفسك ياولدى . . فقد مات الشيخ (زكى سند) من زمان . . وليس له بيت ، فقد كان يسكن بالأجرة عند امرأة تبيع البرتقال .

ودعانى نزق الشباب إلى البحث عن المرأة البائعة البرتقال ، فوجدتها على باب حارة السقايين ، وسألتها عن الشيخ (زكى سند) فقالت لى :

– تعيش إنت . . مات من زمان . . الله يرحمه ، ولكننى ظللت أبحث عن الشيخ (زكى سند) .

سألت صاحبى الأديب الذى نسيه الناس – وا أسفاه – الأستاذ (راشد رستم) . وهو واحد من العارفين بالسير والتواريخ ، وقد مضى رحمه الله ، ولم يقل لنا شيئاً مما نريد بعد أن أضربه الدهر كما يقولون ، ولكنه ظل أديب عصره . وفارس ميدانه فى الشعر والنثر ، ويكفى أنه ترجم بعض قصائد شوقى إلى الإنجليزية ونشرها فى لندن . كما ترجم قصائد أخرى لشعرائنا المحدثين . . هل تعلمون ؟

كان الأستاذ (أربرى) يقول : إن (راشد رستم) أقدر أدباء العرب على

ترجمة الشعر لأنه شاعر.

و (راشد رستم) من الأكابر الذين يشار إليهم ، وهو من كبار المثقفين المصريين فى العصر الحديث ، بل إنه واحد من الذين قال (محمود سامى البارودى) فى أمثالهم :

خلقت عيوفاً لاأرى لابن حرة   علىَّ يداً أغضى لها حين يغضب

وكان منهم (سعد زغلول) وقد تمثل بهذا البيت الشهير فى إحدى خطبه الرنانة .

أما الأستاذ (أربرى) فإنه كبير المستشرقين الإنجليز فى العصر الحديث ، وقد ترجم قطعة من (مجنون ليلى) لأمير الشعراء .

لقد نقد (أربرى) رواية (مجنون ليلى) من وجهة نظر المسرح ، وكأن النقاد عندنا ممن يبحثون عن الساقطة واللاقطة قد وجدوا ما يريدون ، فهاجموا (أحمد شوقى) بأقوال الناقد الإنجليزى ، ولم يفهموا وجه النقد ، ولاوجه الحقيقة .

شوقى شاعر وليس ممثلاً ، وشكسبير شاعر وممثل .

هذه هى القضية التى لايفهمها نقاد الأدب .

حاسب شوقى على شعره لا على تمثيله .

وحاسب شكسبير على شعره وتمثيله .

بعد بنا هذا الحديث عن الشيخ (زكى سند) الذى أبحث لك عنه ، ولكنه حديث قريب من الموضوع ، لأن الشيخ (زكى سند) ما كان له أن يكتب مسرحيات شعرية .

قال لى (راشد رستم) : إن الشيخ (زكى سند) كان من أساتذة شوقى فى اللغة والنحو ، وكان يسكن فى حارة السقايين على مقربة من بيت شوقى فى حى الحنفى بعابدين .

ثم أجاب (داود بركات) رئيس تحرير الأهرام فى اللحظات التى سطع فيها نجم شوقى وهو الذى سماه (أمير الشعراء) على السؤال الحائر . فقال (داود بركات) :

« كان (أحمد شوقى بك) يسكن داره فى حى الحنفى . والشيخ (زكى سند) مؤسس جماعة (مكارم الأخلاق) يسكن فى حارة السقايين . وكنت أسكن فى هذا الحى . فكنا متجاورين ، وكنا كل صباح نلتقى فى الطريق . فيذهب شوقى إلى سراى عابدين ، والشيخ زكى إلى مدرسة اليسوعيين للتدريس . وأذهب أنا إلى جريدة المحروسة ، فكان الكثيرون من الأزهريين الذين لايصدقون أن خريجاً من خريجى مدارس فرنسا (كأحمد شوقى) يستطيع قرض ذلك الشعر الراقى ، كقصيدته فى مدح الخديو توفيق :

لَكَ مصرُيجرى تحت عرشكَ نيلها ولك البلاد عريضها وطويلها

وكقصيدته فى مؤتمر جنيف :

همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء

وكلتا القصيدتين كان الطلبة يحفظونها . فكانوا يقولون : إن الشيخ (زكى سند) صديقه هو الذى يساعده فى نظم هذه القصائد ، لما يرونه بين الاثنين من الصداقة ، ولاجتماعهما كثيراً لأنهما من حى واحد ! » .

ولكن شخصية الشيخ (زكى سند) كانت من الشخصيات المؤثرة فى حياة شوقى برغم أننا لانعرف كثيراً عن هذا الشيخ الأزهرى الذى صاحب أمير الشعراء ، وصادقه ، وأحبه : وليس للشيخ (زكى سند) نشاط أدبى فى عصره ، ولم يعرف عنه أنه كان يقول الشعر أوينظم الشعر .

شيخ غامض مجهول ، لم يذكره شوقى فى ذكرياته ، أو عند أصدقائه . ولعله نسيه فيما نسى من ذكريات حى الحنفى الذى كوّنه وكون شاعريته الإسلامية .

وقد يكون الأمر على غير مانتصور : فإن (أحمد شوقى) عندما أحس بأن الناس يتهمون شاعريته ، ويعودون بها إلى الشيخ (زكى سند) أراد أن ينفى عن نفسه هذا الزعم الباطل ، فسكت عن ذكر الشيخ الذى تعلم منه اللغة والنحو والعروض والقوافى .

ولكن (شوقى) يقول :

– أستاذى الوحيد الذى أعد نفسى مديناً له هو (الشيخ حسين المرصفى) صاحب (الوسيلة الأدبية) وتتلمذت سنتين (لحفنى بك ناصف) . وهما أستاذاى حقيقة اللذان استفدت منهما .

فأين مكان الشيخ (زكى سند) فى حياة (أحمد شوقى) بعد هذا الكلام ؟

إن الشخصيات التى عاشت فى حياة أمير الشعراء كثيرة . . وسأحدثك عنها لترى معى كيف يعيش الشعراء ؟

٢ – شيخ العروبة أحمد زكى باشا

ارتبطت حياة شوقى خلال مراحل الدراسة من مدرسة الحقوق ، وخلال الوظيفة فى القصر وصديقه (أحمد زكي باشا) الذى اشتهر بلقب شيخ العروبة .

كان (أحمد زكى) سر تشريفاتى الخديو (عباس حلمى) ، ثم تولى منصب السكرتير الثانى لمجلس النظار (الوزراء) ، وفى عام ١٩٠٨ كان سكرتيراً للجامعة المصرية القديمة . وأستاذاً لحضارة الإسلام فى الجامعة . وقد اهتم بالأدب والدراسات الإسلامية .

يقول (أحمد شفيق باشا) رئيس الديوان الخديوى فى تلك الفترة ، ووكيل الجامعة المصرية القديمة بعد ذلك ، إن (أحمد زكى بك) مترجم أول مجلس النظار تشرف بمقابلة الجناب العالى يوم ٢٢ من مارس ١٨٩٢ وقدم لسموه كتاب (الرق فى الإسلام) الذى وضعه باللغة الفرنسية بعد أن ترجمه إلى اللغة العربية ،

وإن الخديو قابل هذا المجهود بالشكر والثناء ، فقد أثار الإنجليز حملة شديدة ضد الإسلام فى تلك الأيام لأغراض سياسية ، وأتخذوا من موضوع تجارة الرقيق وسيلة للدعاية حتى يثبتوا أقدامهم فى مصر ، واختلقوا قضية أثارت الرأى العام عندما اشترى اثنان من الباشوات بعض الجوارى سراً من تاجر رقيق ، وهما (أحمد المنشاوى باشا كبير أعيان طنطا ، ومحمد الشواربى باشا) كبير أعيان قليوب ، وقدم الاثنان للمحاكمة وصدرت ضدهما أحكام .

المهم هو أن (أحمد زكى) كان من الشخصيات اللامعة فى عصره ، وقد عرف بهوايته للأدب ، فكتب دراسة عن (ابن زيدون) شاعر الأندلس ، ويبدو أن (شوقى) كان هو الذى أوحى لصديقه بالاهتمام بدراسة أدب الأندلس عندما نفى (شوقى) إلى تلك البلاد . فقد استغرق (أحمد زكى) فى دراسته حتى إنه كتب رسالة لطيفة قال فيها : إن المعتمد بن عباد وقف يتلقى التهنئة بالعيد من مهنئيه ، فكان يرد على كل واحد منهم بعبارة (تختلف عن العبارة) التى قالها لغيره ، وأحصيت العبارات التى رد بها ابن عباد فى ذلك اليوم فكانت مائة عبارة ، وبعد ذلك عجز الذين تابعوه عن ملاحقته !

هذه هى شخصية (أحمد زكى) الذى نصب نفسه للدفاع عن العرب والعروبة ، وكان دائم الحديث عن أمجادهم ، ثم اتخذ لنفسه أسلوباً رصيناً يذكرك أساليب القدماء من البلغاء ، ولكن بغير زخارف ، وكان يحلو له إقامة حفلات على الطريقة البدوية ، حتى إنه أقام حفلا للكاتب اللبنانى المعروف (أمين الريحانى) عند زيارته لمصر ، وكانت من أعاجيب الحفلات ، حيث نصب خيمة عند سفح الأهرام ، وأعد الطعام على طريقة العرب الأصلاء ، وارتدى هو نفسه زيهم ، وأعد الجياد والجمال للنزهة حول الأهرام وهناك نطق (أمين الريحانى) بكلمته الذائعة :

أنا الشرق عندى فلسفات . . من يبيعنى بها طائرات ؟

وسأحدثك عن هذا الحديث بعد أن نتحدث معاً عن قصة شوقى مع (أحمد زكى) .

بدأت صلة (أحمد زكى) بأمير الشعراء عندما كانا طالبين بمدرسة الحقوق ، وقد التحق (أحمد زكى) بهذه المدرسة (١٨٨٣ م) وكان مقرها فى دار البدراوى شارع سوق الزلط بباب الشعرية ، ثم التحق بهذه المدرسة جيل من الوافدين سنة ١٨٨٥ بينهم فتى نحيف نحيل ، هزيل ضئيل ، قصير القامة ، وسيم الطلعة له عيون متألقة ولكنها متنقلة .

ووصف (أحمد زكى) زميله الجديد فى مدرسة الحقوق عندما رآه أول مرة فقال :

(إذا نظر للأرض دقيقة واحدة فللسماء منه دقائق متمادية ، وإذا تلفت صوب اليمين فلايلبث أن يرمى ببصره نحو الشمال ، وهو – مع هذه الحركات المتتابعة المتنافرة – هادئ ساكن وادع كأنما يتحدث بنفسه أويتلاغى مع عالم من الأرواح . ماكان يلابسنا فيما نأخذ فيه من اللهو والمرح ، ولايتهافت معنا على تلقف الكرة بعد الفراغ من تناول الطعام » .

هذه صورة مصغرة (لأحمد شوقى) عند أول عهدى به فى حياة المدرسة » .

وكانت هذه الصورة المصغرة هى بداية الشاعر الذى عرفه زميله فى الدراسة (أحمد زكى) .

قبل ذلك بدأت إشراقات الشعر العربى الجديد عند شاعر آخر يرتبط بالجنس والدم و (أحمد شوقى) وهو (محمود سامى البارودى باشا) الشركسى الذى حمل لواء الشعر الجديد فى عصره ثم سلم شعلة الشعر لشاعر آخر من الأرستقراط هو (إسماعيل باشا صبرى) . وجاء (أحمد شوقى) ليحمل الشعلة التى كان يحملها (هوميروس) شاعر اليونان الأكبر وصاحب (الإلياذة والأوديسا) وحمل معها

الشعلة الأخرى التي حملها أبوالطيب المتنبي :

والشعر فى حيث النفوس تلذه   لافى الجديد ولاالقديم العادى

كان ديوان المتنبي مع (أحمد شوقى) أينما ذهب وقد أخذه معه إلى باريس كما حدثنا الأمير شكيب أرسلان عندما جلسا معاً على قهوة من قهاوى الشانزليزيه ، وحدث بينهما أول تعارف .

ولكن علاقة أحمد زكى بأمير الشعراء تحددت فى مكانين هما : مدرسة الحقوق ، وقصر عابدين .

وقد وصف شيخ العروبة حكاية تعرفه أومعرفته بأحمد شوقى فى مدرسة الحقوق وصفاً كاملاً ، وقال :

« كان المرحوم الشيخ (محمد البسيونى البيبانى) من علماء الأزهر المعدودين . وقد آتاه الله بسطة فى الجسم والعلم فكان بديناً فطيناً ، وكان قصيراً فوق قصير لأنه كان طويلاً مكبراً ، لاتخطئه النكتة البارعة اللاذعة . وكان يدرس لنا فنون البلاغة من كتاب من تصنيفه هو « حسن الصنيع فى المعانى والبيان البديع » .

أما خارج المدرسة فكان متخصصاً ينظم القصائد فى مدح الخديو توفيق ، كلما حل موسم أو أطل عيد ، وكان إماماً له فى الصلوات ، إلا صلاة الفجر .

ما لبث أن رأى فى تلميذه شوقى بواكير العبقرية وبوادر المواهب الربانية ، فأنشأ الأستاذ يعرض قصائده على تلميذه قبل أن يرسلها إلى المعية السنية فإلى « جريدة الوقائع المصرية » وغيرها من الصحف العربية . وكان شوقى — ببساطة التلميذ الناشئ يشير بمحو هذه الكلمة — وتصحيح تلك القافية وحذف هذا البيت وتعديل ذياك الشطر .

والأستاذ يغتبط بقوله وينزل على رأيه .

وأحسن ما أذكره للأستاذ البسيونى — رحمة الله عليه — أنه كان يتحدث بذلك

إلينا وإلى الفرق المتقدمة علينا وفيها أصحاب السعادة (عثمان باشا مرتضى وأبو بكر يحيى باشا وعلى ثاقب باشا وشاكر بك أحمد) دون أن تأخذه العزة بالإثم وأن تغريه الكبرياء اللازم للمدرس بإنكار الفضل الذى منحه الله للدارس .

فهذه أول سعادة أحرزها شوقى .

على أن الأستاذ البسيونى تحدث بهذا النبوغ الباكر إلى صاحب العرش ، وأفهمه أن بين أثواب الصغير (أحمد شوقى) براعة نادرة وذكاء رائعاً ، وأنه خليق برعايته العالية ليكون زهرة يتضوع شذاها فى مشارق الأرض ومغاربها .

وكانت هذه الشهادة أكبر الأسباب التى حفزت الخديو (توفيق ١٨٨٧) إلى إرسال شوقى على نفقته الخاصة لإتمام الدراسة العلمية فى باريس ولتغذية مواهبه الغريزية بما يراه فى الغرب من روائع البدائع ، وقد تحققت له وفيه الآمال .

أما صلة شوقى بأحمد زكى داخل قصر عابدين فإنها تكاد تكون مجهولة ، ولم يتحدث شيخ العروبة عن حياة شوقى فى القصر ، مع أن شيخنا كان كثير الثرثرة ، وكان يحلو له دائما أن يتصدر المجالس ، ويكتب الكلمات ، ويروى عن نفسه وعن غيره الروايات ، كما كان يسافر دائماً فى معية الخديو (عباس حلمى) . ولكن (شوقى) لم يكن فى أذيال الخديو ولم يضع نفسه فى حاشيته مع أنه كان محسوباً عليه فى الحاشية .

كان شوقى شاعر الأمير ، وقد سبقه إلى هذا اللقب الشيخ (على الليثى) شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية أيام إسماعيل ، وسبقهما قبل ذلك الشيخ (محمد شهاب الدين) شاعر (محمد على) ثم شاعر (عباس الأول) . وقد أخطأ الذين كتبوا تاريخ الأدب المصرى الحديث عندما قالوا : إن الشاعر الرسمى لدولة محمد على هو السيد على الدرويش ، فإن الدرويش لم يظفر بهذا اللقب ، ولذلك ارتمى تحت أقدام (إبراهيم باشا) وحاول أن يصبح شاعره المداح ، ولكن إبراهيم كان مشغولاً

عن الشعر بالحرب .

ويبدو أن معرفة شوقى للشيخ على الليثى جعلته يحدد مكانه فى قصر عابدين . وقد ذكر شوقى أن المرحوم الشيخ (على الليثى) كان كلما التقت عيناه وعيناه ، أنشد قول المتنبى :

محاجر مسك ركبت فوق زئبق .

كما قال شوقى عن ذكرياته مع الشيخ على الليثى :

« حدثنى سيد ندماء هذا العصر الشيخ على الليثى قال : لقيت أباك وأنت حمل لم يوضع بعد ، فقص على حلما رآه فى نومه ، فقلت له وأنا أمازحه : ليولدن لك ولد يخرق – كما تقول العامة – خرقاً فى الإسلام .

ثم اتفق أنى عدت الشيخ فى مرض الموت ، وكانت فى يده نسخة من جريدة الأهرام ، فابتدر خطابى يقول : هذا تأويل رؤيا أبيك ياشوقى ، فوالله ماقالها قبل فى الإسلام أحد .

قلت : وما تلك يامولاى ؟

قال : قصيدتك فى وصف (البال) التى تقول فى مطلعها :

حف كأسها الحبب فهى فضة ذهب

وهاهى فى يدى أقرؤها فاستعذت بالله وقلت :

– الحمد لله الذى جعل هذه هى (الخرق) ولم يُضِرَّ بالإسلام فتيلاً .

وأنت ترى من هذا الحديث كيف عرف أمير الشعراء هذا الشاعر الذى كان يهز قصر عابدين هزاً فى حياة إسماعيل ؟ عندما كان شوقى طفلاً يحبو . فإن الشيخ (على الليثى) كان من الشخصيات الهامة والخطيرة فى عصره . وكانت تربطه بعلى بك شوقى والد أمير الشعراء صلة قوية . فقد كان على بك شوقى موظفاً فى القصر . ويبدو أنه كان من المعجبين بالشيخ على الليثى . حتى إنه كان يحدثه عن أحلامه .

ورأى شوقى كيف كان بعض الباشوات يعامل الشيخ (على الليثى) فى قصر عابدين حتى إنهم كتبوا على باب غرفته : « إنما نطعمكم لوجه الله » !

وقد أخطأ أحمد زكى باشا فى رواية هذه الحكاية عندما قال : إن الذى كتب هذه الكلمة هو (محمد عثمان جلال) مترجم روايات موليير . وصاحب الترجمة الرائعة (الشيخ متلوف) ؛ لأن (عثمان بك جلال) لم يشتغل يوماً واحدا فى حاشية إسماعيل أو فى قصر عابدين ، ولكن الذى كتب هذه الكلمات هو (مصطفى باشا العرب) الذى كان بحكم وظيفته فى القصر رئيساً للشيخ على الليثى ، وقد غاظه الشيخ وسخر منه ، وقال فيه قصيدة مطلعها :

الموت والجوع والإفلاس والجرب

ولا يكون رئيسى مصطفى العرب

وقد تعلم شوقى هذا الدرس ، ولم يسمح بأن يكتب على باب غرفته فى القصر :

– إنما نطعمكم لوجه الله .

كما فعلوا مع الشيخ على الليثى . وقد روى (عباس محمود العقاد) رواية أخرى عن معاملة باشوات القصر لشاعر القصر . وقال : إن (خيرى باشا) مهردار الخديو (أى حامل الأختام) هو الذى ضايق الشيخ الليثى حتى اضطره إلى تأليف مقطوعته اللطيفة :

عندنا طاحونة فى البلد

لكن تقيلة ع الحمار

دورت فيها البغل عصى

دورت فيها المهـــــر دار !

كما نسب وضع لافتة (إنما نطعمكم لوجه الله) على باب غرفة الشيخ إلى

خيرى باشا المهردار .

إن تاريخ الأدب المصرى الحديث ضائع للأسف . ولم يكتبه أحد حتى اليوم . بل إن معظم أحداثه لم تسجل ، لأن تاريخ مصر الحديث لم يسجل أيضاً ، وليس تاريخ الأدب إلا جزءاً من التاريخ العام .

لقد عمل شوقى فى ديوان المعية السنية كما يقول أحمد زكى الذى كان يقوم بوظيفة تشريفاتى ، وكان عباس حلمى لايتذوق الأدب العربى ، ولكن الظروف السياسية جعلته يهتم بهذا الأدب ، فظل شوقى يتدرج فى الصعود إلى مكانته حتى وصل إلى الذروة العليا ، بل إلى الغاية التى ليس وراءها غاية ، فأصبح من أقرب المقربين ، ومن أصحاب الكلمة المسموعة ، والرأى النافذ ، عند عباس .

وكانت علاقته بأحمد زكى هى علاقة الود والزمالة ، حتى إنه كان يتوسط عنده فى شئون بعض موظفى القصر ، وكان شوقى يلبى طلبات صديقه .

وعندما نفى أمير الشعراء إلى الأندلس وقعت حادثتان هامتان اشترك فيهما أحمد زكى :

وكانت الحادثة الأولى عندما أرسل إليه شوقى من منفاه يطلب بعض الكتب . وقد كتب أحمد زكى بقلمه يصف ما حدث ، وأتركه لك :

« من هناك كاتبنى شوقى يطلب كتباً يستعين بها على تعرف مجد الإسلام وفخر العروبة فى الأندلس . فبادرت وأرسلت إليه (نفح الطيب) و (المعجب بتلخيص أخبار المغرب) و (قلائد العقيان) وأيضاً . . كتاب رحلتى (السفر إلى المؤتمر) .

ماذا أقول عن دهشتى بعد أسبوع ؟ أعاد لى الرقيب العسكرى تلك الكتب ومعها كلمة فيها ملاحظة على أن هذا الصنيع من موظفٍ بالحكومة قد لايتسق لواجبات الوظيفة !

وبعد ذلك بيومين أوثلاثة جاءنى الصديق عديل شوقى بك وهو أحمد بك عمر

لأتوسل إلى المرحوم رشدى باشا حتى يسعى عند السلطة فى عدم إعادة المال الذى كان أرسله إلى شوقى ليعيش به فى بلاد الغربة . فكأنها كانت تريد أن يتكفف شاعر الشرق برغم ثروته الطائلة أو أن يموت هو وأولاده من الجوع فى بلاد الغرب ! وشاء ربك تكليل مساعى رشدى باشا بالنجاح . فأخذ أحمد بك عمر يبعث بشىء من مال شوقى فى منفاه ، ولكن فى أوقات معلومة وبمقادير محدودة .

لا أريد أن أتحدث هنا عما كان المرحوم السلطان حسين يوالينى به من أسباب الحفاوة والالتفات ، حتى إنه اختارنى بمثابة مستشار فنى لكريمته النبيغة صاحبة السمو سيدتى الأميرة قدرية هانم . لكننى أتحدث الآن عن أمر يخص (شوقى) فى أيام منفاه . . »

أما الحادثة الأخرى التى جرت داخل قصر عابدين بعد نفى شوقى بسبب قصيدته التى أرسلها إلى السلطان حسين كامل ، والتى صارح فيها السلطان بما كان موضوع التهامس بين كل اثنين يلتقيان فى مصر . وهى قصيدته المشهورة التى أشار فيها إلى الحال القائمة بقوله :

إن الرواية لم تتم فصولا .

وهى التى يقول فيها :

أأخون إسماعيل فى أبنائه ولقد ولدت بباب إسماعيلا؟

وكانت كلمة شوقى : إن الرواية لم تتم فصولاً : قد سارت فى مصر كما تسير النار فى الحطب ، وأصبحت من الأمثال السائرة . وأقلقت السلطة البريطانية التى أمرت بنفى شوقى من مصر .

وعندما كان شوقى فى المنفى وقعت الحادثة الأخرى التى يرويها أحمد زكى باشا ، وأتركه يحكيها بنفسه لك . .

فهو يقول :

« وكان السلطان حسين يدعو الذين استخلصهم لوده ، فرادى وجماعات ، لتناول الغداء معه من حين إلى حين فى سراى عابدين ، وحسبى أن أقول : إنه بعد الفراغ من الطعام تفضل فدعانى إلى تناول القهوة بالبهو الكبير ، فجلس فى الركن الشمالى الشرقى والمرحوم محمود شكرى باشا الكبير على يمينه ، وصاحب هذه الذكريات على يساره .

أخذ يتحدث عن النهضة العلمية وعن التطور فى الحركة الأدبية ، فاستعرض الزمن الذى حدث فى الصحافة وفى الأغانى القومية . ودار الكلام بنوع خاص على المرحوم إسماعيل صبرى باشا وعلى ما أوتى من الفتوح فى هذه الأبواب التى جعلته إمام الشعراء فى كل فن من فنون العهد القديم ، وفى كل مطلب من مطالب العصر الحديث .

ثم سألنى – رحمه الله – عن ترجمة كلمات كثيرة . ثم انتقل إلى الكلام عن طرافة الافتنان عند شعراء الإفرنج . وسألنى :

– أبين العرب الآن من فى قدرته أن يماشيهم مع هذه (العقلية) الجديدة وهذه (الذهنية) الحديثة ؟

فقلت : إن هذه المزية قد تفرقت فى كثير من شعراء العصر ، ولكنها اجتمعت كلها فى شوقى . .

وهنا ظهرت لى إشارة من المرحوم محمود شكرى باشا ، فتشجعت بها على المضى فى الكلام ، وقلت لمولانا السلطان :

– إن (شوقى) ممن تزدان بهم الدول . وإن مثله لو كان فى زمان الخلفاء لتخاطفته دمشق وبغداد وقرطبة .

فتكررت الغمزات من ناحية شكرى باشا . . بالموافقة والمطابقة .

فاندفعت أتغنى بمحاسن شوقى ، وبما أفاض على العروبة والإسلام من نفثاته

وبما منحه للشعر والأدب من نفحاته ، وأن هذه وهذه حسنات باقيات وآثارها خالدة . وهنا تزايدت الإشارة الرقيقة والدقيقة من المرحوم شكرى باشا . .

فعاودت الهجوم على الموضوع ولاسيما أنى آنست من السلطان مايشعر بالرضا والقبول ، فقد التزم الإطراق والإصغاء فى سكوت وسكون .

وهكذا تماديت حتى قلت كلمة فيها جرأة . شجعنى عليها ما رأيته من موقف السلطان ، فقد قلت مامعناه بالاختصار :

– أيصح أن تبقى مصر محرومة فى عهدك السعيد بلبلها الغريد ، وأن يرفرف هذا الطائر الغريد الوحيد بجناحيه على قرطبة وطليطلة وعلى إشبيلية وغرناطة ، بعد أن خرجت منها العروبة خروج الأرواح من الأبدان ، إن الذى تترمقه الثقافة العربية والقومية العربية من ابن إسماعيل ومولى النيل أن يعمل بالخطة الكريمة التى رسمتها أريحيته النبيلة لنفسه التى صاغها الله من الخير للخير ، فيعيد إلى القاهرة رونقها المجتمع فى ثوب شوقى .

وهنا تكررت الإشارة وتوالت الغمزات من محمود باشا شكرى . فأدركت أننى قد أكون تجاوزت الحد ؛ ولكن السلطان مازال مصغياً ، كأنه يطلب المزيد من الكلام ، وماذا عسيت أن أقول بعد أن قد استوعبت كل مافى الصدر ، بكل مايجيش بالخاطر ؟ فبقيت ساكناً منتظراً تحول الحديث إلى موضوع آخر من السلطان نفسه ، أو صدور إشارته بالانصراف .

وقضى ربك بالخلاص من هذا المأزق .

فبعد برهة قصيرة وقف السلطان ، فوقفنا ، ثم تقدمت فقبلت يده الكريمة وانصرفت .

وقابلت فى الردهة الصديق المفضال (أحمد بك حسان) . وفيما أنا أرفه عن نفسى بمحادثته ، وأتنفس الصعداء لخروجى من ذياك الموقف ، إذا بالمرحوم

شكرى باشا يهرول ورائى ، ثم طفق ينهال بتعنيفى على اندفاعى فى تقريظ شوقى برغم الإشارات المتوالية التى كان يبديها لى من حين إلى حين للتخفيف من غلوائى فى الحديث ، فلم يكن من سبيل للاعتذار سوى أن السلطان كان مصغياً تمام الإصغاء ، وأننى فهمت من إشارتك أنك راض عن صنيعى تمام الرضاء ، بل إنك قد تكون سبقتنى إلى تقرير هذه فهذا عذرى ، ومافعلت سوى نصح السلطان بما انطوت عليه سريرتى واستقر فى صدرى .

لست أدعى أن كلامى له أثر فى نفس السلطان . ولكن الذى أعرفه أن الله سبحانه وتعالى جعله يضيف حسنة كبيرة إلى حسناته الكثيرة ، فأصدر أمره بعد أيام إلى المرحوم رشدى باشا ليسعى باسمه الكريم لدى السلطة فى إرجاع شوقى إلى وادى النيل وقد كان .

ولكن (شوقى) العائد من المنفى بدأ يغير طريق حياته ، ويشارك فى الحياة الاجتماعية والسياسية والأدبية مشاركة عميقة مؤثرة .

وظل مرتبطاً بصديقه أحمد زكى باشا ارتباطاً وثيقاً .

وعندما جاء الكاتب اللبنانى المعروف أمين الريحانى إلى القاهرة عام ١٩٢٢ ، أقيمت له حفلات استقبال كثيرة ، كانت أعجبها حفلة شيخ العروبة عند سفح الأهرام كما تقدم :

كانت صحراء الأهرام مزينة بالأعلام المصرية ، وقد ضربت فيها المضارب تتخللها الجمال والأبقار ممثلة مساكن البدو ، وظهر الفرسان على صهوات الخيل يلعبون بسيوفهم ويرقصون بجيادهم على نغمات الطبول والمزمار . ونصب فى صدر المكان سرادق كبير لاستقبال المدعوين ، ومدت فيه مائدة الشاى حاوية لأطباق الفطير والتمر والحلوى .

وكان نجم الحفلة هو (أحمد شوقى) أمير الشعراء . وبعد الافتتاح وقف

الدكتور محجوب ثابت ليلقى قصيدة شوقى التى قال فى مطلعها :

قف ناج أهرام الجلال وناد   هل من بناتك مجلس أو ناد ؟

وحيا أمير الشعراء الضيف الأديب الفيلسوف قائلا :

رفعوا لك الريحان كاسمك طيباً   إن العهاد تحية الأمجاد

وتخيروا للمهرجان مكانه   وجعلت موضع الاحتفاء فؤادى

وقال شوقى فى هذه القصيدة بيتاً من الشعر مما كان يصفه القدماء بأنه أحسن بيت قالته العرب إنه يقول :

إن الذى ملأ اللغات محاسناً   جعل الجمال وسرّه فى الضاد

لقد كان أحمد زكى باشا من كبار المتحمسين لشوقى ، وظل متعلقاً بعبقريته منذ كانا طالبين فى مدرسة الحقوق ، حتى ذهب شوقى إلى عالم الخلد .

كما كان زكى باشا بحكم صلته بشوقى وأسرته ونشأته يعرف كثيراً عن حياته الشخصية ، ولكنه لم يكتب عنها بالتفصيل . وهو الذى عرفنا بأن بيت (على بك شوقى) والد أمير الشعراء كان خلف جامع الشيخ صالح (أبو حديد) بحى الحنفى بين السيدة زينب وعابدين ، وهو الذى ذكر لنا قصة زواج شوقى من ابنة (حسين بك شاهين) جار الأسرة الشوقية فى الحى ، وأحد أصحاب الثروة واليسار ، وقد رزقه الله بثلاث بنات تزوج شوقى إحداهن . كما تزوج المهندس أحمد بك عمر الثانية ، أما الثالثة فقد تزوجها يعقوب بك حلمى وهو من الأثرياء .

ولكننا لم نعرف حتى الآن كيف تم الزواج ؟ وما اسم هذه الزوجة ؟ لأن التقاليد القديمة كانت لاتذكر هذه الأشياء .

ولم يرث شوقى عن والده غير هذا البيت الذى تحدث عنه أحمد باشا زكى . فقد ضيع الوالد كل ثروته ، حتى إن جدة شوقى لأمه هى التى كفلته ، وقدمته وهو طفل إلى الخديو إسماعيل حيث كانت وصيفة فى القصر ، وهذه السيدة اسمها

(تمراز) وهى من أهل بلاد المورة ، وقد سباها إبراهيم باشا فى أثناء حرب العثمانيين واليونان مع غيرها من بنات اليونان ، ثم أعتقها وزوجها (محمد بك حليم) أحد رجاله الأتراك وهو السبب فى اتصال أسرة شوقى بقصر عابدين .

٣ – الشيخ حسين المرصفى

قال أمير الشعراء فى حديث صحفى نشرته مجلة سركيس فى عدد (يونيو – أغسطس سنة ١٩١٥) وكان شوقى قد أدلى بهذا الحديث إلى سليم سركيس فى فبراير ١٨٩١ .

ذكر شوقى أنه وفق لنظم الشعر وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، وأن أستاذه يومئذ كان الشيخ (حسين المرصفى) ، وقد قرأ عليه كتاب (الكشكول) لبهاء الدين العاملى ، وديوان الشاعر المصرى الرقيق بهاء الدين زهير .

فى تلك السن الباكرة قال شوقى :

قصارى العيش أن يذهب إن حلواً وإن مرّا

فإن شئت فمت عبداً وإن شئت فمت حرّا

وأعجب الشيخ المرصفى كثيراً بأول بيتين قالهما تلميذه أحمد شوقى ، وبشره

بمستقبل فى الحكمة عزيز .

كما نشرت الأهرام فى ٣٠ أبريل سنة ١٩٢٧ حديثاً أجرته معه بمناسبة مهرجان الشعر الذى أقيم بعد ظهر اليوم السابق ، أى فى ٢٩ من أبريل حيث بايعته وفود العرب بإمارة الشعر .

وقال شوقى :

– أستاذى الوحيد الذى أعد نفسى مديناً له هو الشيخ حسين المرصفى صاحب (الوسيلة الأدبية) ، وتتلمذت سنتين لحفنى بك ناصف ، وهما أستاذاى حقيقة اللذان استفدت منهما .

كما أعاد شوقى فى حديثه مع الأهرام أنه قرأ كتاب (الكشكول) على الشيخ المرصفى فى دروس خاصة . وأضاف أن الشيخ كان يحب هذا الكتاب كثيراً ، ويفضله على غيره من الكتب .

وقد كان (حفنى ناصف) الذى تخرج من مدرسة دار العلوم سنة ١٨٨٢ من تلاميذ الشيخ حسين المرصفى ، ويبدو أن الشيخ هو الذى رشح (حفنى ناصف) ليكمل معه (أحمد شوقى) معارفه الأدبية واللغوية .

ولكننا سنقف فى هذا الحديث عند الشيخ حسين المرصفى ، الذى كان نادرة عصره ، ولكنّ مؤرخى الأدب المصرى الحديث لم يلتفتوا إليه كما يحسن الالتفات ، ولم يدرسوه كما تجب الدراسة ، مع أنه الرائد الأول للنقد الأدبى فى العصر الحديث ، وكان ظاهرة من ظواهر العبقرية المصرية خلال مرحلة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصر الحديث .

كان المرصفى أستاذاً للشاعرين الكبيرين : محمود سامى البارودى وأحمد شوقى . وهذا الذى نمّى العبقرية فى قلبيهما ، ولكن صلته بالبارودى كانت أشهر

من صلته بشوقى .

وقد وصف المرصفى تلميذه (محمود سامى البارودى) قائلاً :

« هذا الأمير الجليل ، ذو الشرف الأصيل ، والطبع البالغ نقاؤه ، والذهن المتناهى ذكاؤه ، محمود سامى باشا البارودى » .

ثم تحدث عن شاعرية البارودى فقال :

« جاء من صنعة الشعر اللائق بالأمراء ، ولشعر الأمراء كأبى فراس والشريف الرضى والطغرائى تميز عن شعر الشعراء ، كما ستراه ، ومصداق ذلك ما سألقيه عليك من قصائد أنشدها فى وزن قصائد لبعض مشاهير المتقدمين ورويها » .

وقد نشر الشيخ فى كتابه (الوسيلة الأدبية) عدداً من قصائد البارودى ، الذى ربطته به صداقة حميمة .

كتب البارودى عندما كان يحارب مع تركيا ضد روسيا (١٨٧٨) قصيدة من روائعه قال فيها :

ياناعس الطرف إلى كم تنام ... أسهرتنى فيك ونام الأنام؟
أوشك هذا الليل أن ينقضى ... والعين لاتعرف طيب المنام

ثم توجه الشاعر إلى أستاذه ، وقال له :

مولاى قد طال مرير النوى ... فكل يوم مر بى ألف عام
يقتبل الصبح ويمضى الدجى ... وينقضى النور ويأتى الظلام
ولا كتاب من حبيب أتى ... ولا أخو صدق يرد السلام
من خلفنا البحر وتلقاءنا ... سواد جيش مكفهرّ لَهَام
فتلك حالى لارمتك النوى ... فكيف أنتم بعدنا ياهمام؟

وأنت ترى أن الشيخ (حسين المرصفى) قد ربط البارودى ببعض فحول الشعراء من المتقدمين . وفى مقدمتهم أبو فراس الحمدانى ، والشريف الرضى .

ولكن (شوقى) ارتبط فى ذهن المرصفى والشاعرُ الرقيق البهاء زهير . فقرأ معه ديوانه ، والظاهر أن الشيخ لاحظ حداثة سن شوقى عندما بدأ معه رحلة الأدب . فاختار له من الشعر أسهله ، وهو موقف يخالف موقف الشيخ مع البارودى ، لأن البارودى عرف المرصفى بعد أن اقتحم الشعر اقتحاماً .

ولكن (شوقى) الشاعر الشاب اصطحب معه ديوان المتنبى عندما سافر إلى باريس للدراسة ، وترك ديوان البهاء زهير الذى قرأه مع الشيخ ، غير أن أمير الشعراء تعلم الدرس الأول من المرصفى وهو صاحب نظرية فى صقل المواهب الأدبية ، يلخصها فى قوله :

« لاسبيل لمعرفة الصناعة (صناعة الأدب) إلابكثرة الحفظ ، ورعاية مانبهناك على رعايته ، ونورد لك مايكون مثلاً لما ينبغى أن تحصله فى حفظ ، وترديد النظر فيه من قصائد لمشاهير الشعراء » .

وكانت للمرصفى آراء جديدة فى فهم معنى الأدب ، تخالف آراء القدماء الذين قالوا : إن الأدب هو الإلمام من كل علم بطرف .

وتتلخص تعريفات الشيخ المرصفى للأدب فى أقواله :

* اعلم أن الأدب معرفة الأحوال التى يكون الإنسان المتخلق بها محبوباً عند أولى الألباب الذين هم أمناء الله على أهل أرضه ، من القول فى موضعه المناسب له .

* حقيقة الأدب أن يعرف كلٌّ حدود وظيفته فلايتخطاها ، حتى لايكون داخلاً فيما لايعنيه .

* مجمل الأدب أن يكون الإنسان بحيث يرضى عن غيره ، ويرضى عنه غيره .

* الأدب معرفة الفنون الكلامية ومواقعها .

ولكن هذه التعريفات المتناثرة فى كتاب المرصفى لن توصلنا إلى تعريف للأدب

يمكن تحديده أومعرفة ملامحه . وهى فى مجموعها محاولة للخروج من القديم إلى الجديد ، وهو يخلط معنى الأدب كفن بمفهوم الأدب كخلق حسن يتخلق به الإنسان .

والأمر الذى يسترعى النظر هو أن المرصفى الذى تتلمذ عليه الشاعران الكبيران البارودى وشوقى كان له رأى فى الشعر أوقعنا فى حيرة . فقد ذكر أنه ليس لمعرفة الشعر وصنعته كبير فائدة ، إذ لم يبق له طلب ، ولاترتبط به حاجة ، وغاية مالقائله اليوم إجادة التقليد .

أما النثر فقد تحدث عنه المرصفى ، وقال : إن الكتابة لايمكن الاستغناءعنها ، فهى من ضرورات الحياة .

وهذه النظرية التى دعا إليها المرصفى غريبة ، وهى لاتكاد تعرف قيمة الفن فى ذاته – شعراً أونثراً – وصلته بالحياة . كضرورة من ضرورات الحياة .

أما التقليد الذى تحدث عنه فإنه يحدث فى النثر كما يحدث فى الشعر ، ولكنه لايؤدى إلى التقليل من قيمة الشعر أو رفع قيمة النثر .

ويبدو أن المرصفى كان يعتقد أن اتباع البارودى لقوالب الشعر القديم إنما هو لون من التقليد ، ولعله كان ينظر إلى الشكل لا إلى المضمون ؛ فإن شعر البارودى كان شكلاً آخر غير شعر السيد على الدرويش والشيخ محمد شهاب الدين ومحمود صفوت الساعاتى وأشباههم من شعراء عصره . واعتقد المرصفى أن البارودى على قدم مع أبى فراس والشريف الرضى وأبى نواس .

ولكن الشيخ الناقد كان ينظر إلى الشعر من وجهة نظر واحدة ، ولذلك أصدر حكمه القاسى على الشعر .

أما النثر فقد كان تلميذه (عبد الله باشا فكرى) هو الذى يجدده ، وقد كسر هذا الكاتب العظيم قيود القديم فى جرأة ومقدرة وبراعة ، حتى إنه كتب النثر الفنى

باللهجة المصرية ، ولكن تجديد النثر أيسر من تجديد الشعر ، ولأن النثر ليست له قوالب محكمة مثل الشعر ، ولأن نماذجه فى الأدب القديم لها أشكال مختلفة : فهناك أسلوب القرآن الكريم وهو ليس من الشعر ولا من النثر ، ولكنه يمنح الكاتب من الأساليب والصور ما يمكنه من الكتابة ، أما الشاعر فإنه لا يفيد من القرآن إلا فى حدود السمو القرآنى الرفيع ، فإذا انحدر بشعره إلى أغراض أخرى كما فعل أبو نواس فإن القرآن بعيد عنه ، وهو لا يستطيع أن يقترب من القرآن . وهكذا الشأن فى أسلوب النبى عليه الصلاة والسلام فى أحاديثه . كما أن التراث القديم من نثر الناثرين له أشكال مختلفة عند كبار الكتاب مثل ابن المقفع والجاحظ .

وعندما تصدى عبد الله فكرى لتجديد النثر وصل سريعاً إلى هدفه ؛ مما جعل الشيخ الناقد يقول هذا الكلام .

ولكن المرصفى برغم ذلك ظل معروفاً بأنه أستاذ الشاعرين الكبيرين : البارودى وشوقى . ولكنه لم يدرك الزمان الذى أصبح فيه أحمد شوقى أميراً للشعراء . .

وشخصية المرصفى من الشخصيات الباهرة ، فهو أزهرى مكفوف . كان أبوه من كبار العلماء فى الأزهر . وقد تصدى هو نفسه للتدريس فى الجامع الكبير .

وعندما أنشأ على باشا مبارك دار العلوم عين الشيخ حسين المرصفى مدرساً عاما . فبدأ تدريس العلوم الأدبية من كتابه الشهير (الوسيلة الأدبية) إلى جانب دروس الإنشاء التى جعلها جامعة للنحو والصرف ورسم الحروف والعروض والقوافى والبلاغة وأدبيات اللغة والمنطق . كما درس المرصفى علوماً أخرى فى الصحة وعلوم النبات والحيوان والطبيعة والفلك إلى جانب قواعد الإسلام وأركانه .

كان هذا الشيخ المكفوف دائرة معارف متنقلة .

وقد أتاحت له ظروف عصره أن يصبح مدرساً بمدرسة العميان والخرس التى

أسسها الخديو إسماعيل عام ١٨٧٥ ، وكانت أول مدرسة من نوعها فى مصر ، وقد أدخلت فيها طريقة (برايل) فتعلم المرصفى الخط العربى والفرنسى بالحروف البارزة بالحس باليد .

وأنت ترى أن المرصفى كان أول أزهرىٍّ مكفوفٍ تعلم الفرنسية . قبل طه حسين ، ولهذا الموضوع قصة .

كان الشيخ يجلس مع على باشا مبارك وزير المعارف . وكان معه قنصل فرنسا ، والجليس يتحدث مع الوزير باللغة الفرنسية ، فغضب الشيخ لذلك ، وقال : يقول رسول الله ﷺ ، لايتناجى اثنان دون الثالث ، فإن ذلك يحزنه ، ثم قام من فوره ، وبدأ يتعلم الفرنسية حتى أتقنها .

كما كان الشيخ يملك آلة للكتابة ، ويستخدمها ، وهى عجيبة أخرى من عجائبه .

وقد ترجم المرصفى نصوصاً من الفرنسية إلى العربية ، ومنها بعض أشعار لافونتين .

هذا الأستاذ الذى أوجزت له بعض ملامحه كان له أثر قوى فى نفس شوقى

وقد ذكرت لك رأى المرصفى فى شعر عصره ، وهو رأى يقلل من قيمة الشعر فى الحياة كما قلت . ولكن أمير الشعراء استطاع بالعبقرية أن يثبت خطأ النظرية التى دعا لها المرصفى .

وليس من شك فى أن (شوقى) الذى كان يتلقى دروساً خصوصية على هذا الشيخ قد عرف مجمل آرائه ، ولم تقتصر الدروس على كتاب الوسيلة الأدبية ، أوقراءة قصائد فى ديوان البهاء زهير ، أو تصحيح بعض الأبيات للشاعر الناشئ ، بل إنها بحكم الاتصال المباشر لابد أن تتناول قيمة الشعر .

وأنا أعتقد أن (أحمد شوقى) بدأ حياته الشعرية متحدياً لهذه الآراء التى

تنتقص من قيمة الشعر ، وأراد أن يثبت – وهو الموهوب – حقيقة الشاعر . وإذا لم يكن للمرصفى أثر فى حياة شوقى غير هذا لكفى ، فقد فجر الأستاذ فى عواطف تلميذه ومشاعره تلك الرغبة الهائلة الخلاقة التى جعلت من شوقى أميراً للشعراء العرب .

ولو عاش المرصفى ورأى تلميذه لغير رأيه فى الشعر . ولعرف أن مابدأه مع البارودى كان يجب أن يؤدى إلى شوقى .

يكفى أن يكون المرصفى أول ناقد عصرى فى الأدب العربى ، ويكفى أن يكون أستاذاً للبارودى وشوقى الشاعرين . ولعبد الله فكرى الكاتب الناثر . . ودعك من شعر عبد الله فكرى فإنه أقل من شعر الشيخ على الليثى .

٤ – شيخ الشعراء . . إسماعيل باشا صبرى

مازلنا حتى اليوم نكتشف أن أعذب الأغانى المصرية فى العصر الحديث كان يكتبها إسماعيل باشا صبرى الشاعر الذى نقل أنغام الطرب من الابتذال الرخيص إلى المعانى الرائعة الرفيعة .

نقل إسماعيل صبرى الأغنية المصرية من كلمات :

* طربوشه مايل على خده .
* الورد قال ياغصن البان
* سبل شعوره على قوامه
* قالت عصافير الجنة

إلى لون آخر من الشعر العاطفى الدافئ .

وقبل إسماعيل صبرى كانت أشهر مجموعة من مجموعات الأغانى المتداولة وهى

(سفينة شهاب) التى جمعها الشيخ محمد شهاب الدين شاعر دولة محمد على من أغانى مصر والشام .

ثم ظهرت فى عصر إسماعيل مجموعات أخرى من الأغانى التى لحنها وغناها عبده الحامولى ومحمد عثمان . وسيطرت عليها نغمة (أمان . . أمان . يالالِّلى) التى ظهرت فى قصائد ركيكة أقحمت على المسرح فى ذلك الوقت .

وكان الشعراء يؤلفون كلمات الأغانى فى مصر منذ عهد بعيد ، وقد نشر (السيد على الدرويش) سيد شعراء عصره مجموعة أغانيه فى خاتمة ديوانه المطبوع خلال عصر محمد على . وقد ترجم أدواراً من التركية إلى العربية .

وكانت للشعراء سفن غير سفينة الشيخ شهاب . ولكنها لم تشتهر ، بل إن نسخها المخطوطة مازالت مفقودة ، وقد يئست من الحصول عليها ، ويبدو أن الشيخ (محمد شهاب الدين) هو الذى تسبب فى اختفائها وضياعها حتى يشتهر وحده ، وتبقى له وحده (سفينة شهاب) !

كان الشيخ شهاب الدين صاحب السلطة فى عصر محمد على ، لأنه هو الذى كتب قصيدتين نقشتا بماء الذهب على شبابيك جامع محمد على من الداخل ومن الخارج ، وكان صاحب السلطة فى عصر عباس الأول ؛ لأنه أصبح شاعره المفضل ، وله فى كل قصر من قصوره غرفة وله معه منادمات وأحاديث ونكت .

أحب أن أقول لك : إن الألحان والأنغام والأدوار كانت تركية ، لأن مصر كانت تابعة من توابع سلطان آل عثمان .

كتب السيد على الدرويش أدواراً معربة نقلها عن التركية ، ومنها دور :

وجه بديع الجمال

عينه وسنا كحال

واللفظ عذب المقال

هذا سبب بهجتى

ويستمر الدور بهذه الألفاظ المصطنعة . وفى نهاية كل رباعية يقول :

هذا سبب بهجتى

وقد ركبت هذه الكلمات على اللحن الموسيقى ، وهى كلمات تربط بين العامية والفصحى ، وليس لها إعراب . وفيها حركة أحياناً ، وسكون أحياناً . .

ولم يفهم الذين ينشرون (سفينة شهاب) هذه اللعبة . وظنوا أن الشعر ليس له ميزان ، أومكسور ، لأنهم لم يدركوا أن الكلام كان يركب على اللحن الموسيقى ، لا على موازين الشعر العربى ، أو أى موازين شعر نعرفها ، مع أنها موزونة ، ولها ميزان .

كانت عملية تعريب غريبة ، وهى تحتاج إلى دراسة صوتية .

من هذه الأدوار العربية دور :

وجهه الحَسَن همت فيه

وفى عيونه وفيه

عذب الملافظ فيه

أصل ابتهاج النظر

من بعده العقل راح

ألْمَى يسلى بَراح

للقلب منه انشراح

أصل ابتهاج النظر

وعملية التركيب اللفظى مع عملية التعريب جعلت هذه الأدوار شيئاً جامداً لايمت إلى الفن بصلة .

وعندما ظهر محمد عثمان وعبده الحامولى وألمظ فى عصر إسماعيل حاول الفنان

المصرى الخروج من هذا المأزق ، ولكن التأثير التركى ظل باقياً برغم الرغبة فى الخروج من التقليد والمحاكاة .

وقد أدرك الشاعر إسماعيل صبرى هذه الفترة ، وكان محمود سامى البارودى يرفض تأليف الأغانى لعبده الحامولى ، ويعتقد أن الشاعر لايجوز له الانحطاط إلى مستوى المغنواتى .

ولكن البارودى نفسه هو الذى طلب من إسماعيل صبرى تأليف الأغانى الوطنية لمحمد عثمان وعبده الحامولى ؛ لأن الشاعر الفارس العائد من المنفى وجد شيئاً جديداً فى الأغنية المصرية .

ليست هى أغنية :

عصفورى أهشه

وأنكش له عشه

أشهر أغانى ألمظ ، ولكنها أغنية إسماعيل باشا صبرى :

عشنا وشفنا سنين ومن عاش يشوف العجب

شربنا الضنى والأنين جعلناه لروحنا طرب

وغيرنا تملك وصال واحنا نصيبنا خيال

ثم أصبحت الكلمة التى يملكها الشاعر مملوكة للشعب ، ومن هذا الباب دخل أحمد شوقى على يد أستاذه إسماعيل صبرى .

ومن المعروف تاريخياً أن (أحمد شوقى) عرف البارودى ، والتقيا فى حلوان حيث تجاورا فى المسكن ، ولكن هل أثر الشاعر الفارس المهزوم فى الشاعر الشاب المنطلق ؟

كان البارودى قد خرج من باب القصر .

وكان شوقى قد دخل إلى بريق القصر .

وقال شوقى قصيدة مخزية فى استقبال أحمد عرابى الزعيم العائد من المنفى ، قال فى مطلعها :

صغارٌ فى الذهاب وفى الإياب أهذا كل شأنك ياعرابى؟

بريق الذهب يغرى بالكذب .

وكانوا يقولون للشعراء فى الأزمان الغابرة : إن أعذب الشعر أكذبه .

ولكن إسماعيل باشا صبرى الشاعر الرقيق المصرى العريق ظل صادقاً لايكذب .

كان أول الشعراء الذين لايكذبون فى هذا العصر الحديث .

عواطفه لاتكذب ، إحساسه لايكذب ، وطنيته لاتكذب .

وقد نسيه كثيرون لأنه لم يكذب . . ولكنه كان المعلم .

عندما كان محافظا للإسكندرية تحمل وحده مسئولية الزعيم مصطفى كامل حين ألقى خطابه الشهير على مسرح زيزينيا وقال فيه كلماته الباقية :

بلادى . . بلادى . . لك حبى وفؤادى

أنت أنت الحياة . . ولا حياة إلا بك يامصر

وتحدى المحافظ الوطنى إسماعيل باشا صبرى سلطة القصر وسلطة الاحتلال البريطانى ، وسمح للزعيم الشاب بإلقاء قصيدته – لاخطابه – عن مصر الأسير فى أغلال الاحتلال .

قليلون هؤلاء الرجال ، ولكنهم ضوء الحياة ، ومبعث الآمال .

ثم تولى إسماعيل باشا صبرى منصب وكيل وزارة الحقانية (العدل) . ومكتبه هناك فى مواجهة مكتب (مصطفى كامل) زعيم الحزب الوطنى ورئيس تحرير اللواء . ولم يكن صبرى باشا يعود إلى بيته قبل أن يذهب إلى صديقه وصفيه وحبيبه مصطفى كامل باشا فى مقر جريدة اللواء . . وهو يتحدى السلطة كلها فى قصر

عابدين وفى دار المعتمد البريطانى .

هذه هى شخصية إسماعيل باشا صبرى ، صاحب السلطة ورافض السلطة .

الإنسان لايكون عظيماً إلا حينما يملك ويرفض . والذى يملك لأنه يريد أن يمتلك ، أوالذى يرفض لأنه لايملك غير الرفض – لايساوى جناح بعوضة !

ولذلك كان الشاعر إسماعيل باشا صبرى عظيماً ، واستحق أن يلقب قبل كل شعراء عصرنا الحديث بلقب : شيخ الشعراء ، قبل أن يستحق شوقى لقب أمير الشعراء ، وقبل أن يحمل حافظ إبراهيم لقب شاعر النيل ، وخليل مطران لقب شاعر القطرين : أى مصر والشام .

وإسماعيل صبرى هو الأستاذ الحقيقى لشاعرية أحمد شوقى .

كانت والدة إسماعيل صبرى تقيم فى حلوان بسبب المرض ، وكان يزورها ، فالتقى هناك وأحمد شوقى . .

والنفوس الشاعرة تتلاقى دائما .

التقى شوقى والبارودى فى لحظات الضعف بعد العودة من المنفى .

والتقى شوقى وإسماعيل صبرى فى لحظات الضعف بسبب مرض الأم .

ثم تفجرت مشاعر شوقى .

لقاء الشعراء ليس لقاء عاديًّا . كمايتخيل بعض الناس ، ولكنه لقاء العبقرية ، ونحن لم نرصد لحظات لقاءشوقى مع البارودى أوصبرى . . وهؤلاء الثلاثة عباقرة .

والأمر العجيب أنهم جميعاً التقوا فى حلوان .

سقيا لحلوان ذى الكروم وماصنّف من تينه ومن عنبه

وقال آخر :

شمسان لم يخلق الله مثلها

شمس بأسوان والأخرى بحلوان

وماأشهى لحظات الحب والوجد فى حلوان !

هناك كان الصَّبَى والشباب ولحظات الغياب .

ولك أن تتصور كيف ألتقى أحمد شوقى وإسماعيل صبرى فى حلوان .

وأنا قلت لك منذ البداية : إن الشاعر كان يريد أن يغنى ، ولكنه لم يجد الكلمة ، ولم يجد النغمة فيما سمعه كما رويت لك .

ثم استطاع إسماعيل صبرى تحرير الأغنية من النغمة الساقطة ، وكتب للمغنين أعذب أغنيات مصر :

الحلو لما انعطف

أخجل جميع الغصون

والخد آه . . ما انقطف

ورده بغير العيون

كان فى إحدى لياليه يستمع إلى المطرب محمد عثمان ، فلم تعجبه أغانيه ، وقال بعض جلسائه :

– هل تكتب لنا أغنيات نستغنى بها عن تلك الأغانى المبتذلة ؟

فأجابهم إسماعيل صبرى إلى طلبهم بشرط أن يغنيها محمد عثمان فى تلك الليلة ، ووافق محمد عثمان على شرط الباشا . وكتب إسماعيل باشا صبرى كلماته :

قدك أمير الأغصان   من غير مكابر

وورد خدك سلطان   على الأزاهـــــر

والحب كله أشجان   يا قلب حاذر

والصدا ويا الهجران   جُـزا الـمُـخَـاطر

ولحن (محمد عثمان) وغنّى تلك الأغنية الشهيرة فى الليلة نفسها .

هذا هو المفتاح للفن الشعرى الجديد .

لقد سأل السلطان حسين كامل سلطان مصر التشريفاتى شيخ العروبة (أحمد زكى باشا) عن الشاعر الذى يخلف إسماعيل صبرى وكان شوقى فى منفاه .

وقال أحمد زكى باشا للسطان :

– هو بلبل مصر المنفى أحمد شوقى .

وكان شوقى فى منفاه قد ترنم بمصر ، وقال قصيدته المشهورة :

أحرام على بلابله الدوح   حلال للطير من كل جنس؟

ثم أصبحت نغمة شوقى هى نغمة إسماعيل صبرى . . وكلاهما عزف على عيدان حب مصر ، وكل عود له نغم .

كان صبرى باشا من عشاق الآنسة مى زيادة ، وقال فيها شعراً ترجم إلى الفرنسية ضمن مجموعة من الشعر العربى القديم ، وهو يقول لها :

أنت روحانية لاتدّعى   أن هذا الحسن من طين وماء

وانزعى عن جسمك الثوب يبن   للملا تكوين سكان السماء

وهو حب روحانى رفيع ، تعلمه منه أحمد شوقى فى غرامياته التى يتحدث عنها المتحدثون .

وكانت كلمة شوقى :

صونى جمالك عنا إننا بشر   من التراب وهذا الحسن روحانى

من أحسن ما قيل فى الشعر العربى .

ولكن شوقى كان يقترب من الحس أكثر من اقترابه فى الشعور مع أنه كان عذرى الحب .

فبدأ بالشعور الرفيع فى قصيدته :

ياجارة الوادى طربت وعادنى   مايشبه الأحلام من ذكراك

ثم يعود إليه الحس :

وأبيت فى ليلين شعرك والدجى ولثمت كالصبح المنوّر فاك

ولكن هذا الشعور الحسى غرق فيه الشاعر الأكبر ، سلطان العاشقين عمر بن الفارض ، ونحن نغرق فيه بوعى أو بغير وعى ، ويظل الحب مشتعلاً .

إن قصة عشق إسماعيل صبرى للآنسة مى زيادة مشهورة ، ولكن قصص عشق شوقى كثيرة فقد عشق (فاطمة رشدى) وعشق المطربة (ملك) وعشق (أم كلثوم) وكتب لها قصيدة التحدى التى غنتها بعد وفاته بسنوات ، ولم تغنها فى حياته ، وهى التى يقول فى مطلعها :

سلوا كئوس الطلا هل لامست فاها واستخبروا الراح هل مست ثناياها؟

وكان يريد منها أن تشرب معه كأسا فأبت وغضب ، وغضبت . . ثم انتهت القصة حتى مات .

أما فاطمة رشدى فقد كان يسميها (بطة) وكان يصطبح بوجهها الصبيح ، ويشرب معها القهوة فى الصباح أو فى الضحى ، ويقبل خديها وينصرف .

والمطربة ملك هى التى شهرها شوقى وجعل لها اسماً بين الأسماء ، ولكن كثيرين لايعلمون . وهى موهبة خارقة فى الغناء المسرحى ، وكتب لها شوقى أبدع قصائده الغنائية .

إن الشاعر لايعيش بغير حب .

وقد تعلم شوقى من أستاذه إسماعيل صبرى أعظم قيمة فى الحياة وهى الحب .

إسماعيل صبرى قال أعظم الشعر فى الحب الإلهى .

أنا ياإلهى عندبابك واقف لاأبتغى عنه الزمان عدولا

ماجئت أطلب أجر ماقدمته حاشى لجودك أن يكون قليلا

وشوقى هو شاعر الحب الإلهى فى قصائده الرنانة الذائعة . . ومنها :

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

ولو أنك جردت شعر إسماعيل صبرى وشعر أحمد شوقى من مدائح الملوك والحكام ، واستخلصت روح الشاعر لوجدت فيها روحاً واحدة ، تنبع من قلب واحد .

لقد كتب طه حسين وأحمد أمين عن الشاعر إسماعيل صبرى ، ولكنهما – وهما أستاذان – لم يدركا قيمة هذا الشاعر فى صنع الشاعرية المصرية الجديدة .

كان المجتمع المغلق يغلق أبواب الحب ولايعترف بها ، مع أن الشاعر عاشق ، ولايعيش بغير حب . وقد عاش البارودى قصص حب كثيرة ، وعاش إسماعيل صبرى قصة عشق عظيمة للآنسة مى زيادة .

كما عاش شوقى قصص حب لاتحصى ولاتعد .

وتعلم الشعراء من بعدهم كيف يحبون ويعشقون . وكانت قصص (إبراهيم ناجى) شهيرة فى القاهرة – وظل (أحمد رامى) يمثل عاشق أم كلثوم حتى هذه اللحظة ، وهذا العشق هو سبب اشتعال العبقرية .

وماذا تكون الحياة بلاحب ؟

ولكن حب إسماعيل باشا صبرى كان من لونٍ آخرَ عظيمٍ وجليلٍ .

حب ليلة الثلاثاء عند الاجتماع الأسبوعى مع (مى زيادة) التى أحبها أحمد لطفى السيد ومصطفى صادق الرافعى وعباس محمود العقاد وغيرهم من المشهورين والمغمورين .

وحب الشاعر يخالف هؤلاء جميعاً .

يالواء الحسن أحزاب الهوى أيقظوا الفتنة فى ظل اللواء

وهذه هى قصيدة الثلاثاء فى غرام (مى زيادة) . .

قلت لك : إن أعظم ماتعلمه شوقى من أستاذه إسماعيل صبرى هو الحب .

ولكننى حتى هذه اللحظة لم أعرف الحياة الشخصية لشيخ الشعراء ، ولاالحياة .

الشخصية لأمير الشعراء فقد أخفيت هذه الصفحة إخفاء تاماً كاملاً . . أوشبه كامل .

كان الحب محرماً . . وعندما استحله هؤلاء الشعراء غلّفوه بالقصائد ، وأصبحت بعضها مثل أوراق السلوفان بلانبض ولاقلب ولاعاطفة !

ولكن الذى يبقى بعد كل هذا الكلام هو أن (إسماعيل باشا صبرى) كان أستاذاً فى الحب . . وكان أستاذاً لأمير الشعراء أحمد شوقى .

٥ – أمير البيان شكيب أرسلان

ينسى مؤرخو الأدب وأساتذته حقيقة هامة فى تاريخ الأدب العربى ، وهى أن هذا الأدب وحدة عضوية كاملة . وقد تمثل هذا فى العصر الحديث حين بايع شعراء العرب (أحمد شوقى) بإمارة الشعر.

امحت الإقليمية ، وزالت الحدود والقيود . وأصبح شوقى أمير شعراء العرب بغير نزاع . ولاخلاف .

الدم التركى الكردى الشركسى اليونانى ذاب كله فى عروق شاعر عربى القلب واللسان ، اسمه أحمد شوقى .

باسم هذا الشاعر أنشئ كرسى الأدب المصرى فى كلية الآداب بجامعة القاهرة ، وتقاسمه اثنان من العمالقة هما أمين الخولى وأحمد أمين . ولكل واحد منهما منهجه وأسلوبه . ولكنهما جلسا على كرسى واحد فى عام واحد ، ونسى الاثنان أن الكرسى

الذى جلسا عليه معاً كان ملك أحمد شوقى .

ثم بدأت المبارزة الهائلة بين أمين الخولى وأحمد أمين حول الأدب المصرى .

كان أحمد أمين يحقق ويتحقق من عروبة مصر ، ويربطها بمهد العرب فى جزيرة العرب ، وقد كتب دراساته فى كراسات كان يلقيها علينا فى قاعة الدرس ولكنه لم ينشرها فى كتاب مع أنه كان يملك المطابع والورق والأحبار فى (لجنة التأليف والترجمة والنشر) التى تولى رياستها ، وأصدر منها كتبه ومؤلفاته ، كما أصدر مجلة الثقافة .

هناك سبب خفى جعل (أحمد أمين) لاينشر كتابه عن الأدب المصرى ، وهو الذى كان من أشد الكتّاب حرصاً على نشر كلماته ، حتى إنه كان يتوقف خلال إلقائه لدروسه علينا ونحن طلاب علم فى كلية الآداب ، ثم يقول بصوت مسموع :

– هذا الموضوع يصح أن أكتبه مقالاً فى مجلة الثقافة .

لماذا أخفى أحمد أمين محاضراته عن الأدب المصرى التى ألقاها علينا فى كلية الآداب ؟

وقبل أن أجيب على هذا السؤال أحب أن أذكر لك موضوع المحاضرات ، وهى هامة وأساسية وخطيرة فى تاريخ الأدب المعاصر.

* تركزت محاضرات أستاذنا أحمد أمين حول موضوعات أساسية هى :

* علاقة مصر بجزيرة العرب قبل الإسلام .

* دخول العرب مصر بعد الفتح ، وتوزع القبائل العربية فى أقاليم مصر ، وما حدث من اختلاط بين العرب والمصريين .

* استعراب مصر عن طريق اللغة العربية ، وانتشارها ، وتأثرها باللغة المصرية التى كانت سائدة بعد الفتح ، وقد كانت هذه اللغة المصرية خليطاً غير متمازج بين الهيروغليفية والهريطاقية واليونانية ، ولعلها كانت مانسميه باللغة القبطية ، أى

المصرية ، لأن كلمة قبطى معناها فى اللغة هو المصرى .

• تاريخ الولادة والحكام لمصر بعد الفتح العربى ، وقد وصل أستاذنا أحمد أمين إلى عصر ابن طولون .

هذه هى محاضرات أستاذ كرسى شوقى فى الجامعة عن الأدب المصرى .

أما أستاذنا الآخر الأكبر أمين الخولى فقد وضع نظريته للآداب ودراستها ، ووضع منهجاً جامعيًّا لدراسة الأدب المصرى ، وكانت خلاصة نظريته ودراسته هى : إقليمية الأدب ، فثارت ضجة ، وكان شيخى أمين الخولى يحب تفجير القنابل ، وإحداث الضجة . وهذه إحدى علامات اليقظة الفكرية ، فلايقظة بغير ضجيج يبعث الحياة .

ونسى الشيخ الكرسى الذى كان يجلس عليه مع زميله أحمد أمين ، وهو كرسى شوقى .

وأصبحت هناك قضية .

أحمد أمين يقول : إن مصر استعربت ، وأصبحت عربية ، وأدبها عربى .

وأمين الخولى يقول : إن الأدب المصرى أدب مصرى إقليمى يحمل خصائص مصر .

هذه هى قمة الصراع بين العملاقين اللذين جلسا معاً فى عام واحد على كرسى أحمد شوقى . ثم دخل عبد الوهاب عزام فى حياء وأدب ليقول كلمته ، وكان هذا العملاق الثالث من أكابر الأدباء العلماء ، فألف كتاباً سماه (مهد العرب) عن جزيرة العرب .

أنا أحدثك عن خلفيات الفكر الأدبى فى مصر خلال فترة خطيرة من فترات التاريخ العربى ، وكان السبب هو (أحمد شوقى) أمير الشعراء ، وصاحب كرسى الأدب المصرى فى جامعة القاهرة .

وأنت تسألنى :

ما العلاقة بين شكيب أرسلان وبين هذه القضايا ؟

وأقول لك : إن (شكيب أرسلان) درزى شامى . وهو من أمراء جبل الدروز ، وهو عربى القلب واللسان ، ومن كبار المدافعين عن العرب والإسلام فى العصر الحديث . ومن أكابر المثقفين العرب الذين تنساهم الأجيال الجديدة .

شكيب أرسلان أمير البيان

وأحمد شوقى أمير الشعراء

والشىء العجيب الغريب هو أن (شكيب أرسلان) لقَّب (محمود سامى البارودى) أميراً للشعراء قبل شوقى ، ثم اعترف بعد ذلك بأن (شوقى) هو أمير الشعراء .

كان شكيب أرسلان يعتبر البارودى أمير الشعراء ، واتخذه أستاذاً وإماماً . ولكنه عرف (أحمد شوقى) بعد ذلك ، وبايعه بإمارة الشعر ، واقترح عليه أن يجمع شعره فى ديوان وأن يسميه الشوقيات .

وقبل أن يحمل شوقى لقب إمارة الشعر كان شكيب أرسلان يعرف هذه الحقيقة . وهو القائل فى رثائه :

هذا أمير الشعر غير مدافع فى الشرق أجمع مذ فتق لهاته

لوكان وحى بعد وحى محمد لانشق ذاك الوحى عن آياته

وقد ذكر شوقى بداية صلته بشكيب أرسلان : فقال :

« جمعتنى باريز فى أيام الصبا بالأمير شكيب أرسلان ، وأنا يومئذ فى طلب العلم ، والأمير حفظه الله فى التماس الشفاء ، فانعقدت بيننا الألفة بلا كلفة ، وكنت فى أول عهدى بنظم القصائد الكبيرة . وكان الأمير يقرأ مايرد عليه منها منشوراً فى صحف مصر ، فتمنى أن تكون لى يوماً ما مجموعة ، ثم تمنى على إذا هى

ظهرت أن أسميها « الشوقيات » .

كما عبر شوقى عن صلته بشكيب أرسلان فى شعره ، وقال :

صحبت شكيباً برهة ولم يفز بها ... سواى على أن الصحاب كثير

حرصت عليها آنة ثم آنة ... كما ضن بالماس الكريم خبير

فلما تساقينا الوفاء وتم لى ... وداد على كل الوداد أمير

تفرق جسمى فى البلاد وجسمه ... ولم يتفرق خاطر وضمير !

هذه هى الصداقة الحميمة التى ربطت بين أمير البيان وأمير الشعراء :

ولكن (داود بركات) رئيس تحرير الأهرام قال : إنه هو الذى أطلق لقب أمير الشعراء على شوقى .

ويبدو أن (داود بركات) كان أول من نشر هذا اللقب فى صدر جريدة الأهرام ، وأن (شكيب أرسلان) هو الذى أطلقه ، لأنه سبق أن أطلقه على محمود سامى البارودى قبل شوقى .

وقد لخص شكيب رأيه فى شوقى ، ورأى فيه الشاعرية بجميع شروطها : النسج الرقيق المتين ، والأسلوب الرشيق الرصين ، واللغة العربية الفصحى التى لاتؤتى من جهة ، والمعنى المتناهى فى الدقة ، اللابس من اللفظ أجمل حلة ، والانسجام المطرد من الأول إلى الآخر فى سكب واحد وسبك متوارد .

كان لقاء الأميرين فى باريس بداية انطلاق عبقرى لأحمد شوقى الذى وجد فى شكيب أرسلان مايجده الفنان العظيم حين يلتقى هو وفنان عظيم ، ويدلك على ذلك كلمة الإهداء التى كتبها أحمد شوقى على نسخة ديوانه التى أهداها لصاحبه ، فقد كتب عليها :

« إلى أميرى وأخى شكيب أرسلان »

(٢٧ مارس ١٩٠٠)

وعندما التقيا فى باريس كان شوقى يحمل معه ديوان المتنبى . وارتسمت فى خيال شكيب أرسلان صورة الشاعرين الأعظمين عند العرب : المتنبى وشوقى ، حتى إن شكيب قال فى رثاء شوقى :

ولكم مررت بحاسدين لفضله رغم القلى يروون من أبياته

وهى الصورة التى قالها المتنبى عن نفسه ، حين جعل الدهر بعض رواته .

إن لقاء باريس بين الأميرين هو أخطر لقاء فى حياة شوقى ؛ فقد تعرض أمير الشعراء لحسد الحاسدين ، ونقمة الناقمين ، وشنوا ضده حربا شعواء . واتخذت منه بعض المجلات المصرية فيما بعد مادة للإثارة . حتى قيل : إنه كان ينفق الأموال لإسكات بعض الصحفيين والكتاب الذين يهاجمونه .

وقد ذكر الدكتور محمد صبرى السوربونى صاحب كتاب (الشوقيات المجهولة) أنه التقى هو وشوقى فى فرنسا ، وطلب منه أن يجلس معه ، ويحدثه عن حياته ؛ ليصدر عنه كتاباً ؛ فقال له شوقى :

– عايز كام ؟

وعند ذلك انقطع الحديث بين الدكتور صبرى وبين شوقى .

ولذلك كان لقاء باريس حدثاً هاماً فى حياة شوقى ، لأنه التقى هو وشكيب وهما فى سن متقاربة . وكان شوقى فى بدايات بلوغه ، فماذا قال له شكيب أرسلان :

– أنت أمير الشعراء .

إن هذا الاعتراف المبكر من كاتب موهوب لشاعر موهوب يصبح شيئاً خطيراً فى تشكيل شخصية الشاعر .

وهناك شيء آخر يجمع بين الأميرين ، وهو الثقافة الفرنسية التى أخذاها معاً من نبع واحد ؛ ثم أصبحا معاً يملكان ناصية العربية الفصحى ، كما كانا يملكان

ناصية الفرنسية الرفيعة .

وشكيب أرسلان من كبار المترجمين العرب للأدب الفرنسى ، وقد كان من المعجبين بأناتول فرانس ، فترجم كتابه الشهير (أناتول فرانس فى مباذله) كما نقل رواية (شاتوبريان) التى سماها (آخربنى سراج) إلى العربية فى أسلوب رائع بديع .

وقد ذكرت لك أنه كان من كبار العارفين لأسرار العربية إلى جانب معرفته العميقة للغة الفرنسية ، فكان يترجم من الفرنسية إلى العربية بغير عناء .

وشكيب أرسلان من أبناء المدرسة اللغوية العربية فى العصر الحديث ، فقد أخذ عن أستاذه عبد الله البستانى ؛ كما صحب كبار العلماء من أمثال الأب أنستاسى مارى الكرملى والشيخ عبد القادر المغربى . وكذلك صحب (سعيد الخورى الشرتونى) صاحب قاموس (أقرب الموارد) ، وهو من أهم المعاجم اللغوية الحديثة .

وأنا أحدثك هذا الحديث لأن (شكيب أرسلان) التقى لقاء آخر وشوقى ، كان خطيراً مثل لقاء باريس : فقد تصدى الشيخ إبراهيم اليازجى صاحب مجلة البيان التى كان يصدرها فى القاهرة لرواية شوقى (عذراء الهند) وكتب فصلاً كاملاً فى مجلته تعقب فيه الشاعر فى جمله وألفاظه ، وهلهله ، وقال : إن هذه الجمل والألفاظ لاتجيزها اللغة العربية الفصحى .

كان الشيخ اليازجى يريد إسقاط شوقى .

وإبراهيم اليازجى عالم لغوى مارونى لبنانى ، هاجر إلى مصر ، وأصدر مجلتين هما (البيان) و (الضياء) ، وقد سبقته شهرته إلى القاهرة ، وكان محققاً مدققاً ، له صيت فى علوم اللغة ، فإذا قال : إن (أحمد شوقى) يخطىء فى اللغة ، فإن معنى ذلك سقوط الشاعر .

ثم دخل شكيب أرسلان المعركة ، ورد على اليازجى ، وقال : إن الألفاظ

التي استخدمها شوقي عربية فصيحة ، وأشْهَدَ بأبيات من شعر الجاهليين وغيرهم ، ثم تعرض لكتاب كان أصدره اليازجي تحت عنوان (لغة الجرائد) فنقده ، وفنده ، وأظهر أخطاءه ، وقال إن اليازجي متعنت .

وثار اليازجي على الشاب شكيب أرسلان . وأجابه بلهجة قاسية . ودخل الشيخ رشيد رضا المعركة ، وكان قد أنشأ مجلة (المنار) فى القاهرة .

وكان اليازجي يقول : إن كلمة (دعاية) غير صحيحة . فرد عليه الشيخ رشيد رضا قائلا : إنها وردت فى كتاب النبي عليه الصلاة والسلام إلى هرقل ملك الروم . حين قال له : (أدعوك بدعاية الإسلام) . فألجم اليازجي ولم يستطع الرد .

وعندما سقطت دعاية اليازجي ضد شوقي لم يستطع أحد بعده أن ينال من قدر أمير الشعراء . وكان الأمير شكيب أرسلان أمير البيان هو السبب فى رد السهام عن شاعر العربية الأكبر فى هذا العصر :

كثيرون أرادوا تحطيم شوقي :

طلاب مال ومنافع ، وطلاب شهرة ، وحاقدون حاسدون . . وأنماط كثيرة كثيرة لاحصر لها ، والله أعلم بنواياها .

ولكن خطورة إبراهيم اليازجي كانت شديدة على أمير الشعراء . ولو أنه نجح فى حملته لاستطاع إسقاط شوقي .

الشاعر لايعرف اللغة !

هذه مصيبة لاراد لها . . فماذا يبقى لأمير الشعر العربي بعد هذا ؟

المادة التي يصنع منها فنه الشعرى مجهولة له ، ولايعرفها ، ويخطئ فى استخدامها .

ومن الذى يقول هذا ؟

الشيخ إبراهيم اليازجي علم أعلام اللغة فى عصره ، والذى جعل نفسه رقيباً لغويًّا لكل ماينشر فى الصحافة المصرية ؛ فيخطئه ويخطئ كاتبه .

ولكن الكاتب الصحفى لايقل مقداره إذا أخطأ فى اللغة ، بل إن بعض الكتاب كانوا يتندرون باليازجي . ولا يهمهم أن يكونوا مخطئين .

ولكن «شوقى» أمير الشعراء يخطئ فى استخدام اللغة !

لقد تدخل شكيب أرسلان ؛ لأنه أحس بأن هناك مؤامرة تحاك ضد شوقى .

وقد جذبوا لها إبراهيم اليازجى ، ليكون فى كلمته فصل الخطاب .

ولم يتعرض اليازجى لقصائد شوقى حتى لايتلقى صفعة مثل صفعة المتنبى التى وجهها لعالم اللغة فى عصره (ابن جنى) ، فإن الشاعر يملك حرية استخدام اللغة مادام يملكها .

وقال المتنبى فى صلفه وغروره !

وما الدهر إلا من رواة قصائدى !

وقال شكيب أرسلان : إن (شوقى) مثل المتنبى يروى الدهر قصائده ، والحاسدون الناقمون يروون من أبيات أمير الشعراء !

كان المتنبى يحطم بكلماته قواعد النحو المتعارف عليها بين النحاة ؛ لأنه كان يعرف من أسرار العربية أكثر مما يعرفه النحاة ، وهو الذى كان يملك اللغة ولاتملكه اللغة .

اللغة ليست هى الكتاب . . ولكنها حياة .

ذات يوم كتب الدكتور (زكى مبارك) مقالاً فى جريدة البلاغ عن هذا الموضوع ، وأورد فى مقاله بيتاً من الشعر الجاهلى قال قائله :

إن أباها وأبا أباها قد بلغا فى المجد غايتاها

فصحح له المصحح بيت الشعر بما يعرفه من قواعد النحو ، وجعله :

إن أباها وأبا أبيها قد بلغا فى المجد غاياتها

ولم ينم زكى مبارك ليلته حتى طلع الصباح ؛ لأن المصحح ضيع عليه ما أراد أن يقوله من أن قواعد النحو التى وضعها (الخليل بن أحمد) لاتنطبق على أساليب شعراء العرب انطباقاً كاملاً .

وعندما أهل الصباح جاء الدكتور زكى مبارك إلى جريدة البلاغ ، وبحث عن المصحح وضربه بعصاه !

وزكى مبارك واحد من عشاق شوقى .

أما شكيب أرسلان فقد كان من أكابر العارفين بقدر أمير الشعراء منذ التقيا فى باريس على عهد الصبا والشباب ، وقد ألف أمير البيان كتابه الشهير عن : «شوقى . . صداقة أربعين عاماً »

وإذا كان شكيب أرسلان قد نصب (شوقى) أميراً للشعراء على مائدة مقهى فى باريس قبل أن يبايعه شعراء العرب بالإمارة – فإن هذا الحادث ليس هو الأهم فى شخصية شكيب أرسلان وعلاقتها بشوقى ؛ لأن أهم حادث هو تصدى أرسلان للحجة اللغوى إبراهيم اليازجى عندما أراد تحطيم شوقى . واستعانة أرسلان بالشيخ رشيد رضا صاحب مجلة المنار وصديق شكيب أرسلان ، وتلميذ محمد عبده . . وكلاهما تلميذ للأستاذ الإمام .

هذه قضية خطيرة فى حياة شوقى أمير الشعراء .

لم يكن فى استطاعة شوقى الرد على إبراهيم اليازجى ، ولم يكن فى مصر أحد يتقدم لمنازلة اليازجى ، بل إن معظم المجلات كانت تهاجم أمير الشعراء ، وتطرب لهجوم اليازجى عليه .

وكانت هذه الحادثة هى التى كونت عند شوقى عقدة الصحافة ، حتى إنه صادق رؤساء تحرير الصحف ، وكان يمر على مكاتبهم كل ليلة قبل عودته إلى

داره . بل إنه هو الذى منح السيدة روز اليوسف مكاناً فى أملاكه ، لتجعله مقراً لجريدتها .

كان شوقى صديقاً لجبرائيل تقلا صاحب الأهرام ، وعندما مات رثاه بقصيدة من عيون شعره ، وقال فيها قوله السائر كالأمثال :

مات رجل والرجال قليل

وكان صديقاً لداود بركات رئيس تحرير الأهرام ، وناشر قصائد شوقى فى الصفحة الأولى للمرة الأولى والأخيرة فى تاريخ الصحافة المصرية .

وكان صديقاً لتوفيق دياب صاحب جريدة الجهاد الذى أمضى معه سهرته الأخيرة ، قبل عودته إلى كرمة ابن هانئ ليلتقى لحظة اللقاء مع الموت .

ولكن لقاء أحمد شوقى مع شكيب أرسلان كان لقاء أميرين .

حتى فى إهداء الشوقيات الأولى إلى شكيب أرسلان ، قال له شوقى كلمة : أميرى .

وكان شكيب يقول لشوقى أيضا : أميرى

هذا هو أدب الأدب .

وسنظل سنوات طويلة نبحث عن أمير بيان ، أو عن أمير شعراء

ولكن ...

هل الأدب الرفيع سليل بيئة رفيعة ؟

شكيب أرسلان أمير عربى صميم من سلالة الملك النعمان بن المنذر الذى كان يمدحه الشاعر العربى النابغة الذبيانى ، وكان شكيب شديد الاهتمام بأنسابه وأحسابه ، وقد سجلها ، وحققها ونشرها على الناس . وكان خلال رحلته الطويلة العريضة يحمل لقب الأمير الذى منحه لنفسه عن طريق النسب الشامخ ، كما كان أجداده وآباؤه يحملونه من قبل ، وهو لقب موروث وغير ممنوح . ووالده هو الأمير

حمود أرسلان . ومازالت الإمارة فى بيتهم حتى الآن فى بلدة الشويفات فى لبنان .

أما أحمد شوقى المختلط الدم فقد نال لقب الإمارة من السلطان عبد الحميد سلطان آل عثمان ، عندما منحه لقب (أفندى) العثمانى ، فلم يستطع خديوى مصر عباس حلمى منحه لقب الباشوية ، لأن لقب (أفندى) كان أعلى من لقب (باشا) عند سلاطين آل عثمان وولاتهم ، ومنهم خديوى مصر عباس حلمى .

وكان شوقى قد ولد فى العز والرفاهية والترف بباب إسماعيل خديوى مصر ، وأصبح ربيب البيت الخديوى ، وجدته اليونانية (تمراز) من وصيفات القصر .

ثم أصبحت القضية عربية عبقرية .

عملاقان يتلاقيان ، أمير شعراء وأمير بيان ، وتجمع بينهما لغة القرآن .

قال لى واحد من الصحفيين الذين عرفوا (أحمد شوقى) ، ولازموه : إنه كان لايشرب الخمر فى رمضان ، وقد كان فى الإسكندرية يصطاف ودخل رمضان ، وكان شوقى صائماً ، وجاءه بعض مستأجرى أملاكه وأراضيه يسددون الحساب ، فجلسوا معه فى بعض المحال العامة ، وكانوا مفطرين ، فشرب بعضهم القهوة ، وشرب بعضهم الخمر ، فامتعض شوقى ، ولكنه سكت على عادته فى الأدب ، ولم يمنع عنهم ما يطلبون حتى انتهى شهر رمضان ، وجلس شوقى فى مكانه المفضل ، وقال قصيدته الذائعة التى كتب فيها البيت :

رمضان ولّى هاتها ياساقى مشتاقة تسعى إلى مشتاق !

كان احترام شوقى للإسلام عظيماً ، حتى أصبح شاعر الإسلام ، والهفوات والسقطات لاتسقط كلمة إيمان راسخ ؛ وطلب المغفرة أحسن من ذكر الذنوب . وقد طلب المغفرة على ذنوبه .

البشر لايملكون المغفرة لخطايا البشر ، ولكن الذى يملكها هو الواحد الأحد ، ولنا حساب وعقاب ، وقد طلب شوقى من ربه المغفرة ؛ واعترف بالذنب .

وهل جل ذنب شوقى عن الغفران ؟
إنه شاعر الإسلام وصدى لصوت القرآن .
وكل هذا الحديث سببه شكيب أرسلان الذى أثار القضية .. إمارة الشعر .. وإمارة البيان .
أردت أن أحدثك عن الأدب عندما يصبح مثل الماس ، أو اللؤلؤ المنضود ، أو قلادة حسناء مثل عنقود .
إن أرفع الأدب وأمتعه هو أدب القادرين لا أدب العاجزين . وقد تستمتع بأدب الرعاع برهة ، ولكن أدب العارفين لأصول الأدب تستمتع به كل برهة .
وليس فى الأدب برجوازية ، ولا سوقية ؛ لأنه الفن الأرفع ، يعطيه من يقدر فيمتع .
والأدب ليس هو الأمير ، وليس هو السوق الحقير ، ولكنه أمير فوق كل أمير .
كان أحمد شوقى أميراً بهذه الصفة ، ولذلك كان أمير الشعراء .
وكان شكيب أرسلان أميراً بالميراث ، فنسى إمارة الميراث واكتسب لنفسه إمارة البيان ، وأحب هذا اللقب الجديد الذى التصق باسمه .
والقضية فى جوهرها هى قضية الإمارة للأدب ، لاقضية الإمارة بالنسب ، وقد استطاع أمير البيان شكيب أرسلان ، وأمير الشعراء أحمد شوقى ، وضع الخطوط الأساسية لها فى مفهوم الفن .
وخلال فترات الصراع السياسى استطاع الأميران وضع أساس التفكير الفنى ، وكان المفهوم الأول هو : الفن للحياة ، وليس للملك أو السلطان ، وهو ليس للانزلاق إلى مهاوى الأيديولوجيات القديمة أو الجديدة .
الفن للحياة .
هذه هى الفكرة الأساسية للفنان الحى القادر على بعث الحياة ، أو صنع

الحياة ، ولذلك أصبح شوقى هو شاعر الشعب مع أنه كان شاعر الأمير أو الملك . وهذه إحدى المفارقات فى فهم الفن .

كيف يصبح شاعر الأمير هو نفسه شاعر الشعب ؟

إن الفن أعلى قدراً ، وأعظم أثراً ، وأقدر اقتداراً من كل سلطة . ولكن الفن ليس هو السوقية على كل حال ؛ لأنه أرفع من السوقية ، وأشد علواً من كل سلطة عالية .

وعندما التقى أمير البيان وأمير الشعراء حدث لقاء الفن لإمارة الفن . وكان تأثير شكيب أرسلان فى شخصية شوقى هو تأثير إمارة الفن .

كان كتاب شكيب أرسلان :

شوقى أو صداقة أربعين سنة – قصة الدفاع عن إمارة الفن والأدب والشعر .

كان شكيب فى دفاعه عن مدائح شوقى للملوك دفاعاً عن نفسه ، لا عن شوقى ، وقد تحدث عن عفة الشاعر الذى يمدح الملك وهو الملك .

وأعظم رؤية فى هذا الكتاب الفريد هى المقارنة بين المتنبى وشوقى .. وكأنه أراد أن يقول : إن (أحمد شوقى) هو متنبى عصرنا .

الوفاء والحب والإعظام لأمير الشعر هى كلمة شكيب أرسلان ، وهى نغمته الدائمة .

أليس هو الذى نصبه أميراً للشعراء قبل أن ينطق أحد بهذه الكلمة ؟

ومع ذلك خلع طه حسين إمارة الشعر من فوق كتفى شوقى ، وحاول أن يضعها على كتفى العقاد !

ثم عجز طه حسين .. وعجز عباس محمود العقاد ، وظل شوقى أميراً للشعراء !

٦ - شاعر النيل حافظ إبراهيم

لم تشهد القاهرة شاعراً أظرف من حافظ إبراهيم ؛ فقد كان يتنقل مثل النسيم ، ومعه الشاعر الصعلوك (إمام العبد) من قهوة إلى قهوة ، ومن حانة إلى حانة ، ليحكي الحكايات ويروى الروايات ويقول النكت اللاذعة البارعة .

وقد نسى الناس الشاعر (إمام العبد) . لأنه مسكين .. ومن يسأل عن المساكين ؟

سبق فى بؤسه وشقائه الشاعر (عبد الحميد الديب) وقد تعلم الظرف وخفة الدم من أستاذه البائس الأكبر حافظ إبراهيم . ولكن شاعر النيل كان مثل الجمل يحتمل ، ولايشكو . ويضحك فى أحلك لحظات الظلام والإظلام والظلم .

كان حافظ إبراهيم قوة من القوى المحركة للمجتمع المصرى ، بل للمجتمع العربى كله برغم كل ظروفه ، ومعاناته ، وبأسائه ؛ وكانت قدرته على مواجهة

الظروف خارقة للعادة .

يملك كل شيء وهو لا يملك شيئاً !

الذى يملك الكلمة يستطيع أن يملك الدنيا ولم يكن فى جيبه مليم واحد أحمر ! وحافظ واحد من القلة القليلة التى امتلكت الكلمة .

هو الذى صاح فى وجه إسماعيل باشا صدقى رئيس الوزارة الطاغية بقصيدته الذائعة :

قد مر عام ياسعاد وعام وابن الكنانة فى حماه يضام !

فهز السلطة بالكلمة الشاعرة . وجعل (إسماعيل صدقى) يتقلى على الجمر . وظل حافظ إبراهيم شاعر النيل هو الشخصية القادرة على الضحك والسخرية . حتى لو فقد رزقه القليل وهو الذى ينفق ما يكسب على الشعراء المغمورين من البائسين !

إن شخصية حافظ إبراهيم من الشخصيات النادرة فى تاريخ الأدب المصرى ؛ لأنه يمثل التحدى فى وجه كل شيء إلا وجه الواحد الأحد الفرد الصمد . وكانت تحديات حافظ إبراهيم أعظم مما يتحمله المجتمع المصرى فى عصره ؛ فقد كان الضابط الشاعر الشاب تلميذ محمد عبده هو المتحدى للاستعمار البريطانى فى السودان عندما كان ضابطاً صغيراً ناشئاً ، ثم عاد إلى مصر مطروداً من الجيش ، ليلتقى هو وأمير الثوار محمود سامى البارودى . وكان اللقاء مثيراً عاصفاً بعد عودة البارودى الفارس الشاعر من المنفى وقد من عليه خديو مصر عباس حلمى براتب شهرى يرسله إليه أول كل شهر فى ظرف مغلق يضم أربعين جنيهاً ،

وفى أول لقاء بين البارودى وحافظ قدم الفارس محمود سامى البارودى باشا ، ظرف معاشه لحافظ إبراهيم ، ليعيش البارودى باشا شهراً كاملاً بلا قرش واحد من أجل أن يعيش حافظ إبراهيم حياته الصاخبة فى يوم واحد ، أو لحظة واحدة !

عاش حافظ إبراهيم حياته بالطول والعرض . وملأ الدنيا بالضحكات والبسمات ، وسط جو قاتم مملوء بالفزع والضياع ، ووقف بقامته الفارعة يتحدى الزمن وهو الذى أغلقت فى وجهه أبواب الرزق ، وفتحت أبواب العبقرية .

كان شوقى فى قمة الثروة والرخاء والرفاهية على حين كان حافظ فى قاع الفقر والحاجة والبؤس حتى بعد أن منح رتبة البكوية وعين وكيلا لدار الكتب !

وظل البؤس ملازماً لحافظ حتى بعد موته ؛ فقد دفن فى مقبرة مجهولة منفردة فى عرض الطريق ؛ حتى أنقذ محمود باشا صدقى محافظ القاهرة فى عهد الملك فؤاد رفات شاعر النيل ، وأنشأ له مقبرة لائقة فى قرافة السيدة نفيسة الجديدة بالقاهرة ، ولكن أحداً من الشعراء والأدباء لم يعرف مكان هذه المقبرة الجديدة التى توشك أن تنهدم بسبب الإهمال ، ولأن أحداً لايزورها فى المواسم والأعياد على عادة المصريين ، وليس لها حارس يحرسها من الضياع !

وعندما أقامت وزارة الثقافة أمسية شعرية لحافظ إبراهيم لم تفكر فى وضع إكليل من الزهور على مقبرة الشاعر ؛ لأنها لاتعرف مكانها . ولاتسأل الذين يعرفون ! .وأعتقد أننا يجب أن نضع تقاليد لتكريم العباقرة فى بلادنا .

لقد كان أول حفل جامعة (مارتن لوثر) فى مدينة (هالة) الألمانية الشرقية ، عندما احتفلت بذكرى مرور مائة عام على مولد المستشرق الكبير (كارل بروكلمان) هو أنها أخذتنا إلى مقبرة العالم الكبير ، الذى أحاطت به باقات الزهور .

إن مقبرة حافظ إبراهيم فى قرافة السيدة نفيسة الجديدة هى أول مقبرة أقامتها الدولة لتكريم عبقرى فذ من عباقرة مصر .

وعندما مات طه حسين لم يجدوا له قبراً يدفن فيه . وقد سارع المهندس عثمان أحمد عثمان إلى إنشاء مقبرة فى البساتين على مقربة من الإمام الشافعى ، لعميد الأدب العربى . كما أقامت الدولة مقبرة لعباس محمود العقاد فى أسوان .

أريد أن أقول لك إن مقابر العظماء هى متاحف الحضارة ، وقد شاهدت مقبرة (جوته وشيللر) فى مدينة فايمار الألمانية الشرقية ، وهى مقبرة عريقة قديمة ، تنفق على نفسها من بيع تذكارات وكتب وصور الشاعرين ليعرّفوا الناس معنى الحياة والخلود فى الأدب .

لست أدرى لماذا دفعنى حافظ إبراهيم إلى هذا الحديث ؟

البؤس . . .

وكم ذا بمصر من المضحكات : كما قال فيها أبو الطيب !

هذه كلمة حافظ إبراهيم مترجم رواية البؤساء لشاعر فرنسا فيكتور هوجو .

ولماذا ترجم حافظ رواية البؤساء بالذات ؟

شاعر النيل الذى ملأ الدنيا بالضحكات كان بائساً ، وكان تابعه الدائم هو الشاعر البائس إمام العبد ، وهو شاعر أسود الوجه ، كان حافظ يتندر بسواده فى الليالى السوداء .

ذات يوم جاءه إمام العبد ، وكان الصيف قائظاً شديد الحرارة ولم يضع العبد رباط عنق حول قميصه ، فظهرت رقبته السوداء ، وبادره حافظ قائلاً

– أنت لابس كرافتة سودة ليه ياإمام، مين مات لك ؟

وعندما ذهبا إلى الإسكندرية معاً نزل إمام العبد ليستحم فى البحر ، ثم خرج من الماء ، متجهاً إلى أستاذه حافظ إبراهيم الذى صاح ضاحكاً

– سودانى ومملح !

وكان إمام العبد من الشعراء الظرفاء . ولكن شعره ضاع وسط زحمة العباقرة فى عصره ، بل إن اسمه اختفى من تاريخ الأدب المصرى الحديث ، ولم يعد أحد يذكره

وبرغم كل الظروف استطاع حافظ إبراهيم بعبقريته الفذة أن يسير مع أحمد

شوقى على درب واحد . واشتهر فى الأدب العربى الحديث شاعران متلازمان : حافظ وشوقى .

وكان حافظ يقول فى مجالسه :

– إن اسم حافظ وشوقى أصبح مثل نداء الباعة .. سميطْ وبيضْ ! واستمر هذا خمسين عاماً .

كان لقاء القمة مع لقاء القاع ، وهذه إحدى عجائب مصر : فقد حدث لقاء مشابه فى الشعر الألمانى ، عندما التقى (يوهان ولفجانج جوته) و (فردريش شيللر) ولكنه كان لقاء قمة : فإن الوزير جوته عندما أقام بيته العريق الأنيق فى مدينة (فايمار) ، أصر على بناء بيت مثله ، وعلى مقربة منه للشاعر المتمرد (شيللر) ، وكان (جوته) يتحمل كل هجمات وطعنات (شيللر) تلميذه وزميله ، من أجل عيون الشعر العبقرى . وعندما أقيم مسرح (فايمار) وضع أمامه فى الميدان تمثالٌ واحد للشاعرين المتعانقين فى ظل ربة الشعر والجمال ، كما دُفنا معاً فى مقبرة واحدة كما قلت لك .

ولكن الموقف مع شوقى وحافظ كان مختلفاً أشد الاختلاف : فقد ظل شوقى فى القمة ، وظل حافظ فى القاع ، برغم الاعتراف الكامل بالعبقريتين ، حتى من طه حسين ، صاحب كتاب (حافظ وشوقى) الذى شطح فيه ونطح ! ولم يكن منصفاً للعبقرية الشعرية التى قلما يجود بها الزمان .. وقد ظهر فى عصر شوقى وحافظ كوكبة من الشعراء قسّمهم (مصطفى صادق الرافعى) إلى عشر طبقات ، فى إحدى مقالاته التى نشرها فى مجلة (المقتطف) وجعل أحمد شوقى من الطبقة العاشرة بين شعراء العصر . وهذا يدل على أن شوقى كان يغيظ كل الشعراء حتى وضعه الرافعى فى ذيل قائمته العجيبة الغريبة ، ولكن الرافعى خاف فى توقيع مقاله . ووقع بإمضاء مستعار .

ولكن هذه الصور المهزوزة لم تستطع أن تهز قيمة شوقى وحافظ ، وظلا معاً مثل (السميط والبيض !) كما قال حافظ إبراهيم .

نحن لانعلم كيف ومتى بدأ الاتصال بين حافظ وشوقى ، لأن تاريخ الأدب المصرى لم يسجله أحد تسجيلاً علميًّا ، ونحن نحاول الوصول إلى خيوطه الضائعة وسط الظلام .. وكلمة من هنا وكلمة من هناك .

عندما أعلنت الحماية على مصر عام ١٩١٤ ، وعزل الخديو عباس حلمى ، وولى الإنجليز السلطان (حسين كامل) سلطاناً على مصر قال شوقى قصيدته الخطيرة :

الله يشهد ما كفرت صنيعه	فى ذا المقام ولا جحدت جميلا
والله يعلم أن قلبي موجع	وجعاً كداء الثاكلات دخيلا
مِمَّا أصاب الناس فى أبنائهم	ووهى الهلال ممالكاً وقبيلا
أأخون إسماعيل فى أبنائه	ولقد ولدت بباب إسماعيلا ؟

وقال شوقى فى هذه القصيدة :

وانفض ملعبه وشاهده على	أن الرواية لم تتم فصولا

فضحك حافظ ، عندما سمع القصيدة وقال :

— هذه مقالة ، وليست قصيدة !

وفعلاً كانت هذه القصيدة مقالة سياسية خطيرة ، وهى من الشعر السهل الممتنع . وقد نُفِي شوقى من مصر ، ورحل إلى الأندلس بسبب هذه القصيدة .

ولكن (شوقى وحافظ) تعارفا قبل ذلك بسنوات ، فقد كتب شوقى مقطوعة فى تقريظ ديوان حافظ عند صدوره . وقال فيها :

ياحافظ الآداب والبطل الذى	يرجى ليوم فى البلاد عصيب

ولكن الصراع بين الشاعرين كان عظيماً .

قال شوقى فى إحدى قصائده التى مدح بها مولاه الخديو عباس حلمى :

مولاى عبدك طائع فافعل به ما أنت فاعل

وقيل لحافظ :

- أى بيت من الشعر تفتخر به ؟ فقال :

ويابدُ ما كلَّفتُك البسطَ مرة لذى منة ، أولى الجميل وأنعما !

ثم اشتهر حافظ إبراهيم فى مصر بعد حادثة دنشواى بأنه شاعر الوطنية ومشهر دنشواى فى البرية . وكان شوقى فى أعماق نفسه شديد الإعجاب بحافظ وشعره الوطنى ، ولكن لم يستطع خلال فترة التصاق اسمه بأمير البلاد أن يعلن ذلك صراحة .

ومن الحوادث الطريفة أن المعتمد البريطانى فى مصر (السير ألدن جورست) سافر إلى السودان فى يناير ١٩٠٨ ، وكان قد تولى بعد عزل لورد كرومر سفاح دنشواى ، ونشرت الصحف أن جورست اصطاد سمكة وزنها ٥٢ رطلاً ، ثم جذبها إلى البر بعد جهاد دام ساعتين إلا ربع الساعة ، فكتب حافظ مقطوعة ، تحت عنوان (شهيدة الخرطوم) ونشرها فى جريدة الظاهر يوم ٤ من يناير ١٩٠٨ ، قال فيها :

قال الحمام معزياً فى النيل أنواع السمك

عام البنادق قد مضى : ولقد أتى عام الشبك !

فالسعد لى ، والفرح لى : والأمن لى ، والويل لك !

وفى ٣١ يناير ١٩٠٨ نشرت (الجريدة الأسبوعية) مقطوعة لشوقى ، قال فيها :

غورست رب السمكه ، ذاك بشير البركه

سحبتها بالرفق فهى أمةٌ ممتلكه

إن كنت قد خطفتها ، ولم تزل فى حركه

ابعث لسلمان ومطران بها مشتركه

فإنها مصلحة للمعد المرتبكه

كلاهما معدته تأخذ شكل الشبكه

وهناك معارضات كثيرة بين شوقى وحافظ . ولكن المشكلة التى تواجهنا هى أن شوقى لم ينشر نشراً علمياً بحيث تعرف تواريخ قصائده ومناسباتها . ولكن شعر حافظ نشر نشراً علميًّا ، مع أن الديوانين غير كاملين ، وهناك قصائد ومقطوعات كثيرة ضاعت منهما ، ولم تنشر .

عندما كان شوقى فى المنفى لم يغب عن خاطره حافظ إبراهيم : ففى عام ١٩١٧ عرض داود بركات رئيس تحرير الأهرام على حافظ إبراهيم ثلاثة أبيات وردت باسمه فى كتاب من أمير الشعراء أحمد شوقى إلى جريدة الأهرام ، وكان عنوان أبيات شوقى : (من الغائب إلى المقيم) وهو يقول فيها :

ياساكنى مصر إنا لانزال على عهد الوفاء – وإن غبنا – مقيمينا

هلاً بعثتم لنا من ماء نهركم شيئاً نبل به أحشاء صادينا !

كل المناهل بعد النيل آسنة ما أبعد النيل إلاّ عن أمانينا !

وكتب حافظ رداً على رسالة شوقى ، تحت عنوان : (من المقيم إلى الغائب) وقال فيها :

عجبت للنيل يدرى أن بلبله صادٍ ويسقى رُبَا مصرٍ ويسقينا

والله ما طاب للأصحاب مورده ولا ارتضوا بعده من عيشكم لينا

لم تنأ عنه – وإن فارقت شاطئه وقد نأينا – وإن كنا مقيمينا

وأنت ترى فى هاتين المقطوعتين : كيف تلاقت روحا الشاعرين فى أعظم لقاء عاطفى دافئ ، من النادر أن تجده فى الشعر العربى ؟

وكان العبقريان يعرف كل واحد منهما قيمة صاحبه ، وعندما كان شوقى فى قمة الغنى والثراء وحافظ فى قاع الفقر والحاجة لم نسمع أن حافظاً احتاج لمساعدة شوقى ، أو أن شوقى حاول مساعدة حافظ .

كان الشاعر الأكبر الفارس محمود سامى البارودى يقول :

خلقت عيوفاً لا أرى لابن حرة على يدا أغضى لها حين يغضب

وكان الشاعر الفارس الآخر حافظ إبراهيم يقول :

ويا يد ماكلفتك البسطَ مرة لذى منة ، أولى الجميل وأنعما !

كلاهما يدور حول معنى واحد . ولكن بيت البارودى أبلغ وأعظم من بيت حافظ .

وكان سعد زغلول يتمثل بهذا البيت من شعر البارودى فى خطبه الرنانة . ويعيده ويستعيده وينغمه ، فيلهب أحاسيس الجماهير .

ولكن .. ما أثر حافظ إبراهيم فى حياة شوقى الشعرية ؟ إن المنافسة تخلق أجواء العبقرية . وكانت المنافسة بين الشاعرين ممتدة حتى وفاة حافظ الذى رثاه شوقى برائعة من روائعه يقول فى مطلعها :

قد كنت أوثر أن تقول رثائى يامنصف الموتى من الأحياء

وهذا هو الاعتراف الشعرى بالعبقرية الواحدة التى لاتتجزأ . فإن شوقى لم تكن من أمنياته أن يرثيه شاعر آخر غير حافظ إبراهيم . وكان فى مصر وفى بلاد العرب عشرات الشعراء على مختلف المستويات والطبقات فى الشعر .

عندما تلقى شوقى نبأ وفاة حافظ كان يصطاف فى الإسكندرية وكان يختار الجلوس بالقهوة التجارية ؛ ليستوحى الأمواج . فقرأ فى جريدة البلاغ أن حافظا مات ، فغام وجهه ، وأنشأ أعظم قصيدة قالها فى الرثاء

ووددت لو أنى فداك من الردى والكاذبون المرجفون فدائى

الناطقون عن الضغينة والهوى الموغرو الموتى على الأحياء
من كل هدام ويبنى مجده بكرائم الأنقاض والأشلاء
ما حطّموك وإنما بك حطموا من ذا يحطم رفرف الجوزاء
انظر فأنت كأمس شأنك باذخ فى الشرق واسمك أرفع الأسماء

كان لقاء شوقى بحافظ أعظم لقاء للشعر العربى فى العصر الحديث .

وفى سنة ١٩٢٧ ، أقيمت حفلة فى دار الأوبرا لتكريم شوقى ، والمناداة به أميراً للشعراء بصفة رسمية ، وحضر الحفلة وفود من شعراء البلاد العربية .

وعندما وقف حافظ ليلقى قصيدته قال فى مطلعها :

أمير القوافى قد أتيتُ مبايعاً وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

وثب شوقى من مقعده ، وقبّل حافظاً على خديه .

كانت هناك فوارق بين حياة شوقى وحياة حافظ ، وهى شديدة الشبه بالفوارق بين جوته وشيللر . فقد كان جوته وشوقى من الأغنياء وكان شيللر وحافظ من الفقراء . ولكن آلهة العبقرية لاتعرف الغنى والفقر . وقد عرف عن شوقى أنه كان يستحم بالكولونيا ، ولايستحم بالماء على حين كان يحلو لحافظ أن يعيش حياة أبناء البلد ، فيرتدى الجلابية والمعطف فى غالب الأحيان ، ولا يرتدى البذلة إلا فى المناسبات ، وكان يتنقل فى القاهرة على عربات الترام بالدرجة الثانية ، عندما كان أجر الركوب ستة مليمات . وقد روى هو بنفسه ما حدث له عندما داس بقدمه على قدم أحد الركاب ، وكان ذلك فى شهر أغسطس ، فقال له الراكب :

– حاسب ! (إنت مش عارف أنا مين) ؟

فرد عليه حافظ ضاحكاً :

– عارف .. راكبٌ فى الترام بالدرجة الثانية فى شهر أغسطس .. تبقى مين ؟

وكانت لحافظ حوادث كثيرة تبين لنا طريقته فى الحياة ، ومزاجه وهو مغاير

شوقى فى كل شىء .

لم تكن لشوقى شلة من الأصدقاء ؛ ولكنه كان يستقبل ضيوفه فى قصره ستقبالات شبه رسمية : فى حفلات شاى ، أوأمسيات كوكتيل ، أوعشاء ، كما كان يستقبل بعض الأدباء والصحفيين فى مكتبه . أو يجلس مع بعض أصدقائه فى المحال الراقية . وكان قليل الكلام . سارحاً فى ملكوت الله .

أما حافظ فقد كانت له أكثر من شلة . وكان صاحب أحاديث باهرة . ونكت رائعة رويت عنه ، ولكنها لم تسجل . وكان يشاركه فى النكت والتنكيت الشيخ عبد العزيز البشرى ومحمد البابلى . وكان ثلاثتهم فى جيلهم فرسان الفكاهة .

الأدباء يعرفون عبد العزيز البشرى ، واسمه رنان عند قراء العربية ، ولكن محمد البابلى .. قليلون يعرفونه ، وهو ابن عبده بك البابلى الذى كان جواهرجى العائلة الخديوية فى عصر الخديو إسماعيل . وقد تخرج محمد البابلى فى مدرسة البوليس ، واشتغل ضابط شرطة لمدة قصيرة ، ثم عاش للأدب والفن حتى أفنى ثروته الطائلة .

كان الثلاثة الظرفاء يسكنون حلوان حين كانت مجمع الأغنياء والأعيان والأدباء .

هذا هو الجو الذى كان يعيش فيه حافظ إبراهيم .. جو المرح والفكاهة والنكتة – على خلاف شوقى الذى كان يعيش حياة القصور . وله نظام فى حياته ، وصفه الدكتور زكى مبارك ، وكان قريباً منه فقال :

كان مدمناً على التدخين ، وكان يضع السيجارة فى مبسم من الكهرمان ، وما رأيته بدون سيجارة ، وكان يشرب الشاى من وقت إلى وقت ، وكان مغرماً بأكل البيض . كان يأكله نيئاً عند نظم الشعر .

ولم يكن شوقى يستحم بالماء كما يستحم الناس ، وإنما يستحم بالكولونيا .

وكانت خادمته هى زوجته وتقدر مواعيده الغالية . ولم يكن شوقى يفطر فى البيت ، وإنما يمضى مع الشروق ، فيفطر فى مطعم صولت بشارع بولاق واسمه اليوم شارع فؤاد .

وكان مفتوناً بشرب الويسكى ، ولم يكن يشربه إلا بعد منتصف الليل فى البيت .

وكان من عادة شوقى أن يتناول عشاءه فى مطعم من المطاعم الفاخرة فى القاهرة .

أما حافظ إبراهيم فقد كان بوهيمياً منطلقاً . فلا بيت ولا زوجة ولا أولاد ! ولا علاقات عائلية وليس له نظام فى حياته إلا مع أصدقائه . وأشهرهم . محمد البابلى ومحمد المويلحى وعبد العزيز البشرى وصادق رستم وبيرم التونسى وعبد الله سليمان أباظة . والشىء الذى يسترعى النظر هو أن بيرم التونسى كان من شلة حافظ إبراهيم ، فإن أحداً من دارسى أدب بيرم لم يعرف هذه الحقيقة . وقد عثرت على مقطوعة لحافظ لم تنشر ، يقول فيها عندما رثى عبد الله أباظة :

كن على عهد الصبا سبعة ... بمستطاب اللهو نستأثر
البابلى صفوة فتياننا ... وابن المويلحى الكاتب الأشهر
وصادق خير بنى سيد ... وبيرم إذ عوده أخضر
وكان عبد الله أنساً لنا ... وأنس عبد الله لاينكر
فكم لنا فى مجلس طيب ... يشتاقه هارون أو جعفر !
نلعب باللفظ كما نشتهى ... ونضمر المعنى فما يظهر
ونرسل النكتة محبوكة ... من غيرنا فى الحسن لاتصدر !

إن النقاد المدرسيين لايستطيعون فهم تأثير حافظ فى شوقى ، وقد أكد تعاقب السنين والأيام أن الشاعرين (حافظ وشوقى) ، وصلا إلى الخلود الأدبى برغم كل

ما كتب عنهما من انتقاد ، لانقد .

إن ربة الشعر الملهمة لاتعترف بآراء طه حسين والعقاد والمازنى فى شعر شوقى حين هاجموه ، ولا رأيهم فى شعر حافظ حين جاملوه ؛ لأن الفن فوق الهجوم والمجاملة .

فأقول لك الحق :

كان حافظ إبراهيم شاعر النيل من العوامل المؤثرة فى تفجير شاعرية شوقى ، بل إنه كان من أخطر العوامل . ولا تجوز لنا المقارنة التافهة حول الصور الشعرية . والتركيبات اللفظية بين شاعرين من العباقرة ، وليس لنا أن نتلمس السقطات والهفوات عندما ندخل المحراب الأقدس الذى تنطلق فيه الكلمة :

ألم يقل شوقى فى رثاء حافظ :

ما حطموك ، وإنما بك حطموا   من ذا يحطم رفرف الجوزاء ؟
انظر فأنت كأمس شأنك باذخ   فى الشرق واسمك أرفع الأسماء !

كان هذا هو لقاء العبقرية بين أمير الشعراء ، وبين شاعر النيل ، وسيظل هذا اللقاء دائماً عبر الأجيال .

٧ - الدكتور محمد حسين هيكل

من رأى الدكتور طه حسين أن (هيكل) عندما قدم ديوان البارودى ، وديوان الشوقيات كان من المعجبين بهذين الشاعرين ، ولكنه لم يكن يستطيع أن ينشئ أدباً كالذى ينشئه هذا أو ذاك .

لماذا ؟

لأن (هيكل) - كما يرى طه حسين - كان يعيش فى عصره ، وكان البارودى وشوقى يعيشان فى عصور مضت . فى عصر المتنبى وأبى تمام وأبى نواس ومسلم بن الوليد ، وربما عاش البارودى فى العصر الجاهلى أو فى العصر الإسلامى .

ويكمل طه حسين تصوره ، فيقول : إن (هيكل) كان يعيش بيننا . ويعيش فى هذه الأحداث الخطيرة التى عشناها واصطلينا بنارها .

هذا الزعم من طه حسين ليس صواباً ، بل إنه يتجنى على البارودى وشوقى

معاً، فقد عاشا مثله هذه الأحداث الخطيرة، واصطليا بنارها أكثر مما اصطلى هو.

البارودى هو شاعر مصر خلال الثورة العرابية، وقد أنصفه الدكتور هيكل حين قدم ديوانه للناس. وقال عنه:

« ونحن نحاول اليوم أن نتلمس الجديد فى شعر البارودى. ونقصد بالجديد ما أبدع من أغراض لم تكن مطروقة فى عهد الأولين ممن بعث لفنهم وشعرهم، وما كانت ذاتيته قوية واضحة فيه، وما يتصل بالحاضر مما جعله الشعر الأوربى من أغراضه. فيأخذ بألبابنا ما فى ديوانه من الشعر السياسى. ومن وصف الطبيعة المصرية والآثار المصرية، والحياة المصرية، أما ما خلا ذلك فلم يعد البارودى فيه مقاصد المتقدمين من شعراء العرب، ولم يعد أوزانهم وقوافيهم وأغراضهم ».

وكانت رسالة البارودى – كما يقول الدكتور هيكل – هى بعث الشعر العربى من مرقده، وتمزيق الأكفان التى احتوته مئات السنين. وما وفق له البارودى من هذا البعث الجديد لايزال حتى اليوم أعظم تجديد تم فى حياة الشعر العربى منذ نهض البارودى به، لا يقرن إليه إلا ما وفق له شوقى حين وضع مسرحياته الشعرية الخالدة: مجنون ليلى ومصرع كليوباترا وما إليهما.

ولذلك فإن الدكتور (هيكل) لم يعجب بالبارودى وشوقى عبثاً، بل كان يعرف قيمة شعرهما فى الحياة المعاصرة. ولم يكن فى استطاعته أن ينشئ أدباً مثل أدبهما كما طالبه الدكتور طه حسين، لأن (هيكل) ليس شاعراً.

كان طه حسين يرى فى البارودى وشوقى رأيا متعصباً، يلجئه فى بعض الأحيان إلى الخروج عن منهجه فى النقد. بل إن تصوره لشعر الملاحم عند اليونان، وإعجابه بوحدة القصيدة فى الشعر الأوربى، جعله شديد التجنى على الشاعرين الكبيرين.

ولكن (طه حسين) لم يطبق نظريته فى الشعر على أبى العلاء، بل كان يهتز

طرباً كلما أنشد نظماً سخيفاً من اللزوميات العلائية .

والحقيقة هى أن (طه حسين) لم يكن أول ناقد عربى عقد المقارنات بين شعر الملاحم اليونانية ، وشعر القصائد العربية : فقد سبقه إلى ذلك سليمان البستانى مترجم إلياذة هوميروس من اليونانية إلى العربية . فقد تعلم البستانى اللغة اليونانية القديمة وأتقنها قبل ترجمة الإلياذة . وقد مكنته ظروفه الثقافية والوظيفية من الاشتغال بالأعمال الأدبية العظيمة ؛ فهو من دوحة الأسرة البستانية الشهيرة بالعلم والأدب فى لبنان . وكان وزيراً فى الدولة العثمانية ، بل إنه كان أول وزير عربى فى دولة الخلافة فى إسطنبول . وقد كتب سليمان البستانى مقدمة لترجمة الإلياذة تعتبر أول نص نقدى علمى فى الآداب العربية الحديثة . وقد تحدث عن شعر الملاحم وعن وحدة القصيدة . وعن وحدة البيت الواحد من الشعر ، أو شطر البيت .

وعندما تحدث طه حسين عن هذه الموضوعات اعتقدنا أنه يقدم لنا جديداً لم نكن نعرفه من قبل . وكان رأيه فى شعر شوقى هو ماقدمته إليك بكلماته فى إيجاز .

ذكر الدكتور (زكى مبارك) أن (شوقى) طلب إليه كتابة مقدمة أدبية للشوقيات فى طبعتها الجديدة التى صدرت عام ١٩٢٦ ، فأحجم عن ذلك واعتذر . ثم حدث صديقه (طه حسين) بذلك عندما كانت بينهما صداقة ، فقال له طه حسين : إنه من الشرف للكاتب أن يقدم الشوقيات ، وإن شوقى لو طلب منه ذلك ماتردد لحظة واحدة .

وكان (زكى مبارك) عيوفاً أنوفاً شديد التأثر بكل ما يدور حوله ، ولذلك اعتقد فى قرارة نفسه أنه لو كتب مقدمة للشوقيات لقال الناس عنه : إنه أخذ مالاً من شوقى ، فقد كان أمير الشعراء كثير الهبات والصلات ، وكان يشترى الأقلام حتى لاتهاجمه ، على طريقة الخديويين والملوك والحكام ، فامتنع عن كتابة المقدمة برغم حبه الشديد لشوقى ، حتى إنه ظل القلم الذى لم يهاجمه قط ، ولم ينتقص من

قدر شعره ، بل إنه كان داعية دعاة عبقريته .

ولكن .. ماقصة الدكتور هيكل مع شوقى ؟

للتاريخ يجب أن نذكر أن الدكتور (هيكل) كتب المقدمة للشوقيات عام ١٩٢٦/٢٥ ، ثم كتب المقدمة لديوان البارودى بعد ذلك بسنوات ، حيث طبع الديوان عام ١٩٥٢ ، ولكن قرار طبعه كان قد صدر قبل ذلك عندما كان محمود فهمى النقراشى وزيراً للمعارف[1] . ونحن لانعرف متى كتب هيكل مقدمته لديوان البارودى على وجه التحديد ؟ وهذا لايهم كثيراً ، بل إن الملاحظة الهامة هى أن الدكتور (هيكل) قدم البارودى بعد شوقى .

ولم يكن هيكل من نقاد الشعر ، ولعله لم يتعرض فى كتاباته الكثيرة للشعر والشعراء خلال أى عصر من عصور الأدب . وعندما كتب مقدمة الشوقيات كان غارقاً فى السياسة حتى أذنيه ، فقد رشحته الأحزاب المؤتلفة خلال تلك السنة للانتخابات فى دائرة الجمالية بالقاهرة ، وأيد سعد زغلول هذا الترشيح ، مع أن (هيكل) كان رئيساً لتحرير جريدة السياسة لسان حال حزب الأحرار الدستوريين .

كما أن شوقى لم تكن له صلات بحزب الأحرار الدستوريين ، بل كانت له صلات بالوفد ، وخلال رحلة لسعد زغلول على ظهر الباخرة محاسن إلى بعض بلاد مديرية الجيزة فى مايو ١٩٢٦ – دار حديث حول مائدة الغذاء يوم ٦ من مايو بين محمود فهمى النقراشى والدكتور محجوب ثابت فى حضرة سعد زغلول عن شوقى وحافظ إبراهيم . وكان النقراشى يذيع أن الدكتور (محجوب ثابت) يحسد أمير

---

(١) تولى محمود فهمى النقراشى وزارة المعارف مرة واحدة من ١٨ أغسطس ١٩٣٩ إلى ٢٧ من يونية ١٩٤٠ فى وزارة على ماهر باشا وبذلك فإن قرار طبع ديوان البارودى يكون قد صدر خلال هذه الفترة أى أن الدكتور كتب مقدمته بعد كتابة مقدمة الشوقيات بسنوات .

الشعراء بسبب حفلات التكريم التى تقام له . ولم تكن هذه الأحاديث جادة ، بل كانت ممازحات يقصد بها الترفيه عن سعد زغلول وإسعاده ، فقد كان يحس بوطأة المرض ، ويشعر باقتراب النهاية . ولم يجد أصفياؤه شيئاً يرفه عنه خيراً من الشعر . وكان الفارسان فى الميدان هما (شوقى وحافظ) .

ولكن (حافظ إبراهيم) كان أشد قرباً لسعد زغلول من شوقى . بل إنه كان ملازما لبيت الأمة ، وله قصائده فى مظاهرة السيدات خلال ثورة ١٩١٩ وغيرها من القصائد التى مال بها إلى الوفد .

ويبدو أن (سعد زغلول) كان أشد ميلاً إلى شوقى ، كما كان من عشاق البارودى ، وكان يستشهد بأشعاره فى خطبه الرنانة . وعندما حدثت جفوة بين سعد وشوقى تدخل الشيخ عبد الرحمن الجديلى فى الأمر ، حتى ذهب زعيم الأمة إلى كرمة ابن هانئ ، وصالح أمير الشعراء . ونشرت لهما صورة فوتوغرافية على صدور الصحف .

وشوقى هو الذى رثى (سعد زغلول) بقصيدة لم يكتب مثلها فى الشعر العربى ، وقال فى مطلعها :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها وانثنى الشرق عليها فبكاها

ثم ظل شوقى على حبه للوفد حتى الليلة الأخيرة من حياته . حيث مر على صديقه توفيق دياب صاحب جريدة الجهاد كبرى جرائد الوفد فى ذلك الزمان . وكان توفيق دياب واحداً من المترنمين بشعر شوقى فى المحافل والحفلات . لأنه كان من كبار الخطباء أصحاب الأصوات الرنانة . والوقفات والقفلات التى تحبب إليك الشعر ، وتحببك فى الشعر .

فى ذلك العصر كان الذين يترنمون بشعر شوقى مثل عشاق أم كلثوم . فهم سميعة يتذوقون الشعر .

ولكن القدر شاء أن يكون الدكتور هيكل (الحُرّ دستورى) هو كاتب مقدمة الشوقيات.

إن الموضوع ليس سياسياً كما نتوهم، ولكنه موضوع أدبى فيه جانب من السياسة وقد كان شوقى يعامل السياسة منذ نشأته حتى آخر لحظات حياته، ونحن لا نعرف كيف تم اللقاء بينه وبين الدكتور هيكل؟ ولا كيف كتب هيكل مقدمة الشوقيات؟ وما الدوافع التى دفعته إلى ذلك؟

الطبعة الأولى من الشوقيات كتب شوقى بنفسه مقدمتها، وكان فى إمكانه أن يعيد نشرها مع ديوانه. أو يعدلها ويهذبها كما يشاء، بل إنه لم يكن فى حاجة إلى كاتب يقدمه فى شوقياته للناس. فقد أصبح أشهر من الشهرة. ولكنه عندما كتب قصيدته (نهج البردة) طلب من محمد المويلحى سيد كتاب عصره أن يقدمها للناس، كما طلب من الشيخ سليم البشرى شيخ الإسلام أن يشرحها للناس، ثم طبعها فى كتاب، وقدمها هدية لمولاه الخديو عباس حلمى فى مناسبة حجه إلى بيت الله الحرام.

هل هى روح العصر فى التقديم والتقريظ؟

كان شوقى نفسه يقوم بهذه الأعمال الفنية العجيبة، وليس هذا غريباً فى الآداب العالمية، فقد كان (جورج برنارد شو) يكتب مقدمات لبعض الكتب، ومنها كتاب للشاعر الإنجليزى الصعلوك (دافيز) صاحب كتاب (حياة شخصية لصعلوك عظيم) ومنها كتاب (أعمدة الحكمة السبعة) للبريطانى الشهير (لورانس) صاحب المغامرات فى جزيرة العرب وسيناء والقاهرة.

اشترك أمير الشعراء والدكتور هيكل فى تقديم كتاب صغير، لا يعرفه أحد، وهو نظم شعرى لكتاب (كليلة ودمنة) لابن المقفع، وكان ناظمه هو الشيخ (محمد عبد الرحيم تره) الذى اشتغل مدرساً للغة العربية فى بعض المدارس

بمحافظة الغربية .

ومقطوعة شوق المنشورة فى هذا الكتاب من الشوقيات المجهولة ، ويقول فيها :

بيان ابن المقفع عاد شعراً وفصل بالحقيقة والصواب
أتى عبد الرحيم به فصولاً روائع فى التحاور والخطاب
شوائق كالربا تحت الغوادى روائق كالينابيع العذاب .
تطوف عليك من كرم القوافى ألذ من الغناء على الشراب

أما الدكتور هيكل فقد كتب مقدمة للكتاب الذى توفى صاحبه عام ١٩٣١ ، ووضح وجهة نظره فى الفن ، وقال : إن كتاب ابن المقفع قطعة من الأدب ، نقلت من النثر إلى الشعر ، وكان يتمنى أن تزين بالصور . وضرب مثلاً بأقاصيص (أيسوب) اليونانية التى نقلها (لافونتين) إلى شعر فرنسى بديع .

إن لقاء شوقى وهيكل على صفحتين متقابلتين من هذا الكتاب الذى لايذكره أحد له دلالة خاصة فى عالم الأدب ، وهى دلالة العظمة الشخصية التى تحفل بالرغبة فى إيقاظ النفوس الهامدة ، والمشاعر الجامدة نحو الحركة من أجل الحياة .

أمير الشعراء وكاتب عظيم يقدمان كتاباً يضم منظومات مصنوعة ، لاتساوى شيئاً فى تيار الحياة الأدبية ، ومؤلفه مدرس فى إحدى مدارس المحلة الكبرى .

هذا هو مقياس العظمة الشخصية عند هؤلاء العباقرة الكبار الذين يقبلون ولايرفضون ، ويشجعون ولا يقتلون ، والحياة الأدبية بعد ذلك لاتقوى ، ولاتزدهر إلا حين نسمع كلمة الأمل .

لقد التقى هيكل وشوقى فى لقاء العظمة الشخصية ، ولم تكن بينهما مصالح ، ولا صداقات ، ولا عداوات .

أين (لافونتين) من الشيخ محمد عبد الرحيم تره ؟

ولكن الدكتور (هيكل) كمثقف عظيم ينبه الأذهان إلى أن كل حرف يكتبه

كاتب أو ينظمه شاعر يجب أن نقدره حق قدره حتى لو كان هيناً يسيراً ، لأن الكلمة أساس الحياة .

لقد كان اختيار شوقى للدكتور هيكل فى كتابة مقدمة الشوقيات ، اختياراً ينم عن الذوق الرفيع ، والفهم الواعى ، لأن (هيكل) عرف بالرزانة والهدوء النفسى مع البراعة والدقة فى الأسلوب . وكان قد استرعى الأنظار عندما بدأ فى نشر تراجم بعض الشخصيات المصرية والأوربية ، التى جمعها فى كتابه (تراجم مصرية وغربية) وسلك فى كتابة هذه التراجم طريقة وأسلوباً لم يعرفه كتّاب العرب من قبل . فهو يعرض شخصياته ويحللها بطريقة علمية داخل إطار الأسلوب الأدبى .

كان فن كتابة التراجم عند العرب من الفنون التى تنحو إلى التقرير ورواية التواريخ والأحداث فى أسلوب جامد .

فلان ولد فى عام كذا ، وتوفى فى عام كذا .

ثم أصبحت هذه التراجم تحمل اسم (الوفيات) منذ ألف ابن خلكان كتابه الشهير (وفيات الأعيان) ، وتابعه الكتاب فى طريقته حتى أيام الجبرتى .

أما تراجم الأدباء والشعراء فقد كانت نوعاً من أخبارهم ، وهى تخالف الكتابات التى كتبها بعض النقاد الذين اهتموا بالعمل الأدبى ، وأهملوا ترجمة حياة الشاعر أو الأديب .

ولكن الدكتور (هيكل) كتب التراجم بطريقة عصرية جديدة ، فيها إيجاز وبهر ، وفيها تعريف بالشخصية داخل تحليلها . ويبدو أن (شوقى) أعجب بهذه الطريقة فترك لصديقه كتابة مقدمة شوقياته .

غير أن (شوقى) كان صديقاً للدكتور طه حسين أيضاً ، وكان يدعوه إلى بيته ، بل إنهما كانا يصطافان معاً فى لبنان خلال بعض السنوات ، وكان طه حسين لامعاً فى سماء الأدب العربى .

فلماذا لم يطلب إليه شوقى كتابة المقدمة ؟

يبدو أن ذكاء شوقى كان يوصله إلى معرفة رأى طه حسين فى شعره . ولو أن هذا الرأى لم يظهر فى وضوح إلا بعد سنوات فى كتاب (حافظ وشوقى) الذى أصدره طه حسين .

لم ير طه حسين أن (شوقى) يجدد الشعر العربى . بل كان يعتقد أنه شاعر يعيش فى الماضى ، وسبب ذلك أن (طه حسين) ظل طوال حياته ناقداً هجومياً . بدأ حياته النقدية بمهاجمة مصطفى لطفى المنفلوطى ، ثم هاجم (مصطفى صادق الرافعى) . ثم نصب العقاد أميراً للشعراء وهاجمه بعد ذلك وسخر من عبقرياته وقال : إنه لم يفهم كتاب (عبقرية عمر) ، وكان فى مجالسه الخاصة يتندر بعبقرية خالد ، ويقول : إن العقاد جعل من خطط خالد بن الوليد العسكرية ماهو أعظم شأنا من خطط بونابرت أو هندنبورج ؛ وفى السنوات الأخيرة هاجم كل الكتّاب ما عدا (توفيق الحكيم) . ولم يعجبه استهانتهم باللغة .

إن آراء طه حسين النقدية لايضمها خيط واحد ، وله عذر فى ذلك ؛ فقد كان أستاذاً كبيراً يجب أن نستمع إليه . كما كان غضوباً ينفر من مناقشة آرائه ، وهو الذى يدعو إلى حرية الرأى .

ولكنه كان يتمنى أن يكتب مقدمة الشوقيات كما قال الدكتور زكى مبارك . وقد قرأ طه حسين ما قاله زكى مبارك فلم يعترض عليه ، ولم يصدر عنه ما ينفى رواية زكى مبارك .

وهناك سبب آخر جعل أمير الشعراء لايفكر فى طه حسين كاتباً لمقدمة شوقياته ، وهو اتهام طه حسين عام ١٩٢٦ بالكفر والزندقة بعد صدور كتابه (فى الشعر الجاهلى) وما ثار فى مصر حين ذاك من آراء متعارضة حول موقف الأديب الكبير .

لم يبق أمام شوقى غير الدكتور هيكل ؛ فهو كاتب كبير شهير ، يليق اسمه بأن

يوضع فى صدر الشوقيات . وأنت تعلم أن أمير الشعراء كان شديد الاهتمام بالمظاهر ، بحكم نشأته وظروفه كشاعر للقصر . وكان قد استكتب (محمد المويلحى) مقدمة لقصيدة واحدة من قصائده هى نهج البردة ، عندما كان المويلحى أشهر كاتب فى مصر .

إن تحليل الدكتور هيكل لشخصية شوقى وشعره ، من أمتع ما كتبه الكتاب عن شوقى ؛ ولم يكن إعجابه بأمير الشعراء إعجاباً بلا سبب ؛ فقد كان إعجاباً بالشعر قبل الإعجاب بالشاعر .

لقد وقف الدكتور هيكل بحسه الفنى المرهف عند القصائد الخالدة لشوقى وهى التى تغنت بها أم كلثوم .

* ريم على القاع بين البان والعلم
* ولدى الهدى فالكائنات ضياء
* سلوا قلبى غداة سلا وتابا

كيف التقط الدكتور هيكل هذه القصائد من الشوقيات ؟

كيف التفت إليها فى براعة وذكاء ومعرفة ؟

هذا هو السر الذى جمع بين شوقى وهيكل ..

وسبحان من يعرف الأسرار فى نفوس البشر !

أما أسباب صداقة الدكتور هيكل بأمير الشعراء فلها قصة : فقد كانت جريدة الأهرام تنشر قصائد شوقى فى صدر صفحاتها ، وتسميه (أمير الشعراء غير منازع ولامدافع) فاحتالت جريدة السياسة على نشر قصائد شوقى ، وكان الدكتور هيكل هو صاحب الحيلة ، فأعلنت أنها تقدم خمسين جنيهاً إلى الجمعية الخيرية الإسلامية فى كل مرة تنشر فيها قصيدة من قصائد شوقى .

رأى شوقى أمام هذه الحيلة البارعة أن لا مفر من أن يختص جريدة السياسة

بأشعاره ، فانتقلت قصائده من الأهرام إلى السياسة ، وتوثقت صداقته بالدكتور هيكل رئيس تحرير السياسة .

ولكن الذى حدث بين هيكل وشوقى بعد صدور الشوقيات كان حدثاً من الأحداث التى تروى : فقد أعلن عن احتفال يقام بدار الأوبرا تحت رعاية الزعيم سعد زغلول لتكريم شوقى ، والمناداة به رسمياً أميراً للشعراء .

وأقيم الحفل فى التاسع والعشرين من أبريل عام ١٩٢٧ ، وحضره أدباء العرب من أقطارهم كافة وبايعوا (شوقى) بإمارة الشعر . ورأى الدكتور هيكل من واجبه أن يصدر عدداً خاصاً من (السياسة الأسبوعية) لتكريم شوقى .

ورأى شوقى من حقه أن ينظر فى محتويات ذلك العدد .

وكانت (السياسة الأسبوعية) فى تلك الأيام توجه التيار الأدبى فى مصر وفى سائر البلاد العربية ، وكان إصدار عدد خاص عن شاعر فى مثل تلك المجلة يعد تزكية أدبية تفوق الوصف . ولكن (شوقى) لم يرتح كل الارتياح إلى ذلك العدد الخاص ؛ فقد ظهرت عبارات تغضى كثيراً أو قليلاً من أمير الشعراء .

وغضب شوقى على ذلك العدد من السياسة الأسبوعية ، وغضب معه بعض المرتزقة من أدعياء الأدب ، فهاجموا الدكتور (هيكل) فى الوريقات الصفراء التى كانت تصدر فى مصر حين ذاك ، وتسمى نفسها باسم الصحف والمجلات .

ثم كتب الدكتور هيكل مقالاً شهيراً فى السياسة الأسبوعية كان عنوانه (أخلاق شاعر الأخلاق) وذكر ما كان بينه وبين شوقى ، وتوعده توعداً فظيعًا وقال : إن (شوقى) لن يظفر منه مرة أخرى بمثل ذلك الاحتفال !

انطوت صفحة الصداقة بين شوقى وهيكل .. ولكن ظلت مقدمة هيكل للشوقيات فى مكانها المرموق لاتتزحزح . ومن خيوط هذه المقدمة ألف المؤلفون كتباً عن شوقى ، فإن كل كلمة فيها توزن بميزان الذهب .

ولكن الدكتور (هيكل) الذى خاصم (شوقى) فى حياته بعد صداقة حميمة لم يتردد قلمه عن كتابة رسالة طويلة فى جريدة السياسة يرثى بها أمير الشعراء، ويتحدث عن ذكرياته معه.

ومعظم الدارسين لشوقى لم يعرفوا هذه الرسالة، وظنوها كلمة رثاء. مع أنها دراسة عظيمة عن أمير الشعراء.

٨ – الدكتور زكى مبارك

الدكاترة زكى مبارك .

شخصية محيرة ! مع أننى لم أعرف أديبا أشد وضوحاً . وأكثر صراحة ، وأعظم نفساً من هذا المظلوم !

فلاح مصرى استبدل بفأسه القلم ، ثم بدأ يعزق حقول الأدب والفكر ، ويقلب الأرض ، ويزرع الأشجار !

جَسُورٌ مثل زهران فلاح دنشواى الذى شنقوه ، فرأى فى موته حياة لكل الفلاحين .

عاشق يغنى الموال الأخضر تحت شجرة جميز عمرها ألف عام ، عند ساقية يدور فيها ثور معصوب العينين ، ويبحث عن بنت فلاحة يشرق وجهها تحت منديل أحمر تتدلى منه حبات خرج النجف فوق جبينها المرتفع دائماً مثل جبين نفرتارى :

متمرد على الظلم والظالمين ، لايكف لسانه عن الهجوم والسخرية . ولكنه يضحك ، لأنه طيب القلب . لايعرف الحقد ، وحياته كلها حب .

وصلة زكي مبارك بشوقي قديمة ؛ فقد تعارفا بعد عودة شوقي من المنفى عام ١٩١٩ ، وكان ذلك في بيت عبد اللطيف الصوفاني وكيل الحزب الوطني ، وكان زكي مبارك في ذلك الوقت رئيساً لتحرير جريدة الأفكار ، وهي إحدى صحف ثورة ١٩١٩ ، وكان مقرها في شارع قولة بجي عابدين على بعد خطوات من جريدة المقطم .

انتهت هذه المقابلة العابرة .. واعتقل زكي مبارك الشاب الأزهري الثائر . ثم خرج من المعتقل وهو يتهدد (شوقي) بسبب قصيدته التي قالها عن مشروع ملنر لإلغاء الاحتلال البريطاني في مصر ، واستبداله باتفاق شرعي على الاحتلال .

خرج زكي مبارك من المعتقل في خريف ١٩٢٠ ، فكتب مقالاً في جريدة المحروسة ينقد فيه قصيدة شوقي عن مشروع ملنر ، فغضب الشاعر ، وأضافه إلى خصومه الألداء .

ثم شاء القدر أن يلتقيا مرة أخرى .

وسأل زكي مبارك أمير الشعراء عن أسباب كتابته لقصيدة لورد ملنر ، فقال له شوقي : إنه كتبها تحت ضغط من مطالبة مصطفى النحاس وعبد اللطيف المكباتي ، وهما من كبار أعضاء الوفد الذي كان يعارض مشروع ملنر في العلن ، ويؤيده في الخفاء . وهذه هي ألاعيب السياسة التي تختفي وراء الآثار الأدبية .

إن أمير الشعراء قد نفاه الإنجليز من مصر بسبب قصيدته التي قال فيها بعد عزل الخديو عباس وتولية السلطان حسين كامل :

انفض ملعبه وشاهده على أن الرواية لم تتم فصولا

وسارت القصيدة على ألسنة الناس ، وسرت كما تسري النار في الهشيم ، مما دعا

السلطة البريطانية إلى إبعاد أمير الشعراء عن مصر .

وكان حافظ إبراهيم قد آثر السلامة ، فهنأ السلطان (حسين) الذى ولاه الإنجليز قائلا :

ووال الإنجليز فهم رجال من الآداب قد نهلوا وعلوا !

وعندما عاد أمير الشعراء من المنفى لم يرد أن يتكرر معه ما سبق أن عرفه من النفى والتشريد ، فكتب قصيدته فى تأييد مشروع ملنر . ولامه زكى مبارك على ذلك ، ثم عرف الحقيقة عندما التقيا لقاء محبباً .

كانت جريدة السياسة التى يرأس تحريرها الدكتور محمد حسين هيكل قد احتالت كما تقدم على نشر قصائد شوقى التى كانت جريدة الأهرام قد خصت نفسها بها ، فرصدت خمسين جنيهاً تقدمها هدية للجمعية الخيرية الإسلامية ، عن كل قصيدة تنشرها لشوقى .

وبدأت الأهرام تغمز أمير الشعراء الذى طار من بين يديها ، فكتب الدكتور زكى مبارك مقالاً فى مجلة الصباح يلوم فيه الأهرام على تصرفها ، وأعجب شوقى بمقال زكى مبارك ، فدعاه مع حفنة من الأصدقاء إلى الغداء على مائدته ، وتم بينهما لقاء عظيم . حتى أصبح زكى مبارك صديقاً شخصياً لشوقى ، يزوره فى مكتبه بشارع جلال كل صباح .

وعندما كان شيطان الشعر يلعب بخيال أمير الشعراء لم يكن يرغب فى صحبة أحد معه فى جولاته الهائمة غير زكى مبارك .

ذات صباح ، شرب شوقى فنجانةً من الشاى فى مكتبه بشارع جلال ، وقدم لضيوفه بعض قطع (الكرواسان) التى كانت تعد بكميات وافرة ، وهى إحدى هوايات شوقى ، فيأكل واحدة ، ويقدم لضيوفه منها . وكان زكى مبارك على عادته يجالس أمير الشعراء الذى وقف فجأة ، وأخذ زكى مبارك فى يده ، ثم خرج .

وسارت بهما السيارة إلى كوبرى قصر النيل ، ثم نزلا منها . ووقف شوقى عند سور الكوبرى ، وبدأ يكتب على ظهر علبة السجاير .

من أى عهد فى القرى تتدفق ؟ وبأى كف فى المدائن تغدق

ومن السماء نزلت أم فجرت من : عليا الجنان جداولاً تترقرق

واستمر يكتب القصيدة الخالدة التى لم يكتب مثلها عن النيل ، والتى غنت أم كلثوم ، فبعثت فيها خلوداً فوق خلود .

وفجأة انهار أمير الشعراء وتهاوى ، ولم تعد ساقاه تستطيعان حمله ، وقال لزكى مبارك :

— احملنى .

فحمله ، كما يُحمل الطفل . وعاد به إلى السيارة .. ويقول زكى مبارك : أحمد شوقى أمير الشعراء طفل ، وإنه أخف فى وزنه من ريش النعام ! وكان شوقى يبكى بكاء الأطفال ، ويغمغم (من أى عهد فى القرى تتدفق) .

وكانت المرة الأخرى التى حمل زكى مبارك أمير الشعراء على كتفه هى يد جنازة شوقى ، فقد تقدم زكى مبارك ، والدكتور أحمد زكى أبو شادى وبعض أعضاء جماعة «أبوللو» الشعرية التى كان شوقى رئيسها ، وحملوا النعش على أكتافهم ، وقال زكى مبارك للمرة الأخرى : إن نعش شوقى كان أخف من ريش النعام !

صحب زكى مبارك أمير الشعراء مدة تزيد على سنتين ، وهو يقول :

«عرفت الشاعر معرفة حقيقية ، وكان تحفة فى سلامة الذوق ومت الأخلاق»

طلب منى أن أكتب مقدمة الشوقيات فاعتذرت بأن المقدمات يراعى التلطف ، وأنا أكره أن أتقيد برأى قد أنكره فيما بعد حين أجد قصيدة ض

توجب الهجوم عليه . فقال شوقى جملة بالفرنسية معناها : (وأنا لا أفرض أى شيء)

وفى المساء لقيت الدكتور (طه حسين) ، وكان جارى فى مصر الجديدة ، وقصصت عليه مادار بينى وبين شوقى ، فتجهم وجهه وقال :

– يظهر أن رأيي فيك لن يتغير يادكتور زكى . وهو أنك رجل عبيط ، أنا خاصمت (شوقى) وخاصمني وهو يغدق الأموال على كتاب مأجورين يشتموننى فى الجرائد والمجلات ، ولو أنه اقترح أن أكتب مقدمة الديوان لرأيت هذا من التشريف ؛ لأن (شوقى) فى رأيي هو أعظم شعراء اللغة العربية بعد المتنبي .

فقلت :

– أنا أرى أنه أشعر من المتنبي

فقال الدكتور طه :

– مادام هذا رأيك فما الذى منع من أن تكتب المقدمة ؟

فقلت :

– لأحتفظ بحقى فى نقده حين يخطئ

فقال الدكتور طه :

– إن (شوقى) لايخطئ !

قلت لك : إن (زكى مبارك) رجل محيّر ، لا تعرف آخره من أوله ، كما يقول العامة برغم وضوحه الظاهر ، وطيبة قلبه ، وشجاعته وبراعته .

إنه يقول :

«كان حافظ أذكى من شوقى بمراحل طوال ، وأشعر منه بلا جدال ، وسيقول التاريخ : ما أقول بعد زمن أو أزمان » .

ونحن لانعلم بأى مقياس من مقاييس النقد ، قال الدكتور زكى مبارك هذا

الرأى ، فإن (حافظ إبراهيم) نفسه اعترف لشوقى بإمارة الشعر ، وقال فى حفل تنصيب أمير الشعراء :

أمير القوافى قد أتيت مبايعا : وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

ولكن الدكاترة (زكى مبارك) ، وهو من أكابر العلماء الأدباء الظرفاء — كانت له شطحات فى بعض الأحيان .

وقد كان حافظ إبراهيم رئيساً له فى القسم الأدبى بدار الكتب المصرية عندما اشتغل بها فترة من فترات حياته الممزقة ، وكان حافظ يعرض عليه قصائده ليرى مافيها من أخطاء قبل نشرها ، ولكن (زكى مبارك) عجز عن وجود هذه الأخطاء ؛ لأن (حافظ) كان مثل شوقى لايخطئ .

ولكن (زكى مبارك) كان يرى أن أسباب لمعان شوقى ووصوله إلى إمارة الشعر هى : المال والفراغ والعبقرية . وقد امتلكها أمير الشعراء . أما حافظ فلا مال ولا فراغ ، ولكنه امتلك العبقرية ، وليس الفراغ هو فراغ الوقت ، ولكنه فراغ السعادة والحياة الهنيئة الرَّغْد .

ونظرية زكى مبارك لا أساس لها فى مفهوم النبوغ الأدبى ، فقد عاش المتنبى شريداً طريداً ، باحثاً عن المجد ؛ حتى قتل وهو يحمل على جواده أكياس الذهب .

ونحن لانستطيع أن نقول : إن (حافظ) كان أكثر ذكاءً من شوقى ، إلا إذا كان الذكاء هو القدرة الكلامية ، أو إطلاق النكت ، أو التفوق على أفكار العامة وأشباههم فى المجادلات . وهذه إحدى ميزات حافظ إبراهيم .

إن مقياس الذكاء هو القدرة على المعرفة . وليس هناك شك فى أن (شوقى) كان أكثر معرفة من حافظ ، وكان عقله الباطن أكثر استيعاباً من عقله الظاهر ، حتى فى المعارف العربية واللغوية . ودع عنك معرفته للحضارة الأوربية وآدابها وفنونها .

لقد عجب الدكتور هيكل عندما سأل (شوقى) عن كتاب يوازى فى نظره كتب الآداب الأوربية ، فقال له أمير الشعراء : إنه كتاب (الوسيلة الأدبية) للشيخ المرصفى . فطالع الدكتور هيكل هذا الكتاب ولم يستطع الاستفادة منه ، لأن ثقافته لم تمكنه من فهم الآداب العربية على الطريقة الأزهرية ، وهى طريقة لها جذور فى حياتنا ، ولابد من أن تبدأ من البداية . ولم يكن شوقى أزهرياً ، ولكنه عرف الثقافة العربية عن هذه الطرق الصعبة ، عندما تتلمذ على الشيخ المرصفى وحفنى ناصف والشيخ زكى سند .

ولولا الذكاء ما استطاع شوقى أن يجمع بين الثقافتين العربية والأوربية . وقد حاول حافظ هذه المحاولة عندما ترجم رواية (البؤساء) لفيكتور هوجو ، ولكنها ترجمت له ، فأعاد صياغتها باللغة العربية . ولم يعرف من الآداب الأوربية إلا ما كان يقرؤه مترجماً ، أو يسمعه ممن يعرفون هذه الآداب .

إن ذكاء الشاعر ليس هو ذكاء ابن البلد ، وهناك بين أبناء البلد من هم أشد ذكاء من كبار العباقرة ، إذا كان مفهوم الذكاء هو اللمحات الخاطفة ، والبريق الكلامى .

أما المال فإنه ليس من أسباب النبوغ ، وإلا فإن أصحاب الملايين كان يجب أن يصبحوا من النابغين .

والمشاركة (الوحيدة) بين شوقى وحافظ هى العبقرية على غير خلاف . والعبقرية منحة إلهية لافضل للإنسان فيها ، تزكيها بعد ذلك أشياء أخرى مكتسبة ، أو موروثة .

برغم ذلك اعترف زكى مبارك بعبقرية شوقى ، وكانت كتاباته عنه من أعظم الدلائل على هذا الاعتراف . وقد جمعت الأديبة الشاعرة كريمة زكى مبارك ما كتبه والدها عن شوقى فى كتاب من أمتع الكتب .

ظل زكى مبارك طوال حياته مؤمناً بعبقرية شوقى ، برغم بعض شطحاته . وهذا أمر لايستغرب منه ، فقد كان عقله متوهجاً يكاد يشتعل ؛ كما كان حسه المرهف يدفعه فى بعض الأحيان إلى كتابة مقالات مشتعلة تطغى فيها العاطفة على العقل ، وظل هكذا حتى آخر لحظات حياته .

إن تاريخ حياة زكى مبارك مأساة من مآسى الأدب المصرى الحديث . وقد كان يتحدى المأساة بالعزم والصبر والعلم ، وأشد أهوال مأساته أنهم كانوا يحاربونه فى رزقه ورزق أولاده ! وكانوا يريدون له أن يجوع حتى يذل ! ولكنه ظل مرفوع الرأس ، وعصاه فى يده ، وقلمه فى اليد الأخرى .

لوشاء الغنى وهو أقرب المقربين إلى شوقى لاستطاع الوصول ، لا عن طريق الهبات الشوقية التى كان يأنف منها ويرفضها ، ولكن عن طريق النفوذ الشخصى لأمير الشعراء الذى كان يستطيع مخاصمة زعيم الأمة سعد زغلول .

وعندما أقيمت حفلة الأوبرا لتنصيب شوقى أميراً للشعراء وكان رئيس الشرف هو سعد زغلول ، كتب عباس محمود العقاد مقالاً افتتاحياً فى جريدة البلاغ ، قال فيه : إن الأمة التى تحتفل بشوقى لا تعرف معنى الكرامة ، فدعاه سعد إليه وقال له :

– كان يجب ياأستاذ أن تلاحظ أن الحفلة تحت رياستى .

فقال العقاد :

– أنت لاتعرف الشعر ياباشا

فقال سعد :

– أنا لاأعرف الشعر ، وإنما أعرف الذوق ، وأحب أن تكون هذه هى آخر مرة تزور فيها بيت سعد زغلول !

ودعا سعد زغلول الأستاذ عبد القادر حمزة رئيس تحرير البلاغ لزيارته ، وقال

– فى صدر جريدة البلاغ تنشر مقالة فى شتم أمير الشعراء أحمد شوقى ؟

فقال عبد القادر حمزة :

– الشعر للشعراء .. وأنا أبيح لكل كاتب أن يكتب ما شاء .

وكان عبد القادر حمزة من أشد المعجبين بشوقى ، وعندما توفى أمير الشعراء ، كانت افتتاحية جريدة البلاغ مرثية لشوقى ، وقال عبد القادر حمزة :

« لم يكن شوقى شاعراً وكفى ، بل كان مَجْداً لمصر فى عصره كله ، وعصره هذا يمتد من أخريات عهد إسماعيل باشا إلى اليوم ، فهو يبسط جناحيه على نصف قرن كامل تقلبت فيه على الشعر والأدب أطوار ، منها اللين ومنها العنف ، حتى إذا عقدت له رياسة الشعر بعد ذلك لم تكن هذه الرياسة مرتبة يرفع إليها ، بل كانت شهادة بالمرتبة التى وصل إليها .

ولم تقف هذه الرياسة عند حدود مصر ، بل تجاوزتها إلى كل بلد ، فصارت رياسته بذلك رياسة لمصر ، وصار مجده مجداً لمصر . وقد نبحث فى تاريخ الأدب العربى كله فلا نجد لوطننا من الرياسات فيه إلا القليل النادر ، وقد تكون رياسة شوقى أكثرها كلها إجماعاً وأشدها بروزاً » .

وبهذه المقالة رد عبد القادر حمزة على عباس محمود العقاد ، ولكن صاحب البلاغ كان كاتباً سياسياً ولم يكن من الأدباء . وكانت نظرته إلى شوقى ترتبط بقيمة مصر ، ولذلك قال فى مقاله عن أمير الشعراء :

«كان مجده الأدبى مدى خمسين عاماً مجداً لبلاده ، ومجداً للغته ، وسوف يبقى هذا المجد لاتزيده الأيام إلا علواً ، ولاتزيد معدنه إلا نصوعاً ما بقى شعر وأدب »

وأنا أذكر لك هذا لأن (زكى مبارك) كان من أكابر كتاب جريدة البلاغ وهى أول دار صحفية مصرية خالصة ظهرت فى تاريخ الصحافة المصرية ، بناها وأقام دعائمها حجراً فوق حجر ، وأعد لها آلات الطباعة ذلك العظيم عبد القادر

حمزة باشا .

لقد كتب زكى مبارك على صفحات البلاغ روائع كثيرة عن شوقى . وكان يخالف العقاد والمازنى – وهما أيضا من كتاب البلاغ – حول شوقى . ولكن لم تدر بينهم معارك على صفحات الجريدة . وكان لكل فريق رأيه .

وخلف (دار البلاغ) أنشأ (مصطفى الفشاشى) مؤسسة صحفية أخرى هى (دار الصباح) وكان زكى مبارك من كتاب الصباح عندما كانت أشهر مجلة مصرية ، وأوسعها انتشاراً .

على صفحات الصباح رحيق من قلم الدكتور زكى مبارك عن شوقى الذى قال عنه :

« لم أُسِئْ يوماً إلى شوقى الشاعر والحمد لله . وإن كنت بعت حظى مع شوقى الصديق ، وقد عانيت فى سبيل إعجابى بشعره نكبات عديدة ، فإن ناساً كانوا يودون لو هدموه ، ومن أولئك الناس رجال أحترمهم وأرى فيهم مخايل العبقرية ، ولكنهم أولعوا بالنيل من ذلك الرجل ، وسلكوا إلى هدمه شتى الشعاب .

وكان الرجل عظيم الشاعرية حقاً ، وكان أصلب من أن تنال منه معاول الهادمين ، فعادوا يتمسحون بأعتاب الخلق والوطنية ، وكانت لهم فى ذلك جولات رسم خطواتها الشيطان .

والأخلاق والوطنية عكاز يتوكأ عليه كل مغرض حقود ، وستظل الأخلاق والوطنية دعامة يستند إليها ضعفاء النفوس والعقول مادام أهل الشرق يحسنون الاستماع إلى أدعياء الوطنية والأخلاق .

الخلق لله ، والوطنية لله ، كما أن الدين لله ، فلنترك لشوقى أخلاقه ووطنيته ، ولننظر فيما أبدع من آيات الشعر البليغ ، ولنخص بالذكر شعر الحكمة الرائقة .

الكلام مثل حبل الصوف كما يقول الفلاحون فى مصر ، كلما غزلته طال ،

وامتد بك حتى الصباح .

الدكتور زكى مبارك هو الأديب الوحيد الذى لم ينصفه الزمان ، وظلمه كثيرون من معاصريه ، وهو الأديب الوحيد الذى أنصف أمير الشعراء عن حب وود ، وتقدير وإعزاز لقيمة الشعر .

أليس يكفى أن يقول لنا ؟

– لتنظر فيما أبدع من آيات الشعر البليغ .

٩ — الدكتور محمد صبرى السوربونى

هذا الرجل كان من أكبر عشاق شوقى .

والدكتور صبرى أستاذ بمعنى الأستاذية الحقّ ، وقد ظلمته الدنيا ، حتى إنه فى سنواته الأخيرة قبل أن يلقى وجه ربه لم يلتفت أحد إليه ، ثم نشرت عنه بعض المجلات مقالات تعترف بالتقصير فى حقه بعد موته .

كان مؤرخاً أديباً صاحب قدم راسخة فى التاريخ والأدب على السواء . ومن أعظم أعماله كتاب (الشوقيات المجهولة) الذى طبعه فى جزأين كبيرين ، وجمع فيه ماتشتت من أعمال شوقى الأدبية شعراً ونثراً ، مما لم ينشر من قبل فى كتاب .

لقد نبش الدكتور صبرى الصحف والمجلات التى كانت تنشر أعمال شوقى ، واستخرج منها هذا الكتاب الفريد .

إن (شوقى) مازال وسيظل موضع البحث والنزاع بين الأدباء والباحثين ، كما

قلت لك فى البداية .

ومن الوقائع الثابتة أن جريدة الأهرام هى التى أذاعت على الملأ لقب شوقى (أمير الشعراء) : فقد نشرت له قصيدة فى ١٨ من يناير عام ١٩٠٨ ، وصدرتها باسمه مقروناً باللقبين وهما :

شاعر الأمير وأمير الشعراء .

والقصيدة التى كتبها شوقى ونشرتها الأهرام كانت تهنئة للخديو بعيد الأضحى . وكان شوقى هو شاعر الأمير ، أو الشاعر الرسمى للأمير .

ولكن داود بركات رئيس تحرير الأهرام فى ذلك العصر كتب يقول :

« لقد يكون فى مفاخر حياتى الصحفية أنى لقيت (أحمد شوقى) بك فى سنة ١٨٩٩ على صفحات الأهرام . وأنا حديث العهد بتحريرها - بأمير الشعراء ووصفت قصائده بالشوقيات ، وكانت الأهرام يومئذ الميدان الوحيد لخياله الراقى وكان المرحوم صاحبها بشارة تقلا باشا الذى رثاه شوقى بالبيت المشهور الذى ذهب مذهب المثل : رجل مات والرجال قليل .

من أكبر المعجبين بشوقى وبشعره وبذكائه وحصافته .

ولكن داود بركات لم يذكر أو يتذكر أن بشارة تقلا عرض على شوقى رياسة تحرير الأهرام بأضعاف راتبه فى القصر الخديوى .

ولما ظهر حافظ إبراهيم أطلقت عليه الأهرام لقب شاعر النيل .

ولست أدرى من الذى أطلق على خليل مطران لقب شاعر القطرين أى مصر والشام ؟ ثم تلقبت بهذا اللقب المغنية (فتحية أحمد) وكانت تسمى باسم مطربة القطرين .

وأنت ترى أن اسم أحمد شوقى لمع فى مصر والعالم العربى كما ذكر داود بركات ، حتى أصبح أمير الشعراء العرب منذ نهايات القرن التاسع عشر .

وكانت قصائد شوقى تنشر فى الوقائع الرسمية ، حتى نشر أولى قصائده فى

الأهرام فى ٣٠ أبريل ١٨٩٢ . ثم أصبحت هذه القصائد تحتل صدر الجريدة التى منحته لقب أمير الشعراء ، ومنحها هو أعظم ما يمكن أن تناله جريدة يومية منذ نشأة الصحافة العربية حتى اليوم .

وشوقى من عشاق الصحافة ، ولكنه كان من أكبر الخائفين من الصحافة بسبب النقد الذى كان يوجه إلى شعره ، وهو الرقيق الحساس الذى يضيق أشد الضيق بالنقد ، وقد ضايقه بعض زعانف الكتاب حين هاجموه . وكانوا يبتزون منه الأموال .

لقد كتب شوقى شعار جريدة (الجهاد) التى أصدرها صديقه توفيق دياب فى الثلاثينيات ، وهو البيت المشهور :

قف دون رأيك فى الحياة مجاهداً   إن الحياة عقيدة وجهاد

ولكن الذى أريد أن أحدثك عنه أمر آخر نسبه الذين ألفوا عن أمير الشعراء ، وكتبوا عنه الدراسات والمقالات والكتب : فقد رشح شوقى لجائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٢١ وهى السنة التى نالها فيها (أناتول فرانس) وكان فى تلك الفترة من الكتاب المعروفين عند العرب وقد كتب عنه كثيرون من كبار الكتاب . وألف عنه الأمير شكيب أرسلان الذى كانوا يطلقون عليه لقب أمير البيان كتاباً سماه (أناتول فرانس فى مباذله) .

وهناك صلات بين شوقى وبين شكيب أرسلان وقد التقيا فى باريس وقال أرسلان : إنه هو الذى سمى شعر شوقى الشوقيات ، على خلاف ما ذكره داود بركات رئيس تحرير الأهرام الذى زعم أنه هو صاحب الاسم .

المهم هو أن الناس يتنازعون حول كل شىء عظيم .

ولكن الأهم هو أن شعراء العرب وكتابهم وأدباءهم بايعوا الشاعر العظيم بإمارة الشعر بعد ذلك ، ولم يتخلف واحد منهم عن مبايعته ، وكان قد حمل لقب

الإمارة فأقروا له .

وقد عجب كثيرون لأن (أحمد شوقى) بك لم يحمل رتبة الباشوية ، وكان هو نفسه يطلب هذا اللقب ، من الخديو عباس حلمى لكثيرين ، حتى اتهموا أمير الشعراء بأنه كان يأخذ سمسرة على منح الألقاب خلال فترة حكم عباس حلمى وكان شوقى من خلصائه ونفى بسببه إلى إسبانيا ، بعد أن عزل من الملك وعين الإنجليز السلطان (حسين كامل) بدلاً منه خلال الحرب العالمية الأولى .

لماذا لم ينل شوقى بك رتبة الباشوية ؟

ولماذا لم يمنحه إياها خديو مصر عباس حلمى ؟

فى صيف عام ١٨٩٩ سافر شوقى إلى الآستانة عاصمة الخلافة ، وسجل رحلته فى سلسلة مقالات نشرتها جريدة المؤيد (أغسطس – سبتمبر ١٨٩٩) تحت عنوان :

– بضعة أيام فى عاصمة الإسلام .

وكان شوقى قد قدم الشوقيات إلى مولانا أمير المؤمنين عبد الحميد الثانى ، بمقطوعتين من شعره قال فى الأولى :

سلام الله لا أرضى سلامى : فكل تحية دون المقام
وعين من رسول الله ترعى . وتحرس حامل الأمر الجسام

وقال فى المقطوعة الأخرى :

إلى ابن محمد أهدى كتابى : وإن الشعر ريحانُ الموالى
وراحة كل ذى ذوق سليم : وما شرب الملوك ولا استعادوا
كهذي الكأس من هذا النديم

وسر السلطان عبد الحميد سروراً عظيماً عندما رفعت إليه الشوقيات ، وأهديت بإسمه إليه ، فنح (أحمد شوقى) بك أرفع ألقاب السلطنة العثمانية ، وهو لقب الأمراء من آل عثمان أبناء السلاطين .. وهذا اللقب هو لقب : أفندى وهو

اللقب نفسه الذى يحمله خديو مصر، وكان يقال له : أفندينا لهذا السبب.

ولذلك لم يكن فى استطاعة الخديو عباس حلمى أن يمنح (أحمد شوقى) لقباً يقل عن لقبه الذى منحه له سلطان آل عثمان ، وأنت تعلم أن خديو مصر تابع من أتباع السلطان العثمانى .

وقد كان بعض معاصرى شوقى يقولون له : أفندينا ، ولكنه كان يفضل أن يلقب بلقب الباشا حتى لايغضب الخديو .

أما حكاية جائزة نوبل فإنها قصة أخرى .

لقد نال طاغور شاعر الهند هذه الجائزة عام ١٩١٣ ، ورأى أدباء العرب أن ، شاعرهم ليس أقل شأناً من طاغور ، ثم ازداد تنبهم عندما نال (أناتول فرانس) الجائزة فى سنة ١٩٢١ . فكتبت مجلة (الكشكول المصور) فى ديسمبر ١٩٢١ مقالاً تحت عنوان :

(شعر شوقى وجائزة نوبل .. اقتراح على سليم سركيس)

واقترحت مجلة الكشكول أن يقوم سركيس بمعونة إخوانه وأصدقائه الأدباء بجمع منتخبات من شعر شوقى وترجمتها ونشرها بين أدباء أوربا ؛ حتى يعرفوا قدر أحمد شوقى وعبقريته .

وكتب سليم سركيس مقالاً فى عدد ١٥ من ديسمبر ١٩٢١ من (مجلة سركيس) قال فيه :

«إن شوقى نفسه لسوء حظ الأدب العربى لايهتم بشىء مما يهتم له سائر الناس ، فمنذ نحو عشرين سنة انتشر بيننا ديوان (الشوقيات) ولا أدرى من جمعه وطبعه ؟ ولكنى أعلم أن الإقبال عليه كان عظيماً .

من ذلك الحين نضج شعر شوقى .. ثم إن العشرات من أصحاب المكتبات والمطابع طالما توسلوا إليه وطلبوا منه بإلحاح أن يسمح لهم بطبع ديوانه الثانى وهو لا يفعل .

ومما أذكره أنه كان عائداً من أوربا قبل الحرب . واجتمع فى الباخرة وسعيد باشا شقير . وجرى بينهما حديث عن شعر شوقى والسبب فى عدم نشره . فاعتذر شوقى بأنه يحتاج إلى ذى عزيمة ونشاط يرتب الديوان ويقدمه للطبع ويعتنى به . فقال شقير باشا . إن فى سليم سركيس الغنى . وهو القادر على كل ذلك .

روى لى هذا الحديث شوقى نفسه . فوافقت وعرضت أن أفعل إذا هو دفع إلى قصائده . فأجعلها فى أحسن نسق . وأجمل طبع . مع الشروح اللازمة فشكر ووعد .

وكان ذلك منذ عشر سنوات . ولا أزال أنتظر فإذا كان شوقى لا يهتم كل هذا الزمان بنشر ديوانه ، مع علمه بميل الناس . واستعداد أصحاب المكتبات والمطابع – فكيف ينتظر صاحب الاقتراح أن أكلف أنا نفسى كثيراً فى وقتى ونشاطى وإلحاحى لأتوسل إلى شوقى أن يساعدنى على قضاء هذه المهمة ؟

وانتهت القضية عند هذه الكلمات التى كتبها سليم سركيس . ولم يهتم شوقى بالموضوع كله ، ولعله لم يلتفت إليه ؛ فقد كان الشاعر يحلق وحده فى السماء . ويبحث عن قصيدة جديدة .. لا عن جائزة نوبل .

ومازال شعر شوقى حتى اليوم مبعثراً برغم أنه مطبوع فى ديوان اسمه الشوقيات . فهناك عشرات القصائد التى كتبها أمير الشعراء ونشرت فى الصحف ليس لها وجود فى الشوقيات .

وقد جمع الدكتور صبرى هذه القصائد فى كتابه (الشوقيات المجهولة) ولكن الشوقيات أعيد طبعها فى بيروت كما هى ، ونقلت مصورة عن الطبعة القاهرية .

والأمر العجيب أن أمير الشعراء لم يهتم بجمع شعره ، وكان فى استطاعته أن يصدر أمرا لسكرتيره الخاص بجمعه وحفظه ، ولكنه كان كثير التردد فى ذلك . وكان فى بعض الأحيان يسقط أبياتا من قصائده التى نشرت ، ويعتقد أنها لاترقى إلى مستوى عبقريته ، ومن حق الشاعر أن ينخل شعره كما يشاء ، ولكن المشكلة

هى أن الشوقيات لم يتم طبعها كاملة إلا بعد وفاة أمير الشعراء .

حدثنى الشاعر محمود أبو الوفا أنه أشرف على إصدار الجزء الثالث من الشوقيات ، فقد صدر الجزء الأول والثانى فى حياة شوقى وبإشرافه ، وهذا الجزء الثالث يضم قصائد الرثاء ، ثم استعد لجمع المتفرقات من شعر شوقى لتصدر فى جزء رابع ، ولكن دخل فى الميدان الأستاذ سعيد العريان ، وأخذ من محمود أبو الوفا ما كان قد تيسر له جمعه من قصائد . وأشرف على إصدار الجزء الرابع . وكتب له مقدمة اعترف فيها بالعجز والتقصير . ولم يتعب نفسه فى استكمال قصائد أمير الشعراء .

لم تكن لسعيد العريان صلات بشوقى ، ولعله لم يعرفه قط ، ولكن (محمود أبو الوفا) كان على صلة وثيقة بأمير الشعراء ، حتى إن (شوقى) أقام حفلاً خاصاً فى مسرح الأزبكية تحت إشرافه لمعاونة الشاعر أبو الوفا . وشوقى هو الذى أذاع اسم (أبو الوفا) وصنع له الشهرة فى البداية ، ثم جاء محمد عبد الوهاب فملأ سمع الدنيا بأبيات الشاعر أبو الوفا التى يقول فيها :

عندما يأتى المساء ونجوم الليل تظهر

وهى من أحلى وأعذب أغانى عبد الوهاب .

ولكن سعيد العريان خطف من أبو الوفا الجزء الرابع من الشوقيات .

وهذه الحكاية التى أرويها لك حتى أتعبتك معى كان سببها الدكتور محمد صبرى السوربونى المسكين الذى تعب سنوات طوالاً حتى جمع ما تفرق من الشوقيات المجهولة .

وكان السوربونى يريد كتابة تاريخ حياة أمير الشعراء ، ويسجل له تواريخ ومناسبات قصائده ، والأحداث والأسرار التى مرت به ، وقد حدثه فى ذلك .

يقول الدكتور صبرى :

« أذكر أنى رافقت (شوقى) فى رحلته إلى أوربا فى صيف ١٩٢٣ ، وكان يفكر وهو فى باريس فى الذهاب إلى شاطئ البحر فقلت له :

– أريد أن أنتهز هذه الفرصة لتأريخ حياتك وشعرك :

فبادهني بسؤاله :

– عايز كام ؟

فأجبت :

– مش عايز حاجة !

وانتهى كل شيء » .

ولكن الذى حدث مع الدكتور صبرى بعد سنوات طوال كان أعجب من العجب ، فلم ينته كل شيء بينه وبين شوقى بعد أن غاب أمير الشعراء عن دنيانا ، بل إن عاشق شوقى حقق بعض ما كان يريده من تقديم أمير الشعراء للناس بأسلوب علمى .

فجمع شتات أعماله المجهولة . ولو قدر للأدب العربى الحديث ما يرفع شأنه ، ويعلى قدره بأمير شعره – لكان الدكتور صبرى السوربونى هو الذى يعيد طبع الشوقيات الكاملة .

ولكن العمل العظيم الذى قدمه السوربونى فى كتابه يمكننا من ذلك الأمل حين نفكر فى إعادة طبع الشوقيات الكاملة .

١٠ – الدكتور إبراهيم ناجى

يخيل إلىّ في بعض لحظات الصفاء أن (إبراهيم ناجى) كان يقتبس من عبقرية شوقى .

إحساس غريب !

لقد ألقى (ناجى) قصيدة على قبر شوقى قال فيها :

ماكنت إلا أمة ذهبت والعبقرية أمة الأمم

أو شعلة أبصارنا خلبت ومنارة نصبت على علم

أين النجوم أصنعْ كما أهوى شعراً كشعرك خالداً أبدا ؟

لكن حزنى لو علمت به : لم يبق لى صبراً ولا جهدا

وعندما تغنت أم كلثوم بإحدى قصائد (ناجى) وهى قصيدة الأطلال أحسست أن روح شوقى ترفرف على الشعر والغناء .

إحساس غريب أيضاً !

نحن لانعلم أن هناك صداقة بين شوقى (وناجى) ، وكل ما وصل بينهما هو جماعة (أبوللو) الشعرية التى كان أمير الشعراء أول رئيس لها . وكان شوقى يجتمع دقائق معدودات وأعضاء الجمعية ، ثم ينصرف ، كما كان قليل الكلام ، بعيداً عن الجدل والمناقشة .

كان مثل الغزال الشارد أو الطير الهائم ، لايستقر فى مكان على حين كان الدكتور ناجى من أعاظم البوهيميين السارحين فى مجال الحسن والجمال !

كما كانت لأمير الشعراء رسميات فى المقابلات واللقاءات ، لأنه أمير : ولم يكن راضياً عن شعر التجديد الذى زعمته لنفسها جماعة أبوللو مع أنه رئيسها ، لأن الشعر عنده مثل قطع الماس الثمين تزيده السنون بريقاً ، ولا يجوز عنده أن يكون الشعر قطعاً من زجاج تشبه الماس وليس لها بزيق .

وشوقى كان يملك قطعاً كثيرة من الماس الحر ، ويعرف قيمتها ، ولكن سوق الشعر فى عصره امتلأت بالماس المغشوش الذى ادعى أصحابه أنه جديد !

الكأس المعتقة لايعرف كيف يشربها إلا من يعرف الشراب .

وذات يوم قال صالح جودت – إن شوقى وصف البيرة فى قصيدته :

حف كأسها الحبب فهى فضة ذهب

فضحكت لأن شوقى كان يصف الشمبانيا ، ولم يكن يشرب البيرة . وكأس الشمبانيا لابد أن تكون من الكريستال الثمين ، وهو أغلى من الذهب ، والحبب فيها حيات ناصعات من الفضة والذهب ، وليس رغوة صابون مثل أكواب البيرة !

إن شعراء جماعة أبوللو الذين منحهم شوقى مسحةً من عبقريته هم : إبراهيم ناجى وعلى محمود طه وصالح جودت وأحمد فتحى .

ولكن أمير الشعراء مسح على جبين ناجى فى لحظة من لحظات الرضا

كما يقولون ، فكان أشعرهم ، مع أنه اعتقد أن (خليل مطران) هو الذى يجدد الشعر معهم ، وقد انتخبوه رئيساً لجماعة أبوللو بعد وفاة شوقى .

وخليل مطران من أثقل الشعراء وزناً ، مع أنه كان ضئيل الوزن ، وقد ضاع شعره فى غيابات الزمان . ولو سألتنى لقلت لك : إن بشارة الخورى الأخطل الصغير كان أشعر من مطران ، وهو الذى غنى له محمد عبد الوهاب :

جفنه علم الغزل ومن العلم ما قتل
وحرقنا نفوسنا فى جحيم من القبل

وليس فى استطاعتك حين تسمع هذا الشعر إلا أن تقول :

– الله .. الله !

إن (عبد الرحمن شكرى) كبير شعراء التجديد فى الجيل الماضى له دواوين حمل بعير ، ولكن ماذا نتذكر له ؟ لاشىء ! ليس له بيت واحد يمكن أن نتذكره . وهكذا خليل مطران ، وغيرهما من الشعراء الذين ملئوا الدنيا صياحاً فى عصر شوقى وحافظ .

لقد جنَتْ وحدة القصيدة على شعراء التجديد ؛ لأن الشعر العربى له خصائص لن تزول ، وأولها وحدة البيت ، وقد كان لشعراء الجاهلية مقطوعات فيها وحدة القصيدة ، ولكنها كانت على شروط الشعر العربى وأوزانه ، وألفاظه ، وأسراره الفنية التى جعلته فناً من فنون القول ، وليس فناً من فنون الكتابة .

استمع إلى مقطوعة هذا الشاعر الجاهلى (المنخل اليشكرى) التى يقول فيها :

ولقد دخلت على الفتا ة الخدر فى اليوم المطير
الكاعب الحسناء ترْ فل فى الدمقس وفى الحرير
ودفعتها فتدافعت مشى القطاة إلى الغدير
ولثمتها فتنفست كتنفس الظبى الغرير

وأحبهـــــــــا وتحبنى ويحب نـاقتهـا بعيرى

هذه هى وحدة القصيدة على شروط شعر العرب ، حتى تصبح أبياتها نغمة واحدة ولحناً واحداً ، وكأنها بيت واحد من الشعر.

لم يستطع شعراء التجديد أن يحكموا وحدة القصيدة مثل هذا الإحكام ، ولم يستطيعوا أن يكتبوا شعراً عربيًّا على نمط الشعر الأوربى فى وحدة قصيدته ، ولكن (طه حسين) كان يحرضهم على شوقى ، ويتخذ من خصومته وسيلة من وسائل الشهرة ، كما فعل مع المنفلوطى من قبل ، فتعلق على أكتافه ليراه الناس !

حاول (ناجى) كتابة شعر يلتزم بوحدة القصيدة ، وكان أبدع ما كتب هو قصيدته الناى المحترق التى يقول فيها :

كم مرة ياحبيبى والليل يغشو البرايا
أهيم وحدى وما فى الظلام شاك سوايا
أصبر الدمع لحناً وأجعل الشعر نايا
ما أتعس الناى بين المنى والمنايا !
أظل أطلب منه سلوى قبل صدايا
وهل يلبى حطام أشعلته بجـــــوايا
النار توغل فيه والريح تذرو البقايا
ما زال يشدو حزينا مرجعاً شـــــكوايا
مستعطفا من طرفيا على هـــــواه الطوايا
حتى سرى لى خيال عرفته فى صبـــــايا
أدنو إليه وتدنو لثغـــــره شفتايا
إذا بحلم كذوب واستيقظت عينـــــايا
ورحت أصغى وأصغى لم ألف إلا صدايا

وأنت ترى أن هذه المقطوعة أقل قيمة من مقطوعة الشاعر الجاهلى المنخل اليشكرى حتى فى اختيار الألفاظ الموسيقية ، فهو يقول :

أصيّر الدمع لحناً وأجعل الشعر نايا

ولفظة (أصير) أثقل من جبل المقطم ، ولو أحسن لقال :

أذوّب الدمع لحناً وأجعلُ الشعر نايا

ولكن ناجى وغيره من الشعراء لم يتابعوا هذا اللون من الشعر ، وعادوا إلى الأصل فى كتابة القصائد ، والتزموا بوحدة البيت حين يجب الالتزام ، وأنت ترى أن الشعر العربى منذ الجاهلية لم يمنع وحدة القصيدة كما زعم الدكتور طه حسين ، وصدقناه خوفاً منه لأنه أستاذنا .

ولم يستطع شعراء التجديد فى الجيل الماضى كتابة شعر الملاحم ، والشاعر الوحيد الذى كتب ملحمة شعرية هو (أحمد شوقى) فى رائعته الخالدة (كبار الحوادث فى وادى النيل) وهى قصيدة :

همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء

إنها ملحمة على شروط الشعر العربى ، لا على شروط الشعر اليونانى ، وقد وصفها الدكتور هيكل فقال :

« هى رواية من الروايات الخالدة لتاريخ مصر منذ عهد الفراعنة إلى عهد أبناء (محمد على) وقف فيها الشاعر وقفة مصرى صادق العاطفة تفيض عليه ربة الشعر تاريخ بلاده منذ عرفها التاريخ ، أى منذ عرف الناس شيئاً اسمه التاريخ » .

ولكن تحكم النقاد الذين أرادوا تطبيق مذاهب النقد الأوربى على الأدب العربى كان من العجائب وما زالوا من العجائب ، فهم يتحدثون عن إلياذة هوميروس فى شعر العرب ، ويبحثون عن الشعر القصصى فى شعر العرب ، ولا يدركون أن لكل أمة من الأمم لوناً من البناء المادى أو البناء الفنى .

هل قصيدة ت . س . اليوت التى سماها (الأرض الخراب) مثل إلياذة هوميروس ؟

هل مسرحياتِ شكسبير مثل مسرحيات يوروبيد ؟

إن مسرحيات جورج برنارد شو تختلف فى بنائها الفنى ومسرحيات شكسبير فلماذا تلزم الأدب العربى بمقاييس الأدب الأوربى ؟

ليست عالمية لون من الآداب فى عصر من العصور مما يلزم آداب الأمم الأخرى بالنزول عن تصويرها الفنى .

ولكن التجديد عندنا منذ الجيل الماضى حتى اليوم مازال يبحث عن الأشكال ، ولايبحث عن المضمون . وهذا هو أخطر الأخطار فى حياة الأمم والشعوب .

لقد عاد (إبراهيم ناجى) وغيره من أبناء مدرسة أبوللو إلى عمود الشعر العربى ، واستندوا عليه ، بعد أن تيقن الموهوبون منهم أن اختلاق التجديد الشكلى لا يجدى .

قال ناجى يصف شعر شوقى :

«إن أول مانصف به شعر شوقى أنه موسيقى فما معنى ذلك ؟ ذكرت إحدى الجرائد الفرنسية مقارنة بين شوقى وبول فاليرى شاعر فرنسا الأكبر فى العصر الحاضر ، فذكرت هذه الموسيقية ، وهى على حق : إن شوقى وبول فاليرى اتفقا فى هذه الصفة .

والموسيقية من حيث إنها تحتاج إلى اللفظ والصياغة — إنما هى إذنْ فى حاجة إلى الإلمام العظيم باللغة ، هذا إلى ذوق خاص لايمكن اكتسابه بسهولة ، وإلى أذن تحسن السماع وتمييز الأنغام .

ولكن إبراهيم ناجى شطح ونطح فى تفسير الخيال عند شوقى وغيره من الشعراء ، وتحدث عن الصور الشعرية ، وغير ذلك ، ثم زعم أن شوقى تميز بكثير

من صفات الشاعر الكامل .

والكمال لله وحده .

إن النظريات النقدية للشاعر (إبراهيم ناجى) لاقيمة لها إلا من ناحية تصوره لمفهوم الشعر الذى كان يحسن به أن يطبقه على نفسه .

إنه يقول عن حافظ إبراهيم : إنه شاعر انعدمت من شعره صور الخيال !

ويقول : إن مطران له قصائد منفردة مقطعة النظير فى الصور يرسمها وينقلها إلى الاذهان .

هذه كلها آراء جزافية ! ومما لاشك فيه أن ناجى تأثر بشوقى تاثراً شديداً من غير أن يشعر بذلك . وأكبر مثال على ذلك قصيدته (الأطلال) التى تغنيها أم كلثوم . ويسمعها الناس : فإنه فى بيت واحد منها كان من كبار الذين يترسمون خطوات أمير الشعراء .

أعطنى حريتى أطلق يديا إننى أعطيت مااستبقيت شيا

بيت الشعر المفرد الذى يصبح حكمه أحد سمات شوقى الظاهرة . الأخطل الصغير سمع .

حف كأسها الحبب فهى فضة ذهب

فقال :

جـفـنـه علم الـغـزل ومن العلم ما قتل !

ليس هو الوزن المعروف فى الشعر . ولكنها النغمة والموسيقى التى تحدث عنها (ناجى) . وقد كان شوقى من كبار الموسيقيين ، ويكفى أن تلميذه هو محمد عبد الوهاب .

أبو القاسم الشابى حين قال :

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدرْ

ولابد لليل أن ينجلى ولابد للقيد أن ينكسر

كانت قد وصلته فى تونس مسحة من عبقرية شوقى ، ولقد كان الشابى عضواً فى جماعة (أبوللو) التى تزعمها شوقى .

أما إبراهيم ناجى فقد وصف شوقى فى قصيدة عنوانها (هدية السماء) وقال فيها :

ومنعم بين القصور قد استتم له الثراء
ما باله حمل الهمو م وجشم القلب العناء ؟
وينوء بالعبء الذى هو عن أذاه فى غناء !
ويح الذكاء وما يكلفه من الثمن الذكاء
أضنى قواه ولم يرع من جسمه إلا ذماء
والمجد يوغل فى حنا يا روحه والمجد داء

كان ناجى يؤمن بعبقرية شوقى برغم كل ما قاله عنه ، ويبدو أن موضة العصر كانت تتسم بمهاجمة شوقى ولو من بعيد ، حتى بعد موته !

١١ – محمد عبد الوهاب

بعد أربعين يوما من نهاية الرحلة التى غنى فيها الشاعر العبقرى أعذب الألحان ، رفع الستار عن مجموعة كبيرة من الموسيقيين والمغنين يتوسطهم الموسيقار الفنان (محمد عبد الوهاب) واهتزت الأوتار بنغم من أنغام (الصبا) الشجى الحزين ، ثم علا صوته ينشج ويتهدج .

كان صوت عبد الوهاب يغنى هذه الكلمات :

حـــــطـــــموا الأقـــــداح
مثل ماحطمت حزناً قدحى
ودعوا الأفـــــــــــــراح
طوى اليوم بساط الفرح
مـــــات خير الشـــعـــراء

فأبك ياقلبى فذا وقت البكاء

* * *

خلدوا ذكراه فى كل القلوب
خلدوهـا
مجدوا ذكــراه شـبـانـاً وشـيـب
مجدوهـا
لن تردوا بعض ما أسدى لكم
أبـــداً ، مـــهما فـــعـــلتم أبـــدا

* * *

إن دمعى يتكلم
فــــــــــاسمعونى
إن قلبى يتحطم
فـــــاعــــــذرونى

* * *

مات خير الشعراء
فـــابك ياقلبى
فذا وقت البكاء

* * *

كانت هذه الكلمات التى غناها أو بكاها (محمد عبد الوهاب) تتردد على مسرح حديقة الأزبكية فى أربعين شوقى .

ومحمد عبد الوهاب تلميذ شوقى بلا منازع ، وهو يذكره دائماً كلما تحدث ، ولكننى أذكر عبد الوهاب هذه الأبيات التى لا أعرف قائلها وأعرف أن

عبد الوهاب بكاها . . لا غناها . .

لقد شاعت فى مصر قصة أمير الشعراء الفنان الذى ضم إليه فناناً حبيباً اسمه محمد عبد الوهاب وكتب شيخ العروبة (أحمد زكى باشا) كلمات عن هذه القصة الرائعة التى جمعت بين نغم الشعر ونغم الموسيقى ، فقال :

« الآية التى جاء بها شوقى للشرق وللفن فى حالة وجوده ، والتى مازال ينفخ فيها الحياة بعد وفاته ، فهى الناطقة ببرهان الألحان ، الماثلة للعيان بألوان الأنغام فى شخص محمد عبد الوهاب !

نظر شوقى بنور الله إلى النبوغ الكامن فى حنجرة هذا المراهق الناشئ ، فاستخلصه لنفسه ، وقربه من صحبه ، ثم أفاض عليه سجال الثروة حساً ومعنى ، ونفث فيه سحر الشعر ، وصاغ لنفسه جواهر القول ، حتى طلع علينا بذاك الصوت الباهر الساحر ، وأصبح له ذياك الصيت النادر الطائر ، فكان عبد الوهاب وتبارك الله !

وكان له يد فى تهذيب الرنين الموسيقى فى تلك النفحات الشوقية فكان شأنهما معاً فى هذا المجال — وفى هذا المجال وحده — كالبحر يمطره السحاب »

ثم تحدث شيخ العروبة عن الحفل الذى حدثتك عنه ، وهو الحفل الذى بكى فيه عبد الوهاب ليلة الأربعين بعد ذهاب شوقى ، وقال عن الحفلة :

« تمثل الوفاء بما ترضاه محامد الأخلاق ، وفيها رأيت العجب العجاب »

ووصف أحمد زكى باشا حفلة عبد الوهاب بأسلوب عصره فقال :

« هل أتاكم حديث آلات الطرب ؟ إن الأوتار المشدودة والمعادن المطروقة والمسبوكة والمصبوبة والعيدان المنشورة والمربوطة والمشقوقة — كانت كلها فى اتساق واتزان وفى تناسب وتجانس وهندام تترنم ، ثم تتكلم .. ثم تترحم ! وبين الاهات والنبرات زفير يترجم عن الأنين إلى شهيق يعبر عن البكاء الذى يبعث البكاء

ولكن . كانت الأبصار شاخصة والقلوب واجفةً ، والألسن منعقدة والرءوس مطرقة .

كل ذلك السكون التام وكل ذلك السكون العميق لئلا تنفر الملائكة التى تنزلت من سماوات العلا ، واستقرت كأنها الطير على تلك الرءوس ! فلم تكن تسمع للقوم ركزاً ولاهمساً ، ولاتكاد تصدق أن فيهم حركة أو حساً .. إلى أن انتهى التلحين الحزين ، ومن العجب أن إنساناً واحداً لم يسمح لنفسه بالتصدية والتصفيق ! فقد تمادى الناس على حبس الأيدى والأنفاس خوفاً من التشويش على مابقى من أثر ذلك الترتيل فى التسبيح الذى أنزله الله على قلوب من جنات الفراديس »

كانوا فى عصر شوقى يقولون : إنه ولد ليكون موسيقاراً فصار شاعراً ، ولكنهم لم يدركوا أن الشعر هو الموسيقى ، وأن الموسيقى هى الشعر ، لأنهم عاشوا أكثر من ألف سنة مع الذين ينظمون الشعر ولايعرفون الموسيقى .

ومحمد عبد الوهاب شاعر لأنه موسيقى ، ولولا شاعريته ما استطاع أن يصل إلى انغامه وألحانه .

والشيء الوحيد الذى جمع بين شوقى وعبد الوهاب هو النغم أو هو الشعر.

لاشعر بغير نغم . ولا نغم بغير شعر .

هذه هى القضية .

وما الذى جمع بين (شيللر) و (بيتهوفن) فى بيت (يوهان جوته) فى مدينة فايمار ؟

قصيدة (شيللر) التى سماها السعادة أنطقها (بيتهوفن) فى السيمفونية التاسعة بعد أن سمعها من الشاعر ، ثم نطق بها اللحن بعد عشرين عاماً..

كان للشاعر (شيللر) كرسى فى بيت (جوته) وكان للموسيقار (بيتهوفن) بيانو

فى بيت (جوته) ولم يكن أحد يجرؤ على الجلوس فوق كرسى (شيللر) ولم يكن أحد يجرؤ على العزف بأصابع بيانو (بيتهوفن)

هذا هو الفن .

وكان لمحمد عبد الوهاب مكان فى بيت (شوقى) ومكان فى قلب (شوقى) .

ولكن أمير الشعراء لم يكن جديداً فى فن الغناء والموسيقى ، بل إنه ألف مقطوعات لعبده الحامولى ، وعندما افتتح معهد الموسيقى الشرقى كتب قصيدة ألقاها فى حفلة الافتتاح الشاعر على الجارم ، لأن أمير الشعراء كان لايلقى قصائده ، بل يترك إلقاءها للآخرين .

ويقول شوقى فى هذه القصيدة :

لولا ابتسام الفن فيما حوله ظل الوجود جهامة وجفاء

جرد من الفن الحياة وماحوت تجد الحياة من الجمال خلاء !

ولكن أمير الشعراء الذى كتب أعذب الأغنيات لعبده الحامولى وغيره من كبار المطربين لم يأنس لصاحب أنغام كما أنس لمحمد عبد الوهاب وسبحان الوهاب .

يقول محمد عبد الوهاب : إنه من حفدة (عبد الوهاب الشعرانى) وقد يكون هذا هو سبب الأنس الذى لايفهمه بعض الناس ، لأن الشعرانى كان من أصحاب الأنس والبهجة والحبور والسرور فى الوصول إلى المحبة والحب .

وكان (شوقى) من الواصلين ، كما أن (عبد الوهاب) من الواصلين ، والوصول ليس صعباً فى طريق العارفين .

أنا لا أريد أن أبتعد بك كثيراً عن إلهامات (شوقى) لمحمد عبد الوهاب .

ولكننى أقول لك : إن الفن إلهام ، وسبحان من يلهم فتسمع أو تقترب من السماع . وشوقى كان شاعراً يأتى إليه الإلهام من السماع ، فيلهم به قلبه ، ثم يلهم به من أراد أن يسمع الإلهام .

وسمع عبد الوهاب .

وقال أمير الشعراء لمحمد عبد الوهاب : « غرد عبد الوهاب »

« غرد يا كنارى الناى ، واصدح ياهزار الوادى واحْدُ الركاب وهزّها ياحادى .
أهذا يابلبل الناى تغريد ، أم هذا وسواس الحلى على الخرّد الغيد .
وجرجرة الوشى من الهيف الرعاديد ؟
أم هذا همس الجداول فى سمع الأماليد ؟

غن من الكبد أحيانا
ومن القلب أحيانا
وقل عاطفة ووجدانا
غن
تر العشاق كيف يبكون ؟
وحملة الأشواق مم يشكون ؟
وتر الممثلين كيف يمثلون ويحكون ؟

آمنت ببيان الحناجر ، وباللحن الساحر ، والعصب الشاعر ، وشهدت أن وتراً يخلقه الله يشدّ به اللسان إلى اللهاة لايصنع الإنسان له مثيلاً وإن ألفيتهم صنعوا جليلاً ، وسموا صنعهم فنًّا جميلاً .

وقد وهب الله لك عبد الوهاب أندى الحناجر ، وخلق لها ألين الأوتار ، وخلق منها أرخم الأصوات ودلك على الصوت تنشره وتطويه ، وتميته ثم تحييه وتقلبه ثم تنظر فيه ، كأنما صوتك فى يدك ، وكل مغن صوته فى فيه » .

وهذا النص الأدبى الذى كتبه شوقى لمحمد عبد الوهاب ، لم يكتب نص مثله فى آداب العرب لصاحب غناء وطرب .

وكما طالت الألسنة على شوقى طالت على عبد الوهاب ، فاتهموه بالسرقة من

موسيقى (بيتهوفن) أو (شوبان)، كما اتهموا (شوقى) بأن الذى يكتب له الشعر إنما هو الشيخ (زكى سند) مؤسس (جماعة مكارم الأخلاق)، وكان مدرساً فى مدرسة اليسوعيين، وهو جار من جيران شوقى عندما كان فى بداية شبابه يعيش فى حى عابدين مع والده وأسرته.

ثم مات الشيخ (زكى سند) وبقيت شاعرية شوقى وعبقريته. وقدرته اللغوية الفائقة فى نسج الكلمات الذهبية.

ونحن لانعلم شيئاً عن الشيخ (زكى سند). ولكن عبد الوهاب المسكين متهم فى بيتهوفن وشوبان وهما من أعلام الموسيقى فى العالم.

وقد تعلم عبد الوهاب من شوقى درساً فى الفن لا أعتقد أنه يستطيع أن ينساه.

كان عبد الوهاب مع شوقى فى لبنان، وقد تقرر أن يقيم حفلة غنائية، وفجأة جاءته الصدمة حين قرأ فى إحدى الصحف المصرية التى وصلت إلى لبنان خبرا هز كيانه، وهو خبر وفاة والده، وأراد أن يعود إلى مصر فوراً ويلغى كل حفلاته فى لبنان.

وحاول شوقى أن يهدئ الموسيقار الشاب الذى صنعه بيديه فعجز، وكان (طه حسين) يصطاف فى لبنان فاقترح (شوقى) على (محمد عبد الوهاب) أن يذهبا معاً لزيارة (طه حسين)، ليعرفا رأيه فى المشكلة؛ وتم لقاء الثلاثة الكبار، وقال (طه حسين) كلمات عن واجبات الفنان، أقنعت (محمد عبد الوهاب) وقال: إنه سيبقى فى لبنان ليؤدى واجبه كفنان، ولكن بقيت المشكلة.. ماذا يغنى؟

وكان الحل فى يد شوقى أمير الشعراء؛ لأن عبد الوهاب لن يغنى أغانيه المطربة.

ثم جاء الإلهام الذى حدثتك عنه، وكتب شوقى بداية الكلمات:

الليل بدموعه جانى ياحمام نوح ويايه

نوح واشرح اشجانى ده جواك من جنس جوايه

أنا قلت لك : إن شوقى كان واصلاً ، وهو يتحدث الآن معك عن الجوانية .

(ده جواك من جنس جوايه)

ثم أكمل أمير الشعراء الكلمات الباكية ليغنى محمد عبد الوهاب :

الشوق هاجك من نوحك وشكيت الوجد معايه
أبكى بالدمع لنواحك وتنوح ياحمام لبكايه

* * *

بعد الأحباب لوعنا والصبر دواك ودوايه
مسير الأيام تجمعنا إن كان فى الصبر بقايه

* * *

إن لقيت عندى من حبى سلطان العشق هوايه
أنا خدت الدمع من قلبى واكتم فى القلب أسايه

* * *

وغنى عبد الوهاب هذه الأغنية الحزينة الباكية ليسعد الناس ، ثم بكى . وأبكى الناس وتلقى التهنئة والتعزية فى وقت واحد .

إن قصة شوقى وعبد الوهاب لاتنتهى ، ويبدو أنها ليست لها نهاية .

إنها تشبه قصة (جوته) مع (بيتهوفن) .. وهى قصة الشاعر والموسيقار ، وكلاهما فنان ، مهما اختلف الزمان .

ماذا يحدث لو أن أمير الشعراء كان يعيش بيننا اليوم ،

ويلتقى بفنه العبقرى والعبقرىُّ الآخر محمد عبد الوهاب

هل كان شوقى يكتب الكلمات نفسها ؟

هل كان عبد الوهاب ينغم النغمات نفسها ؟

لست أعتقد ..

ولكن لقاء العبقرية لايتم إلا مرة واحدة فى كل جيل .. وقد تم فى مصر بين الشاعر الشامخ الذى كتب حروف الذهب ، وبين المراهق الناشىء الذى يدغدغ الألحان ، وكان هو اللقاء الذى صنع الموسيقى .

ولم يكن بين شعراء العربية من يترنم ويغنى ويفتن بالكلمة أعظم من شاعرين هما : أبو الطيب المتنبى وأحمد شوقى .

العرب يملكون آلاف الشعراء والشعر ديوان العرب .. ولكن هذا الديوان لم يكتب حروفه الذهبية غير المتنبى وشوقى ، أما الحروف الأخرى فإنها من فضة أو حديد ، أو منحوتة فى صخر ، وبعضها حبات رمال فوق صحراء !

المعلقات التى خلدت أسماء الجاهليين ليست من حروف الذهب !

الدواوين الخالدة فى تاريخ الأدب العربى ليس فيها حرف واحد من ذهب ، ولكن شوقى هو الذى كتب حروف الذهب ، كما كتبها الشاعر الآخر الأكبر أبو الطيب المتنبى . شوقى هو الذى جعل الشعر كلمة يتغنى بها الناس فى الشوارع .

وأى كلمة ؟

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

شوقى .. شاعر العربية الأكبر

وهو الذى كتب باللهجة المصرية العامية ، وعلم الشعراء كيف يكتبون بهذه اللهجة ؛ فلم يعرف السر غير واحد لايتكرر هو (بيرم التونسى) لأنه تعلم أسرار العربية قبل أن يكتب حروفاً بلهجة المصريين ، وهى عربية تأخذ بلاغتها وفصاحتها من بلاغة العربية وفصاحتها .

التحدى الذى قدمه شوقى حين كتب باللهجة المصرية ، هو تأكيد صفة الشاعر وحقيقة الشاعر .

وأنا أقدم إليك قصيدة شوقية كتبها باللهجة المصرية العامية ، لترى كيف كان يكتب حروف الذهب :

بلبل حيران على الغصون   شجى معنى بالورد هايم
فى الدوح سهران من الشجون   بكى وغنى والورد نايم
سكران بغير الكاس   فى مجلس الورد
من عنبر الأنفاس   ومنظر الخد
يبص فوقه ، ويبص تحته   ويمد طوقه ويشم ريحته
فنن يحطه وفنن يشيل   وجناح يقوم به وجناح يميل
فى إيد الليل يلعب به   وراه الويل ياقلبه
مجروح من ساقه ومن طوقه   مادرى بالشوق من شوقه
من دوح لدوح سهر ونوح   ياليل ده طير بدن وروح
من فرع غصنه ع الورد مال   وراح يمين وجه شمال
قال له : ياسوسن ياتمرحنة   ياورد أحسن من ورد حنة !
مين بالفرح لونك مين ؟   ومن الشفق كونك مين ؟
ياريحة الحبايب ياخد الملاح   لشوكة جمالك وضعت السلاح !
تبارك اللى خلق ظلك من الحقة !   واللى كساك الورق ولفه دى اللفة
زى القبل ولفه شفة على شفة   ياورد فوق ، لا الجناح ينهض ولا الجرح يرق
تشوفنى وقت الصباح   جسد على الأرض ملقى
أموت شهيد الجراح   ويعيش جمالك ويبقى

وقد غنى عبد الوهاب بعض أبيات القصيدة ، وأنت ترى أن ألفاظ القصيدة فى جملتها ليست عامية ، ولكنها مكتوبة باللهجة المصرية ، وهى أقرب اللهجات إلى الفصحى .

ولم يكن شوقى يكتب باللهجة السوقية . فى أغانيه العامية ولكنه كان يقترب دائماً من الفصحى . وكان يقول :

– لست أخشى على الشعر العربى إلا من زجل بيرم التونسى .

ولكن (شوقى) كتب العامية . فهل أصبحت أغانيه خطراً على الشعر العربى وهو أميره وكبيره ؟

إن أهم ما كتبه شوقى لمحمد عبد الوهاب بالعامية هى أغانيه الأربع المشهورة :

* بلبل حيران
* النيل نجاشى
* فى الليل لما خلى
* اللى يحب الجمال

وعندما سمع (بيرم التونسى) أغنية (محمد عبد الوهاب) النيل نجاشى ، كتب زجلاً شهيراً قال فى مطلعه متوجهاً بالحديث إلى أمير الشعراء صاحب الأغنية :

يا أمير الشعراء غيرك فى الزجل : أصبح أميرك

وكان شوقى يحب فى بعض الأحيان كتابة الشعر العامى ، ويتلذذ بذلك ، وقد كتب لعبده الحامولى دور :

يا ما انت واحشنى وروحى فيك ياماآنس قلبى لمين أشكيك ؟

أشكيك للى قادر يهديك

كما أنه كتبه لمحمد عبد الوهاب أول أغنية بالعامية ، وهى أغنية :

شكيت قلبى ياعينى شوقى بقى مين يحله

النوم بينك وبينى إمتى يجينى وأقول له .

ولكن قصة كتابة الشعر العامية لم تبدأ عند شوقى ، ولكنها بدأت عند أستاذه شيخ الشعراء (اسماعيل باشا صبرى) ، وهو الشاعر الذى نسيه الناس ، مع أنه

كان حلقة الاتصال بين (محمود سامى البارودى وبين أحمد شوقى) .

البارودى رفض تأليف الأغانى لعبده الحامولى عندما كان عبده المطرب الخاص للخديو وقد حفيت أقدام (سى عبده) حتى يكتب له البارودى كلمة يغنيها . ولكن الشاعر الفارس الأرستقراطى ابن السلاطين استنكر أن يذكر اسمه على ألسنة المغنواتية ، وظل يقول الشعر الفصيح ويجدده .

والأمر العجيب الغريب هو أن البارودى كان سبب دخول الشعراء الكبار فى مجالات الغناء العامى الشعبى : فقد حضر فى مجلسه بعد عودته من منفاه إلى بيته فى باب الخلق الشاعر (إسماعيل صبرى) والمطرب (محمد عثمان) وقال الباشا :

– لماذا لاتكتبون كلاماً فى مهاجمة الإنجليز الذين يحتلون بلادنا ؟

وأحس إسماعيل صبرى بأن الكلام يوجه إليه . فقال :

أنا أكتب الكلام .. ولكن من يغنى الكلام ؟

ورد عليه البارودى قائلاً :

– يغنيه محمد عثمان

وكتب إسماعيل صبرى الكلمات التى مازلنا نسمعها حتى اليوم ، ولايعرف كثيرون لماذا كتبت ؟

كانت كلمات الشاعر إسماعيل صبرى تقول :

عشنا وشفنا سنين ... ومن عاش يشوف العجب
شربنا الضنى والأنين ... جعلناه لروحنا طربْ
وغيرنا تملّك وصال ... واحنا نصيبنا خيال

كدا العدل يامنصفين ؟

وقد غنى عبده الحامولى هذا الدور بعد أن لحنه محمد عثمان .

وكان الشاعر (إسماعيل باشا صبرى) هو الذى فتح الباب ، فكتب أعذب

الأغنيات المصرية الحديثة ومنها أغنية :

الحلو لما انعطف أخجل جميع الغصون
والخد – آه – ما انقطف ورده بغير العيون
لما بدا لى الحبيب يشبه البدر التمام
صار الفؤاد فى لهيب فى الحال وهام بالقوام
ارحم ياسيد الملاح مغرم ضناه البعاد
دمعه على الخد ساح فى حر نار الفؤاد
الحب حاله عجبْ يلذ فيه العذابْ
ذكر الحبيب فيه طربْ ودمع عينه شرابْ

وكانت أشهر أغانى (إسماعيل باشا صبرى) فى زمانه الأغنية التى ترنم بها (محمد عثمان) وهى التى يقول فيها :

قدك أمير الأغصان من غير مكابر
وورد خدك سلطان على الأزاهر
والحب كله أشجان ياقلب حاذر
والصد ويا الهجران جزا المخاطر
ياقلب أدى أنت حبيت ورجعت تندم
صبحت تشكى مالاقيت لك حد يرحم
صدقت قولى ورَئيت ذل المتيم
ياما نصحتك ونهيت لو كنت تفهم

ويبدو أن (إسماعيل باشا صبرى) هو الذى فتح الباب لأحمد شوقى حتى يدخل ويكتب بالعامية المصرية على طريقة أستاذه الكبير . وأنت تلاحظ أن (صبرى باشا) لم يكن يكتب بلهجة السوقة ، أو ينزل إلى مستوى الزجالين .

ولكنه كان يكتب أغانيه باللغة الراقية وينظمها وينغمها وكأنها شعر فصيح ، ولم يبعدها عن هذا اللون من الشعر غير حركات الإعراب في أغلب أبياتها .

ويبدو لى أن المصريين هم الذين تسببوا فى ضياع حركات الإعراب من اللغة العربية . وجعلوا أواخر الكلمات ساكنة بلا حركة ، مع أنهم كانوا أكثر الشعوب العربية احتفاظاً بألفاظ العربية فى لهجتهم ، وهذا موضوع آخر لا أريد أن أشغلك به ، ولكننى سأكتب لك عنه . وهو موضوع خطير ألف فيه بعض العلماء كتباً ، ولكننا نبحث من حوله ، لنعرف كيف قال الشعراء كلمات ناصعة نزعم أنها عامية وهى عربية ؟

المهم بعد ذلك هو أن (شوقى) سار على طريق شيخه وأستاذه (إسماعيل باشا صبرى) فى كتابة الشعر باللهجة المصرية ، وكان يريد بذلك ما أراده شيخ الشعراء فى العصر الحديث من وصول الكلمة إلى الجماهير عن طريق الغناء . وهو الفن الأعظم عند العرب قبل ظهور فن المسرح الحديث وانتشاره .

وكانت طريقة (شوقى) فى تأليف الأغانى تشبه طريقة (إسماعيل صبرى) فى الشكل والمضمون .

* الشاعر لايمكن أن يكون زجالاً .

ونحن اليوم لانفرق بين الشاعر والزجال ؛ لأننا فقدنا أصول الفن الشعرى ، ولم نستطع التفريق بين الكلمة الشاعرة ، والكلمة السوقية المنحدرة .

إن (أحمد شوقى) هو الذى استطاع بموهبته وعبقريته وضع الحد الفاصل بين الشاعرية والسوقية .

وأنت تسألنى الآن عن هذا الفارق ، وهو دقيق رقيق يشبه الشعرة التى تفرق بين الحق والباطل ، أو بين الخير والشر .

إن ماترتبط به آداب العامية ، وهى آداب سوقية فى الغالب - لايصور غير

الصور البعيدة عن الشاعرية ، وأنت ترى ذلك فى نصوص الآداب الشعبية ، مثل قولهم :

يا أبو زعيزع قوم صلى   وخلى مراتك تقلى

أو فى قولهم :

الطشت قال لى

وأنت لن تجد فى نصوص الأدب الشعبى صوراً شاعرية مثل الصور التى كتبها الشعراء الكبار ، وسبب ذلك هو أن الذين ألفوا هذه النصوص – وهم عند كل الشعوب من المجهولين المغمورين – لم تكن عندهم غير القدرة المباغتة على استرضاء الجماهير . لا القدرة القادرة على تصوير المشاعر والأحاسيس .

وأنا لست من المهاجمين للآداب الشعبية أو الرافضين لها ، ولكننى أريد لها أن توضع فى مكانها الصحيح بين الآداب .

كان رأى (طه حسين) مثل رأى (أحمد شوقى) فى الأدب المكتوب باللهجة العامية المصرية ، وكان يقول : إنه يخشى على الفصحى من كتابات (بيرم التونسى) .

ولكن السؤال الحائر مازال فى حاجة إلى جواب .

لماذا كتب أمير الشعراء باللهجة العامية المصرية ؟

إن أعظم الشعر الغنائى لشوقى كان بالفصحى ، وعندما سألته أم كلثوم أن يكتب لها شعراً تغنيه – كتب لها قصيدته الذائعة التى رفضت أم كلثوم غناءها فى حياة شوقى ، وغنتها بعد موته ، وهى قصيدة :

سلوا كئوس الطلا هل لامست فاها   واستخبروا الراح هل مست ثناياها ؟

وكان شوقى يقول :

– لو كانت الأصوات معادن لكان صوت أم كلثوم من الذهب الإبريز .

ولكن أم كلثوم رفضت غناء القصيدة ؛ لأنها اعتقدت (أن شوقى) يريد أن يذكرها بأنها رفضت أن تشرب معه كأساً .

وكان شوقى الفنان من أسعد المعجبين بالفنانة ملك ، وألف لها الأغنية الذائعة :

ياحلوة الوعد مانساك ميعادى
عن الهوى ، أم كلام الشامت العادى ؟
كيف انخدعت بحسادى وما نقلوا ؟
أنت التى خلقت عيناك حسادى
طرفى وطرفك كانا فى الهوى سبباً
عند اللقاء . ولكن طرفك البادى

ويقول الرواة : إن (أحمد شوقى) كان من عشاق (ملك) ، وكان عشقه لها من ألوان العشق العذرى الرائع ، فكان يذهب إليها كل صباح ليصطبح بوجهها الصبوح ، ويشرب عندها فنجانة من القهوة ، ويقبل خديها ، ويقول لها كلمات الهوى ، ثم ينصرف .

ولكن (شوقى) كتب للمطربة المعروفة (ملك) شعراً فصيحاً ؛ من أروع أشعاره وكتب لأم كلثوم قصيدته التى ذكرتها لك ، وهى قصيدة :

(سلو كئوس الطلا هل لامست فاها ؟)

ولكنه كتب لمحمد عبد الوهاب شعراً بالعامية إلى جانب أشعاره الفصيحة ، وأشهرها قصيدته :

ياجارة الوادى طربت وعادنى مايشبه الأحلام من ذكراك

وهى قصيدة جرت على لسان الشاعر فى لحظات الهوى ، ولم يكتبها ليغنيها عبد الوهاب ، ولكنه استلهمها أو ألهمت له عندما كان فى (زحلة) يصطاف فى

لبنان فرآها ثم ألهبت شاعريته فقال قصيدته .

هناك سببان فى أن (شوقى) شاعر العربية الأكبر كتب باللهجة المصرية العامية شعراً غناه مشاهير المطربين :

السبب الأول هو أنه كان من تلاميذ شيخ الشعراء (إسماعيل باشا صبرى) الذى حرر الأغنية المصرية من السقوط والتهافت ومن نغمة (أمان يالاللى) إلى نغمة :

الحلو لما انعطف أخجل جميع الغصون

والسبب الآخر هو (محمد عبد الوهاب) الذى أراد (شوقى) أن يجعله مطرب الشرق وبلبل الشرق ، فكتب له بالعامية حتى يقربه من الجماهير الشعبية ويحبب فيه العامة . ولكنه منحه القيمة العظمى فى الفن . وهى القصائد الرائعة الخالدة التى حولت فن الغناء المصرى والعربى من السوقية إلى السمو والارتفاع .

يكفى أن عبد الوهاب صاغ أعظم ألحانه فى قصيدة :

يــا جــارة الوادى

ويكفى أن عبد الوهاب وضع أساس الموسيقى الأوبرالية فى مقطوعات (مجنون ليلى)

هل يتعلم الفنانون كيف يصوغون ألحاناً لروايات شوقى مثل ألحان (مجنون ليلى) حتى تصبح المسرحية الخالدة من الأوبرات العالمية ؟

ولكننى أقول لك : إن (شوقى) كتب بالعامية شعراً غنائيًّا . لأنه أراد أن يقدم للناس شعره الفصيح الذى نتغنى به اليوم وستتغنى به غداً ، وبعد غد .

١٢ - المـــرأة

كان المتنبى أول شاعر عربى حير الناس ، ثم جاء شوقى فحيرهم أيضا . وقد شغل هذان الشاعران الدنيا من حولهما ومازالا يشغلانها .

المتنبى لم يتحدث عن زوجته ، ولم يذكر اسم حبيبةٍ أو عشيقةٍ . وهكذا كان شوقى . وقد عصر الباحثون شعر المتنبى عصراً للبحث عن حبيبته ، واعتقد بعضهم أنه كان يحب (خولة) أخت سيف الدولة ، وأن أبا فراس ابن عمها كان يمقته لذلك . وقد نفى (طه حسين) هذا الحب على حين أيده آخرون ، واستندوا إلى قصيدة المتنبى فى رثاء خولة فذكرها فى واحد وثلاثين بيتاً من الشعر ، كما يستدلون على هذا الحب بمحاولة اغتيال المتنبى فى حلب ، قبل هروبه إلى مصر ، وقد ماتت خولة بعد رحلته إلى مصر وعودته إلى العراق ، وانقطاع أسبابه مع سيف الدولة .

وهذا الجهد فى البحث عن غرام المتنبى ، يدلنا على أنه كان شاعراً بلا عشق ،

وأن أشعاره الغزلية كانت أشعاراً تقليدية ، أو وصفاً لبعض لحظات الهوى الطارئ في تجارب خاطفة لم تدخل قلب الشاعر مثل قوله :

وكان أطيب من سيفي مضاجعة   أشباه رونقه الغيد الأماليد

وشعر الغزل عند المتنبي قليل ، وليس فيه دلالات على العشق الحار ، أو الهوى الجارف . وقد أحس (طه حسين) بهذه الحقيقة ، وهو أستاذ وناقد يدرك أحاسيس الشعراء ويدخل في عواطفهم ، ويحلل مشاعرهم . وكانت أذنه مثل الجهاز الإلكتروني الذي يلتقط ويحلل ، وهو إحدى عجائب الزمان التي لا يجود بها الزمان .

لم يكن ناقداً مدرسيًّا يبحث داخل الألفاظ والمعاني ، ولكنه كان فناناً يتسلل داخل عواطف الشعراء وأحاسيسهم . وكان يملك كل أدوات الناقد من المعرفة بالتاريخ واللغة والآداب والفنون ، ولعله كان آخر من قيل فيهم : إنه يلم من كل علم بطرف ، وهو تعريف الأديب القادر عند القدماء .

لقد عجبت ذات يوم عندما جاء طه حسين إلى الرقابة على الأفلام السينمائية بوزارة الداخلية ، وكنت مسئولاً عنها في تلك الأيام باعتباره الحكم في موضوع فيلم سينمائي حدث حوله خلاف بين التصريح والمنع . وجلس في قاعة العرض وشاهد الفيلم بأذنيه لا بعينيه ؛ لأنه مكفوف ؛ وكان لابد لنا من قبول حكمه ؛ لأنه القاضي الأكبر في الفنون ، وهو في الوقت نفسه أستاذي .. وحكمه على العين والرأس .

كان الفيلم فرنسياً ، وهو مأخوذ عن بعض قصص (جي دي موباسان) ، وقد أيد طه حسين رأي المنع بسبب مشاهد صامتة في الفيلم تصور دخول شيخين عجوزين يتوكأان على العصا إلى بيت من بيوت الدعارة في باريس . واشتد عجبي عندما سألني طه حسين عما يفعل الرجلان ، وكان هو قد استنتج صورة المشهد

السيمائى بذكائه الخارق . وبمعرفته للأدب الفرنسى . وكان الذى قاله (طه حسين) هو ما صوره المخرج فى هذا المشهد .

سبحانك ياربى ! .

ومن عجائب (طه حسين) أنه كان يلقى علينا محاضرات عن النقائض بين جرير والفرزدق ، وهى قصائد الهجاء الشهيرة فى الأدب العربى . وكنا نعتقد أن جريراً يقول قصيدة فيرد عليه الفرزدق بقصيدة ، ولكن هذا العبقرى الجالس على مقعد من الخيزران الرخيص ، وأمامه منضدة خشبية لاتساوى نصف جنيه كان يفرك كفيه ، والبسمة على شفتيه ، وهو فى زيه الأنيق الجميل الذى يرسم لك صورة فنان ، ويحببك فى الحياة .

وقال (طه حسين) إن جريراً كان يقول بيتاً واحداً ثم يرد عليه الفرزدق ببيت واحد . وطلب منا أن نحصى عدد الأبيات فى كل نقيضة من النقائض ، وكان العدد متساوياً ، فانقلب ميزان النقد ، وبدأنا ننظر إلى نقائض جرير والفرزدق نظرة أخرى ، ونحللها بيتاً من الشعر لبيت مقابل له .

وا أسفاه ! ضاعت من أيدينا أثمن درر طه حسين ؛ لأننا لم نسجل محاضراته التى ألقاها علينا فى كلية الآداب . ولو كانت أجهزة التسجيل قد اخترعت لوصلنا إلى ما نريد ، ولكننا لم نكن نكتب ما يقول فى الكراسات ، وكيف كان فى استطاعتنا أن نلاحقه ، وهو مثل النهر المتدفق الذى يجتاز كل الصخور والشلالات !

الكلمة المنغمة التى تأسرك ، والفكرة الناصعة التى تخلبك ، والأستاذ الذى لاتسمع فى أثناء كلامه همساً ، بل إنك تكتم أنفاسك لتسمع مايقول .. وسامعوه فتيات فى مثل سننا لايبلغن العشرين ، وشيوخ زائرون شابت نواصيهم .

قال طه حسين : إن المتنبي لم يعشق خولة أخت سيف الدولة . ولا هي عشقته ، لأنه كما قلت لك كان يسمع شعر المتنبي بهذه الأذن الإلكترونية التي تخلل ماوراء الشعر من عواطف الشاعر . وهذا لون من النقد يعتمد على العبقرية الفنية . ولا يعتمد على الأساليب المدرسية في النقد ، والبحث عن كلمة هنا أو كلمة هناك قد تنم عن هذا العشق .

وكان (طه حسين) هو الذى أنشأ كرسى الأدب المصرى الحديث فى كلية الآداب ، وسماه باسم (أحمد شوقى) . وهو الذى خالف (شوقى) ونقده وأسرف فى نقده لأسباب شخصية . بل إنه أعلن على الملأ مبايعته لعباس محمود العقاد أميراً للشعراء .

لعن الله السياسة التى جعلت عبقرياً مثل (طه حسين) . يقول كلاماً لايعتقده وهذه هى آفة السياسة . ولكنها ليست جديدة عندنا . فهى آفة معروفة عند كل الشعوب ، وقد عزف (بيتهوفن) سيمفونية لبونابرت الذى غزا بلاده . وأذل شعبه ، كما تقدم (يوهان ولفجانج جوته) إلى بونابرت ، وخضع له . وهو شاعر ألمانيا الأكبر .

هذه هفوات فى حياة العباقرة ، وقد سقط (فولتير) فى إحدى هذه الهفوات . أو السقطات عندما ذهب إلى ألمانيا . وأوى إلى الإمبراطور فرد ريك الذى بنى لشاعر فرنسا الثائر قصر (بوتسدام) وجعل فيه غرفة لها قبة تشبه قبة السماء . سماها قاعة فولتير ، مازالت موجودة حتى اليوم .

كيف أصبح داعية الحرية والثورة تابعاً من أتباع الإمبراطور فردريك الألمانى ؟ أشياء يحار العقل فى تحليلها . ولكنها حدثت عند كل الشعوب . وقد حدثت

عندنا فى مصر . وأنا أحكى لك هذه الحكايات ؛ لأنها قريبة من حياة (طه حسين) وحياة (شوقى) . فإن لقاء العبقرية لاينفصل . مهما لعبت السياسة أدوارها فى تلك اللعبة الهزيلة التافهة ، التى تمضى . ثم تبقى العبقرية .

كان (طه حسين) هو الذى دعا إلى دراسه الأدب المصرى الحديث ، وجعل له كرسياً فى كلية الآداب سماه «كرسى شوقى» . ولكن هذا الكرسى انخلع . ولم نجد له أثراً فى دراسة أدبنا الحديث . بل إنه لم يجلس عليه دارس واحد لعبقرية شوقى التى لاتتكرر .

محمد عبد الوهاب وأم كلثوم وهما أعظم من أسمعنا صوتاً ، كان شوقى لهما هو صاحب الكلمة . وليس لهما خلود فنى إلا بخلود شوقى الأدبى .

ستفنى كل الكلمات التى غنياها وستبقى لهما كلمات شوقى أبد الدهر .

لقد روى (زكى مبارك) كيف آثر شوقى لقاء (طه حسين) على لقائه . مع أن (زكى مبارك) كان من الدعاة لعبقرية شوقى على حين كان (طه حسين) من المعاندين لشوقى .

ولكن الأديبين الكبيرين لم يتحدثا عن المرأة فى حياة شوقى . وهو ما أريد أن أحدثك عنه . ونحن لم نعرف اسم زوجة شوقى ؛ لأن المجتمع المصرى فى عصره كان يخفى النساء فى الحريم . وكانت الأنثى (الوحيدة) التى عرفها شوقى للناس هى ابنته أمينة . ولعله فعل ذلك لأنها كانت طفلة لاتطمع فيها العيون .

قال (شوقى) مقطوعات شعرية فى ابنته أمينة ، ولعله ألف بعض أشعار الأطفال بسببها ، فقد كان يحبها حباً شديداً . ويمنحها جيبه أو حافظة نقوده تتصرف فيها كما تشاء ، ولايمنعها من ذلك .

وكان حب شوقى لأمينة حبًّا عظيماً . بل إنه من أعظم أشكال الحب . وقد كانت عواطف شوقى الأبوية زاخرة عاصفة . حتى إنه اصطحب ولديه (حسين وعلى) معه عندما نفى إلى إسبانيا ، ووجد فيهما السلوة فى الاغتراب ، ولم يطلب اصطحاب زوجته . وهذه إحدى عجائب عبقريته ، فهو ليس فى حاجة إلى المرأة ولكنه فى حاجة إلى حب من لون آخر ، هو حب الأبناء ، لا حب النساء !

وكان شعر شوقى فى المنفى ينم عن حب آخر أعظم من حب المرأة . فقد كانت كلماته كلها ترتبط بمصر :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه   نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

وهذا الشعور عند شوقى يدلنا على حقيقة شخصيته التى مازال كثيرون فى حيرة عندما يحللون عناصرها ، فهى شخصية شاعرة ، تعتقد العظمة الذاتية . وشوقى يشبه جوته فى بناء الشخصية .

الشعر أمير ، والشاعر أمير .

أما المرأة فإنها ليست بذات بال فى حياة العبقرى ، وقد اعتنق (عباس محمود العقاد) هذه الفكرة ، وكانت له هفوات هى هفوات العبقرية . ولكنه كان يعتقد أن المرأة متاع للرجل ، وليست صانعة لعبقرية القادر الفذ . وقد أسرف فى ذلك الفكر إسرافاً شديداً عندما تصدى للدكتورة بنت الشاطىء عائشة عبد الرحمن فى مقالات شهيرة منشورة .

والمرأة فى حياة العباقرة شىء مجهول مبهم ، وأنت تسمع قولهم : إن وراء كل عظيم امرأة ، وتسمع أيضاً أن العظيم يكون عظيماً بلا امرأة ، مثل أبى العلاء المعرى ، أو المتنبى أو شوقى .

عندما نفى (سعد زغلول) طلب من السلطة البريطانية أن تبعث إليه بزوجته صفية زغلول.

وعندما نفى (أحمد شوقى) طلب أن يصاحب ولديه (حسين وعلى شوقى).

وقد نفى (شوقى) قبل (سعد زغلول) وهما متعاصران فى مجتمع واحد، له تقاليد واحدة، وكلاهما تزوج زواجاً تقليدياً بلا حب أو غرام.

ما علينا..

إن المرأة فى حياة شوقى محيرة. وقد كسر (يوهان ولفجانج جوته) هذه الحيرة عندما تزوج خادمته، وهو الذى رفض الزواج من الأميرات الجميلات!

شىء محير..

المرأة لغز غريب عجيب. منذ نزلت حواء مع آدم فى بداية الحياة.

(حافظ إبراهيم) لم يتزوج، ولم تكن فى حياته امرأة، وخليل مطران كان مثله، والعقاد أيضا لم يتزوج، والآنسة مى زيادة لم تتزوج، وكان العقاد من أحبابها مع غيره من الرجال.

ليس الأمر خاصاً بالرجل أو المرأة فيما أظن، ولكنه خاص بالعبقرية الأدبية أو الفنية، وهذا هو ما يدعونا إلى التقريب بين المتنبى وشوقى فى الحب والعشق والهيام، لأن ينابيع العبقرية لاترتبط هى وهذا الينبوع العادى الذى يربط بين رجل وامرأة. ولكنها تربط العبقرى بينبوع آخر هو العبقرية نفسُها.

لقد تزوج (يوهان ولفجانج جوته) خادمته فى لحظة إحساس جنسى، وأنجب منها ولداً تافهاً: وهو شاعر الألمان الأكبر، فكيف حدث هذا؟!

عندما تنجذب روح الشاعر بروح السماء يحدث النور الأعظم الذى يشعل

عبقرية الوجدان والشعور . وقد حدث هذا الانجذاب فى روح (شوقى) ، فكانت اللذة عنده هى لذة اللقاء بين الأرض والسماء فى مفهوم الوحى الشعرى . وقد تحدث معاصروه عن هذه الجذبة أو الانجذاب الإلهامى مما يشبه الوحى ، وهو لحظة الإيحاء عند أصحاب الفنون الرفيعة من الشعراء والموسيقيين والرسامين والنحاتين وغيرهم .

وكان (شوقى) من أصحاب الإيحاء ، شأنه فى ذلك شأن غيره من عباقرة الفن . وليس لنا أن ننظر إليه على مقاييس التطور والتغير فى الآداب وتاريخها ؛ فهذا حديث ممل يعرفه النقاد المدرسيون من محترفى النقد الأدبى .

إن العبقرية لاتقاس بزمان أو مكان ، ولكنها عبقرية فى ذاتها وصفاتها وأشكالها وتكوينها ، وإذا حاولنا دراستها فيما سبقها أو فيما يلحقها فإننا نبحث عن جوهرها فى الزمان والمكان ، وهما عاملان أساسيان فى قياس العبقرية . والتعرف على مقوماتها ومكوناتها . ولكنهما ليسا قادرين على بناء العبقرية الذاتية التى تتفجر من الإنسان ، بل إنهما يساعدان على بناء هذه العبقرية .

والمرأة فى حياة (شوقى) لاتكاد تذكر ، وشعره فى الغزل هو أهون الشعر ، برغم قيمته الفنية العظيمة .

كانت شخصية (روميو) هى التى حركت جولييت فى مسرحية شكسبير الخالدة ، وكان (قيس) هو المحرك لشخصية (ليلى) فى مسرحية شوقى الخالدة .
ولكن كليوباترة كانت هى الآمرة الناهية فى مسرحية شوقى (مصرع كليوباترة)

المرأة ..
لماذا المرأة ؟

عشق (شوقى) شخصيتين امرأتين، هما (ليلى) و (كليوباترة)، وأبدع فى تصويرهما إبداعاً عجيباً، ولكنه لم يجد فى مسرحيته (على بك الكبير) و (قمبيز) امرأة ليتحدث عنها، مع أن العنصر الأساسى فى البناء الدرامى هو المرأة.

ولم يكن هذا هو العجز عن إيجاد شخصية نسائية فى مسرحيتى على بك الكبير وقمبيز، ولكنه كان الحب لشخصيتى ليلى وكليوباترة. والشاعر حين يحب لا يصرفه شىء عن حبه. وقد كتب شكسبير مسرحيته الشعرية عن (يوليوس قيصر) وليس عن (كليو باترة) وسلط الأضواء على البطل، لا على البطلة، وهكذا فعل (برنارد شو) عندما كتب مسرحيته (يوليوس قيصر)، ولكن (شوقى) كتب عن (كليوباترة) وهذا هو الفارق الذى أحدثك عنه من ناحية إحساس الشاعر أو الفنان بالشخصية.

وكان (شوقى) يحب المرأة فى (مصرع كليوباترة) وكان يحبها أيضاً فى (مجنون ليلى)، ولذلك لم يسقط اسمها حتى من عنوان مسرحيته الشعرية، وذكرها باسمها، ولم يذكر اسم قيس، وكان فى إمكانه أن يسميها (قيس وليلى) بدلاً من (مجنون ليلى).

هذا هو الخيال فى خيال الشاعر، ولكن ما الحقيقة فى معرفة شوقى بالمرأة؟

قصة طويلة عريضة، رويت حولها الروايات، وحكيت الحكايات.

غلام جميل زاحمه (شوقى) يوم الأحد عندما أراد دخول كنيسة فى إحدى قرى لبنان، حيث كان يصطاف أمير الشعراء، وأراد أن يختلس الغلام. ومازال بعض الأدباء يلوكون بين أفواههم مثل هذه الحكايات.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

لقد رويت لنا أمثال هذه الأراجيف عن (زكى مبارك) ؛ وقد عرفته وعاصرته ، وكان من فحول الرجال علماً وأدبا وشخصية وقدرة قادرة .

من عجائب مصر أنها تتسلى بالشائعات ، ولا تصدق الشائعات . وهذه إحدى خصائلها المحمودة ، وفضائلها الباقية . وهى من أسباب بقائها فى صراع مع الزمن .

وقد أشيعت عن (شوقى) شائعات كثيرة ، ولكنها لم تمتد إلى صلاته الغرامية : لأنه بحكم نشأته فى بيئة محافظة أو عمله فى القصر لم يكن فى استطاعته المجاهرة بالحب أو الغرام ، وقد كان يمشى ووراءه عيون ترقبه وتحصى كل خطوة من خطواته باعتباره شاعر القصر ، وكان الخديو يحصى على الناس أنفاسهم وخطواتهم ولا يسمح له بالاختلاط مع الشعب ، فكيف كان شاعر الأمير يستطيع ممارسة حياته العادية كما يعيشها الناس ؟

عندما كان إسماعيل تيمور باشا وهو ابن أحمد تيمور باشا يعمل فى وظيفة تشريفاتى فى قصر عابدين لم يكن يسمح له بالجلوس فى المحال العامة . وكان يتسلل إليها فى خفية عن الأعين ، وقد ترك أخوه محمد بك تيمور هذه الوظيفة فى قصر عابدين بسبب حبه للمسرح ، ولذلك كان (شوقى) يخفى صلاته الغرامية فلا يعلم بها أحد ، مع أن قلبه كان يشتعل بالوجد والغرام ، وكانت مطالع قصائده فى مدح الخديو من أعظم ما قيل من شعر الغزل ، ولكن السلطة كانت تمنع نشر هذا الشعر .

وعندما كتب شوقى قصيدته الرنانة فى مدح الخديو واستهلها بالغزل على طريقة الشعراء القدماء ، وبدأها بالمطلع الشهير :

خدعوها بقولهم حسناء والغوانى يغرهن الثناء

بعث رجال القصر إلى مدير المطبعة الأميرية فى بولاق رسولاً ، وطلبوا منه حذف كل أبيات الغزل من القصيدة قبل نشرها فى جريدة الوقائع الرسمية .

وشعر الغزل عند (شوقى) ليس فيه حرارة الحب والعشق ، ولكنه شعر تقليدى ؛ لأن الشاعر لم يكن له غرام أو عشق وهيام ، وهذه هى إحدى العجائب .

كيف تمضى حياة شوقى بغير هوى وغرام ؟

سألنى أحد الأصدقاء عن النساء فى حياة شوقى . وبحثت فى ذاكرتى ، وبعد قراءة مابين السطور فى حياة أمير الشعراء عجزت عن الوصول إلى المرأة التى أحبها شوقى .

قصة زواج أمير الشعراء لم يكن فيها حب ، بل إنه تزوج على طريقة عصره ، فكانت زوجته بنت أحد كبار الأثرياء . وهو زواج الحسب والنسب .

ولكن أمير الشعراء عرف كثيرات من النساء فى حياته . وكانت معرفته لهن تتصل بالفن ، وأشهرهن السيدة فاطمة اليوسف التى أنشأت مجلة روز اليوسف فى مبنى كان من أملاك شوقى عند بدء صدور المجلة ، وكان منهن المطربة الشهيرة السيدة ملك التى ألفت لها مقطوعات غنائية من أشهرها :

ياحلوة الوعد مانسّاك ميعادى عن الهوى أم كلام الشامت العادى ؟

وهى من أحلى الأغانى التى ألفها شوقى .

وكان أمير الشعراء من المعجبين بالممثلة الشهيرة (فاطمة رشدى) وقد سمعت من أحد المعاصرين أن (شوقى) كان يمر عليها فى دارها كل صباح ليشرب معها القهوة ، ويداعبها ، ويربت على خدها ، ثم يودعها . وكان يسميها (بطة) . وقد كانت (فاطمة رشدى) من أجمل الجميلات فى شبابها ؛ كما كانت نجمة ساطعة فى المسرح .

أما أم كلثوم فقد كتب لها شوقى الأغنية الذائعة :

سلوا كئوس الطلا هل لامست فاها واستخبروا الراح هل مست ثناياها

ورفضت أم كلثوم هذه القصيدة . وحدث بينها وبين شوقى خصام . ثم غنت القصيدة بعد وفاة شوقى . وبعد اثنى عشر عاماً من كتابتها . كما غنت أروع أشعار شوقى . ولكنها لم تكن أشعار الغزل . بل كانت أشعار الإسلاميات والوطنيات .

كان شوقى من عشاق الجمال ، ولكنه لم يعشق امرأة . مع أن أستاذه (إسماعيل باشا صبرى) عشق الآنسة مى . وقال لها :

أنتِ روحانية لاتدّعى أن هذا الحسن من طين وماء

وانزعى عن جسمك الثوب يبن للملا تكوين سكان السماء !

ونحن لانعرف تلك الفتاة الجميلة التى رآها (شوقى) فى وادى زحلة بلبنان . ثم كتب قصيدته :

ياجارة الوادى طربت وعادنى مايشبه الأحلام من ذكراك

ولعلها كانت فتاة من بنات الجبل تجمع عناقيد العنب من الكروم . أعجبت أمير الشعراء .

وكانت حياة الشاعر الشاب فى فرنسا بعيدة عن المغامرات . فلم نعرف أنه أحب أو عشق . وهو يشاهد مواكب الجميلات فى باريس أو مونبلييه . وتلك إحدى العجائب الغرائب .

إن البحث عن المرأة فى حياة شوقى مثل البحث عن المرأة فى حياة المتنبى : فقد تعب الذين درسوا حياة المتنبى فى البحث عن المرأة . حتى قالوا : إنه أحب أخت سيف الدولة الحمدانى ، ولم يجرؤ على الإفصاح عن حبه خوفاً من سيف الدولة . ولكنه صرح بهذا الحب فى رثاء تلك الأميرة الحمدانية بعد موتها . بل إن بعض

الذين يتصيدون زعموا أن السبب فى الخصام بين المتنبي وسيف الدولة كان هو عشق تلك الأميرة التى ماتت .

لقد تعبت فى البحث عن المرأة فى حياة شوقى .

فى ليلة موته لم تكن معه زوجته ، بل كانت فى غرفتها ، وكان خادمه الخاص هو الذى يرعاه وحين أحس الخادم بالخطر على حياة سيده دعا سيدته ، فجاءت من غرفتها لتودع زوجها أمير الشعراء الوداع الأخير.

وكان حب شوقى لابنته أمينة من أعنف ألوان الحب ، فقد استباحت جيبه وهى طفلة ، وكان يسعد سعادة غامرة ؛ لأنها تستبيح جيبه ، وتأخذ مامعه من نقود ، وعندما نفى إلى الأندلس أخـذ معه ولديه (على وحسين) ، وكان شديد السعادة برفقة ولديه الشابين فى غربته ، ولم تكن له فى إسبانيا مغامرة واحدة نشم منها رائحة العشق والهوى .. بل كانت قصائده كلها فى الحنين إلى مصر معشوقته الأولى والأخيرة .

ولكن ليس معنى ذلك أن أمير الشعراء كان جامد الحس ، أو بعيداً عن الاستمتاع بالمرأة ، فقد كان يستلطف اللطيفات . ولم يكن مجاهراً بمتعته ؛ لأن البيئة التى وجد فيها قضت عليه بالرصانة والتستر.

شاعر الخديو لايصح له أن يبوح بما فى قلبه فى مشاعر أو إحساسات . ولذلك اختفت أمامنا صور العشق فى حياة (شوقى) ، ولا أعتقد أنها اختفت من حياته . ولكنها كانت من لون آخر مما يصل إليه أصحاب اللذة والمتعة بغير عشق وغرام . وهو ما نسميه غرام الأثرياء أصحاب المال والسلطة والقدرة . وله فى التاريخ شواهد كثيرة ، ولكنه على كل حال ليس غرام الشعراء والأدباء والفنانين .

كانت للشاعر (إبراهيم ناجى) غراميات لاتنتهى ، وكان يتغزل فى كل امرأة يلقاها ، ولو كانت من أقبح القبيحات ! ولكن شاعريته هى التى كانت تنطق بالهوى والغرام ، وترى القبح حسناً ، وترى الدميم جميلاً فيسيطر عليه الخيال . وينتقل من حالة الوجود الحسى إلى حالة الوجود الروحانى ، والشاعر القديم يقول :

أهيم بالحسن كما ينبغى　　　وأرحم القبح فأهواه !

ولكن (شوقى) كان يهيم بالحسن وحده ، ويصفه ويصوره ، ولكنه لم يحترق فى نار الهوى والغرام ولذلك كان شعر الغزل عنده فاتراً برغم جمال تصويره وإبداعه وأنت لاتجد فى شعر (شوقى) كله غراميات ، مع أنه ألف روايتين غراميتين هما (مجنون ليلى) و (مصرع كليوباترة) .

هو يتحدث عن الحب ، ولكنه لايحب ولايعشق ولا يذوب فى غرام !

وشوقى الشاعر ليس مؤلف دراما . ولكنه قبل كل شىء شاعر .

كيف لايحب الشاعر؟

أنا حائر فى هذه القضية ، وقد حيرت من قبلى من تحدثوا عن المتنبى ، فبحثوا عن غرامه ، ومازلت أبحث عن غراميات شوقى .

وأقول لك : إننى لا أبحث عن هذه الغراميات من أجل الهواية ، ولكننى أبحث عنها لأعرف : لماذا كان شعر (شوقى) فى الغزل بارداً فاتراً ضئيلاً ؟

إن قصيدته الشهيرة :

ياجارة الوادى

ليس فيها دفعة الحب ، ولكن فيها حب الطبيعة .. وليست فيها أنثى تثير خيال

شاعر . وهو يقول فيها :

ودخلت فى ليلين فرعك والدجى ولثمت كالصبح المنور فاك

هو يعانق الليل لا أحضان امرأة ، وهو يقبل الصباح ولا يقبل شفتين ظامئتين للقبل .

الصورة رائعة . . رائعة . . والعاطفة ضائعة . . ضائعة .

كيف أعانق الليل وأقبل الصباح ؟

ولكن براعة شوقى وعبقريته طغت على كل شىء ، حتى على العاطفة ، وأنت تسمع قصيدته

مضناك جفاه مرقده
وبكاه ورحم عوده

فترق معه ، حتى تسيل منك الدموع ، ولكنه فى موسيقاه ، وألفاظه وصوره البارعة — لم يلمس قلباً ، ولم يصل إلى حس عاشق ولهان .

هذا العبقرى الشاعر لم يعشق امرأة واحدة يحس معها الدفء والحنان والحب ، ولكنه عشق الجمال مجرداً ، فتصوره فى الطبيعة أحياناً ، وفى مشاعر الآخرين أحياناً أخرى ، ولكن .

أين المرأة التى أحبها شوقى ؟ ومن المرأة التى أحبها شوقى ؟

رحلة حياته كلها كانت بلا امرأة معشوقة ، ولو كانت فى الخيال ، وهو أعشق عشاق الجمال . . !

قلت لك : إننى لاأصدق أنه كان بلاعشق وبلا غرام .

وقلت لك : إنه لم يصل إلى فن الغزل حتى فى رواياته الغرامية الشعرية .

إن (شوقى) كان عبقرياً بلاامرأة ، وتلك إحدى عجائب الزمان . والعجيبة

السابقة هى المتنبى .

ولكن العبقرية قد تتفجر أحياناً من الذات ، وليس للعبقرية قاعدة ، لأنها شذوذ ، وما كان شذوذاً يمكن أن يحدث ليخالف كل قاعدة تعرفها العقول .

ولذلك اعتقد كثيرون من النقاد أن (شوقى) لم يكن يحسن هذا اللون من الشعر وهو شعر الغزل .

يقول بطرس البستانى .

«تغزل شوقى ، ولكنه لم يبرع فى هذا الفن براعته فى غيره من الأغراض ، لأن الغزل من الوجدانيات التى ينبغى للشاعر أن يحس تأثيرها فى نفسه ، فإن لم يكن لألم الحب من سلطان على قلبه فهيهات أن يأتى بغزل عاطفى صادق اللوعة ، متواصل الحنين . وشوقى لم يكن من المتيمين المتألمين ، ولا من العشاق الروحانيين ، وإنما هو صاحب لذة يتتبعها فى مواطنها ، فما تحرمه سعة يده الوصول إليها . فلم يشعر بذلك الألم الذى يشعر به من يغرى بشىء . ويصعب عليه نيله . فيأسف عليه ، ويأسى ، وتثور عاطفته وجداً وكمداً . فيلفظها لسانه ، قطعاً دامية من أفلاذ كبده !» .

ولم يكن (شوقى) مجاهراً بلذته . فيستر عجزه عن بث لواعجه بغشاء من القصص الغرامى ، لأن البيئة التى وجد فيها قضت بالتستر فشاعر الخديو لايصح له أن يكون مستهتراً ، بل لايصح له أن يعنى بالنسيب . وربما استهل مدحته متغزلاً ، وأراد نشرها فى جريدة الحكومة ، فتوعز بطانة الأمير إلى مدير المطبعة أن يسقط الغزل منها ، كما أصاب قصيدته : خدعوها بقولهم حسناء . ومثل هذا التعرض من الحكومة يخمد نشاط الشاعر إلى النسيب ، ويحمله على الاقتصاد فيه ، وقلة التبسط فى شرح أحواله .

وشوقى فى غزله مقلد متكلف ، يترسم (البهاء زهير) فى سهولة ألفاظه ، ولين

تعابيره ، وخفة أوزانه ، وابتذال معانيه :

مُضْنًى وليس به حراك لكن يَخِفُّ إذا رآك

فكأنه ينظم هذا الشعر ، لارغبة فى النسيب ، وإنما ليتغنى به المغنون .

ويعارض أبا الحسن الحصرى القيروانى فى قصيدته الشهيرة : ياليل الصبّ متى غده ؟ والمعارضة ضرب من التقليد :

مضناك جفاه مرقده وبكاه ورحم عوده

ويحاول أن يحتذى على مثال ابن أبى ربيعة فى زياراته الليلية ، فيطرق فتاة الحى ، وتزجره النساء ، حتى إذا عرفنه طلبن منه الأمان للعذارى ، ولكنه يقصر عن عُمر أشواطاً ، سواء فى الصراحة والصدق ، أوفى جمال القصص والحوار .

ويصطنع غزل الشعراء والفرسان ، فيمزج ألفاظ الحب بألفاظ الحرب ، وهو لم يشهد وغى ، ولاحمل سيفاً ولارمحاً :

فلكم رجعت من الأسنة سالماً
وصررت عن هيف القدود طعينا

ويدخل الحكمة فى نسيبه كالمتنبى :

وأعلم أن الغدر فى الناس شائع
وأن خليل الغانيات مضيع

ويخشوشن مثله ، فيقاتل العيون ، كما قاتل أستاذه الخدور :

ياقاتل الله العيونَ فإنها
فى حر مانصلى الضعيفُ البادي

ويتغزل بالطبيعة كأنها امرأة فعل ابن الرومى :

ودخلت فى ليلين فرعك والدجى
ولثمت كالصبح المنور فاك

وهو مقلد فى وصف محبوبه . يعنيه أن ينعت شعره وعينيه وثغره ورضابه وقوامه . ويخصه بالتشابيه المتذلة : بالليل . والسيوف واللؤلؤ والكوثر والغصن : وقلما يلتفت إلى وصف العواطف والأهواء ومايعتاد النفس من شوق وصبابة وغيرة وحرقة وخوف وأمن ويأس ورجاء . أو إلى تصوير طباع محبوبه وما يلتقطه من حركاته وسكناته وغنجه ودلاله ، بيد أنه يذكر طول ليله . ويراعى النجم . ويتحدث إلى الحمام . ويشكو ويئن ويتظلم متشبهاً بالشعراء المتيمين .

ولا يخلو غزله من جمال الفن وحسن الصناعة . وإن خلا من صدق العاطفة ، وحدة المعنى ، وقد تخضع له أبكار المعانى . ولاتستسلم بنات العواطف كقوله :

صونى جمالك عنا إننا بشر   من التراب وهذا الحسن روحانى

أو . .

فابتغى فلكاً ، تأوينه ملكاً   لم يتخذ شركاً ، فى العالم الفانى

١٣ – موسيقيون ومطربون

قراءة مابين السطور هواية ممتعة ، وعندما كنت أبحث عن الشخصيات فى حياة (شوقى) لم أحاول معرفة تواريخ حياتهم وأحوالهم . ولكننى أريد أن أعرفهم .

فى حياة (شوقى) شخصيات لاحصر لها . ومنهم الأعلام المشهورون . وفيهم المغمورون ، وبعضهم نسيه التاريخ . لأن التاريخ ينسى فى بعض الأحوال .

كانت فى مصر عند بدايات القرن العشرين مطربة اسمها (ليلى لزمى) أطلقوا عليها لقب طائر الجنة . ونعتوها بنعت بلبلة الشرق . ويبدو أن أمير الشعراء كان معجباً بها . فانتهز فرصة احتفال لجمعية الهلال الأحمر بالإسكندرية . وكانت ليلى مطربة الحفل ، فكتب لها تحية من بدائع شعره . قال فيها :

رُدتَّ الروح على المضنى معك   أحسنُ الأيام يومٌ أرجعك

وهى قصيدة على نغم ابن زيدون فى قصيدته الذائعة :

ودّعِ الصبر . محب ودعك ذائع من سره ماَاستودعك

وكان خليل مطران هو الذى عرف (شوقى) بهذه المطربة . بل إنه هو الذى أطلق عليها لقب طائر الجنة .

وخلال حياته اقترب شوقى كثيراً من أصحاب الطرب والغناء . قبل أن يصطفى بلبل الشرق الصداح محمد عبد الوهاب . وسبب ذلك فيما أعتقد هو موسيقى الشعر : فقد كانت أذن أمير الشعراء تسمع اللحن وتصوغه شعراً . وهى موهبة خارقة لم يصل إليها إلا كبار الشعراء ومنهم (يوهان ولفجانج جوته) شاعر الألمان . فقد كان صفيه وصديقه الموسيقار الأعظم (لودفيج فان بيتهوفن) . وكان الوزير جوته يتحمل بيتهوفن فى هفواته . وقد أَعَدَّ له بيانو خاصًا فى بيته لايعزف عليه أحد سواه !

وهكذا فعل (شوقى) مع عبد الوهاب . على خلاف فى الصورة . فإن عبد الوهاب جم الأدب . عظيم الأخلاق . وليس سوقيًّا مثل بيتهوفن .

ولكن شخصيات الفنانين فى حياة (شوقى) كثيرة . وكلهم ليسوا على مستوى عبقرية شوقى . ولذلك كان عبد الوهاب هو اللحن والصوت الذى التقى فى النهاية وأمير الشعراء ، ولم يفهم كثيرون لماذا اختصه (شوقى) بهذه الرعاية . ولم يهتم بأم كلثوم مع أنه قال : إن صوتها مثل الذهب الإبريز ؟

محمد عبد الوهاب موسيقى ومطرب ، وأم كلثوم مطربة وليست موسيقية ، والشاعر يحتاج إلى الموسيقى قبل الطرب . ولو كان (شوقى) فى حاجة إلى مطرب لاستطاع أن يقرب إليه (صالح عبد الحى) الذى كان أعظم من الصبى الناشئ محمد عبد الوهاب .

الموسيقى هى التى جمعت بين (شوقى وعبد الوهاب) وليس صوت عبد الوهاب ، ولذلك انصرف إليه أمير الشعراء ، وجعل له غرفة فى بيته ؛ لأن

موسيقاه كانت وحياً لأمير الشعراء ، وأعظم شيء فى شعر شوقى موسيقاه .

إن الشعر ليس بحراً وقافية ، وإلا كانت ألفية ابن مالك فى النحو من عيون الشعر .

الشعر نغم يرتديه اللفظ ، وينسجم هو والكلمة ، والنغم فى الشعر أسبق من اللفظ . وكان (شوقى) يغمغم قبل أن يكتب قصائده ، وهذه الغمغمة هى النغم ، وهى السلم الموسيقى الذى يؤدى إلى الألفاظ والكلمات .

إننى أعتقد أن (شوقى) استوعب الموسيقى العربية والموسيقى الأوربية حتى ملأت كيانه ، وأنه كان يقول الشعر على النغم ، ثم تنسجم الكلمات والحروف .

فى الخمر يقول :

رمضان ولّى هاتها ياساقى   مشتاقة تسعى إلى مشتاق

ويقول :

حف كأسها الحبب   فهى فضة ذهب

وليس للميزان الشعرى قيمة فى هذا ، فهناك ميزان آخر هو النغم والكلمة المنطوقة ، وحرف كل كلمة من هذه الكلمات يتناغم هو وحرف آخر

إن موازين الشعر مثل سلالم الموسيقى يعرفها الدارسون ، ولايعرف كيف يحركها الاالفنانون . وهذا هو سر الأسرار .

فى رثاء سعد زغلول يقول شوقى :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها

وانثنى الشرق عليها فبكاها !

وفى رثاء حافظ إبراهيم يقول :

قد كنت أوثر أن تقول رثائى

يا منصف الموتى من الأحياء

وأنت ترى فى رثاء سعد خشوعاً وخضوعاً فى نغم الشعر ، مع ارتفاع للنغم الشعرى إلى السماء باستخدام الألفات والهاءات فى نهاية المقاطع .

وفى رثاء حافظ استسلام وانكسار ، حتى إنه استخدم الهمزة المكسورة فى نهاية المقاطع بسبب هذا الانكسار الذى كان يحس به أمير الشعراء ، ويترقبه فى نفسه عند النهاية .

وأنت تسمع :

ولد الهدى فالكائنات ضياء

فتحس بأن نغمة الشعر تتآلف هى والنور عن طريق التركيب اللفظى بكل حروفه المتناسقة التى تصل بك إلى الشطر الآخر من البيت :

وفم الزمان تبسم وثناء

إن الدراسة الصوتية لشعر شوقى من الأمور الهامة . وقد التفت الدكتور إبراهيم ناجى إلى خصائص هذا الشعر العبقرى . ووصفه بالموسيقية .

وعندما عقد مؤتمر الموسيقى الشرقية فى القاهرة عام ١٩٣٢ ، كتب شوقى قصيدة حيا فيها المؤتمر ، وألقيت بدار الأوبرا يوم ٣ من أبريل ١٩٣٢ ، قال فيها هذه الرائعة المنغمة :

نزل المنازل والربا آذارُ ... يحدو ربيع ركابه النوّارُ
يختال فى وشى الرياض وطيبها ... وتزفه الربوات والأنهارُ
سمح البنان بكل ما زان الثرى ... فالوشى يوهب والحلىّ يعار
ملأ الخمائل من تصاوير كما ... ملأ الرفارف بالدمى الحفّار
فى كل دوح دمية ومنصة ... وبكل روض صورة وإطار
حدجته بالبصر الخمائل مثلما ... حدجت بعينيها العروس الدار
لبست له الآمال بهجة شمسها ... وتزينت للقائه الأسحار

حبته بالنغم الهواتف فى الضحى | وترنمت بثنائه الأوتار
والماء يطفر جدولاً ويفيض من | عين ويخبط فى القنى ويحار
جر الازار .فكل روض حامل | مسكاً وكل خميلة معطار
فى كل ظل مزهر مترنم | ووراء كل نضارة مزمار
وعلى ذؤابة كل غصن قينة | الصبح خلف بنانها والطار
والنيل فى الوادى نجاشى مشى | فى ركبه الرؤساء والأحبار
سحبوا الطقوس ورتلوا إنجيلهم | فتعالت الصلوات والأذكار

هذه صورة موسيقية ، أو (لوحة) منغمة . تحكمها قافية عجيبة مثل القفلة عند المغنين المبدعين .

وشوقى يقول فى هذه القصيدة بيتاً من بدائعه المشهورة :

لاتعشق الآذان إلا الأنغمة | كانت عليها فى المهود تدار

وهذا المعنى هو خلاصة الخلاصة فى فنون الموسيقى عند الشعوب ، فكل شعب له موسيقاه التى ينشأ عليها منذ كان فى المهد صبياً .

لقد كان (شوقى) شديد الاهتمام بالموسيقى والموسيقيين . وعندما افتتح معهد الموسيقى الشرقى عام ١٩٢٩ ، وكان الملك فؤاد هو الذى افتتحه ، ألف شوقى نشيداً خاصاً للمعهد ، ولحن النشيد (مصطفى بك رضا) رئيس المعهد . ومن مقاطع هذا النشيد فى تحية الملك يقول (شوقى) :

القانون سلم | عليك ياحامى القانون
والعود اتكلم | حيا معز الفنون
والناى اتقدم | وقال : الله يصون

وألقى الأستاذ (على الجارم) قصيدة شوقى فى هذا الحفل . وأبدع مافيها قوله عن فن الموسيقى :

لولا ابتسام الفن فيما حوله

ظل الوجود جهامة وجفاء

جرد من الفن الحياة وماحوت

تجد الحياة من الجمال خلاء

ألف شوقى أدواراً غنائية لكبار المطربين قبل عبد الوهاب ، فقد نظم لعبده الحامولى دور :

ياما انت واحشنى وروحى فيك

كما كتب له (موال) :

كل اللى حب اتنصف وأنا وحدى اللى شكيت

وقد غناها عبد الوهاب بُعد ذلك .

وألف شوقى موالاً غناه الشيخ يوسف المنيلاوى وهو :

ساهى الجفون ماكفاك الهجر ياساهى

فرحان بتلعب وعن حال الشجى ساهى

الليل يطول ياقمر وأنا سهران عليك ياساهى

حسك تقول مدّعى ياجنن العشاق

القلب أهو جريح والكبد للسّاهى

وقد ألف شوقى للمطربة ملك مقطوعات شعرية بعضها بالفصحى وبعضها بالعامية . ومنها أغنية الليل التى يقول فيها :

الناس لليل تشكى وتجى له تحكى

والليل لمين يشكى ويروح لمين يحكى

بدرك ياليل طلعته وبدرى خبيته

غاير ياليل قل لى تكونش حبيته

وكانت صلة شوقى بأهل الفن أصيلة وعميقة ، فهو يقدرهم حق قدرهم . وقد كتب روائع فى رثاء الراحلين منهم .

قال عن عبده الحامولى :

ساجع الشرق طار عن أوكاره
وتولى فنٌ على آثاره

كان مزماره فأصبح داو
دكئيباً يبكى على مزماره

يسمع الليل منه فى الفجر: ياليـ
ـل فيصغى مستمهلاً فى فراره

كما قال عن عبد الحى حلمى المطرب الشهير ، خال صالح عبد الحى :

كان الندامى إن شدوت وعاقروا
سيان صوتك بينهم والراح

فيما تقول مغنيا ومحدثًا
تتنافس الأسماع والأرواح

وعندما وصل (شوقى) إلى سيد درويش ، كان معه محمد عبد الوهاب . ولذلك خاطب سيد درويش قائلاً :

سيد الفن استرح من عالم
آخر العهد بنعماه البلاء

ربما ضقت فلم تنعم به
وسرى الوحى فنسّاك الشفاء

لقد استخلفت فنًّا نابغاً
دفع الفن إليه باللواء

ناحل كالكرة الصغرى سرى

صوته فى كرة الأرض الفضاء

يستحى أن يهتف الفن به

وجمال العبقريات الحياء

وهو فى هذه القصيدة التى كتبها عام ١٩٣١ فى ذكرى سيد درويش ، يتحدث عن محمد عبد الوهاب ، ويتنبأ له بالعبقرية .

كانت أنغام الموسيقى من أعظم الشخصيات فى حياة أمير الشعراء . وعندما تذكر (عبده الحامولى) فى ساعة صفاء كتب يقول :

ياطير مالك لاتهيج لك الجوى

نسمات أسحار خطرن رقاق

مات الحمولى والغرام فلا الصبا

فى العالمين صبا ولا العشاق

وهو يقصد نغمة (الصبا) وهى من نغمات الموسيقى الشرقية .

رأى عازف عود يحسن العزف ، فقال :

وصاحب عود به عازف يحرّكه عن هزار غرد

أنامله تلتقى فى الفؤاد وريشته تنبرى للكبد

أما النّاى فقد كان من عشاقه :

ياناى كيف عرفت أرباب الهوى

وحكايتهم فيه حكاية صادق ؟

فكأن صوتك أنة بعث الجوى

وكأن غابك من ضلوع العاشق

وكان شوقى يستمتع بسماع الموسيقى من العازفين ، وقد اشتهر (أمين بزرى)

الذى كان من اغنياء البلد ثم نكبه الدهر - بالعبقرية فى العزف على الناى . حتى احترف العزف فى الأفراح والحفلات . وأعجب أمير الشعراء بعازف الناى ، فقال له :

سألوا أميناً كيف يبكى الناى فى
يده ويستبكى الملا بشجونه
فأجاب خِلّى لاعدمت وداده
أبكى على عينى بكل عيونه

أما الكمان فقد كان عازفه الأشهر فى ذلك الزمان هو سامى الشوا الذى لقب بلقب أمير الكمان . وقد وصفه أمير الشعراء فى قصيدة من بدائعه قال فيها :

ياواحد الفن فى أزجى معازفه
هذا أوان الثناء العدل قد آنا
يارب ليل سمرنا الراح فاختلفت
على بنانك للسُمّار ألحانا
تلك اللعبية من عود ومن وتر
لولا بنانك لم نجعل لها شانا
قد آنست رحمة فى الصدر فاتكأت
بجانب الأذن تستوحيك شيطانا
كأنها عش طير هاج آهله
من كل ناحية ينساب أشجانا
ضممتها وتواصت راحتاك بها
ضم الوليدة إشفاقاً وإحسانا

تملى عليها الذى يوحى إليك به
كأن داود والمزمار مابانا
حركتها فأتاها الروح فاندفعت
تبكى وتضحك أوتاراً وعيدانا
مصرية النبر وهابية عذبت
شدوًا ونوحاً وترجيعاً وتحنانا

هذه الوصف البديع للكمان وعازفها ، ومايتحرك فى مشاعره ، ومايحرك به أوتاره ، حتى تنبعث الروح فى النغم – يصل بأمير الشعراء إلى محمد عبد الوهاب ، فهذه الكمان مصرية النبر ، ولكنها وهابية عذبة الشدو.

لقد تجمعت كل أنغام الموسيقى والألحان عند (شوقى) فى شخص واحد هو محمد عبد الوهاب. وهذه الشخصيات العديدة التى عرفها واستمع إلى عزفها أو غنائها تنتهى به دائماً إلى عبد الوهاب ، وكان (شوقى) على حق فى تصوره. لأنه اكتشف العبقرية التى قلما يجود بها الزمان!

١٤ – عرابى . . وسعد زغلول

جنت على (شوقى) نشأته الأرستقراطية ، ومولده بباب إسماعيل خديو مصر ، وعمله فى القصر ، واعتباره شاعر الأمير ، ومازال الكتاب والدارسون ينظرون إليه هذه النظرة . وكنت واحداً منهم ، فكتبت مقالاً فى جريدة البلاغ عنوانه (شوقى شاعر الملوك) وغضب الدكتور محمد صبرى السوربونى بعد أن قرأ المقال ، وجاءنى مهدداً ومتوعداً ، وقال لى :

– حرام عليك !

ولم أكن أعلم أن الدكتور (صبرى) يعد كتابه (الشوقيات المجهولة) ، وأنه فرّغ نفسه لهذا العمل العظيم ، ثم استهواه (شوقى) ، فجرى وراء أسراره ، وبحث عن تفاصيل حياته ، وتحدث مع معاصريه فعرف منهم مالم يكن يعرف .

كان ذلك فى عام ١٩٥٠ .

وفى تلك الأيام تلقيت رسالة من صديقى الراحل الأستاذ راشد رستم فيها قصاصة مقالى ، وعليها اسم راشد رستم بخطه ، وبغير تعليق .

وراشد رستم هو حفيد (عثمان باشا رفقى) وزير حربية توفيق الخديو ، وغريم أحمد عرابى .

عرفت فى تلك الأيام أننى يجب أن أعرف تاريخ مصر على حقيقته بنفسى ، لا عن طريق كتب المؤرخين أو الباحثين المعاصرين . وتعلمت قراءة الوثائق ، حتى أصبحت من هواياتى ، إلى جانب مايكتبه الثقات من أصحاب التاريخ الذين لايميل بهم الهوى .

وعندما كتب (سلامة موسى) مقالاً فى جريدة الأخبار عن أمجاد (محمد على) وأسرته ، ليستجدى به رتبة البكوية من فاروق ، اشتد حنقى عليه ، وكتبت مقالاً لم أشر فيه إليه ، ولا إلى مقاله ، وكان عنوانه : تاريخ الشعب لاتاريخ الملوك ، ونشرته فى جريدة البلاغ . وفهم (مصطفى أمين) بذكائه الصحفى البارع ماأقصد إليه ، ولكننى كنت أهرب من تهمة العيب فى الذات الملكية ، فجعلت الموضوع مما يشبه الدراسة العلمية وطالبت بدراسة تاريخ الشعب المصرى لاتاريخ ملوكه وحكامه .

كنت أعشق شعر شوقى ، ولكننى لاأعرف الشاعر الذى ثارت من حوله الزوابع . وعندما قلت – إنه شاعر الملوك – كنت أتخذه وسيلة للتنفيس الثورى ضد حكم الملك فى مصر ، وقد ظلمت (شوقى) .

ولكن ظلمى كان أخف وطأة من ظلم (طه حسين والعقاد والمازنى) وغيرهم لأمير الشعراء .

قلت لك : إن أرستقراطية شوقى جنت عليه ، وساعد على ذلك أن معاصره الشاعر العظيم (حافظ إبراهيم) كان شعبياً ، بل كان ابنَ بلد أصيلاً . والمقارنة

العابرة بينهما تجعلك تعتقد أن (شوقى) هو شاعر الملوك ، وحافظ شاعر الشعب وقد أطلقوا على (حافظ) عندما تصدى لحادثة دنشواى لقب (شاعر الوطنية ومشهر دنشواى فى البرية) ، كما أن إطلاق لقب أمير الشعراء على (شوقى) ، ولقب شاعر النيل على حافظ جعل المقارنة واضحة بين الشاعرين فى أذهان الناس .

ولكننا اليوم ، وبعد هذه السنوات القليلة التى مضت بعد عصر (شوقى وحافظ) ، نستطيع أن نقول : إن (شوقى) كان شاعر الشعب ، وهو أمير للشعراء .

إن النشأة الأرستقراطية لاتمنع من أن يكون الفنان فناناً للشعب . وقد أصبح (يوسف وهبى) فنان الشعب بسبب ما أداه من أعمال جليلة على خشبة المسرح لجماهير الشعب المصرى . وقد لايكون الفنان المتواضع الناشئ فى بيئة غير أرستقراطية فناناً للشعب ، بل فناناً للأرستقراطية ذاتها ، حين يقدم للطبقة الأرستقراطية مايسليها ، فيصبح مضحك الملك ، أونديم الباشوات .

كان الشيخ على الليثى فى الجيل الماضى نديم الخديو إسماعيل وشاعر القصر ، وقد وصفه العقاد قائلاً :

« لانحسب أن فى شعراء الجيل الماضى شاعراً يمثل مدرسة الندمان كما كان يمثلها الشيخ على الليثى الذى ارتقى فى هذه الصناعة حتى نادم إسماعيل وتوفيقاً ، وبقى من نوادره ودعاباته مايذكره المتأدبون والمعنيون بأخبار القصور حتى فى أقصى الصعيد » .

وقد عرف الشيخ على الليثى (والد شوقى) فى قصر عابدين ، ثم عرف شوقى وعرفه شوقى ، وقال الشيخ : إن شوقى سيخرق خرقاً فى الإسلام .

أدرك (شوقى) منذ بدايات حياته وظيفة شاعر القصر ، وعرفها فى الشيخ على

الليثى ، ولم يكن فى حاجة إلى من يعرفه بها ، ولكن الشاعر الشاب طلب من الخدوى إعفاءه من ارتداء الملابس الرسمية التى كانت من ضرورات الظهور فى القصر وحفلاته الرسمية ، وأذن له الخديو عباس حلمى بذلك . وهذه الثياب الرسمية مما يغرى شاباً مثل شوقى بالتظاهر أمام أقرانه بالأناقة ، ولكنه ابتعد عنها لسبب نفسى ، هو أنه كان يشعر بحياته الخاصة مع الناس ، مع ارتباطه العائلى الموروث بقصر عابدين .

وشوقى شاعر الأمير كانت له وظيفة رسمية فى القصر هى (رئيس القلم الإفرنجى) ، ولم يقبل أن يكون نديماً وشاعراً بلاعمل ، وتكتب على باب غرفته الجملة الشهيرة التى كتبت على باب الشيخ على الليثى :

« إنما نطعمكم لوجه الله ! »

وليس معنى ذلك أن (شوقى) لم يكن يحترم الشيخ (على الليثى) ، فقد ذكر بنفسه أنه كان يرى فيه إنساناً عظيماً فاهماً للشعر مقدراً للشعراء ، ولكن تجربة الشيخ فى قصر عابدين علمت (شوقى) درساً عظيماً ، وساعدته نشأته وثقافته على استيعاب الدرس ، فانفصل بوجدانه وهو الأرستقراطى المرفه عن كل مظاهر القصر ، وكان يرتدى الملابس الخشنة ، ولايهتم باختيار الثمين من الثياب ، وهو قادر على ذلك .

قال (زكى مبارك) : إنه عندما رآه أول مرة فى بيت عبد اللطيف بك الصوفانى بالحلمية الجديدة لم يصدق أنه أمير الشعراء ، وتمازحا معاً ، وقال له : إنه يملك ثلاثة جنيهات يتبرع بها لأمير الشعراء حتى يشترى لنفسه بدلة جديدة .

والشعراء لهم أحوال مثل أحوال الصوفية .

شوقى الذى كان يستحم بماء الكولونيا ، ويعيش فى قصره حياة الأمراء . رفض ارتداء الردنجوت والفراك والملابس المقصبة بالذهب فى قصر عابدين !

شخصية فريدة نادرة هذه الشخصية .

رؤساء الوزارات والوزراء ومشايخ الأزهر كانت لهم ملابس التشريفات المقصبة بالذهب ، وأمير الشعراء شاعر القصر يرفض هذه الثياب !

وعندما منح (شوقى) لقب الإمارة من السلطان عبد الحميد الثانى لم يستخدم هذا اللقب ، بل كان لقبه الرسمى هو أحمد شوقى بك ، وكان لقبه بين خاصته هو لقب الباشا ، الذى لم يحصل عليه من خديوى مصر ، لأنه نال لقب الأمير وهو أعلى وأعظم ، وقد أنعم عليه بهذا اللقب السلطان عبد الحميد .

الشاعر الذى فر من ملابس التشريفات ، والثياب الرسمية - هو نفسه الذى فر من لقب الإمارة ، واكتفى بإمارة الشعر .

ولم يكن هناك مايمنع (شوقى) من التلقب بلقب الأمير ، فقد كانت مصر مملوءة بالدوقات والبارونات والأمراء . وكان الملك حسين بن على ملك الحجاز قد أنعم بلقب الإمارة على (حبيب لطف الله) ، ليتوارثه عنه أبناؤه وأبناء أبنائه إلى ماشاء الله ، وأصبح فى مصر أمراء يحملون اسم لطف الله . . وكان فيها البارون منشة . . والكونت . . إلى آخر هذه الألقاب .

لماذا أخفى شوقى لقب الأمير الذى استحقه وحصل عليه فى مجتمع كان شديد الاحتفال بالألقاب ؟

إننى أعتقد أن (شوقى) كان يهمه لقب واحد هو : أمير الشعراء . وهو اللقب الذى يميزه بين كل الأمراء ولم يكن يهمه أن يقال : الأمير أحمد شوقى .

يرى (عباس محمود العقاد) أن (شوقى) كان يحس بالوطنية المصرية ، كما يحسها التركى المتمصر من طبقة الحاكمين ، أو المقربين من الحكومة . وأن مصر التى كان (شوقى) ينظم فى تاريخها هى مصر الأسر المالكة ، والعروش الحاكمة ، وليست بمصر الشعب والسلالات الوطنية ، أو هى مصر التى يعنى بها رجل البلاط

يقرن الحاضر إلى الماضى بهذه السلسلة . (البلاطية) فى العصور كافة ، وليست مصر التى هى وطن لكل مصرى كبير أوصغير وحاكم أومحكوم .

كان العقاد من خصوم (شوقى) ، ولذلك فإن رأيه فيه يحمل معنى الخصومة . ولايصح فى أى مذهب أن يكون الخصم حكماً ، ولذلك لم أحدثك عن (طه حسين) كشخصية فى حياة (شوقى) ، ولم أحدثك عن (مصطفى صادق الرافعى) أو العقاد أو المازنى . وكلهم من كبار الكتاب الذين عاصروا أمير الشعراء وخاصموه . وقلت لك : إننى لم أتحدث عن (محمود سامى البارودى) الذى يقول معظم النقاد : إنه هو الذى مهد الطريق (لشوقى) ، لأننى أحسست بأن (شوقى) لم يأخذ عن البارودى شيئاً ، وكلاهما أخذ من نبع واحد ، ولكن أمير الشعراء أخذ عن (إسماعيل صبرى) فى مرحلة تمازج روحى وفنى مشترك .

ويكفى أن يقول العقاد :

«لم يخلع « شوقى » كسوة التشريفة قط فى قصيدة من قصائده ، ولابيت من أبياته ، فليست الصفات ولاالأخلاق ولاالآراء التى يثنى عليها هى التى تمثله فى حقيقة نفسه ودخيلة ضميره ، ولكنها هى الصفات والأخلاق والآراء التى يلبسها المرء يوم التشريفة ، ويتقلدها وهو قائم على منصب الوظيفة » .

يكفى أن يقول العقاد هذا الكلام لأبتعد عن محاسبته ، فهو يحاسب أمير الشعراء على حقيقة نفسه ، ودخيلة ضميره ، وسبحان من يعلم حقائق النفوس ودخائل الضمائر ، ولكن العقاد عاد بعد سنوات فبدل رأيه فى (شوقى) ، كما فعل صاحبه إبراهيم عبد القادر المازنى عندما هاجم (حافظ إبراهيم) ثم عاد فقال : إنه كان من نزق الشباب !

لم يضع (شوقى) على كتفيه خلعة التشريفة قط ، لاحساً ولامعنى ، وقد ذكرت لك أنه استأذن الخديو عباس حلمى فى إعفائه من ارتداء ملابس التشريفة

والملابس الرسمية فأذن له .

والناحية التى تحدث عنها العقاد وهى وطنية (شوقى) ، سبق أن أثارها الزعيم (محمد فريد) على صفحات جريدة اللواء ، فكتب مقالاً غمز فيه وطنية شاعر الأمير ، ورد عليه (شوقى) برسالة نشرت فى جريدة المنبر فى ١٢ من أكتوبر سنة ١٩٠٨ وقال :

«إن وطنيتى لن تحل بها التهم ، ولن ترقى إليها الشكوك والريب ، وهى التى أرجو أن أموت عليها وعلى الشهادة معها يوم كلتاهما حق» .

ثم خاطب (محمد فريد) قائلاً :

«وطنيتى هتف بها البدو ، وتغنى بها الحضر ، وجاوزت ذلك إلى الأعجام من ترك وفرس ، فهى معلقة على جدران قصورهم ودورهم يقرؤها هنالك القارئون» !

وكان (محمد فريد) يهاجم (شوقى) فى شخص الخديو (عباس حلمى) الذى تنكر (لمصطفى كامل) وللحزب الوطنى . ثم سلط على (محمد فريد) الزعيم الوطنى زبانية الشيطان ، فسجنوه ، ثم اضطروه إلى الهجرة من مصر والإقامة فى برلين شريداً ضائعاً .

وعندما توفى (محمد فريد) غريبا مضطهداً عام ١٩٢٠ فى برلين ، ولم تسمح السلطة حتى بعودة نعشه إلى مصر إلا بعد سنوات – كتب شوقى قصيدة يرثيه فيها ، قال فى مطلعها

كل حىّ على المنية غادى   تتوالى الركاب والموت حادى

ويقول شاعر الأمير وأمير الشعراء فى هذه القصيدة ، غير عابئ بالسلطة ، أو وظيفة التشريف :

مصر تبكى عليك فى كل خدر   وتصوغ الرثاء فى كل نادى

لو تأملتها لراعك منها   غرة البر فى سواد الحداد

رجلٌ مات فى سبيل البلاد	تُعزّى البلاد مابه مُنتّهى

وهذا الشعر السياسى الصريح الذى قاله (شوقى) فى رجل سبق أن نال من وطنيته يحمل دلالات الأصالة المصرية عند أمير الشعراء.

وقف (شوقى مع مصطفى كامل) ، وكان قد عرفه فى باريس خلال شهر سبتمبر سنة ١٨٩٣ ، وسبب ذلك أن الطلبة المصريين فى فرنسا أسسوا جمعية فى مدينة مونبلييه أطلقوا عليها اسم جمعية التقدم المصرى ، وأنشئ لها فرع فى باريس تحت رئاسة (أحمد أفندى شوقى) المصرى (أحد موظفى السكرتارية - إدارة التحريرات - الخديوية) ونزيل باريس . وخلال تلك الأيام أقامت الجمعية حفل تعارف بين أعضائها ، حضره (مصطفى أفندى كامل) محرر جريدة (المدرسة) الغراء الذى قال مخاطباً أعضاء الجمعية :

ليت الكواكب تدنولى فأنظمها	عقود مدح فماأرضى لكم كلمى

وأنت ترى أن الوطنية هى التى جمعت بين (مصطفى كامل وأحمد شوقى) وهما فى مطالع الشباب ، وظلت الصداقة قائمة بينهما حتى آخر لحظة فى حياة الزعيم الشاب . ويصف (شوقى) ليلة وداعه لصديقه (مصطفى كامل) فى رسالته التى وجهها إلى (محمد فريد) حين اتهمه فى وطنيته ، فقال :

« عدت فقيد الوطن (مصطفى) ذات ليلة وهو محتضر ، لاياًتى ولايذر ، وكان بحجرة نومه شقيقه ووارث عواطفه ومبادئه الأخ (على بك) وثلاثة من كرام الأصدقاء ، وكنت قد قمت للفقيد الكريم بخدمة أراها أنا لا تذكر ، واعتبرها هو أنها لاتصدر إلا عن أوفياء الرجال وشجعانهم ، فسر خاطره وانشرح صدره ، وامتد بنا السهر إلى مابعد منتصف الليل ، حتى إذا استأذنا من المريض الكريم قال لى بمسمع من الإخوان الأربعة : هكذا فليكن الرجل ، وهكذا فلتكن الوطنية »

وكان الزعيم (مصطفى كامل) صاحب جريدة اللواء يقول :

« (شوقى) همزة اللواء طالما تباهى به وافتخر ، واعتز به وانتصر ، وصال بوطنيته ما ظهر منها وما استتر ، وهو أصدق من نظم فيه ونثر ، فى وقت عز فيه الصادقون » .

ثم وقعت الواقعة التى يختلف عليها الكتاب والباحثون ، وهى قصائد (شوقى) عن (عرابى) بعد عودته من المنفى فى ٣٠ من سبتمبر سنة ١٩٠١ ، ولايجوز أن نتحدث عن أمير الشعراء وموقفه من (عرابى) بعيداً عن السياسة وظروفها وأحوالها عند عودة (عرابى) وزعماء الثورة من المنفى ، لأن بعض الناس يغضبون غضباً شديداً عندما يسمعون قول (شوقى) فى (عرابى) :

صغار فى الذهاب وفى الإياب
أهذا كل شأنك يا عرابى ؟

وقبل مهاجمة (شوقى لعرابى . هاجمه (مصطفى كامل) بل إن اللواء (محمد فهمى المهندس باشا) رئيس أركان حرب الجيش المصرى ، وأحد زعماء الثورة العرابية هاجم (عرابى) هجوماً شنيعاً ، واتهمه بالجهل مما تسبب فى هزيمة معركة التل الكبير التى لم تدر رحاها . وكان (محمود فهمى المهندس) وهو الذى أقام استحكامات كفر الدوار ، فلم يستطع الغزاة المعتدون الخروج من الإسكندرية بعد احتلالها فى ١١ من يوليو ١٨٨٢ ، لعبور الدلتا إلى القاهرة . كما أنه قطع المياه العذبة عن الإسكندرية عزلها عزلاً عسكريًّا تاماً . ثم أراد سد قناة السويس عند بورسعيد ، حتى لايدخل منها الأسطول البريطانى ولكن (عرابى) تلكأ وصدق وعود ديلسبس بأن الأسطول لايستطيع دخول القناة لأنها دولية .

وعندما تجسم الخطر أصدر (عرابى) أوامره للواء (محمود فهمى المهندس باشا) بسد قناة السويس عند بورسعيد ، وأعد لهذه العملية أربعين ألف فلاح معهم الفئوس والمقاطف . وعندما بدأ اللواء (محمود فهمى المهندس) فى تنفيذ

خطته ، وخرج من التل الكبير ومعه ياوره الخاص متجهاً إلى الإسماعيلية ، فوصل إلى بلدة (المسخوطة) على الطريق التقى بها وأول كتيبة بريطانية نزلت على الشاطئ الغربي لقناة السويس . وكان الأسطول البريطانى قد وصلت بعض قطعه إلى الإسماعيلية ، ووقع اللواء (محمود فهمى المهندس) فى أسر الأعداء ، وكان أول أسير . ثم بلغت الغفلة (بعرابى) أنه لم يبحث عن رئيس أركان حربه ، حتى وقعت كارثة التل الكبير .

وهذا لايقلل من قيمة (عرابى) كزعيم أيقظ الشعور الوطنى فى مصر ، لأن الانتصارات والهزائم لها ظروفها وملابساتها . وقد ظل الشعب المصرى مؤمناً بحركة عرابى وهو فى منفاه ، حتى ظهر (مصطفى كامل) ليقود النضال الوطنى ضد الاحتلال .

وكان يمكن أن يستقبل الشعب المصرى الزعيم (أحمد عرابى) العائد من المنفى استقبال الأبطال برغم وجود الاحتلال ، ولكن الذى حدث خلال تلك الفترة كان محيراً للألباب .

فى سبتمبر سنة ١٩٠١ كان ولى عهد إنجلترا فى جزيرة سيلان ، فالتمس منه (عرابى) العفو فعفا عنه . وقد غادر (عرابى) سيلان إلى مصر فى ١٧ من سبتمبر ، ولكنه قبل قيامه أدلى إلى صحيفة (التيمس أوف سيلان) بتصريحات أثنى فيها على الاحتلال الإنجليزى .

وكان لهذه التصريحات وقع سيئ فى جميع الأوساط خصوصاً أن حركة مصطفى كامل ضد الاحتلال كانت على ساق وقدم .

ثم وصل عرابى إلى السويس فى ٢٩ من سبتمبر ١٩٠١ ، فأدلى إلى مراسل (التيمس) اللندنية بتصريح نشر فى ١١ من أكتوبر وقال المراسل :

« صرح لى (عرابى باشا) مع السرور بإعجابه بحكم الإنجليز فى مصر ، كما

أعجب به فى جزيرة سيلان ، ويظهر أن ماحصل له فى مدة الثمانى عشرة سنة التى أقامها فى المنفى بتلك الجزيرة جعله صديقاً حميمًا لبريطانيا . »

أما ما حدث فى القاهرة فكان مصيبة أكبر : فبعد وصول (عرابى) فى مساء ٣٠ سبتمبر ١٩٠١ ، لم يكتف بتصريحاته السابقة التى أثارت سخط الرأى العام فى مصر ، بل إنه أدلى بحديث إلى جريدة المقطم وهى لسان حال الاحتلال البريطانى نشرته فى ٢ من أكتوبر ، وجاء فيه كما يقول المحرر الذى تحدث مع (عرابى) :

« ولما فرغ من شرح سفرته قلنا له :

– هل وجدتم مارأيتموه فى مصر فى هذين اليومين مختلفاً عما كان عليه حين مفارقتكم لها ؟

فقال :

– إن عائلتنا كبيرة . . وقد قابلت أكابرهم الذين جاءوا السويس للتسليم علىّ ، فسألتهم عن الأحوال بالتفصيل والإجمال ، فوجدتهم متفقين فى الجواب .

سألتهم : أصحيح أن السخرة ألغيت ؟ فقالوا : نعم صحيح ، قلت : والكرباج ؟ قالوا : بطل من زمان طويل ، قلت : وكيف تحصل الأموال من الأهالى ؟ قالوا : بالحق والعدل ، وكل إنسان يعرف ماله وماعليه ، فسألتهم : وكيف الاستبداد فى الأحكام الآن ؟ أجابوا : لم يتبق للاستبداد أثر فى البلاد ؛ فكل شىء مقيد بقانون ونظام ؛ فشكرت الله حينئذ ، لأنه حقق مناى وأرانى قبل مماتى ماطالماكنت أتمناه لبلادى ، وقلت هذا هو الإصلاح ، ولكن لحكمة له جل جلاله قضى ألايتم على يدى بل على يد الذين نازلناهم فى ساحة القتال ، وكانوا لنا أعداء ، فصاروا لمصر اليوم خير الأصدقاء . »

وبعد أن نشرت هذه التصريحات على لسان زعيم الثورة العرابية فى جريدة المقطم وهى لسان حال الاحتلال البريطانى قامت قيامة الدنيا فى مصر ، ويقول

المعاصرون : إن عرابى أصبح سجين بيته ، لايستطيع مواجهة الناس . ونفر منه أعز أصدقائه الذين استمروا على صداقته فى المنفى ، وكان المنشاوى باشا كبير كبراء طنطا من أقرب الناس لعرابى ، حتى إنه طلب منه وهو فى منفاه أن يرسل إليه بعض أشجار المانجو لمزارعه ، فبعث إليه (عرابى) بألف شجرة كانت بواكير زراعة هذه الفاكهة فى مصر .

ولكن المنشاوى باشا رفض مقابلة (عرابى) بعد عودته من المنفى خوفاً من سخط الناس عليه .

ليس هناك شك فى أن هذه الأحاديث والتصريحات الصحفية كانت مؤامرة استعمارية ، استغل فيها (أحمد عرابى) ، فلايعقل أن يصبح زعيم ثورة واحداً من أعوان الاستعمار ، بل إنه لم يكن هناك ثمن لذلك ، فقد ظلت ممتلكات (عرابى) مصادرة حتى أفرج عنها بعد قيام (ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢) ، وعاش الرجل سنواته الأخيرة عيشة الفقر والكفاف .

وماذا كان يستطيع أن يفعل لو نشرت مثل هذه التصريحات على لسانه ؟

لم يكن فى استطاعته تكذيبها ، وإذا كذبها فمن الذى ينشر له التكذيب ؟

لقد حوصر الرجل حصاراً قذراً وهو فى شيخوخته ومرضه وفقره . وهناك عرف دنىء عند من يصنعون مثل هذه الأحاديث الملفقة التى ينسبونها إلى الزعماء ، وهذا العرف هو أن يدفعوا ثمنها إذا كانت بخط صاحبها ، أو كان مستعداً للاعتراف بها على الملأ .

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث مع الزعيم أحمد (عرابى) ، بل حدث شىء آخر خطير ، ففى يوم ٣ من أكتوبر ١٩٠١ وهو اليوم التالى لنشر تصريحات عرابى فى المقطم ، نشرت جريدة اللواء وهى جريدة (مصطفى كامل) افتتاحيتها تحت عنوان :

« مصر اليوم مرسح يمثل فيه آخر فصل من رواية : عاقبة خيانة عرابى وهو أسوأ فصول هذه الرواية المحزنة . »

وفى ٥ من أكتوبر نشرت اللواء مقالاً آخر تحت عنوان :

(نظرات إلى (عرابى))

وفى هذا المقال مجدت الجريدة (محمود سامى البارودى) ، وقالت : إنه لم يطالب بثروته ، ولارتبه ونياشينه ، مع أنه أعظم العرابيين ثراء وعظمة .

ولكن (شوقى) هاجم (عرابى) قبل أن يصل من منفاه إلى مصر : فقد نشرت جريدة اللواء فى صدرها وافتتاحيتها يوم ٢٩ من سبتمبر ١٩٠١ ، وهو يوم وصول عرابى إلى السويس قصيدة تحت عنوان ضخم (عرابى وماجنى) وكانت القصيدة بلاتوقيع ويقول فيها شوقى :

أهلاً وسهلاً بحاميها وفاديها ومرحباً وسلاماً ياعرابيها

وبالكرامة يامن راح يفضحها ومقدم الخير يامن جاء يخزيها

وعد لما حين لاتغنى مدافعها عن الزعيم ولاتجدى طوابيها

وهذه القصيدة السياسية ليست إلا تعليقاً على تصريحات عرابى لجريدة (التايمز أوف سيلان) التى قال فيها : إن الإنجليز أصبحوا أصدقاء مصر . وإلى هذا يشير شوقى فى قصيدته قائلا :

من العجائب صاروا من أحبتها فيما زعمت وكانوا من أعاديها

كأن ماكان من حرّبٍ ومن حرّب عتب المودة لايودى بصافيها

وبعد يومين أثنين وفى الأول من أكتوبر ١٩٠١ نشرت اللواء القصيدة الفظيعة التى يقول فيها شوقى :

صغار فى الذهاب وفى الإياب أهذا كل شأنك ياعرابى

عفا عنك الأباعد والأدانى فمن يعفو عن الوطن المصاب ؟

ولكن هذه القصيدة سبق نشرها فى (المجلة المصرية) فى عدد ١٥ من يونية ١٩٠١ ، ثم أعادت جريدة اللواء نشرها ، ويبدو أن (شوقى) نظمها بمجرد صدور العفو البريطانى عن عرابى .

وهكذا اتخذ (شوقى) موقف العداء من (عرابى) قبل وصوله من منفاه إلى أرض الوطن . مما ينم عن وجود خطة محكمة سابقة لاستقبال (عرابى) عند عودته ، والتنديد به .

أما القصيدة الثالثة فإنها معلقة طويلة نشرت فى جريدة اللواء يوم ١٢ من يناير سنة ١٩٠٢ ، تحت عنوان (صوت العظام أوعرابى أمام قتلى التل الكبير) ، ويقول شوقى فى بدايتها :

عرابى كيف أوفيك الملاما　　　جمعت على ملامتك الأناما

فقف بالتل واستمع العظاما　　　فإن لها كما لهمو كلاما

ويتحدث (شوقى) على طريقته حديث التاريخ ، فيروى انتصارات جيوش محمد على وابنه إبراهيم . ويسخر من عرابى قائلا :

وبالأذكار لم نحى الليالى　　　ولا بتنا على ضيم نياما

وليس هناك شك فى أن الخديو (عباس حلمى) أعد خطة لمهاجمة (عرابى) ، مع (مصطفى كامل) ، واستخدم (شوقى) لتنفيذ خطته باعتباره شاعر الأمير ، ونجحت الخطة فى تشويه سمعة (عرابى) . وقد ساعد على نجاحها المؤامرة البريطانية المدبرة ضد الزعيم المصرى حيث نشرت على لسانه التصريحات التى ذكرتها لك ، والتى أشك فى صحتها .

كانت صداقة (شوقى لمصطفى كامل) صداقة حميمة ، وقد وقف إلى جانبه فى حادثة دنشواى ، وهى أعظم مواقف الزعيم الشاب الذى استطاع الإطاحة باللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر ، والملك غير المتوج .

ألف (شوقى) دوراً غنائياً عن دنشواى ، كان يغنى فى السهرات الخاصة ، وقد غناه أشهر مطربى عصره عبد الحى حلمى ، ويقول شوقى فى هذا الدور :

يـــاحمامــة دنشـــواى
نُوحى للسيرجراى[1]
تحت الـــظـلام
كى لا يـــنـــام
الشـــنق حـــامى
والضـــرب دايـــر
فـــين المحـــامى
مـــافـــيش كـــلام

ومن أعظم الشوقيات ، تلك الشوقية التى يتحدث فيها عن دنشواى ، فيقول :

يادنشواى على رباك سلام ذهبت بأنس ربوعك الأيام
شهداء حكمك فى البلاد تفرقوا هيهات للشمل الشتيت نظام
نيرون لوأدركت عهد كرومر لعرفت كيف تنفذ الأحكام؟
نوحى حمائم دنشواى وروعى شعباً بوادى النيل ليس ينام

كما كانت قصيدته الشهيرة فى وداع اللود كرومر جزار دنشواى :

أيامكم أم عهد إسماعيلا أم أنت فرعون يسوس النيلا
أم حاكم فى أرض مصر بأمره لاسائلاً أبداً ولامسئولا؟

من أعنف القصائد السياسية التى قيلت فى العصر الماضى .

ولشوقى قصيدة أخرى فى وداع كرومر جعل عنوانها (وداع الشبيبة المصرية

---

(١) السير جراى كان وزير خارجية بريطانيا عندما وقعت حادثة دنشواى .

لورد كرومر) قال فيها :

ياراحلاً عنا وذكرك خالدٌ أبداً ليحيى بيننا الآلاما

سر بالسلامة حاملاً زفراتنا واذكر مقامك بيننا الأعواما

واذكر حكاية دنشواى فإنها كم خلَّفَتْ بين الربوع يتامى

والحقيقة أن (شوقى) كتب قصائد ومقطوعات متعددة عن دنشواى ، ولكنها لم تنشر فى الشوقيات ، لأنه كان ينشرها فى الصحف والمجلات تحت أسماء مستعارة .

إن الجانب الخفى من حياة أمير الشعراء لم يبحث حتى الآن ، وخاصة فى شعره السياسى ، فقد كان مركزه كشاعر للأمير يحول بينه وبين نشر اسمه أحياناً . ولكن صداقته (لمصطفى كامل) كانت مستمرة لاتنقطع . ثم حدث خصام بينه وبين (محمد فريد) خليفة (مصطفى كامل) بسبب تغير سياسة القصر تجاه الحزب الوطنى .

أما علاقة (شوقى بسعد زغلول) فقد بدأت منذ دنشواى ، وكان يعادى آل زغلول جميعاً ، وخصوصا (فتحى باشا زغلول) الذى كان عضواً فى المحكمة المخصوصة التى أصدرت أحكامها على شهداء دنشواى ، ثم فصل الإنجليز (إسماعيل صبرى باشا) من وكالة وزارة الحقانية (العدل) وعينوا (أحمد فتحى زغلول) ، ومنحوه رتبة الباشوية ، وفى السنة نفسها عين (سعد زغلول) وزيراً للمعارف .

ويقول شوقى فى تهنئة وكيل وزارة الحقانية (فتحى زغلول باشا) :

إذا ما جمعتم أمركم وهممتو

بتقديم شىء للوكيل ثمين

خذوا حبل مشنوق بغير جريرة

وسروال مجلود وقيد سجين

ولاتعرضوا شعرى عليه فحسبه

من الشعر حكمٌ خطّه بيمين

ولا تَقْرءوه فى (شبرد) بل اقرءوا

على ملإ من دنشواى حزين

ولكن (شوقى) بعد ذلك أصبح صديقاً (لسعد زغلول) ومن كبار المؤيدين لثورة ١٩١٩ وقد قال فى سعد :

ياشباب اقتدوا بشيخ المعالى فالمعالى تشبّهٌ وتحدى

قد تصدى لنائبات حقوق غير سهل لمثلهن التصدى

وقد نشرت الأهرام والسياسة فى صباح ١٤ من نوفمبر سنة ١٩٢٦ قصيدة تحت عنوان :

(آية شوقى فى ذكرى الجهاد الوطنى)

وكان يوم ١٣ من نوفمبر ١٩١٨ هو اليوم الذى ذهب فيه (سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى) إلى دار المعتمد البريطانى يطالبون باستقلال مصر، وأصبح هذا اليوم يسمى (عيد الجهاد الوطنى)، ويقول شوقى فى مطلع القصيدة :

خطونا فى الجهاد خطى فساحا

وهادنا ولم نلق السلاحا

ومن أبدع ماقاله عن ثورة ١٩١٩ :

كأن (بلالَ) نودى : قم فأذن .. فرج شعاب مكة والبطاحا

كأن الناس فى دين جديد على جنباته استبقوا الصلاحا

وعندما عرض مشروع ملنر على مصر عام ١٩٢٣ قامت معارضة شديدة ضده لأنه لا يمنح الاستقلال الكامل للبلاد ، وقد كتب شوقى قصيدة ليس فيها من السياسة شيء ، بل كلها غزل . ويقول تلميحاً إلى المشروع :

ينال باللين الفتى بعض ما يعجز بالشدة عن غصبه

فإن أنستم ، فليكن أنسكم في الصبر للدهر ، وفي عتبه

كما كتب قصيدة عن تصريح (٢٨ فبراير) الذى أعلن استقلال مصر ، وإلغاء الحماية البريطانية .

ولكن صلة (شوقى بسعد زُغلول) توثقت بعد خصام ، وزار (سعد) أمير الشعراء فى بيته كرمة ابن هانئ ، وظل هذا الود قائماً حتى لقى (سعد) وجه ربه ، ورثاه شوقى بالقصيدة التى لم يكتب مثلها فى العربية :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها وانثنى الشرق عليها فبكاها

١٥ – الدكتور محجوب ثابت

أليس من الظلم أن نتحدث عن الشخصيات فى حياة شوقى ، ونغفل اسم الدكتور محجوب ثابت ؟

هو مسك الختام فى هذه الأحاديث ..

يقول الأستاذ فكرى أباظة صديق محجوب ثابت :

كان المرحوم « محجوب ثابت » من عشاق حرف « القاف » المقلقلة فكان ينادى صديقه الحميم « النقراشى باشا » باسم « نقرش » ، وكانت أحب المشروبات إليه القرفة و « القرقديه » يقصد الكركديه السودانى ، وكانت أحب الأطباق إليه طبق القلقاس وطبق القرنبيط – وجريا على هذه القاف – رشح نفسه لمجلس النواب فى دائرة « بولاق » !

كان أنس المجالس الخاصة ، وكان يحرص كل أصدقائه على مداعبته ، ومن

بين هؤلاء الأصدقاء أمير الشعراء أحمد شوقى ، وقد كان يملك عربة حنطور بجواد واحد هزيل نحيل أقله لحم ، وأكثره عظم فنظم « شوقى بك » قصيدة عصماء داعب فيها (الدكتور محجوب) وسمى جواده النحيل الهزيل باسم (مكسى) نسبه إلى الجواد المشهور الذى فاز بجوائز بلغت نصف مليون جنيه فى سباقات الخيل العالمية واسمه « مكسويني »[1] الذى أضرب عن الطعام ، ثم أصابه الهزال فقال فى حصان محجوب بعض مااخترناه من أبياتها :

أدنيا الخيل يامكسى كدنيا الناس غدارة
أحقا أن محجوباً سلا عنك بفخّارة
وباع الأبلق الحر بأوفر لاند نعّارة
عسى الله الذى ساق إلى يوسف سيارة
يهيىء لك هوّاراً كريماً وابن هوارة

وكان محجوب ثابت وأحمد شوقى ، يجتمعان فى مجلس سعد زغلول الذى كان شديد الإعجاب بشوقى كما ذكرت لك ، حتى إنه جعل حفلة تنصيبه أميراً للشعراء تحت رياسته الشرفية باعتباره زعيم الأمة ، وطرد (عباس محمود العقاد) من بيت الأمة بسبب تهجمه على شوقى ، عند الاحتفال به ، ونشر مقالاً فى جريدة البلاغ أثار ثائرة الزعيم سعد زغلول .

وعندما قام سعد زغلول برحلة فى النيل على ظهر الباخرة (محاسن) التى اتجهت نحو بعض بلاد محافظة الجيزة كان من ضيوف سعد فى هذه الرحلة التى بدأت يوم الأربعاء ٤ من مايو ١٩٢٦ أحمد شوقى بك أمير الشعراء ، وكان الدكتور محجوب ثابت من ضيوف الرحلة بالطبع ، لأنه كان لايفارق (سعد زغلول) فى

---

(١) ذكر شارح الشوقيات أن (مكسويني) بطل رياضى . وهو خطأ ، والصواب ما يقوله الأستاذ فكرى أباظة .

غدواته وروحاته ، وكان يسافر معه إلى (مسجد وصيف) عندما يذهب سعد إلى هذه القرية للاستجمام .

وخلال هذه الرحلة النيلية كان محمود فهمى النقراشى يستثير (محجوب ثابت) ضد شوقى على سبيل المداعبة ، فأذاع أن الدكتور (محجوب) يحسد (شوقى) أمير الشعراء على حفلات التكريم التى تقام له . ثم دارت مناقشات اشترك فيها سعد زغلول حول المقارنة بين شوقى وحافظ إبراهيم .

كانت المقارنة بين شوقى وحافظ تشغل الرأى العام فى مصر ، وفى كل أقطار العرب ، ومازالت تشغلنا وستظل تشغل من يجىء بعدنا . وكان زكى مبارك على حق حين قال :

« كانت حياة حافظ وشوقى طاغية عاتية كتبت الخمول على مئات الشعراء » . وقد ذهبت جهود شعراء العصر الحاضر أدراج الرياح ولم يعلم بوجودهم إلا الخواص لأن (حافظ وشوقى) كانا استبدا بالمكان ولم يتركا مجالاً لشباب أوكهول » .

حتى طه حسين عندما أراد أن يتحدث عن الأدب المصرى الحديث لم يجد حديثاً غير (حافظ وشوقى) .

فى شعر شوقى باب فريد وحيد هو باب المحجوبيات ، وهى المداعبات التى كان يكتبها أمير الشعراء لصديقه فى بعض المناسبات .

كان محجوب ثابت رئيساً لنقابة العمال فى بولاق ، ورشح نفسه للانتخابات فى هذه الدائرة ، ولكنه سقط . فكتب شوقى تعزية للدكتور على سقوطه فى الانتخابات قال فيها :

أعزيك أبا مكسى وإن لم تبتئس نفسى
لقد صرت لنا اليوم كما كنت لنا أمس

فلا عقلك في الحكم ولاروحك في الكرسي
ولا تمش على بولاق من عُرس إلى عُرس
وقد دقت لك العود ومدّت بُسط الفرس
إذا مابلغ المجلس أمثالك من النُطس
فمن نطلب للطب ومن نندب للدرس؟
ومن يسمر في النادى ويحيى مجلس الأنس؟
ومن للنفخة الكبرى من الرجل إلى الرأس؟

وبعد سقوط محجوب ثابت فى الانتخابات فى يونيو ١٩٢٤ ، وهو مرشح الوفد الذى شاع عنه فى مصر أنه لو رشح حجراً لانتخبه الناس ظل الدكتور محجوب يحلم بالوصول إلى منصب وزير الصحة . وأتخذ محمود فهمى النقراشى من هذا الحلم المحجوبى مادة مستمرة للدعابة التى اشترك فيها سعد زغلول ، وكان محجوب ثابت يشترط لدخوله الوزارة أن يسمح له بارتياد القهاوى والمحال العامة التى اعتاد الجلوس فيها ، وأهمها قهوة الشيشة وبار اللواء . وعندما لمح له سعد زغلول بأن تعيينه وزيراً للصحة سيوصله إلى رتبة الباشوية اعتذر عنها لأنه لايملك ثمانين جنيهاً ثمن بدلة التشريفة !

كان محجوب ثابت من الشخصيات النادرة فى عصره ، ولم يصل إلى شىء مما يشتهيه ، فلم يتزوج مع أن أصدقاءه خطبوا له من العرائس الوهميات عدداً لايحصى ، ولم يصل إلى منصب من المناصب مع صلاته القوية بأصحاب السلطة والجاه وعلى رأسهم زعيم الأمة سعد زغلول .

وقبل أن أحدثك عن أحلام الدكتور محجوب التى صورها شوقى فى قصيدة بديعة من قصائده لابد من الحديث عن (مكسوينى) حصان محجوب ثابت الذى أشيع فى مصر أنه انتحر بعد سقوط صاحبه فى الانتخابات .

كتب شوقى ثلاث قصائد فى مكسوينى الذى كان يجر عربة الدكتور محجوب فى أثناء ثورة ١٩١٩ ، واشتهر أمره فى الكفاح الوطنى . وقد عرف شوقى خبر انتحار مكسوينى وهو فى باريس (أغسطس ١٩٢٤) فأرسل إلى الدكتور محجوب هذه المرثية :

يامكسى دنياك عارة ... والموت كأس مدارة
والدهر يوماً ويوماً ... والحال طورا وتارة
والعيش زهرُ ربيع ... قصير عمر النضارة
إذا بلغن التراقى ... فكل ربح خسارة
يامكسى قل لى: أحق ... قدْ وسدوك الحجارة
وغيبوك طويلا ... أشمّ مثل المنارة
عن أبيض الهند سلـ ... ـوا العريش والجرارة؟
ألم تكن وطنيا ... بكل معنى العبارة؟
فكم شهدت قتالاً! ... وكم توردت غارة!
وكم لبست صليباً ... على الجبين وشارة!
وكم نقلت جريحاً ... فمات بالاستشارة!

وهى قصيدة طويلة لم تنشر فى الشوقيات .

أما القصيدة الشهيرة فى رثاء مكسى ، وهى التى ذكر بعض أبياتها الأستاذ فكرى أباظة ، فطلعها :

لكم فى الخَط سياره ... حديث الجار والجارة

لأن الدكتور محجوب اشترى سيارة ماركة « أوفر لاند » بعد انتحار حصانه مكسوينى ، وقد ظلت هذه السيارة معه إلى نهاية حياته ، وكان يركبها عندما اشتغل كبيراً لأطباء جامعة القاهرة .

وخلال ثورة ١٩١٩ كتب شوقى قصيدة فى تحية (مكسوينى) حصان الدكتور محجوب ، قال فيها :

تفديك يامكسى الجيـاد الصلادم
وتفدى الأساة النطس من أنت خادم
كأنك إن حاربت فوقك عنتر
وتحت ابن سينا أنت حين تسالم
فـإنك شـمس والجيـادُ كـواكب
وانك ديـنـار وهنّ دراهـم

وكان شوقى قد لقب الدكتور (محجوب) بلقب (ابن سينا) الشيخ الرئيس وكبير الأطباء . وهو يخاطب مكسوينى بعد انتحاره ، وركوب الدكتور للسيارة ، قائلا :

لما جفاك ابن سينا وهام بالسياره
تفر منه وتجرى كالنحلة الدواره
فلا إلى البوق تصغى ولا إلى الزماره
وقد تهتك فيها حتى أضاع وقاره

ويشير أمير الشعراء إلى أن الدكتور (محجوب) فقد وقاره بعد أن ركب السيارة وهجر عربة الحنطور .

أما حكاية انتحار مكسوينى فإن (شوقى) يشير إليها قائلاً :

أرسلت رأسك يهوى من ربوة لـقـراره

وقد ذكر الرواة أن (مكسوينى) كانت له عربخانة فى قلعة الكبش بالقرب من مسجد السيدة زينب ، وهى ربوة مرتفعة ، وذات يوم قفز الحصان من فوق هذه الربوة ، وسقط جثة هامدة فى شارع مراسينا .

ومن لطائف مداعبات شوقى لصديقه محجوب ثابت مقطوعة قالها أمير الشعراء عندما عرف أن الدكتور (محجوب) - أيام ثورة ١٩١٩ - كان يكتنز ألفى جنيه لايمسها ، ولايقترب منها لمعاونته على مصائب الزمان ، فقال له شوقى :

قل لابن سينا لاطبيب اليوم إلا الدرهم
هو قبل بقراط وقبلك للجراحة مرهم
والناس مذ كانوا عليه دائرون وحوّم
وبسحره تعلو الأسافل فى العيون وتعظم
ياهل ترى الألفان وقف لايمس محرم !

وفى عام ١٩٢٦ عندما كان الدكتور محجوب ثابت يحلم بتولى وزارة الصحة ، ويرشح نفسه لها ، ويجادل (سعد زغلول) فى ذلك الأمر كان شوقى يبتسم ساخراً .

لقد انتخب الدكتور محجوب ثابت عضواً فى مجلس النواب ، وساعده العمال على النجاح فى الانتخابات بعد سقوطه الشنيع فى بولاق ، وأصبح ترشيحه للوزارة أمراً لايحتاج إلى التعقيد . ومن أظرف المناقشات التى دارت حول هذا الموضوع ، هذه المناقشة التى جرت على ظهر الباخرة محاسن خلال رحلة سعد زغلول النيلية إلى بعض بلاد محافظة الجيزة ، وكان شوقى حاضراً فى أثناء المناقشة ، ومستمعاً لها .

وكان الدكتور يمنى نفسه دائما بمنصب وزير الصحة ، وكان المنصب خالياً ، وكثيراً ماأوحى أصدقاء الدكتور إليه أنه أجدر الوفديين بهذا المنصب ، فكانت الدعابة تدور دائماً بينه وبينهم حول هذا الموضوع الحبيب إلى قلبه :

النقراشى : ألا حظ أن الكتور (محجوب) مهموم وآسف على ضياع مركزه فى الوزارة .

الدكتور محجوب : قد قطعنا الأمل يانقراشى ، ويظهر أنكم لاتصدقوننى !

الرئيس سعد : (متجاهلاً) فى أى شىء تتكلمون ؟ أشركونى فى حديثكم

فلا علم لى بشىء !

النقراشى : المسألة يا « دولة الرئيس » أن أهل السياسة العليا كانوا يتفاوضون والدكتور محجوب أيام الأزمة الوزارية ليقبل منصب وزير الحربية .

محجوب : يقيناً يامولاى الرئيس لم يتفق لى علم شىء ؛ لأنى كنت أيام الأزمة فى لجنة التوفيق فى الإسكندرية .

«والذين أنسوا بصداقة الدكتور محجوب يذكرون أن كلمة « يقينا » كانت من لوازمه فى كلامه ، وكذلك كلمة « حقيقة » وغيرها من الكلمات ذوات القاف . »

النقراشى : نعم ، ولكنك كنت على صلة تامة بأعوانك فى مصر ، ووصلك منهم تلغراف يقول : « إن الأخبار سارة واحضر بأول قطار » !

محجوب : (رافعا يديه إلى الرئيس) والله ياباشا كانت مؤامرة طبخها النقراشى وفخرى عبد النور .

فخرى بك : لاتقل مؤامرة ، إنى حدثتك بالحقيقة ولاعلم لى بشأن النقراشى معك .

الرئيس : ماذا حدثته به يافخرى (بك) ؟

فخرى بك : فى أيام الأزمة ، قلت له : إن بعض أصحابك الذين يعرفون قدرك رشحوك لوزارة الصحة ، وعلمت أن الدكتور (شاهين) باشا (وكيل الصحة يومئذ) قال : « لاأقبل (حافظ عفيفى) وزيراً ، لأن هواى ليس مع الدستوريين ، وإن كان لابد من الدكتور حسن كامل بك فإنى أقبل العمل

معه لأنه أستاذى وأكبر منى سناً . أما الدكتور محجوب فإنى
أقبله وزيراً للصحة بكل سرور ، لأنى أحبه وأثق بكفاءته
ومقدرته الفنية . »

محجوب : (يمسح شفتيه بلسانه) يقيناً يا « باشا » قلت فى نفسى
لابأس من قبول وزارة الصحة ، أما الحربية فماذا أعمل فيها ؟

الرئيس : بالله يادكتور محجوب ، حدثنا عن ذات صدرك فى ذلك
الحين ، وماذا كانت آمالك ؟

(أحرج الدكتور محجوب وتطلع إليه الجميع منتظرون) !

محجوب : والله يامولاى ترددت كثيراً ، لأنى قلت فى نفسى : الوزارة
ستحرمنى الجلوس على قهوة الشيشة كعادتى .

النقراشى : ومن مناكفة بائعى الجرائد أيضاً !

محجوب : حقيقة يانقراش ، فإنى أنتظرهم كل ليلة لأشترى منهم
الجرائد ، ثلاثا أو أربعاً بقرش .

الرئيس : هل هذا هو المانع فقط ؟

محجوب : ويامولاى الرئيس ، تضطرنى الوزارة إلى السكنى فى بيت
أنيق أومايسمونه (فيلا) ، وأدفع أجرة عشرين جنيها
(شهريًّا) على الأقل .

الرئيس : ثم ماذا ؟

محجوب : آه ! والملابس الرسمية ، فسأدعى فى كل ليلة إلى حفلة
ساهرة ، وأختنق نفسى (بالقلع) واللبس ، وأنا رجل تعودت
العيشة السهلة .

الرئيس : (مبتسما) ليس فى هذه الأسباب مايمنع ، لأن الذى

يعرض عليك الوزارة يعرف طبعاً أنك نائب العمال ، وأنك مضطر لأن تكون دائما على صلات بهم ، ونحن فى عهد ديموقراطى ، فماذا يمنع من جلوسك وأنت وزير على (قهوة الشيشة) أو (صولت) ؟

النقراشى : مع أنه اشترط تسمية وزارته باسم وزارة الصحة والعمال .

محجوب : يقيناً لأنى منهم وأنتخبت على أكتافهم .

الرئيس : ثم التكاليف الرسمية ليست سبباً هاماً .

محجوب : يقيناً ياباشا ! لكننى ترددت كثيراً فيما بينى وبين نفسى .

الرئيس : تعنى لو أن الوزارة عرضت عليك على ألاتجلس فى قهوة الشيشة أفكنت ترفضها وتؤثر عليها الجلوس فى القهوة ؟

محجوب : نعم يخيل إلى ذلك ، لأن الوزارة ستعتقلنى طول النهار بين أربعة حوائط ثم أقضى الليل فى بيتى كذلك ، ليس فى هذه العيشة مايرفه أويسلى ! نعم عندى « شيشتى » فى البيت ، ولكنها فى القهوة لها كل معانيها .

النقراشى : ولاتنس مناكفة بائعى الجرائد .

محجوب : آه منك يانقرش !

الرئيس : ومتى تبتدئ هذه المناكفة يادكتور ؟

محجوب : (يبطئ فى الجواب ويحمر وجهه) حوالى الساعة الحادية عشرة مساء ، ولكن هذه يانقرش ليست شهوة هامة ، إذ يمكننى وأنا وزير أن أزيدهم قرشاً أوقرشين .

الرئيس : أظن أنه لايحق لك أن تمتنع عن قبول الوزارة لمثل هذه الأسباب ، وأنا أنصح لك بقبولها حين تعرض عليك .

(فضحك الجميع ، ولكن سرعان ماتكاتموا الضحك حتى لايظن الدكتور أن الأمر هزل . .)

وعلى ظهر الباخرة لاحظ سعد زغلول ذات مرة أن الدكتور (محجوب) غير حاضر ، فأرسل يستدعيه ، ولما جاء فاجأه عبد الله بك أباظة قائلاً :

– دايما تتأخر يادكتور . . فماذا تفعل لو أصبحت وزيراً ؟

فقال الدكتور :

– لاياسيدى ! الوزارة ترغمنى على حفظ المواعيد ، وَمادام الرئيس يضع ثقته فيّ ويرشحنى لها فلا أقل من أحقق حسن ظنه ، حتى لا يقول أحد : إنه رشح خائباً !

فقال له سعد زغلول :

– مازلت متعلقاً بالوزارة يا دكتور ؟

وقال النقراشى :

– ليكونَ باشا .

فقال محجوب :

– لا يانقرش . . لا أريد الباشوية . . وإلا فن أين أشترى بدلتها ، وثمنها يبلغ الثمانين جنيهاً .

استخلص شوقى هذا الحوار كله . وكتبه فى قصيدة من بدائعه (لم تنشر فى الشوقيات وهى من الشوقيات المجهولة) وجعل عنوانها :

(بين يدى الرئيس)

وقال فيها :

ببيت الأمة اعتقل المطيّا وفى دهليزه أطرق مليّا
وألق سبال ذقنك فيه وانشق تراب الساحة الكبرى ذكيّا

وأد إلى (الجزيرى) التحايا وسله ينل لك الإذن العليا
وحملق فيه حين يهز عطفاً تجد تحت الغلالة سمهريا
وقل لم أدرأنت أم (الجديلى) ألذ تقمصاً وأحب زيّا

يشير شوقى إلى لحية الدكتور محجوب ، فقد كان صاحب لحية كثة شهيرة . أما الجزيرى والجديلى فهما من سكرتارية سعد زغلول ، وكلاهما أزهريان كانا يرتديان الجبة والقفطان ، ثم ارتديا الثياب الإفرنجية بعد ذلك .

ويوجه محجوب ثابت حديثه إلى سعد زغلول قائلاً بشعر شوقى :

برئت إليك من خلطى وخبطى ومما لفق الواشى عليّا
وجئت إليك أشكو من هموم مؤرقة فهل تصغى إليّا؟

وهموم محجوب ثابت المضحكة هى :

لعلك قد علمت وفاة مكسى وكيف مضى وخلف لى عليّا[1]
و(أوفر لاند) أدركها كساح فليت كساحها فى ركبتيا
وخطب الصيدلية كان أدهى وأنكر موقعاً فى مسمعيّا
رحلت وفى العيادة كل شىء وعدت فما وجدت هناك شيّا
ولى مرضى من العمال كثر إذا الأسطى مضى بعث الصبيا
أحررها تذاكر ليس تحصى وما من ذاك شىء فى يديّا!

واشتهرت حكايات الدكتور محجوب ثابت فى مصر ، وتناقلتها الصحف والمجلات ، وأصبحت مما يتلذذ به الناس فى مجالسهم الخاصة . فقد كان يطلب وظيفة رئيسية ، أو أن يعين مدير مستشفى ، حتى شاع وذاع أنه سيعين مديراً لمستشفى المجاذيب ، وكان سليمان فوزى صاحب مجلة الكشكول ينشر هذه النوادر على صفحات مجلته .

---

(١) مكسى هو حصان الدكتور ، وعلى هو سايس الحصان .

وأعجب شوقى بما يدور من فكاهات ، فكتب إحدى بدائعه التى نشرتها مجلة الكشكول فى عدد الجمعة ٢٤ من سبتمبر ١٩٢٦ ، ويقول فيها :

يميناً بالطلاق وبالعتاق ... من الدنيا المعلقمة المذاق
وكل فقارة من ظهر مكسى ... بصحراء الإمام وعظم ساق
وتربته وكل الخير فيها ... ونسبته الشريفة للبراق
وبالخطب الطوال وماحوته ... وإن لم يبق فى الأذهان باق
وكسرى الشعران أنشدت شعراً ... ونطق القاف واسعة النطاق
بوقت ضاعت الأخلاق فيه ... وأصبحت السلامة فى النفاق
أيشتمنى سليمان بن فوزى ... و(بيبى) فى يدى ومعى (تباق)[1]

ثم يقول شوقى على لسان محجوب ثابت الغاضب على سليمان فوزى :

أنا الطيار رجْلٌ فى دمشق ... إذا اشتدت ورجل فى العراق
ألا (طزٌّ) على العيهور (طزٌّ) ... وإن أبدى مجاملة الرفاق
بقارعة الطريق ينال منى ... ويوسعنى عناقاً فى الزقاق
ألم تر أننى أعرضت عنه ... وصار لغير طلعته اشتياق
فسبحان المفرق حظ قوم ... قناطيراً وأقوام أواق
وقوم يرتقون إلى المعالى ... وقوم مالهم فيها مراق
أمور يضحك (السعداء) منها ... ويبكى البلشفى والاشتراق[2]

كان محجوب ثابت أنس المجالس ، وزينة المجتمعات فى عصر شوقى ، كما كانت مقطوعات شوقى التى قالها فيه ، ورويت لها بعضها — من أمتع شعر المداعبات .

هذا هو مسك الختام لهذه الصفحات التى أرجو أن تكون قد أمتعتك .

---

(١) يشير إلى البايب التى كان يدخنها الدكتور وإلى الطباق .

(٢) يعنى الاشتراكى .

فهرس

رقم الإيداع	١٩٧٩/٣٧٣٢
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ٧٨٠ – ١

١/٧٩/٥٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)



